

موسوعة

الشيخ الإسلامي

الشيخ
محمد هادي اليوسفي الفروي

الجزء الأول

أضواء الحوزة
لبنان



مَوْهَبَاتُ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ

مَوْهَبَاتُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ الْإِسْلَامِي

الْعَصْرِ النَّبَوِيِّ - الْعَهْدُ الْمَكِّي

الجزء الأول

طبعة جديدة منقحة ومزينة

تأليف

الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جميع الحقوق محفوظة

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

كلمة

يعتبر التأريخ الإسلامي مصدراً مهماً من مصادر المعرفة الإسلامية باعتبارين.

الأول: أن التأريخ - بشكل عام - ترجمة حقيقية وتعبير واقعي عن الأفكار والآراء والمفاهيم التي تبناها الإنسان على مدى التأريخ فجسدها في سلوكه ونشاطه.

والثاني: أن التأريخ مجموعة تجارب ودروس وعبر كلفت البشرية ضحايا هائلة وطاقات ضخمة، لذلك كان جديراً بإمعان النظر فيه وبذل الجهود الحثيثة لتحليل أحداثه والاهتداء إلى سننه لكي تتوضح للبشرية الحقائق التي ترسم لها خطى السعادة والشقاء.

وتجلت في التأريخ الإسلامي عظمة الإسلام وشموخه وحيويته، فكان مصدراً من مصادر فهم السيرة النبوية فضلاً عن قدرته على التعبير عن التجربة الأولى للإسلام القادر على صنع الإنسان الأمثل والمجتمع الأمثل، ولهذا فهو جدير بالدراسة العلمية الموضوعية المعمقة.

وتتمثل المهمة الأولى لكل باحث في التأريخ الإسلامي في البحث عن المادة الأساسية للتحليل التاريخي بعد أن كان التأريخ بشكل عام والتأريخ الإسلامي بشكل خاص عرضة للإهمال والتحريف بدءاً بمشكلة المنع من تدوين الأحاديث والسنة النبوية الشريفة التي تشكل البنية الأساسية للتجربة الإسلامية الفريدة وانتهاءً بإخضاع المؤرخين ونتائجهم لأهواء الحكام علاوة على المتاجرة بكل ما يمكن نسبته إلى رسول الإسلام ﷺ وصحابته الكرام

من قبل الرواة والمحدثين غير الورعين. فكم من حوادث مهمة لم تدوّن أو دُوّنت مخزلة بحجة الاختصار أو لاستلزامها الطعن ببعض الحكّام من صحابة وتابعين، فأدّت إلى تزيف الحقائق التاريخية وتشويهها بما لا يتناسب وعظمة تأريخنا الإسلامي الوضاء.

ومن هنا كان على الباحث الموضوعي والمؤرخ المحقق أن يقوم قبل كل شيء بنقد موضوعي لكل ما جاء في كتب التأريخ والحديث والتراجم والرجال والتفسير بعد عرضه على العقل السليم ونصوص القرآن الكريم ومحكمات السنة النبوية الشريفة، وهذا ما قام به المحقق المتضلع فضيلة الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي في كتابه هذا (موسوعة التأريخ الإسلامي). إذ اعتمد على التبع اللازم في المصادر الأصلية التي تحتوي على حوادث تاريخية ترتبط بموضوع بحثه، ثم عرضها على القرآن الكريم وأصول السنة الشريفة والعقل السليم، وقد حاول من خلال بحوثه تنفيذ ما أورده المستشرقون ومن حذا حذوهم في تشويه معالم الصورة الإسلامية الناصعة، وتقديم الصورة الأقرب إلى الواقع عن الإسلام من خلال تأريخه المجيد. وهذه هي الحلقة الأولى من هذه الموسوعة وتختص بالعهد المكي من العصر النبوي وسوف يستمر البحث في الحلقات الآتية - إن شاء الله تعالى - عن تأريخ الرسول الأكرم وأهل بيته الطاهرين.

ونحن إذ نبارك له جهده المشكور، نتمنى له التوفيق في مواصلة هذا النشاط المبارك. وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

باسمه تعالى

وصلني كتاب كريم من أخ كريم بشأن الكتاب، فأثرت نشره هنا، شاكرًا:

الشيخ اليوسفي الغروي وكتابه موسوعة التاريخ الإسلامي

أ.د. صلاح مهدي الفرطوسي

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد امتحنني بغربة لا يعرف إلا هو مدى ثقلها، فإنه أنعم عليّ فيها أيضاً بنعم لا أحصيها، تدفني إلى شكره وحمده، ومن بينها أخذه بيدي منذ سنة ونصف إلى رحاب أمير المؤمنين المرتضى عليه السلام، وما زلت حتى الساعة مشغولاً به في كلّ ساعات يقظتي ما بين تأمل وقراءة وكتابة، ولا شكّ أنك على بينة بأن تاريخ الإمام شائك متشابك يصعب على من يريد الدخول إلى بهائه حلّ جميع معضلاته، ولا سيما في بلاد يصعب أن تعثر فيها على مكتبة تُعنى بالتاريخ الإسلامي، وإن وُجدت، فيصعب عليك الوصول إليها لأسباب لا تستطيع تقديرها إلا إذا عانيت الأمرين منها في هذه البلاد.

ومن بين تلك المشكلات بعثه عليه السلام إلى اليمن، إذ تشابكت أخباره واختلطت فيما تحت يدي من مصادر حتى بات من الصّعب فصلها أو تحديد مسار دقيق لمجرياتها، أو ربط مشاهدتها في تسلسل زماني أو مكاني يبدو مقبولاً.

وكان الأستاذ صفاء وديس من الشخصيات العلميّة الفاضلة التي عرفت بها هذه البلاد، ولقد وضعني بمكانة في نفسه لا أستحقها، ووجدت في برّه وشفقته ما لم أجده بالخاصّة من طلبتي، ويوم استغلق عليّ أمر بعث الإمام ذلك استنجدت به كي

ياخذ بيدي إلى كتاب أستعين به، فنصحتني أن أعود إلى موسوعة التاريخ الإسلامي للشيخ اليوسفي الغروي، ومن نكد الغربة أني ما سمعت بالشيخ من قبل، ولا أعرف له عنواناً كي أرسله، ولم تصل نسخة من الموسوعة إلى هذه الديار كي أطلع عليها، وكان أخي الشيخ حسين الفرطوسي قد ترك لي يوم غادر هولندا مجموعة من الكتب التي لم يستطع اصطحابها معه، وتناقلت من الذهاب إلى بيته لأخذها من أسرته، وشاء حسن الطالع أن أذهب لجلبها، وما أسعدني بها يوم وقع بصري على الجزء الأول من الموسوعة بينها، فهالني ما وجدت فيه من معلومات تسدُّ خللاً وتوضح صورة وتغيّر مساراً في غير جانب مما كتبتة حول سيرة الإمام قبل الهجرة، ورأيتة بعين منصفة يفتح لكلّ دارس لتاريخ فجر الإسلام باباً لا أظنه يستطيع فتحه في غيره.

وبسبب من شديد إعجابي بذلك الجزء راودني هاجس السّفر إلى مقرّ إقامة الشيخ، إذ شعرت بحاجة ماسّة إلى التداول معه في أمور كثيرة كان الوسواس قد ركبني فيها أيضاً، ورأيتة - كما حدّثني عنه غير واحد ممن لا اتّهم موضوعيته - من خيرة من يمكن استشارته، فهو من المتبحرين في ميادين الفقه والعقيدة والتفسير، ومن كبار علمائنا المجتهدين، وهو في ميدان التاريخ بين يديّ بعد أن نظرت في كتابه، ولكنّ أموراً لم أستطع دفعها في حينها حالت دون سفري.

ويوم وفقني الله لحجّ بيته الحرام، سألته أن يسعدني بلقائه في الديار المقدّسة، وما أن وطأت قدماي أرض مدينة الرسول المصطفى صلوات الله عليه وآله، وتحلّلت من زيارته وزيارة أهل بيته ﷺ حتى بدأت البحث والتقّصي.

وبعد لأيّ وصلت إليه، ولا أحدثك عن فرحتي بلقائه، ولا عن حسن استقباله وهو لا يعرفني، وكأن الرجل أحسّ بحاجتي لوقت يخصّني به على الرغم من ازدحام وقته، فاندفع إليّ بكلّ هاشأً باشأً بخلق العلماء وسماحتهم.

إنها ذكرى لا تُنسى عدتها في حينها من مكافآت الحج التي شكرت الله عليها وعلى غيرها. وهالني يوم قرأت ما قرأت، إذ وجدتني أمام سفر يحتاج في هذا الزمن الصعب إلى عقود لكتابته، تسبقها عقود من الدرس الجاد والمثابرة والفتنة والذكاء الحادّ وبُعد النَّظر وسعة الأفق، ويحتاج أيضاً إلى مكتبات عدّة متخصصة في علوم شتى.

انماز منهج المؤلف بطريقة بحث تختلف عن الطرائق المألوفة التي اتّبعها مؤرخو السيرة منذ ابن إسحاق وحتى العصر الحديث، إذ حاول ربط كثير من أحداثها بتواريخ نزول الآيات وتسلسلها، في الأجزاء الخاصّة بعصر القرآن، وهي ميزة ما عرفتها عند غيره من الكتّاب، وإن كان الواقدي في مغازيه قد ذكر ما نزل من قرآن في غزوات الرسول صلوات الله عليه وآله بل إنها طريقة في البحث يصعب أن يلتزم بها أي مختصّ بأحداث تلك المرحلة مهما أوتي من العلم إلا إذا كان متفّقهاً تفّقهاً عميقاً بعلوم القرآن وتفسيره، وأسباب نزوله وتاريخه، وكان الباحث منهم لذا استطاع رؤية الأحداث بعين بصيرة جنّبه الوقوع في متاهات رواة السيرة وأخبارها، وفي ذات الوقت بصرّته بالغثّ والسمين منها.

والكتاب فيما أحسب أيضاً جديد من باب آخر، فهو أول دراسة جادة للسيرة النبوية، وعهد الخلفاء الأوّلين من وجهة نظر علماء أهل البيت، إذ استند في كثير من مباحثه على أخبار مروية عن أئمّتهم عليهم السلام، أما غالبية من تعرّض للسيرة أو لبعض أحداثها سواء أكانوا من الشيعة أم السنة كتبوها اعتماداً على روايات كتّاب السيرة القدماء كابن إسحاق وابن هشام والواقدي وابن سعد والبلاذري، ومن خلال ما كتبه المؤرخون القدماء كالطبري والمسعودي وغيرهما، وأضافوا إليها مناقشاتهم لأحداثها من خلال المصادر الأخرى، وكان التركيز في غالبيتها على كتب أهل الحديث، وما جاء فيها من أخبار ومرويات، وجميعها لم تأخذ

بتاريخ النزول أساساً في ربط الأحداث، وإن كانت قد أشارت إليه بين حين وآخر، وكان جلّ اعتمادها على أخبار الرواة.

وليس بخاف عليك أن أخبار السيرة تدخلت رؤى كثيرة في صياغتها حتى أصبح من الصعب على المؤرخ الوصول إلى الحقيقة مجردة من الشوائب، فقد انفرط عقد الصحابة، وكاد ذلك السراج ينطفئ بعد رحيل المصطفى صلوات الله عليه وآله، وانفراطه أدّى إلى صياغة الأحداث بصور تتماشى إلى حدّ كبير مع وجهات نظرهم، ومدى تأثيرهم بأحداث عصرهم، وبميوهم واتجاهاتهم، وهكذا انطمست حقائق كبرى بات من العسير الوصول إليها، ثمّ تدخلت عوامل أخرى شوّهت وجه كثير من الروايات من بعد، يضاف إلى ذلك أنها يوم انتقلت من جيل إلى آخر دخلها بحسن نيّة أو بسوء نيّة كثير من التغيير والتصحيف والتحريف والخلط، بسبب بُدّ عصر التدوين عن عصر السيرة، وكثر الوضع كثرة تجاوزت الأصل، واختلقت أحداث لا أساس لها من الصحّة، ونفخ في أحداث أخرى حتى كادت تتفجر بسبب ما اعتراها من تزوير وتدليس وكذب وبهتان، وهي بمجملها لا تخصّ فرقة من الفرق، ولا حزباً من الأحزاب، ولا عصرأ من العصور، بل إن رواية ملفقة أحياناً تصبح روايات في حقب التاريخ المتعاقبة، وأنت تقرأ كلّ هذه الرؤى في روايات من عصر الصحابة والتابعين ومن تلاهم في كتب التاريخ والسيرة والحديث.

أما تاريخ أمير المؤمنين عليه السلام وسيرته فقد تأمرت أمم من الفئة الباغية على تشويهه منذ رحيل المصطفى صلوات الله عليه وآله إلى قرون متعاقبة من الحكم العباسي الذي كان أشدّ نكداً وظلماً لأهل البيت من الأمويين ومن تابعهم.

وكنّت مذ وعيت الدّرس على بيّنة من هذا الأمر، وكان مادة درسي على طلبة الدراسات العليا لمحاضرات عدّة وأزعم أنها تركت أثراً محموداً في نفوسهم وعلى رسائلهم من بعد.

وإذا كنت قد وقفت بإنعام نظر على مشاهد كثيرة من أجزاء الموسوعة الأربعة التي تؤرخ الأحداث الإسلامية لحين دخول أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة بعد حرب الجمل، فإني بانتظار صدور جزئها الخامس، وأتمنى أن يستمر الشيخ بإصدار أجزاء أخرى يعرض فيها الأحداث لغاية عصر الإمام الصادق عليه السلام في الأقل.

وأزعم أنني رافقت ما صدر من الموسوعة مرافقة دقيقة في غير مشهد، اختلف مع الشيخ في رؤيته أحياناً حتى الخصومة، وأتفق معه في أحيان كثيرة لحدّ الانهار، وأخذ عليه في حين كأني أتصيد له بالماء العكر، وأعجب به في حين آخر حتى لا أجد مناسبة إلاّ تحدّثت عنه حديث تجلّة وإكبار.

ولكي لا أظلم نفسي لا بد من الإشارة إلى أن قراءتي لم تكن عادلة ولا موضوعية لأنها قامت بين رؤيتين رؤية المؤلف تبخّرت بقراءة المصادر الدينية من فقه وتفسير وعقيدة فوعتها وعي اجتهادها، بالإضافة إلى تبخّرها بقراءة المصادر التاريخية، وبين رؤيتي التي ابتعدت عن كلّ ذلك بسبب ظروف نشأتها العلمية واختصاصها، فقد تركّز اهتمامي منذ عقود على قراءة كتب الأدب واللغة والمعجمات والكتابة عنها وتحقيق بعضها، وعلى الدراسات الصرفيّة والكتابة عنها، أما الدراسة التاريخية فأنا ضيف عليها وعلى مصادرها، لذا فإن ما أراه يبتعد عن الواقع أحياناً يراه الشيخ من صميمه، يضاف إلى هذا أنه في موسوعته حاول تقديم وجهة نظر علماء أهل البيت التي حدّثتك عن مدى الحاجة إليها، وهي في أحيان ليست قليلة لا تلتقي مع رؤية كتاب السيرة من القدماء والمحدثين وخاصة الذين اعتمدوا على مدرسة أهل الحديث في كتابتهم أو تثقّفوا عليها.

على أن منهجه لم يُبعده كثيراً عن كتاب أهل الحديث، وإنما التقاهم في غالبية الروايات التي ليس فيها من خلاف، كما التقاهم في الروايات التي لا يودّون النظر فيها على الرغم من واقعيتها وصدقيتها سنداً ومتناً، فنظر فيها، وأزاح عنها القذى

بما لا يقبل الشك لصاحب العين البصيرة، وكان من همومه إزاحة الكدر الذي خيم على حقوق كثيرة هُدرت لأسباب أشرنا إليها، أو لأسباب أخرى تتعلق بأفق الفقيه المتبحر في التاريخ إذا أراد دراسته.

وهو في درسه لا يرى مبرراً للنظر إلى نصوص السيرة بتقديس إلا إذا قوّمت تقويماً سليماً ووُزنت بميزان الاعتبار فصحت بما لا يقبل الشك، وميزان الاعتبار عنده أن تُعرض على القرآن الكريم، فما وافق كتاب الله منها قبل، وما خالفه رُفض، وبالاكتفاء على القرآن تتحدّد معالم شخصيّة الرسول، فإذا انسجم النصّ مع صفاته القرآنية أخذنا به، وإن كانت الأخرى رفضناه دون تردد، «وإلا فكيف ننسب إلى هذه الشخصيّة أنه حمل حليته عائشة على متنه لتشهد أغاني السودان؟! أو أنه شرب النبيذ؟! أو أنه بال قائماً؟! أو أنه شكّ في نبوّته؟! أو أنه أثنى على الأوثان تقريباً للمشرّكين إلى نفسه». وبالاقتداء بالقرآن الكريم «الذي إنما يخاطب أولى الألباب والعقول» يكون الموقف من جميع القضايا التاريخية.

والشيخ في موسوعته يشاكس كتاب السيرة في مواقف كثيرة، فهو حينما يقف على رواية يراها تصطدم مع روايات علماء أهل البيت الموثوقة، أو التسلسل الزمني والمكاني لنزول القرآن لا يغيض النظر عنها، وإنما يشبعها بحثاً ومناقشة كي يأخذ بيد قارئه إلى الحقيقة أو يقربه منها. وهو أيضاً لا يتعصّب لرواية مهما كان مصدرها إذا شكّ في صحتها، سواء أكانت من روايات علماء أهل البيت أم من روايات مدرسة أهل الحديث.

إنّ كتابه على الرغم من صفحاته التي تجاوزت في كلّ جزء الثمانمائة لا يترك لك فرصة كبيرة لتركه، فكلّما حاولت أخذ بيدك إلى موضوعاته الجديدة بالمراجعة، بل أنت كلما نظرت في فصل من فصوله معتقداً أنك مطلع على ما ورد فيه يفاجئك بأشياء كثيرة جديدة بالنظر والمراجعة، وإذا كنت ساقف معك في هذه العجالة على

الجزء الأول منه فهذا لا يعني إهمال بقية الأجزاء، ولكن أمر عرضها يحتاج إلى أناة تستحقها، فليس كل يوم نقف على كتاب بهذا العمق، وعلى كاتب بهذه الموسوعية. وأنت حينما تقرأ ذلك الجزء تخرج بتسلسل تاريخي في كثير من أحداثها يختلف إلى حد كبير مع تسلسلها عند أصحاب السير، وإذا كانت مصادره الأساس هي كتب علماء أهل البيت، فإنه لم يهمل مصدراً من مصادر أهل الحديث، بل إنها تتماشى جنباً إلى جنب مع مصادره، بل إنك تشعر حينما تنظر في هوامش بحثه أنه لم يترك مصدراً قديماً أو حديثاً يمكن الإفادة منه إلا وقد اطلع عليه وأفاد منه.

فمصادر الجزء الأول تجاوزت المائتين بكثير، كما أن صفحاته تجاوزت الثمانمائة وستين، قسمها تقسيماً يدعوك إلى قراءته إذا نظرت في التقديم الذي وضعه بين يديه، إذ شوقك إلى ما ينبغي على كاتب التاريخ اتباعه في دراسته، وحشد لك فيه موضوعات كلها جديدة بالنظر حول التاريخ قبل الإسلام وبعده، وحول تدوين السيرة وكتابتها والأثر الباقي منها، وحول ما قام به ابن هشام في سيرة ابن إسحاق، وحول مغازي الواقدي، وحول كتب السيرة والخلاف فيما بينها، ثم قدم تصوراً لشرائط دراسة التاريخ، وكيفية تقويم النصوص، واستدراك ما فاتها، ثم كيفية رفع الركام عن معالم الحق التي طمست، ثم منهجه في الدراسة، وقد أفاد الباحث في تقديمه من مصادر كثيرة في مقدمتها دراسة المستشرق الدكتور مارسدن جونس الرائعة التي قدم بها كتاب مغازي الواقدي.

وقسم الباقي من صفحات الجزء الأول التي قاربت الثمانمائة على عشرة فصول، تناول في الفصل الأول البيئة العربية قبل الإسلام، وقد قاربت صفحات هذا الفصل المئة والسبعين، أغناها بالمباحث المهمة التي من بينها مبحث الجاهلية في القرآن الكريم، ومبحث الجاهلية في نهج البلاغة الذي لم أقف على ما يقاربه عند غيره، بالإضافة إلى مباحث أخرى كثيرة تتعلق بدول العصر ودياناته وأحداثه

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وعلاقات الجزيرة بما جاورها، ودرس كل ذلك من خلال كتابات المؤرخين والأخباريين القدماء منهم والمحدثين، ولكنه أهمل كتابات المستشرقين والآثاريين، ولا سيما كتاب ولفنسن حول تاريخ اللغات السامية، وكاد يهمل كتاب مؤرخ العصر لأستاذنا البحر جواد علي، فلم يلتفت إليه إلا في موقف عابر حول تفشي المجوسية بين بعض القبائل العربية، في الوقت الذي وقف فيه وقفات كثيرة مع كتاب العصر الجاهلي لأستاذنا طيب الذكر الدكتور شوقي ضيف.

وسلّط الضوء في الفصل الثاني على نشأة النبي الكريم صلوات الله عليه وآله منذ ولادته إلى انتقال المرتضى لبيته وكفاله وما دار حولها من أخبار.

ودراسة أخبار هذه الحقبة من الزمن والحقبة التي سبقتها يكتنفها الغموض في أغلب جوانبها على الرغم من كثرة ما كتب عنها، وتحيط بها حكايات كثيرة تراوح بين الأسطورة والواقع، ومن الصعب التوثق من صحتها لا في كتب مدرسة أهل الحديث ولا في كتب مدرسة أهل البيت، ولا في كتب الآثاريين والمؤرخين، لأسباب لسنا بصدد بحثها، ولكن الأحداث تبدو أكثر وضوحاً واقترباً إلى الواقع على الرغم من شديد اختلاطها حينما تصل إلى حكاية حفر بئر زمزم.

وكان من مباحث الفصل الثاني المهمة مبحث عمر خديجة رضوان الله عليها يوم تزوجها الرسول.

ومبحث تاريخ ميلاد الزهراء عليها السلام، وما ورد فيه من اختلاف يصل إلى عشر سنوات بين مدرسة أهل الحديث وبين مدرسة أهل البيت، فذكر ما ورد من أخبار أهل البيت حول ولادتها عليها السلام، وما ورد عن غيرهم، ومن بين الروايات التي ذكرها رواية عن الشيخ المفيد التي ذهب فيها إلى أن ولادتها كانت (سنة اثنتين من المبعث)، وقال: «وتبعه تلميذه الشيخ الطوسي فقال في المصباح: في اليوم العشرين

من جمادى الآخرة سنة اثنتين من المبعث كان مولد فاطمة في بعض الروايات». ويبدو أن الشيخ يقترب إلى ما ذكره الشيخ المفيد، إذ قال: «كل ذلك مما يؤيد أو يدل على كون ولادتها بعد البعثة». ويبدو أن رواية الشيخ المفيد تقترب إلى الواقع أكثر من غيرها من خلال مقارنة عمرها الشريف بما روي من مواقفها عليها السلام مع الجوار القرشي الدّنس وما فعله بالمصطفى بعد رحيل أبي طالب رضوان الله عليه. ومن المباحث المهمة أيضاً مبحث انتقال المرتضى إلى بيت أخيه المصطفى عليه السلام، وعلى الرغم من اتفاق الروايات على أن السبب يعود إلى ضائقة أُمّت بأبي طالب، وبسبب كثرة عياله اقترح المصطفى على عمّه العباس التخفيف عن عمّه فاختار المصطفى علياً واختار العباس جعفر بن أبي طالب، وقد استغرق الفصلان مع التقديم ثلث الجزء الأوّل تقريباً.

وتناول في الفصل الثالث البعثة النبوية المباركة، وكانت مباحثه كلّها مهمة بسبب معالجاتها التي قدّمت الروايات المعتبرة عن أهل البيت على غيرها، دون إهمال للمصادر التاريخية الأخرى، وكان من بين مباحثها المهمة مبحث ما نزل من القرآن في دور كتمان الدعوة، ومبحث الإسراء والمعراج، وحديث الإنذار الذي ما زال محل شدّ وجذب بين المدرستين وغيرها.

أما الفصل الرابع، وهو في غاية الأهمية أيضاً فقد تناول فيه مرحلة الدعوة العلنية ثمّ انتقل إلى دراسة تاريخ نزول كثير من السور مع ربط الأحداث بها، وذكر ما نزل منها في مرحلة الدعوة السريّة، وما نزل منها في المرحلة العلنية، ولا أشكّ في أن البحث بتاريخ النزول قد استغرق منه جهداً هائلاً إذ اضطره فيما أحسب إلى إنعام النظر بجميع كتب التفاسير، وبجميع الدراسات التي تناولت تاريخ القرآن، بالإضافة إلى كتب التاريخ والسيرة التي أرّخت للأحداث، وكان الباحث فيها حاضراً واعياً مجتهداً لا يستقرّ على رأي دون أدلة قويّة يركن إليها.

أما الفصول الثلاثة التي تليه فقد خصّها للإسراء والمعراج وما ندرج بعده من أحداث، والهجرة إلى الحبشة، وأخبار المقاطعة وصحيفتها، ووفاة أبي طالب وخديجة رضوان الله عليهما، وما رافق كلّ ذلك من أحداث، وهجرته صلوات الله عليه وآله إلى الطائف، مع دراسات لبعض السور القرآنية ومناسبات نزولها.

وتناول في الصول الثلاثة الباقية بيعة العقبة، فذكر أخبارها ومن شارك فيها، وأنت تقف في هذا المبحث على رؤى جديدة لا تراها في كتب السيرة المتداولة، ثمّ تحدّث أيضاً عن مؤامرة قريش على قتل النبي، ومبيت المرتضى في فراشه، وكيفيّة هجرة المصطفى صلوات الله عليه وآله إلى المدينة، وخروج علي من بعد بالفواطم، وتقف في هذا المبحث على رؤى لا تقف عليها بهذا الوضوح والتوثيق عند كتاب السيرة من مدرسة أهل الحديث.

لقد أعادني المؤلف في كتابه هذا إلى جيل الرواد من الكتّاب العظام الذين حينما ننظر إلى مؤلفاتهم الموسوعية تأخذنا الحيرة والدهشة من طول أناتهم وصبرهم على كتابتها، ولا أشك في أن كتابه هذا سيحتسب ثوابه في ميزان حسناته، وسيبقى مصدراً مهماً من بعد لأجيال من الكتّاب والمؤرخين، وإني في الوقت الذي أشدُّ على يده القويّة مهنئاً أسأل الله سبحانه وتعالى أن يمنّ عليه بالعمر المديد كي يتحف المكتبة الإسلامية بكتب أخرى تزيل قذئ، وتجلبو حقيقة، وتُظهر حقّاً.

أ.د. صلاح مهدي الفرطوسي

عضو مجمع دمشق - هولندا

تقديم

كيف ينبغي أن ندرس تاريخ الإسلام

التاريخ قبل الإسلام:

لم يكن للناس قبل الإسلام مادة للتأريخ، اللهم إلا ما توارثوه بالرواية، مما كان شائعاً بينهم من أخبار آبائهم وأجدادهم وأنسابهم وشعوبهم وقبائلهم وملوكهم، وما في حياة أولئك من قصص فيها البطولة والكرم والوفاء، وما كان من خبر الأسر التي تناوبت الإمرة على الناس وما قاموا به من تجهيز الجيوش وإقامة الحروب وبناء المدن والقصور، إلى أمثال ذلك، مما قامت فيه الذاكرة مقام الكتاب واللسان مقام القلم، يعي الناس منه ويحفظون ثم يؤدّونها كما هي أو بإضافة أو نقيصة، وكثيراً ما كان بإضافات وتحريفات.

كان هذا عند الفرس المجوس، واليهود الإسرائيليين، والعرب الجاهليين المشركين، واختص هؤلاء بأخبار الجاهلية الأولى وأنسابها، وما فيها من قصص عن البيت وزمزم وجُرهم، وما كان من أمرها، ثم ما كان من خبر الأسر التي تناوبت الزعامة والإمرة على قريش، وما جرى قبل ذلك لسد مأرب في اليمن، وما تبعه من تفرّق الناس في البلاد.

التاريخ بعد الإسلام:

ثم ظهرت الرسالة المحمدية بصفاتها أعظم حادث في حياة البشر عامة والعرب خاصة، فكان محور تاريخ البشر عامة والعرب خاصة، فما اجتمع ملائمتهم أو تفرق إلا وحدثهم عنه، ولا تحركت جيوشهم وكتائبهم إلا له أو عليه، حتى تتوجت جهوده بمعنى قوله سبحانه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿ فنبدوا ما كانوا فيه من الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء بهداية القرآن والإسلام.

ويومئذ وبظهور النبي ﷺ وظهور دعوته، ظهر مورد جديد للتاريخ، وهي أحاديث الصحابة والتابعين وأهل بيته عليهم السلام عن ولادته وحياته، وما قام به ﷺ من جهاد وجهود في سبيل الله، واصطدام في ذلك مع المشركين، ودعوة إلى التوحيد، وما كان فيها من أثر للسيف والسنان واللسان والبيان، وأصبحت هذه هي مواد التاريخ الجديد بصورة عامة وسيرة الرسول بصورة خاصة.

تدوين السيرة النبوية وتاريخ الإسلام:

ولم يدون في تاريخ الإسلام أو في سيرته ﷺ شيء، حتى مضت أيام الخلفاء، لم يدون في هذه المدة شيء سوى القرآن الكريم وتقويم إعرابه بمبادئ وقواعد النحو على يد أبي الأسود الدؤلي بإملاء أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام، وقد كان رسول الله ﷺ يحفز المسلمين على كتابة القرآن حرصاً على حفظه وصيانته، كما إن تفشي العجمة على السنة أبناء العرب على أثر اختلاطهم بغيرهم عند اتساع الرقعة الإسلامية دفعت أبا الأسود الدؤلي إلى عرض ذلك على علي عليه السلام فكان ذلك حافزاً على تدوين النحو.

وبهذا الاختلاط أيضاً تفشت فيهم أخبار الماضين من ملوك الفرس وبني

إسرائيل، فلما كانت أيام معاوية أحب أن يدوّن في التاريخ القديم كتاب فاستقدم عبيد بن شريّة من صنعاء اليمن فكتب له كتاب أخبار الماضين من ملوك اليمن من العرب البائدة وغيرهم ومنهم الفرس والحبشة^(١).

وقد كان المسلمون يحبّون أن يخلّدوا آثار ما يتعلق بسيرة الرسول ﷺ، وقد كان هذا يحقق ما في نفوسهم من تعلق به - عليه وآله الصلاة والسلام -، ولكنهم - ببالغ الأسف - منعوا عن تدوين أحاديثه مخافة أن يختلط الحديث بالقرآن الكريم - كما زعموا -، بل منعوا حتى عن التحديث بحديثه، حاشا أمير المؤمنين علياً عليه السلام، فإنه لم يشارك في هذا المنع ولم يؤيده، بل كما أملى النحو على كاتبه أبي الأسود الدؤلي كتب هو أيضاً بعض الكتب في الفقه والحديث، وأمر كاتبه الراتب عبيد الله بن أبي رافع أن يكتب المهم من أقضيته، وأحكامه في فنون الفقه من الوضوء والصلاة وسائر الأبواب^(٢).

وبهذا الموقف من أمير المؤمنين عليه السلام، وبفعل حاجة المسلمين إلى أحاديث نبّهم ظهر فيهم غير واحد من حملة الأحاديث العلماء الفقهاء، ولكن حيث استمر هذا المنع رسمياً من قبل الخلفاء بعد علي وابنه الحسن عليه السلام إلى أيام عمر بن عبد العزيز، قام رجال كلّهم محدّثون، لم يدوّنوا في الحديث والفقه شيئاً، ولكنهم عوّضوا عن كتابة أحاديثه بكتابة شيء من سيرته ﷺ.

أصول السيرة النبوية وتطورها في القرنين الأول والثاني:

لا شك في الأهمية الكبرى التي كانت لأقوال النبي ﷺ وأعماله في حياته، وأكثر منها بعد وفاته.

(١) أنظر مروج الذهب ٢: ٦٠ - ٦٢ و ٢٥١.

(٢) أنظر رجال النجاشي: ٤ - ٧.

ومن الطبيعي أن تورث هذه الأهمية عناية بتدوين تفاصيل حياته وجمع الأخبار والأحاديث عنه عليه السلام.

وطبيعي أيضاً أن تكون القصص الشعبية عن سيرته موجودة في حياته معتنى بها - كحال الناس في العناية بقصص الأنبياء من قبل -.

وطبيعي أيضاً أن يكون بعض الصحابة والتابعين قد تفوَّق على أقرانه في علمه بسيرته و مغازيه .

كتاب السيرة الأوائل:

إنَّ أوَّل من صنَّف في السيرة هو عُروة بن الزبير بن العوام (م ٩٢ هـ).

وذكر ابن سعد في كتابه «الطبقات» ما يفيد: أنَّ أوَّل من تخصَّص فيها هو أبان

بن عثمان بن عفَّان (م ١٠٥ هـ)، روى بعضها عنه المغيرة بن عبد الرحمن.

ثم تنبَّه إلى جمع أخبارها والتحديث بها وهب بن منبه اليماني (م ١١٠ هـ).

ثمَّ عاصم بن عمر بن قتادة (م ١٢٠ هـ) الذي يروي عنه ابن إسحاق بعض

أخبار سيرته كخبره عن دعاء النبي للاستسقاء في طريق تبوك، وكثرة النِّفاق.

ثمَّ شرحبيل بن سعد الشامي (م ١٢٣ هـ).

ثمَّ عبد الله بن أبي بكر بن حزم القاضي (م ١٣٥ هـ) الذي طلب منه عمر بن

عبد العزيز أن يكتب إليه ما عنده من الأحاديث فنشرها بين الناس.

ثمَّ موسى بن عُقبة (م ١٤١ هـ).

ثمَّ معمر بن راشد (م ١٥٠ هـ).

ثمَّ مُحَمَّد بن إسحاق بن يسار المدني - وقيل بشار - بن خيار من سبي عين ثمر

بالعراق (م ١٥٣ هـ).

ثمَّ راويته زياد بن عبد الملك البكَّائي الكوفي العامري (م ١٨٣ هـ).

ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِ بْنِ وَقْدٍ الْمَعْرُوفِ بِالْوَاقِدِيِّ صَاحِبِ كِتَابِ الْمَغَازِي (م ٢٠٧هـ).

ثُمَّ رَاوِيَةُ ابْنِ زِيَادِ الْبَكَّائِيِّ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ: عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ هِشَامِ الْحِمْيَرِيِّ الْيَمِينِيِّ الْبَصْرِيِّ (م ٢١٨هـ).

وَلَمْ يَصْلُنَا مِنْ كُتُبِ هَؤُلَاءِ شَيْءٍ سِوَى سِيرَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ بِرَوَايَةِ ابْنِ هِشَامٍ عَنِ الْبَكَّائِيِّ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَمَغَازِي الْوَاقِدِيِّ، اللَّهُمَّ إِلَّا رَوَايَاتٍ فِي طَيِّبَاتِ أُمَّهَاتِ الْمَصَادِرِ التَّارِيخِيَّةِ فِيمَا بَعْدَ.

المؤرخون الأوائل:

وَالِإِلَى جَانِبِ هَؤُلَاءِ ظَهَرَ مَنْ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَخْبَارِ سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ، بَلْ جَمَعَ إِلَيْهَا أَخْبَارَ الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ أَخْبَارَ الْخُلَفَاءِ بَعْدَهُ، أَوْ جَمَعَ أَخْبَارَ بَعْضِ الْخُلَفَاءِ، أَوِ الْأُئِمَّةِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَطْ، فَكَانُوا مُؤَرِّخِينَ بِالْمَعْنَى الْعَامَّةِ.

مِنْهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ السَّائِبِ الْكَلْبِيُّ الْكُوفِيُّ النَّسَابَةُ (م ١٤٦هـ).

وَأَبُو مَخْنَفٍ لَوْطُ بْنُ يَحْيَى الْأَزْدِيُّ الْكُوفِيُّ (م ١٥٧هـ).

وَهِشَامُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْكَلْبِيُّ الْكُوفِيُّ (م ٢٠٦هـ).

وَنَصْرُ بْنُ مُزَاهِمٍ الْمَنْقَرِيُّ الْكُوفِيُّ (م ٢١٢هـ).

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلِمٍ بْنُ قَتَيْبَةَ الدِّينُورِيُّ (م ٢٧٤هـ).

وَأَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ جَابِرٍ الْبَلَاذِرِيُّ (م ٢٧٩هـ).

وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الثَّقَفِيُّ الْكُوفِيُّ الْإِسْبَهَانِيُّ (م ٢٨٣هـ).

وَأَبُو الْفَرَجِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْأُمَوِيُّ الْإِسْبَهَانِيُّ (م ٢٨٤هـ).

وَأَحْمَدُ بْنُ وَاضِحٍ بْنُ يَعْقُوبَ الْبَغْدَادِيُّ (م ٢٩٢هـ).

وَمُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ (م ٣١٠هـ).

وعلي بن الحسين المسعودي البغدادي (م ٣٤٦هـ).
ومحمد بن محمد بن النعمان التلعكبري المفيد (م ٤١٣هـ).

الأثر الباقي في السيرة:

عرفنا أن الكتابة في سيرة رسول الله ﷺ كانت قد حصلت في التابعين وتابعي التابعين، كما رأينا قائمة أسمائهم وتواريخ وفياتهم، ولكنها لم تكن كثيرة، بل هي مهما أطلنا الحديث عنها كانت قليلة جداً، لاتعدو أن تكون صُحفاً فيها بعض الأخبار عن سيرة المختار ﷺ.

أمّا الكتاب الذي كُتبت له الموقية والنجاح وشهرة الاعتماد والوثوق فهو سيرة محمد بن إسحاق، التي ألفها في أوائل أيام العباسيين.

ذكر الخطيب: أنه دخل يوماً على المنصور وبين يديه ابنه المهدي، فقال له المنصور: أتعرف هذا يابن إسحاق؟ قال: نعم، هذا ابن أمير المؤمنين: فقال: اذهب فصنّف له كتاباً منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى يومك هذا. فذهب ابن إسحاق فصنّف له الكتاب وأتاه به فلما رآه قال: لقد طوّلت يابن إسحاق فاذهب فاختره. فاختره، وألقى الكتاب الكبير في خزانة الخليفة^(١).

وفي هذا المعنى رُوِيَ عن ابن عدي الرّجالي المعروف أنّه كان يقول في ابن إسحاق: «لو لم يكن لابن إسحاق من الفضل إلا أنّه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء للاشتغال بمغازي رسول الله ﷺ ومبعثه ومبتدأ الخلق لكانت هذه فضيلة سبق بها ابن إسحاق، وقد فتّشت أحاديثه الكثيرة فلم أجد ما تهين أن يُقطع عليه بالضعف، ورُبّما أخطأ وأتهم في شيء كما يخطيء غيره.

(١) أنظر تاريخ بغداد ١: ٢٢١ و ٧: ٢٤٥.

ولم يتخلف في الرواية عنه الثقات والأئمة الاثبات، أخرج له مسلم في المباحثات، واستشهد به البخاري في مواضع، وروى له أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه^(١).

ثم أصبح ابن إسحاق في الحقيقة عمدة المؤلفين في السيرة، فما من كتاب في السيرة إلا وهو مستمد منه وراوٍ عنه، اللهم إلا ما نأتي عليه من مغازي الواقدي ورواية كاتبه ابن سعد عنه، وما روي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وكذلك أصبح كتاب ابن إسحاق عمدة الكتب في السيرة لقراءتها منذ أن كتبه إلى يومنا هذا ولا سيما بعد تهذيبها من قبل ابن هشام - بحيث أنك لا تكاد تجد رجلاً يدرس سيرة الرسول الكريم إلا وكتاب ابن إسحاق كتابه الأول والأم في ذلك.

عمل ابن هشام في سيرة ابن إسحاق:

وقد جاء بعده عبد الملك بن هشام الحميري البصري (ت ٢١٨هـ) بنصف قرن تقريباً، فروى سيرة ابن إسحاق برواية زياد بن عبد الملك البكائي العامري الكوفي (ت ١٨٣هـ) ولكنه لم يروها كما هي بل تناولها بكثير من التمرير والاختصار والاضافة والنقد أحياناً، والمعارضة بروايات أخر لغيره، عبّر عن أعماله هذه بقوله في صدر سيرته: «وانا - إن شاء الله - مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم، ومن ولد رسول الله من ولده، أولادهم لأصلابهم الأول فالأول من إسماعيل إلى رسول الله، وما يعرض من حديثهم - وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل للاختصار - إلى حديث سيرة رسول الله. وتارك بعض ما يذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله فيه ذكر ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء

من هذا الكتاب ولا تفسيراً له ولا شاهداً عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به (!) وبعض يسوء بعض الناس ذكره (!) وبعض لم يَقَرِّ لنا البكائي بروايته (?) ومُسْتَقْصٍ - إن شاء الله تعالى - ماسوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به»^(١).

إذن فقد أسقط ابن هشام من عمل ابن إسحاق: تأريخ الأنبياء من آدم إلى إبراهيم، ومن ولد إسماعيل مَنْ ليس في عمود النسب النبوي الشريف، كما حذف من الأخبار ما يسوء بعض الناس! ومن الشعر ما لم يثبت لديه. ولكنه زاد فيه بما ثبت لديه من رواية، ولذلك نُسبت السيرة إليه وعُرفت به، حتى لا يكاد يذكر ابن إسحاق معه، فقد عُرفت سيرة ابن إسحاق بين العلماء مُنْذُ عهد بعيد باسم سيرة ابن هشام، لما له فيها من رواية وتهذيب.

وبهذا الصدد قال ابن خلكان في ترجمة ابن هشام: «وابن هشام هذا هو الذي جمع سيرة رسول الله من المغازي والسير لابن إسحاق وهذبها ولخصها، وهي السيرة الموجودة بأيدي الناس المعروفة بسيرة ابن هشام».

ولم تنقطع العناية بالتأليف في السيرة إلى يومنا هذا، إلا أن الموضوع في ذاته ليس أمراً يقوم على التجارب، أو فكرة يقيمها برهان وينقضها برهان، شأن النظريات العلمية التي نرى تجديدها وتغييرها على مرّ السنين، وإنما هو من العلوم النقلية لا العقلية، فكان المشتغلون به أولاً محدّثين ناقلين، ثُمَّ جاء مَنْ بعدهم جامعين مبوّبين ثُمَّ ناقدين معلقين. ولم يكن قابلاً للتجديد في جوهره، إلا بمقدار قليل حسب النقد الدقيق، وإنما كان التجديد في أشكاله وصوره شرحاً أو اختصاراً، أو شيئاً من النقد قليلاً مشيراً إلى ما فيه من أخطاء.

ولعلّ الذين تناولوا السيرة بالتلخيص والاختصار، إنّما خَفَّفُوا من ثقل الكتاب بعض أخباره تلك التي استبعدوها غير مؤمنين بصحّتها، ناقلين من الأخبار ما يرون فيه القرب من الحقّ، ومستبعدين ما لا يجري في ذلك مع فكرتهم وعقيدتهم مفنّدين إياه راذّين له.

ولعلّ من علل انتشار أخبار ابن إسحاق ثمّ كتابه في السيرة كثرة رحلاته، فالراجح في تاريخ مولده في المدينة أنّه كان سنة ٨٥هـ ولا يرتاب الرجاليون وأصحاب الطبقات في أنّه أمضى شبابه في المدينة فتىً جميلاً «فارسي الخلقة» جذاب الوجه له شعرة حسنة ولذلك حكى ابن النديم بشأنه في فهرسته: أنّه اتّهم بأنّه يجلس في مؤخر المسجد للصلاة فيُغازل بعض النساء، فأمر أمير المدينة بإحضاره و ضربه اسواطاً ونهاه عن الجلوس في مؤخر المسجد. ولعلّه لهذا لم يزو عنه من أهل المدينة غير راوٍ واحدٍ هو إبراهيم بن سعد فحسب^(١).

ولعلّه لهذا رحل منها سنة ١١٥هـ أي في الثلاثين من عمره إلى الاسكندرية في مصر، ويظن أنّها أولى رحلاته، فانفرد برواية أحاديث عن عدةٍ من رجال الحديث بها.

ثمّ رحل إلى الكوفة والحيرة، ولعلّه بها التقى بالمنصور فصنّف لابنه المهدي كتاب السيرة كما سبق، فرواها عنه زياد بن عبد الملك البكّائي العامري وغيره، ورحل إلى الجزيرة أي الموصل، والرّي حتّى إذا بُنيت بغداد فرجع إليها وفيها ألقى عصا الترحال، وله من كلّ هذه البلدان رواة كثيرون. وعاش في بغداد حتّى توفي بها فدفن في مقابر الخيزران.

وقد كان ابن إسحاق يُعَدُّ في طبقة تلامذة عبد الملك بن شهاب الزُّهري وأقرانه، وله عنه روايات، ونقل أصحاب الطبقات أنّ شيخه ابن شهاب الزُّهري

لم يكن يتهمه بشيء بل كان يوثقه، وتبعه في توثيق ابن إسحاق من الفقهاء الأئمة: سفيان الثوري وشعبة، بالإضافة إلى راويته زياد ابن عبد الملك البكائي عنه. وإن كان هشام بن عروة بن الزبير من رواة السيرة، ومالك بن أنس من أئمة الفقهاء يتحاملان عليه بالجرح والتضعيف ويتهمانه بالكذب والدجل والتدليس، والقول بالقدر، والنقل عن غير الثقات، وأخطاء في الأنساب. ولكن لعله لأن ابن إسحاق كان يطعن في نسب مالك وعلمه ويقول: إيتوني ببعض كتبه حتى أبين لكم عيوبه، فأنا بيطار كتبه^(١)! إذن فالحملة متقابلة من الطرفين، والتضعيف ضعيف لأنه معلوم الوجه والعلة «الشخصية».

مغازي الواقدي:

أمّا الواقدي محمد بن عمر بن واقد مولى بني سهم، فقد ذكر تلميذه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» أنه ولد في المدينة سنة ١٣٠ هـ أي بعد خروج ابن إسحاق منها بخمسة عشر عاماً، ولذلك لم يزو عنه وإن كان قد روى عن سائر رواة الأخبار عن الزهري، مع تشابه كبير بين فقرات كتاب السيرة لابن إسحاق وكتاب المغازي للواقدي، ولذلك زعم مستشرقان هما (فلهوزن وهورفتس) أنه سرق منه ولم يسنده إليه، وقد زعمهما مستشرق آخر هو (مارسدن جونسن) محقق المغازي كما في مقدمته للكتاب^(٢) ثمّ احتمل أن يكون الواقدي قد أعرض عن الرواية عن ابن إسحاق نظراً إلى عدم توثيق علماء المدينة له^(٣).

(١) راجع ترجمته وهذه الأقوال في الكامل في الضعفاء لابن عدي ٦: ١٠٢ - ١١٢.

(٢) مغازي الواقدي ٢: ٢٩.

(٣) بل مرّ أنه رحل عن المدينة شاباً قبل تأليفه السيرة فلم يروها عنه من أهل المدينة أحد، فلم يرو عنه الواقدي.

ثُمَّ قال: يبدو واضحاً للقارئ الحديث أن من أهم السمات التي تجعل الواقدي في منزلة خاصة بين أصحاب السير والمغازي تطبيقه المنهج التاريخي العلمي الفني، فإننا نلاحظ عند الواقدي - أكثر مما نلاحظ عند غيره من المؤرخين المتقدمين - أنه كان يرتب التفاصيل المختلفة للحوادث بطريقة منطقية لا تتغير، فهو مثلاً يبدأ مغازيه بذكر قائمة طويلة من الرجال الذين نقل عنهم تلك الأخبار ثُمَّ يذكر المغازي واحدة واحدة مع تأريخ محدد للغزوة بدقّة، وغالباً ما يذكر تفاصيل جغرافية عن موقع الغزوة، ثُمَّ يذكر المغازي التي غزاها النبي بنفسه، وأسماء الذين استخلفهم على المدينة أثناء غزواته، وأخيراً يذكر شعار المسلمين في القتال، كل ذلك بالإضافة إلى وصفه لكل غزوة بأسلوب موحد: فيذكر أولاً اسم الغزوة وتاريخها وأميرها.

وكثيراً ما يقدم لنا الواقدي قصة الواقعة بإسناد جامع، أي يجمع الرجال والأسانيد في متن واحد. وإذا كانت الغزوة قد نزل فيها آيات كثيرة من القرآن الكريم، فإن الواقدي يفرد لها وحدها مع تفسيرها ويضعها في نهاية أخبار الغزوة، وفي المغازي المهمة يذكر الواقدي أسماء الذين استشهدوا فيها.

وإنّ ما أورده في الكتاب من التفاصيل الجغرافية ليسوحي بمجده ومعرفته للدقائق في الأخبار التي جمعها في رحلته إلى شرق الأرض وغربها طلباً للعلم^(١). وقد روى الخطيب البغدادي وابن سيد الناس^(٢) عن الواقدي أنّه قال: ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا سألته: هل سمعت أحداً من أهلك يُخبرك عن مشهده وأين قتل؟ فإذا أعلمني مضيت إلى الموضع فأعانيه، وما عَلِمْتُ غزاة إلا مضيت إلى الموضع فأعانيه، حتّى لقد مضيت إلى «المريسيع» فنظرت إليها.

(١) مقدمة المحقق للمغازي ١: ٣١.

(٢) تاريخ بغداد ٣: ٦، وعيون الاثر ١: ١٨.

وروا عن هارون الغروي قال: رأيت الواقدي بمكة ومعه ركوة فقلت: أين تريد؟ قال: أريد أن أمضي إلى حنين حتى أرى الموضع والوقعة.
ويشهد لنباهة الواقدي بهذا الشأن ما قصّه تلميذه وراويته ابن سعد في الطبقات:

إنّ هارون الرشيد ويحيى بن خالد البرمكي حين زارا المدينة في حاجتهما، طلبا من يدهما على المشاهد وقبور الشهداء، فدلّوهما على الواقدي، فصحبهما في زيارتهما فلم يدع موضعاً من المواضع ولا مشهداً من المشاهد إلا مرّ بهما عليه. فنحه هارون الرشيد بعشرة آلاف درهم، فصرفها في قضاء ديون كانت قد تراكمت عليه وزوّج بعض ولده وبقي في يسر وسعة^(١).

ولكنّه يعود فيقول: إنّه لحقه دين بعد ذلك فذهب إلى العراق سنة ١٨٠ هـ^(٢) ويفضّل الخطيب عن الواقدي يقول: كانت للناس في يدي مئة ألف درهم أضراب بها في الحنطة، وتلفت الدراهم، فشخصتُ إلى العراق فقصدتُ يحيى بن خالد البرمكي^(٣)، ويفضّل ابن سعد عنه أيضاً يقول: ثمّ إنّ الدّهر أعضّنا، فقالت لي أمّ عبد الله: يا أبا عبد الله ما قعودك وهذا وزير أمير المؤمنين قد عرفك وسألك أن تسير إليه حيث استقرت به الدار. فرحلتُ من المدينة. ولما دخل بغداد وجد الخليفة والبلاط قد انتقلوا إلى الرّقة بالشام فرحل إليهم حتّى لحق بهم^(٤) فيقول: صار إليّ من السلطان ستمئة ألف درهم ما وجبت علي فيها الزكاة^(٥) ثمّ رجع معهم إلى بغداد

(١) انظر الطبقات ٥ : ٣١٥.

(٢) الطبقات ٧ : ٧٧.

(٣) تاريخ بغداد ٣ : ٤.

(٤) الطبقات ٥ : ٣١٥.

(٥) تاريخ بغداد ٣ : ٢٠.

وبقي بها، حتى قدمها المأمون فجعله قاضياً لعسكر المهدي^(١) وكان العسكر في الجانب الشرقي وكان الواقدي في الجانب الغربي فلما انتقل حمل كتبه على عشرين ومئة وقر^(٢) فولّي القضاء مدة أربع سنوات قبل وفاته، وأوصى إلى المأمون فقبل وصيته وأرسل إليه بأكفانه وقضى دينه^(٣).

ذكر ابن سعد - وهو تلميذه وكاتبه وراويته - يقول: مات ببغداد ليلة الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة سبع ومئتين ودفن يوم الثلاثاء في مقابر الخيزران، وهو ابن ثمان وسبعين سنة^(٤).

مكانة الواقدي في الرواية والعلم:

وتتجلى مكانته في الرواية والعلم في وصف كاتبه وتلميذه ابن سعد له حيث يقول: كان عالماً بالمغازي والسيرة والفتوح واختلاف الناس في الحديث والأحكام، واجتماعهم على ما أجمعوا عليه، وقد فسّر ذلك في كتب استخراجها ووضعها وحدث بها^(٥).

وقال عنه ابن النديم في الفهرست: إنّه كان عنده غلامان يعملان ليلاً ونهاراً في نسخ الكتب، وقد ترك عند وفاته ستمئة قِطْر من الكتب يحتاج كلّ منها إلى رجلين لحمله^(٦).

(١) الطبقات ٧: ٧٧.

(٢) تاريخ بغداد ٣: ٥ وعيون الاثر ١: ١٨ والوافي بالوفيات ٤: ٢٣٨ وسير اعلام النبلاء ٧: ١١٨.

(٣) الطبقات ٥: ٣١٥، ٣٢١، وتاريخ بغداد ٣: ٢٠، وتاريخ دمشق ١١: ٣، والوافي بالوفيات ٤: ٢٣٨.

(٤) الطبقات ٧: ٧٧.

(٥) الطبقات ٥: ١٤٤.

(٦) الفهرست: ١٤٤.

ونقل الخطيب البغدادي عن علي بن المديني: أنَّ ما جمع الواقدي من الأحاديث بلغ عشرين ألف حديث^(١).

ونقل ابن سيد الناس عن يحيى بن معين أنَّه قال: أغرب الواقدي على رسول الله في عشرين ألف حديث. ثُمَّ قال ابن سيد الناس: وقد روينا عنه مِنْ تتبعه آثار مواضع الوقائع وسؤاله من أبناء الشهداء والصحابة ومواليهم عن أحوال سلفهم ما يقتضي انفراداً بالروايات وأخباراً لا تدخل تحت الحصر^(٢).

ونقل الذهبي عن إبراهيم الحربي أنَّه كان يقول عنه: إنَّه كان أعلم الناس بأمر الإسلام، فأما أمر الجاهلية فلم يعلم منها شيئاً^(٣) ثُمَّ ذكروا له زهاء ثلاثين كتاباً. ونرى في قائمة كتبه كتاب الطبقات، ولنا أنْ تتمثله في كتاب الطبقات الكبرى لتلميذه وكاتبه مُحَمَّد بن سعد، فقد نقل عنه كثيراً ولا شكَّ أنَّه صنَّفه على غرار كتاب شيخه وروى فيه عن غيره أيضاً.

ومن كتبه كتاب الردة، ذكر فيه ارتداد العرب بعد وفاة النبي ﷺ، ومحاربة الصحابة لطلحة بن خويلد الأسدي ومسيلمة الكذاب وسجاح في اليمامة والأسود العنسي في اليمن. وقد نقل عنه تلميذه ابن سعد في الطبقات والطبري في تأريخه أخبار الأحداث التي تلت وفاة النبي، وإنما هو من كتابه في الردة.

ويمكن القول بأنَّ ما نقله ابن سعد، والطبري عنه عن الواقدي من أخبار الجاهلية فهو من كتاب سَمَّوه: «كتاب التاريخ والمغازي والمبعث»، هكذا بتقديم المغازي على المبعث وتأخير المبعث عن المغازي، الذي عدَّوه غير كتاب المغازي. والطبري ينقل المغازي عن الواقدي مباشرة ولكنَّه حين يُورد أخبار الجاهلية

(١) تاريخ بغداد ٣: ١٣.

(٢) عيون الأثر ١: ٢٠.

(٣) سير الأعلام ٧: ١١٧.

وما قبل الإسلام فإنه يرويها عن ابن سعد عن الواقدي، مما يدل على أنه اعتمد في المغازي على كتاب المغازي للواقدي، وأما أخبار الجاهلية فهي من كتاب آخر له لعله هو التأريخ والمبعث.

ومن كتبه «فتوح الشام وفتوح العراق»، وقد نقل البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» عن الواقدي كثيراً، وهو من تلامذة ابن سعد كاتب الواقدي، فهو قد روى كتاب شيخه له ورواه البلاذري كما نقل ابن كثير في «البداية والنهاية» كثيراً من حوادث سنة ٦٤ هـ والطبري نقل عنه كثيراً من حوادث النصف الثاني من القرن الثاني أي التي عاشها الواقدي.

حول تشيع الواقدي وابن إسحاق:

قال ابن النديم في فهرسته عن الواقدي: كان يتشيع، حسن المذهب، يلزم التقية، وهو الذي روى أن علياً كان من معجزات النبي ﷺ كالعصا لموسى وأحياء الموتى لعيسى بن مريم عليه السلام، وغير ذلك من الأخبار^(١).

ونقل هذا القول عنه السيد الأمين العاملي صاحب «أعيان الشيعة» وترجم له^(٢)، وكذلك ذكره آقا بزرك الطهراني في «الذريعة إلى تصانيف الشيعة»^(٣) عند الحديث عن تأريخ الواقدي. بينما لم يذكره الشيخ الطوسي في فهرسته ولا رجاله ولا ذكر كتاباً من كتبه حتى مقتل الحسين عليه السلام.

(١) الفهرست: ١٤٤. هذا وقد روى ابن عدي الرجالي عنه في كتابه الكامل في الضعفاء ٦:

٢٤٢، برقم ١٧١٩ بسنده عن بشر بن سعيد، قال: سألت زيد الجهمي: هل أوصى النبي إلى أحد؟ فقال: لا.

(٢) أعيان الشيعة ٤٦: ١٧١.

(٣) الذريعة ٣: ٢٩٣.

وابن أبي الحديد حينما ينقل فقرة طويلة عن الواقدي ثم يُورد رواية أخرى مختلفة عن الأولى يبدوها بقوله: «وفي رواية الشيعة»^(١)، مما يدل على أنه لم يعتبره شيعياً ولا ممثلاً لهم.

ومن الطريف أن يلاحظ أن ابن إسحاق أيضاً كان يُتهم بالتشيع^(٢). ولعلّ السبب في وصفها بالتشيع لا يرجع إلى عقيدتهما الشخصية، بل إلى ما ورد في كتابيهما من الأخبار التي يعرضونها مما تقتضيه طبيعة التأليف في مثل هذه الموضوعات لا عن عقيدة صحيحة بها، وإلى ما أوردها في بعض المواضع من كتابيهما بشأن جماعة من الصحابة منهم بعض الخلفاء فيذكرانهم بعبارات لاتضعهم في الموضوع الموضوع لهما عند كثير من المسلمين.

ولذلك فإن أكثر النقاد من المحدثين الأوائل كانوا يضعفون الواقدي في الحديث.

فقد قال البخاري والرازي والنسائي والدارقطني: أنه متروك الحديث، ولكنهم لم يجمعوا على ذلك، فقد وصفه الدراوردي بأنه: أمير المؤمنين في الحديث.

وقال يزيد بن هارون: الواقدي ثقة. ووثقه مصعب الزبيري، ومجاهد بن موسى، والمسيب وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو بكر الصغاني^(٣).

وقال إبراهيم الحربي: هو آمن الناس على أهل الإسلام^(٤).

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣٩.

(٢) معجم الأدباء ١٨: ٧.

(٣) تهذيب التهذيب ٩: ٣٦٤.

(٤) عيون الأثر ١: ١٨.

وقال ابن النديم: كان عالماً بالمغازي والسِّير والفتوح واختلاف الناس في الحديث والفقه والأحكام والأخبار^(١).

أمّا بالنسبة لابن إسحاق: فقد عقد الخطيب البغدادي في كتابه «تاريخ بغداد» وكذلك ابن سيّد الناس في كتابه «عيون الأثر» فصلين فنّدا فيها جميع المطاعن التي وجّهت إليه.

وبالنسبة لتشيعه وقوله بالقدر قالاً ماملخصه: أمّا مارمي به من التدليس والقدر والتشيع فلا يوجب ردّ روايته، ولا يوقع فيها كبير وهن، أمّا التدليس فنه القادح وغير القادح، ولا يحمل ماوقع هنا من مطلق التدليس على التدليس المقيد بالقادح في العدالة، وكذلك القدر والتشيع لا يقتضيان الردّ إلاّ بضميمة أخرى لم نجدناها هنا.

والعجيب أنّك لا تجد شيئاً من هذا التشكيك في عبد الملك بن هشام مهذب سيرة ابن إسحاق، فلو كان العيب في هذا الباقي من سيرة ابن إسحاق لشمّل الشك ابن هشام أيضاً.

وعندئذ نطمئن إلى أنّ العيب ليس في هذا الباقي بل فيما قال عنه ابن هشام: «وتارك بعض ما يذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب... أشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقرّ لنا البكائي بروايته، ومُستقصّ ماسوى ذلك».

وعندئذ تجد محور اتّهام التشيع أيضاً. وقد رأينا أنّا إذا استثنينا هذين المتهمين بالتشيع لم يبقَ لعامة المسلمين شيء يُذكر في السيرة ولا المغازي. وعندئذ ندرك أيضاً أنّ السابقين الأولين إلى تدوين سيرة الرسول ومغازيه أي الصدر الأول من تاريخ الإسلام هم من شيعة أئمة أهل البيت عليهم السلام أو المقاربين لهم المتهمين بهم.

نقد كتب السيرة:

لعلّ النظر إلى تراث السلف الصالح - ولاسيما سيرة الرسول الكريم - بنظرة التقديس، هو الذي أدّى بالمؤلفين في السيرة على اختلاف طبقاتهم أن لا يقفوا موقف الناقد البصير، فلم ترّ منهم من يعرض لما تحمله السيرة بين دفتيها من أخبار ضعيفة بعيدة عن الحقيقة لينقدها ويأتي على نقاط الضعف فيها، فهذا ما حرّمه هذا العلم في جميع أدواره السالفة إلى عهدنا هذا الأخير، حيث أخذ المستشرقون والمتأثرون بهم يتناولون خبراً أو خبرين من السيرة وسيلة للطعن في شخص النبي الكريم ﷺ أو ما يتصل به، فآمن بعض أصحاب الأقلام الجديدة بأنّ في السيرة أخباراً لا تمتّ إلى الحقّ بصلة في قليل ولا كثير، ثمّ تجرّؤوا فأقدموا على تهذيب السيرة بما ألصق بها وهي ليست منها، كقصة شقّ الصدر والغرائق^(١) وغرام الرسول ﷺ بزوجة زيد ربيبه!

إنّ سيرة محمد ﷺ كسائر العظماء أضيف إليها ما ليس منها، إمّا عن حبٍ وهوى وحسن نيّة وطويّة، وإمّا عن حقد وسوء قصد متعمّد، ولكنها تمتاز عن سير جميع العظماء بأنّ شيئاً كثيراً منها ضمّه الوحي الإلهي وضمن حفظه القرآن الكريم، وكثيراً منها مروى على لسان الحفاظ الثقات من محدّثين. فعلى هذه الأسس الصحيحة يجب أن تُبنى السيرة، وأنّ تُحلّل التحليل العلميّ النزيه بملاحظة ظروف الوسط وحال البيئّة وجوانبها المختلفة من عقائد ونظم وعادات وتقاليده وطقوس، وأنّ لا يُبنى الأساس على المعجزات والكرامات وخوارق العادات إلّا ما خرج بالدليل بل يُبنى على أساس «إنّ الله أبنى أن يُجري الأشياء إلّا بأسباب»^(٢) اللهم إلّا ما خرج بالدليل الثابت المعقول.

(١) أنظر ملخص القصّة في ذيل الصفحة التالية.

(٢) أصول الكافي ١: ١٨٣، عن الصادق عليه السلام وهي رواية الصّفار القمي في بصائر الدرجات كما

الخلافا في كتب السيرة وبينها:

إن الدارس لكتب السيرة والتاريخ يلاحظ أن ما روته من أنباء الخوارق والمعجزات وغيرها من كثير من الأنباء، ينقص ثم يزيد بزيادة الأزمان التي وضعت فيها هذه الكتب، فقديماً أقل رواية للخوارق من متأخرها، وما ورد من الخوارق في الكتب القديمة أقل بعداً عن مقتضى العقل مما ورد في كتب المتأخرين. فهذه سيرة ابن هشام أو قل ابن إسحاق أقدم السير المعروفة اليوم تغفل كثيراً عما ذكره أبو الفداء في تاريخه وما ذكره القاضي عياض في «الشفاء» وعن جميع كتب المتأخرين تقريباً.

فلا بد للباحث من أن يقبل لنفسه مقياساً يعرض عليه ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه، فما صدقه هذا المقياس أقره وأقر به وقرّبه، وما لم يصدقه فلم يورده بل يردّه^(١).

(١) مثلاً: إن قصة الغرائيق التي تذهب إلى أن النبي لما ضاق ذرعاً بسادات قريش فتلا عليهم سورة النجم حتى إذا بلغ فيها إلى قوله سبحانه ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿ أضاف إليها ﴿تلك الغرائيق العلى منها الشفاعة ترتجى﴾ ثم أتم السورة فسجد وسجد المسلمون والمشركون!

وقد رواها ابن إسحاق ثم قال: إنها من وضع الزنادقة. وذكرها ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» فقال «ذكروا قصة الغرائيق، وقد أحببنا الإضراب عن ذكرها صفحاً لئلا يسمعها من لا يضعها في مواضعها، إلا أن أصل القصة في الصحيح، ثم ذكر حديثاً عن البخاري في أمرها وأردفه بقوله «انفرد به البخاري دون مسلم».

أما الذي يتخذ عصمة الرسول في تبليغ الرسالة مقياساً للأخذ والرد، فلا يتردد في نفي القصة من أساسها، بل يتفق مع ابن إسحاق في أنها من وضع الزنادقة، ويكتفي في ردّها بما فيها من نقض ما للرسول من عصمة في تبليغ رسالة ربّه، كما تقتضي ذلك قواعد النقد العلمي، كما فعل هيكلم في كتابه: ٤٨ و ١٤٧ - ١٦١.

وهناك سبب آخر يوجب تمحيص ماورد في كتب السلف ونقده نقداً علمياً دقيقاً، هو أن أقدمها كُتب بعد وفاة النبي بمئة سنة أو أكثر، وبعد أن فشلت في الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية كان اختلاق الروايات والأحاديث من وسائلها للغلبة على خصومها، فكيف بما كُتب متأخراً في أشدّ أزمان الاضطرابات والقلق؟ وكيف بما ورد في المتأخر من كُتب السيرة؟ فهل يمكن الأخذ به بدون تمحيص بدقّة علميّة؟ وقد أدّت المنازعات السياسية وغيرها التي حدثت بعد الصدر الأول من الإسلام، إلى اختلاق كثير من الروايات والأحاديث تأييداً لها، هذا والحديث لم يدوّن إلى أواخر عصر الأمويين.

ذلك لأنّ عمر عزم على ذلك فأصبح يوماً يقول: إني كنت أردت أن أكتب السنن، ثم عدلت عن كتابتها، فإني -والله- لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً! ثم كُتب إلى الأمصار بذلك يقول: من كان عنده شيء غير القرآن فليمحّه! وظل الأمر كذلك -ما عدا عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وابنه الحسن عليه السلام - حتى أمر عمر بن عبد العزيز بجمع الحديث^(١).

أمّا كيف روى مثل البخاري مثل قصّة الغرائيق -مثلاً-؟ فقد اعتذر عن مثل ذلك النووي في شرحه لصحيح مسلم قال: «أخذ جماعة على البخاري ومسلم أحاديث أخلاً بشرطيهما فيها ونزلت عن درجة ما التزمها» وقد التزموا بمقياس السند والثقة بالرواية في قبول الحديث ورفضه، ولكنه وحده غير كاف لذلك.

بل إنّ خير مقياس يقاس به الحديث والخبر عن النبي ما روي عنه -عليه الصلاة والسلام- قال: «إنكم ستختلفون من بعدي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فمني وما خالفه فليس مني»^(٢) فهو مقياس صحيح أخذ به كثير من

(١) طبقات ابن سعد ٣: ٢٠٦.

(٢) أصول الحنفية للشاشي: ٤٣.

الثقات، وهو يتفق مع قواعد النقد العلمي، وقال ابن خلدون بشأنه: «إني لا أعتقد صحة سند حديث ولا قول صحابي عالم يخالف ظاهر القرآن، وإن وثقوا رجاله، فربّ راوٍ يوثق للاغترار بظاهر حاله وهو سيئ الباطن. ولو انتقدت الروايات من جهة فحوى متنها كما تنتقد من جهة سندها لقضت المتون على كثير من الأسانيد بالنقض. وقد قالوا: إن من علامة الحديث الموضوع: مخالفته لظاهر القرآن، أو القواعد المقررة في الشريعة، أو لبرهان العقل، أو الحسّ والعيان وسائر اليقينيّات». حقاً إن اختلاف المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ بلغ حدّاً دعا الدعاة فيهم إلى اختلاق الآلاف المؤلفة من الأحاديث والروايات.

لما قُتل عثمان وبدأت الحروب الداخلية بين المسلمين بخصومة خصماء علي عليه السلام، وأيد أمير المؤمنين من أيده، ثم استتب الأمر لبني أمية جعل المحدثون المتصلون ببني أمية يضعفون ما يروى عن علي بن أبي طالب عليه السلام وفضائله، وكما جعل أنصار عائشة يشيعون عنها ما يؤيد دعواها.

ومن طريف ما يروى في ذلك: مارواه الذهبي في ترجمة إسماعيل بن المشثي الاسترآبادي: كان يعظ بدمشق، فقام إليه رجل فسأله عن قول النبي: أنا مدينة العلم وعلي بابها؟ فأطرق إسماعيل لحظة ثم رفع رأسه وقال: نعم لا يعرف هذا الحديث عن النبي إلا من كان في صدر الإسلام، إنما قال النبي: أنا مدينة العلم وأبو بكر أساسها وعمر حيطانها وعثمان سقفاها وعلي بابها! فسّر الحاضرون بذلك، فسألوه أن يخرج لهم إسنادهم، فوعدهم به^(١) وذكر القصة ابن عساكر فقال: فأنعم ولم يخرجهم لهم^(٢). أجل، هكذا كانت الأحاديث تلقى لأغراض سياسية ولأهواء عاجلة حتى كثرت وشاعت.

(١) لسان الميزان ١: ٤٢٢.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٣: ٣٤ وانظر كتاب: فتح الملك العلي بصحة حديث مدينة العلم علي:

١٥٦. بتحقيق الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني النجفي.

هذا، وقد تولى كتاب السيرة كتابتها - كما مر خبرها - للخلفاء: فابن إسحاق كتب سيرته للمنصور وابنه المهدي، والواقدي كتب مغازيه للرشيد ووزيره يحيى بن خالد البرمكي، اللهم إلا هشام الكلبي والمدائني فإنهما لم يكتبتا لأحد منهم، ولكنهم كلهم ما كان لهم أن ينازعوا مع الخليفة في آرائه خوفاً منه، ولذلك فإنه لا ينطبق على ما كتبه مقاييس الصحة بدقة.

ومن أمثلة الاختلاف في النقل الذي يبدأ بذكر معجزة نراها تزيد بزيادة الزمان إلى معاجز: ما حدث في أثناء مسيرة جيش العسرة إلى تبوك:

فقد روى ابن هشام قال: «قال ابن إسحاق: فلما أصبح الناس ولأماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم - فدعا رسول الله، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء»^(١).

أما صحيح مسلم فيروي قصة تبوك بصورة أخرى لا تقتصر على هذه المعجزة بل تزيدها زيادة كثيرة على غير ماورد في سيرة ابن إسحاق:

فقد روى مسلم في صحيحه بسنده عن معاذ بن جبل: «أن النبي قال لمن سار معه إلى تبوك: إنكم ستأتون - إن شاء الله - غداً عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمَس من مائها شيئاً حتى آتي. فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشوك تبض بشيء من ماء. فسألها رسول الله: هل مَسَسْتما من مائها شيئاً؟ قالوا: نعم، فسبها النبي وقال لهما ما شاء الله أن يقول (!) ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء غسل رسول الله فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر - أو قال: غزير - حتى استقى الناس، ثم قال: يا معاذ يوشك - إن طالت بك الحياة - أن ترى ما هاهنا قد ملئ

جَنَاناً»^(١) فهل ارتوى المسلمون في طريق تبوك بماء العين المنهر - بعد السباب! - أم بمطر من سحب بدعاء مستجاب من نبيٍّ مجاب؟ أليس في القليل الأول غنى عن الثاني الكثير؟! اللهمَّ إلا أن نبي علي ترجيح الحديث الأكثر إعجازاً ولانقنع بالقليل منه!

هذا وقد روى ابن إسحاق بعد روايته خبر السحابة خبراً آخر يؤيده قال: «فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: قُلْتُ لمحمود بن لبيد: هَلْ كَانَ النَّاسُ يَعْرِفُونَ النَّفَاقَ فِيهِمْ؟ قَالَ: نَعَمْ وَاللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَعْرِفَهُ مِنْ أَخِيهِ وَمِنْ أَبِيهِ وَمِنْ عَمِّهِ وَفِي عَشِيرَتِهِ، ثُمَّ يَلْبِسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَلَى ذَلِكَ، وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي رَجَالٌ مِنْ قَوْمِي قَالُوا: لَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْمَاءِ بِالْحَجَرِ مَا كَانَ وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ حِينَ دَعَا فَأَرْسَلَ اللَّهُ السَّحَابَةَ فَأَمْطَرَتْ حَتَّى ارْتَوَى النَّاسُ قَالُوا: أَقْبَلْنَا عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَعْرُوفَ نِفَاقِهِ كَانَ يَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ حَيْثُ سَارَ، فَقُلْنَا لَهُ: وَيْحَكَ! هَلْ بَعْدَ هَذَا شَيْءٌ؟ فَقَالَ: «سَحَابَةٌ مَارَّةٌ»^(٢) اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذِكْرُ كَثْرَةِ النَّفَاقِ فِي بَعْضِ الصَّحَابَةِ بِمَا يَشْنَعُ ذَكَرَهُ وَيَسُوءُ بَعْضُ النَّاسِ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَحْذِفْهُ ابْنُ هِشَامٍ، وَاخْتَارَ مُسْلِمٌ مَا سَلَّمَ مِنْ ذَكَرِهِ، وَهَذَا هُوَ الرَّاجِحُ فِي الظَّنِّ.

شرائط دراسة التاريخ:

لا شك في أن البحث في التاريخ أمر خطير وعمل شاق جداً، فالباحث فيه كمن يريد أن يلج بحراً خضياً هائجاً، وإنما يمدّ ببصره إلى قاعه ليغنم منه لآلئه ودراريه.

(١) صحيح مسلم ٧: ٦٠ ط ١٣٣٢، ورواه قبله الواقدي في المغازي ٣: ١٠١٢ - ١٠١٣ ورواه قبله ابن اسحاق في السيرة ٤: ١٧١ إلا أنه ذكره لمنزل وادي المشقق في طريق عودته من تبوك. ورواه معاصره مالك في الموطأ ١: ١٤٣ باب الجمع بين الصلاتين في السفر والحضر من كتاب قصر الصلاة في السفر.

(٢) ابن اسحاق في السيرة ٤: ١٦٦.

والباحث في التاريخ إن كان يطمح من بحثه إلى إحقاق الحق وإزهاق الباطل، فإنه لا يتسنى له ذلك إلا إذا كان واسع الإطلاع، بعيد النظر، شديد الحب للحق، موطناً نفسه على اتباعه، مبتعداً عن التعصب المذهبي المقيت، ورعاً في إصدار الأحكام، خبيراً بطرق الاستنباط، عارفاً بأمراض التاريخ وعلله، مُلمّاً بظروفه ومراحله، مؤثراً مصلحة الإسلام والمسلمين على ما سواها، مستحضر الفكر، غير مشدود لما ورثه من أهله وقومه.

وذلك لمساس التاريخ -ولاسيماً سيرة الرسول الكريم- بمختلف نواحي الحياة. فمنه تؤخذ العقيدة الدينية، وأحكام الإسلام، ومعارفه وعلومه، وأدبه وأخلاقه، وعلى أساسه تقول الأجيال كلمتها في كل شيء، وعلى ضوءه تحكم على كل شيء. وقد ابتلي التاريخ والسيرة -ككثير من الأمور- بنظرتين مفرطة وأخرى مفرطة:

فمن مقبل على التاريخ والسيرة مكبّ على أخذ مافيه، غثّه وسمينه، ينتهل منه ربه في كلّ جوانب الحياة، ويعتبره من أسلم المسلمات بها، دون حذر عما داخله من الدسّ والخرافات بعيداً عما نبّه إليه الرسول من حتمية ظهور المفتريين عليه، غير معتبر بما اعترف به الزنادقة الملحدون بما رواه المؤرخون: أنّهم وضعوا آلاف الأحاديث كذباً على الله ورسوله حلّلوا بها الحرام وحرّموا بها الحلال، وأزالوا بها الحق عن نصابه، وزوّروا كثيراً من الأحاديث الصحيحة وافتعلوا الكرامات والمناقب حباً في المال والمناصب.

وآخرون فرّطوا فيه فغلّبوا التشاؤم وتنكّروا للتاريخ جملةً وتفصيلاً، اتهموه ببعض مافيه وتحاملوا عليه، وجعلوا ذلك حجة لإعراضهم عنه وابتعادهم منه. وذلك ظلم قبيح وفصم لعري الأجيال، وحرمان للمتأخرين من دروس الماضي، وهدم لبناء الدّين وطعن في تعاليم الأنبياء الذين حثّوا على تدارس الماضي والاستماع إليه، مع تمحيص الحقّ عما علق به من شوائب الباطل.

وبين هاتين النزعتين المفرطة والمفرطة تنجلي النمرقة الوسطى باهتمام مفكري المسلمين وعلمائهم بالدراسات التاريخية، وبذل الوسع لإمالة اللثام عن كثير من جوانبه التي بدت قائمة مشوهة بفعل الدّخلاء عليه، يَمَن جندوا أنفسهم لهدم الدّين وطمس معالم الحقّ والتجنيّ عليه^(١).

طمس معالم الحقّ:

قلنا نعرض الروايات -التي يدّعي أنها تسجّل سيرة الرسول الكريم ﷺ- على القرآن الحكيم، ذلك لأننا لو راجعنا وصف هذا النبي العظيم في القرآن الكريم، لوجدناه يصفه بأنّه: ﴿عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢) و﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(٣) ينهى الناس عن الاستخفاف به ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾^(٤) ويلعن الذين يؤذونه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾^(٥).

ولكنّا لو راجعنا بعض تلك الروايات التي يدّعي أنها تسجّل لنا سيرته لوجدناه فيها: طفلاً كسائر الأطفال، ورجلاً يتكلّم كسائر الجهّال، بل أضعف عقلاً من سائر العقّال، فهو بحاجة دائمة إلى من يشرف عليه ويدبّر شؤونه، ويأخذ بيده ويرشده، ويحلّ له مشاكله ويشدّ قلبه ويطمئنه، ويؤيّد ويساعده، وإلاّ فهو يغضب فيكون غضبه عجزاً واضطراباً بل وسباباً^(٦) ويرضى فيكون رضاه سخفاً وميوعة!

(١) مقدمة: دراسات في التّاريخ الاسلامي: ٨، ٩ للشيخ محمد باقر الناصري بتصرف.

(٢) القلم: ٤.

(٣) الاحزاب: ٤٠.

(٤) النور: ٦٣.

(٥) الاحزاب: ٥٧.

(٦) كما مرّ عن صحيح مسلم.

والأ فكيف نفسّر: أنّه رأى الرأي فنزلت الآيات تصوّب رأي غيره وتفند رأيه، فقعد يبكي؟! وأنّه كان له شيطان يعتريه ويأتيه في صورة جبرئيل! ثمّ أعانه الله عليه فأسلم! ولعلّه من فعل شيطانه أنّه مرّ على سباطة قوم فبال قائماً^(١)! ثمّ شرب النبيذ؟! ثمّ إنّ رأى زوجة ابنه بالتبنيّ في حالة مثيرة فعشقها! وإنّه كان يعشق عائشة حتّى أنّه حملها على عاتقه بطلبها لتنظر إلى رقص السودان في مسجده، وخدّها على خدّه! ثمّ إنّ ترك الجيش لينفرد بزوجه ليسابقها في الصحراء! والطامة الكبرى التي شملت شيخ الأنبياء إبراهيم: أنّه كان أولى بالشكّ من إبراهيم! إلى ما هنالك بما يزيد في قبحه على ما ذكر أكثر بكثير، كلّ ذلك بما «قد فاجأتنا به الأنباء والسّير» في الجامع الحديثية وكتب السيرة! وفيها عن حياته الزوجية ما نتدّمّر من ذكره فضلاً عن القيام بأمره! وأدهى ما في الأمر وأمر أنّها مدوّنة في الكتب التي توصف بأنها أصحّ كتاب بعد الذكر الحكيم، وهي تحاول أن تصوّر لنا سيدنا ومولانا ونبينا أفضل الأنبياء والمرسلين وأشرف السفراء المقربين!! قال محقّقو سيرة ابن هشام في مقدّماتهم: «ولعلّ النظر إلى تراث السالفين ولاسيّما ما يتصل منه بعلم السّير نظرة فيها الكثير من التقديس، هو الذي حال دون هؤلاء وهؤلاء أن يقفوا من هذا العلم موقفاً فقدناه في جميع المؤلفين المتقدّمين

(١) صحيح البخاري ١: ٦٣ ومسلم ١: ١٥٧ والمصنف لابن أبي شيبة ١٤: ٢٣٤ وشرح الكرماني ١١: ٤٠ وفتح الباري ١: ٢٦١ - ٢٦٣ ونقله ابن شاذان (م ٢٦٠ هـ) في الايضاح: ٥٨ باسنادهم عن حذيفة قال: إنّ مال إلى سباطة قوم فبال قائماً فتفحّج (= باعد بين رجله) حتّى أشفت عليه، فصبيت عليه الماء من خلفه فاستنجى! ونقله ابن الأثير في النهاية في مواد: سباطة وفحج وأبض ومأبض. ونقله الأزرقي في تسهيل المنافع: ٦٦ عن أبي هريرة وعن الإمام الشافعي. ومجلة ترائن ٣٢ و٢١٦: ٣٣: حديث السباطة سنداً ودلالة للسيد حسن الشيرازي.

على اختلاف طبقاتهم، فلم ترَ منهم من عرض لما تحمله السَّير بين دفتيها من أخبار تتَّصف بالبعد عن الحقيقة، فنقدها وأتى على مواضع الضعف منها.

هذا ما حرمه هذا العلم في جميع أدواره السالفة إلى ما قبل أيَّامنا هذه بقليل، إذ رأينا الإيمان بأنَّ في السيرة أخباراً لا تتصل بالحقِّ في قليل ولا كثير، تصحبه الجرأة ثمَّ الإقدام، ورأينا فكرة جديدة تجري بها أقلام مجدِّدة، يتناول أصحابها الخبر أو الخبرين من السيرة، ممَّا كان يُتخذ مطعناً علينا في شخص النبيّ -صلى الله عليه و [آله] وسلم- أو ما يتصل به، فخلَّصوه ممَّا لصق به ممَّا ليس منه، وأقاموا حوله سياجاً من الحجج والبراهين، صحَّ بها وأصبح حجة على الطاعنين فيه.

ومثل هذا ما فعله الأستاذ الإمام الشيخ مُحمَّد عبده في قصَّة النبيّ -صلى الله عليه و [آله] وسلم-، وتزويجه زينب بنت جحش من زيد بن حارثة ثمَّ ما كان من تزوِّج الرسول -صلى الله عليه و [آله] وسلم- إيَّاهَا بعد تطليق زيد لها ممَّا أرجف فيه الطاعنون ولغوا لغواً كثيراً.

ومنهم من عرض للكتاب في قصَّة أو قصَّتين منه فصاغها في أسلوب جديد، ومثَّل للناس الخبر في قالب قصصيّ خرج به عن أسانيده وذكر رواته -تلك الطريقة التي هي سرّ تقديس هذه الأخبار في هذه الكتب!- فبدت المعاني في هذا القالب الجديد كما يبدو الجسد في الغلالة الرقيقة لاتكاد تُخفي منه شيئاً. وهذا الأسلوب الجديد بما يتضمن من التَّهكم بالفكرة السقيمة والخبر الغث، يخلق به المؤلف في القارئ روح التحفُّظ في قبول الأفكار وتسليمها.

ومنهم من جرى مع ابن إسحاق في شوطه، فتناول السيرة كما تناوَّها ابن إسحاق، مبتدئاً بميلاد الرسول ﷺ وما سبقه أو عاصره من حوادث، ثمَّ جرى يذكر حياة الرسول إلى أن قبضه الله إلى جواره، ناقلاً من الأخبار ما يرى فيها القرب من الحقِّ، ومستبعداً ما لا يجري في ذلك مع فكرته وما يعتقد،

مفنداً مزاعم الطاعنين راداً على المكذبين. فجاء كتابه سيرة للرسول جديدة في اسلوبها، نقية من اللغو والهراء»^(١).

أجل، إذا كان المراجع إلى هذه المراجع -الصحاح وغيرها- مليء النفس بتقديس النصّ تقديساً عشوائياً ساذجاً، فهو يمتنع ويمنع عن تقويم النصوص تقويماً سليماً يزنها بميزان الاعتبار.

ولا مبرر لهذا التقديس ما لم يثبت أن هذا الحديث مما صدر عنه أو من شؤونه أو من صفاته، اللهم إلا إذا كان لا يعرف شيئاً مما يجب أن يتوفر في شخص رسول الله وخليفته وحجته على عباده، وكان خالي الذهن عن المنطلقات الأساسية والضوابط الحقيقية التي يجب أن يتوفر عليها من يحاول دراسة التاريخ بصورة علمية، وسيرة الرسول الكريم بصورة خاصة^(٢).

سحاب مركوم على الحق المظلوم:

أمّا كيف حدث كل هذا الحديث الموضوع للنيل من كرامة الرسول الكريم ﷺ؟ فنحن نرى ذلك من التعظيم الذي اصطنعه بنو أمية وبنو مروان على معالم الشخصية النبوية، مستفيدين من سياسة المنع من الحديث عن النبي ﷺ بل إحراق ما كتبه كبار الصحابة عنه: ابتداء من الخليفة الأول إذ أحرق خمسمئة حديث كان قد جمعها هو من أحاديث رسول الله ﷺ^(٣). ثمّ اشتد الأمر على عهد الخليفة الثاني فإنه جمع ما كتبه الصحابة عن رسول الله ﷺ وأحرقه، ولعل ذلك بعد أن اتصل به كعب الأحبار الحبر اليهودي المسلم.

(١) مقدمة سيرة ابن هشام ١: ح، ط.

(٢) انظر مقدمة الصحيح في السيرة ١: ١٦، ١٧.

(٣) راجع المصادر في كتاب النص والاجتهاد: ١٥١.

ولقد كان اليهود على فرقتين: فرقة تؤمن بالكتابة والتدوين وهم الفريسيون، وفرقة أخرى تؤمن بوجوب الحفظ وعدم جواز كتابة شيء غير التوراة، ويقال هؤلاء: القراء^(١) وضعف أمر الفريسيين وكثر القراء، ويظهر أن كعب الأحبار كان من القراء، كما يظهر من جوابه لعمر حينما سأله عن الشعر، فكان بما قاله عن العرب: «قوماً من ولد إسماعيل أناجيلهم في صدورهم (أي يحفظونها على ظهر القلب) ينطقون بالحكمة» وقد كان كعب عند حسن ظن الخليفة به فكان مقرباً عنده، فلعله قبل هذه النظرية من كعب الأحبار.

ويشهد لذلك ما رواه ابن سعد في «الطبقات» والخطيب البغدادي في كتابه «تقييد العلم» ونقله عنها الشيخ أبو رية في كتابه «أضواء على السنة المحمدية» قالوا: كثرت الأحاديث على عهد عمر بن الخطاب، فأنشد الناس أن يأتوه بها، فلما أتوه بها أمر بتحريقها ثم قال: مشناة كمشناة أهل الكتاب^(٢) أو قال: ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فكتبوا عليها وتركوا كتاب الله، واني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً! فنع من الحديث عن النبي ﷺ إلا بشاهد، ومنع كبار الصحابة عن الخروج من المدينة، واستعمل على الأمصار صغارهم ممن لا اطلاع له في الدين ولا معرفة له بأحكامه^(٣). وروى ابن سعد في «الطبقات» والخطيب البغدادي في كتابه الآخر «جامع بيان العلم وفضله» ونقله عنها الشيخ أبو رية في كتابه

(١) شرح ذلك النوري في كتابه الفارسي: لؤلؤ ومرجان: وفصله محمد حسن ضاحا في كتابه: التفكير الديني عند اليهود.

(٢) تقييد العلم: ٥٢، والطبقات ٥: ١٤٠، والأضواء: ٤٧، والنص المثناة والصحيح ما أثبتناه وهي: الروايات الشفوية.

(٣) كآبي موسى الأشعري حيث استعمله والياً على البصرة سنة ١٨ هـ وله ثمان عشرة سنة إذ ولد في السنة الأولى للهجرة.

«أضواء على السُّنة المحمّدية»: إنّ الذين جاؤوا بعد عمر ساروا على نهجه في المنع عن الحديث إلاّ حديثاً كان على عهد عمر^(١).

فنتج عن سياسة المنع عن الحديث وعن كتابته أن نسي الناس سنن الرسول ﷺ حتّى في الصلاة التي هي عمود الدّين وركن الإسلام والكتاب الموقوت الذي يؤدّيه المسلمون في كلّ يوم خمس مرات، أصبحوا لا يعرفون أحكامها وحدودها، حتّى أقرب الناس إلى مهبط الوحي والتّنزيل الذين يفترض فيهم أن يكونوا أعراف بأحكام الإسلام وشرائع الدّين... إذن فكيف بحال غيرهم من عوام الناس؟! وما هو مدى معرفتهم بدينهم وشريعتهم والحال كذلك؟! ولا سيّما الناس البعداء عن منابع الثقافة الإسلامية، وبالأخصّ فيما يقلّ الابتلاء به.

فقد روى البلاذري في «أنساب الأشراف» والبيهقي في سننه والمتقي الهندي في «كنز العمال» عن عبدالرزاق وابن أبي شيبة: أنّ عمران بن الحصين صلّى خلف علي عليه السلام فأخذ بيد مطرف بن عبدالله وقال: لقد صلّى صلاة محمد ولقد ذكرني صلاة محمد^(٢).

ولا شكّ في أنّ من سنن الرسول في الصّلاة الجهر بالبسملة في الصّلاة فكان علي عليه السلام يجهر بها، فبالغ بنو أميّة في المنع عن الجهر بها سعياً في إبطال آثار علي عليه السلام^(٣) حتّى روى النسائي والبيهقي في سننهما عن ابن عباس أنّه كان يقول: اللهمّ العنهم فقد تركوا السُّنة من بغض علي^(٤) حتّى بلغ الحال بالناس على عهد عليّ بن الحسين عليه السلام

(١) الطبقات ٣ ق ١: ٢٠٦، وجامع بيان العلم ١: ٦٤، والأضواء: ٤٧.

(٢) انساب الاشراف ٢: ١٨٠، وسنن البيهقي ٢: ٦٨، وكنز العمال ٨: ١٤٣.

(٣) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ١: ٧٩.

(٤) تعليقة السندي بهامش سنن النسائي ٥: ٢٥٣.

أن كانوا لا يعرفون كيف يحجّون بل حتّى كيف يصلّون^(١) ولذلك تجرّأ ابن الزبير على أن يقدّم الصّلاة قبل الخطبة (يوم الجمعة ؟) كما رواه الشافعي في كتابه «الأمّ» عن وهب بن كيسان، ثمّ قال: كلّ سنن رسول الله قد غيّرت حتّى الصّلاة^(٢).

ولذلك نجد الإمام السجّاد عليه السلام يقول في دعائه يوم الجمعة ويوم الأضحى: «اللّهمّ إنّ هذا المقام لخلفائك وأصفيائك، ومواقع أمانتك في الدرجة الرفيعة التي اختصّتهم بها قد ابتزّوها. حتّى عاد صفوتك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مبتزّين، يرون حكمك مبدلاً وكتابك منبوذاً، وفرائضك محرّفة عن جهات شرعك، وسنن نبيّك متروكة»^(٣).

وروى ابن سعد في «الطبقات» عن الزهريّ قال: دخلت على أنس ابن مالك بدمشق وهو وحده يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئاً ممّا أدركت، إلّا هذه الصّلاة وقد ضيعت^(٤).

وروى الإمام مالك بن أنس في كتابه «الموطأ» عن مالك قال: ما أعرف شيئاً ممّا أدركت الناس إلّا النداء بالصّلاة^(٥). واستثنى الحسن البصري القبلة فقط فقال: لو خرج عليكم أصحاب رسول الله ما عرفوا منكم إلّا قبلتكم^(٦).

(١) كشف القناع عن حجية الاجماع: ٦٧.

(٢) كتاب الام للشافعي ١: ٢٣٥ وهو رواه في صلاة العيدين! ولكنه لا يناسب كلام وهب، ولم يتعبه المحقّق النجار الأزهري. وروى خبر وهب النسائي في سننه ٣: ١٩٤، والطوسي في الخلاف ١: ٦٧٤ مختلفاً عما هنا عن الشافعي.

(٣) الصحيفة السجّادية: الدعاء ٤٨.

(٤) الطبقات ٧: ٢٠ وصحيح الترمذي: ٣: ٣٠٢ وجامع بيان العلم ٢: ٢٤٤ والزهد والرقائق: ٥٣١ وضحي الإسلام ١: ٣٦٥.

(٥) الموطأ ١: ٧٢ الباب ١، الحديث ٨، وشرحه ١: ١٢٢.

(٦) جامع بيان العلم ٢: ٢٤٤.

ولم يستثنِ عبدالله بن عمرو بن العاص شيئاً إذ قال: لو أن رجلين من أوائل هذه الأمة خلوا بمصحفيهما في بعض هذه الأودية لأتيا الناس اليوم ولا يعرفان شيئاً بما كان عليه^(١).

ومع هذه الحال فإن الطبيعي أن يروج سوق الوضّاعين الكذّابين وأن يصبّحوا هم مصدر العلم والمعرفة والثقافة للأمة المسلمة. هكذا شاء الحكّام، وهكذا استحقّ المحكومون إذ ابتعدوا عن أئمة أهل البيت عليهم السلام^(٢).

أمّا لماذا حاول بنو أميّة ورواتهم أن يستفيدوا من هذا الفراغ المفتعل بفضل المنع عن الحديث، للنيل من كرامة الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسائر المقدّسات الإسلامية؟ فإنّ ذلك يعود إلى:

أ - أنّ الحقد والعداء الأموي الموروث من القديم ضد بني هاشم - بما فيهم النبي صلّى الله عليه وآله - لم يدعهم يقتنعوا بأنّه نبيّ مرسل حقّاً:

فقد قال أبو سفيان للعبّاس لما رأى كثرة زُحام الناس على التبرك بماء وضوء النبيّ يوم فتح مكّة: يا عبّاس! واللّه لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً! فقال: ويحك إنّها النبوة! فقال: نعم!

وقال معاوية لما سمع المؤذّن يقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله: لله أبوك يا ابن عبدالله! لقد كنت عالي الهمة، مارضيت لنفسك إلاّ أن يُقرن اسمك باسم ربّ العالمين^(٣).

(١) الزهد والرقائق: ٦١.

(٢) والموضوع مهم وبحثته في أربع مقالات متوالية في الأعداد ٥ و ٨ و ٩ و ١٠ من مجلة الفكر الإسلامي للسنة الثانية والثالثة.

(٣) انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٠١ عن أحمد بن أبي طاهر في كتاب «أخبار الملوك».

وقال للمغيرة بن شعبة - بعد أن ذكر ملك أبي بكر وعمر وعثمان وأنهم هلكوا فهلك ذكرهم -: وإن ابن أبي كبشة! يُصرّخ به في كلّ يوم خمس مرات: أشهد أن مُحَمَّدًا رسول الله، فأَيّ عمل يَبقى مع هذا؟! لا أمّ لك... لا والله إلا دفناً دفناً^(١)، ولما سمع المأمون بالخبر أمر ببلعنه^(٢).

وقال - أو تمثّل - ابنه يزيد بقول ابن الزبيري:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خِندِف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل^(٣)

وتبعه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان يقول:

تلعب بالخلافة هاشمي بلا وحي أتاه ولا كتاب
فقل لله: يمنعني طعامي وقُل لله يمنعني شرابي^(٤)

واستفتح المصحف وقرأ فيه: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾^(٥) فدعا بالمصحف فنصبه غرضاً للنشأ وأقبل يرميه وهو يقول:

أتوعدُ كلَّ جبارٍ عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ماجئت ربك يوم حشر فقل: ياربّ خرّقني الوليد^(٦)

(١) مروج الذهب ٣: ٤٥٤ وشرح نهج البلاغة ٥: ١٢٠ عن الموفقيات للزبير بن بكار عن المدائني عن المطرف بن المغيرة بن شعبة.

(٢) الطبري ١٠: ٢٨٤ ومروج الذهب ٣: ٤٥٤.

(٣) الطبري ١٠: ٢٨٦.

(٤) مروج الذهب ٣: ٢١٦.

(٥) إبراهيم: ١٥، ١٦.

(٦) مروج الذهب ٣: ٢١٩.

وكان الوليد هذا مهملاً لأمره قليل العناية بأطرافه، وكان صاحب ملاءة وقيان، وإظهار للقتل والجور، وتشاغل عن أمور الناس بشرب ومجون، فبلغ من مجونه أنه أراد أن يبني على الكعبة بيتاً يجلس فيه للهو، ووجه مهندسا لذلك^(١) مجوسياً ليبني له على الكعبة مشربة للخمر، وأراد أن ينصب قبة ديباج على الكعبة ويجلس فيها ومعه الخمر، فخوّفه أصحابه من ثورة الناس فامتنع^(٢).

ب - ولذلك فهم - كما رأينا - كانوا يريدون القضاء على هذا الدين ودفنه نهائياً، وذلك لأنه كان يقف في وجه شهواتهم ومآربهم ويضرب بمصالحهم.

ج - وبالتصوير المشوّه للرّسول الكريم ﷺ والإسلام العظيم كانوا يحاولون تبرير كل انحرافات وسخافات الجهاز الحاكم، والتقليل من فضاعتها وبشاعتها في أعين الناس، وذلك برفع الفوارق الكبيرة بين مواقفهم ومواقف النبيّ الاعظم ﷺ.

أمّا ما يمثل لنا شخصية الرسول الكريم المستهدفة للأمويين فلنذكر منه نماذج:

١- نسمع الكميّ بن زيد الأسدي يمدح الرسول الكريم فيقول في قصيدته

البائية:

إلى السراج المنير أحمد، لا	يعدّني عنه رغبة ولا رهب
عنه إلى غيره، ولو رفع النسا	س إلى العيون وارتقبوا
وقيل: افطمت. بل قصدت ولو	عنّفي القائلون، أو ثلبوا!
إليك ياخير من تضمّنت الأر	ض وإنّ عاب قولي العيب
لجّ بتفضيلك اللسان ولو	أكثر فيك الضجّاج واللّجب

(١) اليعقوبي ٢ : ٣٣٣.

(٢) عن الأغاني والطبري في نهج الصباغة ٥ : ٣٤٠.

فيا ترى من الذي يحاول أن يعدل به عن مدح النبي ﷺ بالترغيب والترهيب؟ ومن يرتقبون أن يُمدح عوضاً عنه - عليه الصلاة والسلام -؟ ويا ترى بماذا خاطب الكميت النبي ﷺ غير أن يقول له: يا خير من تَضَعَت الأرض! حتى يقال له: أفرطت في مدحه! من الذي يعتقه ويشلّه ويعيبه؟ ومن الذي يكثر الضجّاج واللجب على النبي ﷺ؟!

ولعلّه قد أحسّ بأمر خطير خلف هذه السياسة الأموية فقال في أخرى: رضوا بخلاف المهتدين، وفيهم محبّة أخرى تصان وتحجب فلعلّه يقصد بالمحبّة الأخرى تخريب دين النبي ﷺ بعد تشويه سمعة شخصه.

أو ما ذكره الرجاليون وأصحاب الطبقات في ترجمة خالد بن سلمة المخزومي الشهير بالفأفاء: أنّه كان ينشد بني مروان هجو النبي ﷺ (١). وقد سبق هذا ما ذكره في ترجمة عمرو بن العاص أنّه لم يرض بضرب نصرانيّ سبّ النبي ﷺ (٢).

ولحق هذا ما رواه المؤرّخون في علل خروج زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنه: أنّه دخل على هشام بن عبد الملك فسمع أنّ النبي ﷺ يسبّ عنده فلم ينكره ولم يغيّر على قائله (٣).

أو أنّه يقصد بالمحبّة ما رواه ابن عبد ربّه الأندلسي في «العقد الفريد»:

(١) انظر دلائل الصدق للمظفر ١: ٢٩، وراجع: بحوث مع أهل السُنّة والسلفية: ١٠١.
(٢) الإصابة ٣: ١٩٥ عن البخاري في تاريخه بإسناد صحيح، والاستيعاب بهامش الإصابة ٣: ١٩٣.

(٣) انظر كشف الغمّة للاربلي ٢: ٣٥٢ وكُتِبَ التراجم والرجال في ترجمة زيد رضي الله عنه.

أنّ الحجاج كتب إلى عبد الملك: أنّ خليفة الرجل في أهله أكرم عليه من رسوله إليهم، وكذلك الخلفاء يأمر المؤمنين أعلى منزلة من المرسلين^(١).

ولئن كانت هذه مخبأة يوماً فإنّ ذلك لم يدم طويلاً حتّى حجّ الحجاج ورأى الحجاج يطوفون بقبر الرسول ﷺ ومنبره بالمدينة فقال: تبا لهم إنّما يطوفون بأعواد ورمّة بالية! هلاً طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك؟! ألا يعلمون أنّ خليفة المرء خير من رسوله؟!

قال المبرّد: إنّ ذلك ممّا كفّرت به الفقهاء الحجاج^(٢).

وبهذه النظرة فلا مانع لديه أن يرمي الكعبة بالمنجنيق - بل كما قيل - بالعدرة أيضاً^(٣). ولا يرى أية حرمة لمقام إبراهيم عليه السلام فيحاول أن يضع رجله على المقام فيزجره عن ذلك محمد بن الحنفية^(٤).

وعلى هذه النظرة أيضاً: «هلاً طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك» فلا استبعاد لما احتمله السيد المرتضى العاملي: أن يكون الحجاج حين بنى مدينة (واسط) في العراق وسطاً بين الكوفة والبصرة، حول قبلتها من جهة الحجاز (الكعبة) إلى جهة الشام: إمّا قصر أمير المؤمنين (!) أو قبة الصخرة التي بناها وأمر الناس بالحج إليها:

فقد ذكر اليعقوبي: أنّه لما استولى ابن الزبير على مكّة والحجاز كان يأخذ الحجاج بالبيعة له فلما رأى ذلك عبد الملك منعهم من الخروج إلى الحج، فضجّ الناس

(١) عن العقد الفريد ٢: ٣٥٤.

(٢) الكامل للمبرّد ١: ٢٢٢ وسنن أبي داود ٤: ٢٠٩ والعقد الفريد ٥: ٢٨٤ وشرح نهج البلاغة

١٥: ٢٤٢ عن كتاب «افتراق هاشم وعبد شمس» لأبي العباس الدباس. والنصائح الكافية

عن الجاحظ: ٨١، ونقل جداوله الدكتور طه حسين في كتابه: الايام.

(٣) عن الفتوح لابن الأعمم الكوفي المتوفى ٣١٠ ج ٢: ٤٨٢ وعقلاء المجانين: ١٧٨.

(٤) طبقات ابن سعد ٥: ٨٤ والمصنف لعبد الرزاق ٥: ٤٩ وربيع الابرار ١: ٨٤٣.

وقالوا: تمنعنا من حجّ بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا؟! فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم: أنّ رسول الله قال «لا تُشدّ الرّحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس» فهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام! وهذه الصخرة التي يروى: أنّ رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء، تقوم لكم مقام الكعبة!. فبنى على الصخرة قبة وعلّق عليها ستور الدّيباج وأقام لها سدّة، وأخذ الناس بأنّ يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة! وأقام بذلك أيام بني أميّة^(١).

وإلى هذا أشار الجاحظ في بعض آثاره فقال في المفاضلة بين بني هاشم وبني أميّة: وتفخر هاشم بأنّهم لم يهدموا الكعبة، ولم يحوّلوا القبلة، ولم يجعلوا الرسول دون الخليفة^(٢).

ويفصّل هذا أيضاً في بعض رسائله فيقول: حتّى قام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بالهدم وعلى حرم المدينة بالغزو، فهدموا الكعبة واستباحوا الحرم، وحوّلوا قبلة واسط - إلى أن قال - فأحسب أنّ تحويل القبلة كان غلطاً، وهدم البيت كان تأويلاً، وأحسب مارووا من كلّ وجه: أنّهم كانوا يزعمون: أنّ خليفة المرء في أهله أرفع عنده من رسوله إليهم^(٣)...

واحتمل السيد المرتضى العاملي: أنّ يكون هذا هو سر استحياب التّياسر في القبلة لأهل العراق دون غيرهم عند أئمة أهل البيت عليهم السلام، ويظهر أنّ خصوم الشيعة قد التفتوا إلى هذا منهم، ولذلك كانوا يتّهمون من يتحرّى القبلة بالرفض.

(١) تاريخ يعقوبي ٢: ٢١٦، وحياة الحيوان ١: ٦٦ والبداية والنهاية ٨: ٢٨٠ والاناقة في معالم

الخلافة ١: ١٢٩. وانظر بحثاً في هذا في السّنة قبل التدوين: ٥٠٢ - ٥٠٦.

(٢) عن آثار الجاحظ: ٢٠٥.

(٣) عن رسائل الجاحظ ٢: ١٦.

فقد روى الخطيب البغدادي: أن قاضي واسط أسد بن عمرو قد رأى قبله واسط رديئة فتحرّف فيها فأتهم بالرفض^(١).

٢- والمقايسة بين الرسول والخليفة، والتوهين بالكعبة لم يكن يقتصر على الحجاج، بل روى أبو الفرج الإصبهاني الأموي: أن خالد بن عبد الله القسري عامل هشام بن عبد الملك على مكة ذكر النبي ﷺ فقال: أيما أكرم: رسول الرجل في حاجته أو خليفته في أهله؟! يُعرض أن هشاماً خير من النبي ﷺ^(٢).

وروى عن أبي عبيدة قال: خطب خالد القسري يوماً فقال: إن إبراهيم الخليل استسقى الله ماء فسقاه الله ملحاً أجاجاً (يقصد زمزم) وإن أمير المؤمنين استسقى الله ماءً فسقاه عذياً نقاخاً^(٣) يقصد العين التي أجراها لسليمان بن عبد الملك بمكة قبل أن يحج إليها وأجراها إلى المسجد الحرام^(٤).

وروى أنه قال لغلامه يوماً: ابن أُمّي! أيما أعظم: ركيّتنا أم زمزم؟! فقال له: أيها الأمير من يجعل الماء العذب النقاخ مثل الملح الأجاج؟! وكان يسمّي زمزم: أمّ الجعلان^(٥).

وروى عن المدائني: أن خالداً كان يقول: لو أمرني أمير المؤمنين لنقضت الكعبة حجراً حجراً ونقلتها إلى الشام^(٦).

وروى أنه حبس بعض التابعين فأعظم الناس ذلك وأنكروه فبلغه ذلك،

(١) عن تاريخ بغداد ١٦: ٧ ونشوار المحاضرة ٦: ٣٦.

(٢) الاغانى ١٩: ٦٠.

(٣) الاغانى ١٩: ٦٠. النقاخ: الماء البارد العذب الصافي الطيب، كما في اللسان.

(٤) اليعقوبي ٢: ٢٩٣.

(٥) الاغانى ١٩: ٥٩ ومثله قبله في اليعقوبي ٢: ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٦) الاغانى ١٩: ٦٠ وانظر سفينة البحار ٢: ٦٦١ - ٦٦٢.

فخطب فقال: قد بلغني ما أنكرتم من أخذي عدوَّ أمير المؤمنين ومن حاربه، والله لو أمرني أمير المؤمنين أن أنقض هذه الكعبة حجراً حجراً لنقضتها! والله لأمر المؤمنين أكرم على الله من أنبيائه^(١).

٣- وتحامل ابن الزبير على بني هاشم تحاملاً شديداً وأظهر لهم العدواة والبغضاء، حتى بلغ ذلك منه أنه ترك الصلاة على مُحَمَّد ﷺ في خطبته! ف قيل له: لم تركت الصلاة على النبي؟ فقال: إن له أهيل سوء يشربون لذكره ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به! وأخذ أربعة وعشرين رجلاً من بني هاشم منهم مُحَمَّد بن الحنفية وعبد الله بن عباس امتنعوا عن بيعته فحبسهم وهددهم أن يحرقهم بالنار: وقام خطيباً فقال من علي بن أبي طالب عليه السلام ولما عجز عنهم أخرجهم من مكة، فأخرج مُحَمَّد بن الحنفية إلى رضوى وعبد الله بن عباس إلى الطائف حتى توفي ابن عباس بها سنة ٦٨ هـ^(٢).

واعتبروا أقوال الصحابة حجة كقول رسول الله ﷺ: قال الشيخ أبو زهرة في كتابه عن الإمام مالك: ووجدنا مالكا يأخذ بفتواهم - أي الصحابة - على أنها من السنة، ويوازن بينها وبين الأخبار المروية إن تعارض الخبر مع فتوى صحابي! وهذا ينسحب على كل حديث عنه - صلى الله عليه وآله [وآله] وسلم - حتى ولو كان صحيحاً^(٣).

ونقل هذا السيد المرتضى العاملي في مقدمته لسيرته ثم علق عليه يقول: وليس هذا إلا لأنَّ شأن رسول الله لم يكن عند هؤلاء في المستوى الطبيعي

(١) الاغانى ١٩: ٦٠.

(٢) اليعقوبي ٢: ٢٦١.

(٣) عن كتاب: الإمام مالك لابي زهرة: ٢٩٠.

اللائق به كما هو ظاهر. ثم نقل عن «الرسائل المنيرية» قوله: والعجب منهم من يستجيز مخالفة الشافعي لنصّ له آخر في مسألة بخلافه، ثم لا يرون مخالفته لأجل نصّ رسول الله^(١).

هذه هي صورة عن مكانة النبي ﷺ وتعاليمه وقيمة أقواله لديهم، نكتفي منه بهذا.

ونقول: إن وجود هذه الخطط التي استهدفت شخصية الرسول الكريم بل كلّ المقدّسات الإسلامية، توجب علينا أن نقوم بنصوص سيرته وروايات تأريخه وتاريخ الإسلام.

بماذا نقوم النصوص؟

وإن نحن أردنا ذلك في الضروري أن نعتمد فيه قبل كلّ شيء على:

١- عرضه على القرآن الكريم - كما مرّ - فقد روي عنه ﷺ - كما مرّ أيضا - أنّه قال: تكثّر لكم الأحاديث بعدي، فإذا روي لكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فاقبلوه، وما خالف فردّوه^(٢).

وعن عليّ بن الحسين عليه السلام قال عن القرآن: «وميزان قسط لا يحيف عن الحقّ لسانه، ونور هدى لا يطفأ عن الشاهدين برهانه، وعلم نجا لا يضلّ من أمّ قصد سنّته».

وروى الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ما لم يوافق كتاب الله فهو زُخرف^(٣).

(١) الصحيح ١: ٢٤ عن مجموعة الرسائل المنيرية: ٣٢.

(٢) عن اصول الحنفية للشاشي: ٤٣.

(٣) اصول الكافي ١: ٦٩.

وعن ابن عباس قال: إذا سمعتموني أحدث عن رسول الله فلم تجدوه في كتاب الله أو حسناً عند الناس، فاعلموا أنني كذبت عليه^(١).

وعن ابن مسعود قال: فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه^(٢).

وعن معاذ بن جبل قال: فاعرضوا على الكتاب كل شيء من الكلام ولا تعرضوه على شيء من الكلام^(٣).

وأوصى أبي بن كعب رجلاً فقال له: إتحذ كتاب الله إماماً وارض به قاضياً وحكماً^(٤).

وعن أبي بكر في خطبة له: فإن كانت للباطل غزوة ولأهل الحق جولة يعفو لها الأثر وتموت السنن، فالزموا المساجد واستشيروا القرآن^(٥).

ولن ينقضي العجب من بعض أهل الزيغ حيث نسب هذا القول - وهو عرض الحديث على القرآن - إلى أهل الزيغ فقال: وقد أمر الله عز وجل بطاعته - أي النبي ﷺ - واتباعه أمراً مطلقاً لم يقيد بشيء كما أمرنا باتباع كتاب الله، ولم يقل: ما وافق كتاب الله، كما قال بعض أهل الزيغ^(٦).

وأعجب من ذلك أن بعضهم نسب هذا الحديث إلى الزنادقة والخوارج! فقال: الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث، يعني ماروي عنه أنه قال:

(١) عن سنن الدارمي ١: ١٤٦.

(٢) عن المصنف ٦: ١١٢ وجامع بيان العلم ٢: ٤٢، وحياه الصحابة ٣: ١٩١.

(٣) عن كنز العمال ٨: ٨٧ عن ابن عساکر.

(٤) عن حلية الأولياء ١: ٢٥٣.

(٥) البيان والتبيين ٢: ٤٤ وعيون الأخبار لابن قتيبة ٢: ٢٣٣. والعقد الفريد ٤: ٦٠.

(٦) جامع بيان العلم ٢: ٢٣٣ عن أبي عمر.

ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله فإن وافق كتاب الله فأنا قلته وإن خالف كتاب الله فلم أقله. و: إنما أنا موافق كتاب الله وبه هداني الله.

وهذه الالفاظ لاتصح عنه عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه، وقد عارض هذا الحديث قوم من أهل العلم وقالوا: نحن نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كل شيء ونعتمد على ذلك، فلما عرضناه على كتاب الله وجدناه مخالفاً لكتاب الله، لأننا لم نجد في كتاب الله: أن لا يقبل شيء من حديث رسول الله، بل وجدنا كتاب الله يطلق التأسي به والأمر بطاعته، وكذا ينهى عن المخالفة عن أمره، جملة على كل حال^(١).

وقال أبو بكر البيهقي: والحديث الذي روي في عرض الحديث على القرآن باطل، فإنه ينعكس على نفسه بالبطلان، فليس في القرآن دلالة على: عرض الحديث على القرآن^(٢).

وقالوا بقول مطلق: السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاض على السنة^(٣).

وحاول الخطابي في شرحه لسنن أبي داود أن يجد من الحديث ما ينفي أحاديث العرض على الكتاب، وذلك في شرحه لقوله ﷺ « لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: ما ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه ».

(١) بحوث مع أهل السنة والسلفية: ٦٨ نقلا عن جامع بيان العلم ٢: ٢٣٣.

(٢) عن دلائل النبوة للبيهقي ١: ٢٦.

(٣) سنن الدارمي ١: ١٤٥ وتأويل مختلف الحديث: ١٩٩، جامع بيان العلم ٢: ٢٣٤ ومقالات

قال الخطابي معلقاً على هذا الحديث: في الحديث دلالة على أن لا حاجة إلى عرض الحديث على الكتاب، وأنه مهما ثبت عن رسول الله شيء كان حجة بنفسه فأما ما رواه بعضهم أنه قال: إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه... فإنه حديث باطل لا أصل له. وقد حكى زكريا الساجي عن يحيى بن معين أنه قال: هذا حديث وضعته الزنادقة^(١).

وقد بحث هذا الموضوع العلامة المحقق السيد مهدي الروحاني في كتابه «بحوث مع أهل السنة والسلفية» وخلص إلى القول: بأن هذه الأحاديث - أي أحاديث عرض الحديث على الكتاب - ناظرة إلى قبول الموافق ورد المخالف، أما ما لا يوافق ولا يخالف فهو باق تحت حجة الأخبار، فعدم وجود معنى حديث ما في كتاب الله لا يفيد مخالفة هذا الحديث له.

٢- بالاعتماد على القرآن الحكيم علينا أن نحدد معالم شخصية الرسول الكريم التي تمثل أسمى إنسان وجد ويوجد على وجه الأرض، متصفاً بصفات الفضل والكمال متخلياً عما عداها، حتى جعله الله لنا أسوة وقدوة مطلقاً فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٢) فهو كما وصفه حفيده الإمام الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة: «عصمكم الله من الزلل وآمنكم من الفتن، وطهركم من الدنس، وأذهب عنكم الرجس وطهركم تطهيراً» فهو المعصوم عن المعاصي والمبرأ من كل عيب وعاهة وآفة منفرة للناس عنه، فلا يرى في أعماله أي تشبث أو ضعف، ولا في أقواله أي تناقض أو تهافت أو سخف، بل الفضائل الكاملة، والصفات الإنسانية الرفيعة الفاضلة: حكمة وعلماً، وشجاعة وحزماً، وسكينة ووقاراً، و... وبكلمة: هو خليفة الله في أرضه وحجته على عباده.

(١) نقلاً عن عون المعبود في شرح سنن أبي داود ٤: ٣٢٩ من الطبعة الحجرية.

(٢) الممتحنة: ٦.

فلاحظ إن كان النصّ منسجماً مع هذه الشخصية العظيمة قبلناه، وإلاّ ردّدناه. وإلاّ فكيف تنسب إلى هذه الشخصية أنّه حمل حليته عائشة على متنه لتشاهد أغاني السودان؟! أو أنّه شرب النبيذ؟! أو أنّه بال قائماً؟! أو أنّه شكّ في نبوّته؟! أو أنّه أثنى على الأوثان تقريباً للمشرّكين إلى نفسه؟! وما شاكل ذلك.

٣- وبالإقتداء بالقرآن الكريم الذي إنّما خاطب أولي الألباب والعقول، وجعل العقل -القطعيّ الإتفاقيّ- حكماً فيما يقول وذمّ العقلاء على مخالفتهم لحكم عقولهم... فليكن ذلك هو موقفنا في جميع القضايا التاريخية أيضاً، فتأكد من إمكان حدوثه تاريخياً.

هذا بعد التأكد من سلامة النصّ من التناقض والمعارض، والنظر في طبقات الرواة وعلاقاتهم السياسية وغيرها، والتأكد من سلامة سند النصّ من الوضّاعين والكذّابين وأصحاب الأهواء السياسية وغيرها.

بعد كلّ ذلك وبالأخذ بنظر الإعتبار جميع تلك المقاييس، يكون بإمكاننا أن نقوم النصوص غير القليلة التي تسعى أن تصوّر الرسول الكريم ﷺ بمظهر صبيّ جاهل عاجز مهين! فلا ندع لها فرصة التسلّل إلى سيرته ﷺ.

وحيث إنّ يكون بإمكاننا أن نتقدم إلى المسلمين بنصّ من ثروة التراث يكون مصدر فخر واعتزاز.

وهذه ميزة يمتاز بها تاريخ الإسلام، وهي أنّه ينطلق عن قواعد بإمكانها أن تهدي الباحث إلى الطرق الآمنة والتي بإمكان سالكها أن يصل بها إلى الحقيقة التي يريدّها مطمئنّ النفس راضي الضمير، شريطة التزامه بتلك القواعد والضمانات المشار إليها فيما مرّ.

واستداركاً لما فات:

واستداركاً لما مرّ نقول: إنّ المدوّن من تاريخ الإسلام - بما فيه ممّا مرّ ذكره - مع ذلك يعتبر أغنى تاريخ مطلقاً، ذلك لامتياز به بدقته وشموله، فتراه يلتمح اللمحات، ويلتفت مع اللفتات، ويتحرك مع الحركات، ويتحدث عن الأحداث، ويتكلم بالكلمات، ويقف في المواقف بدقّة وشمول منقطع النظير، ويملك لذلك من النصوص الشيء الكثير، بحيث لا يشابهه أي تاريخ مطلقاً، فإنّه ليس بإمكان أي تاريخ آخر أن يثبت الكثير من أحاديثه عن الحوادث الكبرى بصورة قطعية فضلاً عن الجزئيات من الأمور.

لكن لا بدّ لمن يريد الإفادة من كتب التاريخ الإسلامي من أن يفتح عينه ووعيه لكل كلمة منه، فيطالعها بوعي ويقظة وحذر، يسعى لاستخلاص ما ينسجم منه مع الواقع ويردّ ماعداه، ممّا مال به القائل أو لعبت به الأهواء، ولا سيما ما يتعلق منه بصدر الإسلام، ممّا يتحكم فيه الهوى المذهبي والتزلف إلى الخلفاء والأمراء والحكام فيذكر الأمر منقطعاً عن علله وعوامله ومنفصلاً عن أسبابه وجذوره، وذلك بفعل التعصب البغيض والظلم الكثير. فالمؤرّخ كان لا يكتب ولا يثبت إلا ما ينسجم مع نفسية الحاكم، ويتفق وقوله، مهما كان مخالفاً للواقع والحقيقة، ولا اتجاه المؤرّخ عقيدته أيضاً، فهو يشوّه أموراً صدرت من الحاكم أو غيره ويحيطها بالغموض والإبهام، أو يهمل أحداثاً ويتجاهل شخصيات لها أثرها في التاريخ، ويخلق أحداثاً أو شخصيات لا وجود لها، أو يسهب الكلام في وصف غرام أو مجلس رقص أو غناء وشراب ويعني بأمور حقيرة تافهة.

بينما مهمّة المؤرّخ أن يعكس حياة الأمة ومعارض لها من أزمنة فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية، وبصورة عامة كلّ مامرت به من أوضاع وأحوال، وذلك بدقّة وأمانة. وليس بخافٍ ما في ذلك من الأثر الكثير في حياة الأمة

ووضعها في الحال الحاضر: عقائدياً وعلمياً وأدبياً واجتماعياً، حسب اختلاف الأحداث عمقاً وشمولاً. ولا ينبغي ترتب هذا الأثر البارز أن يكون الحدث التاريخي قد مرّ على تأريخه أكثر من ألف عام.

قلنا: إنّ المسلمين اهتموا بتدوين تأريخهم ما لانراه لغيرهم، وإنّه بالرغم ممّا ذكر فهو أثرى تأريخ أمة مطلقاً. ولكنّ هذا لا يعني أنّ تدوينه لم يتأثر بالأهواء السياسية ومختلف العصبية المذهبية وغيرها، ممّا أدخل فيه الأباطيل والموضوعات. الأمر الذي فرض علينا أن نتخذ من المبادئ القرآنية والإسلامية، وشخصية الرسول الكريم ﷺ، مقياساً لتقييم كثيرٍ من النصوص والحكم عليها من خلال انسجامها مع كلّ ذلك، وهكذا بالنسبة إلى كلّ شخصية من إمام معصوم وغيره حصلنا منه على علم عام بسيرته وأخلاقه، مستعينين بالكثير من أدوات البحث الأخرى التي توفّرنا الممارسة الطويلة في هذا الموضوع، كتناقض النصوص، أو التوصل إلى عدم إمكان وقوع ذلك الحدث في تلك الفترة الزمنية أو بالنسبة إلى الشخصية المنسوب إليها.

بحث الأسناد:

إنّ هذه الحالة - حالة عدم الأمانة التامة - لا تدعنا نعتمد على الأسانيد لتكون ميزاناً نهائياً ومقياساً مطلقاً في موضوع التاريخ، إذ إنّ ذلك يعني أن نحصر أنفسنا في حصار نصوص يسيرة تكاد لا تنفي حتّى بالفهرسة الإجمالية لسيرة الرسول الكريم ﷺ ومجمل تأريخ صدر الإسلام، ويعني أن نفقد الكثير من النصوص الصحيحة التي لم تحتفظ بسند فيه أدنى شرائط القبول، وسوف يفقد الناقد حرية حركته بين النصوص للإستنتاج.

إذن، فلا يمكن ملاحظة شروط الأسناد إلّا بالنسبة لما روي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، أمّا في خصوص النصوص التاريخية فإنّه لا يتيسر ملاحظة ذلك، ذلك

لأنَّ التاريخ قد دُوِّنَ بأيديهم قد تكون أمينة ولكن لا على الإطلاق ولا سيما بالنسبة لأسناد مادوتوا من أخبار، وعلى هذا، فلا بُدَّ من ملاحظة أكثر ما يمكن للتأكد من عدم الجعل والتحريف فيها قبل قبولها على أنها من التاريخ المعتمد عليه.

وبكثرة الأكاذيب والأباطيل في الأحاديث والأقاويل التاريخية، بسبب تلاعب الأهواء المذهبية والسياسية كما سبق، فإن الاستناد إلى أفراد معينين من المؤرخين أو نوعية معينة من الكتب التاريخية ربما تحرم الباحث من كثير من الحقائق التاريخية المبعثرة هنا وهناك، والتي أمكن لها أن تصل إلينا عبر الموانع المتعددة سليمة من كثير من التحريف، بما أن الساسة لم يروها؛ أو لم يروا فيها ما يشكّل خطراً عليهم، وكذلك المتعصبون من أرباب المذاهب، فبقيت بعيدة عن متناول أيديهم ورماحهم وغوغائهم، وآمنة من تعنت المتعصبين وجبروت الطواغيت كي تتلقفها اليوم بسلام.

دراستنا نحن للتاريخ:

ونحن هنا نحاول بدورنا أن نستخلص صورة نقية واضحة ما أمكننا من تأريخنا تاريخ الإسلام، وبصورة أساسية نهتم لنبتعد عن ذلك القسم الموضوع المكذوب من النقول التاريخية، والتي لاتعدو في الحقيقة والواقع عن أوهام من خيالات أصحاب الأهواء والأغراض من المحدثين والقصاصين.

والبداية الطبيعية لتاريخ الإسلام هي سيرة الرسول الكريم ﷺ، وهذه البداية الطبيعية تفرض علينا أن نلاحظ أولاً شيئاً عن تأريخ ما قبل البعثة النبوية الشريفة، كي نتعرف على المناخ والجو الذي ظهر فيه الإسلام إلى العالم.

واعتمدنا فيما كتبناه هنا - حتى الإمكان - على أسبق ما كتبه أرواه السابقون الأولون ولا سيما من مدرسة أهل البيت عليهم السلام دون المتأخرين فضلاً عن المعاصرين

إلا قليلاً، إذ هو علم نقلٍ ليس للمتأخر إلا ما كتبه المتقدم اللهم إلا في كيفية الإخراج والتأليف والتصنيف والترتيب والتنظيم والتنسيق، ثم توجيهه وتحليله كل في حدود إمكانه وطاقته.

وقد أمسك أولئك المؤرخون القدامى عن أية دراسة أو تحليل للحوادث والوقائع التاريخية، ولعلّه صيانة لنصوص أحاديث تلك الحوادث، لا بشأن النبي ﷺ فحسب، بل إنّ التاريخ الإسلامي بصورة عامّة كُتب بدون دراسة أو تحليل أو تحقيق. أجل إنّ أول من فتح هذا الطريق بوجه المؤرخين الإسلاميين هو العالم العربي القاضي عبد الرحمن بن محمد الخضري المالكي المعروف بابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، فإنّه أسّس في «مقدمته» أسس التاريخ التحليلي، وهي بما فيها من اشتباهاة كثيرة في تحليل بعض الحوادث تعدّ أثراً مفيداً جديداً مبتكراً في بابه.

وقد كُتبت بشأن النبي العظيم من النوعين الأول والثاني، أي التاريخ الوقائعي والتحليلي كُتب كثيرة، ولكن يعوز النوع الأول: التحليل، ويعوز النوع الثاني في كثير من الأحيان أنّها على جانب كبير من الأخطاء العجيبة، حيث إنّها اعتمدت على مصادر غير معتبرة أو على كُتب المستشرقين.

فبالنظر إلى هذين الإشكالين الأساسيين عمدنا في حدود إمكاننا في دراستنا هذه أن نتجنبها، وذلك بأن:

نسجّل الحوادث المهمّة التي تميّز بدروس لنا فيها، وأنّ ننقل ذلك من المصادر الأصلية الأولى المؤلّفة في القرون الأولى الإسلامية والشواهد التاريخية الناطقة. والله الموفق والمعين، وهو الهادي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم، فهو حسبي ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.

الفصل الاول

البيئة العربية والظروف العالمية

قبيل ظهور الإسلام

الجاهلية في القرآن الكريم:

قلنا: إنّ البداية الطبيعيّة لتأريخ الإسلام تفرض علينا أن نتعرّف أولاً على حالة العرب قبل الإسلام كي نتعرّف على المناخ والجو الذي انطلقت فيه الدعوة إلى الإسلام، وخير كلام في هذا المقام كلام الإمام العلامة الطباطبائي في تفسيره «الميزان» قال:

إنّ القرآن يسمّي عهد العرب المتّصل بظهور الإسلام بالجاهليّة، وليس إلاّ إشارة منه إلى أنّ الحاكم فيهم يومئذ الجهل دون العلم، وأنّ المسيطر عليهم في كلّ شيء الباطل دون الحق، وكذلك كانوا، على ما يقصّ القرآن من شؤونهم:

قال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾^(١).

وقال ﴿أَفَعُكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَتَّبِعُونَ﴾^(٢).

(١) آل عمران: ١٥٤.

(٢) المائدة: ٥٠.

وقال: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (١).

وقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (٢).

كانت العرب يومئذٍ تجاور في جنوبها الحبشة وهي نصرانيّة، وفي مغربها إمبراطوريّة الروم وهي نصرانيّة أيضاً، وفي شمالها الفرس وهم مجوس، وفي غير ذلك مصر والهند وهما وثنيتان، وفي أرضهم طوائف من اليهود. وهم وثنيون يعيش أكثرهم عيشة القبائل، وهذا كله هو الذي أوجد لهم اجتماعاً همجياً بدوياً فيه أخلاط من رسوم اليهوديّة والنصرانيّة والمجوسيّة، وهم سكارى في جهالتهم.

وكانت العشائر البدو على ما لهم من خساسة العيش ودناءته يعيشون بالغزوات وشنّ الغارات واختطاف ما في أيدي الآخرين من متاع أو عرض، فلا أمن بينهم ولا أمانة، ولا سلم ولا سلامة، والأمر لمن غلب، والملك لمن وضع يده عليه «ومن عزّ بزّ» أي: من امتنع قطع، أو من قوي فري.

أمّا الرجال فالفضيلة بينهم سفك الدماء والحميّة الجاهليّة والكبر والغرور واتباع الظالمين وهضم حقوق المظلومين، والتعادي والتنافس، والقمار وشرب الخمر والزنا، وأكل الميتة وحشف التمر.

وأما النساء فقد كنّ محرومات من مزايا المجتمع الإنساني لا يملكن من أنفسهنّ إرادة ولا من أعمالهنّ عملاً، ولا يملكن ميراثاً، ويتزوّج بهنّ الرجال من غير تحديد بحدّ، كما عند اليهود وبعض الوثنيين، ومع ذلك فقد كنّ يتبرّجن بالزينة ويدعين من أحبين إلى أنفسهنّ، وفشا فيهنّ الزنا والسفاح حتّى المحصنات المزوّجات منهنّ، ومن عجيب بروزهن أنّهنّ ربّما كنّ يطفن بالبيت ليلاً عاريات من ثيابهنّ (لأنّهنّ لا يجدن إحراماً طاهراً).

(١) الفتح: ٢٦.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

وأما الأولاد فكانوا يُنسَبون إلى الآباء لكنهم لا يُورَثون صِغاراً ويذهب الكبار بالإرث، ومن الإرث زوجة المتوفى، ويُحَرَم الصغار - ذكوراً أو إناثاً - والنساء. نعم لو ترك المتوفى صغيراً ورثه ولكن الأقوياء يتولّون أمر اليتيم ويأكلون ماله، ولو كان اليتيم بنتاً تزوّجوها وأكلوا مالها ثم طلقوها وخلّوا سبيلها، فلا مال تقات به ولا راغب في نكاحها ينفق عليها. والإبستلاء بأمر الأيتام من أكثر الحوادث المبتلى بها بينهم لدوام الحروب والغارات والغزوات فطبعاً كان القتل شائعاً بينهم.

وكان من شقاء أولادهم أن بلادهم الخربة وأراضيهم القفرة البائرة كان يسرع إليها الجذب والقحط، فكان الرجل يقتل أولاده خشية الإملاق: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ ^(١) وكانوا يندون البنات: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ ^(٢) وكان من أبغض الأشياء أن يبشّر الرجل بالأنثى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُنْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ^(٣).

وأما وضع الحكومة بينهم: فأطراف الجزيرة وإن كانت ربّما ملك فيها ملوك تحت رعاية أقوى الجيران وأقربها كإيران لنواحي الشمال، والروم لنواحي الغرب، والحبشة لنواحي الجنوب، إلا أن قرى الأوساط كمكة ويثرب والطائف وغيرها كانت تعيش في وضع أشبه بالجمهوريّة وليس بها، والعشائر في البدو بل حتّى في داخل القرى كانت تدار بحكومة رؤسائها وشيوخها، وربّما تبدّل الوضع بالسلطنة.

(١) الإسراء: ٣١.

(٢) التكوين: ٨، ٩.

(٣) النحل: ٥٨، ٥٩.

وهذا هو الهرج (القوضى) العجيب الذي كان يبرز في كلّ عدّة معدودة منهم بلون، ويظهر في كلّ ناحية من أرض شبه الجزيرة بشكل مع الرسوم العجيبة والاعتقادات الخرافية الدائرة بينهم. أضف إلى ذلك بلاء الأميّة وفقدان التعليم والتعلّم في بلادهم فضلاً عن العشائر والقبائل.

وكلّ هذا الذي ذكرناه من أحوالهم وأعمالهم والعادات والماراسيم الدائرة بينهم هو ممّا يُستفاد من سياق الآيات القرآنيّة والخطابات التي تخاطبهم بها، أوضح إفادة، فتدبر في المقاصد التي ترومها الآيات والبيانات التي تلقى إليها إليهم بمكّة أولاً، ثمّ بعد ظهور الإسلام وقوّته بالمدينة ثانياً، وفي الأوصاف التي تصفهم بها، والأمور التي تدمّها منهم وتلومهم عليها، والنواهي المتوجّهة إليهم في شدّتها وضعفها.. إذا تأملت كلّ ذلك تجد صحّة ما ذكرناه. والتأريخ كذلك يذكر كلّ ذلك ويعرض من تفاصيله ما لم نذكره، لإجمال الآيات الكريمة وإيجازها القول فيه. وأوجز كلمة وأوفاهها لإفادة مجمل هذه المعاني ما سمّى القرآن به هذا العهد «الجاهليّة» فقد أجمل في معناها كلّ هذه التفاصيل. هذا حال عالم العرب ذلك اليوم.

وأما العالم المحيط بهم ذلك اليوم من الفرس والروم والحبشة والهند وغيرهم، فالقرآن يُجمل القول فيه أيضاً.

أمّا أهل الكتاب منهم أعني اليهود والنصارى ومن يلحق بهم (من الجوس والصابئة) فقد كانت مجتمعاتهم تدار بالأهواء الاستبداديّة والتحكّكات الفرديّة من الملوك والرؤساء والحكّام والعمّال، فكانت مقسمة طبعاً إلى طبقتين: طبقة حاكمة فعّالة لما تشاء، تعبت بالنفس والعرض والمال وطبقة محكومة مستعبدة مستذلّة لا أمن لها في مالٍ ولا عرض ولا نفس ولا حرّيّة ولا إرادة إلّا ما وافق من يفوقها. وقد كانت الطبقة الحاكمة استمّلت علماء الدين وحملة الشرع وائتلفت بهم، وأخذت مجامع قلوب العامّة وأفكارهم بأيديهم، فكانت بالحقيقة هي الحاكمة في

دين الناس ودنياهم، تحكم في دين الناس كيفما أرادت بلسان العلماء وأقلامهم، وفي دنياهم بالسوط والسيف.

هذا وقد انقسمت الطبقة المحكومة أيضاً حسب قوتها في السطوة والثروة فيما بينهم، إلى طبقتي الأغنياء المترفين والضعفاء والعجزة والعبيد، وإلى رب البيت ومربويه من النساء والأولاد، وكذا إلى الرجال المالكين لحرية الإرادة والعمل في جميع شؤون الحياة وإلى النساء المحرومات من جميع ذلك والتابعات للرجال محضاً والخدامات لهم فيما أرادوه منهن من غير استقلال ولو يسيراً.

ومجمل هذه الحقيقة يظهر من قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾^(١) وكذا قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٢) وقوله في النساء: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^(٣) وفيما أوصى به في التزويج بالفتيات والإماء: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ فَنُكِّحْهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾^(٤).

الجاهلية في نهج البلاغة:

وبعد استعراض هذه الآيات من القرآن الكريم بشأن الجاهلية يكفينا أن نتذكر بعض ما جاء عن علي عليه السلام في «نهج البلاغة» في ذلك:

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) آل عمران: ١٩٥.

(٤) النساء: ٢٥. الميزان ٤: ١٥١ - ١٥٤.

«وأنتم معشر العرب على شر دين وفي شر دار، مُنيخون بين حجارة خُشن وحيّات صُمّ، تشربون الكدير وتأكلون الجشِب، وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة والآثام فيكم معصوبة»^(١).

«والناس ضلّال في حيرة، وحاطبون في فتنة، قد استهوتهم الأهواء واستزلّتهم الكبرياء واستخفّتهم الجاهليّة الجهلاء، حيارى في زلزالٍ من الأمر وبلاءٍ من الجهل»^(٢).

«والأحوال مضطربة، والأيدي مختلفة، والكثرة متفرقة، في بلاء ازل وإطباق جهل: من بنات موؤدة وأصنام معبودة وأرحام مقطوعة وغارات مشنونة»^(٣).

معنى الجاهليّة:

ومن مصاديق الحميّة الجاهليّة ما حاوله البعض أن يحرف في معنى الجاهليّة من معنى عدم العلم وفقدان المعرفة لديهم إلى أنّها من الجهل بمعنى الحميّة والغضب، كما قد يقال: جهل زيد على عمرو بمعنى غضب عليه، وأنّها ليست من الجهل بمعنى عدم العلم والمعرفة.

وهذا التوجيه ليس - كما قلنا - إلاّ مصداقاً من مصاديق الحميّة الجاهليّة، فإنّ الظاهر من إطلاق الجهل ليس إلاّ بمعنى ما يقابل العلم والمعرفة، ولا تحمل على معنى الحميّة والغضب إلاّ مجازاً بقرينة ما، كما فيما يستشهدون به من قولهم جهل عليه،

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٩١.

(٢) الخطبة: ٩٥.

(٣) الخطبة: ١٨٧.

فإنّ تعدية الجهل إلى المفعول بلفظة «على» أجلي قرينة لفظية لذلك، وإلا فلا تحمل الكلمة إلا على ما يقابل العلم فقط.

وليت شعري ما يقول أصحاب هذا التوجيه غير الوجه في معنى ما جاء في الآيات الكريمة الأربع «ظنّ الجاهليّة» و«حكم الجاهليّة» و«الحميّة الجاهليّة» و«تبرّج الجاهليّة» فهل يصحّ أن تفسّر الجاهليّة في هذه الآيات بمعنى الغضب؟ وقد رأينا أمير المؤمنين عليه السلام وصف الجاهليّة بالجهلاء تأكيداً للمعنى المعروف من الجاهليّة، ثمّ قال: «وبلاء من الجهل» و«إطباق جهل» ممّا يؤكّد ذلك أيضاً ويدفع أيّ ترديد فيه.

«لقد أوضح لنا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كلماته المتقدّمة حالة العرب ومستواهم العلمي والثقافي، وأنّهم كانوا يعيشون في ظلمات الجهل والحيرة والضّياع..

وهذا يكذب كلّ ما يدّعيه الآخرون - كالألوسي وغيره - من أنّ العرب كانوا قد تميّزوا ببعض العلوم: كعلم الطبّ والأنواء والقيافة والعيافة...»^(١).

ويقول ابن خلدون بهذا الصدد «إنّ الملة - العربيّة - في أوّلها لم يكن فيها علم ولا صناعة، وذلك لمقتضى أحوال السذاجة والبداءة.. فالقوم يومئذٍ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين، ولا دفعوا إليه، ولا دعته إليه حاجة.. فالأميّة يومئذٍ صفة عامّة»^(٢).

ويقول عن علم الطب عند العرب: «... طب بينونه - في غالب الأمر - على تجربة قاصرة على بعض الاشخاص متوارثاً عن مشايخ الحيّ وعجائزه، وربّما يصحّ

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ١ : ٤٨.

(٢) مقدمة ابن خلدون : ٥٤٣.

منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج. وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره»^(١).
ويكفي أن نذكر هنا ما رواه البلاذري في أميَّتهم: إنَّ الإسلام دخل وفي قريش سبعة عشر رجلاً، وفي الأوس والخزرج في المدينة اثنا عشر رجلاً يعرفون القراءة والكتابة^(٢).

ويقول ابن خلدون عن نوعية الخطَّ عندهم «وكانت كتابة العرب بدوية وكان الخط العربي لأوّل الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط، ذلك لمكان العرب من البداوة والتوحّش وبعدهم عن الصنائع. وأنظر ما وقع - لأجل ذلك - في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها، ثمّ اقتنى التابعون من السلف رسمهم فيها تبرّكاً بما رسمه اصحاب الرسول»^(٣).
بل ربّما كانوا يعتبرون القراءة والكتابة عيباً، فقد قال عيسى بن عمر: قال لي ذو الرّمة: ارفع هذا الحرف. فقلت له: أكتتب؟ فقال بيده على فيه اي اكتب عليّ، فإنّه عندنا عيب^(٤).

وقال ابن خلدون بهذا الصدد: «مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ، لأنّه من جملة الصنائع، والرؤساء - أبداً - يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجرّ إليها»^(٥).

(١) مقدّمة ابن خلدون: ٤٩٣.

(٢) فتوح البلدان ق ٣: ٥٨٠.

(٣) مقدّمة ابن خلدون: ٤١٩.

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة: ٣٣٤.

(٥) مقدّمة ابن خلدون: ٥٤٤، فصل «أنّ حكمة العلم في الإسلام أكثرهم العجم».

فالذي رواه الرواة والمؤرخون يفيد نفي وجود أي لون من ألوان التعليم، أو وجوده ولكن بنسبة صغيرة جداً حيث لا يتجاوز عدد المتعلمين عدد أصابع اليدين والرجلين في كل بلدان الحجاز وحواضره.

ذهب بعض المتأخرين من المؤرخين العرب -منهم محمد عزة دروزة في كتابه: القرآن المجيد- إلى أن هناك في المدن الحجازية فئة من المتعلمين بنسبة لا يمكن تجاهلها. وكل ما سجله هؤلاء في كتبهم لتأييد رأيهم هو: -أن البيئة الحجازية- ولا سيما مكة والمدينة -كانت بيئة تجارية-، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في سورة قريش، فكانت -بحكم عملها وطبيعتها- على اتصال وثيق ومستمر مع البلاد المجاورة من الشام واليمن والعراق والتي كانت على جانب لا بأس به من العلم والثقافة.

وكانت البيئة الحجازية تضم فئات كتابية: يهودية ومسيحية أصيلة ونازحة من البلاد المجاورة، والتي كانت تتداول ما بينها الكتب الدينية وغيرها قراءة وكتابة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد ورد في القرآن العزيز أطول آية في سورة البقرة تطلب من الناس تسجيل كافة المعاملات والتصرفات وكتابتها نقداً أو ديناً صغيرة أو كبيرة^(١) فكيف تطلب هذه الآيات من الناس تحقيق كل ذلك دون وجود قسم من المتعلمين في صفوفهم يكتبون ويدونون عن أنفسهم أو الآخرين.

هذا بالاضافة إلى أن كتبة الوحي بين يدي الرسول ﷺ بلغ عددهم أكثر من أربعين رجلاً، وأن كثيراً منهم كانوا مكّيين، وهم الذين كتبوا القسم المكّي من القرآن قبل هجرته ﷺ إلى المدينة، فهذا دليل على وجود المتعلمين في مكة وإن كانوا قليلين، سواء ممن كتب الوحي من هؤلاء ومن لم يسلم بعد.

كما إنَّ الأسرى الفقراء من قريش الذين وقعوا في قبضة المسلمين في معركة بدر الكبرى في العام الثاني للهجرة، والذين لم يستطيعوا أن يقدموا فدية نقدية لإطلاق سراحهم، كلف كل واحد منهم - ممن يجيد القراءة والكتابة - تعليم عشرة من أطفال المسلمين في المدينة القراءة والكتابة لقاء إطلاق سراحهم، ويحدثنا البلاذري: إنَّ كثيرين منهم قاموا بما كلفوا به من تعليم الأطفال في المدينة وأصبحوا بعدها أحراراً عادوا إلى مكة، كما أسلم بعضهم بعدما لمسوا عدالة الإسلام وسماحته فكيف يعقل هنا أن يجيد قسم من الفقراء ومعدمي القرشيين القراءة والكتابة ولا يتقنها أغنياؤهم وتجّارهم وأرباب السلطان منهم! (١).

وخلاصة القول في جواب هؤلاء هو أن نقول: إنَّ الجهل كان هو الحاكم المطلق ولا نلاحظ نحن فيهم أي شيء من العلوم قبل الإسلام بل لا نرى إلا جهلاً وحيرة وضياًعاً. أمّا ما استشهد به هؤلاء فلا يعدو أن يكون ممّا قام به الإسلام لمحو الأمية. أمّا أولوية أن يكون ذوو الغنى والسلطان منهم يقرأون ويكتبون فقد عرفت فساده ممّا سبق عن ابن خلدون. وأمّا عدد كتّاب الوحي فقد فنّد أكثر العدد العلامة السيد ابو الفضل مير محمدي في كتابه القيم «بحوث في تاريخ القرآن وعلومه».

ولا يفوتنا هنا أن ننوّه إلى: أن أميّتهم هذه كانت السبب في قوة حافظتهم التي امتازوا بها، فأصبح الكثير منهم حفظة القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم. لكن مستواهم الثقافي هذا كان السبب الطبيعي في أن ينظروا إلى أهل الكتاب عموماً واليهود خصوصاً نظرة التلميذ إلى معلّمه فتكون لهم الهيمنة الفكرية عليهم، ممّا بقيت آثاره في أخبار روايتهم فيقول الطبري: «عن بعض أهل العلم من أهل الكتاب».

(١) لمحات من تاريخ القرآن للسيد محمد علي الاشيقر، ط النجف: ٣٦ و ٣٧.

غيرة وحمية، أم حمية جاهلية:

كما حاولوا أن يوجهوا الجاهلية بتفسيرها بمعنى الغضب لا عدم العلم والمعرفة، كذلك حاولوا تحريف الحمية الجاهلية المذكورة في القرآن الكريم من كونها صفة ذميمة إلى جعلها خصيصة ذات ميزة للعرب قبل الإسلام، وذلك بحذف صفة الجاهلية وإضافة لفظة «الغيرة» إلى «الحمية».

والحقيقة هي أن الحمية صفة ذميمة، إذ هي تعني أن يكون النصر للقبيلة وذوي القرابة فقط، وأن العون لا بدّ وأن يحضّ لهم ظالمين كانوا أو مظلومين فلا بدّ من الوقوف إلى جانب ابن القبيلة سواء كان الحقّ له أو عليه، حتّى قال شاعرهم يمتدحهم بذلك:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا^(١)
وفي المقابل تتحمّل القبيلة عنه كلّ جناية وجريمة يرتكبها، وتحميه من كلّ من أراد به سوء. وهذا هو التعصّب القبلي الذي لا يرحم ولا يلين. فالتعصّب القبلي كان من مميزات الإنسان العربي وخصائصه.

ومن الطبيعي أن يكون شعور أفراد كلّ قبيلة بالنسبة لأبناء قبيلتهم قوياً جداً، وذلك بدافع من شعورهم بالحاجة إلى قبائلهم للدفاع عن أنفسهم.

وهذا هو السرّ في شجاعتهم أيضاً، وذلك أنّهم بحكم بيئتهم وحياتهم في الصحراء بلا حواجز وموانع طبيعية أو غيرها، كانوا يشعرون بحاجتهم إلى حماية أنفسهم والدفاع عنها، ولا يردّ عنه إلّا يده وسيفه ثمّ أهله وعشيرته، وهو يرى نفسه في كلّ حين عرضة للغزو والنهب والسلب والغارات والثارات.

إنّ حياة البادية والغزو المفاجيء وعمليات الاغتيال ثاراً التي كانت تهدّدهم

(١) الشاعر: قريط بن أنيف من شعراء الجاهلية كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٢٧، ٢٩.

دائماً، كلّ ذلك كان يستدعي سرعة الإقدام ومباشرة العمل فوراً، فإذا اُضيف إلى ذلك عدم شعورهم بالمسؤوليّة عمّا يفعلون، فإنّ الإقدام بلا تروٍّ ولا تريث لا بدّ وأن يصبح هو الصّفة المميّزة لهم والطّاغية على تصرّفاتهم.. ولذا فقد قلّ أن تجد فيهم حليماً.

وأخيراً فقد نعى القرآن الكريم على الجاهليّة هذه الحميّة فعبّر عنها بالحمية الجاهليّة، وهذا يعني أنّها كانت من دون تثبّت في الفكر والرأي بل للجهل، فكيف تكون ميزة؟!.

أجل إنّ الإسلام حاول أن يضع هذه الحميّة في خطّها الصحيح وأن يجعلها تنطلق من قواعد إنسانيّة وعواطف حقيقيّة وفضائل أخلاقيّة، وبالأخصّ من إحساس دينيّ صحيح، وأن يستفيد منها في بناء الأُمّة على أسس صحيحة وسليمة. فقد حاول أن يوجّه العصبيّة القبليّة وجهة بناءة ويقضي على كلّ عناصر الشر والانحراف فيها، فدعى إلى برّ الوالدين وإلى صلة الرحم، وجعل ذلك من الواجبات وذلك لربط الأُمّة المسلمة بعضها ببعض. وفي الوقت نفسه أدان كلّ تعصب لغير الحقّ وندّد به وعاقب عليه، واعتبر ذلك من دعوات الجاهليّة المنتنة كما جاء في بعض نصوص الاحاديث. وكذلك حاول أن يوجّه غيرتهم وحميتهم وشدّتهم إلى حيث قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾^(١).

بناء الكعبة المعظّمة:

يجدر بنا ونحن نحاول دراسة التاريخ الاسلامي أن نتعرّف على تأريخ بناء الكعبة في مكة المكرمة، وذلك يجرّنا إلى البدء بتأريخ بانيتها إبراهيم عليه السلام، فلنبداً به:

ومن اجمع ما يتضمن قصة الخليل عليه السلام ما جاء في « روضة الكافي » بسنده عن علي بن ابراهيم القمي، عن زيد الكرخي قال:

سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: إن إبراهيم عليه السلام كان مولده بكوثراريا وكان أبوه من أهلها، وكانت أم إبراهيم وأم لوط عليهما السلام، سارة وورقة اختين، وهما ابنتان للاحج، وكان للاحج نبياً منذراً، ولم يكن رسولاً.

وكان إبراهيم عليه السلام في شببته على الفطرة التي فطر الله عز وجل الخلق عليها حتى هداه الله تبارك وتعالى إلى دينه واجتباها وأنه تزوج سارة ابنة^(١) للاحج، وهي ابنة خالته، وكانت سارة صاحبة ماشية كثيرة وأرض واسعة وحال حسنة، وكانت قد ملكت إبراهيم عليه السلام جميع ما كانت تملكه، فقام فيه وأصلحه وكثرت الماشية والزرع حتى لم يكن بأرض كوثراريا رجل أحسن حالاً منه.

وإن إبراهيم لما كسر اصنام نمرود وأمر به نمرود فأوثق، وعمل له حائراً وجمع له فيه الحطب وأهلب فيه النار، ثم قذف إبراهيم عليه السلام في النار لتحرقه، ثم اعتزلوها حتى خمدت النار. ثم اشرفوا على الحائير فإذا إبراهيم عليه السلام سليماً مطلقاً من وثاقه. فأخبر نمرود خبره، فأمرهم أن ينفوا إبراهيم عليه السلام من بلاده، وأن يمنعوه من الخروج بماشيته وماله فحاجهم إبراهيم عليه السلام عند ذلك فقال: إن أخذتم ماشيتي ومالي فإن حقّي عليكم أن تردّوا عليّ ما ذهب من عمري في بلادكم! واختصموا إلى قاضي نمرود فقضى على اصحاب نمرود أن يردّوا على إبراهيم عليه السلام ماله! وأخبر بذلك نمرود، فأمرهم أن يخلّوا سبيله وسبيل ماشيته وماله ويخرجوه وقال: إنّه إن بقي في بلادكم أفسد دينكم (!) وأضرّ بآلهتكم. فأخرجوا إبراهيم ولوطاً عليهما السلام معه من بلادهم إلى الشام.

(١) قد علّق العلامة المجلسي في الجزء ٢٦ من مرآة العقول على ذلك بأنّه لا بدّ وأن تكون ابنة ابنة للاحج، ولعلّ السقط من النسخ حيث تصوّر أنّها زائدة.

فخرج ابراهيم -ومعه لوط لا يفارقه- وسارة، وقال لهم «إني ذاهب إلى ربّي سيّدين» يعني إلى بيت المقدس. فتحمل ابراهيم بماشيته وماله، وعمل تابوتاً وجعل فيه سارة وشدّ عليها الاغلاق غيراً منه عليها. ومضى حتّى خرج من سلطان نمرود، وصار إلى سلطان رجل من القبط يقال له: عزارة، فرّ بعاشر له فاعترضه العاشر ليعشر ما معه، فلما انتهى إلى العاشر ومعه التابوت قال العاشر لابراهيم عليه السلام: افتح هذا التابوت لنعشر ما فيه، فقال له ابراهيم عليه السلام: قل ما شئت فيه من ذهب أو فضة حتّى نعطي عشره ولا نفتحه. فأبى العاشر إلا فتحه، وغضب ابراهيم عليه السلام على فتحه. فلما بدت له سارة -وكانت موصوفة بالحسن والجمال- قال له العاشر: ما هذه المرأة منك؟ قال ابراهيم عليه السلام: هي حرمتي وابنة خالتي. فقال له العاشر: فما دعاك إلى أن خبيتها في هذا التابوت؟ فقال ابراهيم عليه السلام: الغيرة عليها أن يراها أحد! فقال له العاشر: لست أدعك تبرح حتّى أعلم الملك حالها وحالك. فبعث رسولاً إلى الملك فأعلمه، فبعث الملك رسولاً من قبله ليأتوه بالتابوت، فأتوا ليذهبوا به فقال لهم ابراهيم عليه السلام: إني لست أفارق التابوت حتّى يفارق روحي جسدي! فاخبروا الملك بذلك، فأرسل الملك: أن احمّوه والتابوت معه. فحملوا ابراهيم عليه السلام والتابوت وجميع ما كان معه حتّى أدخل على الملك، فقال له الملك: افتح التابوت! فقال له ابراهيم عليه السلام: أيها الملك إن فيه حرمتي وابنة خالتي وأنا مفتد فتحه بجميع ما معي.

فغضب الملك ابراهيم عليه السلام على فتحه، فلما رأى سارة لم يملك حلمه سفهه أن مدّ يده إليها، فأعرض ابراهيم عليه السلام وجهه عنها وعنه -غيره منه- وقال: اللهم احبس يده عن حرمتي وابنة خالتي! فلم تصل يده إليها ولم ترجع إليه! فقال له الملك: إن إلهك هو الذي فعل بي هذا؟ فقال له: نعم إن إلهي غيور يكره الحرام، وهو الذي حال بينك وبين ما أردته من الحرام.

فقال له الملك: فادع إلهك يردّ عليّ يدي، فإن أجابك فلن أعرض لها.
فقال إبراهيم عليه السلام: إلهي ردّ إليه يده ليكفّ عن حرمتي، قال: فردّ الله عزّ وجلّ إليه يده.

فأقبل الملك نحوه ببصره ثمّ عاد بيده نحوها فأعرض إبراهيم عنه بوجهه غيرة منه، وقال: اللهم احبس يده عنها. قال: فبيست يده ولم تصل إليها.
فقال الملك لإبراهيم عليه السلام: إنّ إلهك لغيور، وإنّك لغيور، فادع إلهك يردّ إليّ يدي، فإنه إن فعل لم أعد! فقال إبراهيم عليه السلام: أسأله ذلك على أنّك إن عدت لم تسألني أن أسأله! فقال له الملك: نعم، فقال إبراهيم: نعم.

فقال إبراهيم عليه السلام: اللهم إن كان صادقاً فردّ يده عليه. فرجعت إليه يده. فلما رأى ذلك الملك من الغيرة ما رأى، ورأى الآية في يده، عظم إبراهيم عليه السلام وهابه وأكرمه واتّقاه، وقال له: قد أمنت من أن أغرض لها أو لشيء ممّا معك فانطلق حيث شئت، ولكن لي إليك حاجة! فقال إبراهيم عليه السلام: ما هي؟ فقال له: أحبّ أن تأذن لي أن أخدمها قبطيّة عندي جميلة عاقلة تكون لها خادماً، فأذن إبراهيم عليه السلام فدعا بها فوهبها لسارة، وهى هاجر أمّ إسماعيل عليه السلام.

فسار إبراهيم عليه السلام بجميع ما معه، وخرج الملك معه يمشي خلف إبراهيم عليه السلام إعظاماً لإبراهيم وهيبته له، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى إبراهيم عليه السلام: أن قف ولا تمسّ قدّام الجبّار المتسلّط وهو يمشي خلفك، ولكن اجعله أمامك وامش خلفه وعظمه وهبه فإنه مسلّط، ولا بدّ من إمرة في الأرض برّة أو فاجرة! فوقف إبراهيم عليه السلام وقال للملك: امض، فإنّ إلهي أوحى إليّ الساعة: أن أعظمك وأهابك، وأن أقدمك أمامي وأمشي خلفك إجلالاً لك! فقال له الملك: أوحى إليك بهذا؟ فقال إبراهيم عليه السلام: نعم. فقال له الملك: أشهد أن إلهك لرفيق حلیم كريم، وإنّك ترعّبني في دينك! وودّعه الملك.

فسار إبراهيم عليه السلام حتى نزل بأعلى الشامات وقد خلف لوطاً عليه السلام في أدنى الشامات.

ثم إن إبراهيم عليه السلام لما أبطأ عليه الولد قال لسارة: لو شئت لبعثني هاجر لعل الله أن يرزقنا منها ولداً فيكون لنا خلفاً؟! فابتاع إبراهيم عليه السلام هاجر من سارة فتزوج بها، فولدت إسماعيل عليه السلام ^(١).

وروى علي بن إبراهيم القمي في تفسيره عن أبيه عن هشام عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:

إن إبراهيم عليه السلام كان نازلاً في بادية الشام، فلما ولد له من هاجر إسماعيل اغتمت سارة من ذلك غماً شديداً لأنه لم يكن له منها ولد، فكانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمه، فشكى إبراهيم ذلك إلى الله عز وجل، فأوحى الله إليه، إنما مثل المرأة مثل الضلع الأعوج، إن تركتها استمعت بها وإن أقمته كسرتها. ثم أمره أن يخرج إسماعيل وأمه، فقال: يا رب إلى أي مكان؟ قال: إلى حرمي وأمني وأول بقعة خلقتها من الأرض وهي مكة. فأنزل الله عليه جبرئيل بالبراق فحمل هاجر وإسماعيل. وكان إبراهيم لا يمر بموضع حسن فيه شجر ونخل وزرع إلا قال: يا جبرئيل إلى ها هنا؟ إلى ها هنا؟ فيقول: لا، امضي، امضي، حتى أتى مكة، فوضعه في موضع البيت.

وقد كان إبراهيم عليه السلام عاهد سارة: أن لا ينزل حتى يرجع إليها، فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجر، فألقت هاجر على ذلك الشجر كساء كان معها فاستظلوا تحته، فلما سترهم ووضعهم وأراد الانصراف منهم إلى سارة قالت له هاجر: يا إبراهيم لم تدعنا في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟!

(١) روضة الكافي: ٣٠٤ - ٣٠٦ ط النجف الأشرف، وانظر تفسير القمي ١: ٢٠٦، ٢٠٧ ط النجف الأشرف.

فقال إبراهيم: الله الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان حاضر عليكم. ثم انصرف عنهم فلما بلغ كُداء - وهو جبلٌ بذى طوى - التفت إليهم إبراهيم فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ ^(١) ثم مضى وبقيت هاجر.

فلما ارتفع النهار عطش إسماعيل وطلب الماء، فقامت هاجر في الوادي في موضع المسعى ونادت: هل في الوادي من أنيس؟! فغاب عنها إسماعيل، فصعدت على الصفا ولمع لها السراب في الوادي وظنت أنه ماء وسعت، فلما بلغت المسعى غاب عنها، ثم لمع لها السراب في ناحية الصفا فعادت حتى بلغت الصفا، حتى فعلت ذلك سبع مرّات، فلما كان في الشوط السابع وهي على المروة نظرت إلى إسماعيل وقد ظهر الماء من تحت رجله، فعادت حتى جمعت حوله رملاً فزمته بما جعلته حوله فلذلك سميت زمزم.

وكانت جرّهم نازلة بذى المجاز وعرفات، فلما ظهر الماء بمكة عكفت الطير والوحش على الماء فنظرت جرّهم إلى تعكّف الطير على ذلك المكان فاتبعوها حتى نظروا إلى امرأة وصبي في ذلك الموضع قد استظلّوا بشجرة، وقد ظهر الماء لهما. فقالوا لهاجر: من أنت وما شأنك وشأن هذا الصبي؟ فقالت: أنا أمّ ولد إبراهيم خليل الرحمن وهذا ابنه، أمره الله أن ينزلنا هنا. فقالوا لها: أيّتها المباركة أفتأذني لنا أن نكون بالقرب منكما؟

فلما زارهم إبراهيم عليه السلام في اليوم الثالث قالت هاجر: يا خليل الله إنّ ها هنا قوماً من جرّهم يسألونك أن تأذن لهم حتى يكونوا بالقرب منّا، أفتأذن لهم

في ذلك؟ فقال ابراهيم: نعم. فأذنت، فنزلوا بالقرب منهم وضربوا خيامهم، فأنست هاجر أم إسماعيل بهم.

فلما زارهم ابراهيم في المرة الثالثة نظر إلى كثرة الناس حولهم فسرّ بهم سروراً شديداً. وكانت جرهم قد وهبوا لإسماعيل كلّ واحد منهم شاة وشاتين فكانت هاجر وإسماعيل يعيشان بها.

فلما بلغ إسماعيل مبلغ الرجال أمر الله ابراهيم عليه السلام أن يبني البيت، فقال: يا ربّ في أيّ بقعة؟ قال: في البقعة التي أنزلت على آدم القبة فأضاء لها الحرم فلم تنزل البقعة التي أنزلتها على آدم قائمة حتّى كان طوفان نوح فلما غرقت الدنيا رفعت تلك القبة وغرقت الدنيا إلّا موضع البيت. فبعث الله جبرئيل عليه السلام فخطّ له موضع البيت، وأنزل الله عليه القواعد من الجنة، ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوى، وبني ابراهيم البيت فرفعه إلى السماء تسعة أذرع^(١). وكان الحجر الذي أنزله الله على آدم أشدّ بياضاً من الثلج، فاستخرجه ابراهيم عليه السلام ووضع في موضعه الذي هو فيه. وجعل له بابين: باباً إلى المشرق وباباً إلى المغرب يسمّى المستجار، ثمّ ألقى عليه الشجر والاذخر^(٢) وعلّقت هاجر إلى بابه كساء كان معها فكانوا يكتنون تحته.

فلما بناه وفرغ منه نزل عليهما جبرئيل عليه السلام يوم التروية لثمان مضين من ذي الحجة فقال: يا ابراهيم قم فارتو من الماء. لأنّه لم يكن بمنى وعرفات ماء، فسمّيت التروية لذلك، ثمّ أخرجه إلى منى فبات بها، ففعل به ما فعل بآدم عليه السلام^(٣).

(١) وكذلك في خبرين في الكافي ٤: ٢٠٧ الحديث ٨ و ٤: ٢١٧ الحديث ١، وهما في الفقيه ٢:

٢٤٧ وفي الثاني منها: والطول ثلاثين ذراعاً والعرض اثنين وعشرين ذراعاً.

(٢) الاذخر: نبات طيب الرائحة.

(٣) تفسير القمي ١: ٦٠ - ٦٢.

وروى علي بن ابراهيم القمي أيضاً عن أبيه عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن إبراهيم عليه السلام أتاه جبرئيل عند زوال الشمس من يوم التروية فقال: يا إبراهيم ارتو من الماء لك ولأهلك - ولم يكن بين مكة وعرفات ماء - فسميت التروية بذلك. فذهب به حتى انتهى به إلى منى فصلى به الظهر والعصر والعشائين والفجر، حتى إذا بزغت الشمس خرج إلى عرفات فنزل بنمرة، وهي بطن عرفة. فلما زالت الشمس خرج واغتسل فصلى الظهر والعصر بأذان واحد وإقامتين، وصلى في موضع المسجد الذي بعرفات - وقد كانت ثمة أحجار بيض فأدخلت في المسجد الذي بُني - ثم مضى به إلى الموقف فقال: يا إبراهيم اعترف بذنبك، واعرف مناسكك. ولذلك سميت عرفة. فأقام به حتى غربت الشمس، ثم أفاض به فقال: يا إبراهيم ازدلف إلى المشعر الحرام - فسميت المزدلفة - وأتى به المشعر الحرام، فصلى به المغرب والعشاء الآخرة بأذان واحد وإقامتين، ثم بات بها فرأى في النوم أنه يذبح ابنه... حتى إذا صلى بها صلاة الصبح أراه الموقف.

ثم أفاض إلى منى فأمره فرمى جمره العقبة عندما ظهر له إبليس لعنه الله، وأمر أهله فسارت إلى البيت، واحتبس الغلام، فانطلق به إلى موضع الجمره الوسطى، فاستشار ابنه وقال - كما حكى الله ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ فقال الغلام - كما حكى الله ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾^(١).

وأقبل شيخ فقال: يا إبراهيم ما تريد من هذا الغلام؟ قال: أريد أن أذبحه! فقال: سبحان الله! تذبح غلاماً لم يعص الله طرفة عين!

فقال له إبراهيم: ويلك إن الذي بلغني هذا المبلغ هو الذي أمرني به!

فقال: لا والله ما أمرك بهذا إلا الشيطان!

فقال إبراهيم: لا والله لا أكلمك، ثم عزم إبراهيم على الذبح.

فقال: يا إبراهيم إنك إمامٌ يُقتدى بك، وإنك إن ذبحته ذبح الناس أولادهم! فلم يكلمه. وأقبل إلى الغلام فاستشاره في الذبح، فقال الغلام كما حكى الله: امض كما أمرك الله به، فلما أسلما جميعاً لأمر الله قال الغلام: يا أبتِ خمر^(١) وجهي وشدّ وثاقي!

فقال إبراهيم: يا بني! الوثاق مع الذبح؟ لا والله لا أجمعها عليك اليوم، فرمى له بقرطان الحمار^(٢) ثم أضجعه عليه وأخذ المديّة فوضعها على حلقه، ورفع رأسه إلى السماء ثم انتحى عليه بالمديّة فقلّب جبرئيل المديّة على قفاها وأثار الغلام من تحته، واجترّ الكبش من قبل ثبير الجبل الذي عن يمين مسجد منى وكان أملح أغبر أقرن يمشي في سواد ويأكل في سواد، فوضعه مكان الغلام، ونودي من (قبل) مسجد الخيف ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾^(٣).

ولحق إبليس بأمّ الغلام بحذاء البيت في وسط الوادي فقال لها: رأيت شيخاً ومعه وصيف قد أضجعه الشيخ وأخذ المديّة ليذبحه!

فقالت: كذبت، إنّ إبراهيم أرحم الناس، كيف يذبح ابنه!

قال: فوربّ السماء والأرض وربّ هذا البيت، لقد رأيته أضجعه وأخذ

المديّة!

(١) خمر: استره بالخمار.

(٢) قرطان الحمار: ما يجعل على ظهره من الجلّ والقماش.

(٣) الصافات: ١٠٤ - ١٠٦.

فقلت: ولم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. فوقع في نفسها أنه قد أمر في ابنها بأمر، فقالت: فحق له أن يطيع ربه. ولما قضت مناسكها أسرع في الوادي راجعة إلى منى^(١).

وما جاء في خبر علي بن إبراهيم القمي عن الإمام الصادق عليه السلام: أن الكعبة كانت قبل طوفان نوح قبة ضربها آدم عليه السلام بموضع البيت، يؤيده ما جاء في الخطبة المعروفة بالقاصعة للإمام علي عليه السلام أنه قال:

«ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم - صلوات الله عليه - وإلى الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً. ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً وأقل نتائق الدنيا مدرأً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة ورمال دمثة، وعيون وشلة وقرى منقطعة، لا يزكو بها خف ولا حافر ولا ظلف. ثم أمر آدم وولده: أن يشنوا اعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم وغاية للالتقى رحالهم، تهوى إليه الأفئدة من مفاوز سحيقة...»^(٢).

ولعل هذا هو معنى قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾ فإن رفع القواعد يفيد أنها كانت قد وضعت قبل ذلك وإن إبراهيم هو الذي رفعها وشيّد على أساسها وإن لم تكن بقيت بعد طوفان نوح، حيث قرأنا في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أن جبرئيل هو الذي دل إبراهيم عليه السلام على موضع البيت.

(١) تفسير القمي ٢: ٢٢٤ - ٢٢٦.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢، صبحي الصالح.

(٣) البقرة: ١٢٧ و ١٢٨.

وحيث لاحظ إبراهيم عليه السلام أن البيت قد وضع في بقعة يصعب فيها الحياة قال:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾^(١). واستجيبت دعوته فأصبحت الكعبة قبلة المسلمين ومهوى أفئدة المؤمنين.

شبه الجزيرة العربية مهد الحضارة الإسلامية:

هي شبه جزيرة كبيرة تقع في جهة الجنوب الغربي من آسيا، تقدر مساحتها بثلاثة ملايين كيلومتر مربع، وهذا يعني أنها أكبر من مساحة إيران مرتين، وأكبر من فرنسا ستّ مرّات، وأكبر من إيطاليا عشر مرّات، وأكبر من سويسرا ثمانين مرّة. وهي شبه جزيرة مستطيلة غير متوازية الأضلاع تحدّها من شمالها الشام وفلسطين، ومن شرقها أرض الرافدين من الكوفة إلى البصرة ثمّ خليج فارس - كما كان يسمّى - ومن جنوبها خليج عدن والمحيط الهندي، ومن غربها البحر الأحمر. فهي محصورة من جنوبها وغربها وقسم من مشرقها بالبحار وفي قسم آخر من مشرقها وشمالها ببادية الشام أو الاردن والعراق.

وقد قسموها قديماً إلى ثلاثة أقسام:

- ١- القسم الشمالي والغربي وهو الحجاز.
- ٢- القسم الشرقي والمركزي وهو المسمى بالصحراء العربية.
- ٣- القسم الجنوبي وهو اليمن.

وفي شبه الجزيرة صحاري رملية حارة واسعة غير قابلة للسكنى كثيرة منها: صحراء النفوذ، والربع الخالي الذي يمتد حتى حواشي الخليج الفارسي. وقديماً كان يسمّى قسم منه بصحراء الدهناء والقسم الآخر بالأحقاف.

وهذه الصحاري تشكل أكثر من ثلث الجزيرة غير المسكون بلاماء ولا كلاً إلا ما قد يوجد فيها من آثار الامطار فيرعى حولها بعض العرب ابلهم لفترة غير طويلة. والجو فيها حار جداً، وجاف كذلك إلا في بعض السواحل، وبعض النقاط المعتدلة نسبياً. ولذلك لا يتجاوز عدد نفوسها بمجموعها عن عشرين مليوناً تقريباً. وكانت جبال اليمن قديماً تحتوي على الاحجار الكريمة وشيء من الذهب والفضة، وغالباً ما كانوا يكتفون من تربية الحيوانات بالابل والخيل، ومن الطيور كان اكثر ما عندهم النعام والحمام. وفي الجزيرة جبال تمتد من الجنوب إلى الشمال آخر حد لارتفاعها ٢٤٧٠ متراً.

ونشرح هذه الاقسام الثلاثة من الجزيرة فيما يلي:

١- أمّا الحجاز، وهو القسم الشمالي والغربي للجزيرة، فهو يمتد من الاردن إلى اليمن في سواحل البحر الاحمر، وهي اراضي جبلية صخرية تتخللها صحاري قاحلة.

ولهذه المنطقة ذكر في التأريخ أكثر من غيرها وذلك لاشتغالها على الكعبة المعظمة.

الكعبة المعظمة ومكة المكرمة:

«وقد كانت الكعبة مقدسة معظمة عند الامم المختلفة: فكان الهنود يعظمونها ويقولون: إن روح سيفا - وهو الاقنوم الثالث عندهم - حلت في الحجر الاسود حين زار مع زوجته بلاد الحجاز.

وكانت الصابئة من الفرس والكلدانيين يعدونها احد البيوت السبعة المعظمة،
وربما قيل: إنه بيت زحل عندهم لقدم عهده وطول بقائه.

وكان سائر الفرس يحرمونها أيضاً زاعمين أن روح هرمز قد حل فيها، وربما
حجوا اليها زائرين.

وكان اليهود يعظمونها ويعبدون الله فيها على دين إبراهيم، وكان بها صور
وتمثال، منها تمثال إبراهيم وإسماعيل وبايديهما الازلام، ومنها صورة المسيح وامه،
وهذا يشهد بتعظيم النصارى لها أيضاً.

وكان العرب يعظمونها أيضاً كل التعظيم ويحجون اليها على انها بيت الله
بناها إبراهيم^(١).

ومدينة مكة من اشهر مدن العالم، واكثر مدن الحجاز نفوساً. وهي ترتفع عن
سطح البحر ٣٠٠ متراً تقريباً. عدد نفوسها اليوم ١٥٠ ألفاً تقريباً. وتربتها غير زراعية.
وللحجاز ميناءان على البحر الاحمر: احدهما: جدة^(٢)، وهي ميناء مكة
والآخر: ينبع، وهي كانت ميناء أهل المدينة المنورة سابقاً، واليوم أصبحت جدة هي
الميناء الرئيسي في الحجاز. وفي الحجاز من المدن المهمة بعد مكة: المدينة، والطائف.

المدينة المنورة:

وهي تقع في شمال مكة على بعد (٣٥٠ كم) تقريباً. وفي حوالها نخيل وبعض

(١) الميزان ٣: ٣٦١، ٣٦٢.

(٢) جدة: بكسر الجيم، بمعنى الصخور الساحلية. وفيها قبر بطول سبعة أمتار = خمسة عشر
ذراعاً منسوب إلى حواء أم البشر، قيل: ولذلك سميت جدة - بفتح الجيم - أي مرقد جدة
البشر! ولا يصح.

البساتين لصالح تربتها للزراعة نسبياً. وكان اسمها قبل الإسلام يثرب، وبعد هجرة الرسول ﷺ إليها سميت: مدينة الرسول، وحذف المضاف اليه تخفيفاً فقيل: المدينة. ويقال: إنَّ العماقة أول من سكنوا المدينة أو يثرب، وظلّوا بها حتّى نزلها اليهود في القرن الثاني الميلادي على اثر اضطهاد الرومان لهم في فلسطين، والمظنون أنّهم هاجروا من موطنهم الأصلي في فلسطين إلى الجزيرة على اثر ضغوط القيصر نينوس عليهم وهدمه هيكلهم سنة ٧٠ م وكذلك اصطدام القيصر هوريان بهم سنة ١٣٢ م في هذه الأثناء فرّ كثير منهم إلى الحجاز^(١).

ونرى أنّ الحجاز منطقة جرداء تقريباً لا تصلح للزراعة والعمل، فهي لا تصلح للسكنى والحياة... وهذا قد جعل المنطقة في مأمن من فرض السيطرة عليها من قبل الدولتين العظيمين آنذاك: الروم والفرس، ولذلك لا نرى لهم أي أثر فيها، إذ لم يكن لهم أي مغنم في تجهيز الجيوش إليها، فهم ان فعلوا ذلك كان عليهم أن يرجعوا عنها خائبين خاسرين.

وقد نقل بعض المؤرخين اليونانيين: أنّ القائد اليوناني الكبير: دمريوس، عزم على تسخير الجزيرة حتّى وصل إلى قرية: پترا - ولعلها ماء بدر - فقال له أهلها: أيها القائد اليوناني! لماذا تحاربنا؟ فنحن نعيش في صحاري ليس فيها أي شيء للعيش، وقد اخترنا هذه الصحاري القاحلة الجرداء كي لا ندعن لأمر احد، فاقبل هدايانا وانصرف عنا. والّا فنحن نعلمك أنّك ستصاب بمصائب عظيمة ومشاكل كثيرة؛ واعلم أنّ أحدا لا ينفكّ عما هو عليه من الخلق والعادة، فلو تقدمت فينا وأسرت منا أناساً تريد أن تذهب بهم فإنّك لن ترى نفعاً فيهم فإنهم سوف يقابلونكم بسوء الأعمال والنيّات لا يغيرون شيئاً ممّا هم عليه!

(١) راجع: الجزء السادس من تأريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي.

فقبل القائد اليوناني هداياهم وانصرف عن تسخير الجزيرة^(١).

٢ - القسم المركزي والشرقي من الجزيرة يسمى الصحراء العربية وفيها صحراء النجد، وهي أراضي مرتفعة نسبياً وفيها قرى عامرة كذلك، منها «الرياض» التي أصبحت في سلطنة آل سعود عاصمة لهم، وهي الآن مدينة كبيرة.

٣ - القسم الجنوبي الغربي للجزيرة يسمى: اليمن، طولها من الشمال إلى الجنوب يقرب من سبعة وخمسين كيلومتراً، ومن الغرب إلى الشرق يقرب من اربعة كيلومتراً، وتقرب مساحتها من ستين ألف ميل مربع، في جنوبها مدينة: عدن، وهي اكبر مدن اليمن، ويحدها من الشمال صحراء نجد ومن المشرق صحراء الربع الخالي، ومن المغرب البحر الاحمر، وأكبر موانئها ميناء: الحديدة.

واليمن هي اخصب نقاط الجزيرة واكثرها بركة ونعمة، ولها تاريخ حضاري عظيم، فهي مملكة التبابعة الذين حكموها سنين طويلة. وكانت المركز التجاري المهم ومفترق الطرق، وبها الاحجار الكريمة والذهب والفضة. وبها آثار حضارية ما زالت باقية حتى اليوم. وهذا يعني أن عرب اليمن كانوا قد بنوا هذه الآثار المهمة بهمهمم العالية في عهد لم تتوفر فيه الامكانيات لهذه الاعمال الضخمة. وكانوا قد تقدموا في الزراعة والري إلى حد تقرير البرامج المقررة والمنفذة حكومياً بدقة.

فمن آثارهم التاريخية ذلك السد المعروف بسد مأرب، والذي ما زالت آثاره باقية، وهو الذي تهدم بالسيل الذي اطلق عليه القرآن الكريم قوله سبحانه ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ وذلك حيث قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ

وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيُبَيِّنَ لَكُمْ آيَاتِنَا فَتَرْجَوْا رَبَّنَا بِأَعْدَائِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾.

وفي سورة قريش إشارة إلى تجارتهم في الشتاء إلى اليمن ﴿لَا يَلَافِ قُرَيْشٌ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (٢).

يقول جرجي زيدان: «إن الآثار التي ظهرت من الحفريات الاثرية للمستشرقين تدل على الحضارة الراقية في اليمن من سد مارب وفي صنعاء، ومدينة بلقيس. وكانت في مدينة مأرب (وهي مدينة سبأ) قصور عالية قد زينت ابوابها وسقوفها بالذهب، ووجد بها أوانٍ من الذهب والفضة، وسرر معدنية كثيرة» (٣).

وروى الشيخ الطبرسي عن فروة بن مُسيك قال: سألت رسول الله ﷺ عن سبأ أَرَجُلٌ هُوَ أُمٌّ امْرَأَةٍ؟ فقال هُوَ رَجُلٌ مِّنَ الْعَرَبِ وَلَدَ عَشْرَةَ، تِيَامِنُ مِنْهُمْ سِتَّةٌ وَتَشَاءُ مِ ارْبَعَةٍ، فَأَمَّا الَّذِينَ تِيَامِنُوا فَالْأَزْدُ وَكَنْدَةُ وَمَذْحِجٌ وَالْأَشْعَرِيُّونَ وَأَنْمَارٌ وَجَمِيرٌ. فقال رجل من القوم: ما أنمار؟ قال: الذين منهم خثعم وبجيلة، وأما الذين تشاءموا فعاملة وجذام ولحُمٌ وغَسَّانٌ (٤).

وفي «الكافي» بإسناده عن سدير: قال: سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن قول

(١) سبأ: ١٥ - ٢٠.

(٢) قريش: ١ - ٤.

(٣) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب: ٩٦.

(٤) مجمع البيان ٨: ٦٠٤، طبعة بيروت.

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية، فقال: هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر بعضهم إلى بعض، وأنهار جارية، وأموال ظاهرة، فكفروا نعم الله عزَّ وجلَّ وغيروا ما بأنفسهم من عافية الله فغير الله ما بهم من نعمة، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١) فأرسل الله عليهم سيل العرم، فغرق قراهم وخرَّب ديارهم وذهب بأموالهم وأبدلهم مكان جناتهم ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أَكْلِ خَمِطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ ثم قال: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾^(٢).

وقوم سبا من العرب العاربة باليمن، سمو باسم أبيهم سبا بن يشجب ابن يعرب بن قحطان، كما نقل رواية التاريخ.

العرب قبل الإسلام:

١ - العرب البائدة:

لا ريب في أنَّ جزيرة العرب كانت موطن قبائل كثيرة من العرب منذ القدم، وقد باد بعضهم على اثر حوادث خاصة سماوية وارضية، وذلك لاعراضهم عن ذكر الله كما قال تعالى في قوم سبا: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ... ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ... وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرَّقٍ... وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ﴾^(٣) ولذلك سمي هؤلاء بالبائدة. ولعلَّ منهم قوم عاد المُعاد ذكرهم في القرآن الكريم أكثر من عشرين مرّة وقوم ثمود المكرر ذكرهم في القرآن الكريم أكثر من خمس وعشرين مرّة.

(١) الرعد: ١١.

(٢) الميزان ١٦: ٣٢٤.

(٣) سبا: ١٦ - ٢٠.

أ - عاد قوم هود عليه السلام:

أما عاد فإنهم قومٌ من العرب من بشر ما قبل التاريخ كانوا يسكنون الجزيرة انقطعت أخبارهم وانمحت آثارهم، ولا يحفظ التاريخ من حياتهم إلا أقاصيص لا يُطمأن إليها، وليس في التوراة الموجودة ذكر لهم.

والذي يذكره القرآن الكريم من قصّتهم هو: أن عاداً كانوا يسكنون وادي أو صحراء الأحقاف^(١) وهو واد بين عمان وأرض مهرة إلى حضرموت والأحقاف هي الرمال الملتوية. وأنهم من ذرية من حملهم الله مع نوح عليه السلام وكانوا ذوي خلقه قوية عظيمة وطوالاً^(٢) وكان لهم تقدّم ورقى في المدنية والحضارة، ولهم بلاد عامرة وأرض خصبة ذات جنّات ونخيل وزروع ومقام كريم وبعث الله فيهم أخاهم هوداً يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إلى أن يعبدوا الله ويرفضوا عبادة الاوثان ويعملوا بالعدل والرحمة^(٣)، فبالغ في وعظهم وبث النصيحة فيهم وأثار الطريق وأوضح السبيل، وقطع عليهم العذر، فقابلوه بالاباء والامتناع، وواجهوه بالجحد والانكار، ولم يؤمن به إلا شرذمة منهم قليلون، وأصرّ جمهورهم على البغي والعناد، ورموه بالسفه والجنون، والحواء عليه بان ينزل عليهم العذاب الذي كان ينذرهم ويتوعدّهم به، فأرسل الله عليهم العذاب وأرسل إليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم^(٤) كانت تنزع الناس كأنهم أعجاز نخلٍ منقعر^(٥)، ريحاً صرصراً في أيام نحسات سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز

(١) الأحقاف: ٢١.

(٢) الأعراف: ٦٩، والسجدة: ١٥، الشعراء: ١٣٠.

(٣) الشعراء: ١٣٠.

(٤) الذاريات: ٤٣.

(٥) القمر: ٢٠.

نخل خاوية^(١) تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم^(٢). فأهلكهم الله جميعاً إلا هوداً والذين آمنوا معه^(٣) ولعله لهذا يسمي عاداً المهلكة بعاد الأولى^(٤) والأخرى هي الباقية منهم.

ب - ثمود قوم صالح عليه السلام:

وأما ثمود فهم قوم من العرب العاربة كانوا يسكنون وادي القرى بين المدينة والشام، وهم من بشر ما قبل التاريخ أيضاً لا يضبط التاريخ إلا شيئاً يسيراً من أخبارهم، ولقد عفت الدهور آثارهم، ولا اعتماد على ما يذكر من جزئيات قصصهم.

والذي يقصّه كتاب الله من أخبارهم هو: أنهم كانوا أمة من العرب يدلّ عليه اسم نبيهم صالح عليه السلام وهو منهم^(٥) جاءوا بعد قوم عاد، وكانت لهم حضارة ومدنية، يعمرون الارض ويتخذون من سهولها قصوراً ويتخذون من الجبال بيوتاً آمين^(٦)، ويفجّرون العيون ويحرثون ويغرسون جنّات النخيل^(٧)، وكان في مدينتهم شعوب وقبائل يتحكّم فيهم شيوخهم وسادتهم، وفيهم تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون^(٨) فلما أسرفوا في أمرهم أرسل الله إليهم صالحاً النبي عليه السلام،

(١) الحاقة: ٧.

(٢) الأحقاف: ٢٥.

(٣) هود: ٥٨.

(٤) النجم: ٥. بل الأولى أن يقال: ان الأولى هنا بمعنى القديمة وليست الأولى العددية.

(٥) هود: ٦١.

(٦) الأعراف: ٧٤.

(٧) الشعراء: ١٤٨.

(٨) النمل: ٤٨.

وكان من بيت الشرف والفخار معروفاً بالعقل والكفاءة^(١) فدعاهم إلى 'توحيد الله سبحانه وأن يتركوا عبادة الاصنام وأن يسيروا في مجتمعهم بالعدل والاحسان وأن لا يطفوا ولا يسرفوا'^(٢) فقام بالدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة وصبر على الأذى في جنب الله، فلم يؤمن به إلا جماعة قليلة من الضعفاء^(٣).

أما الطغاة والمستكبرون وعامة من تبعهم فقد اصرّوا على كفرهم واستدلّوا الذين آمنوا به ورموه بالسفاهة والسحر^(٤) وطلبوا منه البينة على كلامه وسألوه آية معجزة تدلّ على صدقه في دعوى الرسالة، واقترحوا له أن يخرج لهم من صخر الجبل ناقة، فأتاهم بناقّة على ما وصفوها له، وقال لهم: إنّ الله يأمركم أن تشربوا من عين مائكم يوماً وتكفّوا عنها يوماً فتشربها الناقة، فلها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، وأن تذروها تأكل في أرض الله ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب^(٥) وكان الأمر على ذلك حيناً. ثمّ إنهم مكروا وطفوا وبعثوا أشقاهم لقتل الناقة فعقرها. وقالوا للصالح: إئتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. قال صالح عليه السلام: تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب^(٦).

ثمّ مكّرت شعوب المدينة وأرهاطها بصالح ﴿تَقَاسَمُوا بِاللّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^(٧) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ

(١) هود: ٦٢، والنمل: ٤٩.

(٢) هود والشمس.

(٣) الاعراف: ٧٥.

(٤) الاعراف: ٦٦، والشعراء: ١٥٣، والنمل: ٤٧.

(٥) الاعراف: ٧٢، والشعراء: ١٥٦، وهود: ٦٤.

(٦) هود: ٦٥.

(٧) النمل: ٤٩.

وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١﴾ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴿٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٣﴾.

وفي «الكافي» بسنده عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: ﴿كَذَبْتَ ثُمُودَ بِالنَّذْرِ * فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُفْرٍ﴾ (١). قال: بعث الله إليهم صالحاً فلم يجيبوه وعتوا عليه وكانت صخرة يعظمونها ويعبدونها ويدبحون عندها في رأس كل سنة ويجمعون عندها. فقالوا: إن كنت كما تزعم نبياً رسولاً فادع لنا إلهك حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء (أي ذات حمل في الشهر العاشر) فأخرجها الله كما طلبوا منه (و) أوحى الله تبارك وتعالى إليه: أن يا صالح قل لهم: إن الله قد جعل لهذه الناقة شرب يوم ولكم شرب يوم.

فكانت الناقة إذا كان يومها شربت الماء ذلك اليوم، فيحبسونها فلا يبق صغير ولا كبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك، فإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم فمكثوا بذلك ما شاء الله. ثم إنهم عتوا على الله ومشى بعضهم إلى بعض قال: اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها، لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم. ثم قالوا: من الذي يلي قتلها ونجعل له جعلاً ما أحب؟! فجاءهم رجل أحمر أزرق ولد زنا لا يعرف له أب، يقال له: قدار، شقي من الأشقياء مشؤم عليهم فجعلوا له جعلاً.

(١) الذاريات: ٤٤.

(٢) الأعراف: ٧٨.

(٣) النمل: ٥٣.

(٤) القمر: ٢٣، ٢٤.

فلما توجهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترده تركها حتى شربت وأقبلت راجعة فقعد لها في طريقها فضربها بالسيف فلم يعمل شيئاً فضربها ضربة أخرى فقتلها، وخرّت على الأرض على جنبها وهرب فصيلها حتى صعد إلى الجبل، فرغا ثلاث مرّات إلى السماء وجاء قوم صالح فلم يبق منهم أحد إلا شركه في ضربته واقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا أكل منها.

فلما رأى صالح ذلك أقبل إليهم وقال: يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتُم؟ أعصيتُم أمر ربّكم؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إلى صالح عليه السلام: إن قومك قد طغوا وبغوا وقتلوا ناقة بعثها الله إليهم حجة عليهم، ولم يكن لهم فيها ضرر، وكان لهم أعظم المنفعة، فقل لهم: إنّي مرسل إليهم عذابي إلى ثلاثة أيّام فإن هم تابوا قبلت توبتهم وصددت عنهم، وإن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت إليهم عذابي في اليوم الثالث.

فأتاهم صالح وقال: يا قوم إنّي رسول ربّكم إليكم وهو يقول لكم: إن تبتُم ورجعتُم واستغفرتُم غفرت لكم وتبت عليكم.

فلما قال لهم ذلك كانوا أعتى وأخبث ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١) قال: يا قوم إنكم تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني وجوهكم محمرة، واليوم الثالث وجوهكم مسودة.

فلما كان أوّل يوم أصبحوا ووجوههم مصفرة فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا قد جاءكم ما قال صالح. فقال العتاة منهم: لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً. فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم محمرة، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح فقال العتاة منهم: لو أهلكنا جميعاً ما

سمعنا قول صالح ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها، ولم يتوبوا ولم يرجعوا، فلما كان اليوم الثالث أصبحوا ووجوههم مسودة فشى بعضهم إلى بعض فقالوا يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح.

فقال العتاة منهم: قد أتانا ما قال لنا صالح. فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ بهم صرخة خرقت أسماعهم وفلقت قلوبهم وصدعت أكبادهم، فماتوا جميعاً في طرفة عين صغيرهم وكبيرهم، ولم يبق لهم ناعقة ولا راغية ولا شيء إلا أهلكه الله، وأصبحوا في ديارهم ومضاجعهم موتى، وأرسل الله إليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقهم أجمعين^(١).

٢ - القحطانيون: هم أبناء يعرب بن قحطان الذين كانوا يسكنون اليمن وجنوب جزيرة العرب، ويسمّون بالعرب العاربة أيضاً. واليمنيون اليوم بصورة عامة والأوس والخزرج هم من نسل قحطان. وقد سبق أن قوم سبأ أيضاً كانوا من نسل قحطان، وكانت لهم حكومات ومساعٍ عمرانية وحضارية أثرية ولهم خط يسمّى بالخط المسند. وكلّ ما يقال عن حضارة العرب قبل الإسلام فإنما هو من هؤلاء في اليمن.

٣ - العدنانيون المضرّيون: وهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام الذي قد تبين لنا أنّه أمر بأن يذهب بابنه إسماعيل وأُمّه هاجر إلى أرض مكّة، فسار بهم إبراهيم عليه السلام من أرض فلسطين إلى بطن وادٍ منخفض بلا ماء ولا كلاً باسم مكّة، فأجرى الله لهم ماء زمزم. وكبر إسماعيل فتزوَّج من قبيلة جرهم الذين استأذنوا إبراهيم أن يسكنوا مكّة فأذن لهم، فكان لإسماعيل نسل كثير، ومن أحفاده عدنان، وقد تفرّعت منه فروع عديدة أشهرها قبيلة قريش في مكّة وحولها، وثقيف

في الطائف، وقيس عيلان في نجد، وعبد القيس في البحرين، وبنو خيفة في اليمامة، وضبة وتميم في صحراء الدهناء، وبكر عشائر بكر في الشمال الشرق إلى البحرين ويمامة، ومعهم تغلب، وأسد في شمال نجد، وكنانة وهذيل إلى مكة. وأهم عشائر قريش : هاشم وأمية ومخزوم وتيم وجمع وسهم وأسد ونوفل وزهرة وعدي.

أخلاق العرب قبل الإسلام:

ونعني بالأخلاق هنا تلك الآداب الإجتماعية التي كانت رائجة بينهم قبل الإسلام. وبصورة عامة نستطيع أن نلخص الخصال الحمودة العامة للعرب في بضعة سطور فنقول:

إنَّ عرب الجاهلية - ولا سيما العرب المستعربة من نسل إسماعيل عليه السلام - كانوا بالطبع أسخياء يكرمون من استضافهم، ولا يخونون أماناتهم إلا قليلاً، ويرَوْنَ نقض العهد ذنباً لا يُغتفر، وكانوا صريحين في أقوالهم، أقوياء في حفظهم، أقوياء في فنون من الشعر والخطابة، يُضْرَبُ بهم المثل في شجاعتهم وجراتهم، مَهَرَةٌ في ركض الخيل والرمي، يرون الفرار من الزحف عاراً لا يُغتسل.

وفي مقابل هذه الصفات كانوا قد تلوّثوا من مساوىء الأخلاق بما يذهب بكل كمال من هذه الخصال ولولا أن تداركهم رحمة من ربهم بأن بعث فيهم رسولاً من انفسهم يزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، لما كنّا نعيش اليوم نسلاً من عدنان، بل كانوا قد التحقوا بالعرب البائدة، وكانت تتجدّد قصة أخرى عن هؤلاء البائدين.

إنَّ شيوع الجهل والخرافات والفساد فيهم كان قد قرّب حياتهم من حياة الحيوانات، بحيث ينقل لنا التاريخ قصصاً متعددة عن حروب امتدّت خمسين سنة بل مائة، ولم تبدأ إلا على مواضع حقيرة لا يعبأ بها.

إنَّ عدم وجود حكومة متنفّذة بينهم تضرب على أيدي الطغاة والبلغاة من ناحية، ومن ناحية أخرى سوء الوضع الجغرافي للجزيرة من حيث الماء والكلاء، كانا عاملين جعلاً أكثر العرب من البدو الرّحل يجوبون الصحاري برواحلهم كلّ عام سعيّاً وراء الماء والكلاء، وإذا رأوا أثراً منها نصبوا خيامهم حولها، وإذا علموا -أو أخبرهم رائداهم- بمكان أنفع ممّا هم فيه بدأوا الرحلة من جديد.

إنَّ الجهل والفقر وفقدان النظام كان قد خيّم على بيئة الجزيرة العربية بصورة ظاهرة بحيث أصبحت لهم تلك العادات القبيحة اموراً اعتيادية، فكثرت فيهم الغارات، واسر بعضهم، وتداول فيهم الربا والخمر والميسر.

أنّهم كانوا يشنون على المروّة ويمجّدون بالشجاعة، لكنّ مفهوم الشجاعة لديهم كان عبارة عن قتل أكبر عدد ممكن وسفك الدماء أكثر فأكثر. وكذلك الغيرة كانت لديهم بمعنى وأد البنات في القبور و هنّ أحياء. ويرون الوفاء أنّ ينصروا عشيرتهم وحلفاءهم في كلّ شيء سواء كانوا على حقّ أم باطل :

قومٌ إذا الشرّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا^(١)

هل كانت للعرب حضارة قبل الإسلام؟

لا شكّ أنّه كانت هناك في جزيرة العرب بعض الحضارات، إلّا أنّها لم تكن في كلّ الجزيرة بل عدّة نقاط منها، كحضارة قوم سبأ أصحاب سدّ مأرب في اليمن، فإنّها حضارة لا تُنكر، ففضلاً عمّا ذكر عنها في التوراة الحاضرة وما نقل عن «هرودوت» و«ارتميدور» المؤرخين اليونانيّين قبل الميلاد، نرى المؤرخ الشهير المسعودي يقول في وصفها:

(١) لقريط بن أنيف من شعراء الجاهلية، كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي : ٢٧ - ٢٩.

« ذكر أصحاب التاريخ القديم: أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثرها وأغدقها، وأكثرها جناناً وغيطاناً وأفسحها مروجاً، مع بنيان حسن وشجر مصفوف، ومساكب للماء متكاثفة وأنهار متفرقة. وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجد على هذه الحالة، وفي العرض مثل ذلك، وإن الركب والمار كان يسير في تلك الجنان من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها لا تواجهه الشمس ولا تعارضه لاستتار الأرض بالعمارة الشجرية. واستيلائها عليها وإحاطتها بها. وكان أهلها في أطيب عيش وأرفهه، وأهنأ حال وأرغد قرى، وفي نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء وتدقق الماء، وقوة الشوكة واجتماع الكلمة ونهاية المملكة، وكانت بلادهم في الأرض مثلاً، وكانوا على طريقة حسنة من اتباع شريف الأخلاق، وطلب الأفضال بحسب الإمكان وما توجهه القدرة من الحال، فمكثوا على ذلك ما شاء الله من الأعصار، لا يعاندهم ملك إلا قصموه، ولا يوافقهم جبار في جيش إلا كسروه، فذلت لهم البلاد، وأذعن لطاعتهم العباد، فصاروا تاج الأرض»^(١).

إلا أن وجود هذه المستندات لا تدلنا على حضارة تسود كل أقطار الجزيرة العربية، ولا سيما منطقة الحجاز التي لم تكن تتمتع بهذه الحضارة بل لم تشم شيئاً من نسيمها، وهذا هو الذي جعلها مصونة عن تصرف المتصرفين بالبلاد، فلم يتوجه إليها نهم الروم والفرس اللذين كانا يقسمان العالم آنذاك. والمقطوع به هو أنه لم يبق من هذه الحضارة حين ظهور الإسلام شيء يذكر.

ونحن هنا نأتي بذكر قصة أسعد بن زرارة الخزرجي، التي تبين لنا نقاطاً كثيرة من حياة الناس في الحجاز: روى الشيخ الطبرسي في كتابه «إعلام الوري بأعلام الهدى» عن علي بن إبراهيم أنه قال:

«كان بين الأوس والخزرج حرب قد بغوا فيها دهوراً طويلة، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم يوم بعث وكانت للأوس على الخزرج، فخرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة، فنزل عليه فقال له: إنه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم.

فقال عتبة: بعدت دارنا عن داركم ولنا شغل لا نتفرغ معه لشيء!

قال: وما شغلكم وأنتم في حرملك وأمنكم؟

قال عتبة: خرج فينا رجل يدعي أنه رسول الله، سقه أحلامنا وسب آلهتنا

وأفسد شبابنا وفرق جماعتنا.

فقال له أسعد: من هو منكم؟

قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب من أوسطنا شرفاً وأعظمنا بيتاً.

وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين

كانوا بينهم -النضير وقريظة وقينقاع-: إن هذا أوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجرة بالمدينة، لنقتلنكم به يا معشر العرب.

فلما سمع أسعد ما سمع من عتبة وقع في قلبه ما كان سمعه من اليهود، وقال:

فأين هو؟

وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب فقال عتبة: إنهم لا يخرجون

من شعبهم إلا في الموسم، وها هو جالس في الحجر، فلا تسمع منه ولا تكلمه فإنه ساحر يسحرك بكلامه.

فقال أسعد: فكيف أصنع وأنا معتمر لا بد لي أن أطوف بالبيت؟

فقال: ضع في أذنك القطن. فحشا أسعد في أذنيه القطن ودخل المسجد

ورسول الله جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم، فطاف أسعد بالبيت ونظر إلى

رسول الله نظرةً وجازةً، فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما أجد أجهل مني! أكون مثل هذا الحديث بمكة فلا نعرفه حتى أرجع إلى قومي فأخبرهم؟! فأخذ القطن من أذنيه ورمى به وقال لرسول الله: أنعم صباحاً!

فرفع رسول الله رأسه إليه وقال: قد ابدلنا الله به ما هو أحسن من هذا، تحية أهل الجنة: السلام عليكم.

فقال أسعد: إنَّ عهدك بهذا ل قريب! إلّا مَ تدعو؟ يا محمد!

قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأدعوكم ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾.

فلما سمع أسعد هذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنتك رسول الله ﴿٢﴾.

كانت هاتان الآيتان من سورة الأنعام تتضمنان الداء والدواء لأمة متحاربة جاهلة، ولذلك خلّفت أثراً عميقاً في قلب أسعد وذكوان الخزر جيّين فأسلما فوراً.

إنَّ النظر في مفاد هاتين الآيتين يغنينا عن أي بحث آخر عن أوضاع العرب قبل الإسلام، فإنَّ هاتين الآيتين تبيّنان ما كان يسود حياة العرب في الجاهلية

(١) الأنعام: ١٥١، ١٥٢.

(٢) إعلام الوري ١: ١٣٦ - ١٣٨.

من الأمراض الخلقية المزمنة، وإن مضمون هاتين الآيتين شاهد على ابتلاء العرب بجميع هذه الأوصاف الرذيلة، ولهذا تلاهما رسول الله على أسعد في أول لقائه به وبذلك عرّفه برسالته.

الدين في جزيرة العرب:

إن آيات القرآن الكريم تشير إلى أرباب العرب وآلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم، والقرآن ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وفيه الكفاية:

قال عز وجل: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خِتْلَاقٌ﴾^(١).

وإذا كانت إيران قد اتخذت الزرادشتية (المجوسية) ديناً رسمياً لها طلباً للاستقلال العقائدي عن الروم المسيحية^(٢)، وهما في حرب دؤوب، فطبيعي أن تحاول إيران نشر عقيدتها الثنوية بالآلهين: إله الخير وإله الشر بين الشعوب المغلوبة المستعمرة لها من حولها، فتتفشّت المجوسية في بعض القبائل العربية من تيم والبحرين وعمان واليمن^(٣) ونحن نعلم أن المجوس ثنويون يؤمنون بالآلهين يدبران العالم فللخير يزدان وللشر اهرمين ولهما رمزان فليزدان الخير النور، ولاهرمين الشر الظلمة.

أما أكثر العرب في الجاهلية فكانوا وثنيين يؤمنون بقوى إلهية كثيرة منبثة في مظاهر الطبيعة، وبقوى خفية كثيرة في بعض الحيوانات والنباتات

(١) سورة ص: ٤ - ٧.

(٢) الإسلام وإيران ٢: ٣٢.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ٦: ٢٨٤ فما بعد.

وحتى الجهادات، فكانوا يتعبدون لأصنام وحتى أوثان كثيرة اتخذوها رمزاً لتلك الآلهة ومنها الكواكب والنجوم.

فكان عرب الجنوب في اليمن يرجعون بألهتهم إلى 'ثالوث مقدس هو: القمر، واسمه عند المعينيين (أوائل الألف الأول قبل الميلاد)^(١) ودّ، وكان إلههم الأكبر، وهو الزوج الذكر، ولذلك لفظه مذكر. وتليه الشمس، وهي اللات، وفيها تاء الإناث، ولذا اعتبروها زوجة القمر ولذلك لفظها مؤنث! ومنها ولدت العزى أي الزهرة أو عشتار، أو فينوس بالرومية، أو ناهيد بالفارسية. ولهم الهات أخرى رمزاً عن بعض النجوم أو بعض مظاهر الطبيعة أو بعض الطيور، وكانوا قد بنوا عليها الهياكل ويقدمون لها القرابين ويقوم عليها كهنة ذوو نفوذ كبير. وقوافل التجارة والهجرة كانت متبادلة بينهم وبين عرب الشمال العدنانيين أو النزاريين الحجازيين فحملوا دينهم معهم إليهم^(٢).

وأشار القرآن الكريم إلى عبادتهم للشمس في قوله سبحانه حكاية عن الهدد من طيور سليمان بن داود، إذ تفقّدها وكان الهدد غائباً فلم يره ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ إذ جاء، ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ إني وجدت امرأة تملكهم... ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٣). ويضيف القمر في آية أخرى تخاطب العرب المشركين: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾^(٤).

(١) العصر الجاهلي: ٢٥ لشوقي ضيف.

(٢) انظر العصر الجاهلي: ٢٩ لشوقي ضيف. والحياة العربية في الشعر الجاهلي للحوبي:

٤٢٠-٤٢١.

(٣) النمل: ٢٢-٢٤.

(٤) فصلت: ٣٧.

ومن قبل أضاف إليهما الكوكب فيما حكاه عن خليله إبراهيم عليه السلام قال: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ ولعله كان عشتار (الزهرة)، ولعلّ الليلة كانت من أواخر الشهر القمري إذ يظهر القمر متأخراً فبدأ بالكوكب ثم قال: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ فالليلة كانت من أوائل العشر الأخيرة من الشهر القمري إذ يظهر القمر متأخراً ثم يأفل ولا يبقى حتى الصباح، ولما بزغت الشمس صباحاً ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ﴾ ولعله بهذا يعترض على تقديمهم للقمر (الأصغر) على الشمس (الأكبر) ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾^(١).

ولعلّ شرك هؤلاء الصابئة البابليين هو منشأ شرك أهل اليمن ثمّ الحجاز^(٢). أمّا الهدد فطبيعي أنّه إنّما اهتدى إليهم نهراً فوجدهم يسجدون للشمس، ولم يذكر القمر والزهرة ولم ينفهما.

وقد أشار القرآن الكريم إليها بأسمائها المعينية اليمنية لدى الزارئين الحجازيين مع خمسة آلهة أخرى لهم، في آيتين من سورتين هما قوله سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ ثمّ أشار إلى انوثتها لديهم فقال: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾^(٣).

والآية الأخرى من سورة نوح وعن لسانه عليه السلام ﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا

(١) الأنعام: ٧٦ - ٧٨.

(٢) العصر الجاهلي: ٨٩ لشوقي ضيف.

(٣) النجم: ١٩ - ٢١.

لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿١﴾ ثُمَّ لَمْ يَجْعَلْهَا إِنَاثًا
بل ذَكَرَهَا فِي الضمير إليها فقال: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ﴿٢﴾ ثُمَّ حَكَى دَعَاءَ نُوحٍ عَلَيْهِمْ
قال: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ ﴿٣﴾.

إذن فلغة (ودّ) رجعت إلى أقدم من المعينين باليمن (أوائل الألف الأول - ق م) وإلى أقدم من قوم إبراهيم ببابل العراق (أوائل الألف الثالث ق م) إلى ما قبل
الطوفان (أوائل الألف الرابع ق م) ومن حيث المكان قرب مكان إبراهيم ببابل
العراق في الكوفة^(٢) ولذلك نقل الطوسي في «التيان» عن الضحاك وابن زيد وقتادة
عن ابن عباس قال: هذه الأصنام المذكورة كان يعبدها قوم نوح ثم عبدتها العرب
فيما بعد^(٣).

ونقله الطبرسي في «مجمع البيان» وفي تفصيله نقل عن ابن عباس أيضاً
قال: نحت إبليس خمسة أصنام وحمل الكفار فيما بين آدم ونوح على عبادتها، وهي:
ودّ وسواع ويعوق ويغوث ونسر. فلما كان الطوفان دفن تلك الأصنام وطمها
بالتراب فلم تزل مدفونة، حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب:

فاتخذت قضاة ودّاً فعبدوه بدومة الجندل، توارثوه حتى صار إلى كلب.
وأخذ بطنان من طي يغوث فذهبوا به إلى مراد فعبدوه زماناً، ثم إن بني
ناجية أرادوا أن ينزعوه منهم ففرّوا به إلى بني الحرث بن كعب، فجاء الإسلام وهو
عندهم.

(١) نوح: ٢١ - ٢٤.

(٢) ففي روضة الكافي عن الصادق عليه السلام قال: عمل نوح سفينته في مسجد الكوفة ... ثم التفت
وأشار بيده إلى موضع وقال: وهنا نصبت أصنام قوم نوح: يغوث ويعوق ونسر - الميزان ٢٠ -
٣٥. وعليه فلعل هذه الأسماء آرامية دخلت في المعينية.

(٣) التبيان ١٠: ١٤١.

وأما يعوق فكان لكهلان (اليمن) ثم توارثوه حتى صار إلى همدان (اليمن) فجاء الإسلام وهو فيهم.

وأما نسر فكان لختعم (اليمن) يعبدونه.

وسواع كان لآل ذي الكلاع (الحميري اليمني) يعبدونه^(١).

وفي كيفية حمل إبليس لأولئك الأوائل على عبادتها روى الصدوق في «علل الشرائع» بسنده عن الصادق عليه السلام قال: كانوا يعبدون الله فماتوا، فضج قومهم وشق ذلك عليهم فجاءهم إبليس فقال لهم: اتخذ لكم أصناماً على صورهم فتنظرون إليهم وتأنسون بهم. فأعد لهم أصناماً على مثالهم. فكانوا يعبدون الله وينظرون إلى تلك الأصنام، فلما جاء الشتاء والأمطار أدخلوا الأصنام البيوت، فلم يزالوا يعبدون الله، حتى هلك ذلك القرن ونشأ أولادهم فقالوا: إن آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء، فعبدوهم من دون الله عز وجل، فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا...﴾^(٢).

أما الآيات فقد أشارت إلى أن عبادتها كانت مكرراً مكره أصحاب الأموال والأولاد، ولعله لاستثمار الضعفاء منهم. ولعل في الفصل بين الآلهة وهذه الأصنام في قوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا...﴾ إشارة إلى أنهم جعلوا هذه الأصنام رموزاً للآلهة لا نفسها.

ثم نقل الطبرسي عن قتادة قائمة بنسبة أكثر من هذه الأصنام الخمسة إلى قبائل العرب قال:

إن أوثان قوم نوح صارت إلى العرب، فكان ودّ بدومة الجندل. وسواع برهاط لهذيل. وكان يغوث لمراد (اليمن) وكان يعوق لهمدان (اليمن) وكان نسر

(١) مجمع البيان ١٠: ٥٤٧. ونقله السيوطي عن ابن عباس أيضاً في الدر المنثور.

(٢) علل الشرائع ١: ١٣، ١٤.

لآل ذي الكلاع من حمير (الين) وكان اللات لثقيف، وأما العزى فلسليم وغطفان وجُسم ونضر وسعد، وأما مناة فكانت لفديد، وأما أساف ونائلة وهُبَل فلاهل مكة: كان اساف حيال الحجر الأسود، وكانت نائلة حيال الركن اليماني وكان هبل في جوف الكعبة. ونقل عن الواقدي قال: كان ودّ على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر من الطير.

ويقال إنّ اللات كانت صخرة مربعة بيضاء بنت عليه ثقيف بيتاً، وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه وكعبتها هي كعبة الطائف^(١) ولذلك نرى في أسمائهم: وهب اللات وعبد شمس.

وكانت مناة - آلهة الموت والآجال والأعمار والأقذار - صخرة منصوبة على ساحل البحر بين مكة والمدينة في هذيل وخزاعة، وكان الأوس والخزرج يحجّون إلى مكة ويقفون مع الناس المواقف الثلاثة ولكنهم لا يحلقون رؤوسهم، ولا يرون تمام حجّتهم إلّا أن ينصرفوا إلى مناة فيحلقوا رؤوسهم عندها^(٢).

وكانت العزى شجرة بوادي نخلة شرقي مكة إلى الطائف لغطفان، حتّى قطعها الإسلام^(٣). وقد جعلوا لها جمى شعباً من وادي الحِراض يقال له سِقام بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة بعد ذات العرق بتسعة أميال إلى البستان.

ومن ثنويّتهم في وثنيّتهم ما تدلّ عليه معاني: يعوق ويغوث وسواع، ففي الأخير ما يدلّ على أنّه كان إله الهلاك والشرّ، وبإزائه يعوق أي يكون عائقاً عنه،

(١) الأصنام للكلي: ١٦، ٢٢ والمحر لابن حبيب: ٣١٥ ومعجم البلدان في اللات.

(٢) الأصنام للكلي: ١٤، والمحر لابن حبيب: ٣١٦، ومعجم البلدان في مناة.

(٣) الأصنام للكلي: ١٧ ونقل الطبرسي عن مجاهد ٩: ٢٦٦ ومعجم البلدان في العزى.

ويغوث أي يغيث منه^(١). ولعلّها في أصلها مقتبسة من ثنوية المجوسية، ولا سيما أنّهم كانوا يقدّمون قرابين النيران، ويوقدونّها لاستمطار السماء والاستسقاء، وعند عقد أيمانهم وأحلافهم^(٢).

وكان هبل من عقيق أحمر على صورة إنسان، يده اليمنى من ذهب. والقдах أمامه، فإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً أتوه فاستقسموا بالقдах عنده فما خرج انتهوا إليه وعملوا به، ومنه، فعل عبد المطلب لذبح ابنه عبد الله. ومنها للزواج، ومنها للمواليد، فإذا شكّوا في مولود أهدوا إليه هديّة ثمّ ضربوا بسهام الأزلام (القдах) فإن خرج (الصرح) كان الوليد صريحاً في نسبه وأمّا إذا خرج (ملصق) دفعوه^(٣).

ومن الأصنام المشهورة: ذو الخلصة، وهو صنم خثعم وبجيلة وأزد السراة، وكان صخرة بيضاء عند منقوطة (مروة) منقوش عليها كهية التّاج، وكان في تباله وله بيت يحجّون إليه^(٤) ولا يخفى أنّ تركيب اسم الصنم (ذو الخلصة) يمتّنيّ وكعبتها هي الكعبة اليمانية.

وكان في حاضرة إمارة النبط (ق ٣ م - ق ٢ م) في «سّلع» كما جاء في التوراة: أو «بطرا» كما هو اسمها لدى اليونان ولعلّه ترجمة يونانية لسّلع العبريّة أو السريانيّة معبد كبير لصلنهم ذي الشري^(٥) إله الخصب والخمر!

(١) العصر الجاهلي: ٩٠ لشوقي ضيف.

(٢) الحيوان للجاحظ ٤: ٤٦١ فابعد.

(٣) الأصنام للكلبي: ٢٨. وسيأتي تفصيل الأزلام.

(٤) الأصنام للكلبي والمحرّ: ٣١٧.

(٥) الأصنام للكلبي: ٣٧ ومادّة الشري في لسان العرب وتاج العروس.

وقال الكلبي في كتابه «الأصنام»: واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر على بناء البيت ولا اتخاذ الصنم اتخذ حجراً من الحرم أو ممّا استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت، فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجارٍ فنظر إلى أحسنها فاتّخذها ربّاً وجعل الثلاثة الأخرى أثافي لقدره فإذا ارتحل تركها. وكانوا يذبحون وينحرون عندها ويتقرّبون بذلك إليها^(١).

ومن تقدّسهم لدماء ذبائحهم القرابين لهماكل الأصنام والأوثان ينصبون لديها أحجاراً هي النصب والأنصاب، يصبّون عليها دماء ذبائحهم التي يتقرّبون بها إلى الهتهم، فالأنصاب والأزلام كانت من لوازم الأوثان والأصنام في كلام الله تعالى: ﴿وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢).

وكان لها سدة وحجّاب. وبجانب سدة البيوت المقدّسة كان هناك كهّان يدّعون أنّه سخر لهم طائفٌ من الجنّ يسرق لهم السمع فيعرفون منهم ما كتب الله للناس في ألواحهم، رجالاً ونساء.

فمّن عُرف من رجالهم: سطيح الذئبي، وسلمة الخزاعي، وسواد بن قارب الدوسي، وشقّ بن مصعب الأغاري، وعزّي سلمة، وعوف بن ربيعة الأسدي^(٣).

(١) الأصنام للكلبي: ٣٣.

(٢) المائدة: ٩٠.

(٣) ابن هشام في السيرة ١: ١٦ والأغاني ٩ و ١٥: ٧٠ و ٨٤ ويقال: قيل لسطيح: من أين لك هذا العلم؟ قال: من صاحبي من الجنّ كان استمع أخبار السماء حين كلّم الله موسى في طور سيناء!

ومن الكاهنات: كاهنة ذي الخلصة، والكاهنة السعدية، والكاهنة الشعثاء، والزرقاء بنت زهير وطريفة الكاهنة امرأة عمرو بن عامر^(١) وكان قد يلتحق ببعضها بغايا أيضاً^(٢)، ويسمّون الذي يخبر الكاهن: الرئي.

ولذلك فهم كانوا يؤمنون بالجنّ ويخافونها ويتعبّدونها ويجعلون بينها وبين الله نسباً، وإن كانت هي مظاهر الشرّ عندهم، وكما كانوا يجعلون الملائكة بنات الله وهي مظاهر الخير والرحمة: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(٣) ولعلّها من ثنوية هؤلاء الوثنيين متسرّبة إليهم من ثنوية المجوس أيضاً.

صحيح أنّ كثيراً من هؤلاء كانوا يعدّون الجنّ والملك والأرواح والأوثان والأصنام من شفعاتهم عند الله كما حكى القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٤) لكنّها لم تكن للنجاة من النار بل ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾^(٥)، ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ﴾^(٦).

ذلك أنّهم كانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(٧)، ﴿وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ

(١) مجمع الأمثال للميداني ١ : ١٩ و ٢ : ٥٤ وابن هشام ١ : ١٦ في الهامش .

(٢) المحبر : ١٨٤ .

(٣) الأنعام : ١٠٠ .

(٤) الزمر : ٣ .

(٥) مريم : ٨١ .

(٦) يس : ٧٤ .

(٧) الجاثية : ٢٤ .

بِمَبْعُوثَيْنِ ﴿١﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٢﴾ فلم تكن قرباهم للنجاة من النار.

نعم كان حجّهم الأعظم إلى الكعبة الإبراهيمية، وقد بقي فيهم منه ومن حجّه بعض السنن مزيجاً بالبدع الجاهلية: منها أشهر الحجّ المعلومات الحرم: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، فكانت فرصة لبعدها عن الأماكن المقدسة للوصول إليها دون أن تمسّ نذورهم، فكانوا فيها يتّجرون ويميرون ويقيمون أسواقهم كسوق عكاظ.

ويقول ابن حبيب في «المحبر»: كانوا يلّبون، فكانت قريش تقول: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. تخاطب إساف. وكانت تلييتهم لودّ: لبيك اللهم لبيك، لبيك معذرةً إليك. وكانت تلييتهم للآت: لبيك اللهم لبيك، كفى بيتنا بنيّه، ليس بمهجورٍ ولا بليّه، لكنّه من تربية زكيّه، أربابه من صالحى البريّة.

وكانت تلييتهم للعزّى: لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك ما أحبنا إليك. وكانت تلييتهم لذي الخلصة: لبيك اللهم لبيك، لبيك بما هو أحبّ إليك^(٣). فالحمس من قريش وكنانة وخزاعة يطوفون بشياهم، والحلة يطوفون عرايا.

ويصوّر الأزرقى في كتابه «أخبار مكة» طواف العريان فيقول: يبدأ بإساف فيستلمه ثمّ يستلم الركن الأسود، ثمّ يجعل الكعبة عن يمينه ويطوف سبعا فإذا ختم

(١) الأنعام: ٢٩.

(٢) يس: ٧٨.

(٣) أخبار مكة للأزرقى ١: ١١٤.

استلم الحطيم أو ركن الحجر الأسود ثم استلم نائلة فختم طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه فيلبسها ويمضي^(١).

وقد فصل الكلبي المؤرخ الشهير المتوفى في ٢٠٦هـ ديانا العرب قبل الإسلام فقال:

«إن جُمَيْر كانت تعبد الشمس وكنانة كانت تعبد القمر وقيس كانت تعبد الشعري، ولحُم كانت تعبد المشتري، وطيء كانت تعبد نجمة السهيل، وأسد كانت تعبد العطار، وتميم كانت تعبد الدبران، وبنو مليح كانوا يعبدون الجن، وأكثر العرب الأوثان والأصنام.

وإن أول من جاء بها إلى مكة هو: عمرو بن لُحَيّ، وكانوا في أول أمرهم يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾^(٢) ثم رأوا فيهم قوة دون قدرة الله، فكانوا يتمسحون بها إذا أرادوا السفر، واتخذوا من أحجار الصحراء أصناماً يعبدونها كما يتخذون عدداً آخر منها أثافي لقدورهم. كانوا يرون أنهم بالقربان للأوثان يجلبون رضاها، فإذا قربوا لها قرباناً تلطّخوا بدمائه، وكانوا يتقاسمون بالأزلام عندها، وهي سهام اصطلحوا على بعضها أنها أمرٌ وعلى بعضها الآخر أنها نهْيٌ، فيعملون كما تخرج لهم، وقد أصبحت الكعبة بيتاً مركزياً للأوثان أكثر من ثلاثمائة وستين، منها اللات والعزى ومناة، اللاتي كانت قريش تزعم أنها بنات الله تعالى فتعبدنها واللات بدورها أم سائر الآلهة وكان مقرّها بالطائف، وأمّا مناة فهي ربّ الأعمار والآجال، ومقرّها بين مكة والمدينة»^(٣).

(١) المصدر نفسه.

(٢) الزمر: ٣.

(٣) الأصنام للكلبي: ١٦ و ٢٢.

أزلام العرب:

قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقْ ﴾^(١).

قال القمي في تفسيره للنصب: إن قريشاً كانوا يعبدون الصخور فيذبحون لها. و«الأزلام» كانوا يعمدون إلى الجزور فيجزئونه عشرة أجزاء، ثم يجتمعون عليه فيخرجون سهماً عشرة: سبعة لها أنصباء وثلاثة لا أنصباء لها، فالتى لها أنصباء هي: الفذ والتوأم، والمسبل، والنافس، والحلس، والرقيب، والمعلّى؛ فالفذ له سهم، والتوأم له سهمان، والمسبل له ثلاثة أسهم، والنافس له أربعة أسهم، والحلس له خمسة أسهم، والرقيب له ستة أسهم، والمعلّى له سبعة أسهم.

والتي لا أنصباء لها هي: السفح، والمنيح، والوغد. وكان ثمن الجزور على من لم يخرج له من الأنصباء شيء. وهذا قمار، حرّمه الله عزّ وجلّ^(٢).

وقد عقد اليعقوبي في تاريخه فصلاً خاصاً بعنوان «أزلام العرب» قال فيه: «وكانت العرب تستقسم بالأزلام في كلّ أمورها، وهي القداح، ولا يكون لها سفر ولا مقام ولا معرفة حال إلا رجعت إلى القداح.

(١) المائدة: ٣.

(٢) تفسير القمي ١: ١٦١، ١٦٢ وعنه في مجمع البيان ٣: ٢٤٤ عن الصادق عليه السلام. وقال الطوسي في التبيان ٣: ٤٣٣: هي سهام كانت للجاهلية، مكتوب على بعضها: أمرني ربّي، وعلى بعضها: نهاني ربّي. فإذا أرادوا سفراً أو أمراً يهتمّ به ضربوا تلك القداح، فإن خرج الأمر مضى لحاجته، وإن خرج النهي لم يمض، وإن خرج ما ليس عليه شيء أعادوها. فبيّن الله تعالى أنّ ذلك يحرم العمل به. ونقله في مجمع البيان عن الحسن وجماعة من المفسرين: مجمع البيان ٣: ٢٤٤.

وكانت القداح سبعة: فواحد عليه «الله عز وجل» والآخر «لكم» والآخر «عليكم» والآخر «نعم» والآخر «منكم» والآخر «من غيركم» والآخر «الوغد».

فكانوا إذا أرادوا أمراً رجعوا إلى القداح فضربوا بها ثم عملوا بما تخرج القداح، لا يتعدونه ولا يجوزونه. وكان لهم أمناء على القداح لا يثقون بغيرهم. وكانت العرب إذا كان الشتاء وناهم القحط وقلّت ألبان الإبل استعملوا الميسر بالأزلام، فضربوا بالقداح وتقامروا عليها إلا أن قداح الميسر عشرة: سبعة منها لها أنصب، وثلاثة لا أنصب بها. فالسبعة التي لها أنصب يقال لأولها «الفذ» وله جزء واحد، و«التوأم» وله جزءان، و«الرقيب» وله ثلاثة أجزاء، و«الحلس» وله أربعة أجزاء، و«النافس» وله خمسة أجزاء، والثلاثة التي لا أنصب لها يقال لها: المنيع والسفيح والوغد.

فكانت الجزور تشتري بما بلغت ولا ينقد الثمن، ثم يدعى الجزار فيقسمها عشرة أجزاء، فإذا قسّمت أجزاؤها على السواء أخذ الجزار الرأس والأرجل، ثم أحضرت القداح العشرة، واجتمع فتيان الحي، فأخذ كل فرقة على قدر حالهم ويسارهم وقدر احتمالهم، فيأخذ الأول الفذ والثاني التوأم وكذلك سائر القداح على ما سميها منها.

فإذا عرف كل رجل منهم قدحه دفعوا القداح إلى رجلٍ أخس لا ينظر إليها معروف أنه لم يأكل لحمًا قطّ بثمان ويسمى «الحرضة» يؤتى «بالمجول» وهو ثوب شديد البياض فيجعل على يده، ويعمد إلى «السلفة» وهي قطعة من جراب فيعصب بها على كفه لئلا يجد مسّ قدح يكون له في صاحبه هوى فيخرجه، ورأى رجل فيجلس خلف الحرضة يسمى «الرقيب» ثم يفيض الحرضة بالقداح فإذا نشر منها قدح استلّه «الحرضة» فلم ينظر إليه حتى يدفعه إلى «الرقيب» فإن خرج من الثلاثة الأغفال التي لا نصيب لها ردّ من ساعته، وإن خرج أولاً «الفذ» أخذ

صاحبه نصيبه وضربوا بباقي القداح على التسعة الأجزاء الأخر، فإن خرج التوأم أخذ صاحبه جزأين وضربوا بباقي الأقداح على الثمانية الأجزاء الأخر، فإن خرج المعلّى أخذ صاحبه نصيبه وهو السبعة الأجزاء التي بقيت.

ووقع غرم ثمن الجزور على من خاب سهمه وهم أربعة: صاحب «الرقيب» و«الحلس» و«النفاس» و«المسبل» ولهذه الأقداح ثمانية عشر سهماً فيجزأ الثمن على ثمانية عشر جزءاً يأخذ كل واحد من الغرم مثل الذي كان نصيبه من اللحم لو فاز قدحه.

وإن خرج «المعلّى» أول القداح أخذ صاحبه سبعة أجزاء الجزور، وكان الغرم على أصحاب القداح التي خابت، واحتاجوا أن ينحروا جزوراً أخرى، لأنّ في قداحهم المسبل، وله ستّة أجزاء ولم يبقَ من اللحم إلّا ثلاثة أجزاء. فإن نحروا الجزور الثانية، وضربوا عليها القداح فخرج «المسبل» أخذ صاحبه ستّة أجزاء الثلاثة الباقية من الجزور الأولى وثلاثة أجزاء من الجزور الثانية، ولزمه الغرم في الجزور الأولى ولم يلزمه في الثانية شيء لأنّ قدحه قد فاز. وبقي من الجزور الثانية سبعة أجزاء فيضرب عليها بقداح من بقي، فإن خرج «النفاس» أخذ صاحبه خمسة أجزاء ولم يغرم من ثمن الجزور الثانية شيئاً، لأنّ قدحه قد فاز، ولزمه الغرم من الأولى وبقي جزءان من اللحم، وفيما بقي من القداح «الحلس» له أربعة أجزاء، فيحتاجون أن ينحروا جزوراً أخرى لتتمة أربعة.

وإن نحروا الجزور الثالثة وفاز «الحلس» أخذ صاحبه أربعة أجزاء: جزأين من الجزور الثانية وجزأين من الجزور الثالثة، ولم يغرم من الجزور الثالثة شيئاً فإن قدحه قد فاز ويبقى ثمانية أجزاء من الجزور الثالثة، فيضرب بباقي القداح عليها حتّى يخرج قداحهم وفقاً لأجزاء الجزور، فهذا حساب غرمهم الثمن.

وربما كانت أجزاء اللحم موافقة لأجزاء القداح فلا يحتاجون إلى نحر شيء، وإنما تُنحر الجزور إذا قصرت أجزاء اللحم عن بعض القداح، فإن عاد بعض من

فاز قدحه ثانية فخاب، غُرم من ثمن الجزور التي خاب قدحه منها على هذا الحساب. فإن فضل من أجزاء اللحم شيء وقد خرجت القداح كلها، كانت تلك الأجزاء لأهل المسكنة من العشيرة، فهذا تفسير «الميسر».

وكانوا يفتخرون به ويرون أنه من فعال الكرم والشرف، ولهم في هذا أشعار كثيرة يفتخرون بها^(١).

اليهود في يثرب والنصارى في نجران والشام:

استولى القيصر الرومي تيتوس على الشام وفلسطين والقدس فهدم هيكل اليهود سنة ٧٠ م، ثم اضطهدهم القيصر هُوريان سنة ١٣٢ م، ففرّ في هذه الأثناء كثيرٌ منهم إلى الحجاز وغير قليلٍ منهم إلى اليمن، أي في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الميلادي^(٢).

ويظنّ أنّ القياصرة الرومان في صراعهم على السلطة أرادوا النفوذ إلى اليمن لبسط سلطانهم على هذه البلاد بما لها من قوافل تجارية، فكان ذلك من أهم الأسباب لنفوذ النصرانية هناك بالبعثات التبشيرية المسيحية التي كان يشجعها القياصرة، ويظنّ أنّ انتشارها في اليمن بدأ منذ القرن الرابع الميلادي، ولا نصل إلى العصر الجاهلي (الخامس) حتّى نرى النصرانية منتشرة في نجران وغيرها، ونجران كانت أهمّ مواطنها^(٣).

(١) اليعقوبي ١: ٢٥٩ - ٢٦١.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦ لجواد علي، والحياة العربية في الشعر الجاهلي للحوبي: ١٢٦ - ١٤٢.

(٣) الحياة العربية للحوبي: ١٤٢ - ١٥٠.

ويرى نسبة العرب أن الغساسنة في الشام من أصلٍ يمنيٍّ، فهم من عرب الجنوب الذين نزحوا إلى الشمال معها قبائل كثيرة أخرى منها جذام وعاملة وقضاة وكلب. ويقال إنهم اصطدموا هناك بعرب من الضجاعة فتغلبوا عليهم وسادوا هناك، ويزعم مؤرّخو العرب أن مؤسس سلالتهم جفنة بن عمرو فهم آل جفنة، فأقاموا إمارتهم في شرقي الأردن، وكانّهم ظلّوا بدواً يرحلون بخيامهم وإيلهم وأنعامهم من مكانٍ إلى مكانٍ في الجابية وجلولاء والجولان وحتى جُلُق قرب دمشق، وقربهم الرومان البيزنطيون ومنحوهم ألقابهم واتّخذوهم حاجزاً بينهم وبين البدو وغاراتهم، ومساعداً لهم في حروبهم ضدّ من يؤيّد الفرس من عرب مناذرة الحيرة في العراق.

وليس بأيدينا من الوثائق التاريخية ما تبين بدقّة تأريخ نشأة هذه الإمارة، إلاّ أنّها ظهرت على صفحة التاريخ إثر قضاء الرومان على مملكة تدمر فدمروها سنة ٢٧٣ م، ولكنّ تأريخها قبل أواخر القرن الخامس الميلادي يحيط به الإبهام والغموض، وأوّل ملكٍ يمكن الاطمئنان إلى أخباره من الوجهة التاريخية هو جبلة الذي غزا فلسطين سنة ٤٩٧ م.

وانتشرت النصرانيّة بين عرب الشام من الغساسنة وعاملة وقضاة وكلب وجذام، وكانوا على مذهب المنوفستيين أو اليعاقبة المنسوبين إلى يعقوب البرادعي حوالي الخمسمائة الميلاديّة، الذي كان يرى للمسيح أقنوماً واحداً أي طبيعة بشريّة واحدة غير إلهيّة.

وبكر بن وائل كانوا في ديار بكر فيما بين الشام إلى العراق ويليهم إلى شمال العراق إياد وتغلب، فنذت النصرانيّة اليعقوبيّة فيهم أيضاً، بل وتغلّغت في الحيرة قرب الكوفة فسّموا العباديين نسبة إلى عبادة الله، ولكنّهم غير يعاقبة بل نساطرة نسبة إلى نسطوريوس المتوفّي سنة ٤٥٠ م الذي كان يرى أنّ للمسيح أقنومين

أي طبيعتين: اللاهوت مع الناسوت، وحتى دخل في النصرانية أواخرهم: النعمان بن المنذر واخته هند بنت المنذر وبنت ديراً.

وكان في مكة جوار روميّات^(١) وعبدان نصرانيّان من عين تمر بالعراق^(٢) ورقيق حبشي نصراني كثير، وفي الطائف عداس النصراني من نينوى في شمال العراق، وتنصر في مكة قوم قبيل الإسلام منهم عتبة بن أبي لهب، وعثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل^(٣).

وفي أواخر القرن السادس الميلادي استطاع يهود اليمن أن يؤثروا في ذي نواس ملك اليمن، وربما كان السبب الحقيقي لاستجابته لليهود أنهم خوّفوه من تغلغل النصرانية في بلاده وبذلك تفتح أبواب اليمن لنصارى الحبشة من دون مقاومة، فأدخلوه في دينهم، ثم انتقموا به من النصارى فدفعوه إلى التنكيل بنصارى نجران وتحريقهم بالنار في ما حفروه لهم من حفر الأخدود في الأرض، وإذ كانت النصرانية يومئذٍ أحقّ من اليهودية قال الله تعالى: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^(٤) وانتقم نصارى الحبشة لإخوانهم فأزالوا دولة ذي نواس سنة ٥٢٥ م بقيادة أبرهة، وظلّوا هناك خمسين عاماً.

فدعمت النصرانية واعتنقها كثيرون وبنيت لها كنائس في أكثر من بلد من أشهرها كنيسة نجران أنشأها أبرهة كما أنشأ كنائس كثيرة في مدن اليمن، واهتم بزينتها وزخرفتها. ومن أشهرها القليس في صنعاء، والكلمة تعريب لكلمة الكنيسة

(١) أسد الغابة ١: ٣٨٧.

(٢) أسباب النزول للواحي: ٢١٣ - ٢٢٠.

(٣) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٥٧.

(٤) البروج: ٤ - ٨.

اليونانية، فيقال: إنه نقشها بالذهب والفضة والفسيفساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر، وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام المجزّع والحجارة المنقوشة بالذهب، ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة ومنابر من الأبنوس والعاج^(١) وقد حوّلها المسلمون إلى مسجد لا يزال اليوم قائماً^(٢).

وكانت هذه الفترة سبباً في خروج اليهود من اليمن وتفرّقهم في البلاد، وبقي منهم جماعة حتى دخل الإسلام فدخلوا فيه، منهم كعب الأحبار ووهب بن منبه.

وأهمّ من يهود اليمن يهود الحجاز، وكانوا قبائل وجماعات كثيرة انتشرت في واحات الحجاز: يثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء، وكان في يثرب منهم عشائر كثيرة أهمّها: بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع وبنو تهمل، وقد نزل بينهم الأوس والخزرج وثنين.

من سنن الجاهلية في الابل والغنم:

البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي... وقد جاء في القرآن الكريم عنها: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(٣).

وروى العياشي في تفسيره لها عن الامام الصادق عليه السلام قال: إن أهل الجاهلية كانوا إذا ولدت الناقة ولدين في بطن قالوا: وصلت، فلا يستحلّون ذبحها ولا أكلها، وإذا ولدت عشرين جعلوها سائبة فلا يستحلّون

(١) تفسير الطبري ٣: ١٩٣.

(٢) العصر الجاهلي لشوقي ضيف: ٩٧ - ١٠٠.

(٣) المائدة: ١٠٣.

اكلها ولا ظهرها. والحامي: فحل الابل، لم يكونوا يستحلون (اكله) فأنزل الله أنه لم يحرم شيئاً من هذا^(١).

ونقل الشيخ الطوسي في «التبيان» عن محمد بن اسحاق قال:

الوصيلة: هي الشاة اذا ولدت عشر اناث متتابعات في خمسة أبطن، كل بطن توأم اناث ليس فيها ذكر، قالوا: قد وصلت، وجعلوها وصيلة، وكان ما ولدت بعد ذلك للذكور دون الاناث!

والسائبة: هي الناقة اذا تابعت بين عشر اناث ليس فيهن ذكر، سئبت فلم يركبوها ولم يجرّوا وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف.

والبحيرة: هي ما نتجت السائبة بعد ذلك من انثى شقّ اذنها ثم خلّي سبيلها مع أمها، فلم يركب ظهرها ولم يجرّ وبرها، ولم يشرب لبنها الا ضيف^(٢).

ونقل عن أهل اللغة قالوا: الوصيلة: هي الشاة كانت اذا ولدت انثى فهي لهم، واذا ولدت ذكراً ذبحوه لآلهتهم في زعمهم، واذا ولدت ذكراً و انثى قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوه لآلهتهم.

وفي البحيرة: قال: كانوا في الجاهلية اذا نتجت الناقة خمسة أبطن وكان آخرها ذكراً، بحروا اذنها أي شقّوها، وامتنعوا من ركوبها و ذبحها، ولم تطرد عن رعي ولا ماء.

وفي السائبة: قال: كانوا في الجاهلية اذا نذر أحدهم لقدوم من سفر أو بُرء من مرض أو ما أشبه ذلك قال: ناقتي سائبة، فكانت كالبحيرة في التخلية^(٣).

(١) تفسير العياشي ١: ٣٤٧.

(٢) التبيان ٤: ٣٨ وعن ابن اسحاق في السيرة ١: ٩١.

(٣) التبيان ٤: ٣٨.

وأسند الطبرسي في «مجمع البيان» قول أهل اللغة هذا الى الزجاج .
وفي الحامي قال : هو الذكر من الابل ، كانت العرب اذا أنتجت من صلب
الفحل عشرة أبطن قالوا : قد حمى ظهره ، فلا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا
مرعى ، رواه عن الزجاج وأبي عبيدة ، وابن مسعود وابن عباس .
ثم نقل عن المفسرين عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : إن عمرو ابن لُحَيَّ
بن قعدة بن خندف ، كان قد ملك مكة ، وكان هو أول من غير دين اسماعيل واتخذ
الأصنام ونصب الأوثان ، وبجر البحيرة و سيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى
الحامي ، فلقد رأيت في النار يؤذي أهل النار ربح قصبه^(١) .

حماس العرب قبل الاسلام:

بإمكاننا ان نقول : إن العربي قبل الإسلام كان نموذجاً تاماً لشهه البشر و
حرصه على مصالحه و منافعه ، فكان ينظر إلى كل شيء من زاوية منافعه الخاصة ،
وكان يدعي لنفسه في كل ذلك أنواعاً من الشرف والكرامة والرفعة على الآخرين ،
يحب الحرية غاية الحب ، وينفر من أي قيد أو حد .

وقد قال ابن خلدون بهذا الصدد : «إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع
إليها الخراب ، وذلك أنهم أمة قد استحكمت فيهم أسباب التوحش فصار لهم خلقاً
وجبلّة ، وكان عندهم الخروج عن ربة الحكم وعدم الانقياد للسياسة ملذوداً .
وهذه الطبيعة منافية لل عمران ومناقضة له ، فإن حالتهم العادية هي الرحلة والتغلب ،
وهذا مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له . وأيضاً فطبيعتهم انتهاب ما في

(١) مجمع البيان ٣ : ٣٩٠ . ورواه ابن اسحاق بسنده عن ابن حزم وبسند آخر عن أبي هريرة -

أيدي الناس، وأنّ رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حدّ ينتهون إليه، بل كلّما امتدّت أعينهم الى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه»^(١).

أجل، إنّ العرب قبل الإسلام كانوا قد اعتادوا على الحرب والقتال، وكان منطقهم السائد: لا يغسل الدم إلاّ الدم، وكذلك كانوا قد اعتادوا الإغارة على أموال الآخرين حتّى أنّ أحدهم كان يعدّ غاراته على أموال الناس مفخرة له، وحتّى أنّ الشاعر الجاهلي حينما يشاهد عجز قومه عن الغارة يتمنّى أن لو كان له عن قومه هؤلاء قومٌ آخرون يشنون الغارات:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا شنّوا الإغارة فرساناً وركبانا
والى هذه الحالة يشير الذكر الحكيم إذ يقول لهم: ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾^(٢).

الخرافات عند العرب:

إنّ القرآن الكريم يبيّن أنّ من أهداف بعثة رسول الله ﷺ أنّه ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾^(٣).

فما هو الإصر وماهي الأغلال التي كانت عليهم؟ لا شك أنّها لم تكن أغلالاً من حديد، بل الغرض منها هي تلك الأوهام والخرافات التي كانت تمنع عقولهم وافكارهم عن الرشد والنموّ، ولا شك أنّها لا تقلّ عن أغلال الحديد ثقلًا وضرراً، إذ هذه الأغلال قد لا تنفك عن صاحبها حتّى الموت وهي تمنعه عن كلّ حركة حتّى للحلّها، في حين لو كان الإنسان ذا عقل حرّ سليم كان بإمكانه أن يكسر كلّ طوق أو قيد.

(١) مقدمة ابن خلدون: ١٤٩.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

(٣) الاعراف: ١٥٧.

إن من مفاخر رسول الإسلام ﷺ أنه كافح الخرافات والأوهام، وغسل العقل البشري منها.

إن ساسة العالم الذين لا يهتمهم شيء سوى الرئاسة على الناس، يحاولون الإفادة من كل شيء في سبيل أغراضهم ومقاصدهم، فإذا كانت العقائد الخرافية والقصص القديمة مما يمكن أن تؤيد حكومتهم ورئاستهم، فلا مانع لهم من أن يروجوا لها ويفتحوا السبيل أمامها، وحتى لو كانوا أناساً مفكرين ذوي رأي ومنطق فإنهم سوف يدافعون عن هذه الخرافات باسم احترام آراء الناس وأفكارهم واعتقاداتهم.

أما رسول الله ﷺ فإنه لم يمنع عن تلك العقائد الخرافية التي تضر بالمجتمع فحسب، بل كان يكافح حتى الأفكار التي كانت قد تؤيده وتدعم هدفه، وكان يسعى إلى أن يكون الناس أبناء الدليل والمنطق لا القصص والخرافات.

فقد روى البرقي في كتابه «المحاسن» بسنده عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: لما قبض إبراهيم ابن رسول الله ﷺ جرت في موته ثلاث سنن: أمّا واحدة: فإنه لما قبض انكسفت الشمس فقال الناس: إنما انكسفت الشمس لموت ابن رسول الله، فصعد رسول الله ﷺ المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أيها الناس! إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجريان بأمره مطيعان له، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا انكسفا أو أحدهما صلوا».

ثم نزل من المنبر فصلى بالناس الكسوف^(١). إن فكرة كسوف الشمس لموت ابن رسول الله كان مما يرسخ العقيدة برسول الله في نفوس الناس، وهو من ثم يؤدي إلى انتشار رسالته ولكنه ﷺ لم يرض أن يتأيد بالخرافة.

إنّ كفاح رسول الله ﷺ ضد الخرافات و على رأسها عبادة الأصنام والأوثان واتخاذ بعض المخلوقات أرباباً لم يكن دأبه في رسالته فحسب بل إنه كان يكافح الأوهام والخرافات حتّى في دور طفولته و صباه. فقد روى المحدث المجلسي في موسوعته «بحار الأنوار» عن كتاب «المنتقى في أحوال المصطفى» للكارزوني من العامّة، بسنده عن ابن عباس عن حليلة السعدية أنّها قالت «فلما تمّ له ثلاث سنين قال لي يوماً: يا أمّاه! مالي لا أرى أخويّ بالنهار؟ قلت له: يا بنيّ إنّهما يرعيان غنّيات، قال: فمالي لا أخرج معهما؟ قلت له: تحبّ ذلك؟ قال: نعم. فلما أصبح دهنته وكحلّته وعلّقت في عنقه خيطاً فيه جزع يمانية فنزعها ثم قال لي: مهلاً يا أمّاه! فإنّ معي من يحفظني»^(١).

إنّ عقائد جميع أمم العالم كانت حين طلوع فجر الإسلام خليطاً بأنواع من الخرافات والأساطير، فالأساطير الساسانية واليونانية كانت تسود على أفكار أمم كانت تعدّ من أرقى أمم العالم يومذاك. وحتى اليوم يوجد بين أمم العالم خرافات كثيرة لا تستطيع الحضارة الحاضرة أن تنفيها من حياة الناس.

وقد سجّل التاريخ خرافات وأساطير كثيرة للناس في شبه جزيرة العرب، جمع كثيراً منها السيد محمود الألوسي في كتاب أسماه «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» مع ذكر شواهد لها من الشعر الجاهلي وغيره، بمراجعة هذا الكتاب ومثله يواجه المرء شيئاً كثيراً من الخرافات قد ملأت عقول العرب الجاهليين، وكانت هذه الأساطير إحدى عوامل التخلف فيهم عن سائر أمم العالم آنذاك، وكانت كذلك أكبر سدّ أمام تقدّم الإسلام فيهم أيضاً، ولهذا كان النبي ﷺ يسعى جاهداً أن يحبط تلك الأساطير والأوهام من آثار الجاهلية، فحينما أرسل «معاذ بن

جبل» الى اليمن أمره قائلاً: «وَأَمِيتِ الْجَاهِلِيَّةَ إِلَّا مَا سَنَّهُ الْإِسْلَامُ، وأظهر أمر الإسلام كله صغيره وكبيره»^(١).

وهنا نأتي نحن بنماذج من خرافاتهم:

أ - إشعال النار للاستسقاء:

كانت الجزيرة العربية تواجه الجفاف في أكثر فصول السنة، فكان الناس يجمعون حطباً من شجر القشر والسَّلْع فيربطونها بذيل الثور ثُمَّ يسوقونه إلى سفح الجبل فيضرمون النار في حزمة الحطب فتشتعل، ويبدأ الثور يركض ويخور وهم يرون ذلك تقليداً للبرق والرعد؛ فالبرق النار في الحطب والرعد خوار الثور والبقر، ويرون ذلك مفيداً لهطول الأمطار!

ب - يضربون الثور لتشرب البقرة:

كانوا يردون بقطيع البقر الماء وقد يشرب الثور ولا تشرب الأبقار، فيرون ذلك من وجود الجن في قرون الثور فيضربون الثور لتشرب البقر! ويقول شاعرهم في ذلك:

فإِنِّي إِذَا كَالثَّورِ يُضْرَبُ جَنْبُهُ إِذَا لَمْ يَعْفَ شَرِباً وَعَافَتْ صَوَاحِبُهُ!

ج - يكونو الجمل السالم لتصح الإبل:

كانوا إذا مرضت الإبل وظهر في فمها أو على أطرافها قروح أو بثور، يأتون ببعير سالم فيكوون شفاهه وساعديه وذراعيه، لتصح سائر الإبل كما يتوهمون حسب خرافاتهم. وقد يحتمل بعض المتأخرين من المؤرخين أن ذلك كان عملاً وقائياً بل علاجاً علمياً! لكننا حينما نرى أنهم يفعلون ذلك بواحد من الإبل بدلاً من الكل، نعلم أن ذلك لم يكن إلا خُرافة ووهماً.

د - يحبسون بغيراً على القبر ليحشر الميت عليه :

كانوا إذا مات كبير منهم حفروا قرب قبره حفيرة وحبسوا بها بغيراً وتركوه يموت جوعاً وعطشاً، يزعمون ان الميت يركبه ولا يبقى راجلاً بلا راحلة !.

هـ - يعقرون بغيراً عند قبر الميت :

كانوا إذا مات كريم منهم كان ينحر الإبل لضيافته، يعقر أقرباؤه بغيراً عند قبره تكريماً للميت وثناء عليه !

وحارب الإسلام كل هذه الأوهام، بل أنها إنما كانت ظلماً للحيوان، وإذا ما قارناها نحن بأحكام الإسلام بشأن حماية الحيوان رأينا أن الإسلام كان ثورة على هذه الأفكار السائدة في ذلك المحيط الجاهل. ويكفي من بين عشرات الأحكام أن الإسلام قرّر للحيوان حقوقاً على صاحبه^(١).

و - علاج المرضى :

كانوا يرون أن الملدوغ والمسلوع لو كان معه شيء من النحاس مات، وكانوا يعالجونها بإناطة عقود وقلائد الذهب والفضة بربقتها وكانوا يعالجون عضّة الكلب المكلوب (داء الكلب) بدم كبير القبيلة أو شيخ العشيرة يضعونه على موضع الجراح ! وقد جاء هذا المعنى في هذا البيت المعروف :

أحلامكم لسقام الجهل شافية كما دماؤكم تشفي من الكلب

وكانوا إذا ظهرت على أحد منهم سمات مسّ الجنون لجؤوا لطرده الأرواح الشريرة منه إلى عظام الموتى والأقمشة الملوثة بالأوساخ والقاذورات فعلقوها بربقته. ولدفع الجنون عن الجنين والبنين كانوا يعلقون سنّ السنور والثعلب بخيط فيعلقونها برقابهم. وكانت الأم إذا رأت في فم أو شفاه أولادها بثوراً حملت على

(١) انظر بهذا الصدد كتاب من لا يحضره الفقيه ٢ : ٢٨٦ - ٢٩٢.

رأسها طبقاً وطافت على دور القبيلة فجمعت شيئاً من الخبز والتمر وأطعمتها الكلاب ليطيب بنوها. وكان نساء الحي يراقبن أبناءهن كيلا يأكلوا شيئاً من ذلك الخبز والتمر فيصابوا بذلك الداء. وإذا استمرّ مرض أحدهم قالوا أنه قتل حيّة أو غيرها من الجنّ، وللاعتذار من الجنّ كانوا يصنعون بغيراً من الطين يحملونه التمر والمحنطة والشعير ويتركونه ببعض شعاب الجبال، فإذا رأوا الحمل بعد ذلك قد تغير شيء منه قالوا إن الهدية قبلت وسيطيب المريض، وإلا قالوا: إنهم استقلوا الهدية فلم يقبلوها بها!. وكانوا إذا دخلوا قرية وخافوا الجنّ أو الطاعون صاحوا في مدخل القرية عشر مرّات بصوت الحمير (النهيق) وقد يعلّقون برقابهم عظم الثعلب! وكانوا إذا ضلّوا في البداء نزعوا ملابسهم فلبسوها بالمقلوب كي ينقلبوا الى أهلهم! وكانوا عند السفر يربطون خيطاً بغصن شجرة أو فرعها، فإذا رجعوا ووجدوه كما هو اطمأنّوا الى وفاء أزواجهم وعدم خيانتهم لهم، أمّا إذا فقدوه أو وجدوه قد حلّ اتهموا أزواجهم بخيانتهم من ورائهم. وكانوا إذا سقط سنّ من أسنان أطفالهم رموا به الى جهة الشمس وقالوا: أيتها الشمس اعطينا سنّاً أحسن من هذا! وكانت المرأة التي لا يبق لها أولادها تطأ القليل سبع مرّات ويرون أن ذلك نافع لها ليبقى لها ولدها بعد هذا.

هذه نماذج من الخرافات التي كانت قد خيّمت على محيط حياة العرب في عهد الجاهلية فجعلت منه عهداً مظلماً أسود ومنعت عقولهم من الرقي والنمو.

المرأة في المجتمع الجاهلي:

كانت المرأة لديهم كسلعة تباع وتشترى، تماماً كالحيوانات، ولا يورثونها، ويرثونها مع التركة، ولا حدّ لتزويج الرجال منهنّ، ويعضلوهنّ ليذهبوا ببعض ما آتوهن - كما في القرآن الكريم - ويتزوّجون بزوجات آبائهم، ويمنعون أزواجهم إذا طلقوهنّ ان يتزوجن بغيرهم إلا بإذنهم، ولا يكون ذلك إلا بمال.

أما الإسلام فيكفينا منه تغييراً لهذا الوضع واصلاحاً له قول رسول الله ﷺ في خطبته في حجة الوداع:

«أيها الناس: انّ لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حقاً، فحقّكم عليهن أن لا يوطئن أحداً فرشكم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، وان لا يأتين بفاحشة، فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإذا انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف اخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكتاب الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً»^(١).

مبدأ العرب، والعرب العاربة:

إن ما كتبه العرب عنهم بعد الاسلام مزيج بالأساطير، وقد ظل تأريخهم تاريخاً مبهماً حتى أواسط القرن الماضي حيث جدّ علماء الآثار والحفريات الأثرية التاريخية من الغربيين في قراءة آثارهم المنقوشة بالخط المسند على الأبراج والهياكل والنصب والأحجار، فاستقر رأي هؤلاء الباحثين الغربيين على أن العرب الجنوبيين في اليمن هم من الموجة السامية الأخيرة التي بدأت في أواخر الألف الثاني ق م، أي في حدود الألف قبل الميلاد، أي قرابة خمسة عشر قرناً قبل الاسلام، اتجهت من شمال الجزيرة الى جنوبها، لامن بابل العراق^(٢) بينما نرى في التاريخ النقلي المتوارث أن الهجرة كانت من بابل الى اليمن، فمثلاً:

(١) تحف العقول: ٣٠، وانظر للتفصيل: المرأة في الشعر الجاهلي لعلي الهاشمي، والقيان والغناء في الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد. وحقوق المرأة في الجاهلية والاسلام للمؤلف.

(٢) العصر الجاهلي، لشوقي ضيف: ٢٥ - ٢٨.

ذكر المسعودي في أوائل من تكلموا بالعربية عن نسل نوح بيا بل العراق بعد الطوفان قال: وكان من تكلم بالعربية: يعرب وجرهم، وعاد، وثمرود، وعملاق، وطسم، وجديس، ووبار، وعييل وعبد ضخم، فسار يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح (اي الجيل الخامس بعد نوح) بمن تبعه من ولده.. فحل باليمن.

وسار بعده عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه، فحل بالأحقاف وأداني الرمل بين عمان وحضرموت واليمن وتفرق هؤلاء في الأرض فانتشر منهم ناس كثير: منهم جيرون بن سعد بن عاد حلّ بدمشق فصّر مصرها، وجمع عمد الرّخام والمرمر إليها وشيّد بنيانها وسماها «إرم ذات العماد».

قال المسعودي: وهذا الموضع بدمشق في هذا الوقت -وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة- سوق من أسواقها عند باب المسجد الجامع يعرف بجيرون، وهو بنيان عظيم كان قصر هذا الملك (جيرون) عليه أبواب من نحاس عجيبة، بعضها على ما كانت عليه، وبعضها من المسجد الجامع.

وسار بعد عاد بن عوص: ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، بولده ومن تبعه، فنزلوا الحجر إلى قُرع، نحو وادي القرى بين الشام والحجاز ونبيهم صالح عليه السلام.

وسار بعد ثمود: جديس بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، بولده ومن تبعه، وهؤلاء نزلوا اليمامة.

وسار بعد جديس: عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، بولده ومن تبعه فنزل هؤلاء أكناف الحرم والتهائم، ثم انضافوا إلى ملوك الروم فلكتهم الروم على مشارف الشام والغرب والجزيرة من تغور الشام فيما بينهم وبين فارس، منهم السמידع بن هوبر، ومنهم أذينة بن السמידع.

ثم سار طسم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح بعد عملاق بن لاوذ بولده ومن تبعه، فكان منزلهم باليمامة، واسمها إذ ذاك جرّ، وكانت أفضل البلاد وأكثرها خيراً فيها صنوف الشجر والأعنان، وهي حدائق ملتفة وقصور مصطفة، وكثرت طسم فلكت عليها عملوق بن جدیس.

فكان عملوق يحكم طسم وجدیس، ولكن كثرت جدیس فسلكت عليها الأسود بن غفار. وكان عملوق ظلوماً غشوماً لا ينهائ شيء عن هواه، وكان قد قهر على جدیس وتعدى عليهم. وترافع إليه زوجان من جدیس تنازعا في ولدهما عمن يكون بعد الطلاق فحكم الملك أن يؤخذ الولد منها ويجعل في غلمانها، فقالت فيه شعراً ذمته به وبلغ قولها الملك فغضب، وأمر أن لا تتزوج امرأة من جدیس فتزف الى زوجها حتى تحمل اليه فيفترعها قبل زوجها، فلقوا من ذلك ذلاً طويلاً، ولم تزل تلك حالتهم حتى تزوجت أخت الأسود ملك جدیس ففعل بها كسائر نسائها، فخرجت تقول شعراً تحرّض به قومها جدیس على طسم. فصنع الأسود طعاماً كثيراً ودعا إليه عملوق ومن معه من رؤساء طسم باليمامة فأجابوه، فوثبت جدیس عليهم بأسيا ففهم فقتلوهم عن آخرهم ومضوا الى ديارهم فانتهبوها.

قال المسعودي: وسار بعد طسم بن لاوذ: وبار بن أميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، بولده ومن تبعه من قومه، فنزل برمل عاجل، وأصابهم نقمة من الله فهلكوا لبغيهم في الأرض.

وسار بعد وبار بن أميم: عبد ضخم بن إرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه فنزلوا الطائف، ثم هلك هؤلاء ببعض غوائل الدهر فدثروا، ولهم ذكر في الشعر الجاهلي.

وسار بعد عبد ضخم بن إرم: جرهم بن قحطان بولده ومن تبعه، وطافوا البلاد حتى أتوا مكة فنزلوها (بعرفات، وبعد ظهور زمزم نزلوا حول البيت بمكة).

وسار أميم بن لاوذ بن إرم بعد جرههم بن قحطان فحلّ بأرض فارس، فالفرس من ولد كيومرث بن أميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح على خلاف في ذلك. ونزل ولد كنعان بن حام بن نوح بلاد الشام فبهم عرفت تلك الديار فقيل: بلاد كنعان.

قال المسعودي: وقد ذكر جماعة من أهل السير والأخبار: أنّ جميع من ذكرنا من هذه القبائل كانوا أهل خيم وبدواً مجتمعين في مساكنهم من الأرض. وإنّ أميا وأولاده (أي الفرس) هم أول من ابتنى البنيان ورفع الحيطان وقطع الأشجار وسقّف السقوف واتّخذ السطوح.

وقد كان من ذكرنا من الأمم لا يجحد الصانع عزّ وجلّ، ويعلمون أنّ نوحاً عليه السلام كان نبياً. ثم دخلت عليهم بعد ذلك شبه ومالت نفوسهم الى ما تدعو اليه الطباع من الملاذ والتقليد، وكان في نفوسهم هيبة الصانع والتقرب إليه بالتماثيل وعبادتها لظنهم أنّها مقربة لهم اليه.

وكان عييل بن عوص بن إرم بن سام بن نوح نزل هو وولده ومن تبعه بلاد الجحفة بين مكّة والمدينة، فهلكوا بالسيل فسّمّي ذلك الموضع بالجحفة لإجحافها بهم.

وكان يثرب بن قامة بن مهليل بن إرم بن عييل نزل هو وولده ومن تبعه المدينة فسّميت به يثرب، وهؤلاء أيضاً هلكوا ببعض غوائل الدهر وآفاته.

وقد أخبر الله جلت قدرته عن أهلك من قوم عاد وثمود فقال تعالى ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾^(١) ارسل الله على عاد الريح العقيم فخرجت عليهم

من وادٍ لهم (بصورة سحاب مركوم) ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ... قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْظَرُنَا ﴾
وتباشروا بذلك، فلما سمع هو ذلك منهم قال لهم ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَفْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ
فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(١).

ولما دثرت هذه الأمم من العرب والقبائل خلت منهم الديار فسكنها غيرهم
من الناس، فنزل قوم من بني حنيفة اليمامة واستوطنوها. وقد كانوا نزلوا بلاد
المحففة بين مكة والمدينة.

واختلفوا في بني حضور فقليل إنهم من ولد يافث بن نوح، ومنهم من الحقهم
بن ذكرنا من العرب البائدة ممن سمينا، وكانت أمة عظيمة ذات بطشٍ وشدة.
ومنهم من رأى أن ديارهم كانت بلاد جند قنسرين الى تلّ ماسح الى خناصرة
الى بلاد سورية، وهذه المدن في هذا الوقت مضافة الى أعمال حلب من بلاد قنسرين
من أرض الشام. ومن الناس من رأى أنهم كانوا بأرض السماوة وأنها كانت
عمائر متصلة ذات جنان ومياه متدفقة، وذلك بين العراق الى حدّ الحجاز والشام،
وهي الآن براري وقفار وديار خراب. وقد كان الله بعث إليهم شعيب بن مهدم بن
حضور بن عدي: نبياً ناهياً لهم عما كانوا عليه، وهو غير شعيب بن نويل.
فجدّ شعيب بن مهدم في دعائهم وخوفهم وتوعدهم، وظهرت له معجزات
ودلائل أظهرها الله على يديه تدلّ على صدقه وتثبت حجته على قومه،
فقتلوه.

وكان في عصره نبياً آخر هو برخيا بن اجنيا بن رزنائيل بن شالتان، من
أسباط يهودا بن إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم، فأوحى الله إليه أن يأمر بعض
الملوك في الشام بغزو العرب أصحاب شعيب بن مهدم، فسار إليهم في جنوده

وغشي دارهم بعساكره، فاستعدّوا لحربه ولكن انقضت جنودهم وتفرقت جموعهم وولت كتابهم وأخذهم السيف فحصدوا أجمعين وبشأنهم - قيل - قال الله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَحْسَرُوا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾^(١).

العرب من ولد قحطان:

قال المسعودي: «ودثرت العرب العاربة عدا ولد قحطان من يعرب، فدثرت عاد وثمود والعمالقة وجرهم وطسم وجديس ووبار وعبيل، وسائر من سميننا، ودخل من بقي ممّن ذكرنا في العرب الباقية الى هذا الوقت، وهم ولد قحطان ومعد، ولانعلم أن قبلاً بقي يشار إليه في الأرض من العرب الأولى غير معد وقحطان»^(٢).

وقال: «الواضح من أنساب اليمن وما تدين به كهلان وحمير ابنا قحطان الى هذا الوقت قولاً وعملاً، وينقله الباقي عن الماضي والصغير عن الكبير، والذي وجدت عليه التواريخ القديمة للعرب وغيرها من الأمم، ووجدت عليه الأكثر من شيوخ ولد قحطان من حمير وكهلان بأرض اليمن والتهائم والأنجاد، وبلاد حضرموت والشحر والأحقاف، وبلاد عمان وغيرها من الأمصار: أن الصحيح في نسب قحطان: أنه قحطان بن عابر ابن شالخ بن قنان بن ارفخشد بن سام بن نوح. وكان لعابر ثلاثة أولاد: فالغ وقحطان وملكان. وولد لقحطان أحد وثلاثون ذكراً منهم يعرب، وولد ليعرب: يشجب، وولد ليشجب: عبد شمس فتملك وقاتل وسبي فلّقّب: بالسبأ لسبيه السبایا. وولد لسبأ: حمير وكهلان، وأما العقب

(١) مروج الذهب ٢: ١٠٩ - ١٣١ بتصرف - الأنبياء: ١٢.

(٢) مروج الذهب ٢: ٢٤.

في قحطان من ولد هذين: حمير وكهلان. هذا هو المتفق عليه عند أهل الخبرة والمتيقن لديهم. وكان قحطان سرياني اللسان وأنما تكلم يعرب بالعربية بخلاف لسان قحطان أبيه»^(١).

ملوك اليمن:

قال المسعودي «وفد عبيد بن شريّة الجُرهمي على معاوية فسأله عن أخبار اليمن وملوكها وتواريخ سنّتها، فذكر: أنّ أول ملوك اليمن: سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ثمّ ملك بعده الحارث بن شدّاد بن مِلَظَظ ابن عمرو. ثمّ ملك بعده أبرهة بن الرأش وهو أبرهة ذو المنار، ثمّ ملك بعده أفريقس بن أبرهة. ثمّ ملك بعده أخوه العبد بن أبرهة، ثمّ ملك بعده الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو وهو ذو الصّرح، ثمّ ملكت بعده بلقيس بنت الهدهاد سبع سنين، ثمّ ملك سليمان بن داود عليه السلام ثلاثاً وعشرين سنة. ثمّ ملك بعده ارحبعم بن سليمان سنة، ثمّ رجع الملك الى حمير فملك من بعد ارحبعم بن سليمان: ناشر النعم بن يعفر بن عمرو ذي الأذعار، ثمّ ملك بعده عمرو بن شمر بن أفريقس، ثمّ ملك بعده تبّع الأقرن بن عمرو، وهو تبّع الأكبر، ثمّ ملك بعده ابنه ملكيكرب بن تبّع. ثمّ ملك بعده تبّع أبو كرب اسعد بن ملكيكرب، ثمّ ملك بعده كلال بن مثوب، ثمّ ملك بعده تبّع بن حسان بن تبّع، ثمّ ملك بعده مرثد، ثمّ ملك بعده أبرهة بن الصّبّاح، ثمّ ملك بعده ذو شناتر بن زُرعة، ثمّ ملك بعده لخنيعه ذو شناتر، في مجموع مدّة ألف وتسعمائة وسبع وعشرين سنة. هذا ما حكى عن عبيد بن شريّة في ترتيب ملوك اليمن»^(٢).

(١) مروج الذهب ٢: ٤٥، ٤٦.

(٢) مروج الذهب ٢: ٦٠ - ٦٢.

ونترك هنا ذكر بقية ملوك اليمن وما وقع على عهدهم، لنأتي على ذلك بعد ذكر انتشار العرب من اليمن الى الحجاز ويثرب والعراق والشام. ورجحنا ذكر خبر عبيد بن شريّة الجرهمي في هذا الباب للاختصار، ولترجيح المسعودي له بقوله «ولم يصح عند كثير من الاخباريين - أي المؤرخين - من أخبار من وفد على معاوية من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين العرب وغيرهم من المتقدمين فيها، إلا خبر عبيد بن شريّة واخباره آياه عما سلف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والحوادث وتشعب الأنساب. وكتاب عبيد بن شريّة متداول في أيدي الناس مشهور»^(١).

سيل العرم وتفرّق الأزدي في البلدان:

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنّه أرسل على أهل بلاد سبأ سيلاً سماه سيل العرم، وقال المسعودي: «لا خلاف بين ذوي الرواية والدراية: أنّ العرم هو المسناة التي قد احكم عملها لتكون حاجزاً بين ضياعهم وبين السيل»^(٢)، وكان فرسخاً في فرسخ، بناه لقمان بن عاد بن عاديا الأكبر^(٣). وهذا السد هو الذي كان يردّ عنهم السيل فيما سلف من الدهر اذا حان أن يغشى أموالهم وقد كانت أرض سبأ قبل ذلك يركبها السيل، وكان ملك القوم في ذلك الزمان يقرب الحكماء ويدنيهم ويؤثرهم ويحسن إليهم، فجمعهم من أقطار الأرض للالتجاء إلى رأيهم والأخذ من محض عقولهم، فشاور في دفع ذلك السيل وحصره، وكان ينحدر من أعالي الجبال هابطاً على رأسه حتى يهلك الزرع ويسوق من حملته البناء.

(١) مروج الذهب ٢: ٢٥١.

(٢) مروج الذهب ٢: ١٦٣، ١٦٤.

(٣) مروج الذهب ٢: ١٦١.

فأجمع القوم رأيهم على عمل مصاريف له إلى البراري تقذف به إلى البحر. فحصر الملك المصارف حتى انحدر الماء وانصرف وتدافع إلى تلك الجهة، واتخذ السد في الموضع الذي كان فيه بدء جريان الماء، من الجبل إلى الجبل، من الحجر الصلد والحديد بطول فرسخ، وكان وراء السد والجبال أنهار عظام وقد اتخذوا من تلك المياه نهراً بمقدار معلوم ينتهي في جريانه إلى المخراق، وكان في هذا المخراق للأخذ من تلك الأنهار ثلاثون نقباً مستديرة في استدارة الذراع طولاً وعرضاً مدورة على أحسن هندسة وأكمل تقدير، وكانت المياه تخرج من تلك الأنقاب في مجاريها حتى تأتي الجنان فترويها سقياً، وتعم شرب القوم.

ثم إن تلك الأمم بادت وضربها الدهر بضرباته وطحنها بكلكله، ومرت عليها السنون، وعمل الماء في أصول ذلك المخراق وأضعفه ممر السنين عليه وتدافع الماء حوله. وأتى أبناء قحطان إلى هذه الديار وتغلبوا على من كان فيها من القُطّان، ولم يعلموا الآفة في السد والمخراق وضعفه، وعند تناهي السد والبنيان في الضعف عن تحمله غلب الماء على السد والمخراق والبنيان إبان زيادة الماء، فقذف به في جريه ورمى به في تياره واستولى الماء على تلك الديار والجنان والعمائر والبنيان، حتى انقرض سكان تلك الأرض وزالوا عن تلك المواطن^(١)، وذلك عندما انتهت الرئاسة فيهم إلى عمرو بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مازن بن الأزد بن الغوث بن كهلان بن سبأ^(٢).

قال المسعودي: «ورأى عمرو في النوم سيل العرم، فعلم أن ذلك واقع بهم وأن بلادهم ستخرب، فكتّم ذلك واخفاه وأجمع أن يبيع كل شيء له بأرض سبأ ويخرج منها هو وولده فابتاع الناس منه جميع ماله بأرض مأرب.

(١) مروج الذهب ٢: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) مروج الذهب ٢: ١٦١.

فلما اجتمعت لعمر وبن عامر أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم فقال: قد رأيت انكم ستمزقون كل ممزق، واني أصف لكم البلدان فاختراروا أيها شتم. فنزل جمع من الأزدي بقصر عمان المشيد فقبل لهم: أزد عمان. ولحق وادعة بن عمرو الأزدي وجمع معه بشعب كرود وهي أرض همدان فانتسبوا إليهم. وسكن جمع منهم بطن مرفسوا خزاعة لانخراهم عمن كان معهم من الناس وهم بنو عمرو بن لحى. ولحق الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بيثرب فسكنوه. ولحق بنو غسان ببصرى وحفير من أرض الشام. ولحق مالك بن فهم الأزدي وولده بالعراق فسكنوه.

وخرج من كان بمأرب من الأزدي يريدون أرضاً يقيمون بها، فساروا حتى إذا كانوا بنجران تخلف أبو حارثة بن عمرو بن عامر ودعبل بن كعب فانتسبوا إلى مذحج، وخرج عمرو بن عامر وولده من مأرب فسار حتى إذا كان بين السراة ومكة أقام هنالك أناس من بني نصر من الأزدي. وسار عمرو بن عامر وبنو مازن حتى نزلوا بين بلاد الأشعرين وعك على ماء يقال له غسان بين واديين يقال لهما زبيد ورمة، فأقاموا على غسان فسُموا به، والسراة: جبل يقال له الحجاز أيضاً سكن الأزدي في سهله وجبله وما قاربه من ظهره، وإنما سمي السراة ظهر هذا الجبل كما يقال لظهر الدابة السراة، وهو جبل يبدأ من تخوم الشام يفرز بين الحجاز وبين مايلي أعمال دمشق والأردن وبلاد فلسطين»^(١).

«وتخلف في مأرب مالك بن اليمان بن بُهم بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزدي، فأصبح ملك مأرب بعد من خرج منه الى أن كان من أمرهم ماكان من الهلاك»^(٢).

(١) مروج الذهب ٢: ١٧٠ - ١٧٤.

(٢) مروج الذهب ٢: ١٧٢.

قال المسعودي: وكان أهل مأرب يعبدون الشمس، فبعث الله اليهم رسلاً يدعوهم الى الله ويزجرونهم عما هم عليه، ويذكرونهم آلاء الله ونعمته عليهم، فجحدوا قولهم وردّوا كلامهم وأنكروا أن يكون لله عليهم نعمة وقالوا لهم: إن كنتم رسلاً فادعوا الله أن يسلبنا ما أنعم به علينا ويذهب عنا ما أعطانا فدعت عليهم رسلهم فأرسل الله عليهم سيلاً هدم سدّهم وغشى الماء أرضهم فأهلك شجرهم وأباد خضراءهم وأزال أنعامهم وأموالهم! فأتوا رسلهم فقالوا: ادعوا الله أن يخلف علينا نعمتنا ويخصب بلادنا ويرد علينا ما شرد من أنعامنا، ونعطيكُم موثقاً أن لا نشرك بالله شيئاً. فسألت الرسل ربها فأجابهم الى ذلك وأعطاهم ما سألوا. فأخصبت بلادهم واتسعت عمائرهم الى أرض فلسطين والشام قرى ومنازل وأسواقاً. فأتتهم رسلهم فقالوا: موعدكم أن تؤمنوا بالله، فأبوا إلا طغياناً وكفراً فزقّهم الله كلّ ممزّق»^(١).

ولابدّ هنا من استدراك:

كان هذا مهذب ما كتبه العرب عنهم بعد الاسلام، تأريخاً نقلياً ظنياً، بل مزيجاً بالأساطير. وظل هكذا مبهماً حتى أواسط القرن الماضي، حيث جدّ علماء الآثار والحفريات الأثرية التاريخية الغربيون في قراءة آثارهم المنقوشة بالخط المسند على الأبراج والهياكل والنصب والأحجار، فاستقر رأي الباحثين من علماء الغرب على ما يلي موجزاً:

إن العرب الجنوبيين في اليمن ليسوا من هجرة بابل بالعراق، بل هم من الموجة السامية الأخيرة التي بدأت في أواخر (الألف الثاني ق م وأوائل الألف ق م)، أي في حدود خمسة عشر قرناً قبل الاسلام، متجهة من شمال الجزيرة

نحو جنوبها، لا من خارجها وكانت مملكة سبأ في جنوب اليمن وعاصمتها مأرب، ولهجتهم السبائية هي احدى اللهجتين الأساسيتين: المنبثقة في اللغة اليمنية العربية القريبة من العربية الشمالية الحجازية والتهامية، والحبشية.

واللهجة الاخرى: المعينية لمملكة معين في جوف اليمن، وهي المملكة الثانية من الممالك الخمس هناك.

والمملكة الثالثة: مملكة قَتَبان في الجنوب الغربي لسبأ، وعاصمتها تَمَنَع.

والمملكة الرابعة: الاوسانية جنوبي قَتَبان.

والمملكة الخامسة: مملكة حضرموت، وعاصمتها شبوة.

وكانت الدولة المعينية في القرن العاشر قبل الميلاد، واستولت على مملكة قَتَبان ومملكة حضرموت، ووُجِدَت نقوشهم في شمالي الحجاز في دادان من منطقة العُلا، وفي الحجر أو مدائن صالح ^{عليه السلام}.

وفي (القرن السابع ق م) غلب السبائيون على المعينيين بل على الجنوب كله والشمال، واتخذوا مأرب حاضرة لهم، ومنهم بلقيس، نحو (٢٧٠ ق م).

وفي (١١٥ ق م) نازعهم ملوك ظُفَّار وذِي ريدان الحميريون وغلبوا عليهم وعلى الدول الجنوبية فتلقَّبوا باسم ملوك ذِي ريدان واليمان وسبأ وحضرموت، وكانت لهم تجارات الى الهند ومصر وافريقية الشرقية.

وفي (٢٤ ق م) اتَّجِه الرومان الى الملاحة في البحر الأحمر فاستولوا على ميناء عدن واتخذوها قاعدة لتموين سفنهم، فشلوا بذلك تجارة الحميريين، فساءت أحوالهم الاقتصادية، وأهملوا شؤونهم العمرانية، وأخذ الخراب يدب في البلاد.

وفي منتصف القرن الرابع الميلادي حاربهم ملوك الحبشة واستولوا على بلادهم وظلوا بها عشرين عاماً. وأخذت القبائل الحجازية تغير عليها.

فأخذ كثير من عشائر اليمن يهاجرون الى الشمال.

وهكذا اختلطت بل امتزجت لغتهم مما أعدّ لانتصار العربية الشمالية الحجازية على العربية الجنوبية اليمنية في أواخر العصر الجاهلي.

وسببت المنافسة الشديدة بين فارس وبيزنطة بعثات دينية مسيحية الى اليمن، فاعتنقها أهل نجران في القرن الخامس الميلادي. وناهضها ملوك حمير وآخرهم ذو نواس وحاول القضاء على المسيحيين بنجران (أصحاب الاخدود). فأوعزت بيزنطة الى النجاشي أن يغزو اليمن، فغزاها في (٥٢٥ م) واستولى عليهم وضمتها الى بلاده. وظل هذا الاحتلال الحبشي لليمن نحو خمسين عاماً. وأخيراً استنجد أهلها (سيف بن ذي يزن) بالفرس، فردّوا الأحباش وظلّوا بها حتى سنة (٦٣٨ م) إذ اعتنق الاسلام الحاكم الفارسي على اليمن بادان^(١) في السنة السابعة للهجرة، فأقره رسول الله على عمله على اليمن، فكان عليها حتى توفي رسول الله ﷺ.

ومن أجل أن نصل الى مدى عظمة الحضارة الحديثة الإسلامية فإنّ علينا أن ندرس الحضارات السائدة يومئذ:

الحضارة في الامبراطوريتين الفارسية والرومية:

يهتمنا للوصول الى مدى بركات الدعوة الإسلامية أن نطلع على حال الناس:

أولاً - في محيط نزول القرآن الكريم، وبيئة ظهور الإسلام وتناميّه.

ثانياً - في أرقى نقاط العالم يومئذ فكراً وأدباً وأخلاقاً وحضارة.

لأنرى التاريخ يعرّفنا بأرقى نقطة في ذلك العهد سوى الإمبراطوريتين

الفارسية والرومية، وإنّ من تمام البحث أن ندرس أوضاع هاتين الدولتين من مختلف النواحي كي يتضح لنا مدى أهمية الحضارة التي أتى بها الإسلام.

ونحن اذ نتبين نقاط الضعف في العرب أو الفرس أو الروم قبل الإسلام لانريد من ذلك إلا الوصول الى الحقائق في تعاليم الإسلام السامية، ولامانع لدينا عن تبين الواقع وتشرح الحقائق وبيان العقائد الخرافية والواقع السيء قبل ظهور الإسلام وحينه، سواء كنا عرباً أو فرساً أم من الروم.

دولة الفرس حين ظهور الاسلام:

المعروف أن بعثة رسول الإسلام ﷺ كانت في سنة (٦١١ م) المصادف لعهد خسرو پرويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) وعلى عهده هاجر الرسول ﷺ من مكة المكرمة الى المدينة المنورة (٦٢٢ م) وهو مبدأ التأريخ الهجري القمري والشمسي. وفي هذه الأيام كان يحكم القسم الأعظم من العالم المتحضر يومئذ الدولتان الكبيرتان والقويتان الروم الشرقية وإيران الساسانية، وكانت هاتان منذ مدة مديدة في حرب مستمرة في سبيل الاستيلاء على الحكم في العالم، امتدت هذه الحروب من عهد السلطان انوشيروان (٥٣١ - ٥٨٩ م) وحتى عهد خسرو پرويز أي أكثر من أربعة وعشرين عاماً. وقد أثرت الخسائر الفادحة والمصاريف الباهضة التي كانتا تتحملانها في هذه الحروب في قدرتها حتى لم يبق منها سوى شبح مخيف خاو. ونحن من أجل أن ندرس أحوال الناس في ظل الفرس من مختلف الجهات علينا أن نطلع على أوضاع الحكومات من بعد انوشيروان وحتى دخول المسلمين الى إيران.

الحضارة الايرانية:

إن أكبر نقد يرد على الحكم القائم يومئذ هو أنه كان حكماً ديكتاتورياً استبدادياً فردياً، ولاشك أن العقل الفردي ليس كالعقل الجماعي، فالظلم والمساومة أقل في الحكومة الجماعية من الحكومة الفردية. ولاشك أن شكل الحكم مما يؤثر في كيفية سلوك الناس.

انّ الملوك الساسانيين كانوا ذوي أبهة وفخخة، فالبلاط الساساني وجماله وبهاؤه كان ممّا يحار فيه الناظرون، وذلك من كثرة ما جمعوا فيه من الجواهر والأشياء النفيسة والثرينة ومن الصور والنقوش ما يحير العقول.

وقد شرح بعض المؤرخين بعض ترف خسرو پرويز، منهم حمزة الإصفهاني في كتابه «سنيّ ملوك الأرض» إذ كتب يقول: «كان لخسرو پرويز ثلاثة آلاف امرأة، واثنان عشر ألف جارية مطربة وراقصة. وله ستة آلاف حارس. وله ثمانية آلاف وخمسمائة من الخيل الجياد للطراد، واثنان عشر ألف من البغال لحمل أثقاله مع ألف بعير. وله تسعمائة وستون فيلاً للقتال»^(١).

إنّ نظام المجتمع على عهد الساسانيين كان نظاماً طبقياً بل كان من قبل ذلك قديماً وأنما اشتد على عهدهم.

كتب أحد المحققين من المؤرخين الإيرانيين بشأن الطبقات في عهدهم يقول: «إنّ من أشد عوامل التفرقة في الإيرانيين هو النظام الطبقي المتشدد الذي كان يطبقه الساسانيون في إيران، وإن كانت جذوره ممتدة منذ القدم إلا أنّ الساسانيين كانوا قد تشددوا في تطبيقه جدّاً: فالملكية الفردية كانت محصورة تقريباً في سبع أسر خاصة بينما كان عامة الناس محرومين من ذلك تقريباً. ونفوس إيران إذ ذاك مائة وأربعون مليوناً تقريباً، وإذا افترضنا أنّ الأسر السبع كانت تبلغ سبعمائة ألف، وأضفنا إلى ذلك أمراء الثغور وأصحاب الأملاك الصغار الذين كانوا يتمتعون بشيء من حق الملكية وافترضنا أنّهم أيضاً سبعمائة ألف، كان الذي يتمتع بحق الملكية مليوناً ونصف المليون من مجموع مائة وأربعين مليوناً»^(٢).

(١) سنيّ ملوك الارض : ٤٢٠.

(٢) بالفارسية : تاريخ اجتماعي ايران ٢ : ٢٤ - ٢٦.

وقد نقل مؤلف كتاب «إيران في عهد الساسانيين» عن أحد المؤرخين الغربيين أنه يقول: «إنّ العَمّال والفلاحين في إيران على عهد الساسانيين كانوا يعيشون بمنتهى الذلة والمسكنة والتعاسة، وكان من تكليفهم في الحروب أن يمشوا من وراء العسكر كأنّهم قد كتب عليهم أن يكونوا عبيداً أرقاء، من دون أن ينالوا على أعمالهم هذه الشاقة شيئاً»^(١).

وذكر الكاتب الإسلامي شكيب أرسلان يقول:

«إنّ العَمّال والفلاحين كانوا محرومين من أي شيء من الحقوق الاجتماعية بل كان عليهم عبء مصارف الأشراف وثقلهم، فلم يكن لهم أيّ نفع في حفظ هذا النظام، ولذلك كان كثير من الفلاحين والطبقات السفلى في المجتمع قد تركوا أعمالهم فراراً عن أداء الضرائب والمكوس يلتجئون الى الصوامع والدير والكنائس والبيع»^(٢).

أجل، إنّ نسبة قليلة أقلّ من الواحد والنصف في المائة من المجتمع الإيراني كان يتمتع بكلّ شيء، أمّا أكثر من ثمان وتسعين بالمائة من الناس في إيران كانوا كالعبيد الأرقاء.

اختصاص التعليم بالطبقة الممتازة:

إنّ أطفال الأثرياء وأولي النعمة والجاه فقط هم الذين كان لهم الحقّ في أن يتعلموا، أمّا الطبقات الوسطى وسائر الناس فقد كانوا ممنوعين عن ذلك! وقد اعترف بهذا النقص في الحضارة الفارسية القديمة حتّى أولئك الذين كانوا يحاولون

(١) بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان: ٤٢٤.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ٧٠-٧١.

الاعتزاز بتلك الحضارة. فقد ذكر الفردوسي الشاعر الحماسي الفارسي في ديوان شعره الحماسي قصة تشهد على ذلك، وقد وقعت القصة على عهد أنوشيروان أي في العهد الساساني الذهبي، وتشهد هذه القصة على أن الأكثرية الساحقة من الناس لم يكن لهم حق التعلم.

يقول الفردوسي: كان أنوشيروان بحاجة إلى المعونة المالية لقتال الروم، فإن أكثر من ثلاثمائة ألف جندي إيراني كانوا يحاربون الروم وهم في إعواز شديد للأسلحة والطعام. وكانوا قد أبلغوا أنوشيروان بذلك، فاضطرب أنوشيروان وخاف على مصيره من ذلك، ودعا إليه وزيره العالم «بُزرك مِهر» ليشاوره في الأمر، ويقول أنوشيروان: إن على الوزير أن يذهب إلى بلاد مازندران ليجمع المال اللازم لذلك من الناس، ويقول بزرگ مِهر: إن الخطر قريب وعلينا أن نفكر في الخلاص السريع ولذلك يقترح على الملك أن يقترض من الناس فيقبل الملك على أن يعجل في الأمر، ويبعث بزرگ مِهر رسله إلى القرى والمدن القريبة ليلبغوا أغنياءها بالأمر. ويحضر تاجر يعمل في تجارة الأحذية ويستعد لدفع جميع مصارف الحرب بشرط واحد هو: أن يسمح لولده بالتعلم والوزير لا يرى مانعاً عن إجابة ملتمسه، فيسرع إلى خسرو أنوشيروان ويبلغ الملك أمل الرجل، فيغضب أنوشيروان لذلك وينهر وزيره ويقول له: ما هذا الطلب الذي تتقدم به أنت؟! ليس من الصلاح أن نستجيب لهذا الطلب، فإنه بخروجه عن طبقته ينخر في كيان النظام الطبقي، وهذا ضرره أكثر من نفع ما يدفعه من الذهب والفضة! فإن ابن التاجر إذا تعلّم فأصبح عالماً ذا فنّ وهب له علمه آذاناً صاغية وعيوناً ناظرة، فإذا جلس ابني على سرير الملك واحتاج إلى كاتب استخدمه ولم يبق للعلماء من أبناء البيوتات والأسر سوى أن يتحسروا ويحسدوا ابن التاجر^(١)! ومع هذا وصفوه بالعاذل.

(١) بالفارسية: تاريخ اجتماعي ايران ١: ٦١٨.

وفي فتنة مزدك قتل ثمانين الفاً من أصحابه^(١) ليقتلع جذور الفتنة! بينما جذور الفتنة كانت تكمن في التمايز الطبقي وكثر الثروات بيد الأثرياء الأغنياء، وحكر الثراء والمقام بأيدي طبقة خاصة، الى جانب حرمان الأكثرية الساحقة، وسائر المفاسد الأخرى. في حين يحاول أنوشيروان أن يسكّث الناس بالضغط وقوة السلاح!

وبصدد توجيه نسبة صفة العدالة الى أنوشيروان يقول إدوارد براون: «وذلك لشدة بطشه بالزنادقة المزدكيين ممّا حبّبه إلى مؤيد المجوس، وهم الذين أثبتوا له هذه الصفة»^(٢). ووصفوه بأنّه كان قد علّق خارج قصره سلسلة ليحركها المظلومون، فينبّهونه بذلك ويدعونه الى العدل بشأنهم^(٣). ودليل الكذب فيه هو أنّهم يقولون بعد ذلك: أنّه لم يحركها في طول هذه المدة إلاّ حماراً!

وكذلك قالوا «كان فيمن وفد إليه من رسل الملوك وهداياها والوفود من الممالك في العراق: رسول لملك الروم قيصر بهدايا والطاف، فنظر الرسول الى إيوانه وحسن بنيانه، ومع ذلك اعوجاج ميدانه! فقال: كان ينبغي أن يكون الصحن مربّعاً؟ فقليل له: إنّ عجوزاً لها منزل في جانب الاعوجاج منه، وأنّ الملك أرادها على بيعه وارغبها فأبت فلم يكرها الملك وبقي الاعوجاج من ذلك على ماترى! فقال الرومي: هذا الاعوجاج الآن أحسن من ذلك الاستواء»^(٤).

(١) مروج الذهب ١: ٢٦٤.

(٢) بالفارسية: تاريخ ادبي ايران ١: ٢٤٦.

(٣) بالفارسية: تاريخ اجتماعي ايران ١: ٦١٨.

(٤) مروج الذهب ١: ٢٦٤.

عجيب! ألا يحضر من يريد أن يبني هكذا قصر عظيم هندسة وتصميماً خاصاً له وهكذا يقدم على البناء بدون أرضية كافية وهندسة خاصة؟! فيخرج القصر معوجّ الميدان. - كما نقل المسعودي -، من يصدّق هذا؟! أجل لا يبعد أن يكون موابذة المجوس وأصحاب البلاط قد وضعوا هذه القصص له شكراً له على ما قدّمه لهم من خدمات تذكر فتشكر.

وأعجب من ذلك أن حاول بعض الشعوبيين أن يضع حديثاً على لسان رسول الله ﷺ يصف انوشيروان بالعدالة: «ولدت في زمن الملك العادل»^(١) وخبراً يقول: إنّ علياً عليه السلام حينما دخل مدائن كسرى نزل في إيوانه وأخرج جمجمة فأحیی صاحبها وسأله عن حاله فقال: أنّه انوشيروان وهو لكفره محروم عن الجنة ولكنه لعدله لا يعذب بالنار! ومما يشهد على أنّ أصحاب البلاط كانوا يمدحونه ويشنون عليه وينشرون عنه الجميل ممّا ليس فيه ما يذكره الفردوسي في «الشاهنامه»: أنّ الوزير بزرك مهر كان وزيراً لانوشيروان مدة ثلاثة عشر عاماً، ثم غضب عليه خسرو پرويز فألقاه في السجن وكتب إليه رسالة قال له فيها: إنّ عملك هو الذي أدّى بك الى القتل! فكتب بزرك مهر في جوابه يقول له: كنت أفيد من عقلي ما كان الحظّ يساعدي، والآن إذ ليس لي حظّ فسأفید من حلمي وصبري إنّ كنت قد حرمت من كثير من أعمال الخير والبرّ، فقد استرحت أيضاً من كثير من أعمال السوء والشر، إنّ كنت قد سلبت منصب الوزارة فقد أغفيت من ألم الظلم فيها أيضاً، فما يضرني ذلك؟!

فلما بلغت هذه الرسالة ليد خسرو پرويز حضر عليه وأمر أن يجده أنفه وتقطع شفتاه! فلما سمع بزرك مهر ذلك قال: أجل إنّ شفتيّ يستحقان أكثر من ذلك!

فقال خسرو: لماذا؟ قال بزرگ مهر: لأنني أثنت عليك بهما عند الخاصة والعامة بما لم يكن فيك، ونشرت عنك جميلاً لم تكن أهلاً له، يا أسوأ الملوك! بعد أن أيقنت بطهري وبرّي أردت قتلي بسوء الظنون؟! إذن فمن يأمل عدلك ومن يعتمد قولك؟! فغضب خسرو پرويز من هذا الكلام وأمر بضرب عنقه^(١).

وكذلك كان أكثر الحكام الساسانيين ذوي سياسة خشنة بالعسا الغليظة، وحتى العلماء وأصحاب الأعمال لم تكن لهم قيمة لدى بلاطهم، إذ كان القادة الساسانيون مستبدّين بآرائهم بحيث لا يجروّ أحد على اظهار نظره لديهم، ولهذا كان عامة الإيرانيين غير راضين عنهم ولكنهم كانوا خائفين منهم^(٢).

وقتل خسرو پرويز ابنه شيرويه ليصل الى الملك كما نقل المسعودي^(٣). وملك بعد شيرويه حتى يزدجرد آخر ملوك الساسانيين عدد يتراوح ذكرهم في التاريخ بين ستة إلى أربعة عشر رجلاً وامراً وهذا يعني أن الحكومة تغيرت في مدة أربع سنين أكثر من ست مرات الى أربع عشرة مرة. فما حال دولة يحدث فيها أربعة عشر انقلاباً دمويّاً في مدة أربع سنين فقط! فكلّ من يصل للملك يقتل كلّ من يدّعيه غيره، ويفعل ما يراه موطداً لأركان ملكه، فالأب يقتل ابنه والابن يقتل أباه، وكلّ من كان يصل الى الملك كان يقتل أقرباءه أي أبناء الملوك الآخرين دفعا للخطر، كان القادة ينادون بالملك للأطفال والنساء وبعد عدة أسابيع يقتلونهم ويجلسون آخرين بمكانهم. وهكذا كانت الدولة الساسانية تسير الى هاوية الهلاك.

(١) الشاهنامه ٦: ٢٥٧ - ٢٦٠. وحكى القصة المسعودي في مروج الذهب ١٠: ٢٧٦.

(٢) بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان: ٣١٨.

(٣) مروج الذهب ١: ٢٨٠.

حروب إيران والروم:

بعد وقوع عدد من الحروب بين إيران والروم عقد أنوشيروان صلحاً مع الروم اسموه بالصلح الدائم. وبعد مدة ساءت ظنون أنوشيروان بالروم فأعدّ العدة وجهّز الجيوش للهجوم على الروم واشتعلت نيران الحرب، وفي فترة قليلة نسبياً فتح الفرس سورية وأحرقوا مدينة أنطاكية ونهبوا آسيا الصغرى، واستمرت الحروب حتى عشرين عاماً وحتى فقد كل من المعسكرين إمكاناتهم وطاقاتهم فيها، وبعد خسائر كثيرة عقدوا الصلح بينهم مرة أخرى ورجعوا إلى حدودهم السابقة كما كانت شريطة أن يدفع الروم كل عام عشرين ألف دينار من الذهب إلى إيران.

وبعد أن تملك في الروم «تي پاريس» بدأ هجوماً عنيفاً على إيران بغية الانتقام منها، واستمرت هذه الحروب سبع سنين. ومات عنها أنوشيروان وتملك بعده ابنه خسرو پرويز وفي عام ٦١٤ م بدأ پرويز هجوماً عنيفاً على الروم وفتح في الحملة الأولى الشام وفلسطين وأفريقيا، ونهب اورشليم وأحرق كنيسة القيامة ومزار السيد المسيح وهدم المدن، وانتهت هذه الحروب بقتل أكثر من تسعين ألف مسيحي!

وكان هذا بعد بعثة رسول الإسلام ﷺ فتفاءل المشركون بغلبة الفرس عبدة النيران على الروم المسيحيين واغتم المسلمون لذلك، وانتظر رسول الله ﷺ الوحي فنزلت الآيات الأوائل من سورة الروم ﴿الْم * غُلِبَتْ الرُّومُ * فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾^(١).

وقد تحقق نبا القرآن الكريم بشأن الروميين بعد عشر سنين أي في سنة ٦٢٧ م تقريباً فاستعاد هرقل مدينة نينوى (الموصل) ولم يمض شيء حتى قتل

خسرو پرويز على يد ابنه شيرويه، ومات شيرويه بعد ثمانية أشهر، وبعد شيرويه حكم إيران في مدة أربع سنين أكثر من عشرة قادة أربعة منهم نساء وانتهى الأمر بهجوم العرب المسلمين وقد ساعدت هذه الحروب التي استمرت أكثر من خمسين عاماً على تقدم الفتوحات الإسلامية مساعدة جادة مؤثرة، وذلك إذ تعلق مشيئة الله بأن ينتشر نور الإسلام.

اضطراب الوضع الديني:

وأهم اضطراب كان يسود إيران على عهد الساسانيين هو الاضطراب الديني. إن «أردشير بابكان» مؤسس سلسلة الساسانيين كان ابن موبذ من موابذة المجوس ووصل إلى السلطة بمساعدة علماء المجوس، ولذلك قام بنشر دينهم في أطراف مملكته بكل ما قدر عليه. فأصبح الدين الرسمي والعام لإيران على عهد الساسانيين هي المجوسية، وبما أن سلطة الساسانيين إنما تحققت بتأييد موابذة المجوس لذلك كانوا في رعاية تامة من قبل البلاط الساساني، وكانوا أقوى طبقة في المجتمع الطبقي الإيراني، وكان الحكام الساسانيون في الواقع متعيين بتعيين من الموابذة المجوس، فاذا تمرد أحد الحكام على العلماء الروحانيين كانوا يقابلونه بشدة، وكذلك كان الملوك الساسانيون يقبلون على طبقة رجال الدين أكثر من أية طبقة أخرى، ولذلك كان الموابذة في أطراد وكثرة، وكان الساسانيون يفيدون منهم لتأييد سلطانهم، ويقيمون لهم في أطراف إيران معابد النيران وفي كل منها عدد كثير منهم، حتى كتبوا أن خسرو پرويز بنى معابد نيران كانت تسع لإثني عشر ألف «هيربد» من العباد يصلون ويتلون الأناشيد الدينية^(١).

(١) بالفارسية: تاريخ تمدن ساسانی ١: ١.

وهكذا كانت المجوسية دين البلاط الرسمي، وكان الموابذة المجوس يسعون لتهدئة الطبقات الكادحة والمحرومة من المجتمع بحيث لا يحسّون كثيراً بالآلامهم. وهذه الصلاحيات اللاحدودة المخوّلة للموابذة المجوس وضغطهم الشديد على عموم الناس أثر في إبعاد الناس عن المجوسية، فكان أكثر الناس يحاولون أن يجدوا لانفسهم ديناً غير دين طبقة الأشراف.

ومن ناحية أخرى: فإنّ دين المجوس كان قد فقد حقيقته تماماً، فقد بلغ تقديس النيران إلى تحريم ضرب الحديد المحماة بالنار بالمطرقة لأنها بمجاورتها النار كانت قد تقدست بقداسة النار المقدسة! وهكذا شكّلت الخرافات والأساطير أكثر أصول عقائد زرادشت، أمّا حقائق دينه فقد تركت المجال لعدد من الشعائر الخاوية الميّنة التي كان الموابذة يضيفون كل يوم إليها خرافات جديدة.

ومن ناحية ثالثة: كانت الثقافة الرومانية والهندية قد وجدت طريقها إلى إيران على عهد أنوشيروان، وسبّب اصطكاك العقائد الزرادشتية مع العقائد المسيحية والأديان الأخرى يقظة الإيرانيين وأصبحوا يتألّمون ممّا في الدين الزرادشتي من الخرافات والمطالب الواهية، وسبّب كلّ هذا اختلاف العقائد والآراء في إيران وشیوع الأديان والمذاهب الأخرى، والشك والتردد في آخرين، حتّى ترك أكثر الناس ما كانوا يعتقدون به قبل ذلك، وشمل الإلحاد والاضطراب كلّ أنحاء إيران^(١).

الحضارة الروميّة:

أمّا الرّوم فلم تكن بأحسن حالاً من إيران، فالحروب الداخلية والخارجية

(١) بالفارسية: تاريخ اجتماعي إيران ٢: ٢٠ فما بعد.

التي كانت تكابدها دائماً ضد إيران على أراضي «أرمستان» وغيرها كانت قد أعجزت الناس وجعلتهم مستعدين لاستقبال أيّ تغيير للأوضاع الراهنة آنذاك. إنّ رجال الكنيسة حينما اخذوا زمام الحكم بأيديهم في الروم جعلوا يمارسون الضغط الشديد بالنسبة الى الوثنيين ولم تكن الفتنة تنطفيء بين الوثنيين والمسيحيين فكانت الاختلافات الدينية أكثر من كلّ شيء في الروم، وكان ضغط رجال الكنيسة قد أدّى بكثير من الناس الى الحرمان والفقر، وكانت هذه الاختلافات تنخر في كيان قدرة الامبراطورية الرومية.

وعدا هذا فقد كان البيض في شمال الروم في اصطكاك وصادام مع الصُفر في شرق الروم في سبيل الحصول على أكثر النقاط صلاحاً للزراعة والاستثمار، وكانت هذه الصدمات أحياناً تؤدّي الى خسائر فادحة عظيمة من الطرفين، وكان هذا قد تسبّب في انقسام الامبراطورية الرومية الى قسمين: شرقي وغربي. ويرى المؤرخون أنّ الأوضاع الاجتماعية والمالية والسياسية الرومية في القرن السادس كانت في اضطراب شديد، ولا يرون في اقتدار الروم على استعادة سلطتها على بعض النقاط المسلوقة منها دلالة على قدرة الروم، بل يرون ذلك من فقدان النظام الحاكم في إيران لانضباطه وكيانه القوي.

إذن: فالامبراطوريتان اللتان كانتا تدّعيان السيادة السياسية على العالم يومئذ كانتا حين طلوع فجر الإسلام تعيشان مرحلة الشيخوخة والهزم، ومن البديهي أنّ هذه الأوضاع المضطربة كانت قد أوجدت في الشعبين استعداداً بل استقباليةً لدين جديد ينظّم أوضاعهم هذه من جديد منقذاً لهم ممّا هم فيه من الاضطراب والقلق.

وإذ قرأنا هذا عن أوضاع هاتين الامبراطوريتين فلنقرأ عن دويلتين عربيتين تابعتين لهما:

ملوك الحيرة من اليمن:

بعد قرنين من الميلاد وفي أوائل القرن الثالث، هبط بعض الطوائف العربية من بني لخم اليمنيين في الأراضي المجاورة للفرات في العراق، على عهد الفرس الساسانيين.

وكان الفرس الساسانيون يحكمون العراق، ولكن القرى والمزارع العراقية الساسانية كانت تتعرض من حين لآخر لغارات القبائل العربية البدوية من ناحية بادية الصحراء الحجازية، فكانوا بحاجة الى عرب يملكونهم على ثغور العراق فيكفونهم غارات البدو، فملكوا هؤلاء اللخميّين.

وبنى هؤلاء اللخميّون في هذه المنطقة عدداً من المدن أو القرى والقلاع أهمها الحيرة قرب الكوفة على حافة بادية الصحراء الحجازية، ولفظ الحيرة تحرّف عن جرتا السريانية وتعني القبة والحرم، أو المعسكر والخيم^(١) وساعد جوّ هذا البلد و مناخه وماؤه على عمرانها والحضارة فيه، ومن مظاهر الحضارة فيه أنهم تعرّفوا على الخطّ والكتابة به، ومنهم انتقل الى عرب الحجاز^(٢).

ومن تاريخهم المنقول نكتفي نحن هنا بما ذكره اليعقوبي والمسعودي ونعلّق عليه بما يلزم:

نقل اليعقوبي عن أهل العلم بالرواية قالوا: لما تفرق أهل اليمن، قدم مالك بن فهم بن غنم بن دوس، حتّى نزل أرض العراق في أيام ملوك الطوائف (الفرس) فأصاب قوماً من العرب من معدّ وغيرهم بالجزيرة (الموصل) فلكوه عليهم عشرين سنة.

(١) العصر الجاهلي، لشوقي ضيف: ٤٤.

(٢) فتوح البلدان: ٤٥٧.

وتكهن جذيمة الأبرش (التنوخى)، وعمل صنمين سماهما (الضيزنان) واستهوى بهما أحياء من العرب، وصار بهم الى العراق، فسار من ارض البصرة الى ارض الجزيرة (الموصل) حتى صار الى ناحية على شط الفرات بالقرب من الأنبار يقال لها: بقة.

وكان يملك تلك الناحية امرأة يقال لها الزباء^(١).

فلما صار جذيمة الى ارض الأنبار، واجتمع له من أجناده ما اجتمع قال لهم: اني عزمت على أن أرسل الى الزباء (زئوبة) فأتزوجها فأجمع ملكها الى ملكي! فقال غلام له يقال له قصير: إن الزباء (زئوبة) لو كانت ممن تقبل نكاح الرجال لسبقت اليها!.

فكتب اليها. فكتبت اليه: أن أقبل اليّ أزوّجك نفسي! فارتحل اليها. فلما دخل عليها.. قتلتها فقطعته «وكان يعاصر اردشير بن بابك وشاهپور ابن اردشير»^(٢). فلما قتل جذيمة ملك مكانه ابن اخته: عمرو بن عدي (ومن هنا سمّوا: بني عدي) بن نصر (ومن هنا سمّوا: بني نصر) ابن ربيعة (فهم من بني ربيعة) ابن عمرو بن الحارث بن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم ومن هنا سموا: اللّخميين، ولتكرار اسم المنذر فيهم بعد هذا سمّوا بمناذرة العراق بازاء غساسنة الشام.

قال المسعودي: وكان على الحيرة ابن عم جذيمة: عمرو بن عبد الحّي التنوخي، فلما صرف عمرو بن عدي وجوه جند خاله جذيمة التنوخي الى

(١) محرّفة كلمة: زئوبة ملكة تدمر النبطية التي كانت تحكم الأنباط بالشام عن الرومان، وطفّت فتمردت عليهم، فحاربوها حتى قضوا عليها عام (٢٧٣ م) - العصر الجاهلي، لشوقي ضيف: ٣٢.

(٢) مروج الذهب ٢: ٦٥.

نفسه ومناهم بالمال والحال، فانصرف اليه منهم بشر كثير، التقى هو وعمرو ابن عبدالحى التنوخى بالقتال حتى خافوا الفناء، فخضع التنوخى لابن عدي وتمّ الأمر له^(١).

قال اليعقوبي: ثم ملك امرؤ القيس بن عمرو^(٢).

ثم ملك أخوه الحارث بن عمرو.

ثم ملك عمرو بن امرئ القيس.

قال المسعودي: ثم ملك النعمان بن امرئ القيس^(٣).

قال اليعقوبي: ثم ملك المنذر بن (النعمان بن) امرئ القيس.

ثم ملك النعمان (ابن المنذر) وحكم ثماني وثلاثين سنة، عاصر فيها من ملوك الفرس: يزدجر الأول^(٤) وبهرام گور. وكان من اشد ملوك العرب نكاية في أعدائه. غزا الشام مراراً وأكثر من المصائب في أهلها وسبى وغنم. وجند الجند على نظام خاص عرف به، فكان عنده من الجيش كتيبتان: إحداهما مؤلفة من رجال الفرس اسمها «الشهباء» والأخرى من عرب تنوخ اسمها «الدوسر» فكان

(١) مروج الذهب ٢: ٧١ فكان ملكه مائة سنة ٢: (٦٦ و ٧٤)، وفي اليعقوبي ١: ٢٠٩ خساً وخمسين سنة. بل نصبه شاهپور بن اردشير الساساني في (٢٤١ - ٢٧١ م) أي ثلاثين سنة فقط - العصر الجاهلي لشوقي ضيف: ٤٤.

(٢) ملك (٢٧٢ م)، وكأنه غزا لبنان فهلك على شرقي جبل الدروز ودفن هناك سنة (٣٢٨ م) كما في نقش النمارة على قبره في أطلال معهد روماني اكتشفه دوسو وماكلر عام (١٩٠١ م) كما في العصر الجاهلي: ٣٥، فقد ملك (٥٨)، ويقاربه المسعودي ٢: ٧٤ ستين سنة، وفي اليعقوبي ١: ٢٠٩ (٣٥) سنة.

(٣) مروج الذهب ٢: ٧٤.

(٤) من ٣٩٩ - ٤٢٠ م. العصر الجاهلي لشوقي ضيف: ٤٤.

يغزو بهما من لا يدين له من العرب^(١). تتبّع أخباره بالتفصيل جرجي زيدان في كتابه «العرب قبل الاسلام».

قال اليعقوبي: وهو الذي بنى «الخورنق»^(٢) فبينما هو جالس ينظر منه الى ما بين يديه من الفرات وما عليه من النخل والأجنت والأشجار إذ ذكر الموت فقال: وما ينفع هذا مع نزول الموت وفراق الدنيا؟! فتنسك واعتزل الملك. وإياه عني عديّ بن زيد العبادي حيث يقول:

وتفكر ربّ الخورنق إذ أشدّ عرف يوماً وللهدى تفكير
سرّه حاله وكثرة ما يد ملك، والبحر معرض والسدير
فارعوى قلبه وقال: وما غب طة حيّ الى الممات يصير^(٣)

قال المسعودي: وملك (بعده ابنه) الأسود بن النعمان.

وملك (بعده ابنه) المنذر بن الأسود^(٤).

(١) للتفصيل انظر: العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان.

(٢) وكان سبب بنائه الخورنق: انّ يزدجرد بن بهرام شاه بن شاهپور ذي الأكتاف، ولد له ابنه بهرام، فسأل عن منزل برّي مري صحيح من الأدوية والأسقام فدلّ على ظهر الحيرة، فأمر يزدجرد النعمان هذا ببناء مسكن له ولابنه بهرام، فأمر النعمان رجلاً يقال له سنّار أن يبني له ذلك فبناه، فلما فرغ من بنائه تعجّبوا من حسنه واتقان عمله فوقوه أجره، فقال: لو علمت أنّكم تصنعون بي ما أنا أهله وتوفوني أجري لكنت بنيته بناء يدور مع الشمس حيثما دارت! فغضب النعمان وقال: كنت قادراً على أن تبني ما هو افضل منه ولم تبنيه كذلك؟! ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق من رأس الخورنق، فجرى ذلك مثلاً في العرب يقال: جزاه جزاء سنّار (الطبري ٢: ٦٥)، (الآغاني ٢: ١٤٤ - ١٤٦).. والجوسق معرب كلمة: كوشك، وهو الغرفة العالية الخاصّة في أعلى القصر. والخورنق كذلك معرب كلمة: خورنگاه أي المطعم.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٠٩، ٢١٠ والقصيدة في الآغاني ٢: ١٣٨ - ١٣٩.

(٤) مروج الذهب ٢: ٧٤ وفي اليعقوبي ١: ٢١٠: المنذر بن النعمان. من (٥١٥م) معاصراً ←

ثم ملك بعده عمرو بن المنذر^(١) قال اليعقوبي: وهو ابن هند، وكان يلقب بمضرط الحجارة (لشدته على العرب). وكان قد جعل الدهر يومين: يوماً يصيد فيه ويوماً يشرب، فاذا جلس لشربه أخذ الناس بالوقوف على بابه حتى يرتفع مجلس شربه.. فلم يزل طرفة بن العبد يهجو ويهجو أخاه قابوساً ويذكرهما بالقبيح ويشبب باخت عمرو ويذكرها بالعظيم.. ويساعده على هجائه المتلمس. فقال لها عمرو: قد طال ثواكما، ولا مال قبلي، ولكن قد كتبت لكما الى عاملي بالبحرين يدفع لكل واحد منكما مئة ألف درهم!

فأخذ كل واحد منهما صحيفة. واستراب المتلمس بأمره، فلما صارا عند نهر الحيرة لقيا غلاماً عبادياً^(٢) فقال له المتلمس: أتحسن أن تقرأ؟ قال: نعم. قال: اقرأ هذه الصحيفة: فاذا فيها: إذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه. فطرح الصحيفة وقال لطرفة: في صحيفتك مثل هذا! قال: لا يجترئ على قومي بهذا وأنا بذلك البلد أعز منه! ومضى الى عامل البحرين بصحيفته دون أن يقرأها.

→ لُقباد الساساني وفي عهده كان الحارث الغساني قد أقام دولته في الشام للروم، فاشتبك المنذر معه في حروب طاحنة أسرف فيها ابناً للحارث فقتله سنة (٥٤٤ م) وهو صاحب يوم حليلة المعروف بالقرب من قنسرين وفيها قتل (٥٥٤ م)، فلك أربعين عاماً تقريباً، وقال المسعودي: (٣٤)، واليعقوبي: (٣٠).

(١) مروج الذهب ٢: ٧٤. من (٥٥٤ - ٥٦٩ م) وساءت العلاقة بينه وبين قُباد الساساني في أوائل ملكه (قبل ٥٥٩ م) فعزله قباد وولّى مكانه الحارث بن عمرو أمير كندة، ثم توفي قباد (نحو ٥٥٩ م) وتملك خسرو أنوشيروان فأعاد المنذر الى حكم الحيرة فحارب الحارث فهزمه وقتله. ولُقّب محرّق العرب لأنه حرّق قوماً من العرب من بني تميم في يوم أواره باليمامة وفاءً بنذره - العصر الجاهلي، لشوقي ضيف: ٤٥. وحيث عاد الى الحكم توهم اليعقوبي التعدد فقال: ثم ملك عمرو بن المنذر الثاني ١: ٢١٠.

(٢) أي نصرانياً، أهل عبادة، وقراءة في الكتب.

فلما قرأ العامل صحيفته قطع يديه ورجليه وصلبه !.

ثم ملك أخوه قابوس بن المنذر^(١).

قال المسعودي: وملك النعمان بن المنذر (الرابع) وهو الذي يقال له: أبيت

اللّعن، اثنتين وعشرين سنة^(٢) ولتكرار اسم المنذر فيهم سمّوا: المناذرة.

قال اليعقوبي: وكان مع المنذر أهل بيت من امرئ القيس بن زيد، وكان من

أهل ذلك البيت عديّ بن زيد العبادي (النصراني) وكان خطيباً شاعراً قد كتب

العربية والفارسية، وكان المنذر قد جعل عندهم ابنه النعمان فأرضعوه وكان

في حجورهم.

وكتب كسرى الى المنذر بأن يبعث له بقوم من العرب يترجمون له الكتب.

فبعث بعديّ بن زيد وأخوين له، فكانوا في كتابه يترجمون له.

فلما مات المنذر قال كسرى لعديّ بن زيد: هل بقي من أهل هذا البيت من

يصلح للملك؟

قال: نعم، إن للمنذر ثلاثة عشر ولداً كلهم يصلح لما يريد الملك!

فبعث فأقدمهم ومعهم النعمان الذي ربّاه أهل بيت عديّ بن زيد.

فأنزلهم عديّ بن زيد كل واحد على جدته، وكان يفضل اخوة النعمان عليه

في النزل ويريم أنه لا يرجوه، ويخلو بهم رجلاً رجلاً ويقول لهم: إن سألكم الملك:

هل تكفوني العرب؟ فقولوا له: لن نكفيكمهم! الا النعمان فقد قال له: إن سألك الملك

عن اخوتك فقل: إن عجزت عنهم فأنا عن العرب اعجز!

(١) اليعقوبي ١: ٢١١ وهو الذي اشتبك مع المنذر بن الحارث التنوخي الغساني في معارك

أهمها معركة عين أباغ سنة (٥٧٠ م) هزم فيها من المنذر الغساني - العصر الجاهلي، لشوقي

ضيف: ٤١.

(٢) مروج الذهب ٢: ٧٥، من (٥٨٠ - ٦٠٢) العصر الجاهلي لشوقي صيف: ٤٦.

فلما امر كسرى عدي بن زيد أن يدخلهم عليه، جعل يدخلهم رجلاً رجلاً، فاذا سألهم: هل تكفوني ما كنتم تكفون؟ قالوا: لن نكفيك العرب! الا النعمان فانه لما دخل عليه قال له: هل تستطيع أن تكفيني العرب؟ قال: نعم! قال: فكيف تصنع باخوتك؟ قال: إن عجزت عنهم فأنا عن غيرهم أعجز!. فملكه وكساه وألبسه اللؤلؤ! فخرج وقد مُلِّك عليهم.

وكان الأسود بن المنذر يحضنه أهل بيت أشراف من الحيرة يقال لهم بنومرينا، وكان منهم رجل شاعر مارد يقال له عدي بن أوس بن مرينا، لما رأى ذلك أمر قوماً من خاصة النعمان وأصحابه أن يذكروا عدي بن زيد عنده ويقولوا: إنه يزعم أن الملك (النعمان بن المنذر) عامله وأنه هو ولّاه ولولاه ماوَّلي، وكلاماً نحو هذا!

فلم يزالوا يتكلمون بذلك بحضرة النعمان حتى أحفظوه وأغضبوه على عدي بن زيد. فكتب النعمان اليه: عزمت عليك الازرتني! فاستأذن كسرى، وقدم عليه، فأمر النعمان بحبسه في حبس لا يصل اليه فيه أحد!.

فجعل عدي يقول الشعر في محبسه ويستعطف النعمان ويذكر له حرمة و يعظه بذكر الملوك المتقدمين، فلم ينفعه ذلك. وجعل أعداؤه من آل مرينا يحملون عليه النعمان ويقولون له: إن أفلت قتلك وكان سبب هلاكك!.

وكان لعدي عند كسرى أخوان يقال لأحدهما، أبي، والآخر: سُمي، وابنه عمرو بن عدي، فكتب اليهم شعراً.. فقام أخوه وابنه ومن معها الى كسرى فكلّماه في أمره.

فكتب كسرى الى النعمان يأمره بتخلية سبيله، ووجّه في ذلك رسولاً... وابتدأ الرسول به... فبلغ النعمان مصير رسول كسرى الى عدي، فلما خرج من

عنده وجّه اليه النعمان من قتله: وضع على وجهه وسادة حتى مات؛ ثم قال للرسول: إنّ عدياً قد مات. وأعطاه وأجازاه وتوثق منه أن لا يخبر كسرى إلا أنه وجده ميتاً! وكتب الى كسرى: أنه قد مات!.

انتقام ابن عدي لأبيه:

وقال: وكان عمرو بن عديّ يعمل لكسرى عمل أبيه في ترجمة الكتب... وطلب كسرى يوماً جارية وصف صفتها فلم توجد له، فقال له عمرو بن عدي: أيها الملك! عند عبدك النعمان بنات له وقربات على أكثر مما يطلب الملك، ولكنه يرغب بنفسه عن الملك ويزعم أنه خير منه!.

فوجّه كسرى الى النعمان يأمره أن يبعث اليه ابنته ليتزوّجها!

فقال النعمان: أما في عين السواد وفارس ما يبلغ الملك حاجته؟!

فلما انصرف الرسول أخبر كسرى بقول النعمان.

فقال كسرى: وما يعني بالعين؟

فقال عمرو بن عدي: أراد البقر! ذهاباً بابنته عن الملك!

فغضب الملك وقال: ربّ عبد قد صار الى اكبر من هذا ثم صار أمره الى

تباب! وأمسك عنه شهراً، ثم كتب اليه بالقدوم عليه.

وبلغت النعمان كلمته فعلم ما أراد، فحمل سلاحه وما قوي عليه ولحق بجبليّ

طيء، وهو مصاهرهم على سعدى بنت حارثة منهم، فسأل طيئاً أن يمنعوه من

كسرى فقالوا: لا قوة لنا به! فانصرف عنهم.

وجعلت العرب تمتنع من قبوله. حتى نزل في بطن ذي قار في بني شيبان، فلقى

هاني بن مسعود الشيباني، فدفع اليه سلاحه وأودعه بنته وحرّمته ومضى الى

كسرى فنزل ببابه، فأمر به فقيد، ثم وجّه به الى «خانقين» وطرح تحت الفيلة

فداسته حتى قتله فقرب للأسود فاكلته!.

ووجه كسرى الى هانىء بن مسعود: أن ابعث إليّ مال عبدي الذي عندك
وسلاحه وبناته^(١)!

قال: وكان النعمان أودعه ابنته وأربعة آلاف درع. فأبى هانىء وقومه أن
يفعلوا، فوجه كسرى بالجيش من العرب والعجم، فالتقوا بذي قار، فأتاهم حنظلة
بن ثعلبة العجلي فقلّده أمرهم قالوا لهانىء: ذمّتك ذمّتنا ولا نخفر ذمّتنا! فحاربوا
الفرس، فهزموهم ومن معهم من العرب، فكان أول يوم انتصرت فيه العرب من
العجم^(٢).

فيروى عن رسول الله أنه قال: هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم،
وبي نصروا^(٣).

(١) اليعقوبي ١: ٢١٢ - ٢١٥. ونقل الطبري ٢: ٢٠٦ عن أبي عبيدة معمر بن المثنى عن بعضهم:
أن هانىء بن مسعود لم يدرك هذا الأمر، وإنما هو هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود. وهو
الثبت عندي. وكذلك ذكره المسعودي في التنبيه والإشراف: ٢٠٧.

(٢) اليعقوبي ١: ٢١٥.

(٣) اليعقوبي ١: ٢١٢ والمسعودي في التنبيه والإشراف: ٢٠٨ قال: قيل: إن ذلك كان قبل
الهجرة، وإن أناساً من بكر بن وائل من البحرين واليمامة جاؤوا الموسم، كانوا يريدون المضى
الى بكر بن وائل مع بني شيبان بالعراق لنجدتهم، فوقف عليهم النبي ﷺ يعرض نفسه
عليهم، ودعاهم الى الايمان بالله.. فوعدوا النبي ﷺ إن نصرهم الله على الأعاجم آمنوا به
وصدّقوا بنبوّته! فدعاهم النبي بالنصر. فلما بلغه ظهورهم على الأعاجم قال: هذا أول يوم
انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نصروا.

وقال في مروج الذهب ١: ٣٠٧: وكان حرب ذي قار في ملك خسرو پرويز، وهو اليوم
الذي قال فيه النبي ﷺ: هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، ونُصرت عليهم
بي. وكانت بعد بعثته لتمام أربعين سنة من مولده، وفي رواية أخرى: بعد وقعة بدر
بأربعة أشهر.

→ وروى القصة بالتفصيل الطبري ٢: ١٩٣ - ٢١٢ عن محمد بن هشام الكلبي عن كتاب حماد الراوية الكوفي، ولكنه روى عن الكلبي قال: اني كنت استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنينهم، من بيع الحيرة. وعزز ذلك الطبري فقال: وكان أمر آل نصر بن ربيعة ومن كان من ولاية ملوك الفرس وعملهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق، متعلماً (معلوماً) عند أهل الحيرة مشبهاً عندهم في أسفارهم وكنائسهم - الطبري ١: ٦٢٨.

وعلى صحة الحديث النبوي لعلّ العلة فيه هو أن بنات النعمان كنّ نصاري مترهبات، وكان خسرو پرويز كافراً مجوسياً زرادشتياً لا تحل له النصرانية. ويدل على ذلك خبران رواهما المسعودي في مروج الذهب قال:

كانت حرقة بنت النعمان بن المنذر اذا خرجت الى بيعتها يُقرش لها طريقها بالحرير والديباج، مغشى بالخزّ والوشى، فتقبل في جواربها حتى تصل الى بيعتها وترجع الى منزلها.

ولما وفد سعد بن أبي وقاص القادسية أميراً عليها قتل رستم وهزم الله الفرس، أتت حرقة بنت النعمان في حفدة من قومها وجواربها وهنّ في زيّها عليهنّ المسوح والمقطعات السود، مترهبات، يطلبن صلته - ٢: ٧٩.

وقال: وكانت هند بنت النعمان بن المنذر مترهبة في دير لها بالحيرة، فركب المغيرة بن شعبة اليها وهو أمير الكوفة يومئذ. وهند قد عميت، فلما جاء المغيرة الى الدير استأذن عليها، فاتتها جاريتها فقالت لها: هذا المغيرة بن شعبة يستأذن عليك؟ فقالت هند لجاريتها: التي اليه أثنائاً، فألقت له وسادة من شعر، ودخل المغيرة فقعد عليها وقال: أنا المغيرة: فقالت له: قد عرفتك عامل المدرة (الكوفة) فما جاء بك؟ قال: أتيتك خاطباً اليك نفسك! فقالت: أما والصليب لو أردتني لدين أو جمال ما رجعت الا بمجاعتك، ولكنني اخبرك الذي أردت له! قال: وما هو؟ قالت: أردت أن تتزوجني حتى تقوم في الموسم في العرب فتقول: تزوجت ابنة النعمان! قال: ذلك أردت! - مروج الذهب ٣: ٢٥.

سائر ملوك الحيرة ومصيرها:

قال المسعودي: «ثم ملك الحيرة جماعة من الفرس، حتى بلغ عدد الملوك بالحيرة ثلاثة وعشرين ملكاً من بني نصر وغيرهم من العرب والفرس، وكان مدة ملكهم ستمائة وأثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر. وبدأ عمران الحيرة من أوائل المئة الثانية من هؤلاء الملوك فكان عمرانها من بدوه إلى أن بنيت الكوفة فتناقص عمرانها: خمسمائة وبضعاً وثلاثين سنة^(١)، ثم لم يزل عمرانها يتناقص إلى أيام المعتضد حيث استولى عليها الخراب. وكان جماعة من خلفاء بني العباس كالسفاح والمنصور والرشيد وغيرهم ينزلونها ويطلقون الملقاب بها، لطيب هوائها وصفاء جوهرها وصحة تربتها وصلابتها، وقرب الخورنق والنجف منها. وقد كان فيها أديرة كثيرة فيها كثير من الرهبان، فلما تداعى الخراب إليها لحقوا بغيرها. قال المسعودي «وهي في هذا الوقت ليس بها إلا الصدي وألبوم»^(٢).

→ وعليه فهن نصارى مترهبات لا يحلن لكافر مجوسي زرادشتي.

وعلى أي حال فالعباديون النصاري وهم أخلاط من العرب وغيرهم، والأحلاف من الأنباط من بقايا سكان العراق من الآراميين والأكديين كانوا يجاورون الاكثرية العرب في الحيرة، وكانت فيهم جالية فارسية تتمن الحرف والمهن، وفيهم بعض اليهود، فكانت الحيرة سوقاً تجارية وزراعية كبرى، ومتأثرة بالثقافة الفارسية العامة في المنطقة - العصر الجاهلي: ٤٧.

(١) وروي في الطبري عن الكلبي: أن الحيرة بنيت مع الأنبار على عهد بختنصر (نبوخذ نصر) فلما هلك بختنصر تحول أهلها إلى الأنبار فخربت الحيرة، إلى أن عمّرت الحيرة مرة أخرى باتخاذ عمرو بن عدي اللخمي إياها منزلاً لنفسه، فعمّرت الحيرة خمسمائة وبضعاً وثلاثين سنة إلى أن وضعت الكوفة ونزلها الإسلام (الطبري ٢: ٤٣)

(٢) مروج الذهب ٢: ٨١.

غساسنة الشام:

وفي القرن الخامس الميلادي هاجرت جماعات من أطراف الجزيرة الى جهة شمالها الغربي بجوار حدود المملكة الرومية فأسسوا دولة الغساسنة التي كانت تحت حماية الأمراء الروميين تبعاً للقسطنطينية، كما كان حكام الحيرة عملاً لملوك الفرس. وتحضرت دولة الغساسنة نوعاً ما، فهي كانت تجاور «دمشق» من ناحية ومدينة «بصرى» التاريخية من ناحية أخرى، فهي كانت تحت تأثير الحضارة الرومية. وبما أن الغساسنة كانوا في خلاف مع مناذرة الحيرة اللخميّين ومن ورائهم الفرس، لذلك كانوا يوالون الرومانيين. وقد بلغ عدد أمرائهم بضعة عشر رجلاً، واليك تفصيل خبرهم:

ملوك الشام من اليمن:

قال المسعودي: «وتفرقت قبائل العرب لما كان بمأرب فسارت غسان الى الشام^(١)، وهم من ولد مازن بن الأزد، وإنما غسان ماء لم يزل عمرو بن عامر حين خرج من مأرب مقيماً على هذا الماء، وهو ما بين زبيد ورمع وادي الأشعرين بأرض اليمن.

وكانت قضاة بن مالك بن حمير بن سبأ أول من نزل الشام من عرب اليمن، واتصلوا بملوك الروم ودخلوا في النصرانية، فملكوهم على من بالشام من العرب. وأول من ملك منهم النعمان بن عمرو بن مالك، ثم ملك بعده عمرو بن النعمان بن عمرو، ثم ملك بعده الحواري بن النعمان.

(١) هذا، وقد سبق أنفأ أن هجرتهم كانت في القرن الخامس الميلادي، أي بعد سيل العرم بكثير من القرون، فالتاريخ الأثري أي المستند على المكتشف من آثارهم لا يدل على أسبق من ذلك.

ثم وردت سليح من قضاة أيضا الشام فغلبت على تنوخ من قضاة وتنصرت فملكها الروم على العرب الذين بالشام، وهم ولد سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة أيضاً.

فلما سارت غسان الى الشام غلبت على من بالشام من العرب فملكها الروم على العرب، فكان أول ملك من ملوك غسان بالشام: الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة، ثم ملك بعده الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر بن حارثة، وملك بعده النعمان بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة، ثم ملك بعده المنذر بن الحارث بن جبلة بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو، ثم ملك بعده عوف بن المنذر، ثم ملك بعده الحارث بن المنذر، وكان هذا على عهد بعثة رسول الله ﷺ ودعاه النبي ﷺ الى الإسلام ورغبه فيه ولم يسلم، وملك بعده جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث، وهو الذي أسلم وارتد عن دينه خوف العار والقود. فجميع من ملك من ملوك غسان بالشام أحد عشر ملكاً، وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان وغيرها من غوطة دمشق واعمالها، ومنهم من نزل الأردن من أرض الشام^(١).

وقال اليعقوبي: «كانت قضاة أول من قدم الشام من العرب، فصارت الى ملوك الروم ودخلوا في النصرانية فلكوهم فكان أولهم: تنوخ ابن مالك بن فهم بن تيم الله بن الأسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة.

ثم ورد بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة الى الشام فغلبوا على تنوخ من بني قضاة، ودخلوا في ذمة الروم وتنصروا وأقاموا على ذلك. فلما تفرقت الأزدي بصيل العرم وصار من صار منهم الى تهامة، ومن صار الى يثرب، ومن صار الى عمان، صارت غسان الى الشام فقدموا أرض البلقاء»^(٢).

(١) مروج الذهب ٢: ٨٣-٨٦.

(٢) اليعقوبي ١: ٢٠٦.

وقال اليعقوبي: «فسأل بنو غسان بني سليح أن يدخلوا معهم فيما دخلوا فيه من طاعة ملك الروم، وأن يقيموا في بلادهم لهم مالهم وعليهم ما عليهم. فكتب رئيس سليح وهو يومئذ «دهمان بن العنلق» الى ملك الروم، وهو يومئذ «نوشر» وكان منزله بانطاكية، فأجابهم الى ذلك بشروط (منها دفع أتاوة يقبضها ملك الروم) فأقاموا بذلك أزمانا حتى وقعت بين رجل من غسان يقال له «جذع» ورجل من أصحاب ملك الروم مشاجرة على الأتاوة حتى ضرب الغساني الرومي بسيفه فقتله.

فحمل عليهم صاحب الروم من قبل ملك الروم بجماعة من العرب من قضاة، فأقاموا مليًا يحاربونه ببصرى من أرض دمشق، ثم صاروا الى «المخفق» فلما رأى ملك الروم صبرهم على الحرب ومقاومتهم جيوشه كره أن تكون ثلثة عليهم، وطلب القوم الصلح على أن لا يكون عليهم ملك من غيرهم، فأجابهم ملك الروم الى ذلك، وكان رئيس غسان يومئذ «جفنة بن علية بن عمرو بن عامر»، فلما كان عليهم، وتنصرت غسان، واستقام الذي بينهم وبين الروم وصارت أمورهم واحدة، فأقاموا بالشام مملكة من قبل صاحب الروم.

وكان أول ملك جلّ قدره وعلا ذكره من غسان بعد جفنة بن علية: الحارث بن مالك بن الحارث بن غضب بن جشم بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن ثعلبة بن حارثة. وملك بعده: الحارث الأكبر ابن كعب بن علية بن عمرو بن عامر. ثم ملك أخوه الحارث الأعرج بن كعب فنزل الجولان. ثم ملك أخوه الحارث الأصغر. ثم ملك جبلة بن المنذر. ثم ملك الحارث بن جبلة. ثم ملك الأيهم بن جبلة. ثم جبلة بن الأيهم»^(١).

والحارث بن جبلة منهم هو الذي وقعت بينه وبين المنذر بن امرئ القيس اللخمي المعركة الهائلة في «قنسرين» فكان من جرائها قتل المنذر ودخول «قنسرين» في حوزة الحارث بن جبلة، فأعجب الروم بشجاعته وهابوا سطوته فبالغوا في ترقيته وتقريبه والخلع عليه، ومنحه الامبراطور جوستينان سنة ٥٢٩ م لقب (البطريك). وغزا الفرس بلادهم سنة ٦١٤ م فاستولوا على اورشليم ودمشق الشام فانحط أمرهم^(١).

وذكر المسعودي من أواخر ملوك غسان: الحارث بن المنذر وقال: وكان هذا على عهد بعثة رسول الله، ودعاه النبي ﷺ الى الإسلام ورغبه فيه فلم يسلم. وملك بعده جبلة بن الأيهم بن جبلة، وهو الذي أسلم وارتد عن الإسلام خوف القود والعار^(٢) وذلك أن رجلاً فزارياً وطأ ازاره، وكان الخليفة الثاني قد أحسن وفادته ورفع من شأنه ووضعه في مرتبة المهاجرين الأولين، فلطم الفزاري على رأسه، فشكاه الفزاري الى الخليفة فلما أحس بأن الخليفة سيقبض منه للفزاري فرّ الى القسطنطينية.

وروى اليعقوبي في حوادث السنة الثالثة عشرة في بداية خلافة الخليفة الثاني: أن جبلة بن الأيهم الغساني كان في ثلاثين ألفاً من قومه مع الروم في وقعة اليرموك، فلما انهزم الروم في اليرموك رجعوا الى مواضعهم، فأرسل إليه يزيد بن أبي سفيان: أن اقطع على أرضك بالخراج والجزية، فأبى وقال: أنا رجل من العرب، وأنا يؤدي الجزية العلوج^(٣)! وأتى جبلة الى الخليفة فقال له: خذ مني الصدقة

(١) سيرة المصطفى: ١٧.

(٢) مروج الذهب ٢: ٨٤، ٨٥.

(٣) اليعقوبي ١: ١٤٢.

-يعني الزكاة - كما تصنع بالعرب ؟ قال : بل الجزية - إذ لم تسلم - والّا فالحق بمن هو على دينك ، يريد الروم . فخرج جبلة في ثلاثين ألفاً من قومه وهم نصارى حتى لحق بأرض الروم . فندم عمر على ما كان منه في أمر جبلة وقومه^(١) .

ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام :

بدأ اليعقوبي في أواخر الجزء الأول من تاريخه فصلاً بهذا العنوان وقال في بدايته «وإنما أخرنا خبر إسماعيل وولده وختمنا بهم أخبار الأمم ، لأن الله عز وجل - ختم بهم النبوة والملك ، واتصل خبرهم بخبر رسول الله ﷺ»^(٢) وكذلك فعلنا نحن : وقد سبق نقل مقال المسعودي إذ قال : الواضح من أنساب اليمن وما تدين به كهلان وحمير ابنا قحطان إلى هذا الوقت قولاً وعملاً ، وينقله الباقي عن الماضي والصغير عن الكبير ، والذي وجدت عليه التواريخ القديمة للعرب وغيرها من الامم ، وعليه وجدت الأكثر من شيوخ ولد قحطان من حمير وكهلان بأرض اليمن والتهائم والأنجاد ، وبلاد حضرموت والشحر والأحقاف ، وبلاد عمان وغيرها من الأمصار : أن الصحيح في نسب قحطان : أنه قحطان بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وقد كان لعابر ثلاثة أولاد : فالغ وقحطان وملكبان وولد لقحطان أحد وثلاثون ذكراً منهم يعرب بن قحطان ، وكان قحطان سريانيّ اللسان ، وقد ثبت أن قحطان هو يقطن بالسريانية وإنما عرّب ف قيل : قحطان وزعم الهيثم بن عدي : أن جرهم بن عابر بن سبأ بن يقطن ، هو قحطان^(٣) .

(١) اليعقوبي ١ : ١٤٧ .

(٢) اليعقوبي ١ : ٢٢١ .

(٣) مروج الذهب ٢ : ٤٥ وتؤكد هنا ما قدّمناه في عنوان : مبدأ العرب : ١٤٠ .

وتكلم يعرب وجُرهم وعاد وثمود وعملاق ووبار وعييل وجديس وعبد ضخم بالعربية فسار يعرب بن قحطان من بابل حتى حلّ باليمن^(١). وسار عبد ضخم بن إرم بن نوح بولده ومن تبعه فنزلوا «الطائف» وسار جُرهم بن قحطان بولده ومن تبعه وطافوا البلاد حتى أتوا «مكة» فنزلوها^(٢).

وقال عند ذكره أخبار مكة وبناء البيت ومن تداوله من جُرهم وغيرها: إن جرهم بادروا نحو مكة وعليهم الحارث بن مُضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن ظالم بن هيني بن نبت بن جُرهم، حتى أتوا الوادي ونزلوا مكة واستوطنوها مع إسماعيل.

وقال قبل هذا: إن بني كُرْكُر وعليهم السُميدع بن هوبر بن لاوي بن قيطور بن كُرْكُر بن حيدان، عدمت الماء والمرعى واشتد بها الجهد، فيممت نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى والدار الخصبة، فأشرف رؤّادهم وهم المتقدمون منهم لطلب الماء على الوادي فنظروا الطير ترتفع وتنخفض، فهبطوا الوادي ونظروا إلى العريش على الربوة الحمراء الذي اتخذته هاجر ليكون مسكناً لها وفيه هاجر وإسماعيل، وقد زمت حول الماء بالأحجار ومنعته من الجريان فسلم الرواد عليها واستأذنوها في نزولهم وشربهم من الماء، فأنست إليهم وأذنت لهم في النزول. فتلقوا من وراءهم من أهلهم وأخبروهم خبر الماء، فنزلوا الوادي مطمئنين مستبشرين بالماء، وبما أضاء الوادي من نور النبوة وموضع البيت الحرام فرحين، وتكلم إسماعيل بالعربية خلاف لغة أبيه.

فقل في بني كُرْكُر هؤلاء: إنهم من جُرهم، وقيل إنهم من العماليق، وإن جرهم تسامعت ببني كُرْكُر ونزولهم الوادي ومافيه من الخصب وإدراار الضرع

(١) مروج الذهب ٢: ١١٠.

(٢) مروج الذهب ٢: ١٢١ و ١٢٢.

فبادروا نحو مكة^(١) واستوطنوها مع إسماعيل، وتزوج إسماعيل: سامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف بن هيني بن نبت بن جرهم.

وعاش إسماعيل مائة وسبعاً وثلاثين سنة، وولد له اثنا عشر ولداً ذكراً وهم: نابت، وقيدار، وأدييل، وميشام، ومشعم، ودوما، ودوام، ومشأ، وحداد، وثيا، ويطور، وناقش، وكل هؤلاء قد انسل.

وقبض إسماعيل وله مائة وسبع وثلاثون سنة، فدفن في المسجد الحرام حيال الموضع الذي فيه الحجر الأسود^(٢).

وقال اليعقوبي: إن ولد جرهم بن عامر لما صار إخوتهم من بني قحطان بن عامر^(٣) إلى اليمن فلّكوا، صاروا هم إلى أرض تهامة فجاوروا إسماعيل بن إبراهيم. فتزوج إسماعيل: الحنفاء بنت الحارث بن مضاض الجرهمي، فولدت له اثني عشر ذكراً ثم ذكر أسماءهم فقال «وهذه الأسماء تختلف في الهجاء واللغة لأنها مترجمة من العبرانية» ثم قال: فلما كملت لإسماعيل مائة وثلاثون سنة توفي فدفن في الحجر.

فلما توفي إسماعيل ولي البيت بعده نابت بن إسماعيل. ثم افترق ولد إسماعيل فمنهم من افترق في البلاد يطلبون السعة وهم الكبار منهم، وكان من بقي منهم في

(١) لا يخفى أن هذا خلاف مامر من خبر القمي في تفسيره عن الصادق عليه السلام، وأن جرهم كانت نازلة بعرفات، وأنها أول من ألتقى بهاجر وسكن معها حول زمزم.

(٢) كذا في مروج الذهب ٢: ١٩ - ٢١ وسيأتي الصحيح عن اليعقوبي أنه دفن في الحجر، ولذلك سمي حجر إسماعيل، لاحتال الحجر الأسود. ولعل الأسود زيادة تحريف من النساخ.

(٣) كذا، وقد مر تأكيد المسعودي في نسب قحطان: أنه قحطان بن عابر، وأن جرهم هو ابن قحطان. وفي موضع آخر أن جرهم هو الجد الثامن للحارث بن مضاض الجرهمي الذي نزل ببني جرهم بمكة. وهو الصحيح الذي يدل عليه مامر من خبر علي بن إبراهيم القمي عن الصادق عليه السلام، في تفسيره: ١: ٦١.

الحرم من ولد إسماعيل صغاراً فولى البيت المضاض بن عمرو الجرهمي جدّ ولد إسماعيل. ولم يكن أحد يقوم بأمر الكعبة في أيام جرهم غير ولد إسماعيل وكانت جرهم في أيامها تطيعهم، تعظيماً منهم لهم ومعرفة بقدرهم، غير أنّ ولد إسماعيل كانوا يسلمون ملك مكة لجرهم للخوولة.

فقام بأمر الكعبة بعد نابت أمين ثمّ يشجب بن أمين ثمّ الهميسع ثمّ أدد ثمّ عدنان بن أدد ثمّ معدّ بن عدنان، ثمّ نزار بن معد، ثمّ إياد^(١) ثم خرجت ولاية البيت من أيديهم إلى خزاعة^(٢)، وسنذكر خبره فيما يأتي. هذا ما قاله اليعقوبي بشأن الجمع بين ولاية البيت وملك مكة.

وقال المسعودي: لما قبض إسماعيل قام بالبيت بعده نابت بن إسماعيل، ثم غلبت جرهم على ولد إسماعيل من بعد نابت فقام بأمر البيت بعده أناس من جرهم: أولهم الحارث بن مضاض. وكان ينزل هناك في الموضع المعروف بقعيقعان في أعلى مكة وكان كلّ من دخل مكة بتجارة عشرين عليها.

وكان السמידع بن هوبر بن لاوي بن قبطور بن كركر بن حيدان ينزل ببني كركر في أجباد من أسفل مكة، فأخذ يعشّر من دخل مكة من ناحيته، فنازع الحارث بن مضاض سلطانه.

فخرج الحارث بن مضاض ملك جرهم تتقعق معه الرماح والدّرق، فسّمى الموضع بقعيقعان لما ذكرنا، وخرج السמידع ملك العمالق ومعه الجياد من الخيل، فعرف الموضع بأجباد إلى هذا الوقت. فكانت للعمالق وهم على جياد الخيل على جرهم، فسّمى الموضع فاضحاً إلى هذا الوقت لفضيحة جرهم.

(١) اليعقوبي ١: ٢٢١-٢٢٦.

(٢) اليعقوبي ١: ٢٣٨، ومروج الذهب ٢: ٢٩.

وصارت ولاية البيت وملك مكة الى العماليق. ثم اصطلحوا ونحروا الجزر وطبخوا فسمي الموضع بـ (المطابخ) الى الآن^(١).

ثم كانت بينهم وقعة أخرى كانت لجرهم على العماليق، وأقاموا ولاية البيت نحو ثلاثمائة سنة، آخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر بن عمرو ابن الحارث بن مضاض الأكبر، وزادوا في بناء البيت ورفعوه على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام^(٢).

وقال اليعقوبي: إن السמידع كان ملك العمالة نازع المضاض سلطانه فلما ظهر عليه المضاض مضى السמידع والعمالة الى الشام فكان هناك ملك العمالة بالشام واستقام الأمر لمضاض حتى توفي. ثم ملك بعده الحارث بن مضاض، ثم ملك عمرو بن الحارث بن مضاض، ثم ملك المعتسم بن الظليم، ثم ملك الحواس بن جحش بن مضاض، ثم ملك عداد بن صداد ابن الجندل بن مضاض، ثم ملك فينحاص بن عداد بن صداد، ثم ملك الحارث بن مضاض بن عمرو. وكان هذا آخر من ملك من جرهم. وطغت جرهم وبغت وفسقت في الحرم، فسلب الله عليهم الذر فأهلكوا به عن آخرهم وذلك في عصر أدد بن الهميسع بن أمين من ذرية إسماعيل، وكان ينكر على جرهم أفعالهم فلما هلكت عظم شأنه في قومه وجل قدره^(٣).

وقال المسعودي: وبغت جرهم في الحرم وطغت، حتى فسق رجل منهم في الحرم يسمى اساف، بامرأة تدعى نائلة، فسخها الله عز وجل حجرين صيرا بعد

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١١٧.

(٢) مروج الذهب ٢: ٢٢ - ٢٣.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٢٢.

ذلك وثنين وعبدا تقرباً بهما إلى الله تعالى. فبعث الله على جرهم الرعاف والنمل وغير ذلك من الآفات، فهلك كثير منهم. وكثر ولد إسماعيل وصاروا ذوي قوة ومنعة فغلبوا على أخوالهم جرهم وأخرجوهم من مكة فلاحقوا بجهينة في موضع يقال له: أضم، فأتاهم في بعض الليالي السيل فذهب بهم. وصارت ولاية البيت في ولد ابياد بن نزار ابن معد ثم إلى خزاعة. ثم إلى قصي^(١).

وقد روى الكليني في (فروع الكافي) عن الصادق عليه السلام قال: إن جرهم غلبت بمكة على ولاية البيت، فكان يلي ذلك منهم كابر عن كابر، حتى بغوا واستحلوا حرمتها وأكلوا مال الكعبة وظلموا من دخلها، فلما بغوا وعتوا واستحلوا فيها بعث الله عز وجل عليهم الرعاف والنمل وأفناهم^(٢).

نقل المجلسي ذلك في (البحار) ثم نقل عن الفيروز آبادي أن النملة هي قروح في الجنب كالنمل وبثور تخرج في الجسد بالتهاب واحتراق ثم يرم مكانها يسيراً ثم يدب إلى موضع آخر كالنمل^(٣).

وننتقل هنا إلى ذكر خبر المدينة يثرب، وإتيان تبان أسعد أبي كرب اليماني إليها وتهوده بها ومروره في رجوعه بمكة، ثم خبر أصحاب الأخدود باليمن،

(١) مروج الذهب ٢: ٢٣ - ٣١. وروى ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق: أن جرهما بغوا بمكة واستحلوا حلالاً من الحرم، فظلموا من دخلها من غير أهلها، وأكلوا ما كان يهدى إلى الكعبة من مال، فلما رأى بنو كنانة وبنو خزاعة ذلك أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة، فأذنوا بالحرب فأقتتلوا، فغلبت كنانة وخزاعة على جرهم فنفوههم من مكة فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي بغزالي الكعبة وبجحر الركن فدفنها في زمزم (سيرة ابن هشام ١: ١١٩). ودفن زمزم (سيرة ابن هشام ١: ١١٨). وأنطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة حزناً شديداً (سيرة ابن هشام ١: ١٢٠).

(٢) فروع الكافي ٤: ٢١١.

(٣) وتجدّه كذلك في سائر كتب اللغة ومنها: المنجد.

ثمّ دخول الأحباش النصارى إلى اليمن وأصحاب الفيل منهم، ثمّ دخول الفرس المجوس إليها. ثمّ نرجع إلى بقية أخبار مكّة والبيت الحرام وولاته ولاسيما انتقال الأمر إلى خزاعة، وإنّا قدّمنا هنا ما تقدم منها على خبر تبّان أسعد وأصحاب الفيل.

يثرّب بين اليهود والأوس والخزرج:

نقلنا فيما مرّ رواية المسعودي في سبب انتشار العرب من اليمن بعد سيل العرم، ونزول الأوس والخزرج يثرّب «المدينة» وهنا ننقل خبر اليعقوبي في ذلك لما فيه من التفصيل الخاص بهذا الصدد: قال اليعقوبي: إنّ تفرق أهل اليمن في البلاد وخروجهم عن ديارهم كان بسبب سيل العرم، وكان رئيس القوم عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وكان كاهناً، فتكهّن أنّ بلاد اليمن تغرق، فأظهر غضبه على بعض ولده وباع مرباعه وخرج هو وأهل بيته، فصاروا إلى بلاد «عك» ثم ارتحلوا إلى «نجران» فحاربهم مذحج، ثم ارتحلوا عن نجران فرّوا «بمكّة» وبها يومئذ «جرهم» فحاربوهم حتّى أخرجوهم عن البلد، فصاروا إلى «الجحفة» ثم ارتحلوا إلى «يثرّب» فتخلّف بها الأوس والخزرج إنا حارثة ابن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ولحقّ بهما جماعة من الأزد من غير إني حارثة فصاروا حلفاء لهم.

وكانت يثرّب منازل اليهود، وكانوا أكثر من الأزد والأوس والخزرج فغلبوهم وقهروهم، حتّى كان الرجل من اليهود ليأتي منزل الأوسي أو الخزرجي أو الأزدي فلا يمكنه دفعه عن ماله وأهله^(١)، وكان رجل يقال له «الفتيون» قد تملّك على اليهود فتملّك على الأزد والأوس والخزرج فسامهم سوء العذاب.

(١) اليعقوبي ١: ٢٠٣، ونؤكّد أيضاً ما قدّمناه في عنوان: مبدأ العرب: ١٤٠.

فخرج مالك بن العجلان الخزرجي الى تبّع أبي كرب تبّان أسعد بن ملكي كرب^(١) فأعلمه بغلبة قريظة والنضير عليهم^(٢) فسار أبو كرب اليمني اليهم بجيشه حتى قتل من اليهود مقتلة عظيمة^(٣) وخلف فيهم ابناً له بين أظهرهم فقتله اليهود، فزحف إليهم وحاربهم^(٤).

وروى الطبري وابن هشام عن ابن إسحاق: أن تبّان أسعد قد أقبل من قبل المشرق على المدينة وخلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة. فقدمها مرة أخرى لاستئصال أهلها وهدمها.

وكان في المدينة من أحرار اليهود حبران عالمان راسخان في العلم من بني قريظة أحدهما كعب والآخر أسد، فلما سمعا بما يريد تبّان أسعد من هلاك أهل المدينة وهدمها جاءا اليه فقالا له: أيها الملك! لا تفعل ذلك، فانك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة! فقال لهما: ولم ذلك؟ فقالا: هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قریش في آخر الزمان تكون داره وقراره! فتناهى عند ذلك عما كان يريد بالمدينة.

وكان تبّع تبّان أسعد وقومه أصحاب أوثان يعبدونها، فلما سمع منها ذلك أعجبه فاتّبع دينها اليهودية وانصرف عن المدينة واصطحبها معه^(٥).

وروى ابن شهر آشوب في (المناقب) عن ابن إسحاق: أن تبّع الأول لما سار في الآفاق فوصل الى مكة فلم يعظمه أهلها، غضب عليهم، فقال له وزيره

(١) تبّان أسعد اسم مركب كمعد يكرّب، وتبّان من التبانة بمعنى الفطنة.

(٢) اليعقوبي ١: ١٩٧.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٠٤.

(٤) اليعقوبي ١: ١٩٧.

(٥) تهذيب سيرة ابن هشام ١: ٢٠ والطبري ٢: ١٠٥.

عمياريسا: إنهم جاهلون ومعجبون بهذا البيت! فعزم الملك على أن يخرب البيت، فأخذه الله بالصداع وبدأ ينزل من أذنيه وعينيه وأنفه وفمه ماء نتن، وعجز أطباؤه عنه، فلما أمسى جاء عالم من العلماء الذين كانوا معه إلى وزيره واستأذن منه على الملك، فاستأذن له الوزير، فلما خلا بالملك قال له: هل أنت نويت في هذا البيت أمراً؟ قال: أجل، فقال العالم: تب من ذلك ولك خير الدنيا والآخرة! فقال: قد تبت مما كنت نويت. فعوفي في الساعة! فأمن بالله وبإبراهيم الخليل، وخلع على الكعبة سبعة أثواب. وهو أول من كسا الكعبة.

ثم خرج إلى يثرب - وهي أرض فيها عين ماء - فاعتزل أربعمئة عالم من الذين كانوا معه وجاءوا إلى باب الملك وقالوا: إنا خرجنا من بلداننا وطفنا معك زماناً حتى جئنا إلى هذا المكان، والآن نحن نريد المقام هنا إلى آخر أعمارنا! فسألهم الوزير عن حكمة ذلك؟ قالوا: أيها الوزير! إن شرف البيت بمكة بشرف محمد صاحب القبلة إليها وصاحب القرآن والمنبر واللواء، مولده بمكة وهجرته إلى هنا، وإنا على رجاء أن ندركه أو يدركه أولادنا! فلما سمع الملك ذلك أذن لهم وبني لهم دوراً^(١).

وهذا الخبر وإن لم يصرح بكون العلماء الذين كانوا مع تبّع اليمني الأول يهوداً فالظاهر منه أنهم كانوا يهوداً وأن نبأهم بمولد رسول الله ومهاجره كان من بشائر شريعة موسى عليه السلام وأيضاً لم ينص الخبر على يهودية تبّع بل فيه أنه لما تاب مما كان قد نواه من هدم البيت وعوفي آمن بالله وبإبراهيم الخليل، لكن يظهر من اصطحابه لعلماء اليهود مكرماً لهم سامعاً منهم أن المقصود بإيمانه بالله أنه كان قبل ذلك فاسقاً غير مؤمن في العمل بدينه. وعلى هذا فهذا الخبر أكثر انسجاماً مع

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٥ ط قم المقدسة.

ما أخبر به القرآن الكريم من سبق اليهودية الى اليمن على عهد بلقيس وسليمان وهم قبل تبّع بسبعة قرون تقريباً، بينما الخبر المعروف في أكثر التواريخ بأن تبّع الأول كان أول من آمن باليهودية بدعوة علماء اليهود في مدينة يثرب وأنه أول من دعا أهل اليمن الى ذلك، لا يوافق كتاب الله كما يأتي.

بل روى الصدوق عن ابن عباس أنه كان يقول: لا يشتبهنّ عليكم أمر تبّع فإنه كان مسلماً، وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: إن تبّع قال للأوس والخزرج: كونوا ها هنا حتّى يخرج هذا النبي، فأما أنا فلو أدركته لخدمته وخرجت معه^(١). وروى الطبرسي عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم^(٢).

فقرب نفر الذين أشاروا عليه من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم، ثم مضى حتّى قدم مكة، فطاف بالبيت وحلق رأسه، وأقام بمكة ستة أيام ينحربها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم.

وأمر ولاية البيت من جرهم بتطهيره، وأن لا يقربوه دماً ولا ميتة، وجعل له باباً ومفتاحاً، وكساه ثياباً يمينية. ثم خرج متوجهاً الى اليمن بمن معه من جنوده والحبرين.

فلما وصل الى اليمن دعا قومه الى الدخول في اليهودية. وكانت باليمن نار يتحاكمون إليها فيما يختلفون فيه، فتأكل الظالم ولا تضرّ المظلوم. فأبوا عليه اليهودية حتّى يحاكموه الى النار. فخرج رجال من قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم حتّى قعدوا للنار عند مخرجها التي تخرج منه، وخرج الحبران متقلّدين مصاحفهما في أعناقهما حتّى قعدوا عند مخرج النار، فخرجت النار إليهم فأكلت الأوثان وما قربوا

(١) إكمال الدين: ١٦٨ ط النجف.

(٢) مجمع البيان ٩: ٦٦، وبه قال البيضاوي في أنوار التنزيل ٢: ٤١٩.

معه ومن حملها من رجال حمير، ولما أقبلت نحو الحبرين هابوها وحادوا عنها، فذمرهم من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها، فصبروا حتى غشيتهم، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباههما ولم تضرهما. فأجمعت عند ذلك حمير على اليهودية.

فكذلك كان أصل اليهودية باليمن^(١).

ولا يظهر من خبر تبّع تبّان أسعد بن كليكرب هذا وتهود اليمن معه أكان قبل نسخ اليهودية بشريعة عيسى عليه السلام أو بعد ذلك، إلا أنه كان بعد بلقيس وسليمان بن داود - وهو من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى - كان بعدهم بسبعة قرون تقريباً كما في التواريخ، وبعد تبّع تبّان أسعد هذا بمدة غير قصيرة استولى على اليمن الثالث من أولاده بعد حسان وعمرو: زرعة ابن تبّان أسعد، يكنى ذا نؤاس، وشاع أتباع دين المسيح عليه السلام على عهده في مدينة نجران، فجعل يطلبهم ويحرّقهم بالآخدود. وروى ابن هشام عن ابن إسحاق^(٢) والطبري عنه وعن الكلبي^(٣): أن زرعة ذا نؤاس تهود فتسمّى يوسف والتبس هذا على المسعودي فذكره: يوسف ذو نؤاس بن زرعة^(٤).

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ٢٠، ٢١. والطبري ٢: ١٠٥ - ١٠٨ كذا، وتبّع هذا هو الملك العشرون من ملوك اليمن المعروفين المعدودين في كتب التاريخ، والعاشر هي بلقيس ثم سليمان بن داود ثم أبوه أرحبهم بن سليمان. وسليمان من أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى، والبعد الزمني بين بلقيس وسليمان وتبّع هذا حسب كتب التاريخ سبعة قرون تقريباً، ومعنى هذا أن اليمن كانت مسبوقة باليهودية كما حكى القرآن الكريم ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (النمل: ٢٤) لا الأوثان والعجب أن لم أجد من المؤرخين من تنبّه لذلك أو تعرض له.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١: ٣١، ٣٢.

(٣) الطبري ٢: ١١٩.

(٤) مروج الذهب ٢: ٥٢.

أصحاب الاخدود:

روى القمي في تفسيره بسنده عن عطاء عن ابن عباس: أن ذا نوّاس - وهو آخر من ملك اليمن من حمير - تهوّد، واجتمعت معه حمير على اليهودية، وسمّى نفسه يوسف، وأقام على ذلك حيناً من الدهر. ثمّ أخبر أن بنجران بقايا قوم على دين النصرانية، وكانوا على دين عيسى عليه السلام وعلى حكم الانجيل ورأس ذلك الدين: عبد الله بن برياً^(١) فحملة أهل دينه على أن يسير اليهم ويحملهم على اليهودية

(١) تفسير القمي: ٢: ٤١٤. وروى العياشي في تفسيره بإسناده عن جابر عن الامام الباقر عليه السلام أنّه قال: أرسل علي عليه السلام الى أسقف نجران يسأله عن أصحاب الاخدود، فأخبره بشيء: فقال عليه السلام: ليس كما ذكرت، ولكن ساخبرك عنهم: إنّ الله بعث رجلاً حبشياً نبياً - وهم حبشية - فكذبوه فقاتلهم فقتلوا أصحابه وأسروهم وأسروه ثمّ بنوا له حيراً ثم ملؤوه ناراً، ثمّ جمعوا الناس فقالوا: من كان على ديننا وأمره فليعتزل، ومن كان على دين هؤلاء فليرم نفسه في النار! فجعل أصحابه يتهافتون في النار! فجاءت امرأة معها صبي لها ابن شهر، فلما هجمت هابت ورقت على ابنها، فنادى الصبي لاتهابي وأرميني ونفسك في النار، فإنّ هذا - والله - في الله قليل! فرمت بنفسها في النار وصبيها.

رواه العلامة الطباطبائي في تفسيره ثم قال: ورواه السيوطي في الدر المنثور عن علي عليه السلام بطريقين وعن الحسن عليه السلام أيضاً (الميزان ٢٠: ٢٥٧).

وروى ذيل الخبر عن المرأة وطفلها المسعودي في (مروج الذهب ٢: ٧٨).

وروى الطبرسي في (مجمع البيان) عن سعيد بن جبیر: أنّ أهل اسفندهان كانوا مجوساً فلما انهزموا قال عمر: ما هم يهود ولا نصارى فليسوا من أهل الكتاب. فقال علي عليه السلام: بلى قد كان لهم كتاب رفع، وذلك أنّ ملكاً لهم سكر فوقع على أبنته أو قال: على اخته فلما أفاق قال لها: كيف المخرج ممّا وقعت فيه؟ قالت: تجمع أهل مملكتك وتخبرهم أنّك ترى نكاح البنات وتأمرهم أن يحلّوه! فجمعهم فأخبرهم! فأبوا أن يتابعوه، فخذّ لهم أخدوداً في الأرض، وأوقد فيه النيران وعرضهم عليها فن أبى قبول ذلك قذفه في النار، ومن أجاب خلّى سبيله. رواه الطباطبائي... في (الميزان ٢٠: ٢٥٦) ثمّ قال ورواه السيوطي في (الدر المنثور). ←

ويدخلهم فيها، فسار حتى قدم نجران، فجمع من كان بها على دين النصرانية ثم عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها، فأبوا عليه، فجادلهم وحرص الحرص كله فأبوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها واختاروا القتل فخذلهم اخذوداً جعل فيه الحطب وأشعل فيه النار، فمنهم من أحرق بالنار ومنهم من قتل بالسيف، ومثل بهم كل مثله. فبلغ عدد من قتل وأحرق بالنار عشرين ألفاً.

وأفلت منهم رجل يدعى دوس ذو ثعلبان على فرس له^(١). - أو جبار، أو حيار، أو حيّان، ابن فيض، أو قيض^(٢) - حتى قدم على صاحب الروم فأخبره بما بلغ ذو نواس منهم، واستنصره عليه. فقال له قيصر: بعدت بلادك من بلادنا ونأت

→ وقيل: إن الذين خدّوا الاخدود ثلاثة: تبع صاحب اليمن، وقسطنطين بن هلائي حين صرف النصارى عن التوحيد الى عبادة الصليب، ونبوخذنصر ملك بابل حين ادعى الربوبية وأمر الناس أن يسجدوا له فامتنع دانيال وأصحابه، فألقاهم في النار! نقله محققو سيرة ابن هشام ١: ٣٢.

وأحتمل التعدد العلامة الطباطبائي في تفسيره (الميزان ٢: ٢٥٧).

وقال السيد هاشم الحسني في كتابه (سيرة المصطفى: ٢٢) «ذلك - ويقصد به خبر اخذود اليمني - جاء في بعض التفاسير ولكن لا تؤكد التفاسير الموثوقة، وليس بعيداً أن يكون من الاسرائيليات التي أدخلها كعب الأخبار وأمثاله».

من هنا يظهر أن السيد الحسني ساعه الله لم يحسن النظر في روايات أخبار القصة، والآن فليس في طريق أي رواية من أخبارها كعب الأخبار وأمثاله، نعم إحدى روايات ابن إسحاق تنتهي الى وهب بن منبه اليماني، وهو مثل كعب الأخبار، ولكن هذا الخبر لا يتناسب أن يعدّ من الاسرائيليات، فانه ليس لصالح بني إسرائيل واليهود بل لصالح النصارى على اليهود، فكيف يكون من الاسرائيليات؟!

(١) تفسير القمي ٢: ٤١٤.

(٢) الطبري ٢: ١٣٧.

عنا، فلا تقدر على أن تتناولها بالجنود، ولكنني سأكتب لك إلى ملك الحبشة -فأنه على هذا الدين وهو أقرب إلى بلادكما منا- فينصررك. وكتب معه قيصر إلى ملك الحبشة يأمره بنصرهم على من بغى عليهم. هذا على رواية ابن إسحاق^(١).

وعلى رواية هشام الكلبي: قدم على ملك الحبشة رأساً، ومعه إنجيل قد أحرقت النار بعضه، فأعلمه ما ركبته ذو نواس منهم. فقال له: الرجال عندي كثير وليست عندي سفن، وأنا كاتب إلى قيصر أن يبعث إليّ بسفن أحمل فيها الرجال. فكتب إلى قيصر بذلك وبعث إليه بالإنجيل المحرق. فبعث إليه قيصر بسفن كثيرة^(٢). فوجه النجاشي إلى اليمن أربعة آلاف رجل عليهم أرباط بن أصحمة^(٣) فعبرت الحبشة إلى اليمن من بلاد ناصع والزَّيلع -وهو ساحل الحبشة- إلى بلاد غلافقة من ساحل زبيد من أرض اليمن^(٤) وعرض البحر بين الساحلين: مسيرة ثلاثة أيام، وهو أقل المواضع في البحر عرضاً، وبين الساحلين جزيرة إلى جانب الحبشة تسمى سقطرة، وأخرى إلى جانب اليمن تسمى العقل^(٥).

فسار إليهم ذو نواس، فلما التقوا افترق قومه وانهزموا بعد حروب طويلة، فلما رأى ذو نواس ضرب فرسه فاقتحم به البحر فأغرق نفسه خوفاً من العار^(٦).

(١) الطبري ٢ : ١٢٤.

(٢) الطبري ٢ : ١٢٤.

(٣) الطبري ٢ : ١٣٢ بخمسة أسانيد عن ابن عباس وعطاء بن يسار وغيرهما. وذكر العدد عن الكلبي وابن إسحاق سبعين ألفاً والأول أوفق بوسائل النقل القديمة قطعاً، والثاني أبعد جداً. أما الاسم : أرباط بن أصحمة، فهو كما في تهذيب سيرة ابن هشام ١ : ٢٤ ومروج الذهب ٢ : ٥٢، وفي اليعقوبي ١ : ٢٠٠ : أرباط فقط.

(٤) مروج الذهب ٢ : ٥٢.

(٥) مروج الذهب ١ : ٤٣٩.

(٦) تهذيب سيرة ابن هشام ١ : ٢٤ واليعقوبي ١ : ١٩٩ ومروج الذهب ٢ : ٥٢.

وهو الذي أخبر الله تعالى عنه في كتابه فقال: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ *
النَّارِ ذَاتِ الْوُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا
نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾^(١).

أرباط أو أبرهة:

روى ابن هشام^(٢) والطبري^(٣) عن ابن إسحاق، وعن غيره بخمسة طرق^(٤)
واليعقوبي^(٥) والمسعودي^(٦): أَنَّ الذي بعثه النجاشي على الأحباش الى اليمن هو
أرباط بن أصحمة. وَأَنَّهُ أقام باليمن في سلطانه سنين، ثُمَّ نازعه في أمر الحبشة باليمن
أبرهة الحبشي، وكان في جنده، حتَّى تفرقت الحبشة عليهما، فانحاز إلى كل واحدٍ
منهما طائفة منهم، واستعدوا للحرب بينهم^(٧).

وروى الطبري بالطرق الخمسة: انَّ أرباط لما غلب على اليمن أعطى الملوك
-ويعني بهم شيوخ العشائر والقبائل اليمنية- واستذل الفقراء. فقام رجل من الحبشة

(١) البروج ٤: ٩. وورد خبره في سيرة ابن هشام عن ابن اسحاق ١: ٣٧. وفي الطبري عنه
أيضاً ٢: ١٢٣، وعن هشام الكلبي ٢: ١٩. واليعقوبي ١: ٢٠٠. والمسعودي ٢: ٥١. وكان
هذا بدء نفوذ الأحباش النصارى في اليمن وتهمته وماجاورها سنة ٥٢٥ م.

(٢) سيرة ابن هشام ١: ٤١.

(٣) الطبري ٢: ١٢٥.

(٤) الطبري ٢: ١٣٧.

(٥) اليعقوبي ١: ١٧٣.

(٦) مروج الذهب ٢: ٧٨.

(٧) الطبري ٢: ١٢٨.

يقال له: أبرهة أبو يكسوم، فدعا الى طاعته فأجابوه، فقاتل أرياط^(١).

وروى عن هشام الكلبي: أن النجاشي لما بلغه ما كان من ذي نواس جهّز إليه سبعين ألفاً عليهم قائدان: أحدهما أبرهة - ولم يذكر الآخر - فلما صاروا الى صنعاء ورأى ذو نواس أن لا طاقة له بهم ركب فرسه واقتحم البحر فكان آخر العهد به ذلك. وأقام أبرهة ملكاً على اليمن، ولكنّه لم يبعث الى النجاشي بشيء فقليل للنجاشي: إنّه قد خلع طاعتك ورأى أنّه استغنى بنفسه عنك. فوجه إليه جيشاً عليه رجل من أصحابه يقال له: أرياط فلما حلّ بساحته بعث إليه أبرهة: أنه يجمعني وإياك البلاد والدين، والواجب عليّ وعليك أن ننظر لأهل بلادنا وديننا ممّن معي ومعك، فإن شئت فبارزني، فأيتنا ظفر بصاحبه كان الملك له، ولم تقتل الحبشة فيما بيننا؟! فرضي أرياط بذلك، فاتّعدوا موضعاً يلتقيان فيه.

وعزم أبرهة على المكر بأرياط فأمكن له عبداً له يقال له: ارنجدة، في وهدة قريبة من الموضع الذي التقيا فيه، فلما التقيا سبق أرياط فطعنه بحربة يريده رأسه، وزالت الحربة عن رأس أبرهة ولكنها شرمت أنفه، فلُقب بالأشرم من ذلك. ونهض ارنجدة من الحفرة فزرق بحربة المزراق رأس أرياط فأنفذها فيه فقتله بها. وكتب الى النجاشي بما رضي به عنه وأقرّه على عمله^(٢).

أصحاب الفيل:

روى الطبري بالطرق الخمسة عن عطاء بن يسار عن ابن عباس: أن أبرهة الأشرم أبا يكسوم لما غلب على اليمن رأى الناس أيام الموسم يتجهزون للحج الى البيت الحرام، فسأل: أين يذهب هؤلاء الناس؟ قالوا: يحجّون الى بيت الله بمكة،

(١) الطبري ٢: ١٣٧.

(٢) الطبري ٢: ١٢٨ وعن ابن إسحاق ٢: ١٢٩.

قال: مِمَّ هو؟ قالوا: من حجارة، قال: فما كِسوته؟ قالوا: ما يُذهب به إليه من ها هنا من الوصائل، فقال: قسماً بالمسيح لأُبين لكم خيراً منه!

فبنى لهم كنيسة عملها بالرخام الأسود والأصفر والأبيض والأحمر، وحلّاها بالذهب والفضة، وحفّها بالجواهر، وجعل لها أبواباً عليها صفائح الذهب، وجعل لها حجاباً، كانوا يلطّخون جدرها بالمسك ويوقدون فيها بالمندل (او الصندل، وهو عود هندي طيّب الرائحة لاسيّما عند الاحتراق) وأمر الناس أن يحجّوا إليها فحجّ إليها كثير من قبائل العرب سنين، ومكث فيه رجال يتعبّدون ويتألّهون ويتنسّكون له^(١) وروي عن ابن إسحاق: أنّه سمّاها «القلّيس»^(٢) أي البناء المرتفع كالقبلة^(٣).

وروى الشيخ الطبرسي في (مجمع البيان) عن محمد بن إسحاق قال: إنّ أبرهة أبا يكسوم بنى بيتاً باليمن وجعل لها قباباً من ذهب وأمر أهل مملكته بالحج إليها يضاهي بها البيت الحرام.

فخرج رجل من بني كنانة حتّى قدم اليمن فقعده فيها - يعني لحاجة الانسان - فدخلها أبرهة فوجد العذرة بها فقال: من اجتراً عليّ بهذا؟ فقيل له في ذلك فقال: ونصرانيّتي لأهدمنّ ذلك البيت حتّى لا يحجّه حاجّ أبداً! وأذن قومه ومن اتبعه من أهل اليمن بالخروج، فتتبّعه ناس أكثرهم من عك والأشعريين وخثعم، فخرج يحثّ السير حتّى أتى الطائف فطلب منهم دليلاً، فبعثوا معه دليلاً من هذيل يقال له: نفيل فخرج بهم يهديهم، حتّى اذا كانوا بالمغمّس - وهو على ستة أميال من مكّة - نزلوا وبعثوا مقدّماتهم الى مكّة.

(١) الطبري ٢: ١٣٧.

(٢) الطبري ٢: ١٣٠.

(٣) قاله السهيلي في: الروض الأنف في شرح السيرة. وقيل: إنّ أبرهة كان قد جشم أهل اليمن في بنیان هذه الكنيسة أن ينقلوا إليها الحجارة والرخام من قصر بلقيس على فراسخ.

فقلت قريش: لا طاقة لنا اليوم بقتال هؤلاء القوم، وخرجوا إلى رؤوس الجبال، ولم يبق بمكة غير عبد المطلب بن هاشم، وأخذ بعضادتي الباب يقول:

لا هم إن المرء يمنع رحله فامنع جلالك^(١)

لا يغلبوا بصليهم ومحالهم عدواً محالك^(٢)

إن يدخلوا البيت الحرام إذا فأمر ما بدالك^(٣)

وروى الشيخ المفيد في (الأمالي) بسنده عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن جدّه قال: لما قصد أبرهة بن الصباح ملك الحبشة مكة لهدم البيت تسرعت الحبشة فأغاروا عليها وأخذوا سرحاً لعبد المطلب بن هاشم، فجاء عبد المطلب إلى الملك فاستأذن عليه فأذن له، وهو في قبة ديباج على سرير له، فسلم عليه فردّ أبرهة السلام وجعل ينظر في وجهه فراقه حسنه وجماله وهيئته، فقال له: هل كان في آبائك هذا النور والجمال الذي أراه لك؟ قال: نعم أيها الملك كلّ آبائي كان لهم هذا النور والجمال والبهاء! فقال له أبرهة: لقد فقم الملوك فخراً وشرفاً ويحق أن تكون سيد قومك! ثمّ أجلسه معه على سريرهِ...

ثمّ قال لعبد المطلب: فيم جئت؟ فقد بلغني سخاؤك وكرمك وفضلك، ورأيت من هيئتك وجمالك وجلالك ما يقتضي أن انظر في حاجتك، فسلني ماشئت.

(١) الحلال بالكسر جمع الحلة: القوم النزول فيهم كثرة.

(٢) المحال بالكسر: القوة والشدة.

(٣) مجمع البيان ١٠: ٥٤٠ - ٥٤٢ باختصار وفي سيرة ابن هشام ١: ٤٤ - ٥٢ بغير هذا اللفظ،

وفي الشطر الأخير: إن كنت تاركهم وقبلتنا فامر مابدالك. وقد روى الكليني بسنده عن الصادق عليه السلام قال: يبعث عبد المطلب أمة وحده عليه بهاء الملوك وسباء الأنبياء، وذلك أنّه أول من قال بالبداء، وذلك.. أنّه أخذ بملقة باب الكعبة وجعل يقول: يا ربّ إنّ نهلك فامر مابدالك. (اصول الكافي ١: ٤٤٧).

فقال له عبد المطلب: إن أصحابك عدوا على سرح لي فذهبوا به فرهم برده !
فتغيظ الحبشي من ذلك وقال لعبد المطلب: لقد سقطت من عيني! جئتني
تسألني في سرحك وأنا قد جئت لهدم شرفك وشرف قومك، ومكرمتكم التي
تتميزون بها من كل جيل، وهو البيت الذي يحج إليه من كل صقع في الأرض،
فتركت مسألتي في ذلك وسألتي في سرحك!

فقال له عبد المطلب: لست برّب البيت الذي قصدت لهدمه، وأنا ربّ
سرحي الذي أخذه أصحابك، فجئت أسألك فيما أنا ربّه، وللبيت ربّ هو أمتع له من
الخلق كلّهم وأولى به منهم!

فقال الملك: ردّوا عليه سرحه. وانصرف عبد المطلب الى مكة.

ودخل الملك بالفيل الأعظم وكان فيلاً أبيض عظيم الخلقة له نابان مرصّعان
بأنواع الدرر والجوهر وقد زين بكلّ زينة حسنة وكان الملك يباهي به ملوك
الأرض فدخل ومعه الجيش لهدم البيت، فكانوا إذا حملوه على دخول الحرم أناخ
وإذا تركوه رجع مهرولاً!

فقال عبد المطلب لغلمانه: ادعوا اليّ ابني... فلما جاؤا بعبد الله أقبل إليه
وقال: اذهب يا بني حتّى تصعد أبا قبيس، ثمّ اضرب ببصرك ناحية البحر فانظر أيّ
شيء يجيء من هناك وخبرني به.

فصعد عبد الله أبا قبيس فما لبث أن جاء طير أباييل مثل السيل والليل، فجاء
عبد الله إلى أبيه فأخبره الخبر. فقال: انظر يا بني ما يكون من أمرها بعده،
فاخبرني به. فنظرها فاذا هي قد أخذت نحو عسكر الحبشة، فأخبر عبد المطلب
بذلك، فخرج عبد المطلب وهو يقول: يا أهل مكة اخرجوا الى المعسكر فخذوا
غنائمكم!

فخرجوا ينظرون الى الطير فاذا ليس من الطير الا ومعه ثلاثة أحجار: في منقاره ورجليه يقتل بكل حصة واحداً من القوم. فلما أتوا على جميعهم انصرف الطير، ولم يُرَ قبل ذلك الوقت ولا بعده. وأتوا العسكر فاذا هم أمثال الخشب النخرة^(١).

وروى الكليني في (روضة الكافي) والصدوق في (علل الشرائع) بسندهما عن الباقر عليه السلام قال: أرسل الله عليهم طيراً جاءتهم من قبل البحر... مع كل طير ثلاثة أحجار: حجران في مخالبه وحجر في منقاره، فجعلت ترميهم بها حتى جذرت أجسادهم، فقتلهم الله عز وجل بها. وما كانوا قبل ذلك رأوا شيئاً من ذلك الطير ولا شيئاً من الجدرى^(٢).

وقال القمي في تفسيره: كانت الطيور ترفرف على رؤوسهم وترمي أدمغتهم، فدخل الحجر في دماغهم ويخرج من أدبارهم فتنتقض أبدانهم، فكانوا كما قال الله تعالى كالعصف المأكول وهو التبن الذي أكل بعضه وبقي بعضه. ثم روى عن الصادق عليه السلام: أن أصل الجدرى من ذلك الذي أصابهم في زمانهم^(٣).

وروى الشيخ الطبرسي في (مجمع البيان) عن العياشي بإسناده الى هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام قال: أرسل الله على أصحاب الفيل طيراً مثل الخطاف أو نحوه، في منقاره حجر مثل العدسة، فكان يحاذي برأس الرجل فيرميه بالحجر فيخرج من دبره، فلم تزل بهم حتى أتت عليهم^(٤).

(١) أمالي المفيد: ٣١٢، وبحار الأنوار ١٥: ١٣٠ نقلاً عنه وعن أمالي الطوسي: ٨٠ - ٨٢ الحديث ١٢٠.

(٢) روضة الكافي: ٨٤، وعلل الشرائع: ١٧٦.

(٣) تفسير القمي ٢: ٤٤٢.

(٤) مجمع البيان ١٠: ٥٤٠ - ٥٤٢.

وفي خبر الصدوق في (علل الشرائع) بسنده عن الصادق عليه السلام قال: ومن أفلت منهم انطلقوا حتى بلغوا حضرموت - واد باليمن - فأرسل الله عليهم سيلاً ففرقهم، فلذلك سمي حضرموت حين ماتوا فيه^(١).

وروى الطبري بخمسة طرق: أن الطير أقبلت من البحر أبابيل، مع كل طير منها ثلاثة أحجار: حجران في رجله وحجر في منقاره، فقذفت الحجارة عليهم، لا تصيب شيئاً إلا هشمته، وإلا نبط ذلك الموضع، فكان ذلك أول ما كان المجدي والحصبه والأشجار المردة، فأهدتهم الحجارة، وبعث الله سيلاً فذهب بهم فالتقاهم في البحر^(٢). قال المسعودي: وكان قدومه مكة يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم^(٣)، وكان ملك أبرهة على اليمن إلى أن هلك ثلاثاً وأربعين سنة، لأربعين سنة من ملك كسرى، قبل مولد رسول الله بخمسين يوماً^(٤).

قال ابن إسحاق: ولما ردّ الله الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصابهم به من النعمة قالت العرب بشأن قريش: إنهم أهل الله، فقد قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم، وكان شعراء قريش يفخرون بذلك في شعرهم كثيراً. فلما بعث الله تعالى محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - جعل قصة أصحاب الفيل مما يعدّه على قريش من نعمته وفضله عليهم^(٥) فقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَزْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾.

(١) علل الشرائع: ١٧٦.

(٢) الطبري ٢: ١٣٨ وعن ابن إسحاق. ورواه ابن هشام في السيرة ١: ٥٦.

(٣) مروج الذهب ٢: ٥٤.

(٤) مروج الذهب ٢: ٥٣ و ٢٧٤.

(٥) ابن إسحاق في السيرة ١: ٥٩.

قال ابن هشام: الأبايل: الجماعات، وأما السجّيل، فقد ذكر بعض المفسّرين: أنّها كلمتان بالفارسية: سنج يعني الحجر، وجلّ يعني الطين، جعلتها العرب كلمة واحدة تعني الحجارة من هذين الجنسيتين: الحجر والطين، وهي حجارة شديدة صلابة. والعصف المأكول هو ورق الزرع الذي لم يقصّب^(١) أي أصابته آكلة الديدان فأكلت بعضه وبقي بعضه الآخر.

بينما رجّح الشيخ محمد عبده في تفسيره: أنّ الطير الذي ورد في الآية الكريمة من الجائز أنّ يكون من نوع البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض الفتّاكة، وأن تكون تلك الحجارة من الطين المسموم الذي تحمله الرياح يتعلق بأرجل تلك الطيور، فإذا أصاب إنساناً انتقل المكروب الى جسده، فأحدث فيه بعض الجروح، وبالتالي ينتهي الى فساد الجسم^(٢)!

ولا نجد نحن وجهاً لهذا التفسير بل التأويل مادام القرآن ينصّ على أنّها طيور مرسلّة بالحجارة. نعم أصيبيوها بالجُدريّ فماتوا به كما مرّ في الخبر عن الصادق عليه السلام.

«وما أحبّ أن أعرض لتأويل هذه الطير الأبايل التي رمت الحبشة بحجارة من سجّيل فجعلتهم كعصفٍ مأكول لأنّي أوثر دائماً أن أقبل النصّ وأفهمه كما قبله وفهمه المسلمون الأوّلون حين تلاه النبي - صلى الله عليه [وآله] وسلّم -»^(٣).

وقال سيد قطب: وأنا فيما سبق من مؤلفاتي وحتى في الأجزاء الأولى

(١) سيرة ابن هشام ١: ٥٥، ورواه الطوسي في التبيان ١٠: ٤١١ وعنه في مجمع البيان ٥: ٢٨١ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٢) مما جاء في ظلال القرآن ٣٠: ٢٥١، وحياة محمد لهيكل: ١٠٢.

(٣) مرآة الإسلام لطفه حسين: ٢٩.

من هذه «الظلال» قد انسقت إلى شيء من هذا، وارجو أن اتدراكه في الطبعة التالية إذا وفق الله^(١).

وكانت هذه القصة في الفترة بين عيسى ونبينا - على نبينا وآله وعليه السلام - وقبل بعثته بأربعين عاماً، في عام ميلاده ﷺ، فالفترة كانت فترة شريعة عيسى عليه السلام وهؤلاء كانوا نصارى، ولكنهم كانوا منحرفين فيها عن الحق، وعملهم هذا لم يكن حرباً مع المشركين لردعهم عن شركهم ودعوتهم إلى شريعة عيسى عليه السلام، بل كان هدماً لبيت إبراهيم عليه السلام بل بيت الله، ولم يكن هذا من شريعة عيسى عليه السلام بل خروجاً عنه وبغياً وعدواناً وطغياناً وعُتواً فلذلك أهلكوا.

دخول الفريس المجوس إلى اليمن:

وكان من ظلم أبرهة أن بعث إلى أبي مرة يوسف بن ذي يزن وكان من أشرف اليمن فنزع منه امراته ريحانة بنت ذي جدن، وكانت ذات جمال وقد ولدت لأبي مرة معد يكرب، فولدت لأبرهة: مسروق بن ابرهة. وهرب أبو مرة سيف بن ذي يزن^(٢).

فروى الطبري عن الكلبي: أن أبا مرة سيف بن ذي يزن خرج من اليمن فلحق بعمر بن المنذر من ملوك بني المنذر بالحيرة، فسأله أن يكتب له إلى كسرى كتاباً يعلمه فيه بقدره وشرفه وما فزع إليه فيه. فقال عمرو: لا تعجل، فإن لي عليه في كل سنة وفادة، وهذا وقتها.

فأقام قبله حتى وفد عليه معه، فدخل عمرو بن المنذر على كسرى فذكر له شرف ذي يزن وحاله، واستأذن له. فأذن له كسرى. فدخل، فأوسع عمرو له

(١) في ظلال القرآن ٢٩: ١٥١ - ١٥٣.

(٢) الطبري ٢: ١٣٠ عن ابن اسحاق و١٤٢ عن هشام الكلبي وعنه سائر الحديث.

فلما رأى كسرى ذلك عرف شرفه وقد كان ابن ذى يزن قال قصيدة بالحميرية في مدح كسرى، فلما ترجمت له أعجب بها، فأقبل عليه ولطف به وسأله: ما الأمر الذي نزع بك؟ قال: أيها الملك! إن السودان قد غلبونا على بلادنا وركبوا منا اموراً شنيعة أجلّ الملك عن ذكرها، فلو أن الملك تناولنا بنصره من غير أن نستنصره لكان بذلك حقيقاً لفضله وكرمه وتقدمه على سائر الملوك، فكيف وقد نزعنا اليه مؤملين له، راجين أن يقسم الله عدونا وينصرنا عليهم وينتقم لنا به منهم! فان رأى الملك أن يصدق ظننا ويحقق رجاءنا، ويوجه معي جيشاً ينفون هذا العدو عن بلادنا فيزدادها الى ملكه فعل، فأنها من أخصب البلدان وأكثرها خيراً، وليست كما يلي الملك من بلاد العرب.

فقال انوشيروان: قد علمت أن بلادكم كما وصفت، فأى السودان غلبوا عليها: الحبشة أم السند؟ قال ابن ذى يزن: بل الحبشة. قال انوشيروان: اني لاحب أن أصدق ظنك وأن تنصرف بحاجتك، ولكن مسلك الجيش الى بلادك مسلك صعب أكره أن أغرر جندي به، وسأنظر فيما سألت. فلم يزل مقياً عنده حتى هلك.

ونشأ معديكرب بن ذى يزن مع أمه ربحانة في حجر أبرهة، وأخبرته أمه أن أباه هو سيف بن ذى يزن، واقتصت عليه خبره، فلبث حتى مات الأشرم ومات ابنه يكسوم، وتملك اخوه مسروق، فخرج ابن ذى يزن الى ملك الروم، ولم يذهب الى كسرى لابطائه عن أبيه، ولكنه وجد قيصر أو هرقل لموافقته للحبشة في دينهم يحامي عنهم، فانكفاً راجعاً الى كسرى، فاعترضه يوماً - وقد ركب - فصاح به: أيها الملك ان لي عندك ميراثاً! فدعا به كسرى وقال: من أنت؟ وما ميراثك؟ قال: أنا ابن الشيخ اليماني ذى يزن الذي وعدته أن تنصره فمات بحضرتك، فتلك العدة حق لي وميراث يجب عليك الخروج لي منه. فقال له: أقم حتى أنظر في أمرك.

ثم إن كسرى استشار وزراءه في توجيه الجند معه، فقال المؤبدان^(١) إن لهذا الغلام حقاً بوعدك لأبيه وموته ببابك وفزع هذا اليك. وفي سجون الملك رجال ذووا نجدة وبأس، فلو أن الملك وجههم معه، فإن أصابوا ظفراً كان له، وإن هلكوا كان قد استراح وأراح أهل مملكته منهم، ولم يكن ذلك يبيد عن الصواب.

قال كسرى: هذا الرأي. وأمر بمن كان في السجون من هذا الضرب أن يحصوهم، فأحصوا فبلغوا ثمانمائة نفر، فقوّد عليهم قائداً من أساورته^(٢) يقال له: وهرز - أو بهروز - كانوا يعدلونه بألف أستوار، وقوّاهم وجهّزهم وأمر بحملهم في ثمانى سفن في كل سفينة مئة رجل.

فركبوا البحر ففرقت من السفن الثمانية سفينتان، وسلمت ست سفن، وخرجوا بساحل حضرموت، فنزل وهرز على سيف البحر فجعل البحر وراء ظهره. ولحق بمعديكرب بن سيف بشر كثير.

وسار اليهم مسروق في مئة ألف من الحبشة وحمير والأعراب فلما نظر مسروق الى قلة من مع وهرز أرسل إليه: ماجاء بك وليس معك إلا من أرى، ومعى من ترى؟ قد غرّرت بنفسك وأصحابك، فإن أحببت أذنت لك فرجعت الى بلادك، وإن أحببت أجّلتك حتى تشاور أصحابك وتنظر في أمرك، وإن أحببت ناجزتك الساعة.

ورأى وهرز أنه لا طاقة له بهم، فأرسل الى مسروق: بل تضرب بيني وبينك أجلاً، وتعطينى موثقاً وعهداً ألا يقاتل بعضنا بعضاً حتى ينقضي الأجل ونرى رأينا. ففعل مسروق ذلك.

(١) لقب عالم المجوس، ومن هنا يظهر أن الاستشارة كانت استفتاءً شرعياً: هل يجب عليه شيء أو لا؟

(٢) جمع الاسوار، وهو كما يقال اليوم في الفارسية: الاستوار، رتبة من الرتب العسكرية.

وأقام كل واحد منهما في عسكره حتى مضت عشرة أيام، وكان مع وهرز ابنه، فخرج ذات يوم على فرس له حملة الى عسكرهم فقتلوه. فلما لم يبق من الأجل إلا يوم واحد أمر بالسفن التي كانوا فيها فأحرقت، وأمر بما كان معهم من فضل كسوة فأحرق ولم يدع منه إلا ما كان على أجسادهم، ثم أمر بفضل الزاد فألقى في البحر، ثم قام فيهم خطيباً فقال: أمّا ما حرّقت من سفنكم فأني أردت أن تعلموا أنه لا سبيل الى بلادكم أبداً، وأمّا ما حرّقت من ثيابكم فإنه كان يغنيني إن ظفرت بكم الحبش أن يصير ذلك إليهم، وأمّا ما ألقيت من زادكم في البحر فأني كرهت أن يطعم أحد منكم أن يكون معه زاد يعيش به يوماً واحداً بعد اليوم، فإن كنتم قوماً تقاتلون معي وتصبرون فأعلموني ذلك. فقالوا: نقاتل معك حتى نموت عن آخرنا أو نظفر!

فلما كان صبح اليوم الذي انقضى فيه الأجل عبا أصحابه وأقبل عليهم يحضّهم على الصبر. وأمرهم أن يوتروا ويعدّوا قسيّهم، ولم يكن لليمنيين نُشاب^(١) قبل ذلك اليوم، فقال لأصحابه: إذا أمرتكم أن ترموا فارموهم رشقاً بالبنجگان^(٢). وأقبل مسروق في جمع لا يرى طرفاه طويلاً يميناً ويساراً، وهو على فيل وعلى رأسه تاج وبين عينيه ياقوتة حمراء مثل البيضة. ثم نزل من الفيل فركب فرساً، فأخرج وهرز نشابة فوضعها في كبد قوسه وقال لهم: ارموا، فرموا، ورمى مسروقاً في جبهته فسقط عن دابته، وقتل من ذلك الرشق الواحد جماعة كثيرة من جيش الأحباش، ولما رأوا صاحبهم مسروقاً صريعاً انفضوا، حتى كان الاستوار يأخذ من الحبشة ومن حمير والأعراب الخمسين والستين فيسوقهم مكثفين

(١) كلمة فارسية أصلها: نوش آب: مصّاص ماء البدن: الدم.

(٢) كلمة فارسية من پنج بمعنى الخمسة، تعني: النشاب ذو شعب خمسة من النصال الحديدية.

لا يمتنعون منه، ولكنّ وهرز قال لهم: اقصدوا قصد السودان فلا تبقوا منهم أحداً أما حمير والأعراب فكفوا عنهم، فقتل أكثر الحبشة، وغنم الفرس من عسكرهم مالا يعدّ ولا يحصى كثرة.

وأقبل وهرز حتّى دخل صنعاء وفرّق عماله في مخاليف اليمن فغلب على البلاد^(١) وكان ذلك سنة ٥٧٥ م^(٢).

قال المسعودي: فتوّج وهرز: معديكرب بن سيف بتاج كان معه والبسة بدنة^(٣) وقفازات من الفضة ورتّبه في ملكه على اليمن وكتب بالفتح الى أنوشيروان. وأتت معديكرب الوفود تهنئه بعود الملك اليه، من أشراف العرب وزعمائها، وفيهم: عبد المطلب بن هاشم، وأمّية بن عبد شمس، وخويلد بن أسد، وأبو الصلت الثقفي، فدخلوا اليه وهو في أعلى قصره بمدينة صنعاء، المعروف بغمدان^(٤) وعلى يمينه ويساره أبناء المقاول والملوك.

فتقدم عبد المطلب بن هشام فتمدّحه، فرحّب بهم معديكرب بن سيف.

(١) الطبري ٢: ١٤٢ - ١٤٧ وذكر فيه شعراً لأمية بن الصلت قصيدة لامية سجّل فيها ابتهاج العرب بخلاص اليمن من الأحباش على يد الفرس.

(٢) سيرة المصطفى: ٢٣.

(٣) البدنة هنا: شيء شبه الدرع إلا أنّها تصير قدر البدن فقط.

(٤) غمدان كعثمان، قصر باليمن بناه يشرخ بن يحصب على أربعة وجوه: أحمر وأبيض وأصفر وأخضر، وبني في داخله قصرأ بسبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعاً، وجعل في أعلاه مجلساً بناه بالرخام الملون وجعل سقفه رخامة واحدة، وجعل على كلّ ركن من أركانه تمثال أسد من شبه كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه فيسمع له صوت كالزئير، وخربه عثمان بن عفّان قاله المسعودي وقال: ورأيت أنه قد انهدم بنيانه وصار تلاً عظيماً من تراب، كأن لم يكن. مروج الذهب ٢: ٢٢٩.

وأقام معديكرب ملكاً على اليمن، واصطنع عبيداً من الحبشة يمشون بين يديه بالحرا ب، فركب في بعض الأيام من باب قصره المعروف بغمدان بمدينة صنعاء، فلما صار الى رحبتها عطفت عليه الحرا ب من الحبشة فقتلوه بحرا بهم. وكان ملكه أربع سنين، وهو آخر ملوك اليمن من قحطان، فعدد ملوكهم سبعة وثلاثون ملكاً.

ولما قتلت الحبشة معديكرب في الرحبة بحرا بهم، كان بصنعاء خليفة لوهرز في جماعة من العجم، ممن كان ضمهم وهرز الى معديكرب، فركب وأتى على من كان هنالك من الحبشة وضبط البلد. وكتب بذلك الى وهرز وهو بباب أنوشيروان الملك^(١) وذلك بمدائن طيسفون من أرض العراق، فاعلم وهرز الملك بذلك، فسيره في البر في أربعة آلاف من الأساورة وأمره أن لا يبقى على أحد من بقايا الحبشة ولا على جعد قطط الشعر^(٢) شرك السودان في نسبه. فأتى وهرز اليمن حتى نزل في صنعاء فلم يترك بها أحداً من السودان إلا قتلهم. وملك أنوشيروان وهرز على اليمن الى أن هلك بصنعاء^(٣).

وعن الكلبي: أنه لما بلغ أنوشيروان موت وهرز بعث الى اليمن أستواراً يدعى «وين» وكان جبّاراً مسرفاً، وكان ذلك في آخر ملك أنوشيروان، فلما مات أنوشيروان وخلفه ابنه هرمز عزل «وين» واستعمل مكانه المروزان^(٤)، فلما ملك

(١) مات أبرهة لأربعين من ملك كسرى وملك يكسوم عشرين سنة ثم ملك مسروق ثلاث سنين ثم ملك معديكرب أربع سنين، وبمجموع ملك كسرى: ثمان وأربعون سنة، فلا يتم التوفيق بين هذا كله.

(٢) الجعد والقطط: قصر الشعر وفتله.

(٣) مروج الذهب ٢: ٥٧ - ٦٢.

(٤) الطبري ٢: ١٧١ وأظن أن اسمه: المروزان وكان ملك كسرى أنوشيروان ثانياً وأربعين سنة كما في الطبري ٢: ١٧٢.

ابن هرمز: خسرو پرويز كتب الى المروزان: أن استخلف من شئت وأقبل الي، فاستخلف المروزان ابنه خور خسرو على اليمن وسار فمات في الطريق وحمل الى خسرو پرويز، ثم بلغ خسرو پرويز أن خور خسرو يتأدب بآداب العرب ويروي أشعارهم فعزله وولى بمكانه بادان، وهو آخر من قدم من ولاية العجم^(١).

وذكر المسعودي مساحة اليمن وحدوده فقال: وبلد اليمن طويل عريض، حدّه ممّا يلي مكّة الى الموضع المعروف بطلحة الملك سبع مراحل - والمرحلة من خمسة فراسخ الى ستة - ومن صنعاء الى عدن تسع مراحل، ومن وادي وحا الى ما بين مفاوز حضرموت وعمان عشرون مرحلة، والوجه الآخر هو بحر اليمن وهو بحر الهند والصين والقلزم، وجميع ذلك يكون: عشرين مرحلة في ست عشرة مرحلة^(٢).

وذكر اليعقوبي سواحل اليمن وهي: عدن ساحل صنعاء، والمندب، وغلافة، والحردة، والشرجة، وعثر، والحمضة، والسرين، وحدة (أو الحديدية) وقال: وتسمّى كور اليمن: المخاليف، وهي: أربعة وثمانون مَخْلَافاً. ثمّ أتى باسمائها وقال: هذه بلدان مملكة اليمن وبلادها. وكان ملوك اليمن في صدر عهدهم يدينون بعبادة

(١) الطبري ٢: ٢١٥ وجاء اسمه في الطبري ٣: ٢٢٧: بادام، وهو الراجح حسب المعنى في الفارسية، وهو الذي بعث رسول الله ﷺ على عهده، وفي آخر السنة السادسة للهجرة بعث رسول الله ﷺ الى خسرو پرويز كتاباً يدعو فيه الى الاسلام، فغضب خسرو پرويز وبعث الى بادام هذا بأن يرسل اليه رسول الله مقيّداً، وبعث بادام رجالاً الى المدينة فأخبرهم رسول الله ﷺ بهلاك خسرو پرويز فقيّدوا ذلك ولما رجعوا الى اليمن ووصل الرسول بهلاك خسرو پرويز أسلم بادام ومن معه من أبناء الفرس في اليمن وبعثوا باسلامهم الى رسول الله ﷺ، فأقرّه رسول الله ﷺ على عمله فكان عليه حتى توفي رسول الله ﷺ. راجع سيرة ابن هشام ٢: ٧١.

(٢) مروج الذهب ٢: ٦٤.

الأصنام، ثم إنَّ احباراً من اليهود صاروا اليهم (مع تبّع تبار أسعد) فعلموهم دين اليهودية فدانوا بدين اليهود وتلوا التوراة. ولم يكونوا يتجاوزون اليمن إلا أنهم ربّما أغاروا على بعض البلدان فيرجعون الى بلادهم ودار ملكهم^(١).

أسواق العرب:

وكانت للعرب في اليمن وغيره أسواق يجتمعون بها في تجارتهم، ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم بخفارة خاصّة: فمنها سوق «عدن» كان يقوم في أوّل يوم من شهر رمضان وكان بخفارة الأبناء - أي أبناء الفرس حكام اليمن - وهم كانوا يعشرونهم بها لقاء خفارتهم لهم، ومنها كان يحمل الطيب الى سائر الآفاق. ثمّ سوق «صنعاء» كان يقوم في النصف من شهر رمضان بخفارة الأبناء أيضاً. ثمّ سوق «الرابية» بحضرموت، ولم يكن يوصل إليها إلا بخفارة خاصّة، لأنها لم تكن أرض مملكة، فكان من عزّها بزّ، وكانت الخفارة فيها لكندة. ثمّ سوق «عكاظ» بأعلى نجد، كان يقوم في شهر ذي القعدة، وكان أكثر من يحضرها من مضر وسائر قريش وقليل من سائر العرب، وبها كانت مفاخرات العرب ومهادناتهم بعد حملاتهم - أي دياتهم. ثمّ سوق «ذي المجاز» يرتحلون منها الى مكّة للحج.

(١) اليعقوبي ١: ٢٠٠، ٢٠١. وقد علّقنا على هذا سابقاً بمعارضته لنقل القرآن الكريم بأنّ الهدد أخبر سليمان بن داود عنهم بقوله ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ...﴾ وَإِنِّي وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْطَانِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿وان بلقيس قالت ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ونقل المؤرخون أنّ سليمان بن داود حكم اليمن عشرين عاماً ثمّ ملكها ابنه أرجعم بن سليمان، وان بلقيس كانت قبل تبّع تبار الأسعد بعشرة ملوك في سبعمائة سنة قريباً. فأظن الخبر هذا من الاسرائيليات.

ومنها «دومة الجندل» كان يقوم في شهر ربيع الأول، وكانت بين بني كلاب والغساسنة أيهم غلب قام بها.

ثم سوق «المشقر» في مدينة هَجَر، كانت في جُمادى الأولى، يقوم بها بنو تميم.
ثم سوق «صُحار» كان يقوم في أول يوم من رجب، ولم تكن بحاجة إلى الخفارة لأنها في الشهر الحرام.

ثم سوق «رَيَّا» بخفارة آل الجُلَنْدي وهو كان يعشّرهم بها لذلك.
ثم سوق «الشُخر» شُخْرُ مُهْرَه، في ظل الجبل الذي عليه قبر هود النبي ﷺ، وكان يقوم بها بنو مهرة بلا خفارة خاصّة.

وكان في العرب قوم يحضرون هذه الأسواق فيستحلّون بها المظالم، ولذلك كانوا يسمّون (المحلّون)^(١) كانوا من قبائل أسد وطيء وبني بكر وبني عامر. وكان من العرب من ينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر يسمّون (الذّادة المحرّمون) كانوا من بني عمرو بن تميم وبني حنظلة، ومن هذيل، وبني شيبان، وبني كلب، فكان هؤلاء يلبسون السلاح للدفاع عن الناس^(٢).

وكانت العرب تقيم الشعر مقام الحكمة والعلم، فإذا كان في القبيلة الشاعر الماهر المميّز الكلام المصيب المعاني أحضروه في أسواقهم هذه التي كانت تقوم لهم في السنة حتّى تجتمع العشائر والقبائل فتسمع شعره، ويجعلون ذلك فخراً من فخرهم وشرفاً من شرفهم، وكانوا به يتفاضلون ويتناضلون ويمدحون ويعابون، ويتمثلون ويختصمون. وقد عدّ اليعقوبي عدداً كثيراً من شعرائهم^(٣).

(١) وبعد الإسلام انتقل هذا الإسم إلى الخوارج.

(٢) اليعقوبي ١: ٢٧٠، ٢٧١.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٦٢ - ٢٦٩.

وكان للعرب حكام يتحاكمون إليهم في منازعاتهم ومواريتهم ومياهم ودمائهم، فكانوا يحكمون أهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسّن والمجد والتجربة، إذ لم يكن لهم دين يرجعون إلى شرعه. وقد عدّ اليعقوبي عدداً غير قليل من هؤلاء الحكام القضاة: قضاة التحكيم^(١).

وكانت أديان العرب مختلفة باختلاف المجاورات لأهل الملل: فدخل قوم من العرب في دين اليهود، ودخل آخرون في النصرانية، وتزندق منهم قوم فقالوا بالثنوية: فأما من تهوّد منهم فإن قوماً من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير تهوّدوا، وتهود قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من بني غسّان، وقوم من جذام، وإنّ تبعّ اليمني حمل حبرين من أحبار اليهود فأبطل الأوثان وتهوّد من باليمن^(٢). وأما من تنصّر من أحياء العرب: فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزّى منهم ورقة بن نوفل، ومن بني تميم، وبني تغلب، ومن اليمن طيء ومذحج وبهراء وسليح وتنوخ وغسّان ولخم وتزندق جمع منهم حجر بن عمرو الكندي وغيره^(٣).

وروى الكليني في (فروع الكافي) بسنده عن الباقر عليه السلام قال: كان في أيديهم أشياء كثيرة من الحنيفية من تحريم الأمهات والبنات وما حرّم الله في النكاح، إلّا أنّهم كانوا يستحلون امرأة الأب وابنة الأخت والجمع بين الأختين، وكان في أيديهم الحج والتلبية والغسل من الجنابة إلّا ما أحدثوا في تلبيتهم وفي حجّهم من الشرك^(٤).

(١) اليعقوبي ١: ٢٥٨.

(٢) مرّ مفصّل هذا الخبر وعلّقنا عليه بأنّه منافٍ لما في القرآن الكريم من سبق اليهودية إلى اليمن على عهد بلقيس وسليمان أي قبل تبعّ هذا بسبعة قرون.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٥٤ - ٢٥٧.

(٤) فروع الكافي ١: ٢٢٣.

وروى أيضا بسنده عن الصادق عليه السلام قال: انّ العرب لم يزالوا على شيء من الحنيفية: يصلون الرحم، ويقرون الضيف، ويحجون البيت، ويتقون مال اليتيم، ويكفون عن أشياء من المحارم مخافة العقوبة، وكانوا يأخذون من لحاء شجر الحرم فيعلقونه في أعناق الأبل فلا يجترئ أحد أن يأخذ من تلك الأبل حيثما ذهبت^(١).

أولاد معد بن عدنان:

نرجع هنا الى ذكر بقية أخبار مكة وولاية ألبيت من أولاد عدنان، فنقول: قال اليعقوبي: كان عدنان أول من كسا الكعبة^(٢) ونصب أنصاب الحرم بمكة. وكان أشرف أولاده معدّ ابن عدنان، ولما ضاقت مكة بهم وخرج كثير من ولد إسماعيل لم يخرج هو منها، وكان له عشرة أولاد، منهم قضاة وبه كان يكنى، وانتقل قضاة بأهله وأولاده الى اليمن وأصبح لهم عدد كثير، فانتسب جميع من كان باليمن من ولد معدّ الى قضاة، وانتمت قضاة الى حمير فحسبوا معهم.

وساد من ولد معدّ نزار بن معدّ فأقام بمكة فكان سيد بني أبيه وعظيمهم. وأصبح له من الولد أربعة: مضر وإياد وربيعه وأنمار، ولما حضرت نزار الوفاة قسم ميراثه على ولده هؤلاء الأربعة: فأعطى مضر ناقتة الحمراء فسّمى مضر الحمراء، وأعطى ربيعة فرسه فسّمى ربيعة الفرس، وأعطى إياد غنمه وكانت برقاء^(٣) فسّمى إياد البرقاء، وأعطى أنماراً جارية له تسمى بجيلة فسّمى بها، وأرّحل أنمار بن نزار الى اليمن فتزوج في بجيلة وخثعم، فانتسب ولده الى أخوالهم فمنهم في بجيلة ومنهم في خثعم، فحسبوا معهم.

(١) فروع الكافي ١: ٢٢٣.

(٢) هذا، وقد سبق أن أول من كساه تبع تبار أسعد اليمنى، وقبله هاجر ام إسماعيل.

(٣) البرقاء من الشياة التي في خلال صوفها الأبيض طاقات سود - مجمع البحرين.

وصار ربيعة بن نزار الى بطن عرق^(١) ثم كثر ولده وولد ولده فانتشروا حتى امتلأت بطون وديان الفرات في العراق من جماهير قبائل ربيعة: من عَنزة بن أسد، والنَّير بن قاسط وبكر بن وائل بن قاسط، وعجل ابن لجيم، وحنيفة بن لجيم، وتيم بن ثعلبة وقيس بن ثعلبة، وعبد القيس بن أفصى.

ووقع حرب بين بني النمر بن قاسط وعبد القيس فسارت عبد القيس حتى نزلت اليمامة من أرض اليمن، فكان فيها وفي تهامة جمع من أولاد معد ابن عدنان، فأقبلت إليهم مذحج تريد غزوهم فالتقوا في موضع سلان، فكان الظفر لبني ربيعة بن معد بن عدنان وهزمت مذحج، فسُمِّي «يوم السلان».

وأقبل بنو كندة من اليمن لحرب ربيعة أيضاً، وعلى كندة سلمة بن الحارث الكندي، وقد استمد من بعض الملوك لذلك، فالتقوا بموضع خزاز، ففضت جموع كندة، فصالحهم سلمة، فسُمِّي «يوم خزاز».

ثم تحارب سلمة مع أخيه شرحبيل بن الحارث الكندي، فاقترعت ربيعة فكان بنو عبد القيس مع شرحبيل وسائر ربيعة مع سلمة، فكان لهم العلو على قيس وقتل شرحبيل الكندي، فسُمِّي «يوم الكلاب».

ومن عشائر ربيعة: بنو شيبان وبنو تغلب، وقتل جساس بن مرة الشيباني: كليب بن ربيعة التغلبي، فاشتبكت الحروب بينهم ودامت أربعين سنة سُمِّي «حروب البسوس».

وتشارك بنو شيبان وبنو عجل من بني بكر بن وائل من عشائر ربيعة في الدفاع عن هانيء بن مسعود الشيباني أمام جيوش كسرى من العجم ومن معهم من العرب من بني معد بن عدنان وقحطان مع إياس بن قبيصة الطائي، فالتقوا بذي قار

(١) من مواقيت الاحرام ومنازل طريق الحجاز الى العراق، آخر العقيق وأول تهامة عن مكة على نحو مرحلتين - بمجمع البحرين.

فتحاربوا فهزم بنو عجل وبنو شيبان أولئك، فكان أول يوم انتصرت فيه العرب من العجم في «يوم ذي قار».

وصار إياد بن نزار بن معد بن عدنان الى اليمامة فولد له أولاد انتسبوا في القبائل، ثم انتقل قسم منهم إلى الحيرة فنزلوا الخورنق والسدير وبارق، وأجلاهم كسرى عن ديارهم فأنزلهم تكريت - مدينة قديمة على شطّ دجلة من أرض الموصل - ثم أخرجهم عن تكريت الى بلاد الروم فنزلوا بأنقرة من أرض الروم، وجماهير قبائلهم: نزار ومالك ويقدم وحذاقة.

وساد من ولد نزار من معدّ: مضر بن نزار فكان سيّد ولد أبيه وكان كريماً حكيماً.

فولد مضر بن نزار: الياس بن مضر وعيلان بن مضر.

فولد عيلان بن مضر: قيس بن عيلان وأصبح العدد والمنعة في ولد قيس، وجماهير قبائلهم: عدوان، وفهم، ومحارب، وباهلة، وفزارة، وسليم، وعامر، ومازن، وسلول، وثقيف، وكلاب، وعقيل، وقشر، والحريش، وعوف. ولقبائل قيس عيلان عشرة حروب مشهورة، منها حرب داحس والغبراء بين فزارة وعبس.

وبان فضل إلياس بن مضر وشرفه، وظهرت منه امور جميلة حتّى رضوا به رضاً لم يرضوا بأحدٍ من ولد إسماعيل مثله، فأنكر عليهم ماغيّروا من سنن آبائهم فردّهم الى سنن آبائهم حتّى رجعت سنتهم على أوّلها، فكانت العرب تعظّم إلياس تعظيم أهل الحكمة. وله من الولد: عامر، وعمرو، وعمير، وألقابهم: مدركة، وطابخة، وقبة.

وولد لطابخة بن الياس: أد بن طابخة، ففرغت من ولده أربع قبائل هي: الرباب، وضبة، ومزينة، وتميم. وأصبح العدد في تميم حتّى امتلأ بهم البلاد.

فمن جماهير قبائلهم: كعب، وحنظلة، وبنو دارم، وبنو زرارة، وبنو عمرو بن تميم، وبنو أسد بن تميم، ولهم حروب معروفة^(١).

وكان بنو عمرو بن عامر بن ربيعة قد نزلوا مدينة مأرب باليمن، فلما انهى السد بسيل العرم اعتزلوا سائر ربيعة وانخزعوا إلى مكة فسمّوا خزاعة لانخضاعهم هذا^(٢) وتزوج منهم قعة بن الياس فانتسب ولده اليهم^(٣).

وكانت حجابة البيت لإياد بن نزار^(٤)، فنازعه عليها مضر، وثار الحرب بينهما وكانت على إياد^(٥) فلما أرادوا الرحيل عن مكة قلعوا الحجر الأسود وحملوه على جمل فلم ينهض فدفنوه وخرجوا، وبصرت بهم امرأة من خزاعة حين دفنوه. فلما بعدت إياد اشتد ذلك على مضر وأعظمه قريش وسائر مضر، فقالت الخزاعية لقومها: اشترطوا على قريش وسائر مضر أن يصيروا اليكم حجابة البيت حتى أدلكم على الركن، ففعلوا ذلك، فلما أظهروا الركن صيروا إليهم الحجابة^(٦) ووليت خزاعة أمر البيت وأول من وليه منهم^(٧) عمرو بن لحي بن قعة بن الياس - فهو من مضر التي انتمت إلى خزاعة - وهو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام^(٨).

وولد مدركة بن الياس: هذيلًا، وخزيمة، وغالبًا، وحارثة؛ وكان العدد منهم في بني سعد بن هذيل، وكانوا فصحاء شعراء أصحاب نجدة وحروب وغارات على

(١) اليعقوبي ١: ٢٢٣ - ٢٢٩.

(٢) مروج الذهب: ٢: ٢٩.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٢٣.

(٤) اليعقوبي ١: ٢٣٨.

(٥) مروج الذهب ٢: ٢٩.

(٦) اليعقوبي ١: ٢٣٨.

(٧) مروج الذهب ٢: ٢٩.

(٨) اليعقوبي ١: ٢٣٨. واسمه في المسعودي: عمرو بن لحي بن عامر ٢: ٢٩.

تعبير اليعقوبي. وأما حارثة بن مُدركة فدرج صغيراً ومات، وأما بنو غالب فانتسبوا في بني خزيمة، لأنه كان يعدّ له الفضل والسؤدد حتّى كان أحد حكام العرب.

فولد خُزيمة بن مُدركة: أسد، والهون، وكنانة. وانتقل ولد أسد إلى اليمن، وهم: دودان، وكاهل، وعمر، وهند، والصّعب، وتغلب. وكان العدد في بني دودان، ومنه تفرّقت قبائل بني أسد: قعين، وفَقْعُس، ومنقذ، وديّان ووالبة، ولاحق، وحرثان، ورثاب، وبنو الصيّداء، وانتشر ولده في اليمن، ومن قبائلهم: جذام، ولخم، وعاملة، وبنو عمرو بن أسد، وكانت منتشرة من تهامة إلى قصور الحيرة: الخورنق والسدير وبارق، وكانت محاربة لكندة في اليمن ومخالفة لطيّء في العراق، ثمّ تحاربوا وأخذ بعضهم من بعض سبايا، ثمّ ردّوا الطعائن.

وولد كنانة بن خُزيمة: النضر، وحدال، وسعداء، ومالكاً، وعوفاً، ومخرمة، وعليّاً، وغزوان، وجَزْولاً، والحارث، وعبد مناة. والعدد في أبناء عبد مناة هذا، فمنهم: بنو ليث، وبنو الدُّئل، وبنو ضَرّة، وبنو غِفار، وبنو جذيمة، وبنو مدلج. فهذه جماهير قبائل كنانة.

والنضر بن كنانة هو الذي سمّته أمّه قريشاً وهو تصغير قرش وهي دويبة بحريّة، فولد النضر بن كنانة: الصلت ويخلد ومالك، وكان النضر يكنّى أبا الصّلت، وصار ولد الصّلت مع خزاعة ولم يبق من يخلد أحد يعرف.

وإنّما أصبح مالك بن النضر عظيم الشأن، وكان له من الولد: فهر والحارث وشيبان، وأختلفوا في أسم فهر هل اسمه فهر؟ أو اسمه قريش ولقبه فهر، ومنه القرشيون فقط. وظهر في فهر بن مالك علامات فضل في حياة أبيه، فلمّا هلك أبوه قام مقامه.

وكان لفهر بن مالك من الولد: غالب، والحارث، ومحارب وجندلة، وكان غالب أفضلهم وأظهرهم مجداً، فلمّا مات هو شرف غالب وعلا أمره.

وكان له من الولد: لُؤي، وتيم، وتغلب، ووهب، وكثير، وحرّاق. وساد لُؤي من بينهم، فلما مات غالب بن فهر قام لُؤي بن غالب مقامه.

وكان للؤي من الولد: كعب، وعامر، وسامة، وخزيمة، وعوف، والحارث الجُشم، وسعد، فصار عامر الى عمان وتزوج امرأة من مدينة قرن في اليمن، وكان له من الولد: حسل ومعيص وعُويص. ونزح خزيمة الى بني شيبان فانتسب ولده الى بني ربيعة. ونزح الحارث الجُشم وسعد الى هزان فانتسبوا اليهم. وانتمى عوف بن لُؤي الى عوف بن سعد بن ذبيان في أرض غطفان.

وكان أعظم هؤلاء شرفاً وقدرًا كعب بن لُؤي حتى أن قريشاً أرخت من موته، وكان له من الولد: مرة، وعدي، ومنه بنو عدي رهط عمر بن الخطاب، وهصيص ومنه بنو جُمح وبنو سهم.

وساد مرة بن كعب، وولد له: يقظة وتيم ومنه بنو تيم رهط أبي بكر ابن أبي قحافة عتيق التيمي، وكلاب، وساد من بينهم كلاب هذا. وكان لكلاب بن مرة من الولد: قُصي، وزهرة.

وكان اسم قُصي: زيداً، إلا أن أباه كلاباً مات وهو صغير في حجر أمّه، وقدم رجل من بني عُذرة من قضاة يقال له: ربيعة بن حرام العذري فتزوجها وخرج بها الى قومه وحملت زيداً معها فلما بعد من دار قومه سمّته قُصيّاً. فلما شبّ عرف أنه ابن كلاب بن مرة وأنّ قومه كانوا آل الله وفي حرمه فكره قُصي الغربة وأحب أن يخرج الى قومه، وخرج في الشهر الحرام في حُجاج قضاة حتى قدم مكة وأقام بها وتزوج حُبَيّ ابنة حُلَيْل الخزاعي^(١) وهو آخر من ولي البيت من خزاعة^(٢) فولدت له عبد مناف، وعبد الدار، وعبد العزّي، وعبد قُصي.

(١) اليعقوبي ١: ٢٢٩ - ٢٣٩.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٢٣ ومروج الذهب ٢: ٣١.

قال المسعودي: وكانت ولاية البيت ثلاث خصال: الاجازة بالناس من عرفة، والإفاضة بالناس غداة النحر إلى منى، والنسيء للشهور الحرم. وكانت النساء في بني مالك بن كنانة، وذلك أن العرب كانت إذا فرغت من الحج وأرادت الرجوع اجتمعت إلى شريف كنانة فيقوم فيهم فيقول: اللهم إني قد أحللت أحد الصّفرين: الصّفر الأوّل، وأنسأت الآخر للعام المقبل^(١).

قال اليعقوبي: وكان الحج واجازة الناس من عرفات للغوث بن مرّ الملقب بالصوفة، وكانت الحجابة لخزاعة. فلما حضر الحج جمع قصي إليه قومه من بني فهر بن مالك وحال بين صوفة وبين الاجازة، فعلمت بنو بكر وخزاعة أن قصياً سيصنع بهم كما صنع بصوفة فسيحول بينهم وبين الأمر بمكة وحجابه البيت. فأنحازوا عنه وصاروا إلى صوفة، فأجمع قصي لحربهم واستمد من إخوانه من الرضاعة في بني عذرة من قضاة، وقيل أنهم وافوا يريدون الحج فأعانوه، فاقتتلوا قتالاً شديداً بالأبطح وكثرت القتلى في الفريقين ثمّ تداعوا إلى الصلح بالتحاكم إلى يعمر بن عوف من بني كنانة، ففضى بينهم بأن قصياً أولى بالبيت وأمر مكة من خزاعة، وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر فهو موضوع، وأن ما أصابت خزاعة وبني بكر من قريش ففيه الدية، فودّوا خمساً وعشرين بدنة وثلاثين حرجاً، أي قطعاً من الغنم.

وروى بعضهم: أنه لما تزوج قصي حبيّ ابنة حليل الخزاعي، أوصى حليل عند موته بولاية البيت إلى قصي.

وقال آخرون: بل دفع حليل الخزاعي مفتاح البيت إلى أبي غبشان سليمان بن عمرو، فاشتراه قصي منه بزقّ خمر على إيل قعود - وهي الناقة التي يقتعدها

(١) مروج الذهب ٢: ٣٠ ويقصد بالصّفر الأوّل: محرم.

الراعي في كل حاجته - فجرى مثلاً في العرب فقالوا: أخس من صفقة أبي غبشان. ووثبت خزاعة فقالت: لا نرضى بما صنع أبو غبشان، ف وقعت بينهم الحرب.

فولي قصي البيت وأمر مكة والحكم^(١) واستقام أمره فعشر على من دخل مكة من غير قريش^(٢) ولم يكن في الحرم بمكة بيت، إنما كانوا يكونون بها نهاراً فاذا أمسوا خرجوا، وكانوا في الشعاب ورؤوس الجبال، فجمع قصي قبائل قريش فقسّم بينهم منازلهم فأمر لقبائل قريش بالأبطح بمكة، وقسمه بينهم أرباعاً، فكانت قريش كلها بالأبطح خلا بني محارب والحارث ابن فهر، وبني تميم الأدرم، وبني عامر بن لؤي، فانهم نزلوا الظواهر.

فلما استقامت له الامور قدم البيت فبناه بنياناً لم يبينه أحد، كان طول جدرانها تسع أذرع فجعله ثمانى عشرة ذراعاً، وسقف البيت بخشب شجر الدوم - وهو شجر ضخم يشبه النخل - وبني دار الندوة الى جانب الصفا. فكانوا لا يتشاورون في أمر ولا يعقدون لواء للحرب ولا يختنون، ولا يتناكحون إلا في دار الندوة. وحفر بئر العجول^(٣).

وقال ابن اسحاق: حدثني أبي اسحاق بن يسار عن الحسن بن محمد ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعته يقول: فولي قصي البيت وأمر مكة، فكانت اليه الحجابة - وهي مفاتيح البيت - والسقاية، والرفادة وأخذ لنفسه دار الندوة^(٤).

(١) اليعقوبي ١: ٢٣٨ - ٢٤٠ وكان ذلك في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي كما في سيرة المصطفى: ٣٠.

(٢) مروج الذهب ٢: ٣٢.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٤٠.

(٤) صارت الدار في الإسلام الى حكيم بن حزام بن خويلد فاشتراها منه معاوية بمائة ألف درهم وأدخلها في المسجد.

جعل بابها إلى جهة الكعبة، فكانت قريش تقضي أمورها فيه، فكانوا لا يتشاورون في أمر نزل بهم، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره - دار الندوة - يعقده لهم أحد ولده، حتى الجارية من قريش كانت إذا بلغت أن تتدرّع - أي تلبس الدَّرَاعَة وهي ستر كالعباءة القصيرة - لم تكن تتدرّع إلا في داره - دار الندوة - ففيها كان يشقّ لها درّاعتها ثم ينطلق بها أهلها^(١).

وكان قصي هو الذي فرض الرّفاة على قريش وأمرهم بها فقال «يامعشر قريش! إنكم جيران الله وأهل بيته، أهل الحرم، وإنّ الحاجّ ضيف الله وزوّار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم».

فكانوا يخرجون لذلك كلّ عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه فيصنعه طعاماً للناس أيام منى، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد وجرى ذلك فيهم حتى ظهر الإسلام.

فلما كبر قصي ودقّ عظمه، رأى أن عبد مناف قد شرف في زمانه وهو ثاني أبنائه وبكره هو عبد الدار، فقال له: أما والله يا بني لا لحقنك بهم وإن كانوا قد شرفوا عليك: لا يدخل الكعبة رجل حتى تفتحها أنت لهم، ولا يعقد أحد لواء حرب لقريش إلا أنت، ولا يشرب أحد بمكّة إلا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك، ولا تقطع قريش أمراً من أمورها إلا في دارك. فأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفاة ودار الندوة التي لا تقضي أمراً من أمورها إلا فيها، فجعل إليه قصي كلّ ما كان بيده من أمر قومه، وكان قصي لا يخالف ولا يُرد عليه شيء صنعه^(٢).

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٣١ - ١٣٢.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٣٦ - ١٣٧.

وقال اليعقوبي: إن قصياً قسّم أمره بين ولده: فجعل السقاية والرئاسة لعبد مناف، والدار لعبد الدار، والرفادة لعبد العزى، وحافتي الوادي لعبد قصي. ومات قصي ودفن بالحجون.

ورأس عبد مناف بن قصي وجلّ قدره وعظم شرفه، ولما كبر أمره جاءته خزاعة وبنو الحارث من كنانة فسألوه أن يعقد بينهم الحلف ليعزّوا به، فعقد بينهم الحلف الذي يقال له: حلف الأحابيش.

وولد لعبد مناف: هاشم - وأسمه عمرو - وعبد شمس، والمطلب ونوفل، وأبو عمرو، وحنّة، وتماضر، وأربع بنات.

وشرف هاشم بعد أبيه وجلّ أمره، واصطلحت قريش على أن يولّوا هاشماً الرئاسة والسقاية والرفادة^(١).

حلف المطيبين وحلف اللعقة:

روى ابن إسحاق عن أبيه إسحاق بن يسار، عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب أنه قال لنبیه بن وهب الهاشمي: إن قصي بن كلاب جعل كلّ ما كان بيده من أمر قومه إلى عبد الدار، وكان قصي لا يخالف ولا يردّ عليه شيء صنعه، فأقامت قريش على ذلك ليس بينهم اختلاف وتنازع، حتّى أنتهى الأمر في عبد الدار إلى حفيده: عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار.

ثمّ أجمع بنو عبد مناف بن قصي: عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل، أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قصي وما جعله اليهم من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم،

فتفرقت عند ذلك قريش: فكانت طائفة مع بني عبد مناف على رأيهم يرون أنهم أحق به من بني عبد الدار لمكانهم في قومهم، وطائفة مع بني عبد الدار يرون أن لا ينزع منهم ما كان قصي جعل اليهم.

فكان مع بني عبد مناف بنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو زهرة ابن كلاب، وبنو تميم بن مرة، وبنو الحارث بن فهر.

وكان مع بني عبد الدار: بنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جمح، وبنو عدي بن كعب. وعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً:

فيزعمون أن بعض نساء بني عبد مناف أخرجت لهم جفنة مملوءة طيباً، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا مع حلفائهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسمّوا (المطيبين).

وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا مع حلفائهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً، فسمّوا (الأحلاف).

ثم تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف: السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت، فرضي كل واحد من الفريقين بذلك وتحاجزوا عن الحرب^(١) هكذا يقتصر هذا الخبر على ذكر بني عبد مناف وبني عبد الدار دون ذكر شخص خاص منهم، ولكنه بدأ بذكر عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، من بني عبد الدار، فلا يناسب أن يكون معارضة المعاصر هاشم بن عبد مناف بن قصي، بل إما عبد المطلب أو أحد أبنائه ليتمكن أن يكون متزامناً معه معاصراً له من حيث سلسلة النسب.

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٣٧ - ١٤٠.

واختصر اليعقوبي هذا فقال: واصطلحت قريش على أن يولّوا هاشماً الرئاسة والسقاية والرفادة^(١) والظاهر أنه يريد من «هاشماً» هنا بني هاشم لا هاشم نفسه، والمقصود من بني هاشم هو عبد المطلب أبه، كما أنه قد ذكر بشأن عبد المطلب: أن بني عبد الدار لما رأوا حال عبد المطلب وأنه قد حاز الفخر مشوا الى بني سهم فقالوا لهم: امنعونا من بني عبد مناف! فلما رأى ذلك بنو عبد مناف: بنو المطلب وبنو هاشم وبنو نوفل - واختلف في بني عبد شمس فقال الزبيري: لم يكونوا فيهم - اجتمعوا، فخرجت أم حكيم بنت عبد المطلب وأخرجت طيباً في جفنة فوضعتها في الحجر، فتطيّب بنو عبد مناف، وأسد، وزهرة، وبنو تيم، وبنو الحارث، فسَمّي حلفهم: حلف المطّيين.

فلما سمعت بذلك بنو سهم ذبحوا بقرة وقالوا: من أدخل يده في دمها ولحق منه فهو منّا، فأدخلت أيديها بنو عبد الدار، وبنو سهم، وبنو جمح، وبنو عدي، وبنو مخزوم، فسَمّي حلفهم: حلف اللعقة^(٢).

رحلة الشتاء والصيف:

قال اليعقوبي: وكان هاشم أوّل من سنّ الرحلتين: رحلة الشتاء الى الشام ورحلة الصيف الى الحبشة واليمن.

(١) اليعقوبي ١: ٢٤٢.

(٢) اليعقوبي ١: ٢٤٨. وفي ج ٢: ١٧ ذكر حلف الفضول فقال «وحضر رسول الله حلف الفضول وقد جاوز العشرين» وقد قال في وفاة عبد المطلب: وتوفي عبد المطلب ورسول الله ثماني سنين ٢: ١٣ إذن فحلف الفضول كان بعد اثني عشر عاماً بعد عبد المطلب: أمّا الذي كان على عهد عبد المطلب فإنما هو حلف اللعقة (حلف الأحلاف) دون حلف الفضول، أمّا حلف الفضول فقد تأخر عنه بأكثر من اثني عشر عاماً ولم أر من تنبّه له.

وذلك أن تجارة قريش كانت لا تعدو مكة فكانوا في ضيق، حتى ركب هاشم إلى الشام إلى قيصر، فقال له: أيها الملك إن لي قوماً من تجار العرب، فتكتب لهم كتاباً يؤمنهم ويؤمن من تجاراتهم حتى يأتوا بما يستطرف من آدم^(١) الحجاز وثيابه. ففعل قيصر ذلك، فانصرف هاشم فجعل كلما مرّ بحيّ من أحياء العرب أخذ من أشرافهم الأيلاف - أي العهد - أن يأمنوا عندهم وفي أرضهم، فأخذ الإيلاف من الشام إلى مكة^(٢) وذلك قول الله تعالى: ﴿لَا يَلَابِ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(٣). وخرج هاشم بتجارات عظيمة يريد الشام، فجعل يمر بأشراف العرب فيحمل لهم التجارات ولا يلزمهم لها مؤونة حتى صار إلى «غزة» فتوفي بها. وأنما لقب بهاشم - وأسمه عمرو - لانه كان يهشم الخبز ويصبّ عليه المرق واللحم فيطعمهم بمكة ومنى وعرفات والمزدلفة يترد لهم الخبز في السمن واللحم والسويق، ويأمر بحياض من آدم فتجعل في موضع زمزم، فيسقي الناس فيها من الآبار التي بمكة^(٤) أما زمزم فقد كانت جرهم طمته ولم يحفر بعد. وقد نقل اليعقوبي خبراً عن تاجر من بني كلاب حضر موسم الحج فوصف لنا كيفية رفادة هاشم فقال:

قال الأسود بن شعر الكلبي: كنت عسيفاً - أي عاملاً - لعقيلة من عقائل الحيّ، أركب الصعبة والذلول، لا أبقى مطرحاً من البلاد أرتجي فيه ربحاً من الأموال إلا ركبته إليه من الشام بأثائه وخرثته - أي متاعه - أريد كبة العرب أي جماعتهم.

(١) الآدم بفتحين: جمع الأديم: الجلد المدبوغ، والآدم بضمين: جمع الأدام للطعام.

(٢) اليعقوبي ١: ٢٤٤.

فعدت من الشام وقد دهم الموسم، فدفعت الى الموسم مسدفاً -أي ليلاً- فحبست الركاب حتى انجلى عني قيض الليل، واذا جزر تنحر وأخرى تساق للنحر، وطهاة يطهون الطعام للأكل. فبهمني ما رأيت فتقدمت أريد عميدهم. وعرف رجل شأني فقال: أمامك، فدنوت، فإذا رجل على عرش سام، تحته نمرقة، قد كار -أي لفّ- عمامة سوداء، وأخرج من ملائها جمّة شعر فينانة -أي كفن الشجر في الطول والحسن- كان الشعرى تطلع من جبينه وفي يده منحصرة، وحوله مشيخة جلّة، منكسّوا الأذقان، ما منهم احد يُفيض بكلمة، ودونهم خدام مشعرون الى أنصافهم، واذا برجل مجهر على نشز من الأرض ينادي: يا وفد الله هلمّوا الى الغداء، وإنسيان على طريق من طعم يناديان: يا وفد الله من تغدّ فليرجع الى العشاء. فقلت لرجل كان الى جانبي: من هذا؟ أريد العميد؟ فقال: أبو نضلة هاشم بن عبد مناف. فخرجت وأنا اقول: هذا والله المجد، لا مجد آل جفنة!

وكان هاشم لما أراد الخروج الى الشام حمل امرأته وأبنة شيبه بن هاشم ليجعل أهله عند أهلها بالمدينة «يثرب» بني عدي بن النجار.

ولما بلغ نبأ وفاة هاشم الى مكة قام بأمر مكة بعده أخوه المطلب بن عبد مناف. فلما كبر شيبه بن هاشم وبلغ المطلب بن عبد مناف وصف حال شيبه ابن أخيه هاشم، خرج الى المدينة حتى دخلها عشاءً -أي قرب العشية- فأتى بني عدي بن النجار وعرفه القوم ورأى غلاماً على ما وُصف له فقال: هذا ابن هاشم؟ قال القوم: نعم، فذهب به معه.

ودخل المطلب مكة وخلفه شيبه بن هاشم، والناس في أسواقهم ومجالسهم، فقاموا يرحبون به ويحيونه ويسألونه: من هذا معك؟ فيقول: عبدي أبتعته يثرب! ثم دخل سوق الحزورة -الى جانب المسجد الحرام- فابتاع له حلة، ثم أدخله داره.

فلما كان العشي - أي العصر - ألبسه الحلة، ثم خرج به معه فأجلسه معه في مجلس بني عبد مناف فأخبرهم خبره. ولكن غلب عليه أسم: عبد المطلب. وأراد المطلب أن يشارك في رحلة الشتاء الى اليمن، فقال لعبد المطلب: أنت يا بن أخي أولى بموضع أبيك، فقم بأمر مكة. ثم رحل فتوفي في سفره ذلك بردمان - من حصون اليمن - فقام عبد المطلب بأمر مكة وساد وشرف. وأقرت له قريش بالشرف^(١).

حفر بئر زمزم:

قال الكليني: كان في الكعبة خمسة أسياف وغزالان من ذهب، فلما غلبت خزاعة على جرهم في الحرم القلت جرهم الأسياف والغزالين في بئر زمزم، والقوا فيها الحجارة وطمّوها وعمّوا أثرها، فلما غلب قصي على خزاعة لم يعرفوا موضع زمزم^(٢).

وقال اليعقوبي: قال محمد بن الحسن: لما تكامل لعبد المطلب مجده وأقرت له قريش بالفضل رأى في المنام وهو في الحجر أن آتياً أتاه فقال له: قم يا أبا البطحاء وأحفر زمزم حفيرة الشيخ الأعظم^(٣).

وروى ابن إسحاق بثلاث وسائط عن علي بن أبي طالب أنه قال: قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال: أحفر طيبة، قال: قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني. فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: أحفر برة،

(١) اليعقوبي ١: ٢٤٤ - ٢٤٦.

(٢) الكافي ٤: ٢١٩، الباب ٩، الحديث ٦ بلا إسناد.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٤٦.

قال: قلت: فما برة؟ قال: ثم ذهب عني؟ فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فتمت فيه، فجاءني فقال: أحفر المذنونة، قال: فقلت: وما المذنونة؟ قال: ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فتمت فيه فجاءني فقال: أحفر زمزم، قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبداً ولا تؤذم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرت والدم، عند نقرة الغراب الأعصم^(١)، عند قرية النمل.

فلما بين له شأنها ودلّ على موضعها وعرف أنه قد صدق الرؤيا غدا بمغوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب - ليس له يومئذ ولد غيره - فحفر فيها. فلما بدا لعبد المطلب الحجارات التي طوي بها البئر عرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر أبينا اسماعيل، وإن لنا فيها حقاً فاشركنا معك فيها، قال: ما أنا بفاعل إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم. فقالوا له: فانصفنا فإننا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها! قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه قالوا: كاهنة بني سعد هذيم. قال: نعم. وكانت بأشراف الشام.

فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض المفاوز بين الحجاز والشام فني ماء عبد المطلب وأصحابه فظموا حتى أيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا: إننا بمفازة، ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم. فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف منه على نفسه وأصحابه قال لهم: إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه بما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرة ثم واروه، حتى يكون آخركم واحداً،

(١) الغراب الذي في جناحيه بياض. وحكاة الكليني في الكافي ٤ : ٢١٩، الباب ٩، الحديث ٦

فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعاً. قالوا: نعم، وقام كل واحد منهم فحفر حفرة ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً.

ثم قال عبد المطلب لأصحابه: ارتحلوا فعمى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، وتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها، فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين من ماء عذب، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه وأستقوا حتى ملأوا أسقيتهم. ثم دعا سائر قريش فقال: هلموا إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا وأستقوا. فجاؤا فشربوا وأستقوا، ثم قالوا: قد - والله - قضى لك علينا يا عبد المطلب، فلا نخاصمك في زمزم أبداً، فإن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً. فرجعوا^(١).

وروى اليعقوبي عن محمد بن الحسن أنه قال: كانت قريش تفسد ذلك الحوض الذي كان يسقي منه عبد المطلب وتكسره، فرأى في المنام أيضاً: أن قم فقل: اللهم إني لا أحله لمغتسل إنما هو حل للشارب. فقام عبد المطلب فقال ذلك، فلم يكن يفسد ذلك الحوض أحد إلا رُمي بداء من ساعته، فتركوه.

وكان - لما حفر - وجد سيوفاً وسلاحاً وغزلاً - من ذهب - مقرطاً مجزأ ذهباً وفضة! فلما رأت قريش ذلك قالوا: يا أبا الحارث! أعطنا من هذا المال الذي أعطاك الله فإنها بئر أبينا إسماعيل فاشركنا معك، فقال: امهلوني. فلما استقام له الأمر جعل الذهب صفائح على باب الكعبة، وكان أول من حلّى الكعبة بعد حلّها على عهد جرهم^(٢).

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٥٠ - ١٥٣. ورواه عنه المعتزلي في شرح النهج ١٥: ٢٢٨

واختصره اليعقوبي ١: ٢٤٨.

(٢) اليعقوبي ١: ٢٤٦، ٢٤٧ ورواه الكليني عن علي بن إبراهيم مرفوعاً في فروع الكافي

وقال المسعودي: حفر عبد المطلب بن هاشم بئر زمزم، وكانت مطوية، و
ذلك في ملك كسرى قباد، فاستخرج منها غزالي ذهب عليها الدرر والجوهر وغير
ذلك من الحلي، وسبعة أسياف قلعية وسبعة أدرع سوابغ، فضرب من الأسياف باباً
للكعبة، وجعل إحدى الغزالين صفائح ذهب في الباب، وجعل الاخرى في الكعبة
وجعل باب الكعبة مذهباً^(١).

الفصل الثاني

كيف نشأ النبي ﷺ

آباء النبي ﷺ

إيمان عبد المطلب:

قال المسعودي: قد تنازع الناس في عبد المطلب: فمنهم من رأى أن عبد المطلب وغيره من آباء النبي -صلى الله عليه [وآله] وسلم- كان مشركاً إلا من صحَّ إيمانه. ومنهم من رأى أن عبد المطلب كان مؤمناً موحداً وأنه لم يشرك بالله عز وجل، ولا أحد من آباء النبي -صلى الله عليه [وآله] وسلم- وأنه نُقل في الأصلاب الطاهرة، وأنه -صلى الله عليه [وآله] وسلم- أخبر: أنه وُلد من نكاح لا من سفاح. وهذا موضع فيه تنازع بين الإمامية وغيرهم من الفرق في النص والأختيار: وليس كتابنا هذا للحجاج فنذكر حجة كل فريق منهم.

وكان عبد المطلب يوصي ولده بصلة الأرحام وإطعام الطعام ويرغبهم ويرهبهم فعل من يرقب معاداً وبعثاً ونشوراً، وقد أوصى أبا طالب بالنبي -صلى الله عليه [وآله] وسلم-^(١).

(١) مروج الذهب ٢: ١٠٣ و ١٠٨.

وروى الصدوق في (الخصال) بسنده عن الصادق عليه السلام: أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - قَالَ لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ عَبْدَ الْمَطْلَبِ سَنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خَمْسَ سَنَنٍ أَجْرَاهَا اللَّهُ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ: حَرَّمَ نِسَاءَ الْأَبَاءِ عَلَى الْأَبْنَاءِ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾^(١) وَوَجَدَ كَنْزاً^(٢) فَأَخْرَجَ مِنْهُ الْخُمْسَ وَتَصَدَّقَ بِهِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾^(٣). وَلَمَّا حَفَرَ بَنُو زَمْزَمَ سَمَاهَا: سَقَايَةَ الْحَاجِّ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٤). وَسَنَّ عَبْدَ الْمَطْلَبِ فِي الْقَتْلِ مِئَةَ مِنَ الْإِبِلِ فَأَجْرَى اللَّهُ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ. وَلَمْ يَكُنْ لِلطَّوَافِ عِدَدٌ عِنْدَ قَرِيشَ فَسَنَّ فِيهِمْ عَبْدَ الْمَطْلَبِ سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ فَأَجْرَى اللَّهُ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ. يَا عَلِيُّ! إِنَّ عَبْدَ الْمَطْلَبِ كَانَ لَا يَسْتَقْسِمُ بِالْأَزْلَامِ، وَلَا يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَلَا يَأْكُلُ مَا ذَبَحَ عَلَى النَّصَبِ، وَيَقُولُ: أَنَا عَلَى دِينِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٥).

وروى الكليني في (الكافي) رواية عن الصادق عليه السلام بثلاث طرق: عن مقرر وزرارة ومفضل بن عمر عنه عليه السلام قال: يُحْشَرُ عَبْدَ الْمَطْلَبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ، عَلَيْهِ سِمَاءُ الْأَنْبِيَاءِ وَهَيْبَةُ الْمُلُوكِ^(٦).

وروى الشيخ المفيد في (الإختصاص) بسنده عن عبد الرحمن بن خالد مولى

(١) النساء: ٢٢.

(٢) يمكن أن يكون المقصود منه ما وجده مما كانت جرهم قد دفنته في بئر زمزم من هدايا الكعبة، كما مر.

(٣) الأنفال: ٤١.

(٤) التوبة: ١٩.

(٥) الخصال: ٣١٢، وعيون أخبار الرضا وكتاب من لا يحضره الفقيه كما في جامع أحاديث الشيعة ٨: ٥٣٨.

(٦) أصول الكافي ١: ٤٤٦ و ٤٤٧، أي وحده في الإيمان دون معاصريه.

المنصور العباسي قال: أخرج اليّ بعض ولد سليمان بن علي العباسي كتاباً بخطّ عبد المطلب وإذا هو شبيه بخطّ الصبيان وهو: بسمك اللهم، ذكر حقّ عبد المطلب بن هاشم من أهل مكّة على فلان بن فلان الحميري من أهل زول^(١) صنعاء، عليه ألف درهم فضة طيبة كيلاً بالحديد، ومتى دعاه بها أجابه، شهد الله والمكان^(٢). وهذا يدلّ على إيمانه بالله والملائكة.

وقال اليعقوبي: إنّه كان يوحد الله عزّ وجلّ، وقد رفض عبادة الأصنام، وسنّ سنناً سنّها رسول الله ونزل بها القرآن، وهي: الوفاء بالنذر، ومئة من الإبل في الدية، وأن لا تنكح ذات محرم، ولا تؤثّق البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل المؤدّة، والمباهلة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا والحدّ عليه، والقرعة، وأن لا يطوف أحد بالبيت عرياناً، وإضافة الضيف، وأن لا ينفقوا إذا حجّوا إلّا من طيب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذوات الريات فكانت قريش تقول: عبد المطلب ابراهيم الثاني^(٣).

وقال الشهرستاني في (الملل والنحل): كان يأمر ولده بترك الظلم والبغي ويحثّهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيّات الأمور، وكان يقول في وصاياه: إنّه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتّى يُنتقم منه وتصيبه عقوبة، وهلك رجل ظلوم لم تصبه عقوبة فليل لعبد المطلب في ذلك ففكر فقال: والله إنّ وراء هذه الدار داراً يُجزى فيها المحسن بإحسانه ويُعاقب فيها المسيء بإساءته^(٤).

(١) ذكره ياقوت في معجم البلدان فقال: اسم مكان باليمن وجد بخط عبد المطلب بن هاشم.

(٢) الاختصاص: ١٢٣ وذكره ابن النديم في الفهرست. ولا تؤكّد نسبة الكتاب الى الشيخ المفيد.

(٣) اليعقوبي ٢: ١٠، ١١.

(٤) الملل والنحل للشهرستاني نقلاً عن البحار ١٥: ١٢١. وللتفصيل انظر الصحيح

أبناء عبد المطلب والذبيح منهم:

روى الصدوق في (الخصال) بسنده عن الصادق عن أبيه عليه السلام عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: سئل رسول الله ﷺ عن ولد عبد المطلب فقال: عشرة والعباس. يعني أحد عشر رجلاً.

ثم قال الصدوق: أسنهم الحارث - وبه كان يكنى عبد المطلب - وعبد العزى وهو أبو لهب، وأبو طالب - وهو عبد مناف - وضرار، والزبير، والغيداق، والمقوم، والحجل، وحمزة، والعباس، وعبد الله^(١).

وروى فيه بسنده عن الباقر عليه السلام قال: كان عبد المطلب ولده تسعة، فنذر في العاشر: إن رزقه الله غلاماً: أن يذبحه فلما ولد عبد الله لم يكن يقدر أن يذبحه ورسول الله ﷺ في صلبه، فجاء بعشر من الأبل وساهم عليها وعلى عبد الله، فخرجت السهام على عبد الله، فزاد عشراً، فلم تزل السهام تخرج على عبد الله ويزيد عشراً، فلما أن بلغت مئة خرجت السهام على الأبل، فقال عبد المطلب: ما أنصفت ربّي، فأعاد السهام ثلاثاً فخرجت على الأبل فقال: الآن علمت أن ربّي قد رضي، فنحرها^(٢).

وروى في (عيون الأخبار) بسنده عن علي بن الحسن بن فضال قال: سألت الرضا عليه السلام عن معنى قول النبي ﷺ: أنا ابن الذبيحين؟ قال: «يعني إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام وعبد الله بن عبد المطلب» إلى أن قال: «فإن عبد المطلب كان قد تعلّق بحلقة باب الكعبة ودعا الله أن يرزقه عشرة بنين، ونذر لله عز وجل أن يذبح واحداً منهم متى أجاب الله دعوته.

(١) الخصال ٢: ٤٥٢، ٤٥٣.

(٢) الخصال ١: ١٥٦، وكتاب من لا يحضره الفقيه ٣: ٨٩ عن حماد بن عيسى عن حريز عن أخبره. ففيه ارسال، وبه وبغيره أشكال محقّقه الغفاري، فراجعه.

فلما بلغوا عشرة قال: قد وفى الله لي، فلاوفين لله عزوجل: فأدخل ولده الكعبة وأسهم بينهم، فخرج سهم عبد الله أبي رسول الله ﷺ وكان أحب ولده إليه، ثم أجالها ثانية فخرج سهم عبد الله، ثم أجالها ثالثة فخرج سهم عبد الله! فأخذه وعزم على ذبحه! فاجتمعت قريش ومنعته من ذلك، واجتمع نساء عبد المطلب يبكين ويصحن، وقالت ابنته عاتكة: ياأبتاه اعذر فيما بينك وبين الله في قتل ابنك. قال: وكيف اعذر يا بنيّة؟ قالت: اعمد الى تلك السوائم التي لك في الحرم فاضرب القداح على ابنك وعلى الإبل واعط ربك حتى يرضى.

فبعث عبد المطلب الى إبله فأحضرها وعزل منها عشراً وضرب بالسهم فخرج سهم عبد الله، فما زال يزيد عشراً عشراً حتى بلغت مئة، فضرب فخرج السهم على الإبل، فكبرت قريش تكبيرة إرتجت لها جبال تهامة! فقال عبد المطلب: لا، حتى أضرب بالقداح ثلاث مرات فضرب ثلاثاً كل ذلك يخرج السهم على الإبل! فلما كانت في الثالثة إجتذبه الزبير وأبو طالب واخواتهما من تحت رجله فحملوه - وكان خذه على الأرض فانسخت جلدة خذه - وأقبلوا يرفعونه ويقبلونه ويمسحون عنه التراب. وأمر عبد المطلب أن تنحر الإبل بالحزورة^(١) ولا يمنع أحد منها.

فكانت لعبد المطلب خمس من السنن أجراها الله عزوجل في الإسلام: حرّم نساء الآباء على الأبناء، وسنّ الدية في القتل مئة من الإبل، وكان يطوف بالبيت سبعة أشواط، ووجد كنزاً^(٢) فأخرج منه الخمس، وسمّى زمزم حين حفرها:

(١) الحزورة كدحرجة: تل معروف في مكّة كان يتخذ سوقاً - كما في الصحاح وقد نقل الخبر ابن إسحاق في سيرته يقول: فيما يزعمون. ثم جاء بالخبر ناسباً الى عبد المطلب أنّه ذبح للأصنام: وهو مردود بما رويناه سنداً معتبراً عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

(٢) لعلّه - كما سبق - هو مادفنته جرهم في زمزم من هدايا الكعبة.

سقاية الحاج. ولولا أن عبد المطلب كان حُجة وأن عزمه على ذبح ابنه عبد الله شبيهاً بعزم إبراهيم على ذبح ابنه إسماعيل لما افتخر النبي ﷺ بالانتساب اليهما لأجل انهما الذبيحان، في قوله: أنا ابن الذبيحين. والعلة التي من أجلها دفع الله عز وجل الذبح عن إسماعيل هي العلة التي من أجلها دفع الذبح عن عبد الله، وهي كون النبي والأئمة المعصومين - صلوات الله عليهم - في صلبيهما، فببركة النبي والأئمة ﷺ دفع الله الذبح عنهما^(١).

قال يعقوبي: وكان اسم عبد الله (عبد الدار) أو (عبد قصي) فلما كان الفداء قال عبد المطلب: هذا عبد الله فسمّاه به^(٢) وكان ذلك بعد حفر زمزم بعشر سنين^(٣)، ولعبد الله ٢٠ سنة.

فربما يقال هنا: إن عبد المطلب الذي قال عنه المؤرخون: أنه كان يقطع يد السارق، ويمنع من طواف العراة، وينهى عن دتّيات الأمور، تاركاً للأصنام مجاب الدعوة.. كيف يسمّي أبناءه عبد مناف، ومناف اسم صنم، وعبد العزّي، والعزّي كذلك وثن من الأوثان، ثم كيف جاز له التصرف في شخص غيره - ولو ابنه - هذا التصرف؟ وهل لأحد أن يرى صحة نذر كهذا تكون الضحية فيه نفساً محترمة مثل عبد الله؟!

طرح هذا السؤال السيد المرتضى في (الصحيح من السيرة)^(٤) ثم نقل عن

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢١٢.

(٢) يعقوبي ٢: ٩.

(٣) يعقوبي ٢: ٩ يعلم ذلك بما ذكره في سنّ زواج عبد الله.

(٤) الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) السيرة ١: ٦٥ - ٧٠. ولا يخفى أن عبد العزّي لم يكن اسمه وإنما هو لقب غلب عليه واسمه المغيرة، ومناف ليس اسم صنم بل الصنم منات، ومناف يعني الطويل.

المحقق السيد محمد مهدي الروحاني القميّ أنّه أشار إلى: 'أنا نلاحظ أنّ عبد المطلب قد سار في إيمانه سيراً تكاملياً، فنجدّه في أوّل أمره يسمّي أبناءه عبد مناف وعبد العزّي، ولكنّه يتقدّم في إيمانه حدّاً يُرهّب به أبرهة الحبشي صاحب الفيل، ويقول عنه المؤرخون ما ذكروه وذكرناه، ولا شكّ أنّه بعد ميلاد حفيده محمد ﷺ لما رأى وسمع الكثير من العلامات الدالة على نبوته، وشهد وعاین الكثير من الدلالات والكرامات بأمّ عينيه، بلغ الحدّ الأعلى في إيمانه.

وعليه فلا مانع من أنّ يكون في أوّل أمره يرى لنفسه أنّ ينذر نذراً كهذا، وقد أمر الله نبيّه إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، ونذرت امرأة عمران ما في بطنها محرّراً لخدمة بيت المقدس. كما أشار إلى هذا ابن شهر آشوب فقال وتصور عبد المطلب أنّ ذبح الولد أفضل قرّة لما علم من أمر إسماعيل، ثمّ ذكر الخبر^(١).

الزواج الميمون

تزويج عبد الله بآمنة:

قال اليعقوبي: وبعد حفر زمزم بعشر سنين، وبعد الفداء عن عبد الله بسنة واحدة كان تزويجه بآمنة بنت وهب، وكان سنّه يوم تزويجها أربعاً وعشرين سنة^(٢).

وقال ابن إسحاق: خرج عبد المطلب بابنه عبد الله حتّى أتى به إلى دار وهب بن عبد مناف بن زهرة - وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً - فخطب ابنته آمنة لعبد الله، وكانت آمنة أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، فزوّجه إياها وأملكها.

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠ - ٢٢ بلا إسناد.

(٢) اليعقوبي ٢: ٩.

وفي داره دخل عبد الله على آمنة، فحملت برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -^(١).

وروى الطبرسي في (الاحتجاج) عن الكاظم عن علي عليه السلام أنه قال: إن آمنة بنت وهب رأت في المنام انه قيل لها: إن ما في بطنك سيّد، فإذا ولدته فسمّيه محمداً. ثم قال علي عليه السلام: فاشتقّ الله له اسماً من أسمائه، فإنّ الله المحمود وهذا محمد^(٢). وفي هذا المعنى روى الطبرسي في (إعلام الوري) عن سفيان بن عيينه أنّه قال: أحسن بيت قالته العرب هو قول أبي طالب للنبي ﷺ:

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٦٥، ورواه عنه الطبري ٢: ٢٤٣. هذا، وقد أورد المجلسي في (البحار) في باب بدء خلقته خبراً يتضمن تفصيلاً مطوّلاً في خطبة آمنة وزفافها استغرق من الطبعة الحديثة من ص ٢٦ إلى ١٠٤، أي ثمانين وسبعين صفحة من الجزء ١٥، قال في أوله «قال الشيخ أبو الحسن البكري استاذ الشهيد الثاني في كتابه المسمّى بكتاب الأنوار: حدثنا أشياخنا وأسلافنا الرواة لهذا الحديث عن أبي عمرو الأنصاري سألت كعب الأخبار ووهب بن منبه وابن عباس قالوا جميعاً: لما أراد الله أن يخلق محمداً قال لملائكته... وقال المجلسي في آخر الخبر: «أقول: إنّما أوردت هذا الخبر مع غرابته وإرساله للإعتدال على مؤلفه واشتماله على كثير من الآيات والمعجزات التي لا تنافيها سائر الاخبار بل تؤيدها» هذا، والشهيد الثاني استشهد سنة ٩٦٦ وقد حكى محقق البحار: الشيخ الربّاني عن «رياض العلماء» عن بعض المؤرخين: أنّه رأى نسخة عتيقة من كتاب «الأنوار الكبرى» تأريخ كتابتها سنة ٦٩٦ و«السمهودي في كتابه «تأريخ المدينة» الذي ألفه سنة ٨٨٨ ذكر البكري صاحب الأنوار فقال: إنّ سيرة البكري الكذب والبطلان! وعلى هذا فكيف يمكن أن يكون من مشايخ الشهيد الثاني؟! »

أمّا أبو الحسن البكري من مشايخ الشهيد الثاني فهو الصديقي الشافعي المتوفى بالقاهرة سنة ٩٥٢ كما في «شذرات الذهب» وليس هو صاحب كتاب الأنوار، ولكنّ التبس عند الشيخ المجلسي أحدهما بالآخر فأحسن به الظن كما قال، وأورد أخباره الباطلة الكاذبة في بحاره. سامحه الله وغفر له ولنا.

وشقّ له من اسمه كي يجلّه فذو العرش محمود وهذا محمد
ثمّ قال: وقال غيره: إنّ هذا البيت لحسان بن ثابت في قطعة له أوّلاً:
ألم تر أنّ الله أرسل عبده ببرهانه والله أعلى وأمجّد^(١)
وقال ابن إسحاق: ويتحدث الناس: أنّ آمنة بنت وهب كانت تحدّث: أنّها
حين حملت رأت أنّه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام، وقيل
لها: إنّك قد حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع إلى الأرض فقول: أعيذه بالواحد من
شر كلّ حاسد، ثمّ سمّيه محمداً^(٢).

ثمّ روى بسنده عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أنّه حدّث عن حليلة
بنت أبي ذؤيب السعدية عن آمنة بنت وهب أنّها قالت لها: رأيت حين حملت به
أنّه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام، ثمّ والله ما رأيت

(١) وروى السيد زيني دحلان: أنّ أمّه ذكرت ما فات لعبد المطلب فسماه محمداً (ص) ولكنها
هي سمّته أحمد، ثمّ ذكر خمسة أبيات من شعر أبي طالب (رض) يسمّي النبي فيها بأحمد (إنسان
العيون في سيرة الأمين المأمون، المعروف بالسيرة الحلبية ٩٢ - ١٠٠).

(٢) سيرة ابن هشام ١: ١٦٦ وعنه الطبري ٢: ١٥٦ وعنه ابن شهر آشوب في المناقب ١: ٢٩:
بينما روى مثله القمي في تفسيره: ٣٤٩ والصدوق في إكمال الدين ١: ١٩٦ عنه عن أبان بن
عثمان الأحمر البجلي الكوفي مرفوعاً. والقطب الراوندي في الخرائج والجرائح ١: ٦٩ الحديث
١٢٩ عن الصادق عليه السلام. وقال في (الروض الأنف) وابن فورك في (الفصول): أنّ أحيحة بن
جلاح وحران بن ربيعة وسفيان بن مجاشع كانوا قد التقوا بمن له علم بالكتاب الأوّل
فأخبروهم بمبعث النبي وباسمه، فلمّا سمعوا بذكر رسول الله وقرب زمانه وأنّه من الحجاز
طمعوا أن يكون ولدأهم فسمّوا أبناءهم باسمه محمداً، ولا يعرف من تسمّى بهذا الاسم قبله إلّا
هؤلاء الثلاثة في العرب. هذا، ولكنّ السيد زيني دحلان في (السيرة الحلبية ١: ٩٣) بلغ بعدد
من تسمّى بهذا الاسم إلى ستة عشر رجلاً وذكر شعراً في ذلك يقول:

إنّ الذين سمّوا باسم محمّد من قبل خير الناس ضعف ثمان

من حمل قط كان أخفّ عليّ ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته واضعاً يديه على الأرض رافعاً رأسه الى السماء.

ثم روى بسنده عن ثور بن يزيد: أن نقرأ من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - قالوا له: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخى عيسى، وحين حملت بي أمي رأت أنّه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام^(١). فلعلّ قوله في بداية هذا الحديث قبل هذا «ويستحدث الناس» ليس إشارة الى وهن الخبر بل الى اشتهاه بين الناس، كما رواه الطبرسي

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٧١ - ١٧٥ وروى الطبري بسنده عن ثور بن يزيد الشامي عن مكحول الشامي عن شداد بن أوس، قال: بينا نحن جلوس عند رسول الله! إذ أقبل شيخ كبير من بني عامر وهو سيدهم، يتوكأ على عصا، فثل بين يدي النبي قائماً وقال: يا بن عبد المطلب! إنّي انبئت أنّك تزعم أنّك رسول الله الى الناس، أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء، ألا وإنّك فوّتت بعظيم، وإنّما كانت الأنبياء والخلفاء في بيتين من بني إسرائيل، وأنت بمنّ (أي من قوم) يعبد هذه الحجارة والأوثان فمالك وللنبوة؟! ولكن لكلّ قول حقيقة فأنبئني بحقيقة قولك وبدء شأنك.

فأعجب النبي بمسألته وقال له: يا أخا بني عامر! إنّ لهذا الحديث الذي تسألني عنه نبأ ومجلساً، فاجلس، فثنى رجله وجلس. فقال له النبي: يا أخا بني عامر إنّ حقيقة قلبي وبدء شأني: إنّني دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخى عيسى بن مريم، وإنّي كنت بكر أمي.. ثمّ إنّ أمي رأت في المنام أنّ الذي في بطنها نور، وإنّما قالت: فجعلت أتبع بصري النور والنور يسبق بصري حتّى أضاءت لي مشارق الأرض ومغاربها (الطبري ٢: ١٦١). ورواه بنفس السند (الكازروني) في (المنتقى في مولود المصطفى) وقد أخرج ابن أبي الحديد مختصره في (شرح نهج البلاغة) عن الطبري.

والظاهر أنّ هذا الخبر هو ما رواه ابن إسحاق عن ثور بن يزيد إلا أنّه نسي السند بعده فقال: «عن بعض أهل العلم ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعي» وقد توفي خالد سنة ١٠٨ كما عن (تهذيب التهذيب) ولعله لهذا إنّما نقل قطعة من الخبر بالمعنى.

في (إعلام الوري) وبدأ بقوله: فمن ذلك ما استفاض في الحديث أن أم رسول الله ﷺ لما وضعت رأت نوراً^(١).

وروى يعقوب عن الصادق عليه السلام: أنه كان بين تزويج أبي رسول الله ﷺ بأمه وبين مولده عشرة أشهر.

الميلاد الميمون

قال: وروي عن أمه إنها قالت: لما وضعت رأيت نوراً ساطعاً بدا مني حتى أفزعني، ولم أر شيئاً مما يرينه النساء.

قال: وروى بعضهم: أنها قالت: سطع مني النور حتى رأيت قصور الشام. ولما وقع إلى الأرض قبض قبضة من تراب، ثم رفع رأسه إلى السماء^(٢).

(١) إعلام الوري ١: ٥٥.

(٢) روى مفصل الخبر علي بن إبراهيم القمي في تفسيره مرسلًا: عن آمنة أم النبي أنها قالت: لما حملت برسول الله ﷺ لم أشعر بالحمل ولم يصبني ما أصاب النساء من ثقل الحمل، ورأيت في نومي كأن آتيا أتاني فقال لي: قد حملت بخير الأنام.

ثم وضعت يتقي الأرض بيديه وركبتيه، ورفع رأسه إلى السماء وخرج مني نور أضاء ما بين السماء إلى الأرض، ورميت الشياطين بالنجوم وحجبوا من السماء، ورأت قریش الشهب تتحرك وتزول وتسير في السماء، ففزعوا وقالوا: هذا قيام الساعة، واجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة - وكان شيخاً كبيراً مجرباً - فسألوه عن ذلك فقال: انظروا إلى هذه النجوم التي يهتدي بها في ظلمات البر والبحر، فإن كانت قد زالت فهي الساعة، وإن كانت هذه ثابتة فهو لأمر قد حدث.

وكان بمكة رجل يهودي يقال له: يوسف، فلما رأى النجوم تتحرك وتسير في السماء خرج إلى نادي قریش فقال: يا معشر قریش! هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقالوا: لا، —

حملت به أمه في أيام التشريق عند الجمرة الوسطى. وكانت في منزل عبد الله.

→ فقال: أخطأتم والتوراة. قد ولد في هذه الليلة آخر الأنبياء وأفضلهم، وهو الذي نجده في كتبنا أنه إذا ولد ذلك النبي رجعت الشياطين وحجبوا من السماء.

فرجع كل واحد إلى منزله يسأل أهله: فقالوا: قد ولد لعبد الله بن عبد المطلب ابن.

فقال اليهودي: اعرضوه عليّ. فشوا معه إلى باب آمنة فقالوا لها: أخرجي ابنك ينظر إليه هذا اليهودي. فأخرجته في قاطه، فنظر في عينيه وكشف عن كتفه فرأى شامة سوداء عليه شعرات. فسقط إلى الأرض مغشياً عليه، فضحكوا منه. فقال: أتضحكون؟ يامعشر قريش! هذا نبي السيف ليبيدكنم، وذهبت النبوة من بني إسرائيل إلى آخر الأبد. وتفرق الناس يتحدثون بخبر اليهودي.

قال علي بن إبراهيم: فلما رميت الشياطين بالنجوم وأنكروا ذلك اجتمعوا إلى إيليس فقالوا: قد منعنا من السماء وقد رمينا بالشهب. فقال: اطلبوا فإن أمراً قد حدث في الدنيا. فرجعوا وقالوا: لم نر شيئاً. فقال إيليس: أنا له بنفسي. فجال ما بين المشرق والمغرب حتى انتهى إلى الحرم فرآه محفواً بالملائكة وجبريل على باب الحرم بيده حربة. فأراد إيليس أن يدخل فصاح به جبرئيل: إخساً يا ملعون: فجاء من قبل جِراء فصار مثل الصّدّ (الجبل المرتفع) ثم قال: يا جبرئيل حرف أسألك عنه؟ قال: وما هو؟ قال: ما هذا؟ وما اجتماعكم في الدنيا؟ فقال: هذا نبي هذه الأمة قد ولد وهو آخر الأنبياء وأفضلهم. قال: هل لي فيه نصيب؟ قال: لا. قال: ففي أمته؟ قال: بلى. قال: قد رضيت (تفسير القمي ١: ٣٧٣، ٣٧٤ ط النجف). ولنحتفظ في الذاكرة بقوله: «قال: هل لي فيه نصيب؟ قال: لا» لنقارنه بما سنقرأه في قصّة شق صدره ﷺ من أن جبرئيل خاصّة أخرج من صدره نصيب الشيطان!

ومع قول يوسف اليهودي في مكة في آخر الخبر السابق عن آمنة: «ذهبت النبوة من بني إسرائيل إلى آخر الأبد» لا يمكن أن نرmi الخبر بأنه يهودي من الاسرائيليات.

نعم في الخبر من الاستبعاد أن الوليد بن المغيرة معروف بما وصف به في الخبر ولكن عند ظهور الاسلام، فهل كان كذلك قبل ذلك بأكثر من أربعين عاماً، أي من قبل الأربعين من عمره حتى بعد الثمانين؟!

وولده في شعب أبي طالب في دار محمد بن يوسف^(١) في الزاوية القصوى عن يسار الداخل للدار، وقد أخرجت الخيزران ذلك البيت فصيرته مسجداً يصلي فيه الناس^(٢).

ونقل المجلسي عن كتاب (حدائق الرياض) و(التواريخ الشرعية) للشيخ المفيد أنه قال: السابع عشر من ربيع الأول مولد سيدنا رسول الله ﷺ عند طلوع الفجر من يوم الجمعة عام الفيل^(٣).

وقال الطبرسي: ولد يوم الجمعة عند طلوع الشمس، السابع عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل، وذلك لأربع وثلاثين سنة مضت من ملك كسرى أنوشيروان^(٤).

(١) قال المجلسي في هامش البحار: قال المؤرخون: كانت هذه الدار للنبي ﷺ فوهبها لعقيل بن أبي طالب، فباعها أولاده لمحمد بن يوسف أخ الحجاج الثقفي فاشترت بدار محمد بن يوسف فأدخلها في قصره الذي كانوا يسمونه البيضاء وبعد انقضاء دولة بني أمية حجت خيزران أم الهادي والرشد فأفرزتها من القصر وجعلتها مسجداً، وهو الآن يصلى ويزار فيه (البحار ١٥: ٢٥٠، ٢٥٢) وقال السيد الأمين في (أعيان الشيعة): وبقي المسجد في حالته تلك حتى استولى الوهابيون على مكة فهدموه ومنعوا من زيارته، على عادتهم في المنع عن التبرك بآثار الأنبياء والصالحين، بل جعلوه مريضاً للدواب (أعيان الشيعة ٣: ٧).

(٢) اصول الكافي ١: ٤٣٩، وذكره المسعودي ٢: ١٧٤.

(٣) بحار الانوار ١٥: ٢٥١. وكذلك في المقنعة: ٤٥٦.

(٤) اعلام الوري ١: ٤٢. ووصف كسرى فقال: «وهو قاتل مزدك والزنادقة ومبيريهم، وهو الذي زعموا أن رسول الله عنه فقال: ولدت في زمن الملك العادل الصالح» وهذا أول كتاب نراه ينقل هذا رسلاً بل موهناً له بأنه من زعم من زعمه من بعض الناس! ولم أجده قبل نقل الشيخ الطبرسي في أي كتاب من العامة والخاصة، بل مرّ خبر يخالفه أنه قال ﷺ: «هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم، وبني نصر» وقد انتصروا على كسرى أنوشيروان فكيف يصفه بأنه العادل الصالح؟! ←

وقال السيد ابن طاووس في (الإقبال): إن الذين أدركناهم من العلماء كان عملهم على أن ولادته المقدسة ﷺ كانت يوم الجمعة السابع عشر من ربيع الأول في عام الفيل عند طلوع فجره^(١).

ولذلك قال الشيخ المجلسي رحمه الله: أعلم أنه اتفقت الإمامية - إلا من شذ منهم - على أن ولادته ﷺ كانت في السابع عشر من شهر ربيع الأول، وذهب أكثر المخالفين إلى أنها كانت في الثاني عشر منه، واختاره الكليني رحمه الله^(٢).

→ وقال ابن شهر آشوب: ولد بمكة عند طلوع الفجر من يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول بعد خمسة وخمسين يوماً من هلاك أصحاب الفيل. وقالت العامة: يوم الاثنين الثامن أو العاشر منه. وروى رواية الطبرسي في انوشيروان ١: ١٧٢.

(١) اقبال الاعمال ٣: ١٢١ ط. قم المقدسة.

(٢) بحار الأنوار ١٥: ٢٤٨. وانظر وقارن: خاتمة قاموس الرجال ١٢: ٣ - ٤.

وأشار الشيخ الإربلي إلى الاختلاف في تأريخ ولادته ﷺ ثم قال: أقول: إن اختلافهم في يوم ولادته سهل، إذ لم يكونوا عارفين به وبما يكون منه، وكانوا أميين لا يعرفون ضبط مواليدهم، فأما اختلافهم في موته فعجيب! ولا عجب من هذا أيضاً مع اختلافهم في الأذان والإقامة، بل اختلافهم في موته أعجب، فإن الأذان ربما ادعى كل قوم أنهم روي فيه رواية، فأما يوم موته فيجب أن يكون معيناً معلوماً (كشف الغمة ١: ١٥).

ونقل السيد المرتضى في (الصحيح) هذا الكلام للإربلي ثم علق عليه يقول: وأعجب من ذلك اختلافهم في الكثير الكثير من الأمور التي كانوا يمارسونها مع النبي ﷺ عدة مرات يومياً طيلة أعوام عديدة، حتى أنك لتجدهم يروون التناقضات عنه ﷺ في أفعال الوضوء والصلاة، وهم كانوا يؤدونها معه خمس مرات يومياً، بل قد تجد بعضهم يقول: إنهم كانوا يعرفون أنه يقرأ في صلاة الظهر والعصر من اضطراب لحيته (الصحيح ١: ٨٠ نقلاً عن الصحيح للبخاري ٦: ٩٠ و ٩٣ ط ١٣٠٩ ومسنند أحمد ٥: ١٠ و ١٢ والسنن الكبرى للبيهقي ٢: ٣٧ و ٥٤ عن الصحيحين).

الوليد لدى جدّه وعقّه:

قال ابن إسحاق: فلما وضعت أمّه - صلى الله عليه [وآله] وسلم - أرسلت إلى جدّه عبد المطلب: إنّه قد ولد لك غلام فأتاه فانظر إليه. فأتاه فنظر إليه. فحدثته بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه وما أمرت به أن تسميه. فأخذه عبد المطلب فدخل به الكعبة وقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه^(١).

وروى القمي في تفسيره، وعنه الصدوق في «كمال الدين» والطوسي في أماليه والراوندي في «الخراج والخراج» عن الإمام الصادق عليه السلام عنه قال: أتى به عبد المطلب لينظر إليه وقد بلغه ما قالت أمّه، فأخذه فوضعه في حجره ثم عوّذه بأركان الكعبة وقال فيه شعراً:

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان

قد ساد في المهد على الغلمان^(٢)

وروى ابن شهر آشوب عن (كتاب الإبانة) لابن بطة قال: ولد النبي ﷺ مقطوع السرة مخزوناً، فحكى ذلك لجدّه عبد المطلب فقال: ليكوننّ لابني هذا شأن^(٣).

وروى الكليني بسنده عن الصادق عليه السلام قال: لما جاء آمنه بنت وهب داء المخاض حضرتها فاطمة بنت أسد امرأة أبي طالب فلم تنزل معها حتّى طلقت ووضعت، فقالت إحداها للأخرى: هل ترين ما أرى؟ فقالت: وما ترين؟ قالت: هذا النور الذي قد سطع ما بين المشرق والمغرب. وجاء أبو طالب

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٦٨، ١٦٩ ورواه الطبري عنه ٢: ١٥٧ بزيادة.

(٢) تفسير القمي: ٣٤٩ ط. قديم، وإكمال الدين ١: ١٩٦ ط. طهران، وأمالي الطوسي: ١٧١

ط. قديم، والخراج والخراج ١: ٦١-٧١، ح ١٢٩ ط. قم المقدّسة، ومناقب الحلبي ١: ٣٠.

(٣) المناقب ١: ٣٢.

فأخبرته فاطمة بالنور الذي قد رأت، فقال أبو طالب: أما إنك ستلدين غلاماً يكون وصي هذا المولود^(١).

وفاة عبد الله:

روى اليعقوبي عن الصادق عليه السلام أنه توفي بعد شهرين من مولد محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم قال: وقال بعضهم: إنه توفي قبل أن يولد، وهذا غير صحيح، لان الاجماع على أنه توفي بعد مولده! وقال آخرون: بعد سنة من مولده. وكانت وفاته بالمدينة في دار تعرف بدار النابغة بين أخواله بني النجار^(٢).

والمعروف ممن قال إن عبد الله توفي قبل أن يولد محمد ﷺ محمد ابن إسحاق فقد ذكر - كما في سيرة ابن هشام والطبري والطبرسي -: أن عبد الله لم يلبث أن هلك وأم رسول الله حامل به^(٣).

ثم الواقدي، فقد روى الطبري عنه عن الزهري: أن عبد المطلب كان قد بعث عبد الله الى المدينة كي يحمل لهم تمراً فمات بالمدينة، فحين أبطأ عبد الله على عبد المطلب بعث ابنه الحارث في طلبه فوجده قد مات. ثم قال الواقدي: والثبت عندنا أن عبد الله بن عبد المطلب أقبل من الشام في غير لقريش، فنزل بالمدينة وهو مريض، فأقام بها حتى توفي، ودفن في الدار الصغرى للنابغة على اليسار إذا دخلت الدار، ليس بين أصحابنا في هذا اختلاف^(٤).

(١) روضة الكافي ٣٠٢. وروى مثله بسند آخر ابن شهر آشوب في المناقب ١: ٢٣.

(٢) اليعقوبي ٢: ١٠.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٦٧. والطبري ٢: ١٦٥ وإعلام الوري ١: ٥٢.

(٤) الطبري ٢: ١٦٥ و ٢٤٦. وقال في ١٦٥: أما هشام الكلبي فإنه قال: توفي عبد الله بعد ما

أتى على رسول الله ثمانية وعشرون شهراً. ←

ولعلّ اليعقوبي يقابل بالإجماع هذه الدعوى بعدم الخلاف في ذلك، سيما وهو يروي خبره بوفاته بعد ميلاد الرسول بشهرين عن الصادق جعفر ابن محمد عليه السلام فيرى على نفسه أن يدافع عنه ولو بمقابلة دعوى عدم الخلاف بدعوى الإجماع. ويوافق اليعقوبي الكليني من دون نسبة إلى الصادق عليه السلام فيقول: وتوفي أبوه عبد الله بالمدينة عند أخواله، وهو ابن شهرين ^(١) فلعله لم يعتد برواية اليعقوبي لإرسالها، أو لم يطلع عليها.

أمّا المسعودي فقد ذهب إلى ما ذهب إليه ابن إسحاق والواقدي إذ قال: وكان أبوه عبد الله غائباً بأرض الشام فانصرف مريضاً فمات بالمدينة ورسول الله ﷺ حمل. ثم قال: ومنهم من قال: أنه مات بعد مولد النبي بشهر، ومنهم من قال: أنه مات في السنة الثانية من مولده ^(٢).

وروى المجلسي عن (المنتقى في مولد المصطفى) للكاظمي من العامة: أن عبد الله خرج إلى الشام في غير من قریش يحملون تجارات، ففرغوا من تجارتهم ثم انصرفوا فرّوا بالمدينة، وعبد الله يومئذ مريض فقال اتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار فأقام عندهم مريضاً شهراً، ومضى أصحابه فقدموا مكة فسألهم عبد المطلب عن عبد الله فقالوا: خلفناه عند أخواله بني عدي وهو مريض. فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث، فوجده قد توفي، فأخبره أخواله بمرضه وبقيامهم عليه. وما ولوا من أمره حتى قبروه، فرجع الحارث إلى أبيه فأخبره فحزن عليه وإخوته وأخواته حزناً ووجدوا شديداً. ورسول الله يومئذ حمل.

→ وأما الدار التي دفن فيها أبو النبي فقد كانت قائمة حتى بعد عام ١٣٩٠ هـ ثم هدمت في توسيع فلجة مسجد النبي ﷺ ولم يبق لها أي أثر.

(١) اصول الكافي ١: ٤٣٩.

(٢) مروج الذهب ٢: ٢٧٤.

ولعبد الله يوم توفي خمس وعشرون سنة. ثم قال: وروي: أنه توفي بعد ما أتى على رسول الله سبعة أشهر، ويقال: ثمانية وعشرون شهراً.

ثم روى الكازروني عن الواقدي: أن عبد الله ترك من الإرث قطع غنم وخمسة جمال ومولاته بركة وهي أم أيمن حاضنة رسول الله^(١) وقال الطبرسي: عاش عليه السلام مع أبيه سنتين وأربعة أشهر. ثم قال: وقيل: إن أباه عليه السلام مات والنبي ابن سبعة أشهر^(٢).

وقال الأربلي: عاش مع أبيه سنتين وأربعة أشهر. ثم قال: وقيل: مات أبوه وعمره سبعة أشهر^(٣).

والاربلي في كلامه هذا يحاكي كلام الطبرسي، والقول الأول هو قول هشام الكلبي كما قال الطبري: وأما هشام الكلبي فإنه قال: توفي عبد الله أبو رسول الله بعد ما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون شهراً^(٤). ومما يؤيد رواية ابن إسحاق بوفاة عبد الله قبل ميلاد الرسول أننا لا نعثر على أي خبر أو أثر عن عبد الله حين ميلاد الرسول، وإنما نجد جدّه عبد المطلب يلتمس له الموضع.

رضاع النبي عليه السلام:

روى المجلسي عن الكازروني في (المنتقى) عن برّة الخزاعية: أن أول من أرضع رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - ثويبة - مولاة أبي لهب عمّ النبي -

(١) بحار الأنوار ١٥ : ١٢٤ ، ١٢٥ عن المنتقى في مولد المصطفى لمحمد بن مسعود الكازروني وفي ص ١١٦ نقل عن كتاب العدد: أنه ورث ذلك عن أمه.

(٢) إعلام الوري ١ : ٥٢.

(٣) كشف الغمة ١ : ١٦.

(٤) الطبري ٢ : ١٦٥.

بلبن ابنٍ لها يقال له مسروح، قبل أن تقدم حليلة، أياماً. وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبدالمطلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي. وكانت - ثويبة - تدخل على رسول الله - صلى الله عليه وآله - وسلم - فيكرمها، وكان يبعث إليها رسول الله بعد الهجرة بكسوة وصلة، وكانت قد أسلمت، فماتت بعد فتح خيبر^(١).

وروى عن الكليني في (فروع الكافي) بسنده عن الصادق عليه السلام قال: إنَّ علياً ذكر لرسول الله ابنة حمزة، فقال رسول الله ﷺ: أما علمت أنها ابنة أخي من الرضاعة. ثم قال الصادق عليه السلام: وكان رسول الله وعمه حمزة قد رضعا من امرأة^(٢).

وقال اليعقوبي: كان أول لبن شربه بعد أمه لبن «ثويبة» مولاة أبي لهب. وقد أرضعت ثويبة هذه حمزة بن عبد المطلب، وجعفر بن أبي طالب، وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي^(٣).

والطبري روى الخبر نفسه الذي رواه الكازروني، بسنده إلى برة ابنة أبي تجزاة عن طريق الواقدي^(٤).

وقال الطبرسي في (إعلام الوري): وكانت ثويبة مولاة أبي لهب بن عبد المطلب أرضعت النبي ﷺ بلبن ابنها مسروح، قبل أن تقدم حليلة، وتوفيت ثويبة مسلمة سنة سبع من الهجرة، ومات ابنها قبلها. وكانت ثويبة قد أرضعت قبله

(١) بحار الأنوار ١٥ : ٣٨٤ عن المنتقى في مولد المصطفى لمحمد بن مسعود الكازروني.

(٢) بحار الأنوار ١٥ : ٣٤٠ عن فروع الكافي ٢ : ٤١ و ٤٢ ورواه الصدوق في الفقيه ٣ : ٢٦٠

والطوسي في التهذيب ٧ : ٢٩٢. وراجع مفتاح الكتب الأربعة ١٤ : ٣٤٠ و ٣٤٣.

(٣) اليعقوبي ٢ : ٩.

(٤) الطبري ٢ : ١٥٨.

حمزة بن عبد المطلب عمّه، فلذلك قال رسول الله ﷺ لابنة حمزة: إنّها ابنة أخي من الرضاعة. وكان حمزة أسنّ من رسول الله ﷺ بأربع سنين^(١).
وروى ابن شهر آشوب رواية الطبري^(٢).

وقال الاربلي في (كشف الغمة): أرضعته ثوية مولاة أبي لهب، قبل قدوم حليلة أياماً بلبن ابنها مسروح، وتوفيت ثوية مسلمة سنة سبع من الهجرة، ومات ابنها قبلها. وكانت ثوية قد أرضعت قبله عمّه حمزة ﷺ، فلهذا قال ﷺ وقد حوِّث في التزويج بابنة حمزة: إنّها ابنة أخي من الرضاعة. وكان حمزة أسنّ منه بأربع سنين^(٣).

(١) إعلام الوري ١ : ٤٥. ويقال: انه ﷺ لما افتتح مكة سأل عنها وعن ابنها فاخبر انها ماتا، كما عن الاستيعاب والروض الانف وشرح المواهب.

(٢) المناقب ١ : ١٧٣.

(٣) كشف الغمة ١ : ١٥، والعبارة هي عبارة الطبرسي في إعلام الوري بدون اسناد. وقد ثقل على بعض غلاة ولاية أئمة أهل البيت عليهم السلام أن يقرّوا لمولاة أبي لهب أن تكون أوّل من أرضعت النبي ﷺ، فلم يسلموها لها بذلك، ثم حاولوا أن يسدّوا هذا الفراغ الزمني بعد ميلاده وقبل دفعه الى حليلة السعدية بما رواه الكليني قتيّب بسنده الى علي بن أبي حمزة البطائني عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام أنّه قال: لما ولد النبي مكث أياماً ليس له لبن، فألقاه أبو طالب على ثدي نفسه فأنزل الله فيه لبناً فوضع منه أياماً! حتّى وقع أبو طالب على حليلة السعدية فدفعه اليها (أصول الكافي ١ : ٤٤٨) هذا، وقد روى الكشي في رجاله في ذم علي بن أبي حمزة البطائني أخباراً كثيرة تهمه بالكذب وتلعنه، فلعنة الله عليه. غفر الله للكليني وابن شهر آشوب والمجلسي إذ رووا هذا الكذب، ورحم الله الشيخ الرباني الشيرازي محقق البحار (١٥) إذ علّق على هذا الكذب بقوله: الحديث لا يخلو عن غرابة، وفي اسناده جماعة لا يحتج بحديثهم (بحار الأنوار ١٥ : ٣٤٠). وروى الراوندي خبر الرضا عليه السلام عن حليلة السعدية في صفحة من الخرائج والجرائح ١ : ٨١ الحديث ١٣٤ وعنه بحار الأنوار ١٥ : ٣٣١ وآثرنا نقله المسند عنها هنا.

الرضاع الميمون

رضاعه من حليلة السعدية:

روى ابن إسحاق بسنده إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عن حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية أنها كانت تقول: إنها خرجت من بلدها مع زوجها الحارث بن عبد العزى من بني هوازن ومعها رضيعها عبد الله بن الحارث، ومعها نسوة من بني سعد كل واحدة منهن تلمس رضيعاً ترضعه ترجو المعروف من أبيه. وذلك في سنة مجدة لم تبق لهم شيئاً، وما أرض أجذب من بلاد بني سعد. فما كان في ثديها ما يغني صبيها الرضيع حتى كانوا ما ينامون ليلهم من بكائه من الجوع، ومعها ناقة لها مسنة ما ترشح بشيء يغذيهم، وكانت هي على أتان يتخلف عن الركب ضعفاً وهزالاً. حتى قدموا إلى مكة، فابقيت امرأة ممن مع حليلة إلا أخذت رضيعاً لها سوى حليلة وكلما كان يعرض رسول الله ﷺ على امرأة منهن يقال لها إنه يتيم، كانت تأباه ليطمه. وبقيت حليلة لم تأخذ رضيعاً، ولم يبق رضيع سوى رسول الله ﷺ، قالت حليلة: فقلت لزوجي: والله إنني لأكره أن أرجع وأنا بين صواحي لم آخذ رضيعاً، والله لا ذهاب إلى ذلك اليتيم فلاخذته، قال صاحبي: لا عليك أن تفعل عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته -وما حملني على أخذه إلا أنني لم أجد غيره- ورجعت به إلى رحلي ووضعت في حجري وأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه فروي. وقام زوجي إلى ناقتنا فإذا ضرعها مليء باللبن فحلب ما شرب وشربت معه حتى روينا، فقال لي صاحبي: يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة، فقلت والله إنني لأرجو ذلك.

ثمَّ قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، فلم نزل نتعرّف من الله الزيادة والخير، وكانت غنمي ترجع إلينا بعد العصر شباعاً قد إمتلأ ضرعها من اللبن، وترجع غنم القوم جياً لا ترشح بقطرة لبن. وكان رسول الله -صلى الله عليه وآله [وآله] وسلم - يشبّ ما لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه من الرضاعة حتّى غلظ واشتدّ جسمه، حتّى إذا مضت سنتاه وفصلته، فقدمنا به على أمّه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما نرجو من بركته، فكلّمنا أمّه فلم نزل بها حتّى ردّته معنا فرجعنا به.

قالت حليلة: وبعد مقدّمنا به بأشهر إحتملناه فقدمنا به على أمّه.

فقلت آمنة: ما أقدمك به وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟

فقلت: قد بلغ الله بابني وقضيت الذي عليّ، وتخوفت الأحداث عليه، فأديته إليك كما كنت تحبّين.

فقلت: افتخوفت عليه الشيطان؟ قالت: قلت: نعم. قالت: كلّا والله ما

للشيطان عليه من سبيل. ثمّ أخبرتها بما رآته منه حين حمله ووضع.

قال ابن إسحاق: حدثني بعض أهل العلم: أنّ ممّا هاج أمّه السعدية على رده

إلى أمّه: أنّ نقرأ من نصارى الحبشة رأوه فنظروا إليه وسألوها عنه وقلوبه ثمّ قالوا لها: إنه يكون لهذا الغلام شأن نحن نعرف أمره، وأرادوا أن يأخذوه إلى بلدهم، حتّى كادت أن لا تنفّلت به منهم.

قال ابن إسحاق: يتحدث الناس: إنّها لما قدمت به إلى مكّة نحو أهله افتقدته

في الناس، وكلّمها التمسّته لم تجده، فأنت عبد المطلب فقالت له: إنّني قد قدمت بمحمد البارحة، فلمّا كنت بأعلى مكّة افتقدته فوالله ما أدري أين هو؟

فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده عليه، فوجده رجلاً من

قريش أحدهما ورقة بن نوفل بن أسد - ابن عمّ خديجة - فأتيا به عبد المطلب

فقالا له : هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة . فأخذه عبد المطلب فجعله على عنقه وطاف به الكعبة يعوّذه ويدعو له ثم أرسل به إلى أمّه آمنه^(١) .

قصة شق الصدر!

إنّ خبر رضاع النبي ﷺ من حليلة السعدية من المسلّم به من أخبار التاريخ إجمالاً، إلّا أنّ عمدة ما ورد بتفصيل الخبر فيه خبران ذكرهما الطبري :

الخبر الأوّل : رواية ابن إسحاق عن الجهم بن أبي الجهم عن عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب، عن حليلة السعدية . وقد رواها الطبري عن ابن إسحاق يصف الجهم بأنّه مولى عبد الله بن جعفر، بينما رواها عنه ابن هشام في سيرته يصف الجهم بأنّه مولى الحارث بن حاطب الجمحي . وفي الخبر عن حليلة أنّها قالت : إنّهُ ﷺ كان - بعد رجوعنا به من أمّه بأشهر - مع أخيه - عبد الله بن الحارث السعدي - في بُهم^(٢) لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتدّ ويقول : إنّ أخي القرشي قد أخذه رجلان عليها ثياب بيض، فأضجعا فشقّا بطنه و...! فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقياً وجهه! فقلنا له : ما لك يا بني؟ قال : جاءني رجلان عليها ثياب بيض فأضجعاني وشقّا بطني فالتسا فيه شيئاً لا أدري ما هو^(٣) !

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٧١ - ١٧٧ بتصرف ورواه عنه الطبري ٢ : ١٥٨ ، ١٦٠ ، ورواه عنها ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣ : ٢٥٢ ، ٢٥٣ وروى المجلسي عن الكازروني في (المنتقى) : أنّ رسول الله لما تزوّج بخديجة سمعت به حليلة فقدمت على رسول الله فشكت إليه جذب البلاد وهلاك الماشية . فكلم رسول الله خديجة فأعطتها أربعين شاة وبعيراً ، فانصرفت إلى أهلها . وبعد الإسلام قدمت عليه فاستأذنت عليه ، فقال : أمّي أمّي ، وعمد إلى رداءه فبسطه لها فقعدت عليه (بحار الأنوار ١٥ : ٤٠١) .

(٢) البُهم : الصغار من الغنم .

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٧١ - ١٧٤ ، والطبري ٢ : ١٥٨ - ١٦٠ .

والخبر الثاني: رواية الطبري أيضا بسنده عن ثور بن يزيد الشامي، عن مكحول الشامي، عن شدّاد بن أوس. والظاهر أنّ هذا الخبر هو ما رواه ابن إسحاق عن ثور بن يزيد أيضاً إلا أنّه نسي ما بعد ثور من السند فقال «عن بعض أهل العلم، ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعي» ثمّ اختصره وتصرّف فيه ما قد نسيه كالسند، فقرب فيه من الخبر السابق إذ قال فيه عن النبي ﷺ أنّه قال: استرضعت في بني سعد، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا، إذ أتاني رجلان عليها ثياب بيض بطست من ذهب مملوؤة ثلجاً، ثمّ أخذاني فشقّا بطني، واستخرجا قلبي فشقّاه، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثمّ غسلوا قلبي وبطني بذلك الثلج حتّى أنقياه^(١).

بينما نرى في رواية الطبري. بسنده عن ثور بن يزيد نفسه عن مكحول الشامي عن شدّاد بن أوس عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنّه قال: وكنت مسترضعاً في بني ليث بن بكر، فبينما أنا ذات يوم متبذ من أهلي في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان نتقاذف بالجلّة^(٢) إذ أتانا رهط ثلاثة معهم طست من ذهب مليء ثلجاً، فأخذوني من بين أصحابي، فخرج أصحابي هرباً حتّى انتهوا إلى شفير الوادي... ثمّ انطلقوا هرباً مسرعين إلى الحيّ يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم. فعمد أحدهم فأضجني على الأرض... ثمّ شقّ ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي... ثمّ أخرج أحشاء بطني فغسلها بذلك الثلج... ثمّ أعادها مكانها. ثمّ قام الثاني منهم... ثمّ أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي، فصده ثمّ أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها... فإذا أنا بخاتم في يده... فختم به قلبي فامتلاً نوراً

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٧٥.

(٢) الجلّة بالفتح: بحر البعير، ومنه الإبل الجلّالة، والحيوان الجلّال، وهذا ما يبعدنا عن تصديق الخبر أيضاً.

وذلك نور النبوة والحكمة، ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهرًا. ثم قام الثالث... فأمرّ يده ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي فالتأم ذلك الشق بإذن الله، ثم أخذ بيدي فأنهضني^(١).

فترى رواية الطبري هذه عن شداد بن أوس تختلف عن رواية ابن إسحاق في: المكان الذي جرى فيه الحادث، وفي: عدد الأشخاص الذين جاؤوه، وفي: الكيفية التي وقع عليها، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه رواية الطبري من الخصوصيات التفصيلية التي لم تتفق معها رواية ابن إسحاق، مع أن كليهما تمرّان بثور بن يزيد الكلاعي الشامي المتوفى في ١٥٥ كما في كتب الرجال ومنها «تهذيب التهذيب»، ولذلك نرى ابن إسحاق يسحق موارد الخلاف في هذا الخبر باختصاره للتفصيلات الواردة فيه، وبالتصرف في عدد الملائكة، فبينما نجد خبر ثور بن يزيد عن شداد بن أوس يذكر عدد الملائكة الحاضرين للقيام بالعملية على رسول الله: ثلاثة، نجد ابن إسحاق قد أعاد العدد إلى اثنين كي يتوافق العدد فيه مع ما في خبر الجهم عن عبد الله بن جعفر.

وكذلك في عدد من معه، فبينما نجد خبر ثور عن شداد يذكر «مع أتراب لي من الصبيان» نرى ابن إسحاق قد أعاد العدد إلى فرد بنفس النسبة التي في خبر الجهم عن ابن جعفر «مع أخ لي»، وكذلك بالتصرف في المكان الذي جرى فيه الحادث، فبينما نجد خبر ثور عن شداد يذكر مكان الحادث «منتبذ من أهلي في بطن واد» نرى ابن إسحاق قد أعاده إلى «خلف بيوتنا».

وكذلك بالتصرف في حال الرسول حينئذ: فبينما نرى خبر ثور عن شداد يذكر «نتقاذف بالجلّة» نرى ابن إسحاق قد أبى على النبي اللعب بالجلّة ولو في صغره

وأصرّ على تكرير ما في خبر الجهم «نرعى بُهماً لنا» أي نرعى الصغار من الغنم، وليت شعري إذا كان الذي أو الذين معه أترابه وهو كما في خبر الجهم بعد أشهر من فصاله فكيف يرعى الغنم؟!

وإنّ هذا العمري لدليل على وضع الخبر وقصر حبل الكذب! وهذا الاختلاف بذاته لمن الدواعي التي تثير الشكوك حول هذه الحادثة، وبخاصة إذا نظرنا الى أسانيد هذه الروايات وعرضناها على الأصول التي لا بد من توفرها لقبول الرواية، وإن كان لم يقنع بهذا القدر من التشكيك كثير من كتّاب السيرة^(١).

وحينما نراجع تراجم الرجال نجد أنّ أرباب التراجم قد رجحوا ثور ابن يزيد بأنّه: شاميّ كان يرى القدر، أي هو من القدرية وأنا أرى أنّ القدرية التي ينسب اليها الشاميون في شعاع أفكار الأمويين هي أنّ أعمال العباد بقدر مقدّر قد قضى به الله، لا القدر بمعنى يجتمع مع إرادة الإنسان واختياره. وعلى هذا فهو متهم بوضع ما يؤيد به مذهبه القدري الجبري، كما قال السيد المرتضى العاملي:

«ألا تعني هذه الرواية أنّه ﷺ كان مجبراً على عمل الخير، وليس لارادته فيه أي أثر أو فعالية أو دور؟! لأن حظّ الشيطان قد أبعد عنه بشكل قطعي وقهري، وبعملية جراحية، وهل اذا كان الله يريد أن لا يكون عبده شريراً إحتاج في أعمال قدرته الى عمليات جراحية كهذه على مرأى من الناس ومسمع؟!»^(٢) هذا الى خمس نقاط أخرى نقد بها السيد المرتضى هذا الخبر. ولعلّه أخذ هذا المعنى عن رواية جاهلية عن أمية بن أبي الصلت: أنّه دخل على أخته فنام على سرير في ناحية البيت، فانشق جانب من السقف في البيت، وإذا بطائرین قد وقع أحدهما

(١) السيد الحسيني في كتابه: سيرة المصطفى: ٤٦ بعد أن اعترف بما في ذلك من التشكيك.

(٢) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ ١: ٨٦.

على صدره ووقف الآخر مكانه، فشقّ الواقع على صدره صدره، فأخرج قلبه، فقال الطائر الواقف للطائر الذي على صدره: أوعى؟ قال: وعى، قال: أقبل؟ قال: أبى، ثم ردّ قلبه بموضعه^(١).

هذا، وقد روى المجلسي في بحاره هذا الخبر عن الكازروني في كتابه (المنتقى في مولد المصطفى) بنفس السند ثم علّق عليه الكازروني يقول: هذا حديث حسن غريب بهذا السياق، يعدّ في أفراد محمد بن يعلى، وكان يلقّب بزنبور، وليس بذاك، ولمكحول عن شداد أحاديث غير أنّها مرسلة. ثم علّق المحقق الرباني الشيرازي يقول: محمد بن يعلى ضعّفه ابن حجر في «التقريب» وحكى عن أبي حاتم أنّه قال: متروك، وقال الخطيب: يتكلم فيه. توفي ٢٠٥^(٢).

أمّا الخبر الأوّل عن عبدالله بن جعفر فهو عن مولاة الجهم بن أبي الجهم، وإن كان عبد الله بن جعفر يخالط بني أميّة بجسده ولا يخالطهم بفكره وعقيدته، فما مولاة من ذلك ببعيد^(٣).

ولا يحضرني الآن كتاب عبد الكريم الخطيب اذ نقل عنه السيد المرتضى: أنّه ناقش في كتابه سند رواية ابن إسحاق اذ قال «عن بعض أهل العلم»^(٤). وكذلك محمد حسين هيكل في كتابه^(٥).

(١) كما في الأغاني ٣: ١٨٨ - ١٩٠.

(٢) بحار الأنوار ١٥: ٣٩٦ - ٤٠٠.

(٣) ولعلّه هو مولاة أبو اللّسلاس الذي روى فيه الطبري عن أبي مخنف: أنّه دخل على مولاة والناس يعزّونه بمقتل الحسين عليه السلام، فقال: هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين! فحذفه عبدالله بن جعفر بنعله وقال: يا بن اللّخناء اللّحسين تقول هذا! (الطبري ٥: ٤٦٦).

(٤) الصحيح ١: ٨٤ عن كتاب: النبي محمد: ١٩٦.

(٥) حياة محمد: ٧٣.

وقد ناقش هذا الخبر الشيخ أبو ريّة، نقاشاً موضوعاً سليماً في كتابه القيم «أضواء على السنة المحمّدية» فنقل تشكيك استاذة الشيخ محمّد عبده في تفسيره إذ قال «والمحقّق عندنا أنّه ليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين، وخيرهم الأنبياء والمرسلون. أمّا ما ورد في حديث إزالة حظّ الشيطان من قلبه - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - فهو من الأخبار الظنية، لأنّه من رواية الآحاد، ولما كان موضوعها عالم الغيب، والايان بالغيب من قسم العقائد، وهي لا يؤخذ فيها بالظنّ، لقوله تعالى ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ كُنّا غير مكلفين بالايان بمضمون تلك الأحاديث في عقائدنا»^(١).

والشيخ عبده إذ ينفي سلطان الشيطان على المخلصين من عباد الله يستند الى ما جاء في سورة الحجر من الكتاب العزيز في قوله سبحانه ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿^(٢) وقد جاء أبو ريّة بهذه الآيات ثمّ قال: فكيف يدفعون الكتاب بالسنة، أو يعارضون المتواتر الذي يفيد اليقين، بأحاديث الآحاد التي لا تفيد إلا الظنّ إن صحّت^(٣).

وقال: وقد نصّت هذه الروايات على أنّ صدره - صلوات الله عليه - قد شقّ وأخرجت منه العلقة السوداء! وحظّ الشيطان كما يقولون، وكأنّ العملية الأولى لم تنجح فأعيد شقّ صدره، ووقع ذلك مرّات عديدة بلغت خمساً، أربع منها باتفاق

(١) تفسير القرآن الحكيم ٣: ٢٩١، ٢٩٢ كما في الأضواء: ١٨٨.

(٢) الحجر: ٣٩ - ٤٢.

(٣) أضواء: ١٨٨.

كما يقولون: في الثالثة من عمره، وفي العاشرة، وعند مبعثه، وعند الإسراء، ومرة خامسة فيها خلاف. وقد قالوا: إن تكرار الشق إنما هو زيادة في تشريف النبي^(١). وفي تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء وبمناسبة حديث الإسراء قال الشيخ الطبرسي في تفسيره «وقد وردت روايات كثيرة في قصة المعراج في عروج نبينا إلى السماء ورواها كثير من الصحابة. وتنقسم جملتها إلى أربعة وجوه» إلى أن قال «ورابعها: ما لا يصح ظاهره ولا يمكن تأويله إلا على التعسف البعيد، فالأولى أن لا نقبله» إلى أن قال «وأما الرابع: فنحو ما روي أنه شق بطنه وغسلته الملائكة، ذلك لانه ﷺ كان طاهراً مطهراً من كل سوء وعيب، وكيف يطهر القلب وما فيه من الاعتقاد، بالماء^(٢)».

ولهذا لم يذكر هذا الخبر ضمن أخباره عن النبي ﷺ في كتابه (إعلام الوري).

وفي الوقت نفسه نرى البعض يعتبر هذا الخبر من إرهابات النبوة ومثار إعجاب وتقدير خص به نبينا ﷺ ولم يحصل لأي من الأنبياء السابقين كالحلي في كتابه: (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)^(٣) والبوطي في كتابه: (فقه السيرة)^(٤) والسيد الحسيني في كتابه: (سيرة المصطفى) مع الإعراف بضعف مستنده^(٥).

وعلق عليه السيد المرتضى فقال متسائلاً: ولم يختص نبينا بهذه العملية

(١) اضواء: ١٨٧.

(٢) مجمع البيان ٦: ٦٩.

(٣) المعروف بالسيرة الحلبية ١: ٣٦٨.

(٤) فقه السيرة: ٥٣.

(٥) سيرة المصطفى: ٤٦.

ولم تحصل لأي من الانبياء السابقين؟! أفهل يعقل أن يكون هو بحاجة الى هذه العملية فقط دون سائر الانبياء؟ إذن فكيف يكون أكملهم وأفضلهم؟! أم يقولون: قد كان فيهم للشيطان حظاً أيضاً ولكنه لم يقطع عنهم بعملية جراحية كهذه، ولذلك أصبح هذا أفضلهم وأكملهم؟! (١).

ولا تخلو كتب السيرة والحديث عند غير الإمامية عن هذه الرواية غالباً حتى بعض الصحاح كصحيح مسلم، فقد روى بسنده عن أنس بن مالك قال: إن رسول الله أتاه جبرئيل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه وصرعه فشقّ عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثمّ غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثمّ لأمه ثمّ أعاده الى مكانه. وجاء الغلمان يسعون الى أمّه - يعني ظنّوه - فقالوا: إنّ محمّداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون! قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره (٢). وهي عند الإمامية قصّة لم يصحّحها حديث ولا اعتبار، وهم برآء من هذه وأمثالها. وقد نقلها المحدث المجلسي في بحاره عن كتاب (فضائل شاذان بن جبرئيل القميّ) نقلاً عنّ يسمّيه الواقدي. ثمّ قال المجلسي: أقول: هذا الخبر - وإن لم نعتمد عليه كثيراً، لكونه من طرق المخالفين - إنّما أوردته لما فيه من الغرائب!

وعلق عليه المحقق الربّاني الشيرازي يقول: نحن في غنى من أن نسرد كلّ ما عثرنا عليه ممّا جاء في فضائله من المعاجز وخوارق العادات كما كان كاتبو سيرته من القدماء يفعلون ذلك، فنحن لا نحتاج في إثبات عظمته إليها، بعد ما ملأت فضائله الآفاق (٣).

(١) الصحيح في السيرة ١: ٨٦.

(٢) صحيح مسلم ١: ١٠١ - ١٠٢ بأربعة طرق.

(٣) بحار الأنوار ١٥: ٣٥٣ - ٣٥٧ - الهامش.

وأين هذه الصورة عن النبي ﷺ عن ذلك الوصف الذي يصفه به صنوه وصهره وأخوه ثم وصيه علي عليه السلام إذ قال في كلام له «ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره»^(١).

وروى ابن أبي الحديد: أن بعض أصحاب الإمام الباقر عليه السلام سأل عن قوله سبحانه ﴿إِلَّا مَنْ أَزْوَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصْداً﴾^(٢)؟ فقال عليه السلام: «يوكل الله تعالى بأنبيائه ملائكة يحصون أعمالهم ويؤدون إليهم تبليغ الرسالة، ووكل بمحمد ملكاً عظيماً منذ فصل من الرضاع، يرشده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشر ومكاره الأخلاق»^(٣).

وفود عبد المطلب على سيف بن ذي يزن:

روى الصدوق في (إكمال الدين) بسنده عن ابن عباس قال: لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة - وذلك بعد مولد النبي ﷺ بسنتين - أتاه وفد العرب وأشرفها وشعراؤها بالتهنئة، تمدحه وتذكر ما كان من بلاته وطلبه بثأر قومه. فأتاه وفد من قريش ومعهم عبد المطلب بن هاشم، وأمّية بن عبد شمس، وعبد الله بن جدعان، وأسيد بن خويلد بن عبد العزى (كذا)، وهب بن عبد مناف (أبو آمنة أم النبي) وأناس من وجوه قريش.

(١) نهج البلاغة، القسم الأول: الخطبة القاصعة: ١٩٢، المقطع ١١٨ عن مسعدة بن صدقة عن الإمام الباقر عليه السلام.

(٢) الجن: ٢٧.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ١٣: ٢٠٧، وعنه في البحار ١٥: ٣٦١.

فقدموا عليه في صنعاء، فاستأذنوا فإذا هو في رأس قصر يقال له (عُمدان) فدخل عليه الآذن فأخبره بمكانهم فأذن لهم، فلما دخلوا عليه دنا عبد المطلب منه فاستأذنه في الكلام، فقال: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنا لك. فتكلم عبد المطلب فقال فيما قال: نحن - أيها الملك - أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا من كشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهئة لا وفد المرزئة. قال: وأيهم أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم. فأقبل عليه وعلى القوم فقال: مرحباً وأهلاً ومستنخاً سهلاً، قد سمع الملك مقاتلكم وقبل وسيلتكم، فلکم الكرامة ما أقمتم والحباء إذا ظعنتم.

ثم أمر بهم إلى دار ضيافة الوفود فأقاموا شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف، ثم انتبه لهم فأرسل إلى عبد المطلب فأخلى له مجلسه وأدناه، ثم قال له: يا عبد المطلب: إني مفوض إليك من سرّ على أمر ما لو كان غيرك لم أبح له به، ولكنني رأيتك معدنه فأطلعتك عليه، فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه فإن الله بالغ أمره: إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا وحجبناه دون غيرنا خبراً عظيماً وخطراً جسيماً فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة، للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة.

فقال عبد المطلب: فما هو؟ فقال: إذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة ولكم به الدعامة إلى يوم القيامة. هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد، اسمه محمد، يموت أبوه وأمه ويكفله جدّه وعمّه. وقد ولد سراراً والله باعته جهاراً وجاعل له منّا أنصاراً، ليعزّ بهم أوليائه ويذلّ بهم أعداءه، يضرب بهم الناس عن غرض^(١) ويستبيح بهم كرائم الأرض، يكسر الأوثان

(١) العرض بضم العين: من يعترض لهم.

ويحمد النيران ويعبد الرحمان ويزجر الشيطان، قوله فصل وحكمة عدل، يأمر بالمعروف ويفعله وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبد المطلب : فهل الملك سارّي بإفصاح فقد أوضح لي بعض الأيضاح ؟ فقال ابن ذي يزن : والبيت ذي الحجب، والعلامات على النصب، إنك يا عبد المطلب لجده غير كذب، فخرّ عبد المطلب ساجداً لله ! فقال له ابن ذي يزن : فهل أحسست شيئاً مما ذكرته ؟ قال : كان لي ابن كنت به معجباً وعليه رفيقاً، فزوجته بكريمة من كرائم قومي : اسمها آمنة بنت وهب، فجاءت بغلام سمّيته محمّداً، مات أبوه وأمه، وكفلته أنا وعمّه !

فقال سيف بن ذي يزن : إنّ الذي قلت لك كما قلت، فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً ! ثم أمر لكلّ رجل من القوم بعشرة أعبد وعشر إماء وحلي من البرود ومئة من الابل وخمسة أرطال ذهب وعشرة أرطال فضّة وكرش مملوؤة عنبراً ! وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال : اذا حال الحول فأتني فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول^(١).

هذا، وقد سبق في ذكر ملوك اليمن قول المسعودي بأن يكسوم بن ابرهة الأشرم ملك اليمن بعد هلاك أبيه ابرهة بالآبائيل عشرين عاماً، ثمّ ملك أخوه مسروق بن أبرهة ثلاث سنين، وأنّ سيف بن ذي يزن كان قد مضى الى قيصر يستنجد به - وذلك قبل هلاك يكسوم بأربع سنين - فأبى أن ينجده وقال : أنتم يهود والحبشة نصارى، وليس في الديانة أن تنصر المخالف على الموافق. فضى الى كسرى

(١) اكمال الدين : ١٧٤ - ١٧٧. ومختصره في قرب الاسناد : ٢٤٦ الحديث ١٢١٦، والخرائج والجرائع ١ : ١١٤ الحديث ١٩٠ وأكثر منه في ١٢٩ الحديث ٢١٥.

أنوشيروان فاستنجده، فوعده أنوشيروان بالنصرة على السودان، ولكنه شغل بحرب الروم فمات سيف بن ذي يزن. على باباه. فأتى بعده ابنه معديكرب بن سيف، فوجه معه اصيهب الديلم ويعرف في أهل السجون، فقتل وهُزِر من الحبشة ثلاثين ألفاً، ثم توج وهُزِر معديكرب بتاج كان معه ورتبه في ملكه على اليمن.

وأنت معديكرب الوفود من العرب تهنئه بعود الملك اليه، وفيهم عبد المطلب بن هاشم وأمّية بن عبد شمس، وخويلد بن أسد بن عبد العزّي، وأبو الصلت الثقفي أبو أمّية بن أبي الصلت، فدخلوا عليه في أعلى قصره المعروف بغمدان بمدينة صنعاء وقد تقدمهم عبد المطلب فتكلّم فقال فيما قال: نحن أهل حرم الله وسدنة بيته... إلى آخر ما مرّ من الخبر السابق عن (اكمال الدين) ثم قال المسعودي: ولمعديكرب بن سيف بن ذي يزن كلام كثير مع عبد المطلب، وكوائن أخبره بها في أمر النبي وبدء ظهوره، بشّره عبد المطلب وأخبره عن أحواله وما يكون من أمره^(١).

ولاحظنا أنّ رواية الصدوق عن ابن عباس كانت مصحّفة في اسم أبي خديجة: خويلد بن أسيد بن عبد العزّي إلى: أسيد بن خويلد بن عبد العزّي. وقد ذكره المسعودي صحيحاً.

وروى الطبرسي الخبر مرفوعاً إلى ابن عباس أيضاً وقال في آخره: روى هذا الحديث الشيخ أبو بكر البيهقي في كتابه (دلائل النبوة) من طريقين^(٢) والظاهر أنهما ما أورده الصدوق عن ابن عباس.

ورواه الكراجكي في كتابه (الكنز) كذلك بنفس السند، كما في بحار الأنوار^(٣) ومن المعلوم أنّ ابن عباس لم يدرك ذلك. لكنّ الكازروني نقل الخبر في كتابه

(١) مروج الذهب ٢ : ٥٨.

(٢) إعلام الوري: ١٥ - ١٧.

(٣) كنز الكراجكي: ٨٢ - ٨٤ كما في البحار ١٥ : ١٩١.

(المنتقى في مولد المصطفى) باسناده الى محمد بن عبد العزيز عن أبيه عبد العزيز بن عفير، عن أبيه عفير بن عبد العزيز عن أبيه عبد العزيز بن السفر عن أبيه السفر بن عفير، عن أبيه عفير بن زرعة بن سيف ابن ذي يزن قال : لما ظفر جدّي سيف على الحبشة - وذلك بعد مولد النبي بسنتين - أتت وفود العرب وأشرافها وشعراؤها لتهنئته، وتذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه .. ثم ساق الحديث مثل ما تقدم برواية الصدوق، ثم قال الكازروني : هذا الحديث دال على أن الوفادة الى ابن ذي يزن كان في سنة ثلاث من مولد رسول الله ﷺ، والأصح أنها كانت في سنة سبع، لأنه يقول عبد المطلب فيه : توفي أبوه وأمه وكفلته أنا وعمّه. وأمّ رسول الله لم تمت حتى بلغ ست سنين.

فرى ان الكازروني قد تنبّه الى هذه الغلطة ولكنه لم يغلطها بل غلط بداية الرواية إذ قالت : وذلك بعد مولد النبي بسنتين. بدون أي مرجح فيما بين هذين النصين. ثم لم يغلط قوله : وكفلته أنا وعمّه. فما معنى ذكر كفالة عمّه أبي طالب الى جانب جدّه عبد المطلب؟! ثم لم ير أي تناقض بين هاتين الجملتين : هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد. وقوله : وقد ولد سراراً!

والمسعودي قد اختصر الخبر على عادته في (مروج الذهب) ولكنه صرح : بأن سيف بن ذي يزن كان يهودياً ولذلك أبي قيصر أن ينصره، وأبي هو أن ينتصر أو يظهر له النصرانية فينصره، بل عدل الى الملك غير العادل أنوشيروان عابد النيران فطلب منه الأعوان على الأحباش النصاري. وهؤلاء وإن كانوا على غير حقيقة النصرانية ولذلك أهلك الله كثيراً منهم بطير أبايل، ولكن فما الدليل على العقيدة الحقّة لدى سيف اليمن؟ أفهل يكفي لذلك رواية أبنائه المسلمين بعد المائتين بل أكثر من الهجرة، تقصّ على المسلمين جملة جمّة من مجدّهم سيف اليمن؟!

وَأَمَّا قُلْتُ بَعْدَ الْمَائَتَيْنِ بَلْ أَكْثَرُ مِنَ الْهَجْرَةِ،، اذْ لَا نَرَى أَيْ أَثَرَ لِهَذَا الْخَبَرِ لَا عِنْدَ ابْنِ إِسْحَاقَ وَلَا فِي سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ وَلَا الطَّبْرِيِّ، بَلْ نَرَاهُ فِي الْيَعْقُوبِيِّ بِإِخْتِصَارٍ^(١)، ثُمَّ فِي (إِكْمَالِ الدِّينِ) لِلصَّدُوقِ مَنْقُولاً عَنْ ابْنِ السَّائِبِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ لَمْ يَدْرِكِ الْأَمْرَ وَلَمْ يَسْنِدْهُ وَلَمْ يَسْنِدْ عَنْهُ، وَإِنَّمَا يَنْتَهِي إِسْنَادُهُ إِلَى أَحْفَادِ سَيْفٍ لَا بِجَادِ الْإِجْدَادِ.

وَلَيْسَ فِي رِوَايَةِ الشَّيْخِ الصَّدُوقِ لِلْخَبَرِ حُجَّةٌ بَعْدَ ذِكْرِهِ الْمَرْفُوعِ الْمَقْطُوعِ، وَقَدْ رَوَى اللَّهُ أَكْثَرَ مِنْ سِتِينَ صَفْحَةً مِنْ نَفْسِ الْكِتَابِ قِصَّةَ الْمَلِكِ الْهِنْدِيِّ بِلَوْهَرُو وَالْحَكِيمِ الْهِنْدِيِّ بُوذَاسَفٍ، ثُمَّ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: لَيْسَ هَذَا الْحَدِيثُ وَمَا شَاكَلَهُ مِنْ أَخْبَارِهِ مِمَّا اعْتَمَدَهُ... وَجَمِيعُهَا فِي الصَّحَةِ مِنْ طَرِيقِ الرِّوَايَةِ دُونَ مَا قَدْ صَحَّ مِنَ الْأَخْبَارِ. ثُمَّ قَالَ: وَلَا يُرَادُ لِهَذَا الْحَدِيثِ وَمَا يَشَاكَلُهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَعْنَى آخَرٍ، وَهُوَ: أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْوِفَاقِ وَالْخِلَافِ يَمِيلُونَ إِلَى مِثْلِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ، فَإِذَا ظَفَرُوا بِهِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ حَرَصُوا عَلَى الْوُقُوفِ عَلَى سَائِرِ مَا فِيهِ^(٢).

الاستسقاء برسول الله ﷺ:

رَوَى الْمَجْلِسِيُّ عَنِ الْكَازِرُونِيِّ فِي (الْمُنْتَقَى) فِي مَا حَدَّثَ سَنَةَ سَبْعٍ مِنْ مَوْلَدِهِ ﷺ بِسَنَدِهِ إِلَى مَخْرَمَةَ بْنِ نُوْفَلٍ الْقُرَشِيِّ عَنْ أُمِّهِ رَقِيقَةَ بِنْتِ صَيْفِي قَالَتْ:

(١) الْيَعْقُوبِيُّ ٢ : ١٢.

(٢) إِكْمَالُ الدِّينِ : ٦٠٠. نَعَمْ رَوَى فِي (قَرَبِ الْإِسْنَادِ) عَنِ الْحَسَنِ بْنِ ظَرِيفٍ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ الرِّضَا عَنْ أَبِيهِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ فِي كِرَامَاتِ رَسُولِ اللَّهِ «وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ سَيْفَ بْنَ ذِي يَزْنَ حِينَ ظَفَرَ بِالْحَبْشَةِ، وَفَدَّ عَلَيْهِ وَفَدَّ مِنْ قَرِيشٍ فِيهِمْ عَبْدَ الْمُطَّلَبِ فَسَأَلَهُمْ عَنْهُ وَوَصَفَ لَهُمْ صِفَتَهُ، فَأَقْرَأُوا جَمِيعاً بِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ فِي مُحَمَّدٍ، فَقَالَ: هَذَا أَوَّانٌ مَبْعُوثُهُ، وَمُسْتَقَرُّهُ أَرْضُ يَثْرِبَ وَمَوْتُهُ بِهَا» قَرَبُ الْإِسْنَادِ : ٢٤٦ الْحَدِيثُ ١٢١٦ كَمَا فِي بَحَارِ الْأَنْوَارِ ١٧ : ٢٢٦. فَإِذَا قَبَلْنَا بِهَذَا الْأَجْمَالِ فَالتَّفَاصِيلُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى ذَلِكَ التَّهَافُتِ مُرَدُّودَةٌ.

تتابعت على قريش سنون اقحلت الفرع وأرمت العظم، فبينما أنا راقدة -اللهم- أو مهومة ومعني صنوي، فإذا أنا بهاتف صيت يصرخ ويقول: يا معشر قريش! إن هذا النبي المبعوث منكم هذا إيان نجومه، فحيّ هلا بالحيا والخصب، ألا فانظروا رجلاً منكم طوالاً عظاماً أبيض بضاً، أشمّ العرنين، سهل الخدين، له فخر يكظم عليه، ألا فليخلص هو وولده وليدلف إليه من كل بطن رجل، ألا فليشئوا من الماء، وليمسوا من الطيب، وليطوفوا بالبيت سبعاً، ألا وليكن فيهم الطيب الطاهر لذاته، ألا فليستق الرجل وليؤمن القوم، ألا فغشم -إذا شتم- وعشم! قالت: فأصبحت مذعورة قد قفّ جلدي وولده عقلي، واقتصصت رؤياي، فوالحرمة والحرم إن بقي أبطحي إلا قال: هذا شيبة الحمد.

فتنامت إليه قريش، وانقضّ إليه من كل بطن رجل، فشئوا ومسوا واستلموا وطوفوا، ثم ارتقوا أبا قبيس، وطفق القوم يدلفون حوله حتى قرّوا بذروة الجبل، واستكنفوا جانيه. ومعه ابن ابنه محمد وهو يومئذ غلام قد أيفع، فاعتضده فرفعه على عاتقه ثم قال: «اللهم سادّ الخلة وكاشف الكربة، أنت عالم غير معلّم ومسؤول غير مبخل، وهذه عبيدك وإماؤك بفناء حرمك، يشكون إليك سنتهم التي اذهبت الخفّ والظلف، فاسمعنّ اللهم وأمطرنّ علينا غيثاً مريعاً مغدقاً».

قالت: فما راموا البيت حتى انفجرت السماء بمائها واكتظّ الوادي بشجيجه^(١)

فقلت شعرا:

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا فقد فقدنا الحيا واجلوّذ المطر^(٢)

(١) الشجيج: الماء المصبوب، أو صوته.

(٢) اجلوّذ: كثر وامتدّ وقت تأخره.

فجاد بالماء جوني له سَبَلٌ سَحًا، فعاشت به الأنعام والشجر^(١)
 مبارك الأسم يستسقي الغمام به ما في الأنام له عدل ولا خطر^(٢)
 ورواه اليعقوبي في تأريخه^(٣)، والسهيلي في (الروض الأنف) عن البستي
 النيسابوري باسناده عن دقيقة ايضاً، مستشهداً به لمعنى قول أبي طالب بشأن
 النبي ﷺ إذ قال:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
 قال: فان قيل: كيف قال أبو طالب هذا، ولم يره استسقي قط، وإنما
 كانت استسقاءاته ﷺ بالمدينة في الحضر والسفر، وفيها شوهده سرعة إجابة
 الله له؟!!

فالجواب: إنَّ أبا طالب قد شاهد من ذلك في حياة عبد المطلب ما دلَّه
 على ما قال.

وإنما قال السهيلي هذا تعليقاً على رواية ابن هشام: دعا النبي ﷺ للناس
 حين القحط، فنزل المطر، فقال رسول الله ﷺ: لو أدرك أبو طالب هذا اليوم
 لسره! فقال له بعض أصحابه: كأنك يا رسول الله أردت قوله -وقراً البيت-
 قال: أجل^(٤).

(١) الجون: اللون الأسود، والجوني نسبة إليه، والمراد هنا: السحاب الأسود المركوم. والسبل
 بفتحين: المطر النازل قبل الوصول للأرض. وله سبل اي له جريان. سحًا: أي منصباً.

(٢) بحار الأنوار ١٥: ٤٠٣، ٤٠٤ عن المنتقى في مولد المصطفى للكارزوني: الباب الرابع من
 القسم الثاني، وأخرج الحديث ابن الأثير في أسد الغابة ٥: ٤٥٤ وأبن حجر في الإصابة ٤:
 ٢٩٦ والحلي في السيرة ١: ١٣١.

(٣) اليعقوبي ٢: ١٢.

(٤) سيرة ابن هشام ١: ٣٠٠ في المتن وعن الروض الأنف في الهامش.

وفاة أم النبي ﷺ، وكفالة جدّه وعمّه له:

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - مع أمّه آمنه بنت وهب وجدّه عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتاً حسناً لما يريد به من كرامة .

ثمّ روى عن عبد الله بن حزم أنّه : لما بلغ رسول الله ستّ سنين قدمت به إلى أخواله من بني النجار لزيارتهم ، فلما رجعت إلى مكّة ماتت بالأبواء بين مكّة والمدينة .

وفسر الطبرسي خوّلة بني النجار لرسول الله بأنّ أمّ عبد المطلب كانت من بني النجار^(١) .

وروى المجلسي عن الكازروني في (المنتقى) عن ابن عباس وغيره : أنّ رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - كان مع أمّه آمنه ، فلما بلغ ستّ سنين خرجت به إلى أخواله بني النجار بالمدينة تزوّرهم به ، ومعه أمّ أيمن تحضنه ، وهم على بعيرين ، فنزلت به في دار النابغة - التي توفي ودفن فيها عبد الله - فأقامت عندهم شهراً... ثمّ رجعت به أمّه إلى مكّة ، فلما كانت بالأبواء توفيت فقُبرت هناك . ورجعت أمّ أيمن بالنبي إلى مكّة^(٢) .

(١) اعلام الوري ١ : ٤٥ كما في سيرة ابن هشام ١ : ١٧٧ .

(٢) ثمّ لما مرّ رسول الله في عمرة الحديبية بالأبواء قال : إنّ الله قد أذن لي في زيارة قبر أمي . فأقْبى رسول الله قبرها فبكى عنده وقال : أدركتني رحم ، رحمتها فبكيت . ثمّ أصلح قبرها . وروي عن بريرة قال : لما فتح رسول الله مكّة أتى قبراً فجلس إليه وجلس الناس حوله وهو يبكي ، ثمّ قام . فاستقبله عمر فقال : يا رسول الله ما الذي أبكاك ؟ قال : هذا قبر أمي ، سألت ربيّ الزيارة فأذن لي . كما في البحار ١٥ : ١٦٢ عن المنتقى ، الفصل الثالث فيما كان سنة ست من مولده . وروى مسلم في صحيحه حديث الرسول في زيارة أمه هكذا : استأذنت ربي في ←

والظاهر أنَّ هذه الرواية للكَازروني عن ابن عباس هي ما رواه الصدوق في (إكمال الدين) بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما تمت لرسول الله ست سنين قدمت به أمه آمنة على أخواله من بني النجار فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة .
فبقي رسول الله ﷺ يتيمًا لا أب له ولا أمّ، فازداد عبد المطلب رقة له وحفظاً . فكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد إجلالاً له ، وكان بنوه يجلسون حوله حتّى يخرج عبد المطلب . فكان رسول الله ﷺ يخرج وهو غلام فيمشي حتّى يجلس على الفراش ! فيعظمون ذلك أعمامه ويأخذونه ليؤخروه ، فيقول لهم عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا أبنِي فوالله إنَّ له لشأناً عظيماً ! إني أرى أنّه سيأتي عليكم يوم وهو سيّدكم ، إني أرى عزته عزّة تسود الناس ^(١) !
ثمّ يحمله فيجلسه معه ويمسح ظهره ويقبّله ويقول : ما رأيت قبله من هو أطيب منه ولا أظهر قط ، ولا جسداً ألين منه ولا أطيب ! ثمّ يحمله على عنقه فيطوف به أسبوعاً .

وكانت هذه حالته حتّى ادركت عبد المطلب الوفاة .

فبعث الى أبي طالب ، فدخل عليه وهو في غمرات الموت ومحمّد على صدره ، فبكى وقال لأبي طالب : يا أبا طالب ! انظر أن يكون هذا من جسدك بمنزلة كبذك ، فإنّي قد تركت بنيّ كلّهم وأوصيتك به ، لأنّك من أمّ أبيه .

→ زيارة أُمّي فأذن لي ، فزوروا القبور تذكّركم الموت . كما في صحيح مسلم ٣ : ٦٥ ط ١٣٣٤ كتاب الجنائز . ورواه عنه الطبرسي في إعلام الوريّ : ٩ . ورواه عنه أيضاً الاربلي في كشف الغمّة ١ : ١٦ .

(١) وروى الكليني بسنده عن الصادق عليه السلام نحوه (أصول الكافي ١ : ٤٤٨) وذكر مثله (اليعقوبي ٢ : ٩) وفي تاريخ وفاة آمنة قال الكليني : وماتت أمه آمنة وهو ابن أربع سنين . أصول الكافي ١ : ٤٣٩ .

يا أبا طالب! ان ادركت أيتامه فاعلم أني كنت من أبصر الناس وأعلم الناس به، فإن استطعت أن تتبعه فافعل، وانصره بلسانك ويدك ومالك، فإنه والله سيسودكم ويملك ما لم يملك أحد من بني آبائي.

يا أبا طالب! ما أعلم أحداً من آبائك مات عنه أبوه على حال أبيه، ولا أمه على حال أمه، فاحفظ الوحدة.

هل قبلت وصيتي؟ فقال: نعم، قد قبلت، والله عليّ بذلك شهيد.

فقال عبد المطلب: فدّ يدك اليّ. فضرب يده على يده.

ثم قال عبد المطلب: الآن خُفّف عليّ الموت! ثمّ لم يزل يقبله ويقول: أشهد اني لم أقبّل أحداً من ولدي أطيب ريحاً منك، ولا أحسن وجهاً منك. ثمّ مات.

ورسول الله ابن ثمانين سنين^(١) وبه قال الكليني في الكافي^(٢).

فضمّه أبو طالب الى نفسه لا يفارقه ساعة من ليل ولا نهار، وكان ينام معه حتّى بلغ، لا يأتّم عليه أحداً^(٣).

(١) روى المجلسي عن الكازروني في المنتقى قال: مات عبد المطلب وهو ابن ثنتين وثمانين سنة. وقالت أمّ أمين: رأيت رسول الله يبكي خلف سرير عبد المطلب. وسئل رسول الله: أتذكر موت عبد المطلب؟ فقال: نعم أنا يومئذ ابن ثمانين سنين (بحار الأنوار ١٥ : ١٦٢ عن المنتقى: الفصل الثالث) ورواه عن (العدد) وأضاف: حتّى دفن بالحجون (بحار الأنوار ١٥ : ١٥٦).

(٢) أصول الكافي ١ : ٤٣٩.

(٣) ثمّ روى الصدوق بسنده الى ابن اسحاق عن العباس بن عبد الله، عن أبيه عبد الله بن معبد، عن أبيه معبد بن العباس بن عبد المطلب - أو بعض أهله - قال: كان يوضع لعبد المطلب جدّ رسول الله فراش في ظل الكعبة، فكان لا يجلس عليه أحد من بنيهِ إجلالاً له، وكان رسول الله يأتي حتّى يجلس عليه، فيذهب أعماه يؤخرونه، فيقول جدّه عبد المطلب: دعوا ابني فيمسح ظهره ويقول: إن لابني هذا شأنًا.

قال ابن إسحاق : وكان عبد المطلب يوصي برسول الله عمه أبا طالب ، وذلك أن عبد الله وأبا طالب كانا أخوين لأم واحدة هي فاطمة بنت عمرو

→ ثم قال : فتوفي عبد المطلب والنبي ﷺ ابن ثمانين سنين : بعد عام الفيل ثمانين سنين .
(والخبر في سيرة ابن هشام ١ : ١٧٨ ، وفي تهذيب السيرة : ٤١) ثم قال الشيخ الصدوق :
إن أبا طالب كان مؤمناً ولكنه كان يستر الإيمان ويظهر الشرك ليكون أشد تمكناً من تصرف رسول الله ﷺ .

ثم روى بسنده عن الأصمغ بن نباتة قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : والله ما عبد أبي - ولا جدي عبد المطلب ولا هاشم ولا عبد مناف - صنأ قط . قيل : فما كانوا يعبدون ؟ قال : كانوا يصلون إلى البيت على دين إبراهيم عليه السلام متمسكين به .

ثم روى بسنده عن الصادق عليه السلام قال : إن أبا طالب أظهر الكفر وأسر الإيمان ، فلما حضرته الوفاة أوحى الله إلى رسول الله : اخرج منها فليس لك بها ناصر ! فهاجر إلى المدينة (إكمال الدين : ١٦٩ - ١٧٢) .

وروى في (الخصال) بسنده عن الصادق عليه السلام قال : هبط جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! إن الله عز وجل قد شفّعك في خمسة . في بطن حملك ، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، وفي صلب أنزلك ، وهو عبد الله بن عبد المطلب . وفي حجر كفلك ، وهو عبد المطلب بن هاشم ، وفي بيت آواك ، وهو عبد مناف بن عبد المطلب أبو طالب ، وفي أخ كان لك في الجاهلية . قيل : يا رسول الله ! من هذا الأخ ؟ فقال : كان أنسي وكنت أنسه ، وكان سخيّاً يطعم الطعام . ثم قال الصدوق : اسمه : الجلّاس بن علقمة (الخصال ١ : ٢٩٢ ، ٢٩٤) وروى مثله بسند آخر في معاني الأخبار : ٤٥ والأمال ٦ ورواه الكليني في أصول الكافي ١ : ٤٤٦ وروى الحميري في (قرب الإسناد : ٦١ - ٦٢ برقم ١٧٣) بسنده عن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله : إني مستوهب من ربي أربعة ، وهو واهبهم لي إن شاء الله تعالى : آمنة بنت وهب ، وعبد الله ابن عبد المطلب ، وأبو طالب بن عبد المطلب ، ورجل من الأنصار جرت بيني وبينه ملحّة ، وروى الطبرسي في (إعلام الوري : ١٠) عن هشام بن عروة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : ما زالت قریش كاعّة عني حتّى مات أبو طالب عليه السلام .

المخزومي . فكان رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم - بعد عبد المطلب مع عمه أبي طالب ، وكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم - بعد جدّه ، فكان إليه ومعه .

ووليّ بعده السقاية على زمزم أصغر أبنائه العباس^(١) .

وقال اليعقوبي : وأوصى عبد المطلب الى أبي طالب برسول الله وقال له :

أوصيك يا عبد مناف بعدي بمفرد بعد أبيه فرد
فارقه وهو ضجيع المهد فكنت كالأم له في الوجد
تدنيه من أحشائها والكبد فأنت من أرجى بنيّ بعدي

لدفع ضيم ، اولشدّ عقد

قال : وأوصى اليه بسقاية زمزم . وأوصى بالحكومة وأمر الكعبة الى

ابنه الزبير .

وأعظمت قریش موته ، وغسلوه بالماء والسدر ، ولقوه في حلتين من حل
الين قيمتها ألف مثقال ذهب ! وطرح عليه المسك حتى ستره ، وحمل على أيدي
الرجال عدة أيام ! إعظاماً وإكراماً وإكباراً لتغييبه في التراب^(٢) .

ولما غيب عبد المطلب ، احتجب ابنه الزبير بفناء الكعبة مدّعياً للرئاسة ،
وادّعاها معه الوليد بن ربيعة المخزومي ، وابن جُدعان التيمي .

(١) فلم تزل اليه حتى قام الاسلام ، وهي بيده ، فأقرّها رسول الله له على ما مضى من
ولايته ، فهي الى آل العباس بولاية العباس إياها الى هذا اليوم (ابن إسحاق في السيرة
١ : ١٨٩) .

(٢) وروى عن رسول الله أنّه قال : إنّ الله يبعث جدي عبد المطلب أمة وحده ، في هيئة الأنبياء
وزيّ الملوك (اليعقوبي ٢ : ١٣) ورواها الكليني في أصول الكافي بأسانيد ثلاثة مختلفة والفاظ
متقاربة (أصول الكافي ١ : ٤٤٦ ، ٤٤٧) .

وكفل رسول الله بعده عمه أبو طالب، فكان خير كافل. فكان أبو طالب سيداً شريفاً مطاعاً مهيباً، مع املاقه! ^(١) وربته فاطمة بنت أسد بن هاشم امرأة أبي طالب وأم أولاده ^(٢).

وروى ابن شهر آشوب عن الأوزاعي ^(٣) قال: كان النبي في حجر عبد المطلب، فلما أتى عليه اثنان ومئة سنة ورسول الله ابن ثمانين سنين، جمع بينه وقال: محمد يتيم فأووه وعائل فاغنوه واحفظوا وصيتي فيه.

فقال أبو لهب: أنا له! فقال: كفّ شرك عنه! فقال عباس: أنا له، فقال: أنت غضبان لعلك تؤذيه! فقال أبو طالب: أنا له، فقال: أنت له. فأمسكه أبو طالب في حجره وقام بأمره يحميه بنفسه وماله وجاهه في صغره من اليهود المرصدة له بالعداوة، ومن غيرهم من بني أعمامه، ومن العرب قاطبة، الذين يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة.

وروى عن الخرقوشي في (شرف المصطفى): أنه لما حضرت عبد المطلب الوفاة دعا ابنه أبا طالب فقال له: يا بني! قد علمت شدة حبي لمحمد ووجدني به، فانظر كيف تحفظني فيه! فقال أبو طالب: يا أبة لا توصني بمحمد، فإنه ابني وابن أخي!

(١) ثم روى عن علي عليه السلام أنه قال: ساد أبي فقيراً، وما ساد فقير قبله، (اليعقوبي ٢: ١٤).

(٢) قال: وأسلمت فكانت مسلمة فاضلة، فلما توفيت قال رسول الله كما يروى: اليوم ماتت أمي! ثم كفنها بقميصه، ونزل في قبرها وأضطجع في لحدها. فقيل له: يا رسول الله! لقد اشتدّ جزعك على فاطمة؟ قال: إنها كانت أمي، إذ كانت لتجيع صبيانها وتشبعني، وتشعثهم وتدهنني! وكانت أمي! (اليعقوبي ٢: ١٤).

(٣) عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو الأوزاعي الفقيه: ثقة جليل من السابقة مات سنة ١٥٧ (تقريب التهذيب).

فلما توفي عبد المطلب كان أبو طالب يؤثره بالنفقة والكسوة على نفسه وعلى جميع أهله، وكان إذا أراد أن يعشي أولاده أو يغديهم يقول : كما أنتم حتى يحضر ابني، فيأتي محمد فيأكلون^(١).

سفر النبي ﷺ الأول مع عمه إلى الشام:

روى الصدوق في (كمال الدين) بسنده إلى ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب عن أبي طالب قال : خرجت إلى الشام تاجراً سنة ثمان من مولد النبي، وكان في أشد ما يكون من الحر، فلما أجمعت على المسير قال لي رجال من قومي ما تريد أن تفعل بمحمد؟ وعلى من تخلفه؟ فقلت : لا أريد أن أخلفه على أحد من الناس، أريد أن يكون معي. فقيل : غلام صغير في حرّ مثل هذا تخرجه؟ فقلت : والله لا يفارقني حيث ما توجهت أبداً، فإني لأوطئ له الرجل. فذهبت فحشوت له حشية كساءً وكتاناً. وكنا ركبنا كثيراً، فكان والله البعير الذي عليه محمد أمامي لا يفارقني فكان يسبق الركب كله، فكان إذا اشتدّ الحرّ جاءت سحابة بيضاء مثل قطعة ثلج فتقف على رأسه لا تفارقه وهي تسير معنا^(٢).

وروى الحميري في «قرب الاسناد» بسنده عن الكاظم عليه السلام في معجزاته ﷺ قبل مبثته قال : توجه إلى الشام مع نفر من قريش، فلما كان بحيال بحيراء الراهب نزلوا بفناء ديره. وكان عالماً بالكتب وقد قرأ في التوراة مروره ﷺ به وعرف أوان ذلك. فأمر فدعى إلى طعامه. ثم أقبل يطلب الصفة فيهم فلم يجدها فيهم، فقال لهم : هل بقي في رحالكم أحد؟ فقالوا : غلام يتيم. فقام بحيراء الراهب

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ٣٥-٣٦.

(٢) كمال الدين : ١٧٨. ومثله في الخرائج والجرائح ١ : ٧١ الحديث ١٣٠ وعنه في بحار الأنوار

يطلع عليه فإذا هو به ﷺ نائم وقد أظلمت سحابة. فقال للقوم: ادعوا هذا اليتيم. ففعلوا، فقام يسير وقد أظلمت السحابة، فأخبر القوم بشأنه وأنه سيُبعث فيهم رسولا ويكون من حاله وأمره كذا^(١).

وفي رواية الصدوق عن ابن عباس عن أبي طالب قال فلما قربنا من بصرى الشام^(٢) إذا نحن بصومعة، فنزلنا تحت شجرة عظيمة قريبة من الراهب قليلة الأغصان ليس لها حمل، كان الركبان ينزلون تحتها، فلما رأى بحيرا الراهب^(٣) ذلك اتخذ طعاماً ثم جاء به فأكل وأكلنا معه.

ثم قال: يا غلام أسألك عن ثلاث خصال بحق اللات والعزى إلا أخبرتهما. فغضب رسول الله ﷺ عند ذكر اللات والعزى وقال: لا تسألني بهما، فوالله ما أبغضت شيئاً كبغضهما، وإنما صنان من حجارة لقومي. فقال بحيرا: هذه واحدة. ثم قال: فبالله إلا ما أخبرتني. فقال: سل عما بدا لك، فإنك قد سألتني بإلهي وألهك الذي ليس كمثله شيء. فقال: أسألك عن نومك وهيئتك وأمورك ويقظتك. فأخبره عن نومه وهيئته وأموره وجميع شأنه، فوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته التي عنده. فانكب عليه بحيرا فلم يزل يقبل يديه مرّة ورجليه مرّة ويقول فيما يقول: أنت دعوة إبراهيم وبشرى عيسى، أنت المقدّس المطهر من أنجاس الجاهلية.

ثم التفت إليّ وقال: ما يكون هذا الغلام منك فإني أراك لا تفارقه؟ قال أبو طالب: فقلت: هو ابني، فقال: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون والده

(١) قرب الاسناد: ٢٥١ الحديث ١٢٣٢.

(٢) بصرى هي مدينة حوران، فتحت صلحاً لخمس بقين من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة، وهي أول مدينة فتحت بالشام. وردّها رسول الله ﷺ مرتين: هذه هي الأولى.

(٣) حسب المسعودي من عبد قيس من عرب الشام، مروج الذهب ٢: ١٠٢. وضبط الاسم بفتح الباء وكسر الحاء واشتهر بالتصغير خطأ.

الذي ولده حياً ولا أمه. فقال : قلت : إنه ابن أخي وقد مات أبوه وأمّه حامله به ، وماتت أمّه وهو ابن ست سنين . فقال : صدقت ، هكذا هو ، ولكن أرى لك أن تردّه إلى بلده عن هذا الوجه ، فلئن رأوا هذا الغلام وعرفوا منه الذي عرفت أنا لا بتغوه شراً ، وأكثر ذلك هؤلاء اليهود ! قال أبو طالب : فقلت : كلاً ، لم يكن الله ليضيّعه ! .

ثمّ خرجنا به إلى الشام فلما توصلنا الشام ازدحم الناس ينظرون إلى وجه رسول الله ﷺ وجاء خبر عظيم كان اسمه نسطورا ينظر إليه لا يتكلم بشيء ، فعل ذلك ثلاثة أيام متوالية ، فلما كان اليوم الثالث دار خلفه كأنه يلتمس منه شيئاً ، فقلت له : يا راهب كأتك تريد منه شيئاً ؟ فقال : أجل إنني أريد منه شيئاً ، ما اسمه ؟ قلت : محمّد بن عبد الله ، فتغيّر لونه ثمّ قال : فترى أن تأمره أن يكشف لي عن ظهره لأنظر إليه ، فكشف عن ظهره فلما رأى الخاتم^(١) انكبّ عليه يقبله ويبكي ، ثمّ قال : يا هذا اسرع برّد هذا الغلام إلى موضعه الذي ولد فيه ، فإنك لو تدري كم عدوّ له في أرضنا لم تكن بالذي تقدمه معك .

وروى بسنده إلى يعلى بن سيابة^(٢) قال : كان مع رسول الله سنة خروجه إلى الشام : خالد بن أسيد بن أبي العاص وطلّيق بن أبي سفيان بن أميّة ، فكانا يحكيان أنّهما لما توسطتا سوق بصرى إذا بقوم من الرهبان قالوا لهم : نحبّ أن تأتوا كبيرنا هاهنا في الكنيسة العظمى . فذهبنا معهم حتّى دخلنا معهم الكنيسة العظيمة البنيان ، فإذا كبيرهم قد توسطهم وحوله تلامذته وقد نشر كتاباً بين يديه فأخذ ينظر إلينا مرة وفي الكتاب مرّة ، ثمّ قال لأصحابه : ما صنعتم شيئاً ، لم تأتونني بالذي أريد ،

(١) روى السهيلي في (الروض الأنف) خبراً عن الخاتم هذا يفيد أنّه كان كبيض الحمام على غضروف كتفه الأيسر حوله نقاط من الخال عليها شعرات . وقال ابن هشام كان مثل أثر محجمة الحجامة القابضة على اللحم ، كما في سيرته ١ : ١٩٣ ، متناً وهامشاً .

(٢) في كمال الدين : يعلى النسابة ، والصحيح عن مناقب آل أبي طالب ١ : ٤٠ .

وهو الآن ها هنا! ثم قال لنا : من أنتم ؟ فقلنا : رهط من قريش ، فقال : من أي قريش ؟ فقلنا من بني عبد شمس ، فقال لنا : معكم غيركم ؟ فقلنا : بلى (كذا) معنا شاب من بني هاشم نسّميه يتيماً بني عبد المطلب ، فقام واتكى على صليب من صلبانه وهو يفكر ، وحوله ثمانون رجلاً من البطارقة والتلامذة ، فقال لنا : فيجب عليكم أن تُرونيهِ ، فقلنا له : نعم فجاء معنا .

وفي سوق بُصرى إذا نحن بمحمّد قائم في السوق ، فأردنا أن نقول للقسّ : هو هذا ، فإذا هو سبقنا فقال : هو هو ، قد عرفته والمسيح ، فدنا منه وقبّل رأسه وقال : أنت المقدّس ، ثم أخذ يسأله عن أشياء من علاماته ، فأخذ يخبره النبي ﷺ فسمعناه يقول : لئن أدركت زمانك لأعطين السيف حقّه ! ثم قال لنا : أتعلمون ما معه ؟ معه الحياة والموت ، من تعلق به حيي طويلاً ، ومن زاغ عنه مات موتاً لا يحيى بعد أبداً هذا الذي معه الذبح الأعظم ! ثم قبّل رأسه ورجع راجعاً^(١) .

وقد نقل ابن إسحاق خبر بحيرا بلا اسناد فقال فيه : كان في بصرى من أرض الشام صومعة لم يزل فيها أبداً راهب كان اليه علم النصرانية عن كتاب لهم يتوارثونه كابراً عن كابر ، فكان فيها إذ ذاك راهب يقال له بحيرا ، كانوا كثيراً ما يمرّون به قبل ذلك ، فلا يكلمهم ولا يعرض لهم ، حتّى خرج أبو طالب في ركب ذلك

(١) كمال الدين : ١٨٢ - ١٨٦ بتصرف واختصار . وخبر بحيرا رواه ابن شهر آشوب في مناقب آل أبي طالب ١ : ٦٥ - ٦٧ عن الطبري والظاهر أنّه الطبري الامامي صاحب (دلائل الإمامة) والآ فالخبر لا يطابق ما في تاريخ الطبري . واختار الطبرسي أن يرويه عن ابن إسحاق : إعلام الوری : ٦٥ . وكذلك الاربلي في كشف الغمة ١ : ٢٢ نقل ما ذكره ابن إسحاق . والخبر في سيرة ابن هشام ١ : ١٩١ - ١٩٤ . وفي الطبري ٢ : ٢٧٧ - ٢٧٨ . وأشار اليه اليعقوبي ٢ : ١١ واختصره المسعودي ١ : ٨٩ . وقال : واسم بحيرا في النصاري سرجيس ، وكان للنبي اثنتا عشرة سنة .

العام تاجراً إلى الشام، وتعلق به رسول الله فرق له أبو طالب فخرج به معه، فلما كان الركب قريباً من صومعة بحيرا، كان قد رأى - وهو في صومعته - رسول الله وقد أظلمت من بين الركب غمامة، ونزلوا في ظل شجرة قريباً منه، فاظلمت الغمامة الشجرة وتدلت أغصانها على رسول الله (كذا، ولا حاجة إليهما معاً). فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته وصنع لهم طعاماً كثيراً ثم ارسل اليهم فقال: يا معشر قريش اني قد صنعت لكم طعاماً فأحب أن تحضروه كلكم كبيركم وصغيركم حرّكم وعبدكم! فانتم ضيف وقد أحببت أن اكرمكم وأصنع لكم طعاماً تأكلون منه. فاجتمعوا إليه وتخلّف رسول الله من بين القوم في رحال القوم تحت الشجرة، فقال بحيرا: يا معشر قريش! لا يتخلّفن أحد منكم عن طعامي. قالوا له: يا بحيرا! ما تخلّف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك، إلا غلام أحدث القوم سنّاً تخلّف في رحالهم، فقال: ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم، فقام إليه رجل منهم فاحتضنه حتى أجلسه مع القوم. فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر الى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى اذا فرغ القوم من طعامهم وتفرّقوا قام إليه بحيرا فقال له: يا غلام! أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. فقال رسول الله: لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئاً قطّ كبغضها! فقال بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، وجعل رسول الله يخبره، فكان يوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته. ثمّ نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

فلما فرغ أقبل على عمّه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً! قال: فأنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه قال: مات وأمه حبلى به. قال: صدقت، فارجع بابن

أخيك الى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لبيغته شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فاسرع به الى بلاده. فلما فرغ عمه من تجارته خرج به حتى أقدمه مكة^(١).

هكذا ينتهي الخبر عند ابن إسحاق، وهكذا نقله عنه الطبري في تأريخه، ولكنه روى بعده رواية أخرى أسندها الى أبي موسى الأشعري الأنصاري - المدني - من دون أن يسندها الى أحدٍ قبله، قال في آخرها: فلم يزل يناشده حتى رده، وزوده الراهب بزيت وكعك وبعث معه أبو بكر بلالاً!^(٢).

ورواه الديار بكري في كتابه (تأريخ الخميس) ثم نقل عن الحافظ الدمياطي أنه أشكل على هذا الخبر - إرسال أبي بكر بلالاً مع الرسول - بأن أبا بكر لم يكن يومئذ يملك بلالاً بل كان يملكه أمية بن خلف، وإنما اشتراه أبو بكر بعد ثلاثين عاماً! ثم ذهب الى أن أبا بكر لم يكن في ذلك السفر أصلاً! ولذلك قال الذهبي بشأن هذا الخبر: اظنه موضوعاً، بعضه باطل^(٣) ورواه الترمذي في سننه ثم قال: حسن غريب!

وقد نقل الطبري عن الكلبي: أن أبا طالب خرج برسول الله الى بصرى وهو ابن تسع سنين^(٤). والمعروف أن أبا بكر كان أصغر من النبي ﷺ بأكثر من سنتين، فكيف يكون ما ذكر؟!

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٩١ - ١٩٤ والخبر في السيرة بلا سند، وأسنده الطبري اليه عن عبدالله بن أبي بكر. وذكر مثله الكازروني في (المنتقى) بسند طويل الى داود بن الحصين (بحار الأنوار ١٥ : ٤٠٩).

(٢) الطبري ٢ : ٢٧٧ - ٢٧٢ ط المعارف وص ٣٤ ط الإستقامة. والسيرة الحلبية ١ : ١٢٠ وسيرة دحلان ١ : ٤٩ والبداية والنهاية ٢ : ٢٨٥ والثقات لأبن حبان ١ : ٤٤.

(٣) تأريخ الخميس ١ : ٢٥٩ والسيرة الحلبية ١ : ١٢٠ وسيرة مغلطاي ١١.

(٤) الطبري ٢ : ٢٧٨.

وقد ألمح الى التشكيك فيها جماعة من المؤرخين - كما سبق - منهم أبو الفداء في تاريخه الكبير، وجاء فيه : إنّ أحد رواتها هو أبو بكر بن أبي موسى عن أبيه الأشعري، وقد دخل في الإسلام في السنة السابعة من الهجرة، ولا بدّ أن تكون حينئذ من مرسلات الصحابة. وشكك في الرواية : أنّها اشتملت على أنّ أبا طالب أرجع النبي ﷺ - كما زعم الرواي - مع بلال الحبشي وأبي بكر، وقد كانا يوم ذاك أصغر منه سناً، حيث إنّ أبا بكر في ذلك الوقت لم يتجاوز العاشرة، وبلال الحبشي كان أقلّ من ذلك فكيف يصح أن يرده أبو طالب الى مكّة من تلك المسافة البعيدة وفي تلك الصحراء المخيفة مع طفلين صغيرين؟! (١)

ثمّ الرواية - كما مرّ - عن أبي موسى الأشعري، وهو أنصاري مدنيّ، والمعروف أنّه ولد قبل البعثة بثماني سنين، وقدم الى المدينة بعد الهجرة بسبع سنين، ورحلة الرسول مع عمّه أبي طالب الى الشام كانت قبل البعثة باثنتين وثلاثين سنة، وقبل الهجرة بخمس وأربعين سنة، وقبل اتصال أبي موسى بالرسول بأكثر من خمسين سنة، فكيف روى هذا الخبر بلا اسناد الى أحدٍ قبله؟!

والرواية الأولى نقلناها عن الصدوق في (كمال الدين) بسنده الى ابن عباس، وكانت تنتهي بقول أبي طالب : وعجلت به حتّى رددته الى مكّة (٢).

وقد ذكر الدياربكري الرواية عن ابن عباس أيضاً ولكنّه جاء في آخرها : فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق قبل ما نبىء (٣) وعلى هذا يكون إيمان أبي بكر قد سبق نبوة النبي فضلاً عن ميلاد علي عليه السلام ! ولهذا قال الصفوري الشافعي :

(١) البداية والنهاية ٢ : ٢٨٥.

(٢) كمال الدين : ١٨٢.

(٣) تاريخ الخميس ١ : ٢٦١.

وكان إسلامه قبل أن يولد علي بن أبي طالب^(١) وتوهم النووي أن سنّ أبي بكر في هذه السفارة كان خمس عشرة، بل عشرين سنة، فقال : كان أبوبكر أسبق الناس إسلاماً، أسلم وهو ابن عشرين سنة وقيل : خمس عشرة سنة^(٢) وقد مرّ أن خبر ابن عباس كان خليّاً عن هذه الاضافة، وإنّ المعروف أنّ أبا بكر كان أصغر من النبي بأكثر من سنتين، ولم يكن مع النبي في رحلته هذه، كما ذهب اليه مغلطاي في سيرته^(٣) والدمياطي كما في (تأريخ الخميس)^(٤) ولا أظنه إلا موضوعاً باطلاً كما ذهب إليه الذهبي^(٥) من موضوعات معاوية كما روى خبرها ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة عن المدائني .

(١) نزهة المجالس ٢ : ١٤٧ .

(٢) الغدير ٧ : ٢٧٢ .

(٣) سيرة مغلطاي : ١١ .

(٤) تأريخ الخميس ١ : ٢٥٩ .

(٥) تأريخ الخميس ٢ : ٢٥٩ والسيرة الحلبية ١ : ١٢٠ . وقال الحسني في سيرته : ولكن تلك المرويات على كثرتها وشهرتها بين المؤرخين والمؤلفين في سيرته لا يكاد يثبت منها شيء عند عرضها على أصول علم الدراية، كما أشرنا الى بعض عيوبها في كتابنا (الموضوعات في الآثار والأخبار) : (سيرة المصطفى : ٤٩) ولكنه عاد في ص ٥٦ فقال «إذا كنت قد وقفت موقف المتصلب في كتابي (الموضوعات) من بعض المرويات التي يرويها المدائني عن بعض من تستروا بصحبة النبي ﷺ ورواها غيره من المؤرخين (كما رواها الصدوق في كمال الدين وتمام النعمة) فإني لا أقف نفس الموقف من حديث بحيرا الراهب، فن الجائز أن يكون قد رأى النبي ولكن دوره معه لا يعدو أن يكون دور من يرقب له النبوة عندما وجد فيه بعض العلامات التي وصفته بها الكتب القديمة كالتوراة والانجيل وغيرها.. أما بقية الأحداث والحوارات التي روتها كتب التاريخ والحديث وادّعت وقوعها في تلك الرحلة، فلو صحت لترك أثرها في مكة وما جاورها بل في شبه الجزيرة بكاملها، ولم يحدث شيء من ذلك» .

كان الله يسلك بالنبي ﷺ طريق المكارم:

روى الشريف الرضي في «نهج البلاغة» عن علي عليه السلام أنه قال في وصف الرسول ﷺ: «ولقد قرن الله به من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره»^(١).

وروى ابن أبي الحديد في شرحه: أن بعض أصحاب الإمام الباقر عليه السلام سأله عن قول الله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾^(٢) فقال عليه السلام: يوكل الله تعالى بأنبيائه ملائكة يحصون أعمالهم، ويؤدون إليهم تبليغهم الرسالة، ووكل بمحمد ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق، ويصده عن الشر ومساوىء الأخلاق^(٣).

→ وفصل هذا المعنى فقال: «إن تلك الأحداث والكرامات التي يدعيها الرواة، وبخاصة ما كان منها في طريقه إلى الشام مع تلك الحشود لم تترك أثراً على المكين الذين رافقوه في تلك الرحلة، فلا محمد قد احتج بها عليهم يوم كانوا يطاردونه من بيت إلى بيت وفي شعاب مكة وبطاحها، ولا حدث أحد من المؤرخين بأن رفاقه في تلك الرحلة كانوا يتحدثون بها لمن رجعوا إليهم في مكة وما جاورها، كل ذلك مما يرجح استبعادها».

وقال: «نبهت في كتابي (الموضوعات) على ما يرويه المحدثون والمؤرخون مما جرى له في طريقه إلى الشام وهو في قافلة تتألف من مائة وثمانين من التجار ومعاونيهم: كحديث الغمامة التي كانت تظله، والمياه التي كانت تتفجر من بطون الصحراء التي كانت تتعرض فيها حياة العشرات من المسافرين للموت عطشاً، والأشجار اليابسة التي كانت تعود إليها الحياة فتثمر من ساعتها أنواعاً من الثمار، إلى كثير من أمثال ذلك».

هذا، ولم يكن فيما رويناه إلا تظليل الغمامة إذا اشتد الحر، وعند نزوله عند الشجرة.

(١) نهج البلاغة: الخطبة القاصعة: ١٩٢ / المقطع ١١٨ عن مسعدة بن صدقة عن الباقر عليه السلام.

(٢) الجن: ٢٧.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣: ٢٠٧ وعنه في بحار الأنوار ١٥: ٣٦١.

وروى الطبري في تاريخه بسنده عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي عليه السلام قال : سمعت رسول الله يقول : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته .

قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي ، حتى أدخل مكة فأسمر^(١) بها كما يسمر الشباب فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالدف والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هذا فلان تزوج ابنة فلان . فجلست أنظر اليهم ، فضرب الله على أذني فمت ، فما أيقظني إلا مسّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ فقلت : ما صنعت شيئاً . ثم أخبرته الخبر .

ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فقال : افعل . فخرجت فسمعت حين دخلت مكة مثل ما سمعت حين دخلتها تلك الليلة ، فجلست أنظر ، فضرب الله على أذني ، فما أيقظني إلا مسّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي فأخبرته الخبر . ثم ما هممت بعدها بسوء ، حتى أكرمني الله برسالته^(٢) .

وقال ابن إسحاق : شبّ رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - والله تعالى يكلّؤه ويحفظه ويحوطه من أقدار الجاهلية ، لما يريد به من كرامة ورسالة ، حتى بلغ أن كان رجلاً ، أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حليماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانةً حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين ، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال ، تنزهاً وتكرماً ، جمع الله فيه كل ذلك^(٣) .

(١) سهرة الليل . (٢) الطبري ٢ : ٢٧٩ ورواه عنه ابن أبي الحديد ١٣ : ٢٠٧ .

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٩٤ ثم قال : وذكر لي : أن رسول الله - صلى الله عليه [وآله]

حرب الفجار:

روى أبو الفرج الإصبهاني: أنه كانت للعرب حروب أربع سُميت بالفجار، لما استحل فيها من المحارم:

فالفجار الأول: كان بين كِنانة وهوازن. وكان السبب فيه: أن بدر ابن معشر الكِناني كان حَدِثًا منيعاً في نفسه، فحضر سوق عكاظ ومعه حيٌّ من كِنانة، وعقد لنفسه مجلساً يفتخر فيه، فتصدَّى له الأحير بن مازن ومعه حيٌّ من

→ وسلم - كان مما يحدث به عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال: لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل الحجارة لبعض ما نلعب به، فإني أقبل معهم وأدبر، وكلنا قد أخذ إزاره فجعله على عاتقه ليحمل عليه الحجارة فتعزَّى! إذ لكني لاكم ثم قال: شدّ عليك إزارك، وما أراه! فأخذته وشدته عليّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليّ من بين أصحابي.

وقال السهيلي في (الروض الأنف) في التعليق على هذه القصة «وهذه القصة أنما وردت في الحديث الصحيح (!) في حين بنیان الكعبة: أن رسول الله كان ينقل الحجارة مع قومه إليها، وكانوا يحملون أزرهم على عواتقهم لتقيهم الحجارة! وكان رسول الله يحملها على عاتقه وإزاره مشدود عليه، فقال له العباس: يا بن أخي لو جعلت إزارك على عاتقك. ففعل فسقط مغشياً عليه! فضمه العباس إلى نفسه وسأله عن شأنه، فأخبره أنه نودي من السماء: أن أشدد عليك إزارك يا محمد! ثم قال: إزاري إزاري! فشدّ عليه إزاره، فقام يحمل الحجارة» ثم قال: «فإن صحّ حديث ابن إسحاق أن ذلك كان في صغره إذ كان يلعب مع الغلمان، فحمله على أن هذا الأمر كان مرتين: مرة في صغره، ومرة في أول اكتهاله (!) عند بنیان الكعبة»! وقال القسطلاني قريباً منه في فتح الباري ١: ٤٠١.

أما نحن فنقول: إن صحّ من هذه القصة شيء فإنما نحتمل قصة ابن إسحاق - وقد روى نحوه ابن أبي الحديد عن أمالي محمد بن حبيب - أما أنه كان ذلك عند اكتهاله! بأمر عمه العباس! ومعه رجال قومه كذلك! فهذا مما لا يحتمله عقل أي عاقل قط. وللتفصيل انظر الصحيح للسيد جعفر مرتضى ١: ١٣٦ - ١٤٤.

بني هوازن، فكادت الحرب أن تقع ثم رأوا أن الخطب يسير فتراجعوا عن الحرب، وحيث كان سوق عكاظ في رجب الحرام سميت الحادثة فجاراً.

والفجار الثاني: كان بين قريش وهوازن. وكان السبب فيه: أن فتية من قريش تعرّضوا لامرأة من هوازن، فهاجت الحرب ووقع القتال وأريقت دماء يسيرة، وكان على قريش حرب بن أمية بن عبد شمس فتحمل دية ما وقع وتصلح. والفجار الثالث: كان بين كنانة وهوازن أيضاً. وكان السبب فيه: أن رجلاً من كنانة كانت عليه دية لرجل من هوازن فاقتقر وعجز عنها فلما حضروا سوق عكاظ قام الرجل صاحب الدية من هوازن فعيّر بني كنانة بذلك، فقام إليه كناني فضربه، فتهايج الحيّان الى الحرب، ثم رأوا أن الخطب يسير فتحملت كنانة الدية فتراجعوا.

والفجار الرابع: كان بين كنانة وقريش وبين هوازن وقيس عيلان. وكان السبب فيه: انّ النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث في كلّ عام قافلة تجارة بالبزّ والطيب الى سوق عكاظ لتباع هناك، ثم يشتري له بثمانها من آدم الطائف ما يحتاج اليه^(١) وكان لا يعرض لها أحد من العرب حتّى قتل النعمان رجلاً من قيس فكان بلعاء بن قيس بعد ذلك يُغير على قافلة النعمان وكان البرّاض بن قيس الكناني بمكة في جوار حرب بن أمية بن عبد شمس فوثب على رجل من هذيل فقتله، فأخرجه حرب بن أمية من جواره فلحق بالنعمان بن المنذر، فاجتمع عنده بعروة الرّحال من هوازن، فقال النعمان لهما: من منكما يجير لطائمي - أي القوافل التجارية - فتصدّي عروة لذلك، ونازعه البرّاض، فلما توجه عروة لينصرف بالقافلة^(٢) قال له البرّاض الكناني: اتجيرها على كنانة؟! قال: نعم وعلى الخلق كلّ!

(١) الأغاني ١٩ : ٧٤ - ٨٠ ط بولاق، باختصار. والادّام بفتحيتين: جمع الادّيم: الجلد المدبوغ.

(٢) اليعقوبي ٢ : ١٥.

فخرج فيها عروة الرّحال، وخرج البرّاض يطلب غفلته، حتّى إذا كان في وادي تيمن بعالية نجد^(١) أو أواره قريبة من تيمن الى جانب فذك، نزل عروة ليلة وجلس في سهرة تغنيه قينة ويشرب فيها الخمر، الى أن قام فنام، فدخل عليه البرّاض الكنانى ليقتله، فاعتذر اليه عروة فلم يسمع منه وقتله^(٢) في الشهر الحرام^(٣) شهر رجب^(٤) فلذلك سمّي الفجار.

وكانت قريش وكنانة في الشهر الحرام بعكاظ، وهوازن كذلك، فأتى آت قريشاً وقال لهم: إنّ البرّاض الكنانى قد قتل عروة الرّحال من هوازن! فارتحلت كنانة وقريش ولم تشعر هوازن بالأمر ثمّ بلغ الخبر الى هوازن فاتبعوا قريشاً فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتّى جاء الليل، والتقوا بعد هذا اليوم أياماً وعلى كلّ قبيل من قريش وكنانة رئيس منهم، وعلى كلّ قبيل من قيس وهوازن رئيس منهم. قال ابن إسحاق: وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أميّة بن عبد شمس^(٥) فاقتتلوا في رجب، وكان عندهم الشهر الحرام الذي لا تسفك فيه الدماء، فسّمّي الفجار لأنهم فجروا في شهر حرام.

أمّا بنو هاشم من قريش، فقد روي: أن أبا طالب قال: هذا ظلم وعدوان وقطيعة واستحلال للشهر الحرام، فلا أحضره ولا أحد من أهلي! فقال حرب بن أميّة وعبد الله بن جدعان التيمي: لا نحضر أمراً تغيب عنه بنو هاشم، فأخرج الزبير بن عبد المطلب مستكراً على رأس قبيل من بني هاشم.

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢: ١٩٦.

(٢) الأغاني ١٩: ٧٥.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٩٦.

(٤) اليعقوبي ٢: ١٥.

(٥) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٩٦ - ١٩٨.

وقالوا لأبي طالب : يا بن مطعم الطير وساقى الحجيج ! لا تغب عنا ، فإننا نرى مع حضورك الظفر والغلبة . قال : فاجتنبوا الظلم والعدوان ، والقطيعة والبهتان فإني لا أغيب عنكم .

فقالوا : ذلك لك . فلم يزل يحضر حتى فتح عليهم .
ف قيل : إن أبا طالب كان يحضر ومعه رسول الله ، فإذا حضر هزمت كنانة قيساً ، فعرفوا البركة بحضوره .
وروي عن رسول الله أنه قال : شهدت الفجار مع عمي أبي طالب ، وأنا غلام .

وروي بعضهم : أنه شهد الفجار وهو ابن عشرين سنة ، وطعن أبا براء ملاعب الأسنة فأرداه عن فرسه ، وجاء الفتح من قبله^(١) .

(١) اليعقوبي ٢ : ١١٥ - ١١٦ وقال قبل هذا : شهد رسول الله الفجار وله سبع عشرة سنة .
وقال ابن هشام : حدثني أبو عبيدة النحوي ، عن أبي عمرو بن العلاء : أنه لما بلغ رسول الله أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة ، هاجت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس عيلان . وشهد رسول الله بعض أيامهم ، أخرجه أعمامه معهم . وقال رسول الله « كنت أنبل مع أعمامي » أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها .
وقال ابن إسحاق : هاجت حرب الفجار ورسول الله ابن عشرين سنة . وإنما سمي يوم الفجار بما استحل هذان الحيات : كنانة وقيس عيلان من المحارم بينهم فيه (سيرة ابن هشام ١ : ١٩٥ - ١٩٨) .

ولهذا قال في (السيرة الحلبية ١ : ١٢٨) : أن سبب الفجار كان في رجب الحرام أما الحرب فكان في شعبان . وبهذا برّر مشاركة أبي طالب ومعه رسول الله في الحرب .
ولكن السيد المرتضى رأى أن هذا التوجيه لا يعتمد على أي سند تاريخي ، فلم يجد مجالاً للتعويل عليه ، وشك في صحة القصة . (الصحيح ١ : ٩٥) .

ميلاد علي عليه السلام:

قال الكليني في «اصول الكافي»: «بعد عام الفيل بثلاثين سنة ولد أمير المؤمنين عليه السلام»^(١).

وقال الشريف الرضي في «خصائص الأئمة»: «ولثلاث عشرة ليلة خلت من رجب، بعد عام الفيل بثلاثين سنة، ولد في البيت الحرام علي عليه السلام»^(٢).

→ ولا يخفى أن ابن إسحاق والطبري لم يرويا مشاركة النبي ولا حضوره في الحرب، وإنما روى ابن هشام حضوره مع أعمامه ومساعدته لهم في الحرب وهو ابن خمس عشرة سنة. وروى اليعقوبي حضوره فقط وله سبع عشرة سنة، ثم روى عن غيره حضوره ومشاركته في الحرب وهو ابن عشرين سنة (اليعقوبي ٢ : ١٥).

وقال المسعودي: كان مولده عليه الصلاة والسلام عام الفيل، وكان بين عام الفيل وعام الفجار عشرون سنة (٢: ٢٦٨) وقال: وقد قدمنا في كتابنا الأوسط أخبار الأحلاف والفجارات الأربعة: فجار الرجل - أو فجار بدر بن معشر - وفجار القرد، وفجار المرأة، والفجار الرابع هو فجار البراض الذي كان فيه القتال وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قد حضر وشاهد الفجار الرابع (٢: ٢٧٦) وقال: أنه عليه السلام شهد يوم حرب الفجار وذلك في سنة إحدى وعشرين (من مولده) وهي حرب كانت بين قريش وقيس عيلان، وكانت لقيس على قريش، وإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما شاهدها صارت لقريش على قيس، وكان على قريش يومئذ عبد الله بن جُدعان التيمي، وكانت هذه إحدى الدلائل المنذرة بنبوته عليه السلام التيمن بحضوره (٢: ٢٨٦). وقد يكون الاختلاف في سن النبي في حضوره الفجار ناشئاً من تعدد الفجارات ووقوعها في طول هذه السنين وعدم تعيين حضوره في الرابع منها.

(١) اصول الكافي ١ : ٤٥٢ وبعده: وبقي بعد قبض النبي ثلاثين سنة وقتل سنة أربعين من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة. ثم روى بسنده عن الصادق عليه السلام قال: كان بين رسول الله وأمير المؤمنين ثلاثون سنة. وكأنه استند إلى هذا الخبر في تأريخ ميلاد علي عليه السلام. وانظر وقارن: خاتمة قاموس الرجال ١٢ : ٧ و٨.

(٢) خصائص الأئمة : ٣٩.

وقال شيخه المفيد في «الارشاد»: في «يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب سنة ثلاثين من عام الفيل، ولد - علي عليه السلام - بمكة في البيت الحرام - ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله تعالى - سواء، إكراماً من الله تعالى جل اسمه له، واجلالاً لمحلّه في التعظيم»^(١).

وذكره معاصراه: المسعودي في «مروج الذهب» قال: «وكان مولده في الكعبة...»^(٢) والآخر: الحسن بن محمد القمي في كتابه «تأريخ قم» الذي ألفه للصاحب بن عباد سنة ٣٧٨ قال: «سنة ثلاثين من عام الفيل، وفي رواية: سنة ثمان وعشرين منه، كانت ولادة أمير المؤمنين في الكعبة...»^(٣).

وكشف الشيخ الطوسي عن مصدر القول الأخير في كتابه «مصباح المتجهد» فقال: «عن عتاب بن أسيد: ولد.. وللبني ثمان وعشرون سنة، وقبل نبوته باثنتي عشرة سنة، وكذلك عن ابن عياش»^(٤).

وروى الفثال النيسابوري في «روضة الواعظين» عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: سألت رسول الله ﷺ عن ميلاد علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: «لقد سألتني عن خير مولود ولد في شبه المسيح عليه السلام كان في زماننا رجل زاهد عابد يقال له: المبرم بن دعيب بن الشقيان، قد عبد الله مائتين وسبعين سنة، لم يسأل الله حاجة. فبعث الله إليه أبا طالب، فلما أبصره المبرم قام إليه وقبل رأسه وأجلسه بين

(١) الإرشاد ١ : ٥، ومسار الشيعة : ٥١ ط مصر، والمقنعة : ٤٦١ ط . قم .

(٢) مروج الذهب ٢ : ٣٤٨. ومثله عن علي بن إبراهيم القمي في علل الشرائع كما في بحار الأنوار ٩٩ : ٣٧٠.

(٣) عن الترجمة الفارسية للحسن بن علي القمي، ترجمه للوزير فخر الدين سنة ٨٦٥ ص ١٩١ ط سنة ١٣٥٣ هـ.

(٤) مصباح المتجهد : ٥٦٠.

يديه، ثم قال له : من أنت ؟ فقال : رجل من تهامة، فقال : من أي تهامة ؟ قال : من بني هاشم . فوثب العابد فقبل رأسه مرة ثانية ثم قال : يا هذا، إنَّ العليَّ الأعلى ألهمني إلهاماً . قال أبو طالب : وما هو ؟ قال : ولدٌ يولد من ظهرك، وهو وليُّ الله عزوجل . فلما كانت الليلة التي ولد فيها علي عليه السلام أشرقَت الأرض، فخرج أبو طالب وهو يقول : أيها الناس، ولد في الكعبة وليُّ الله عزوجل»^(١) ورواه ابن شهر آشوب في «المناقب»^(٢) والكنجي الشافعي (ت ٦٥٨) في كتابه «كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب» مسنداً^(٣).

وروى المغازلي في «المناقب» مرفوعاً إلى علي بن الحسين عليه السلام قال : كنا عند الحسين عليه السلام إذ أقبلت امرأة قالت : أنا زبدة بنت قُريبة بن العجلان من بني ساعدة . فقلت لها : فهل عندك شيء تحدّثينا به ؟ فقالت : إني والله، حدثتني أمّ عمارة الساعدية : أنها كانت ذات يوم في نساء العرب، إذ أقبل أبو طالب كئيباً حزيناً فقلت له : ما شأنك ؟ فقال : إنَّ فاطمة بنت أسد في شدة من المخاض . ثم أخذ بيدها وجاء بها إلى الكعبة وقال لها : اجلسي على اسم الله»^(٤).

وروى ابن الصباغ المالكي بسنده عن موسى بن جعفر عليه السلام قال : «دخل النبي ﷺ المسجد الحرام يوماً فرأى فيه أبا طالب مهموماً مغموماً . فقال له : يا عمّ، ما لي أراك مغموماً ؟ فقال : إنَّ فاطمة قد أخذها الطلق . فأخذ النبي بيد أبي طالب

(١) روضة الواعظين : ٩٦ .

(٢) المناقب ١ : ٣٥٨ .

(٣) كفاية الطالب : ٢٦٠ .

(٤) المناقب لابن المغازلي المالكي : ورواه عنه ابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة : ١٤ ورواه عنه ابن البطريق الحلبي من المائة السادسة مسنداً إلى علي بن الحسين عليه السلام، كما في كتاب : علي وليد الكعبة : ٤٧ ط النجف .

وأُتيا بفاطمة الى الكعبة وادخلها النبي الكعبة وقال لها : اجلسي باسم الله ، فإنّ هذا المولود المكرّم ينبغي أن يولد في هذا الموضع المحرّم»^(١).

وروى الصدوق في «الأُمالي» و«علل الشرائع» و«معاني الأخبار» بسنده عن أبي حمزة الثمالي ثابت بن دينار عن سعيد بن جُبَيْر قال : قال يزيد بن قعنب : «كنت جالسا مع العباس بن عبدالمطلب وفريق من بني عبد العزّي ، بإزاء بيت الله الحرام إذ أقبلت فاطمة بنت أسد أمّ أمير المؤمنين ، وكانت حاملاً به لتسعة أشهر ، وقد أخذها الطلق ، فقالت :

«يا ربّ إنّي مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب ، وإنّي مصدّقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل ، وأتّه بنى البيت العتيق فبحقّ الذي بنى هذا البيت ، وبحقّ المولود الذي في بطني .. إلّا ما يسّرت عليّ ولادتي».

فراينا البيت قد انشقّ عن ظهره ودخلت فاطمة فيه وغابت عن أبصارنا وعاد الى حاله . فرمنا أن ينفّتح لنا قفل الباب فلم ينفّتح ، فعلمنا أنّ ذلك من أمر الله تعالى»^(٢).

ورواه الطوسي في «أُماليه» بسنده عن الصادق عليه السلام عن آبائه ، قال : «كان العباس بن عبدالمطلب ويزيد بن قعنب جالسين ما بين فريق من بني هاشم الى فريق من عبدالعزّي ، بإزاء بيت الله الحرام ، إذ أتت فاطمة بنت أسد حاملة بأمير المؤمنين .. فوقف بإزاء البيت الحرام - وقد أخذها الطلق - فرمت بطرفها نحو السماء ودعت .. فلما دعت رأينا البيت قد انفتح من ظهره ودخلت فاطمة فيه وغابت عن أبصارنا ثمّ عادت الفتحة والتزقت بإذن الله ..

(١) الفصول المهمة : ١٤ .

(٢) امالي الصدوق : ١١٤ وعلل الشرائع ١ : ١٦٤ . ومعاني الأخبار : ٦٢ .

وبقيت فاطمة في البيت ثلاثة أيام، وأهل مكة يتحدثون بذلك في أفواه السكك، وتتحدث المخدرات في خدروهن. فلما كان بعد ثلاثة أيام انفتح البيت من الموضع الذي كانت دخلت فيه، فخرجت فاطمة وعليّ عليّ يديها»^(١).
وروى الفتحال النيسابوري في «روضة الواعظين» خبراً مختصراً عن علي بن الحسين عليه السلام قال :

«إنّ فاطمة بنت أسد، ضربها الطلق وهي في الطواف، فدخلت الكعبة، فولدت أمير المؤمنين فيها»^(٢).

وفي آخر خبر موسى بن جعفر عليه السلام قال : «فولدت علياً في الكعبة، طاهراً مطهراً لم يكن فيه كثافة (كذا) وولد مختوناً مقطوع السرة، ووجهه يضيء كالشمس، فسماه أبو طالب علياً، وحمله النبي وأتى به الى البيت»^(٣).

وفي عام الولادة قال صاحب مجلة «العمران» المصرية : عبد المسيح الانطاكي : «وعام مولده عليه صلوات الله هو العام المبارك الذي بدىء فيه برسول الله ﷺ، فأخذ يسمع الهتاف من الأحجار والأشجار ومن السماء، وكشف عن بصره فشاهد أنواراً وأشخاصاً، وفي هذا العام ابتدأ بالتبتل والإنقطاع والعزلة في جبل حراء. وكان ﷺ يمين ذلك العام وبولادة سيدنا علي عليه السلام، وكان يسميه «سنة الخير والبركة».

وعندما بلغته البشرية بولادة المرتضى قال المصطفى :

(١) أمالي الطوسي : ٧٠٦ بثلاثة طرق ورواه ابن شهر آشوب في مناقب آل أبي طالب ١ : ٣٥٩ عنه عليه السلام مختصراً.

(٢) روضة الواعظين : ١٠٠ ط . قم المقدسة .

(٣) الفصول المهمة : ١٤ .

«لقد ولد لنا الليلة مولود، يفتح الله علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة» وكان قوله هذا أول نبؤته، فإن المرتضى - عليه صلوات الله - كان ناصره والمحمي عنه وكاشف الغم عن وجهه، وبسيفه ثبت الإسلام ورسخت دعائمه وتمهدت قواعده»^(١).

حلف الفضول:

وانتهى الفجار في شوال، وفي ذي القعدة كان حلف الفضول^(٢). قال اليعقوبي «وكان سبب حلف الفضول : أن قريشاً تحالفت أحلافاً كثيرة على الحمية والمنعة :

فتحالفت المطييون؛ وهم : بنو عبد مناف، وبنو أسد، وبنو زهرة، وبنو «تيم»، وبنو الحارث بن فهر، على أن لا يسلموا الكعبة، ما أقام حراء، وثير، وما بل بحر صوفة وصنعت عاتكة أو البيضاء بنت عبد المطلب طيباً فغمسوا أيديهم فيه (فسموا المطييين).

(١) مجلة العمران المصرية، كما في كتاب : علي وليد الكعبة : ٦١ ولم يعين عدد المجلة ولا سنتها. علّق الصحافي المصري عبد المسيح الأنطاكي بكلامه هذا على قصيدته «العلوية المباركة» التي تحتوي على خمسة آلاف بيت في حياة أمير المؤمنين عليه السلام من دون أن يستند في ذلك إلى مصدر من حديث أو تاريخ، وإن كان كلامه هذا مما يساعد عليه الاعتبار بسائر الأخبار المعتمدة.

وعلى المعتمد من الخبر في تاريخ ولادته عليه السلام يكون عمره عند بعثة الرسول صلى الله عليه وآله عشر سنين، وعلى ما رواه الطوسي عن ابن عياش وابن غياث يكون عمره في الثانية عشرة وعلى الأكثر في الثالثة عشرة، وعند إعلان الدعوة وتعميمها في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره.

وتحالفت اللعقة؛ وهم: بنو عبد الدار، وبنو مخزوم، وبنو جمح، وبنو سهم، وبنو عدي؛ على أن يمنع بعضهم بعضاً ويعقل بعضهم عن بعض، وذبحوا بقرة فغمسوا أيديهم في دمها، (فستوا لعقة الدّم، والأحلاف).

فكانت قريش (أي الأحلاف) تظلم في الحرم الغريب ومن لا عشيرة له: حتى أتى رجل من بني أسد بن خزيمه بتجارة فاشتراها رجل من بني سهم^(١) فأخذها السهمي وأبى أن يعطيه الثمن؛ فكلم قريشاً واستجار بها وسألها اعانته على أخذ حقه فلم يأخذ له أحد بحقه؛ فصعد الأسدي أبا قبيس فنادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته بطن مكة نائي الأهل والنفر
إنّ الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدير
وقيل: إنّ الرجل كان قيس بن شيبه السلمي باع متاعاً من أبي خلف الجمحي وذهب بحقه، فقال هذا الشعر. وقيل: بل قال:

يا آل قصي كيف هذا في الحرم وحرمة البيت وأخلاق الكرم
أظلم، لا يمنع مني من ظلم^(٢)

فكان أول من سعى في ذلك الزبير بن عبد المطلب فشنى في قبائل قريش فاجتمعوا في دار الندوة، وهم: بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو الحارث بن فهر، فاتفقوا على أنهم ينصفون المظلوم من الظالم. ثم ساروا إلى دار عبد الله بن جدعان فتحالفوا هنالك. وقال الزبير ابن عبد المطلب في ذلك:

(١) صرح البلاذري في أنساب الأشراف ٢: ١٢ وكذلك المسعودي أنه: العاص بن وائل السهمي أبو عمرو بن العاص، ولعل الرواة اتقوه فكتّوا عنه ولم يصرحوا به. ورواها ابن أبي الحديد ١٥: ٢٥ عن الزبير بن بكار وزاد في الشعر:

هل منصف من بني سهم فرتجع ما غيبوا، ام حلال مال معتمر

(٢) اليعقوبي ٢: ١٧.

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم وان كنّا جميعاً أهل دار
نسمّيه الفضول إذا عقدنا يعزّز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنّا أباة الضّيم نهجر كلّ عار^(١)

ثمّ انصفوا الرجل التاجر الغريب من القرشي العاص بن وائل السهمي^(٢).
فروى ابن اسحاق بسنده عن رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلّم -
أنّه كان يقول لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحبّ أن لي به حمر
النّعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت^(٣).

ثمّ روى: أنّه كان بين الحسين بن علي عليه السلام وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان
- والوليد يومئذ أمير على المدينة أمره عليها عمّه معاوية بن أبي سفيان - منازعة في
مال كان بينهما بذي المزوة - قرية بوادي القرى - فكان الوليد تحامل على
الحسين عليه السلام في حقه، فقال له الحسين: أحلف بالله لتنصفني من حقّي أو لاخذنّ
سيفي ثمّ لأقومن في مسجد رسول الله، ثمّ لأدعون بحلف الفضول!.
وكان عبدالله بن الزبير عند الوليد فقال: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لاخذنّ
سيفي ثمّ لأقومنّ معه حتّى يُنصف من حقه او نموت جميعاً!.

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٧١. الطبقات الكبرى ١ : ١٢٩ ط بيروت.

(٢) البداية والنهاية ٢ : ٢٩٢ والسيرة الحلبية ١ : ١٣٢ وسيرة دحلان ١ : ٥٣.

(٣) سيرة ابن هشام ١ : ١٤١ وأنساب الأشراف ٢ : ١٢ - ١٥ بخمسة طرق وألفاظ متقاربة
واليعقوبي ٢ : ١٧ والبدایة والنهاية ٢ : ٢٩٣ وتاريخ الخميس ١ : ٢٦١ والسيرة الحلبية ١ :
١٣١ والسيرة النبوية لدحلان ١ : ٥٣ وروى البلاذري أنّه قدم مكّة رجل تاجر من خثعم
ومعه ابنة له يقال لها : القتول ، فعلقها نبيه بن الحجاج السهمي فلم يبرح حتّى نقلها الى منزله
بالقهر والغلبة ! فدلّ أبوها على أهل حلف الفضول فأتاهم فأخذوها من نبيه ودفعوها الى أبيها
(أنساب الأشراف ٢ : ١٤).

وبلغ هذا المِسور بن مخرمة بن نوفل الزُهري فقال مثل ذلك!.

وبلغ ذلك الى عبدالرحمن بن عثمان التيمي فقال مثل ذلك!.

فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي ﷺ^(١) ثم روى: أن محمد بن جبير بن مطعم العدوي قدم على عبدالملك بن مروان - وكان محمد بن جبير أعلم الناس بقریش - فقال له عبدالملك: يا أبا سعيد ألم نكن نحن وانتم - يعني بني عبد شمس وبني نوفل ابن عبد مناف - في حلف الفضول؟ قال: أنت أعلم، قال عبدالملك: لتخبرني يا أبا سعيد بالحق من ذلك. فقال: لا والله، لقد خرجنا نحن وانتم منه! قال: صدقت^(٢).

وقد روى أبو هلال العسكري الخبر الذي رواه ابن اسحاق عن تحامل الوليد على حق الإمام الحسين ﷺ في أرض له بذي المروة، على غير مارواه ابن اسحاق، فقال: كان بين الحسين ﷺ وبين معاوية كلام في أرض للحسين. فقال الحسين لابن الزبير: خيرّه في ثلاثة والرابعة الصّيلم - أي الصّدام المسلّح -: أن يجعلك أو ابن عمر بيني وبينه، أو يشتريه مني، أو يقرّ بحقي ثم يسألني أن أهبه له، فإن أبي فوالذي نفسي بيده لأهتفنّ بحلف الفضول^(٣).

وليس مفاد نداء ابن الزبير بحلف الفضول الى جانب الإمام الحسين ﷺ أنّه كان وفياً مخلصاً في ذلك، بل كان الى معاوية وعامله الوليد أقرب منه الى الحسين ﷺ، ولكنّه كان يتعرّز بهذا وأمثاله.

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٤٢ وأنساب الأشراف ٢ : ١٤ والبداية والنهاية ٢ : ٢٩٣ والسيرة الحلبية ١ : ١٣٢ والسيرة النبوية لدحلان ١ : ٥٣ والكامل لابن الأثير ٢ : ٤٢.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٤٣ والبلاذري في أنساب الأشراف ٢ : ١٤ عن الواقدي والكلبي وشرح النهج للمعتزلي ١٥ : ٢٢٧ عن الزبير بن بكار.

(٣) الأوائل ١ : ٧٣، ٧٤.

فقد جاء في رواية لأبي الفرج : أنَّ معاوية قدم المدينة فلم يزرها الإمام الحسين عليه السلام فأظهر معاوية انزعاجه من ذلك، فأغراه به ابن الزبير! فلم يستجب له معاوية، فقال له ابن الزبير : أما والله اني وإياه ليد عليك بحلف الفضول! فقال له معاوية : من أنت وحلف الفضول^{(١)؟}!

ومما ورد في قدوم محمد بن جبير بن مطعم على عبد الملك بن مروان وسؤاله منه عن دخول بني عبد شمس في حلف الفضول، يظهر أنهم كانوا بصدد تقرير هذا المعنى على الناس، ولذلك روى راويتهم أبو هريرة : أنَّ بني أمية كانوا في حلف الفضول، وأنَّ أبا سفيان كان ممن دعا الناس اليه مع العباس بن عبد المطلب، ولعلَّ حشر العباس معه لتبديد التهمة عن الرواية. وإنَّ كان لم يتابعه عليه أحد بل أنكره غير واحد من المؤرِّخين^(٢).

وقد قرر غير واحد من المؤرِّخين أنَّ سببه كان عصيان العاص بن وائل السهمي على الرجل التاجر الغريب وحبسه حقّه، وقد سبق أنَّ بني سهم وبني عبد شمس كانوا من الأحلاف في لعقة الدّم، فيكون معنى دعوة أبي سفيان اليه ودخول بني أمية فيه أنهم دخلوا في حلف خلاف حلف الأحلاف في لعقة الدّم، وهذا ما لم يقله أحد.

وقد روى ابن اسحاق عن رسول الله ﷺ أنّه قال : ما كان من حلف في الجاهلية فإنَّ الإسلام لم يزدّه إلّا شدة^(٣).

(١) الأغاني ٨ : ١٠٨.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي. والبداية والنهاية ٢ : ٢٩١ والسيرة الحلبية ١ : ١٣١ والسيرة النبوية لدحلان ١ : ٥٣.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٤٠ وعن الترمذي ٤ : ١٤٦ وفتح الباري ٨ : ١٧٣ والمصنف للحافظ عبد الرزاق ١٠ : ٣٧٠ وفي هامشه عن مسلم والدارمي.

وروى ابن منظور هذا الحديث في «لسان العرب» فقال : يريد المعاقدة على الخير ونصرة الحق، وبذا يجتمع هذا الحديث وحديث آخر له هو «لا حلف في الإسلام» على أن يكون المراد من هذا الحديث الثاني النهي عما كانت تفعله الجاهلية من المحالفة على الفتن والقتال بين القبائل والغارات.

وقيل : إن الحديث الثاني وهو «لا حلف في الإسلام» جاء لاحقاً، قاله الرسول - صلى الله عليه [وآله] وسلم - زمن الفتح، فهو ناسخ للحديث الأول^(١). ولعل خصوصية بعد الفتح أن يشمل إمضاه ﷺ في هذا الحديث للحلف الذي كان قد عقده جدّه عبد المطلب مع جمع من خزاعة، فلما قتلت قريش عدداً من خزاعة استنصروا النبي استناداً إليه فكان فتح مكة مستنداً إليه.

وهذا يدل على أن الإسلام بما أنه مع مقتضيات العقل والفطرة الطبيعية الإنسانية لذلك يستجيب لكل ما ينسجم مع أهدافه السامية مما فيه خير الانسان وصلاحه. وقد أمضى هذين الحلفين من عبد المطلب مع خزاعة، والزبير في حلف الفضول لما فيها من الفضل والعدل، ولو كان هناك أي حلف آخر ينسجم مع أهدافه لأمضاه كذلك. أمّا ما روه عنه ﷺ مما يدل على لزوم التمسك بكلّ الأحلاف الجاهلية فإنما هي دعوة خبيثة مريضة في أغراضها اللاإسلامية.

أمّا عن علل استجابة من استجاب لهذا الحلف فبإمكاننا أن نعدّ ثلاثة عوامل :

أ - استجابة لنداء الوجدان الاخلاقي الانساني والدافع الفطري وحكم عقولهم.

(١) لسان العرب مادة حلف، وعنه في هامش سيرة ابن هشام ١ : ١٤٠.

ب - حفاظاً على 'قدسية مكة المكرمة وكرامة أهلها في نفوس العرب أي ثاراً لكرامتهم.

ج - دفاعاً عن منافعهم ومصالحهم المادية في قوافلهم ورحلاتهم التجارية ووفود العرب اليهم.

رعي النبي ﷺ للغنم:

لم يروَ عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن رسول الله ﷺ كان يرعى الأغنام، اللهم إلا ما رواه الشيخ الصدوق في (علل الشرائع)، بسنده إلى الإمام الصادق عليه السلام أنه قال «ما بعث الله نبياً قط حتى يسترعيه الغنم، يعلمه بذلك رعيه الناس» وأيضاً فيه عنه عليه السلام قال: «إن الله عز وجل أحب لأنبيائه من الأعمال: الحرث والرعي، لثلا يكرهوا شيئاً من قطر السماء»^(١) ورواه الكليني في (فروع الكافي) هكذا «إن الله جعل أرزاق أنبيائه في الزرع والضرع، لثلا يكرهوا شيئاً من قطر السماء»^(٢). ورواه البخاري بسنده إلى أبي هريرة عنه أنه كان يقول «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟ قال: نعم، كنت أرهاها على قراريط، لأهل

(١) علل الشرائع: ٤٦ ط. بيروت.

(٢) فروع الكافي ١: ٤٠٣ أضف إلى ذلك ما رواه الطبري في تاريخه بسنده عن محمد ابن الحنفية عن أبيه علي عليه السلام قال: «سمعت رسول الله يقول: «قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة - لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة -» (الطبري ٢: ٢٧٩ ورواه عنه ابن أبي الحديد في شرح النهج).

وأضف إليه ما نقله الشيخ الطبرسي في «إعلام الوري» عن علي بن ابراهيم القمي في كتابه قال: «وكان بين الجبال يرعى غنماً لأبي طالب» (اعلام الوري ١: ١٠٢ والمناقب ١: ٤٣. وليس في تفسيره).

مكة»^(١) وبما أن الخبر مشتمل على جملة «لأهل مكة» لذلك ذكره البخاري في كتاب الإجارة، ولذلك فسروا القراريط بأنها: أجزاء الدراهم والدنانير يشتري بها الحوائج الحقيرة!

ولكن في شرح الحديث في (فتح الباري) نقل عن إبراهيم الحربي أنه كان يقول: إن العرب ما كانت تعرف القراريط، وإنما هي اسم لمكان في مكة. ويؤيد هذا أن لفظ الخبر في بعض رواياته: بالقراريط، وفي أخرى: بأجياد، مما يفيد أن القراريط وأجياداً اسم لمكان واحد أو متداخل أو متقارب. ولا يضر لفظ: على قراريط، إذ هو اسم جبل كما نقله الطريحي في (المجمع) عن الجوهرى قال «وأما القيراط الذي جاء في الحديث فقد جاء تفسيره فيه: أنه مثل جبل أحد» فيكون المعنى: أنه ﷺ قد رعى الغنم على ذلك الجبل بأجياد، وهذا هو الأوفق بالاعتبار فإن الرعي لا يكون في سهل مكة في البلد.

وحاول بعضهم أن يوجه فهم البخاري للحديث بما نقل في (فتح الباري) عن بعضهم قولهم: لا يعرف مكان في مكة بهذا الاسم. وردّه السيد المرتضى العاملي بقوله: إن عدم معرفته الآن لا يستلزم عدم معرفته في ذلك الزمان^(٢). فلا يبقى إلا أن نشك قوياً في أن يكون ﷺ قد رعى لغير أهله بأجر، ولا يجدي البخاري لفظ روايته عن أبي هريرة: لأهل مكة، فإن بعضها يقول: لأهلي. وإذا كان الراوي هو أبو هريرة فلم يبق ما يعين معنى إجارة رسول الله نفسه لأهل مكة.

على أن أبا هريرة ممن لا يمكن الاعتماد عليه أصلاً.

(١) فتح الباري وبهامشه البخاري ٤ : ٣٦٣ وعنه في السيرة الحلبية ١ : ١٢٥ وسيرة دحلان

(٢) الصحيح ١ : ١٠٩.

هذا، وقد روى يعقوبي وابن كثير عن عمار بن ياسر أنه قال : «أنه ما كان أجيراً لأحد قط»^(١).

وقد تقول في (فتح الباري) شرحاً لفلسفة رعيه للغنم، وتبعه بعض كتّاب السيرة كالحلي وزيني دحلان^(٢) ولا نراه يتفق والقواعد العقائدية بشأن الأنبياء والمرسلين. فإن صحّ رعيه للغنم أصلاً - وهو الصحيح - فلا علة له سوى ما جاء في رواية الشيخ الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام، في كتابه (علل الشرائع). ويمكن تفصيل ذلك التعليل بما نقله السيد المرتضى العاملي من قول البعض : إن الرعي فيه تحمل مسؤولية آحاد متفرقة، وهو يناسب المهمة التي سوف توكل اليه، الأمر الذي من شأنه أن يروّض النفس ويزيدها اندفاعاً نحو طلب الخير للآخرين من رعايته لهم والحرص على ما ينفعهم. وقد كان الله تعالى يهتم في رفع مستوى تحمّل وملكات وقدرات نبيه ليواجه المسؤولية العظمى، ولكن بالطرق العادية والطبيعية، كما هو معلوم»^(٣).

السفر الثاني للنبي ﷺ إلى الشام، وزواجه بخديجة:

روى القطب الراوندي في كتابه (الخرائج والجرائح)، عن جابر^(٤) أنه قال : كان سبب تزويج خديجة محمداً : أن أبا طالب قال : يا محمد : إني أريد أن أزوّجك،

(١) يعقوبي ٢ : ٢١. والبداية والنهاية : ٢٩٦.

(٢) فتح الباري ٤ : ٣٦٤ وسيرة دحلان ١ : ٥١ والسيرة الحلبيّة ١ : ١٢٦ وقال فيه : إن رعي الغنم صعب لأنه أصعب البهائم، وهو يوجب أن يستشعر القلب رافة ولطفاً؛ فإذا انتقل إلى رعاية البشر كان قد هذب أولاً من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي !.

(٣) الصحيح ١ : ١١٠.

(٤) جابر خزرجي من أنصار المدينة، فلم يكن حاضراً يومئذٍ، ولم يسند خبره إلى أحد قبله، فهو مرسل.

ولا مال لي اساعدك به، وإنّ خديجة قرابتنا، وتخرج كلّ سنة قريشاً في مالها مع غلمانها، يتجرّ الرجل لها ويأخذ وقربعير ممّا أتى به. فهل لك أن تخرج؟ قال: نعم. فخرج أبو طالب إليها وقال لها ذلك، ففرحت وقالت لغلامها ميسرة: أنت وهذا المال كلّهُ بحكم محمد ﷺ.

وربحا في ذلك السفر ربحاً كثيراً. فلما انصرفا قال ميسرة: لو تقدمت يا محمد الى مكة وبشرت خديجة بما قد ربحنا لكان أنفع لك! فتقدّم محمد على راحلته. وكانت خديجة في ذلك اليوم جالسة في غرفة لها مع نسوة، فظهر لها محمد راكباً، ونظرت خديجة الى غمامة عالية على رأسه تسير بسيره!. فقالت: إنّ لهذا الراكب لشأناً عظيماً ليته جاء الى داري! فإذا هو محمد قاصد الى دارها، فنزلت حافية الى باب الدار! فلما رجع ميسرة حدّث: أنّه ما مرّ بشجرة ولا مدرة إلا قالت: السلام عليك يا رسول الله! ولما رأى بحيرا الراهب الغمامة تسير على رأسه حيثما سار تظللّه النهار، خدّمنا^(١).

فقالت: يا محمد اخرج وأحضرنى عمّك أبا طالب الساعة. ثمّ بعثت الى (ابن^(٢)) عمّها ورقة بن نوفل بن أسد: أن زوجني من محمد اذا دخل عليك.

فلما حضر أبو طالب قالت: أخرجنا الى (ابن) عمّي ليزوجني من محمد، فقد قلت له في ذلك.

فقاما ودخلا على (ابن) عمّها، وخطبها أبو طالب منه^(٣).

(١) كذا، فهل كان بحيرا في السفرتين وبينهما (١٥) عاماً! وكذلك الغمام! (٢) فيه وفي الكافي ٥ : ٣٧٥ والسيرة الحلبيّة ١ : ١٢٩ أنّ ورقة كان عمّ خديجة، وهو غير صحيح لأنّ ورقة هو ابن نوفل بن أسد وخديجة هي بنت خويلد بن أسد، فهما ابنا عم. (٣) الخرائج والجرائح ١ : ١٤٠ الحديث ٢٢٧ بتصرف، وعنه في بحار الأنوار ١٦ : ٣ - ٤.

الخاطب أبو طالب:

وروى الكليني في (فروع الكافي) بسنده عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه

قال :

لما أراد رسول الله ﷺ أن يتزوج خديجة بنت خويلد، أقبل أبو طالب في أهل بيته ومعه نفر من قريش حتى دخل على ورقة بن نوفل (ابن) عم خديجة، فابتدأ أبو طالب بالكلام فقال :

«الحمد لرب هذا البيت، الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل، وأنزلنا حرماً آمناً، وجعلنا الحكماء على الناس، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه.

ثم إن ابن أخي هذا - يعني رسول الله - لا يوزن برجل من قريش إلا رجح، ولا يقاس بأحد منهم إلا عظم عنه، ولا عدل له في الخلق، وإن كان مقلداً في المال، فإن المال رقد جار وظل زائل. وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة. وقد جئناك لنخطبها إليك برضاها وأمرها. والمهر عليّ في مالي، الذي سألتموه، عاجله وآجله. وله - ورب هذا البيت - حظ عظيم ودين شائع ورأي كامل» ثم سكت أبو طالب. فتكلم ابن عمها وتلجلج، وقصر عن جواب أبي طالب وأدركه القطع والبهَر، وكان رجلاً من القسيسين^(١).

(١) وعليه فلا يصح ما رواه في بحار الأنوار ١٦ : ١٩ عن الكازروني في كتابه (المنتقى) عن الواقدي قال : فلما أتم أبو طالب خطبته تكلم ورقة بن نوفل فقال : «الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم. وقد رغبتنا بالاتصال بحبلكم وشرفكم. فاشهدوا عليّ - معاشر قريش - بأنّي قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعائة دينار» ثم سكت ورقة.

فقلت خديجة مبتدئة : يا (ابن) عمّاه أنك وإن كنت أولى بنفسي مني في (الغياب) فلست أولى بي من نفسي في الشهود. قد زوّجتك يا محمد نفسي، والمهر عليّ في مالي، فأمر عمّك فلينحر ناقة فليولم بها، وادخل عليّ أهلك.

فقال أبو طالب : اشهدوا عليها بقبولها محمّداً، وضمانها المهر في مالها.

فقال بعض قريش : وا عجباه! المهر على النساء للرجال؟! فغضب أبو طالب غضباً شديداً وقام على قدميه وقال : اذا كانوا مثل ابن أخي هذا طلبت الرجال بأغلى الأثمان وأعظم المهر، واذا كانوا أمثالكم لم يزوّجوا إلا بالمهر الغالي!

ونحر أبو طالب ناقة. ودخل رسول الله ﷺ بأهله^(١).

من تولّى تزويج خديجة!؟

وروى الصدوق في : (كتاب من لا يحضره الفقيه) مرسلأً : أنّه لما تزوج النبيّ خديجة بنت خويلد خطبها أبو طالب إلى أبيها - ومن الناس من يقول إلى عمّها - ثمّ روى الخطبة ثمّ قال : فتزوجها ودخل بها من الغد، فكان أوّل ما حملت ولدت عبدالله بن محمد ﷺ^(٢).

→ وتكلّم أبو طالب وقال : قد احببت أن يشركك عمّها، فقال عمّها : اشهدوا عليّ - يا معشر قريش - أني قد أنكحت محمد بن عبدالله خديجة بنت خويلد، وشهد عليّ بذلك صناديد قريش. فأمرت خديجة جواريتها أن يرقصن ويضربن بالدفوف! وقالت : يا محمد مر عمّك أبا طالب ينحر بكرة من بكراتك واطعم الناس على الباب! وهلمّ فتم القيلولة مع أهلك!.

(١) بحار الأنوار ١٦ : ١٣ ، ١٤ عن فروع الكافي ٥ : ٣٧٤.

(٢) بحار الأنوار عن كتاب من لا يحضره الفقيه ٣ : ٣٩٧ ح ٤٣٩٨ وروى الخطبة الطبرسي في إعلام الوري : ١٤٠ وابن شهر آشوب في المناقب ١ : ٤١ ، ٤٢ عن الجويني في السيرة ←

وروى ابن اسحاق في سيرته : أَنَّ خديجة بنت خويلد عرضت على رسول الله أن يخرج في مالها الى الشام تاجراً مع غلامها ميسرة، فقبل رسول الله وخرج حتى قدم الشام، فباع سلعته واشترى ما أراد، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فلما قدم مكة على خديجة حدثها ميسرة عن قول الراهب وعمّا كان يرى من إظلال الملكين إياه.

فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت الى رسول الله فقالت له : يا بن عمّ، إنني قد رغبت فيك لقرابتك وسيطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك. ثم عرضت عليه نفسها.

فلما قالت ذلك لرسول الله ذكر ذلك لأعمامه. فخرج معه عمّه حمزة ابن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن أسد، فخطبها اليه فتزوجها^(١).

بل مرّ أن الذي نهض معه ﷺ هو أبو طالب، وهو الذي خطب خطبة النكاح، وكان أسنّ من حمزة، وهو الذي كفل محمّداً، فلم يكن حمزة ليتزعم الأمر دون أبي طالب، وأبو طالب هو أخو عبد الله لأُمّه دون سائر إخوانه أبناء عبد المطلب. وحمزة لا يكبر النبي إلا بسنتين أو أربع.

وانفرد ابن إسحاق بأنّ خويلداً أبرم هذا الزواج، أمّا غير ابن إسحاق

→ عن الحسن والواقدي وأبي صالح والعتبي، وعن ابن بطّة في الابانة، وعن الزمخشري في ربيع الابرار وفي تفسيره، وعن الخرگوشي في شرف المصطفى وروى الخطبة اليعقوبي في تاريخه عن عمار بن ياسر ٢ : ٢٠ والأوائل ١ : ١٦٢. والسيرة الحلبيّة ١ : ١٣٩.

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٩٩ - ٢٠١ وليس في سيرة ابن هشام ما رواه الحلبي في سيرته ١ : ١٣٨ عن ابن إسحاق : أنّ خديجة قالت له : يا محمّد ألا تتزوج ؟ قال من ؟ قالت : أنا ! قال : ومن لي بك ؟ أنت أيم قريش وأنا يتيم قريش ! وتردّه الأخبار المعتبرة في الباب سيّما في خطبة أبي طالب من نعت النبي ﷺ وبني هاشم.

فقد ذكروا أنّ خويلاً كان قد قُتل في حرب الفجار أو مات في عامه^(١) وأنّ الذي زوج خديجة ابن عمّها ورقة بن نوفل بن أسد كما مرّ، أو عمّها عمرو بن أسد^(٢)، أو أخوها عمرو بن خويلد بن أسد، كما في (الروض الأنف) و(شرح المواهب).

خديجة تعرض نفسها على النبي ﷺ:

وجاء في رواية اليعقوبي عن عمّار بن ياسر ما يفيد أنّ خبر سفر النبيّ بأموال خديجة الى الشام وأنّ خديجة أحبّته حيث حدّثها غلامها ميسرة بأخباره، وأنّها بعثت الى النبيّ ﷺ عرضت نفسها عليه... كان هذا قد شاع في الناس يومذاك فكانوا يقولون: إنّها استأجرت به شيء من أموالها، وكان عمّار بن ياسر يقول «أنا أعلم الناس بتزويج رسول الله خديجة بنت خويلد... إنّ ما كان ممّا يقول الناس أنّها استأجرت به شيء، ولا كان أجيراً لأحد قط...

بل كنّا نمشي يوماً بين الصفا والمروة إذ بخديجة بنت خويلد واختها هالة، فلمّا رأت رسول الله جاءني هالة اختها فقالت: يا عمّار ما لصاحبك حاجة في خديجة؟

(١) الخبر في طبقات ابن سعد ١ : ١٣٢، ١٣٣ عن الواقدي قال: الثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم من حديث عروة بن الزبير عن عائشة، وعن عكرمة عن ابن عباس: أنّ عمّها عمرو بن أسد زوجها رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلّم وأنّ أباهما مات قبل الفجار. وذكره الطبري ٢ : ٢٨٢. والكامل ١ : ٢٥ ونقل أصل خبر وفاته في عام الفجار المجلسي في البحار ١٦ : ١٩ عن الكازروني في المنتقى عن الواقدي أيضاً. وذكر الخبر اليعقوبي ٢ : ٢٠. وتاريخ الخميس ١ : ٢٦٤. والسيرة الحلبية ١ : ١٣٨. وكشف الغمّة ٢ : ١٣٩ عن كتاب معالم العترة النبوية للجنابذي الحنبلي عن ابن عباس أيضاً. وذكر الطبرسي مثل ابن إسحاق في إعلام الوري ١ : ٢٧٤ ثمّ قال: وقيل: زوجها عمّها عمرو بن أسد.

(٢) المصادر السابقة في الهامش ١.

قلت : والله ما أدري . فرجعت فذكرت ذلك له ، فقال : ارجع فواضعها وعدها يوماً نأتيها فيه ، ففعلت .

فلما كان ذلك اليوم أرسلت الى عمرو بن أسد (عمها) وطرحت عليه حَبْرًا ودهنت لحيته بدهن أصفر...

ثم جاء رسول الله في نفر من أعمامه ، يتقدمهم أبو طالب ، فخطب أبو طالب فقال . ثم روى الخطبة المذكورة ثم قال : فتزوجها وانصرف^(١) .

هذا ، ولم يرد لفظ الاستيجار فيما نعلم من الأخبار إلا في أخبار ثلاثة :
الأول : ما رواه الصدوق في (إكمال الدين) بسنده الى بكر بن عبد الله الأشجعي عن آبائه : أن رفاق رسول الله في سفره الى الشام قالوا لابي الموهب الراهب عنه : إنه يتيم أبي طالب أجير خديجة^(٢) .

ورواه ابن شهر آشوب في (المناقب)^(٣) ولعله عنه .

الثاني : ما ساقه ابن شهر آشوب في «المناقب» أيضاً قال : كانت خديجة قد استأجرت النبي ﷺ على أن تعطيه بكرين ويسير مع غلامها ميسرة الى الشام^(٤) .

الثالث : ما رواه الدّولابي الحنفي في «الذرية الطاهرة» بسنده عن الزهري قال : لما استوى رسول الله وبلغ أشده - وليس له كثير مال - استأجرته خديجة

(١) اليعقوبي ٢ : ٢٠٠ والبداية والنهاية : ٢٩٥ . ونقل الخبر محقق البحار المرحوم الرباني الشيرازي بهامش البحار ١٦ : ١٩ وعلّق عليه يقول : «قلت : فيها غرابة وشذوذ ، ولم يرد ذلك من طرق الإمامية بل ورد من طريق لا يعتمد عليه» وذلك لأنه يشتمل على أن خديجة سقته ذلك اليوم ، أي الخمر ، فلما أصبح أنكر ثم أمضاه !

(٢) كمال الدين : ١٨٦ .

(٣) مناقب آل أبي طالب ١ : ٤٠ .

(٤) مناقب آل أبي طالب ١ : ٤١ .

- بنت خويلد الى سوق حُباشة - وهو سوق بتهامة واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش . فقال رسول الله : ما رأيت من صاحبة لأجير خيراً من خديجة^(١) ورواه الطبري في تاريخه عن ابن سعد صاحب الطبقات بسنده عن الزهري أيضاً، لكنّه عقبه يقول : «قال محمد بن سعد : قال الواقدي : فكلّ هذا مغلط»^(٢).

هل كان النبي ﷺ أجيراً لخديجة أو مضارباً؟

ولئن كان ما افتتحنا به الفصل من خبر (الخرائج) عن جابر لا يعين نوع المعاملة وأنما يقول «يتّجر الرجل لها ويأخذ وقر بعير ممّا أتى به» ممّا هو أعمّ من الإجارة والوكالة والمضاربة؛ فإنّ ما جاء في التفسير المنسوب الى الإمام الحسن العسكري عن أبيه الهادي عليه السلام يصرّح بذلك فيقول : إنّ رسول الله ﷺ كان يسافر الى الشام مضارباً لخديجة بنت خويلد^(٣) وكذلك ابن اسحاق يقول : كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات مال وشرف، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه^(٤).

(١) الذرية الطاهرة : ٤٩ ورواه الاربلي في كشف الغمّة ٢ : ١٣٥ ، ١٣٦ عن كتاب «معالم العترة النبوية» للجنابذي الحنبلي بسنده عن الزهري أيضاً. وذكر مثله الطبرسي في إعلام الوريّ ١ : ٢٧٤.

(٢) الطبري ٣ : ٢٨١ ، ٢٨٢.

(٣) التفسير المنسوب الى الإمام العسكري عليه السلام : ١٦ كما في بحار الأنوار ١٧ : ٣٠٨.

(٤) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٩٩ ورواه عنه الطبري ٢ : ٢٨٠ وعنه الجنابذي الحنبلي في معالم العترة النبوية كما في كشف الغمّة ٢ : ١٣٤. وعلّق المحقق في سيرة ابن هشام يقول : المضاربة المقارضة . وقال الإمام الخميني في تحرير الوسيلة ١ : ٦٠٨ «وتسمّى المضاربة قراضاً، وهي عقد واقع بين شخصين على أن يكون رأس المال في التجارة لأحدهما والعمل من الآخر، ولو حصل ربح يكون بينهما» ولعلّ الأمر قد التبس على المحقق.

وعلى هذا فقد يكون سفره ﷺ الى الشام لا لكونه أجيراً لخديجة، بل مضارباً بأموالها.

وجمل القول : إن رواية اليعقوبي عن عمار بن ياسر تنفي أن يكون النبي أجيراً لأحد حتى خديجة، كما تنفي أن يكون قد رعى الغنم لأحد من المكين، كما ادّعي عن أبي هريرة.

والعمل لا يتنافى مع العقریات والنبوات، ولا يضع من شأن الانسان مهما كان، بل هو من أفضل الطاعات اذا كان في سبيل العيال والأولاد وخير الناس، ولكن تأريخ محمد منذ ولادته الى أن بلغ سن الرجولة وأصبح زوجاً لخير امرأة عرفها تأريخ المرأة، ومواقف جدّه ثم عمّه والمراحل التي عاش فيها معهما عزيزاً موفور الكرامة، لا يفارقهما في ليل أو نهار، يبذلان في سبيل راحته واطمئنانه الغالي والنفس، من تتبّع ذلك وأدرك أنها منذ طفولته كانا يترقبان له مستقبلاً يهز العالم من أقصاه الى أقصاه ويحدث تحولاً في تأريخ البشرية، وأنها كانا يخافان عليه دعاة الأديان وطواغيت العرب.. لابد وأن يقف على أقل التقادير موقف المشكك من تلك المرويات التي تنصّ على أنه كان يرعى الغنم للمكين بالقراريط، ويذهب بعد ذلك أجيراً الى الشام في تجارة خديجة بقسم من الأرباح، سيما بعد رواية اليعقوبي عن عمار بن ياسر أنه لم يكن أجيراً لأحد من الناس، وأن زواجه من خديجة لم يكن مسبوقاً بمعاملة بينهما، بل كان بناءً على رغبتها بعد أن وجدت فيه الرجل الذي يمكن أن ترتاح اليه، وقد بلغت الأربعين، وأشراف قريش يطمعون في زواجها بالطمع في ثرائها. أمّا محمد بن عبد الله ﷺ فقد وجدت فيه حسب المعلومات التي توفرت لديها عنه ضرباً آخر من الرجال لا تستغويه متعة الدنيا، فطلبتة الى نفسها وأرسلت اليه من يشجعه على خطبتها من عمّها أو ابن عمّها.

وليس بغريب على المرأة الفاضلة كخديجة أن تطلب لنفسها محمد بن عبد الله ﷺ وتفضله على سادة مكة وأشرفها، فلقد كان في القمّة في صفاته التي لم يعرف العرب لها مثيلاً ماضيهم وحاضرهم. واجتهد خصومه أن يجدوا في حياته ولو نزوة تخدش تأريخه المجيد، أو مغرزة منه لنيل جاه أو اصطياذ ثروة أو انحراف مع غرائز الشباب التي تثور وتتمرد أحياناً على العقل والخلق والحكمة، فلم يجدوا شيئاً من ذلك. وكان قد جمع إلى ذلك من صباحة الوجه وجمال التركيب ما لم يتوفر في أحد سواه كما وصفوه:

فقد جاء في رواية عمرو بن شمر عن جابر أنه قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي الباقر صف لي رسول الله. قال: كان نبيّ الله أبيض الوجه مشرباً بحُمرة، أدعج العينين، مقرون الحاجبين، شثن الأطراف كأن الذهب أفرغ على برائنه، عظيم مشاشة المنكبين. اذا التفت التفت جميعاً من شدة استرساله. سربته سائلة من لُبته الى سرته كأنها وسط الفضة المصفّاة، وكان عنقه الى كاهله إيريق فضّة، يكاد أنفه إذا شرب الماء أن يرد الماء. واذا مشى تكفأ كأنه ينزل من صيب، لم ير مثل نبيّ الله قبله ولا بعده^(١).

إذن، فليس بغريب إذا خطبته خديجة لنفسها، وظلّت تشاطره آلامه وتناصره بقلبها وعقلها وما لها حتى لحقت برّبها قبل هجرته إلى المدينة بسنة أو سنتين عن خمسة وستين عاماً^(٢).

أوهام واهية:

ولكن ليس معنى هذا أن نصدّق ما نقله الحلبي في سيرته: أنه دخل على

(١) الكافي ١: ٤٤٣.

(٢) انظر سيرة المصطفى: ٦٢، ٦٣.

خديجة قبل التزويج، فأخذت يده فضمتها الى صدرها! ^(١) كما لا نشك في كذب ما نقله: أن عمها كان يأنف من أن يزوجه من محمد يتيماً أبي طالب فاحتالت عليه هي حتى سقته الخمر، فزوجه في حال سكره، فلما أفاق ووجد نفسه أمام الأمر الواقع لم يجد بداً من القبول ^(٢) مما يتناقض وأخلاق الرسول الكريم وخديجة أم المؤمنين، ولا نراه إلا كذباً موضوعاً لم يقصد به سوى الحط والوضع من كرامة النبي الكريم وتنقيصه من قبل أعداء الاسلام أو الحمق والمغفلين. ونعوذ بالله من هذا الهراء ^(٣).

وإن كون خديجة هي التي عرضت نفسها على النبي، وأنه لم يكن هو الذي تقدم بطلب يدها، لخير جواب لما جاء في كلمات بعض المستشرقين من اتهام باطل بأنه ﷺ إنما تزوج خديجة طمعاً في مالها.

ولم يبق هذا التقدير والمحبة من خديجة للنبي من طرف واحد، بل قابله النبي بالحب والتقدير لها في أيام حياتها وبعد مماتها، حتى لقد كان ذلك يثير بعض أزواجه. ويرى الشيخ آل ياسين هذا دليلاً آخر على بطلان هذه الدعوى الواهية ^(٤).

بل إن حياة النبي من بدايتها الى نهايتها خير شاهد على أنه ما كان يقيم للمال أي وزن! وقد انفتحت خديجة أموالها برغبتها في سبيل الله والدعوة الى دينه وليس على النبي وملذاته.

(١) السيرة الحلبية ١ : ١٤٠.

(٢) السيرة الحلبية ١ : ١٣٨، ١٤٠.

(٣) انظر الصحيح للسيد المرتضى ١ : ١١٧-١١٩.

(٤) كتاب النبوة : ٦٣.

وهكذا تفعل الحرة العاقلة اللبيرة كما فعلت خديجة، فلا تغرها بهرجة الدنيا وزخرفها وزبرجها، ولا تبحث عن المال والشهرة، ولا عن اللذة والشهوة.. وإنما يكون نظرها الى الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة، لأنها هي التي تسخر المال والجاء والقوة في سبيل الانسانية^(١).

دوافع زواج النبي ﷺ:

والماديون الذين ينظرون الى كل شيء من ناحية المال والمادة، يزعمون: أن خديجة بما أنها كانت ذات مال تتاجر به، كانت أحوج ما تكون الى رجل «أمين» لإدارة أمور تجارتها، لذلك اندفعت للزواج بمحمد «الصادق الأمين» وكان النبي ﷺ يعلم بوضعها المالي وحياتها الكريمة لذلك قبل خطوبتها مع ما بينهما من تفاوت العمر!

إلا أن الذي نراه في التأريخ هو أن دوافع خديجة للزواج بالصادق الأمين كانت دوافع معنوية لا مادية، والشاهد لذلك:

١- ما رواه ابن اسحاق قال: وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد -ابن عمها- ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب، وما كان يرى منه اذ كان الملكان يظللانه. وكان ورقة نصرانياً قد تتبّع الكتب وعلم من علم الناس فقال لها: لئن كان هذا حقاً يا خديجة فإنّ محمداً لنبى هذه الامة، وقد عرفت أنّه كائن لهذه الامة نبى ينتظر، هذا زمانه^(٢).

٢- إنّ سبقها الى الإيمان بالإسلام ورسالة رسول الله ﷺ بحيث كانت أول امرأة آمنت به، لما يشهد في صفحات التأريخ بأن زواجها كان منبعثاً من إيمانها

(١) انظر: الصحيح للسيد المرتضى ١: ١١٩، ١٢٠.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١: ٢٠٣.

بطهارة الصادق الأمين، وإنّ حياة خديجة وما ورد بشأنها من الروايات والأحاديث لما يوضّح هذا الموضوع بما لا يدع فيه أيّ شبهة، على من أراد التفصيل في ذلك أن يراجع الروايات الواردة في فضلها وفضيلتها.

عمر خديجة ومهرها:

روى الدّولابي في كتابه: «الذريّة الطاهرة» بسنده عن عمّار بن أبي عمّار، عن ابن عباس.. ثمّ قال: وبلغني أنّ رسول الله ﷺ تزوّج خديجة على اثنتي عشرة أوقية ذهباً، وهي يومئذ ابنة ثمان وعشرين سنة^(١).

(١) الذريّة الطاهرة: ٥٢ وعنه في كشف الغمّة ٢: ١٣٩. وروى الصّفار عن حماد بن عيسى قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال أبي: ما زوّج رسول الله ﷺ شيئاً من بناته ولا تزوّج شيئاً من نسائه على أكثر من اثنتي عشرة أوقية ونشّ، يعني نصف أوقية (البحار ٢٢: ١٩٧، ١٩٨ عن قرب الاسناد: ١٠).

وروى الخبر الكليني بسنده عنه قال: سمعته يقول: قال أبي: ما زوّج رسول الله ﷺ سائر بناته ولا تزوّج شيئاً من نسائه على أكثر من اثنتي عشرة أوقية ونشّ. والأوقية: أربعون درهماً، والنشّ: عشرون درهماً.

ثمّ روى عن حماد عن ابراهيم بن أبي يحيى عن الصادق عليه السلام قال: وكانت الدراهم وزن ستة يومئذ.

وروى بسنده عن حذيفة بن منصور عنه عليه السلام قال: كان صداق النبي ﷺ اثنتي عشرة أوقية ونشاً، والأوقية: أربعون درهماً، والنشّ: عشرون درهماً، وهو نصف الأوقية.

وروى بسنده عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ساق رسول الله ﷺ إلى أزواجه اثنتي عشرة أوقية ونشاً، والأوقية: أربعون درهماً، والنشّ: نصف الأوقية: عشرون درهماً، فكان ذلك خمسمائة درهم. قلت: بوزننا؟ قال: نعم.

وروى بسنده عن أبي العباس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الصداق هل له ←

ونقل ذلك عنه الإربلي في «كشف الغمة» بواسطة كتاب الجنازدي^(١)، ثم نقل عن الجنازدي قوله: «وعن ابن عباس: أنه تزوجها وهي ابنة ثمان وعشرين سنة»^(٢) ولم يسنده إلى أيّ سند، وما في كتاب الدولابي ليس كذلك، بل روى خبراً عن عمّار بن أبي عمّار، عن ابن عباس - فيما يحسب ابن حمّاد - (كما في الكتاب) في تزويج خديجة بمباشرة أبيها ووليمتها لذلك. ثم قال: وبلغني.. وذكر مهرها وعمرها كما مر. والظاهر أن القائل: وبلغني هو ابن حمّاد الدولابي - كما فهم كذلك الإربلي - ولا ابن عباس، ولكن خلط ابن الخشاب الجنازدي فنبذ الفهم والنقل الصحيح فنسب ذلك إلى ابن عباس على غير أساس. والله هو العاصم من الخطأ في القياس والمقياس، ومن وساوس الخناس في صدور الناس.

وعلى هذا، فينحصر الخبر بكون عمر خديجة عند زواجها بالرسول في الثامنة والعشرين، في مرفوعة الدولابي فحسب، ومن دون أن تصح نسبة ذلك إلى ابن عباس.

→ وقت (يعني الحد للمهر) قال: لا، ثم قال: كان صداق النبي ﷺ اثنتي عشرة أوقية ونشاً، والنش نصف الأوقية، والأوقية: أربعون درهماً، فذلك خمسمائة درهم (بحار الأنوار ٢٢: ٢٠٥، ٢٠٦ عن فروع الكافي ٢: ٢٠٠).

وروى الصدوق بسنده عن الصادق عليه السلام قال: ما تزوج رسول الله ﷺ شيئاً من نسائه ولا زوج شيئاً من بناته على أكثر من اثنتي عشرة أوقية ونش، والأوقية: أربعون درهماً، والنش: عشرون درهماً (البحار ٢٢: ١٩٨ عن معاني الأخبار: ٦٤، ٦٥).

وكذلك ذكر المهر الطبرسي في إعلام الوري: ١٤٠ مرسلًا وابن شهر آشوب في المناقب ١: ١٦١ عن (تاج التراجم). ويبدو من لحن هذه الأخبار أنها ناظرة إلى ردّ ما كان يروى بغير هذا المعنى في مبلغ صداق ازواج النبي ﷺ ولا سيما خديجة رضي الله عنها.

(١) كشف الغمة ٢: ١٣٧.

(٢) كشف الغمة ٢: ١٣٩.

أما الخبر المشتهر عن كونها في الأربعين من عمرها : فاليعقوبي لم يصرّح بذلك ولكنه ذكر في وفاتها أنها توفيت «ولها خمس وستون سنة»^(١) وهذا يقتضي أن يكون عمرها حين زواجها حسب المشهور أربعين سنة.

أما الطبري فقد نقل عن الكلبي قوله : «وخديجة يومئذ ابنة أربعين سنة»^(٢).

والمسعودي في «مروج الذهب» قال : «وهي يومئذ بنت أربعين» وفي «التنبيه والإشراف» أنها توفيت ولها خمس وستون سنة^(٣).

ونقل سبط ابن الجوزي عن الواقدي قوله : توفيت وهي بنت خمس وستين سنة^(٤) والاربلي في «كشف الغمة» نقل عن «معالم العترة النبوية» للجنابذي عن ابن سعد صاحب الطبقات : يرفعه إلى حكيم بن حزام قال : «توفيت خديجة في شهر رمضان سنة عشر من النبوة، وهي ابنة خمس وستين»^(٥) فيكون عمرها في زواجها أربعين سنة. والكازروني قال : «فتزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة»^(٦).

ومعنى كل هذا أن المؤرخين القدامى كالكلبي والواقدي وكاتبه ابن سعد واليعقوبي متفقون على المشهور في سن خديجة في زواجها أي الأربعين، وإن كان الاسناد الوحيد ينحصر في حكيم بن حزام إذ يذكر تاريخ وفاتها عليها السلام وهي عمته،

(١) اليعقوبي ٢ : ٣٥.

(٢) الطبري ٣ : ٢٨٠.

(٣) مروج الذهب ٢ : ٢٨٧ والتنبيه والإشراف : ١٩٩ ، ٢٠٠.

(٤) تذكرة الخواص : ٣٠٤.

(٥) كشف الغمة ٢ : ١٣٩.

(٦) بحار الأنوار ١٦ : ١٩.

إذ هو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، فهو أعلم بها، ولا يعارضه شيء اللهم إلا ما انفرد به ابن حماد الدولابي بقوله : وبلغني .. من غير اسناد، فلا يصح اعتماده .

هل كانت خديجة متزوجة؟

قال ابن هشام : «وكانت قبله عند أبي هالة بن مالك .. فولدت له هند بن أبي هالة، وزينب بنت أبي هالة. وكانت قبل أبي هالة عند عتيق ابن عابد المخزومي فولدت له : عبد الله، وجارية تزوّجها صيفي بن أبي رفاعه»^(١).

أما الطبري فقد روى عن الكلبي عن أبيه قال : وكانت قبله عند عتيق بن عابد المخزومي ... فولدت لعتيق جارية، ثم توفي عنها. وخلف عليها أبو هالة بن زرارة بن نباش ... ثم توفي عنها فخلف عليها رسول الله وعندها هند بن أبي هالة^(٢).

وروى الدولابي في «الذرية الطاهرة» بذلك أخباراً ثلاثة عن الزهري ومحمد بن إسحاق وقتادة بن دعامه، وروى رابعاً عن الليث بن سعد فعكس فذكر أبا هالة ثم عتيق^(٣) فهو مردود، وخبر قتادة نقله الاربلي في كتابه^(٤).

وقال ابن شهر آشوب في كتابه (المناقب) في ترتيب أزواجه : تزوّج بمكة أولاً خديجة بنت خويلد. قالوا : وكانت عند عتيق بن عائد المخزومي، ثم عند أبي هالة زرارة بن نباش الاسدي^(٥).

(١) ابن هشام ٤ : ٢٩٣.

(٢) الطبري ٣ : ١٦١ والطبرسي في اعلام الوري ١ : ٢٧٤.

(٣) الذرية الطاهرة : ٤٥ - ٤٧.

(٤) كشف الغمة ٢ : ١٣٨، ١٣٩.

(٥) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٥٩.

وروى أحمد البلاذري وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرضى في (الشافى) وأبو جعفر في (تلخيص الشافى): أن النبي تزوج بها وكانت عذراء. يؤكد ذلك ما ذكر في كتابي (الأنوار) و(البدع): أن رقية وزينب كانتا ابنتي هالة اخت خديجة^(١)!

(١) المناقب ١ : ١٥٩. والظاهر أنه يقصد بكتاب الأنوار: كتاب الأنوار ومفتاح السرور والأفكار لأبي الحسن البكري المتقدم الذكر سابقاً، وهو مخطوط، سرد عنه المجلسي قصة زواجه من صفحة ٢٠ الى ٧٧ ج ١٦ ثم قال «أما أوردت تلك الحكاية (!) لاشتغالها على بعض المعجزات والغرائب (!) وان لم نثق بجميع ما اشتملت عليه، لعدم الاعتماد على سندها كما أومأنا إليه، وإن كان مؤلفه من الأفاضل والأماثل» يقول ذلك لأنه التبس عليه ببكري آخر هو من مشايخ الشيخ الشهيد، كما قال قبل هذا، وعلق عليه المحقق الرباني الشيرازي بأن هذا البكري ليس هو البكري من مشايخ الشيخ الشهيد، بل هو متقدم عليه وعلى ابن تيمية المتوفى ٧٢٨ هـ ومعروف بالكذب وقد حكى هو أيضاً: أنها كانت قد تزوجت قبله برجلين أحدهما عمرو الكندي (!) والثاني عتيق بن عائذ (بحار الأنوار ١٦ : ٢٢).

وكتاب (البدع) هو كتاب أبي القاسم الكوفي المذكور قبل ذلك، وهو (الاستغاثة في بدع الثلاثة) وقال فيه: إن إجماع من الخاص والعام من أهل الآثار ونقله الأخبار على أنه لم يبق من أشراف قريش ومن ساداتهم وذوي النجدة منهم إلا من خطب خديجة ورام تزويجها فامتنعت على جميعهم من ذلك، فكيف يجوز - في نظر أهل الفهم - أن تكون خديجة يتزوجها أعرابي من تميم، وتمتنع من سادات قريش وأشرافها؟! ألا يعلم ذووا التمييز والنظر أنه من أبين المحال وافطع المقال؟! (ص ٧٠).

ولإجماع - فيما نعلم - من أهل الآثار ونقله الأخبار من الخاص والعام على خطبة خديجة من قبل جميع أشراف قريش، اللهم إلا ما انفرد بحكايته (!) البكري المذكور آنفاً فيما حكاه بما هو أشبه بقصص العامة من التأريخ المسند والخبر المعتبر قال :

فلما مات خطبها عقبة بن أبي معيط، والصلت بن أبي مهابة - ولكل منهما أربع مائة عبد وأمة - وخطبها أبو جهل بن هشام، وأبو سفيان، وخديجة لا ترغب في واحد منهم (بحار الأنوار

أما الطبرسي فقد ذكر الخبر بلا خلاف فيه^(١) ونقله عنه المجلسي في (البحار) كذلك أيضاً^(٢).

أولاد خديجة من النبي ﷺ:

روى الحميري بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام قال: ولد لرسول الله ﷺ من خديجة: القاسم والطاهر، وأمّ كلثوم، ورقية، وزينب وفاطمة^(٣).

→ وأما (تلخيص الشافي) فلا يبقى إلا هو، والظاهر أنه أخذه من كتاب أبي القاسم الكوفي، وقد عرفت حاله ومستنده.

(١) إعلام الوري ١ : ٢٧٤.

(٢) بحار الأنوار ٢٢ : ٢٢٠ وعكس في (الاستيعاب) وفي (شرح المواهب) فقالا: كانت تحت أبي هالة بن زارة التيمي (لا التيمي) ومات أبو هالة في الجاهلية وقد ولدت له هنداً، فهو أخو فاطمة بنت خديجة، وكان هند فصيحاً بليغاً وصافاً فروى عنه الحسن عليه السلام حديث صفة النبي قال: حدثني خالي هند بن أبي هالة^(*). وقد شهد بدرًا وقيل: أحداً. وقتل مع علي عليه السلام يوم الجمل. وولدت خديجة لأبي هالة أيضاً هالة بن أبي هالة. وبعد تزوجها عتيق بن عابد (كذا) المخزومي فولدت له هنداً بنت عتيق، وقد أسلمت وصحبت. راجع ترجمة خديجة في (الاستيعاب).

(٣) قرب الإسناد: ٢٧ والصواب تقديم زينب على فاطمة طبقاً للخبر التالي. وانظر وقارن: خاتمة قاموس الرجال ١٢ : ٧٦ - ٧٧.

(*) روى الحديث الشيخ الصدوق في معاني الأخبار: ٧٩ الحيدري. والشيخ الطبرسي في مكارم الاخلاق: ٧ وابن الأثير في أسد

الغابة ٥ : ٧٢ ط. إسماعيليان. وراجع: نسب قريش لمصعب الزيري: ٢٢ وأسد الغابة ٥ : ١٢ و ١٣ و ٧١ والإصابة ٣ :

٦١١، ٦١٢ والسيرة الحلبية ١ : ١٤٠. فن الصعب جداً دعوى ابن شهر آشوب بكارتها وانكار زوجها السابقين وأولادها

منهم بما يتضمن ذلك من خبر الحسن المجتبي عن خاله هند في صفة النبي ﷺ ثم ما الداعي إلى ذلك؟!

وروى الصدوق بسنده عن الصادق عليه السلام قال : ولد لرسول الله ﷺ من خديجة : القاسم والطاهر - وهو عبد الله - وأم كلثوم ، ورقية ، وزينب وفاطمة ^(١) . وقال الكليني : ولد له منها قبل مبعثه : القاسم ، ورقية ، وزينب وأم كلثوم ، وولد له بعد المبعث : الطيب والطاهر وفاطمة . وروي أيضاً : أنه لم يولد بعد المبعث إلا فاطمة عليها السلام ، وإن الطيب والطاهر ولدا قبل مبعثه ^(٢) .

وقال الشيخ الطبرسي : فأول ما حملت ولدت عبد الله بن محمد وهو الطيب «الطاهر» والناس يغلطون فيقولون : ولد له منها أربعة بنين : القاسم وعبد الله والطيب والطاهر ، وإنما ولد له منها ابنان ، الثاني : القاسم ، وقيل : إن القاسم أكبر ، وهو بكره ، وبه كان يكنى . وأربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ^(٣) . وقال ابن شهر آشوب : أولاده : وله من خديجة : القاسم وعبد الله ، وهما الطاهر والطيب ، وأربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة .. وفي (الأنوار) ، و(الكشف) ، و(اللمع) ، وكتاب البلاذري : أن زينب ورقية كانتا ربييتيه من جحش . فأما القاسم والطيب فأتا بمكة صغيرين ، مكث القاسم سبع ليال ^(٤) .

وروى المجلسي عن الكازروني عن ابن عباس قال : أول من ولد لرسول الله بمكة قبل النبوة القاسم وبه كان يكنى ، ثم ولد له زينب ، ثم رقية ، ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم ، ثم ولد له في الإسلام عبد الله فسمي الطيب والطاهر . وأمهم جميعاً خديجة

(١) المصدر عن الخصال : ٤٠٤ الحديث ١١٥ . وروى فيه الحديث ١١٦ بسنده عن الصادق عن رسول الله ﷺ في خبر قال : «وإن خديجة رحمها الله ولدت مني طاهراً - وهو عبد الله وهو المطهر - وولدت مني القاسم ، وفاطمة ورقية وأم كلثوم وزينب» .

(٢) اصول الكافي ١ : ٤٣٩ ، ٤٤٠ .

(٣) إعلام الوري ١ : ٢٧٥ .

(٤) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٦١ ، ١٦٢ .

بنت خويلد. وكان أول من مات من ولده القاسم ثم مات عبدالله بمكة، فقال العاص بن وائل السهمي. قد انقطع ولده فهو ابتر، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(١).

وقيل: إن الذكور من أولاده ثلاثة والبنات أربع: أولهن زينب، ثم القاسم، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، ثم عبدالله وهو الطيب والطاهر^(٢). وقال ابن اسحاق: ولدت لرسول الله ولده: القاسم - وبه كان يكنى - والطاهر، والطيب، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة عليها السلام. فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن.

وقال ابن هشام: أكبر بنيه القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر، وأكبر بناته رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة^(٣).

وقال اليعقوبي: ولدت له قبل أن يبعث: القاسم، ورقية، وزينب، وأم كلثوم، وبعد ما بعث: عبد الله وهو الطيب والطاهر، - لأنه ولد في الإسلام. وفاطمة^(٤).

روى الطبري عن هشام الكلبي عن أبيه قال: فولدت لرسول الله ثمانية: القاسم والطيب، والطاهر، وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة^(٥).

وقال المسعودي: ولد له - من خديجة - القاسم - وبه كان يكنى - وكان أكبر بنيه

(١) الكوثر: ٣. والخبر في بحار الأنوار ٢٢: ١٦٦ عن المنتقى للكاظمي.

(٢) بحار الأنوار ٢٢: ١٦٦ عن (المنتقى في مولد المصطفى) الباب الثامن فيما كان سنة خمس وعشرين من مولده.

(٣) سيرة ابن هشام ١: ٢٠٢.

(٤) اليعقوبي ٢: ٢٠.

(٥) الطبري ٣: ١٦١.

سناً - ورقية، وأمّ كلثوم، وولد له بعد ما بعث : عبد الله - وهو الطيب والطاهر لأنه ولد في الإسلام، وفاطمة^(١).

وعلق المحقق على قول ابن اسحاق بموت القاسم قبل الإسلام يقول : في موت القاسم في الجاهلية خلاف، فقد ذكر السهيلي في (الروض الأنف) عن الزبير «أنّ القاسم مات رضيعاً، وأنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - دخل على خديجة بعد موت القاسم وهي تبكي، فقالت : يا رسول الله لقد درّت لبينة القاسم، فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعه لهون عليّ!

فقال : إنّ شئتِ أسمعتك صوته في الجنة؟ فقالت : بل أصدق الله ورسوله ثمّ قال : وفي هذا دليل على أنّ القاسم لم يهلك في الجاهلية^(٢).

وروى الكليني في (فروع الكافي) بسنده عن عمرو بن شمر عن جابر عن الإمام الباقر عليه السلام قال : دخل رسول الله على خديجة حين مات القاسم ابنها وهي تبكي، فقال لها : ما يبكيك؟ فقالت : درّت دُريرة فبكيت. فقال : يا خديجة أما ترضين اذا كان يوم القيامة أن تجيئي الى باب الجنة وهو قائم فيأخذ بيدك فيدخلك الجنة وينزلك أفضلها. وذلك لكل مؤمن. إنّ الله أحكم وأكرم أن يسلب المؤمن ثمة فؤاده ثمّ يعذّبه بعدها أبداً^(٣).

وروى بسند آخر عن عمرو بن شمر عن جابر عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً قال : توفي طاهر ابن رسول الله ﷺ فنهى رسول الله خديجة عن البكاء، فدخل عليها وهي تبكي فقال لها : ما يبكيك؟ ألم أنك؟! فقالت : بلى يا رسول الله، ولكن درّت عليه الدُريرة فبكيت. فقال لها : أما ترضين أن تجديه قائماً على باب الجنة،

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٩١.

(٢) هامش سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٢ عن (الروض الأنف).

(٣) بحار الأنوار ١٦ : ١٦ و ١٩ عن فروع الكافي ١ : ٥٩.

فإذا رآك أخذ بيدك فأدخلك أظهرها مكاناً وأطيبها؟ قالت : وإنّ ذلك كذلك؟ قال : فإن الله أعزّ وأكرم من أن يسلب عبداً ثمرة فؤاده فيصبر ويحتسب ويحمد الله عزّ وجلّ ثمّ يعذّبه^(١).

فهذا هو الصحيح الراجح وأحتمل أنّه وقع سهو من أحد الرواة للخبر في الطريق السابق فأخطأ اسم الطاهر والتبس عليه بالقاسم. وأمّا خبر (الروض...) عن الزبير، فهي رسالة لا أظنها إلاّ مسروقة عن خبر عمرو بن شمر عن جابر بالطريق الذي وقع فيه الخطأ والالتباس. وعليه فالذي كانت تبكيه خديجة ويدّر عليه درّها هو عبد الله الطيب الطاهر وليس القاسم، ذلك لما يأتي في نزول سورة الكوثر عن الحسن والباقر والصادق عليهم السلام أنّ القاسم كان قد درج يمشي بل كان يركب الابل، فلعلّه كان موتها كليهما بعد البعثة ويبدو أنّ عبد الله ولد بعد القاسم بعد البعثة ومات قبله ثمّ مات القاسم^(٢).

(١) بحار الأنوار ١٦ : ١٦ عن فروع الكافي ١ : ٦٠.

(٢) خلافاً (لهيكل) في كتابه إذ قال : أمّا القاسم وعبد الله فلم يعرف عنهما إلاّ أنّهما ماتا طفلين في الجاهلية لم يتركا أثراً يبقّى أو يذكر؛ لكنّهما من غير شك قد ترك موتهما في نفس أبويهما ما يتركه موت الابن من أثر عميق، وترك موتهما من غير شك في نفس خديجة ما جرح أمومتها جرحين داميين وهي لا ريب (!) وقد اتجهت عند موت كلّ واحد منهما في الجاهلية الى آلهتها الأصنام تسألها : ما بالها لم تشملها برحمتها وبرّها. (حياة محمد : ١٢٨) ولا ريب في بطلان ظنونه، فلا مستند لزعمه هذا، وليس إلاّ حدساً ناشئاً من قياس خديجة بسائر نساء قريش. ونحن إذ تبيننا أن دوافع زواجها برسول الله إنّما كانت دوافع معنوية، وذلك لأنّها كانت قد سمعت من ابن عمها ورقة بن نوفل النصرانيّ وغلماها ميسرة عن الراهب النصرانيّ أن محمداً نبيّ آخر الزمان فتزوجت به لذلك، وأضفنا الى ذلك كراهته للأصنام حتّى أنّه حينما أقسم عليه بحيرا الراهب بالأوثان قال : إنّها أبغض خلق الله اليه.. فلا يمكننا مع ذلك أن نقول : إنّها كانت تلجأ في موت أولادها الى الأصنام وهنّ أبغض خلق الله الى حبيبها محمد صلّى الله عليه وآله.

→ ولا يفوتنا هنا أن ننوه إلى أن القسطلاني قال : قيل : ولد له ولد قبل المبعث يقال له عبد مناف (!) ومع هذا يكون أولاده اثني عشر كلهم ولدوا في الإسلام سوى هذا (المواهب اللدنية ١ : ١٩٦) والظاهر أن مستنده ما نقله المقدسي عن قتادة قال : ولدت خديجة لرسول الله عبد مناف في الجاهلية ، وولدت له في الإسلام غلامين وأربع بنات : القاسم وبه كان يكنى : أبا القاسم فعاش حتى مشى ثم مات ، وعبد الله مات صغيراً . وأم كلثوم ، وزينب ، ورقية ، وفاطمة (البدء والتاريخ ٤ : ١٣٩ ، ٥ : ١٦) وقول قتادة هذا شاذ يتنافى مع كل ما تقدم عن غيره وهو كثير مستفيض مشهور ، كما مر ويشبه هذا في الشذوذ ما ذهب إليه أبو القاسم الكوفي إذ قال : كانت لخديجة أخت اسمها هالة ، تزوجها رجل مخزومي فولدت له بنتاً اسمها هالة ، ثم خلف عليها رجل تيمي يقال له أبو هند ، فأولدها ولداً اسمه هند ، وكان لهذا التيمي امرأة أخرى قد ولدت له زينب ورقية فماتت ومات التيمي فلحق ولده هند بقومه ، وبقيت هالة - أخت خديجة - والطفلتان من التيمي وزوجته الأخرى فضمتهم خديجة إليها . وبعد أن تزوجت بالرسول ﷺ ماتت هالة فبقيت الطفلتان في حجر خديجة والرسول ﷺ ، وكان العرب يزعمون أن الربيبة بنت فنسبتها إليه ، مع أنها ابنتا أبي هند زوج اختها (الاستغاثة : ٦٨) .

وروى الحافظ عبد الرزاق في مصنفه عن عمر بن دينار عن الحسن بن محمد بن علي قال : إن أبا العاص بن الربيع كان زوجاً لبنت خديجة (المصنف ٥ : ٢٢٤) .

وقال مغلطاي في سيرته : وخلف عليها (خديجة) أبو هالة النباش بن زرارة فولدت له هنداً والحارث وزينب (سيرة مغلطاي : ١٢) .

فعلى الأول تكون زينب ورقية من ضرة هالة أخت خديجة ، وعلى الثاني والثالث تكون زينب بنت خديجة من زوجها السابق أو الأسبق . ولكن لا مجال لهذه الأقوال بعد تصريح نص الخبرين الاعتبارين للحميري والصدوق المسنديين إلى الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام «ولد لرسول الله من خديجة» وفيهم رقية وزينب ، وليست العبارة نسبة الأبوة أو البنوة لتحمل على عادة العرب في نسبة الرباب فنحتمل صدق مقال صاحب الاستغاثة : كان العرب يزعمون أن الربيبة بنت فنسبتها إليه .

تجديد بناء الكعبة ووضع الحجر:

الحجر الصخر المنضود بعضه على بعض بلا ملاط بينها يُسمى رَضْمًا، والكعبة المعظمة حتى تجديد بنائها قبل البعثة النبوية المباركة كانت كذلك رَضْمًا، فوق القامة^(١) ومرّ في خبر القمي في تفسيره عن الصادق عليه السلام في بناء إبراهيم عليه السلام: أنه رفعه إلى السماء تسعة أذرع^(٢) وفي «الكافي» عنه عليه السلام أيضاً قال: كانت الكعبة على عهد إبراهيم عليه السلام تسعة أذرع ولها بابان^(٣).

وفي «الكافي»: كان طول الكعبة تسعة أذرع بدون سقف^(٤) وفي موضع آخر منه: أن بنيان إبراهيم عليه السلام كان سُمُكُهُ - أي ارتفاعه - تسعة أذرع، والطول ثلاثين ذراعاً والعرض اثنين وعشرين ذراعاً^(٥).

وفيه في خبر آخر: التعبير بأن حائطها كان قصيراً، وأتاهم سيل من أعلا مكة فدخل الكعبة فانصدعت، فسُرق من الكعبة غزال من ذهب، فأرادت قريش أن يهدموا الكعبة ويبنوها....

وقد كان بعث ملك الروم بسفينة فيها سقوف وآلات وخشب إلى الحبشة ليبنى له هناك بيعة (= كنيسة) فطرحتها الريح إلى ساحل العرب وبطحت فيه، وبلغ ذلك قريشاً فخرجوا إليها فابتاعوها وما يصلح للكعبة من خشب وزينة وغير ذلك وصاروا به إلى مكة.

ثم هَدَمُوا الكعبة ونَحَّوْا حجارَها حولها حتى بلغوا القواعد التي وضعها

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ٢٠٥.

(٢) تفسير القمي ١: ٦٢.

(٣) الكافي ٤: ٢٠٧، الباب ٧، الحديث ٧.

(٤) الكافي ٤: ٢٠٧، الباب ٧، الحديث ٨، وفي الفقيه ٢: ٢٤٧، الباب ٦٤، الحديث ٢٣١٩.

(٥) الكافي ٤: ٢١٧، الباب ٩، الحديث ١، وفي الفقيه ٢: ٢٤٧، الباب ٦٤، الحديث ٢٣٢٢.

إبراهيم عليه السلام ، وأرادوا الزيادة في عرصتها فحرّكوا القواعد التي وضعها إبراهيم عليه السلام فأصابتهم زلزلة وظلمة فكفّوا عنها.. وكان ذلك قبل مبعث النبي ﷺ بثلاثين عاماً^(١).

وفيه عن الصادق عليه السلام : أن قريشاً لما هدموا البيت وأرادوا بناءه ألقى الرّعب في روعهم حتى قال قائل منهم^(٢) : ليأت كل رجل منكم بأطيب ماله ، ولا تأتوا بمال اكتسبتموه من حرام أو قطيعة رحم ! ففعلوا^(٣).

وساهم في البناء بنو سهم وبنو مخزوم وبنو عبد شمس وبنو أسد بن عبد العزى ، كل منهم ما بين ركنين منه ، وكان لبني هاشم من الحجر الأسود إلى الركن الشامي وساهم رسول الله فكان له من باب الكعبة إلى نصف ما بين الركنين الحجر الأسود واليماني^(٤).

(١) الكافي ٤ : ٢١٧ ، الباب ٩ ، الحديث ٤ وأوله في الفقيه ٢ : ١٩٤ ، الباب ٦١ ، الحديث ٢١٢٠ مرسلًا وفي علل الشرائع ٢ : ١٥٧ ، الباب ٢٠٢ ، الحديث ١ عن ابن أبي عمير عن الصادق عليه السلام . وبالنسبة إلى عمر النبي حين بناء البيت أن يكون قبل مبعثه بثلاثين سنة يقتضي أن يكون عمره يومئذ عشرين سنين تقريباً ! وهذا غريب ويتنافى مع ما يأتي من الأخبار ، إلا أن يكون في الأصل : قبل مهاجره ، وعرض عليه التصحيف ، وعليه يكون عمره يومئذ أكثر من عشرين عاماً فيكون قريباً مما في اليعقوبي ٢ : ١٩ : وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وليس كما في السيرة ١ : ٢٠٤ : خمساً وثلاثين سنة .

(٢) روى ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن صفوان : أن القائل كان أبا وهب بن عمرو المخزومي . وقال : والناس يخلونه للوليد بن المغيرة المخزومي ٢ : ٢٠٥ - ٢٠٦ . ونسبه اليعقوبي ٢ : ١٩٠ : إلى أبي طالب ، ولو كان هو لذكره الصادق عليه السلام ، ولعله تصحيف من أبي وهب .

(٣) الكافي ٤ : ٢١٧ ، الباب ٩ ، الحديث ٣ وفي الفقيه ٢ : ٢٤٧ ، الباب ٦٤ ، الحديث ٢٣٢٠ .

(٤) الكافي ٤ : ٢١٩ ، الباب ٩ ، الحديث ٥ وذيله ، وهما في الفقيه ٢ : ٢٤٨ ، الباب ٦٤ ، الحديث

فبنوه حتى انتهوا إلى موضع الحجر الأسود فتشاجروا فيه أيهم يضع الحجر الأسود في موضعه، حتى كاد أن يكون بينهم شر، فحكموا أول من يدخل من باب المسجد^(١) باب بني شيبه، فطلع رسول الله ﷺ فقالوا: هذا الأمين قد جاءكم، فحكموه، فبسط رداءه - وكان كساءً طارونياً أي خزاً - ووضع الحجر فيه ثم قال: يأتي من كل ربيع من قريش رجل. فكانوا: عتبة بن ربيعة من عبد شمس، والأسود بن المطلب من بني أسد بن عبد العزى، وأبو حذيفة بن المغيرة من بني مخزوم، وقيس بن عدي من بني سهم، فرفعوه، ووضعوه النبي في موضعه^(٢) فخصه الله به^(٣) فلما بنوها كسوها وصائل الأردية^(٤).

مولد فاطمة عليها السلام:

مرّ في خبر الحميري عن الإمام الباقر عليه السلام، والصدوق في «الخصال» عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: أن عُدَّتْ فاطمة عليها السلام في آخر عداد أولاد خديجة من رسول الله ﷺ. وكذلك كان في كلام كل من الكليني والطبرسي وأبن شهر آشوب. وفي قول ابن إسحاق وابن هشام واليعقوبي والطبري والمسعودي.

وافتح الكليني في «أصول الكافي»: «باب مولد فاطمة» وقبل أن يفتح الباب وفي آخر الباب السابق حسب النسخ الموجودة من الكتاب، أورد بسند صحيح عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «ولدت فاطمة بنت محمد ﷺ بعد مبعث

(١) الكافي ٤: ٢١٧، الباب ٩، الحديث ٣ وفي الفقيه ٢: ٢٤٧، الباب ٦٤، الحديث ٢٣٢٠ عن الصادق عليه السلام.

(٢) الكافي ٤: ٢١٧، الباب ٩، الحديث ٤.

(٣) من الخبر الأسبق.

(٤) من الخبر الأسبق. والوصائل جمع الوصلة: القطعة، والأردية جمع الرداء.

رسول الله بخمس سنين. وتوفيت ولها ثمان عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً»^(١)
ثم افتتح الباب فقال : ولدت فاطمة - عليها وعلى بعلمها السلام -، بعد مبعث رسول
الله بخمس سنين، وتوفيت ولها ثمان عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً، بقيت بعد
أبيها خمسة وسبعين يوماً»^(٢) وكذلك في «روضة الكافي» قال : ولدت بعد البعثة
بخمس سنين^(٣).

والظاهر أنه يستند في ذلك الى ما رواه في الأصول قبيل الباب، صحيحاً.
والخبر - كما مر - ليس فيه جملة «وقريش حينئذ تبني البيت» مما جاء فيما رواه
عنه الشيخ الاربلي في «كشف الغمة» عن كتاب «تأريخ مواليد ووفيات أهل البيت»
لابن الخشاب يرفعه عن أبي جعفر محمد بن علي قال : «ولدت فاطمة بعد ما أظهر
الله نبوة نبيه وأنزل عليه الوحي بخمس سنين، وقريش تبني البيت، وتوفيت ولها
ثمان عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً» ثم قال : «وفي رواية صدقة : «ثمان عشرة
سنة وشهر وخمسة عشر يوماً» ثم قال : «وكان عمرها مع أبيها بمكة ثمانية سنين»^(٤).
وهكذا مرَّ الاربلي على هذا الخبر المرفوع لابن الخشاب مرور الكرام من
دون أن يلاحظ عليه التناقض فيه؛ فهو من جانب يقول : ولدت فاطمة بعد البعثة،
ومن جانب آخر يقول : وقريش تبني الكعبة! وهذان الأمران لا يجتمعان؛ فإن
البيت بُني قبل البعثة بخمس سنين لا بعدها. اللهم إلا أن نقول بأن الجملة : «وقريش
تبني البيت» مزيد مردود من الراوي، وإلا فأصل الخبر مردود الى أهله.

(١) أصول الكافي ١ : ٤٥٧.

(٢) أصول الكافي ١ : ٤٥٨.

(٣) روضة الكافي : ٢٨١.

(٤) كشف الغمة ٣ : ٧٥.

ويشبه هذا الخبر المرفوع لابن الخشاب عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في جملة : «وقريش تبني الكعبة» خبر آخر مسند لابن حماد الدولابي «الحنفى» في كتابه «الذرية الطاهرة» بسنده عن يحيى بن شبل عن أبي جعفر قال : «دخل العباس على علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله وأحدهما يقول لصاحبه : أيتنا أكبر؟ فقال العباس : وُلدت يا علي قبل بناء قريش البيت بسبع سنوات، وولدت ابنتي وقريش تبني البيت، ورسول الله يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة، قبل النبوة بخمس سنين»^(١).

والظاهر أن المراد بأبي جعفر هو الباقر عليه السلام كما في أخبار أخرى عنه مصرحة باسمه في الكتاب ومنها خبر قبل هذا عن أبي جعفر محمد بن علي قال : «توفيت فاطمة بعد النبي ﷺ بخمسي وتسعين ليلة في سنة إحدى عشرة». وإن كان الراوي المباشر للخبر السابق : يحيى بن شبل، لم أجده في مظانه من كتب الرجال.

والغريب أن الاربلي روى الخبرين وغيرهما بادئاً لهما بقوله : «ونقلت من كتاب : «الذرية الطاهرة» للدولابي، ولكنه حذف الأسناد بادئاً لهذا الخبر بقوله : «وقيل..» من دون أن يشير إلى أنه يرويه عن أبي جعفر الباقر عليه السلام. فلعله لم ينتبه لذلك»^(٢).

وعلى أي حال فالخبران عاميان معارضان لما رواه الكليني عنه عليه السلام بسند صحيح.

أما عن الصادق عليه السلام فقد روى الطبري الإمامي في «دلائل الإمامة» بسنده عنه عليه السلام قال : «ولدت فاطمة في جمادى الآخرة : اليوم العشرين منها

(١) الذرية الطاهرة : ١٥٢.

(٢) كشف الغمّة ٢ : ١٢٨، ١٢٩.

سنة خمس وأربعين من مولد النبي ﷺ فأقامت بمكة ثمان سنين»^(١).

وقال اليعقوبي : «وبعد ما بعث : عبد الله - وهو الطيب والطاهر، لآته ولد في الإسلام - وفاطمة»^(٢) ومثله المسعودي^(٣).

وكذلك ذكر ابن عبد البر في (الاستيعاب) في ترجمة خديجة : أن الطيب قد ولد بعد النبوة، وولدت بعده أم كلثوم، ثم فاطمة.

ولكن الشيخ المفيد قال : «كان مولد السيدة الزهراء سنة اثنتين من المبعث»^(٤) وتبعه تلميذه الشيخ الطوسي فقال في «المصباح» : «في اليوم العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين من المبعث كان مولد فاطمة في بعض الروايات» ثم قال : «وفي رواية أخرى : سنة خمس من المبعث» ثم قال : «والعامة تروي أن مولدها قبل المبعث بخمس سنين»^(٥).

وأقدم نص على ذلك منهم فيما بأيدينا هو ما رواه ابن حماد الدولابي «الحنفي» في كتابه «الذرية الطاهرة» وقال به الاصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) في «مقاتل الطالبين»^(٦) وقال سبط ابن الجوزي في «تذكرة الخواص» : «وأما فاطمة عليها السلام قال علماء السير : ولدتها خديجة وقريش تبني البيت الحرام قبل النبوة بخمس سنين، وهي أصغر بنات رسول الله»^(٧) والمحجب الطبري في «ذخائر العقبى»^(٨) روى رواية

(١) دلائل الإمامة : ١٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٠.

(٣) مروج الذهب ٢ : ٢٩١.

(٤) كما في بحار الأنوار ٤٣ : ٩ عن الإقبال عن حدائق الرياض للشيخ المفيد ٣ : ٢٦٢ ط . قم.

(٥) المصباح للطوسي ٥٥٤.

(٦) مقاتل الطالبين : ٣٠.

(٧) تذكرة الخواص : ٣٠٦.

(٨) ذخائر العقبى : ٥٣.

ابن حماد الدّولابي عن الباقر عليه السلام عن عباس. وقال به الزرندي الحنفي في «نظم درر السمطين»^(١) ومغلطاي في سيرته^(٢) والديار بكري في «تاريخ الخميس» وأضاف القول بسبع سنين قبل البعثة، بل واثنى عشرة سنة قبلها^(٣).

وإن كان المحبّ الطبري والديار بكري عقبا ذلك بنقل ما يدل من الحديث على أن نطفة فاطمة قد انعقدت من ثم جاء به جبرئيل الى النبي ﷺ من الجنة، وقد نقل ذلك المرعشي النجفي في ملحقات «إحقاق الحق» عنها وعن ميزان الاعتدال^(٤)، ولسان الميزان، والروض الفائق، ونزهة المجالس، ومجمع الزوائد، وكنز العمال ومنتخبه، ومحاضرة الأوائل، ومقتل الحسين للخوارزمي، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ومفتاح النجاة، ومستدرك الحاكم، وتلخيصه للذهبي، وأخبار الدول، والمناقب لابن المغازلي، والمناقب لعبد الله الشافعي، والآلي المصنوعة، وإعراب ثلاثين سورة^(٥).

ومن الخاصّة عن العامّة عن الصحابة عن النبي ﷺ روى الصدوق بسنده عن طاووس اليماني عن ابن عباس عن عائشة عن النبي ﷺ^(٦) وروى في «عيون المعجزات» عن حارثة بن قدامة عن سلمان عن عمار عن فاطمة عليها السلام^(٧).

(١) نظم درر السمطين : ١٧٥.

(٢) سيرة مغلطاي : ١٧.

(٣) تاريخ الخميس : ١ : ٢٧٧.

(٤) ميزان الاعتدال ١ : ٣٨ ، ٢٥٣ و ٢ : ٢٦ ، ٨٤ ، ١٦٠ ، ٢٩٧ و ٣ : ٥٤٠ وإن كان هنا أشار إلى أنّه حديث موضوع.

(٥) إحقاق الحق ١٠ : ١ - ١٠.

(٦) علل الشرائع ١ : ٢١٨.

(٧) عيون المعجزات، كما في البحار ٤٣ : ٨.

ومن الخاصة عن الأئمة عليهم السلام روى الصدوق في «علل الشرائع» عن الباقر عليه السلام ^(١) وفي «معاني الأخبار» عن الصادق عليه السلام ^(٢) والقمي في تفسيره كذلك ^(٣) والصدوق أيضاً في (الأمالي) و(العيون) عن الرضا عليه السلام ^(٤).

كل ذلك مما يؤيد أو يدل على كون ولادتها بعد البعثة. وقد تقدم أن المشهور في سن خديجة حين الزواج بالنبي هو أنها كانت في الأربعين والنبي في الخمس والعشرين وقد بعث في الأربعين، فخديجة حينئذٍ فيما بعد الخمس والخمسين، وهو سن اليأس من الحمل ولكن لغير القرشية والكنانية والنبطية، كما هو مقرر في الفقه، وخديجة قرشية، وهذا يعني أن قابلية الحمل كانت موجودة لا تزال عند خديجة، وأن عمرها حينئذٍ كان، لا يأبى من الحمل ^(٥).

(١) علل الشرائع ١: ٢١٧.

(٢) معاني الأخبار: ٣٧٧.

(٣) تفسير القمي، كما في البحار ٤٣: ٦.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١١٦ وعنه في البحار ٤٣: ٤ وعن أمالي الصدوق.

(٥) صحيح أن حمل المرأة في هذه السن العالية نادر الوقوع، ولكن قد وقع في التاريخ نماذج منه، وحتى اليوم: فقد نشرت جريدة «إطلاعات» الإيرانية بتاريخ ٢٠ أربيهشت ١٣٥١ هجري شمسي: أن امرأة تدعى «شوشنا» وضعت في «اصفهان» ولداً ولها من العمر ٦٦ عاماً، ولها ثمانية أولاد أكبرهم عمره ٥٠ وأصغرهم ٢٥ سنة.

وبتاريخ ٢٨ بهمن ١٣٥١ هجري شمسي أيضاً نشرت: أن امرأة علوية تدعى «أكرم موسوي» ولها ٦٦ عاماً ولزوجها ٧٤ عاماً، وضعت توأماً في «بندر عباس». ونقلت الجريدة عن الطبيب: أن أكبر امرأة ولدت لحد الآن عمرها ٦٧ عاماً. انظر كتاب: فاطمة الزهراء المرأة النموذجية في الإسلام للشيخ إبراهيم الأميني. وراجع خاتمة قاموس الرجال ١٢: ٨.

عليّ عند النبي ﷺ:

نصّ بعض المؤرخين أنّه بعد بناء البيت بسنة، وقبل البعثة بالنبوة بأربع سنين كانت سنة إصابة قريش بقحط شديد كان من آثاره أن تكفل الرسول ﷺ بعيشة عليّ عليه السلام عنده في داره مع أولاده^(١) فقد روى ابن إسحاق في السيرة عن مجاهد بن جبر (ت ١٠٤) قال: «كان ممّا أنعم الله على عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأراد به الخير: أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمّه - وكان من أيسر بني هاشم - يا عباس! إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه حتّى نخفف عنه عياله: آخذ من بنيه رجلاً (كذا) وتأخذ رجلاً فنكفلها عنه. فقال العباس: نعم.

فانطلقا إليه وقالوا له ذلك، فقال: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما. فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمّه إليه. فلم يزل عليّ مع رسول الله ﷺ حتّى بعثه الله نبياً فاتّبعه عليّ فأمن به وصدّقه»^(٢).

(١) وقال الحلبي في «المناقب»: ذكر أبو القاسم في أخبار أبي رافع من ثلاثة طرق: أن النبي ﷺ حين تزوّج خديجة قال لعمّه أبي طالب: إني أحب أن تدفع إليّ بعض ولدك يعينني على أمري ويكفيني، وأشكر لك بلاءك عندي. فقال أبو طالب: خذ أيّهم شئت. فأخذ علياً عليه السلام (المناقب ٢: ١٨٠). ولا يمكن التسليم لظاهر هذا الخبر، إذ كيف يمكن أن يكون النبي ﷺ أخذه إليه «حين تزوّج خديجة» في حين أن علياً عليه السلام ولد بعد ثلاثين سنة من عام الفيل - على المشهور - وهو ﷺ قد تزوّج خديجة قبل ذلك بخمس سنين على المشهور أيضاً! اللهم إلّا أن يحمل الخبر على خلاف المشهور في ميلاد عليّ أو زواج خديجة ﷺ أو المساعدة في قوله «حين تزوّج خديجة» بأكثر من سبع سنين.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١: ٢٦٢.

ورواه عنه الصدوق في «علل الشرائع»^(١) وفي «الخصال» روى عنه عليه السلام قال: إن رسول الله استوهبني من أبي في صباي، فكننت أكيله وشربيه ومونسه ومحدثه^(٢). ورواه الطبرسي في «اعلام الوري» عن «دلائل النبوة» للبيهقي عن ابن إسحاق أيضاً^(٣).

ونقله ابن شهر آشوب في «المناقب» عن مغازي محمد بن إسحاق، والبلاذري والطبري، والبستي، والخزرجوشي، والثعلبي، والواحدي، والخوارزمي في أربعينه، والنسوي في المعرفة، عن مجاهد أيضاً وفيه: وأخذ رسول الله علياً وهو ابن ست سنين، كسّته يوم أخذه أبو طالب^(٤). أي من أبيه عبد المطلب عند وفاته. ونقله الخوارزمي في «المناقب» عن ابن إسحاق أيضاً، وعنه الأربلي في «كشف الغمة»^(٥).

وقال البلاذري في «أنساب الأشراف»: «قالوا: وكان أبو طالب قد أقل وأقتر، فأخذ رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم - علياً ليخفف عنه مؤونته، فنشأ عنده»^(٦).

وروى الخبر أبو الفرج في «مقاتل الطالبين» بسنده عن سهل بن سعد الساعدي قال: «كان رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم - قد أخذ علياً من أبيه وهو صغير، في سنة أصابت قريشاً وقحط ناهم، وأخذ حمزة جعفرأً، وأخذ العباس طالباً، ليكفوا أباهم مؤونتهم ويخففوا عنه ثقلهم، وكان أبو طالب

(٢) الخصال ٢ : ٥٧٢.

(١) علل الشرائع ١ : ٢٠١.

(٣) اعلام الوري ١ : ٣٨، ١٠٥ عن البيهقي في دلائل النبوة ٢ : ١٦٢ عن مجاهد أيضاً.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٢ : ١٧٩، ١٨٠.

(٥) كشف الغمة ١ : ٧٩.

(٦) أنساب الأشراف ٢ : ٩٠.

يحبّ عقيلاً ولذلك قال : دعوا لي عقيلاً وخذوا من شتم . فقال رسول الله : اخترت من اختار الله لي عليكم : علياً^(١) .

ونقله ابن أبي الحديد في «شرح النهج» عن البلاذري والإصفهاني هكذا : إن قريشاً أصابتها أزمة وقحط ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لعمية حمزة والعباس : ألا نحمل ثقل أبي طالب في هذا المحل ؟ فجاؤوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لي عقيلاً وخذوا من شتم - وكان شديد الحب لعقيل - فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفرأ ، وأخذ محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - علياً^(٢) وقال لهم : قد اخترت من اختاره الله لي عليكم : علياً .

(١) مقاتل الطالبين : ١٥ ، هذا وفي بعض التواريخ ، ويحضرني الآن منها «شرح الأخبار» للقاضي النعمان المصري المغربي التميمي الشيعي الفاطمي الإسماعيلي ، فيه أنه كان بين كل واحد من ولد أبي طالب عشر سنين (ج ١ : ١٨٨) فإذا كان لعلي عليه السلام يومئذ ست سنين كان لجعفر ست عشرة سنة ولعقيل ست وعشرون سنة ولطالب ست وثلاثون سنة ، ولذلك يبدو الخبر غريباً .

ولعله لهذا انفرد القاضي بذكر سبب آخر لذلك سوى القحط قال : إن سببه في ذلك : أن أشراف العرب والسادات منهم كانوا إذا شب لأحدهم الولد وأراد تقويمه وتأديبه ، دفعه إلى شريف من أشراف قومه ليلي ذلك منه ويستخدمه فيما يقوم به ، لئلا يدل في ذلك عليه دلالة الولد على الوالد . وكان لأبي طالب ثلاثة من الولد (كذا) فلما شب عقيل دفعه أبو طالب إلى عباس أخيه ، ولما شب جعفر دفعه إلى حمزة أخيه ، ولما شب علي دفعه إلى رسول الله - صلوات الله عليه وآله - .

وفي رواية أخرى : أنه دفع جعفرأ إلى عباس ، وعليأ^(٣) إلى رسول الله ﷺ ، وأبق عقيلأ عنده . فلما لحق رسول الله ﷺ بالرجال وبان بنفسه وتأهل كان علي عليه السلام عند رسول الله (ج ١ : ١٨٨) .

فالمغربي وإن أغرب في خبره هذا ولكنه ابتعد بذلك عن الغرابة في أعمار هؤلاء الأبناء .

قالوا: فكان علي عليه السلام في حجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - منذ كان عمره ست سنين.

وهذا يطابق قوله عليه السلام: «لقد عبت الله قبل أن يعبدني أحد من هذه الأمة سبع سنين» وقوله: «كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنين سبعا، ورسول الله حينئذ صامت ما أذن له في الإنذار والتبليغ».

وذلك لأنه إذا كان عمره يوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة، وتسليمه إلى رسول الله من أبيه وهو ابن ست، فقد صحَّ أنه كان يعبد الله قبل الناس بأجمعهم سبع سنين، وابن ست تصح منه العبادة إذا كان ذا تمييز، على أن عبادة مثله هي التعظيم والإجلال وخشوع القلب واستخذاء الجوارح إذا شاهد شيئا من جلال الله سبحانه وآياته الباهرة. ومثل هذا موجود في الصبيان^(١).

هذا ما نقله ابن أبي الحديد في «شرح النهج» عن البلاذري والإصفهاني، وقد مرَّ عليك خبرهما ورأيت البلاذري قد اختصر الخبر جدًّا في سطر ونصف تقريباً، والإصفهاني رواه بسنده عن سهل بن سعد الساعدي، وقد خلا كلاهما عن ذكر عمر علي عليه السلام يومذاك. ولعلَّه نقله عن نسخة أخرى منهما.

نعم نقل الخبر ابن شهر آشوب في «المناقب» عن عدة منهم البلاذري والطبري والخوارزمي والخزرجوشي والواحدي والثعلبي والبستي والنسوي، ومغازي محمد بن إسحاق، عن مجاهد، وفيه: وأخذ رسول الله علياً وهو ابن ست سنين، كسبه يوم أخذه أبو طالب^(٢) أي من أبيه عبد المطلب عند وفاته. ولم يعين ذلك عن أي واحد ممن أخذ منهم الخبر.

ومهما كان، فإن كلام ابن أبي الحديد توجيه وجيه لكلام الإمام عليه السلام.

(١) شرح النهج ١: ١٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢: ١٧٩ - ١٨٠.

الفصل الثالث

البعثة النبويّة المباركة

كان النبي ﷺ منذ بدء أمره محدثاً مسدداً:

روى الشريف الرضي في «نهج البلاغة» عن علي عليه السلام أنه قال في وصف الرسول ﷺ: «ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطياً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره»^(١).

وروى ابن أبي الحديد في شرحه: أن بعض أصحاب الإمام الباقر عليه السلام سأل عن قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾^(٢) فقال عليه السلام: «يوكل الله تعالى بأنبيائه ملائكة يحصون أعمالهم، ويؤدون إليهم تبليغهم الرسالة. ووكل بمحمد ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشرّ ومساوئ الأخلاق»^(٣).

(١) نهج البلاغة، الخطبة القاصعة: ٢٩٢ / المقطع: ١١٨ عن مسعدة بن صدقة عن الباقر عليه السلام.

(٢) الجن: ٢٧.

(٣) شرح النهج ١٣: ٢٠٧.

ولعل من مصاديق ذلك ما رفعه ابن اسحاق يقول : ذكر لي : أن رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم - كان مما يحدث به عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته ! أنه قال : « لقد رأيته في غلمان قريش تنقل الحجارة لبعض ما نلعب به ، فإني أقبل معهم وأدبر ، وكلنا قد أخذ إزاره فجعله على عاتقه ليحمل عليه الحجارة فتعري ! إذ لمني لاكم ثم قال : شدّ عليك إزارك ، وما أراه فأخذته وشدته عليّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليّ من بين أصحابي »^(١).

وإن كان الطبري يروي في تأريخه بسنده عن محمد بن الحنفية عن أبيه عليّ عليه السلام قال : « سمعت رسول الله يقول : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كلّ ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته .

قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لي غني حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب (!) فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفاً بالدّف والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هذا فلان تزوج ابنة فلان . فجلست أنظر اليهم ، فضرب الله على أذني فُتُمت ، فما أيقظني إلا مسّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ فقلت : ما صنعت شيئاً ، ثم أخبرته الخبر .

ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فقال : افعل ، فخرجت فسمعت حين دخلت مكة مثل ما سمعت حين دخلتها تلك الليلة ، فجلست أنظر ، فضرب الله على أذني ، فما أيقظني إلا مسّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي فأخبرته الخبر ، ثم ما هممت بعدها بسوء حتى أكرمني الله برسالته »^(٢).

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٩٤ .

(٢) الطبري ٢ : ٢٧٩ ورواه عنه ابن أبي الحديد ١٣ : ٢٠٧ .

هذا من مصاديق التسديد في السيرة، وأمّا في الفكرة : فمنه ما رواه الصدوق في «إكمال الدين» بسنده عن العباس بن عبد المطلب عن أبي طالب في خبر بحيرا الراهب أنّه قال للنبي ﷺ : «يا غلام ! أسألك بحق اللات والعزى... فزعموا أنّ رسول الله قال له : لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بُغضها»^(١). أمّا قوله في الخبر السابق : «لكمني لاكم ثمّ قال : شدّ عليك إزارك، وما أراه» فنفهم منه أنّه -بناءً على ذلك وعلى ما ورد في كثير من الأخبار- كان محدّثاً، من ذلك : ما رواه الصفّار (ت ٢٩٠ هـ) في كتابه «بصائر الدرجات» بسنده عن زرارة قال : سألت أبا جعفر عليه السلام : من الرسول ؟ من النبي ؟ من المحدث ؟ فقال : «الرسول : الذي يأتيه جبرئيل فيكلّمه قبلاً كما يرى أحدكم صاحبه الذي يكلّمه، فهذا الرسول» الى قوله : «وأمّا المحدث، فهو : الذي يسمع كلام الملك فيحدّثه، من غير أن يراه، ومن غير أن يأتيه في النوم»^(٢).

وما رواه الكليني في «أصول الكافي» بسنده عن الأحول قال : سألت أبا جعفر عن الرسول والنبي والمحدث ؟ قال : «الرسول : الذي يأتيه جبرئيل قبلاً فيراه ويكلّمه، فهذا الرسول» الى قوله : «وأمّا المحدث، فهو : الذي يحدّث فيسمع، ولا يعاين، ولا يرى في منامه»^(٣).

ثمّ كان نبياً مبشّراً:

وفي الخبرين نفسيهما عن معنى النبوة المجردة أي بلا رسالة، قال في الخبر

(١) إكمال الدين : ١٧٨ - ١٨٥ . وابن هشام ١ : ١٩٣ عن ابن إسحاق مرفوعاً.

(٢) كما في بحار الأنوار ١٨ : ٢٧٠ عن بصائر الدرجات : ١٠٩ و ٣٧١ في ط . ١٢٨١ هـ . ونحوه خبر آخر فيه عنه عن الباقر عليه السلام أيضاً وآخر عنه عن الصادق عليه السلام .

(٣) أصول الكافي ١ : ١٧٦ ونحوه خبران آخران فيه عنه وعن الرضا عليه السلام .

الأول : «والنبيّ: الذي يؤتى في النوم، نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام، ونحو ما كان يأخذ رسول الله ﷺ من السُّبات إذا أتاه جبرئيل في النوم. فهكذا النبيّ» وقال في الخبر الثاني : «وأما النبيّ فهو: الذي يرى في منامه نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام، ونحو ما كان رأى رسول الله ﷺ من أسباب النبوة قبل الوحي، حتّى أتاه جبرئيل من عند الله بالرسالة».

وروى ابن أبي الحديد في «شرح النهج» عن الإمام الباقر عليه السلام : «وكّل (الله) بمحمّد ﷺ ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع، يرشده الى الخيرات ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشرّ ومساوىء الأخلاق. وهو الذي كان يناديه : السلام عليك يا محمّد يا رسول الله وهو شابّ لم يبلغ درجة الرسالة بعد، فيظن أنّ ذلك من الحجر والأرض، فيتأمل فلا يرى شيئاً»^(١).

وفي التفسير المنسوب الى الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن أبيه قال : «إنّ رسول الله ﷺ لما ترك التجارة الى الشام، وتصدّق بكل ما رزقه الله تعالى من تلك التجارات، كان يغدو كلّ يوم الى حِراء يصعده وينظر من قلله الى آثار رحمة الله، والى أنواع عجائب رحمته وبدائع حكمته، وينظر الى أكناف السماء وأقطار الأرض والبحار والمفاوز والفيافي، فيعتبر بتلك الآثار، ويتذكر بتلك الآيات، ويعبد الله حقّ عبادته»^(٢).

وقال الطبرسي في «اعلام الوري» : ذكر علي بن إبراهيم وهو من أجلّ رواة أصحابنا قال : «إنّ النبيّ ﷺ لما أتى له سبع وثلاثون سنة، كان يرى في نومه كأنّ آتياً أتاه فيقول : يا رسول الله ! وكان بين الجبال يرعى غنماً (لأبي طالب)، فنظر الى شخص يقول له : يا رسول الله، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا جبرئيل، أرسلني الله

(١) شرح نهج البلاغة ١٣ : ٢٠٧ وعنه في بحار الأنوار ١٥ : ٣٦١.

(٢) التفسير المنسوب الى الإمام الحسن العسكري عليه السلام كما في البحار ١٨ : ٢٠٥.

إليك ليتخذك رسولاً. وكان رسول الله يكتُم ذلك، فأنزل جبرئيل بماء من السماء فقال: يا محمد قم فتوضأ، فعلمه الوضوء على الوجه واليدين من المرفق، ومسح الرأس والرجلين إلى الكعبين وعلمه السجود والركوع»^(١).

ونقل ذلك ابن شهر آشوب في كتابه «المناقب» وقبل ذلك بدأ فصل المبعث ببيان درجات البعثة فقال: «ولبعثته درجات: أولها: الرؤيا الصادقة، والثانية: ما رواه الشعبي، وداود بن عامر^(٢): أن الله قرن جبرئيل بنبوة نبيه ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه، ويعلمه الشيء بعد الشيء، ولا ينزل عليه القرآن. فكان في هذه المدة مبشراً غير مبعوث إلى الأمة».

ويقصد بما رواه الشعبي: ما رواه ابن سعد في «الطبقات» عن الواقدي بسنده عنه قال: قرن إسماعيل بنبوة رسول الله ثلاث سنين، يسمع حسه ولا يرى شخصه، ثم كان بعد ذلك جبرئيل عليه السلام^(٣).

ويقصد بما رواه داود عن عامر الشعبي أيضاً: ما رواه عنه الطبري أيضاً قال: أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسماعيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل القرآن على لسانه. فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبرئيل عليه السلام^(٤). فنزل القرآن على لسانه عشر سنين بمكة، وعشر سنين بالمدينة^(٥).

(١) «إعلام الوري» ١ : ١٠٢، وعنه في قصص الأنبياء : ٣١٨ وعنه ابن شهر آشوب في المناقب ٤٣ : ١. وفي آخر خبر الطبرسي : فلما تم له أربعون سنة أمره بالصلاة وعلمه حدودها، ولم ينزل عليه أوقاتها فكان يصلي ركعتين ركعتين في كل وقت». وسيأتي وجه تأخير ذكر الركوع عن السجود.

(٢) كذا في المناقب ١ : ٤١ والصحيح : مارواه داود عن عامر الشعبي.

(٣) الطبقات ١ : ١٩١ والطبري ٢ : ٣٨٦ عنه.

(٤) الطبري ٢ : ٣٨٧.

وقال الطبري بعد هذا: فلعل الذين قالوا: كان مقامه بمكة بعد الوحي عشراً، عدّوا مقامه بها من حين أتاه جبرئيل بالوحي من الله عزّ وجلّ، وأظهر الدعاء الى التوحيد وعدّ الذين قالوا: كان مقامه ثلاث عشرة سنة، من أوّل الوقت الذي استنبى فيه، وكان المقرون به إسرائيل، وهي السنون الثلاث التي لم يكن أمر فيها بإظهار الدعوة^(١).

ولكن يبقى أن ابن شهر آشوب بدّل جبرئيل بإسرافيل سهواً. أمّا من طرقنا فلا أقلّ ممّا ذكره الشيخ المفيد في «الاختصاص» قال: «قرن إسرائيل برسول الله ﷺ ثلاث سنين، يسمع الصوت ولا يرى شيئاً، ثمّ قرن به جبرئيل عليه السلام عشر سنين، وذلك حيث اوحى اليه، فأقام بمكة عشر سنين ثمّ هاجر الى المدينة فأقام بها عشر سنين^(٢).

وهذا يعني أن تلك السنوات الثلاث كانت منذ بدء البعثة في الأربعين من عمره ﷺ الى الثالث والأربعين، كما نصّ عليه خبر الشعبي وما ذكره الشيخ المفيد وابن شهر آشوب.

فعلى ماذا كان قبل البعثة؟

قبل أن نقف وإياكم على مختلف الأخبار في هذا المضمار، لنعد فنعيد النظرة على واقع حال الرسول ﷺ فيما قبل البعثة من حيث العبادة والديانة. والحقيقة هي أن واقع الحال في البعثة وما قبلها غير بيّن، فالقرآن الكريم

(١) الطبري ٢ : ٣٨٧ ورواه ابن سعد في الطبقات ١ : ١٢٧ وابن كثير في البداية والنهاية ٣ : ٤ واليعقوبي ٢ : ٢٣ مرسلأ. وروى الحاكم في المستدرک ٢ : ٦١ عن سعيد بن المسيب أن القرآن نزل على الرسول وهو ابن ثلاث وأربعين.

(٢) الاختصاص : ١٣٠، ولا تؤكد نسبة الاختصاص الى الشيخ المفيد.

يقول : ﴿ مَا كُنْتُ تَذْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ ^(١) فحيث لم يكن يدري قبل بعثته ما الكتاب ولا الإيمان فهل لم يكن كذلك يؤمن ويتدين بكتاب أو دين كما هو ظاهر لفظ القرآن الكريم ؟ أم ماذا ؟

وأقدم ما نعلم من السابقة التاريخية لهذا التساؤل - مع الأسف - ليس عصر الرسول نفسه أو المعصومين من عترته عليهم السلام ، بل حتى بعد عصر الغيبة الصغرى وفي بدايات الغيبة الكبرى ، فقد طرح هذا السؤال نفسه ضمن مسائل علم الأصول ، واليك نماذج من ذلك :

السيد المرتضى علم الهدى رحمته الله يقول في كتابه «الذريعة الى أصول الشريعة» : «قد استقصينا هذا الكلام وفرغناه في كتاب «الذخيرة»» ^(٢) ويقرّره كذلك في «الذريعة» فيقول : «هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله متعبداً بشرائع من تقدّمه من الأنبياء عليهم السلام ؟ في هذا الباب مسألتان : إحداهما : قبل النبوة ، والأخرى : بعدها . وفي المسألة الأولى ثلاثة مذاهب : أحدها : أنّه صلى الله عليه وآله ما كان متعبداً قطعاً . والآخر : أنّه كان متعبداً قطعاً . والثالث : التوقف . وهذا هو الصحيح . والذي يدلّ عليه : أنّ العبادة بالشرائع تابعة لما يعلمه الله تعالى من المصلحة بها في التكليف العقلي ، ولا يمتنع أن يعلم الله تعالى أن لا مصلحة للنبي قبل نبوته في العبادة بشيء من الشرائع ، كما أنّه غير ممتنع أن يعلم أن له في ذلك مصلحة ، وإذا كان كلّ واحد من الأمرين جائزاً ، ولا دلالة توجب القطع على أحدهما ، وجب التوقف .

(١) الشورى : ٥٢ .

(٢) حقق الكتاب المحقق السيد أحمد الحسيني ، وطبع في مؤسسة النشر الإسلامي بقم المقدسة سنة ١٤١١ هـ في ٦٠٧ صفحة ، يبدأ فيه باب النبوات من ٣٢٢ الى ٤٠٨ ولم أجد الكلام المذكور فيه ولا في سائر أبواب الكتاب ، بل التحويل على الذخيرة لا يوجد في الذريعة أيضاً ٢ : ٥٩٥ ط جامعة طهران .

وليس يقتضي علمه ﷺ بأن غيره نبي أن يتعبد بشريعته، بل لابد من أمر زائد على هذا العلم. ولو ثبت أنه حج أو اعتمر قبل نبوته لقطع به على أنه كان متعبداً، وبالتظني لا يثبت مثل ذلك. ولم يثبت أنه تولى التذكية بيده، ولو ثبت أنه ذكّى بيده لجاز أن يكون من شرع غيره في ذلك الوقت أن يستعين بغيره في الزكاة فذكّى على سبيل المعونة لغيره، ولا شبهة في أن أكل لحم المذكّى غير موقوف على الشرع، لأنه بعد الزكاة يصير مثل كلّ مباح.

وليس لمن قطع على أنه ما كان متعبداً أن يتعلّق بالقول: بأنه لو كان تعبد بشيء من الشرائع لكان فيه متبعاً لصاحب تلك الشريعة ومقتدياً به، وذلك لا يجوز، لأنه أفضل الخلق، واتّباع الأفضل للمفضول قبيح.

ذلك أنه غير ممتنع أن يوجب الله تعالى عليه بعض ما قامت عليه الحجة به من بعض الشرائع المتقدمة لا على وجه الاقتداء بغيره فيها ولا الاتّباع^(١).

وقال المحقق أبو القاسم الحلي - طيّب الله رمسه - في أصوله: «لو كان متعبداً بشرع من قبله لكان طريقه الى ذلك إمّا الوحي أو النقل، ويلزم من الأوّل: أن يكون شرعاً له لا شرعاً لغيره، ومن الثاني: التعويل على نقل اليهود، وهو باطل، لأنه ليس بتواتر، لما تطرق إليه من القدح المانع من إفادة اليقين. ونقل الآحاد منهم لا يوجب العمل، لعدم الثقة.

ولو كان متعبداً بشرع غيره لوجب عليه البحث عن ذلك الشرع، لكن ذلك باطل، لأنه لو وجب لفعله، ولو فعله لاشتهر، ولوجب على الصحابة والتابعين والمسلمين الى يومنا هذا متابعتة على الخوض فيه، ونحن نعلم من الدين خلاف ذلك»^(٢).

(١) الذريعة الى أصول الشريعة ٢: ٥٩٥، ٥٩٦ ط جامعة طهران.

(٢) كما في بحار الأنوار ١٨: ٢٧٥-٢٧٦ باختصار. أما في كتابه «معارج الأصول» ←

فالسيد المرتضى توقّف، والمحقّق نفى وأنكر، ولكنّ تلميذه العلامة عاد فتوقّف: فقد قال - قدّس الله روحه - في شرحه على «مختصر الأصول» لابن الحاجب: «اختلف الناس في أنّ النبي ﷺ هل كان متعبداً بشرع أحد من الأنبياء قبله قبل النبوة؟ أم لا؟ فذهب جماعة إلى أنّه كان متعبداً. ونفاه آخرون. والمثبتون اختلفوا: فذهب بعضهم إلى أنّه: كان متعبداً بشرع نوح، وآخرون: بشرع إبراهيم، وآخرون: بشرع موسى، وآخرون: بشرع عيسى، وآخرون: بما ثبت أنّه من الشرع».

ولم يتكلم العلامة فيه بما ينمّ عن مختاره وأنما قرّر مختار ابن الحاجب الشافعي (ت ٦٤٦ هـ) بأنّه كان متعبداً بما ثبت بالتواتر أنّه من شرع قبله، عيسى بل موسى ﷺ، فإنّ شريعة عيسى هي شريعة موسى ﷺ في الأعم الأغلب. وقرّر استدلاله لذلك «بما نقل نقلاً - يقارب التواتر - أنّه كان يصليّ ويحجّ ويعتمر ويطوف بالبيت، ويتجنّب الميتة ويذكّي ويأكل اللحم، ويركب الحمار (!) وهذه أمور لا يدركها العقل، فلا مصير إليها إلّا من الشرع». ولكنّه ردّ استدلال غيره على هذا المذهب نفسه: «بأنّ عيسى كان مبعوثاً إلى جميع المكلفين، والنبيّ كان من المكلفين، فيكون عيسى مبعوثاً إليه» فقال: «لا نسلم عموم دعوة من تقدّمه».

→ المطبوع فكما يلي: فائدة: اختلف الناس في النبيّ ﷺ هل كان متعبداً بشرع من قبله؟ أم لا؟ وهذا الخلاف عديم الفائدة، لأننا لا نشك في أن جميع ما أتى به لم يكن نقلاً عن الأنبياء عليهم السلام، بل عن الله تعالى بواسطة الملك، ونُجم على أنّه ﷺ أفضل الأنبياء، وإذا أجمعنا على ثمرّة المسألة فالدخول بعد ذلك فيها كلفة: ١٢١. انتهى، وقد ذكر العلامة الطهراني للمحقّق كتاباً آخر في الأصول باسم «نهج الوصول» الذريعة ٢٤: ٤٢٦، ٤٢٧ فلعلّ المجلسي نقل كلامه من ذلك الكتاب، ولم يستمه.

ولكنه قال : إنّ الشرع المنقول اليه إن كان آحاداً فهو غير مقبول وأما إذا كان متواتراً فقد كان يعمل به من دون لزوم المخالطة لأرباب تلك الشريعة، حتى يلزم عدم تعبد به من عدم مخالطته لهم. فالنتيجة : أنّه كان يعمل بما ثبت بالتواتر أنّه شرع قبله، بدليل نقلي يقارب التواتر، كما قال.

وقد تقدّم من السيد المرتضى : أنّه لو ثبت لقطع به على أنّه كان متعبداً، ولكنه لم يثبت عنه، والتظني لا يثبت مثل ذلك.

أما النصوص المتقدمة فإنما دلت على أنّه ﷺ كان في فكره وسلوكه الديني العقائدي العقلي والعملي محدثاً مسدداً.

وبخصوص الصلاة فقد مرّ خبر الطبرسي عن علي بن إبراهيم القمي : أنّه بعد ما «أتى عليه سبع وثلاثون سنة... نزل عليه جبرئيل وأنزل عليه ماءً من السماء وعلمه الوضوء والسجود والركوع»^(١) فقط، لا الصلاة بحدودها وأوقاتها في تمام الخبر : «فلما تمّ له أربعون سنة علمه حدود الصلاة ولم ينزل عليه أوقاتها، فكان يصلي ركعتين ركعتين في كلّ وقت»^(٢) مما يدلّ عليه كثير من معتبر الأخبار، في تفصيل تشريع الصلوات في أبواب عديدة من «وسائل الشيعة» وكذلك لدى أهل السنة.

وأما شأنه ﷺ في كثير من المناسك والمناهي والتروك فليكن كشأن آبائه وأجداده الأجداد ممّا دلّ عليه كثير من الأخبار التاريخية وغيرها كما مرّ في محله، أما أكثر من ذلك التحنّث بالحنيفية «الإبراهيمية» فلا نصّ يصرّح به، ولا دليل عليه.

(١) اعلام الوری : ٣٦ وسيأتي وجه تقديم السجود على الركوع.

(٢) إعلام الوری ١ : ١٠٢.

وإن كان المولى المجلسي - قدس الله سره - قال : «إنَّ الَّذِي ظَهَرَ لِي مِنَ الْأَخْبَارِ الْمَعْتَبَرَةِ وَالْآثَارِ الْمُسْتَفِيزَةِ هُوَ : أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ قَبْلَ بَعَثَتِهِ - مِنْذُ أَكْمَلَ اللَّهُ عَقْلَهُ فِي بَدْوِ سَنَةٍ - نَبِيًّا مُؤَيَّدًا بِرُوحِ الْقُدُسِ ، يَكَلِّمُهُ الْمَلِكُ وَيَسْمَعُ الصَّوْتُ ، وَيَرَى فِي الْمَنَامِ ... وَكَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ بِصُنُوفِ الْعِبَادَاتِ إِمَّا مُوَافِقًا لِمَا أَمَرَ بِهِ النَّاسُ بَعْدَ التَّبْلِيغِ ، وَهُوَ أَظْهَرُ ، أَوْ عَلَى وَجْهِ آخَرَ ، إِمَّا مُطَابِقًا لِشَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام أَوْ غَيْرِهِ مِمَّنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، لَا عَلَى وَجْهِ كَوْنِهِ تَابِعًا لَهُمْ وَعَامِلًا بِشَرِيعَتِهِمْ ، بَلْ بِأَنَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ كَانَ مُطَابِقًا لِبَعْضِ شَرَائِعِهِمْ ، أَوْ عَلَى وَجْهِ آخَرَ ، نَسَخَ بِمَا نَزَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ الْإِرْسَالِ . وَلَا أَظُنُّ أَنَّ يَخْفَى صَحَّةَ مَا ذَكَرْتُ عَلَى ذِي فِطْرَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ وَفِطْنَةٍ غَيْرِ سَقِيمَةٍ ... وَلَنَذْكُرَ بَعْضَ الْوُجُوهِ لَزِيَادَةِ الْإِطْمِنَانِ ، عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ » ثُمَّ ذَكَرَ وَجُوهًا سِتَّةً ^(١) .

ولنعد لنستثني من تفينا لنصّ صريح في الإجابة على السؤال بهذا الشأن : ما رواه الكليني في «أصول الكافي» بسنده عن أبي حمزة الثمالي قال : «سألت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَام عن العلم أهو شيء يتعلمه العالم [منكم] من أفواه الرجال ؟ أم في الكتاب عندكم تقرؤونه فتعلمون منه ؟

قال : الأمر أعظم من ذلك وأوجب ، أمّا سمعت قول الله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ ^(٢) ثُمَّ قَالَ : أَيْ شَيْءٌ يَقُولُ أَصْحَابُكُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ؟ أَيْقِرُّونَ أَنَّهُ كَانَ فِي حَالٍ لَا يَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ؟ فَقُلْتُ : لَا أَدْرِي - جَعَلْتُ فِدَاكَ - مَا يَقُولُونَ ، فَقَالَ : بَلَى قَدْ كَانَ فِي حَالٍ لَا يَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ - عَزَّوَجَلَّ - الرُّوحَ الَّتِي ذَكَرَ

(١) بحار الأنوار ١٨ : ٢٧٧ - ٢٨١ .

(٢) الشورى : ٥٢ .

في الكتاب، فلما أوحاها اليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله - عز وجل - من شاء، فإذا أعطاها عبداً علّمه الفهم»^(١).

فسؤال الثمالي في هذا الخبر من الإمام الصادق عليه السلام وإن كان عن مصدر العلم للعالم الإلهي الرباني، ولم يكن السؤال عن حال الرسول صلّى الله عليه وآله قبل البعثة من حيث الديانة والعبادة إلا أن الإمام أجابه بما اشتمل على ذلك إذ قال: بأن مصدر العلم للعالم الإلهي الرباني هي الروح التي يعطيها الله من شاء من عباده، فإذا أعطاها عبداً علّمه الفهم، بعد ما كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الايمان، كما في نص القرآن.

ولكن المولى المجلسي فسّر الروح هنا بروح القدس وقال كما مرّ: «كان منذ أكمل الله عقله في بدو سنّه نبياً مؤيداً بروح القدس» ولذلك أجاب عن الاستدلال بالآية يقول: «وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ فلا يدلّ إلا على أنّه صلّى الله عليه وآله كان في حال لم يكن يعلم القرآن وبعض شرائع الايمان، ولعلّ ذلك كان في حال ولادته قبل تأييده بروح القدس، كما دلّت عليه رواية أبي حمزة وغيرها»^(٢).

إذن يبقى علينا أن نبين معنى الروح:

قد روى الكليني في «أصول الكافي» بسنده عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾؟ قال: «خلق من خلق الله أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلّى الله عليه وآله يخبره ويسدّده، وهو مع الأئمة من بعده»^(٣).

(١) أصول الكافي ١: ٢٧٣، ٢٧٤.

(٢) بحار الأنوار ١٨: ٢٨١.

(٣) أصول الكافي ١: ٢٧٣.

وروى فيه بسنده عنه أيضاً قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ^(١) قال : «خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو مع الأئمة، وهو من الملكوت» ^(٢).

وروى فيه بسنده عنه أيضاً قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ قال : خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، لم يكن مع أحد ممن مضى غير محمد صلى الله عليه وآله، وهو مع الأئمة يسدّدهم، وليس كل من طلب وجد» ^(٣).

وروى فيه بسنده عن المفضل بن عمر قال : سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض وهو في بيته، مُرخى عليه ستره؟ فقال : «يا مفضل، إنّ الله تبارك وتعالى جعل في النبي صلى الله عليه وآله خمسة أرواح : روح الحياة فيه دبّ ودرج، وروح القوة فيه نهض وجاهد، وروح الشهوة فيه أكل وشرب، وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان فيه امن وعدل، وروح القدس فيه حمل النبوة - فإذا قبض النبي صلى الله عليه وآله انتقل روح القدس فصار إلى الإمام - وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يسهو - والأربعة الأرواح تنام وتغفل وتلهو وتسهو - وروح القدس كان يرى به» ^(٤).

ونقله المجلسي وقال في بيانه : «أي كان يرى النبي والإمام بروح القدس ما غاب عنه في أقطار الأرض والسماء وما دون العرش» ^(٥).

(١) الإسراء : ٨٥.

(٢) أصول الكافي ١ : ٢٧٣.

(٣) أصول الكافي ١ : ٢٧٣.

(٤) أصول الكافي ١ : ٢٧٣.

(٥) بحار الأنوار ١ : ٢٦٤.

فإذا ضمنا الى ذلك أنه لم يكن يرى جبرئيل ولا أي ملك قبل نزول وحي القرآن عليه وإنما كان يسمع ويحس ولا يرى الشخص، كما مرّ في الخبر المعتبر، أنتج: أن هذا الروح -روح القدس- أيضاً لم يكن معه قبل نزول وحي القرآن عليه، وإنما أوتيه بعد ذلك أو معه، لا قبله منذ اكتمال عقله في بدو سنّه كما ذهب اليه المولى المجلسي -قدس الله سره-.

وتعليق الكلام على الوصف إن كان مُشعراً بالعلية -كما هو الحق- فقد علّق الإمام عليه السلام وجود هذه الروح على وصف الرسالة: «كان مع رسول الله» في الخبرين الأولين، وليس حتى النبوة، ممّا يشعر بأنّ هذه الروح -روح القدس- كانت مصاحبة مع وصف الرسالة ومتزامنة في البداية معها، لا قبلها، حتى مع النبوة، فضلاً عما قبلها. ولا يقدح في هذا خلوّ الخبر الثالث من هذا التعليق، فأنّه يصدد النفي عن غيره لا الإثبات له.

وبعد كلّ ما تقدم، فإن ما نستطيع الجزم به هو: أنّه ﷺ كان مؤمناً موحداً يعبد الله ويلتزم بما ثبت له أنّه شرع الله تعالى، وبما يؤدّي إليه عقله الفطري السليم، والمؤيد المسدّد، فكان أفضل الخلق واكملهم خلقاً وخلُقاً وعقلاً... وعليه فما يذكر عنه ممّا يتنافى مع التسديد وفقاً لشرع الله، لا أساس له من الصحة... كالخبر عن استلامه الأصنام! ذلك ما نقله القاضي عياض في كتابه «الشفاف في أحوال المصطفى» ثمّ نقل عن أحمد بن حنبل: أنّه حديث موضوع^(١).

مع أنّ المؤرخين -ومنهم المسعودي- عدّوا عدداً من العرب الجاهليين لم يشاركوا الجاهلية في شركها، كقُصّ بن ساعدة الإيادي، وأمّية بن أبي الصلت الثقفي، وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي، وأبيه عمرو بن نفيل أخى الخطّاب بن نفيل

(١) كما في السيرة الحلبية ١ : ١٢٥ و ٢٧٠. والسيرة النبوية لدحلان ١ : ٥١. راجع الصحيح

أبي عمر بن الخطاب، وكان زيد يرغب عن عبادة الأصنام ويعيبها، فأولع به عمه الخطاب سفهاء مكة وسلطهم عليه فأذوه، فصار إلى الشام يبحث عن الدين فسّمته النصارى ومات بالشام^(١).

فعدّوا ابنه سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرة بالجنة^(٢) وعدّوه من الخنفاء حتى أنّهم رووا: أن زيدا مرّ على النبي ﷺ وهو يأكل مع سفيان ابن الحرث من سفرة قدّمت لهما فيها شاة ذبحت لغير الله تعالى، فدعواه إلى الطعام فرفض زيد وقال: أنا لا آكل ممّا تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلّا ما ذكر أسم الله عليه! فمنذ ذلك اليوم لم ير النبي ﷺ يأكل ممّا ذبح على النُصب حتى بُعث^(٣).

(١) مروج الذهب ١ : ٨٢ - ٨٩.

(٢) مروج الذهب ١ : ٨٤.

(٣) صحيح البخاري ٥ : ٥٠ و ٧ : ١١٨ وفي شرحه : فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٧ : ١٠٨ و ١٠٩ . ومسند أحمد ١ : ١٨٩ . والسيرة الحلبية ١ : ١٢٣ . والروض الأنف ١ : ٢٥٦ .
والأخير تنبّه إلى تساؤل فطرحة يقول : «كيف وفق الله زيدا إلى ترك ما ذُبح على النُصب وما لم يذكر أسم الله عليه، ورسوله - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - كان أولى بهذه الفضيلة في الجاهلية؛ لما ثبت من عصمة الله له».

ولكنّه تساهل في الجواب على هذا التساؤل فقال يعتذر لذلك : «ليس في الرواية أنّه - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - قد أكل من السفرة (!) وعلى فرض أنّه قد أكل فإن شرع إبراهيم عليه السلام إنّما جاء بتحريم الميتة لا بتحريم ما ذُبح لغير الله تعالى (!) أمّا زيد فلعلّه امتنع عن أكل ما ذُبح لغير الله برأي رآه، لا بشرع متقدم!»
وكذلك رجّح العسقلاني في «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» أن زيدا قد أدرك ذلك برأيه (١)

ونقول : لئن أدرك ذلك زيد برأيه ولم يدرك النبي ﷺ ذلك، فلقد كانت النبوة بزيد أليق منها به ﷺ، والعياذ بالله من فضيلة لابن عمّ الخليفة تحقق حتى فضيلة النبوة!.

ثُمَّ كَانَ نَبِيًّا رَسُولًا:

روى الصفار بسنده عن زرارة قال : سألت أبا جعفر عليه السلام : مَنْ الرّسول ؟ مَنْ النّبي ؟ مَنْ المحدث ؟ فقال : «الرّسول ... والنّبي ... ومنهم من تجمع له الرّسالة والنّبوّة، فكان رسول الله رسولا نبيا : يأتيه جبرئيل قبلًا فيكلّمه ويراه، ويأتيه في النّوم»^(١).

وروى الكليني بسنده عن الأحول قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن الرّسول ؟ والنّبي ؟ والمحدث ؟ قال : الرّسول ... وأمّا النّبي ... وكان محمّد صلى الله عليه وآله حين جُمعت له النّبوّة وجاءته الرّسالة من عند الله يحييه بها جبرئيل ويكلّمه بها قبلًا»^(٢).
وقد مرّ ما ذكره الشيخ المفيد : «قرن إسرافيل برّسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث سنين، يسمع الصوت ولا يرى شيئاً. ثمّ قرن به جبرئيل عشرين سنة، وذلك حيث أوحى إليه. فأقام بمكة عشر سنين، ثمّ هاجر إلى المدينة فأقام بها عشر سنين. وقبض وهو ابن ثلاث وستين سنة»^(٣).

وروى الصدوق بسنده عن محمّد بن مسلم عن الباقر عليه السلام قال : «لقد مكث رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة ثلاث سنين مختفياً خائفاً يترقب، ويخاف قومه والناس. وما أجاب رسول الله صلى الله عليه وآله أحد قبل علي بن أبي طالب وخديجة - صلوات الله عليهما -»^(٤).

فأولاً - كان الخوف والإختفاء حتّى عن قومه فضلاً عن سائر الناس.
وثانياً - مع ذلك كانت الدعوة قد شملت علياً وخديجة واستجابا له ومعه.

(١) بصائر الدرجات : ٣٧١ ط ١٣٨١ هـ.

(٢) أصول الكافي ١ : ١٧٦.

(٣) الاختصاص : ١٣٠. ولا تؤكّد صحة نسبة الكتاب إلى الشيخ المفيد.

(٤) إكمال الدين : ١٨٩ و ١٩٧ كما في البحار ١٨ : ١٧٧ و ١٨٨.

وروى فيه بسنده عن الحلبي عن الصادق عليه السلام قال : « مكث رسول الله ﷺ بمكة بعد ما جاءه الوحي عن الله - تبارك وتعالى - ثلاثة عشر سنة، منها ثلاث سنين مختفياً خائفاً لا يظهر، حتى أمره الله أن يصدع بما أمر به، فأظهر الدعوة حينئذ »^(١).

وروى فيه بسنده عنه عن الصادق عليه السلام أيضاً قال : « كان رسول الله مختفياً بمكة خائفاً ثلاث سنين ليس يظهر أمره، وعلي معه وخديجة، ثم أمره الله أن يصدع بما أمر به، فظهر رسول الله وأظهر أمره »^(٢).

وروى علي بن إبراهيم القمي قال : « سئل الصادق عليه السلام عن قوله [تعالى] : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ كيف كان ؟ وإنما أنزل القرآن في طول عشرين سنة ؟ فقال : إنه نزل جملة واحدة في شهر رمضان الى البيت المعمور ثم نزل من البيت المعمور الى النبي في طول عشرين سنة »^(٣).

ورواه العياشي في تفسيره^(٤) ورواه الكليني في « أصول الكافي » بإسناده عن القمي عن أبيه الى حفص بن غياث عنه عليه السلام^(٥) واستند اليه الشيخ الصدوق في عقائده^(٦).

واليه يعود ما رواه الطبري في تأريخه بسنده عن ابن عباس وسعيد ابن المسيب قالوا : « أنزل على رسول الله الوحي وهو ابن ثلاث وأربعين سنة »^(٧).

(١) إكمال الدين : ١٨٩ و ١٩٧ كما في البحار ١٨ : ١٧٧ و ١٨٨ .

(٢) إكمال الدين : ١٩٧ كما في البحار ١٨ : ١٨٨ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٦٦ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٨٠ .

(٥) أصول الكافي ١ : ٦٢٨ .

(٦) عقائد الصدوق : ٥٦ .

(٧) الطبري ٢ : ٢٩٢ . ورواه الحاكم في المستدرک ٢ : ٦١٠ .

وأوضح منه ما مرّ عن الطبري أيضاً بسنده عن عامر الشعبي قال : «إنّ رسول الله نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرائيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل القرآن. فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبرئيل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة : عشرأ بمكة وعشرأ بالمدينة»^(١).

والذي نريده من هذه الروايات هو أنّ مبدأ نزول القرآن الكريم كان متأخراً عن النبوة بثلاث سنين، فإذا لاحظنا الروايات القائلة بأنّ مدّة نزول القرآن على النبي استغرقت عشرين عاماً، مع الروايات القائلة بأنّ مدّة مكث النبي بعد النبوة بمكة كانت ثلاث عشرة سنة، استنتجنا : أنّ مبدأ نزول القرآن كان بعد النبوة بثلاث سنين، إذ لا شك أنّ القرآن كان ينزل عليه حتّى عام وفاته^(٢).

نعم روى الطبري كذلك عن ابن سعد عن الواقدي بسنده عن الشعبي أيضاً قال : «قرن إسرائيل بنبوته رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثلاث سنين، يسمع حسّه ولا يرى شخصه، ثمّ كان بعد ذلك جبرئيل عليه السلام» قال الواقدي : فذكرت ذلك لمحمّد بن صالح بن دينار فقال : والله يا بن أخي لقد سمعت عبد الله بن أبي بكر بن حزم، وعاصم بن عمر ابن قتادة يحدثان في المسجد ورجل عراقي يقول لهما هذا، فانكراه جميعاً وقالوا : ما سمعنا ولا علمنا إلا أنّ جبرئيل هو الذي قرّن به، وكان يأتيه الوحي من يوم نبيّ إلى أن توفي - صلى الله عليه وآله وسلم -^(٣). ولكن قال عنه صاحب «التمهيد» : «هذه الرواية وإن كان فيها أشياء

(١) الطبري ٢ : ٣٨٧ وابن سعد في الطبقات ١ : ١٢٧ ومثله اليعقوبي مرسلأ ٢ : ٢٣ وابن كثير

في البداية والنهاية ٣ : ٤ عن ابن حنبل، والسيوطي في الإيتقان ١ : ٤٥.

(٢) التمهيد ١ : ٨٢.

(٣) الطبري ٢ : ٣٨٧ وفي الطبقات ١ : ١٩١.

لا نعرفها، ولعلها من اجتهاد الشعبي الخاص، لكن الذي نريده من هذه الرواية هو جانب تحديد نزول القرآن في مدة عشرين عاماً وأن نزوله تأخر عن البعثة بثلاث سنين»^(١).

وقد مرّ أن الطبري جمع بهذا القول بين القول المشهور بأن مقام الرسول بمكة بعد الدعوة كان إلى ثلاث عشرة سنة، وبين ما رواه هو عن ابن عباس بأن مقامه بها كان إلى عشر سنين، فالعشر سنين من حين أتاه جبرئيل بالوحي القرآني من الله عز وجل وإظهاره الدعوة إلى التوحيد، وثلاث عشرة سنة من أول البعثة بالنبوة^(٢). ولا نريد بنقل قول الشعبي أو ما قاله الشيخ المفيد في «الاختصاص» إثبات اختصاص إسرائيل بالثلاث سنين الأولى من النبوة، واختصاص جبرئيل بالوحي القرآني بعد ذلك، على خلاف المعروف والمشهور في أخبار البعثة.

يوم المبعث:

وقبل أن نقف على طرف من أخبار البعثة: لنقف على الأخبار التي تعين يوم المبعث، ولا تعوزنا النصوص فيه: فقد روى الكليني بسنده عن الصادق عليه السلام قال: «لا تدع صيام يوم سبع وعشرين من رجب، فإنه اليوم الذي أنزلت فيه النبوة على محمد ﷺ»^(٣) ورواه الصدوق^(٤) والطوسي^(٥) وروى مثله في أماليه^(٦).

(١) التمهيد ١ : ٨٣.

(٢) الطبري ٢ : ٣٨٧.

(٣) الفروع من الكافي ٢ : ١٤٩.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٢ : ٩٠ عن الحسن بن راشد عن الصادق عليه السلام. وثواب الأعمال : ٩٩.

(٥) تهذيب الأحكام ١ : ٤٣٨.

(٦) أمالي ابن الشيخ : ٢٨.

وروى الكليني عنه عليه السلام أيضاً قال : «يوم سبعة وعشرين من رجب نبيء فيه رسول الله صلى الله عليه وآله»^(١).

وروى بسنده عن الرضا عليه السلام قال : «بعث الله عز وجل محمداً رحمة للعالمين، في سبع وعشرين من رجب، فمن صام ذلك اليوم كتب الله له صيام ستين شهراً»^(٢) ورواه الطوسي^(٣).

وروى الصدوق بسنده عنه عليه السلام أيضاً قال : «بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله لثلاث ليال بقين من رجب، وصوم ذلك اليوم كصوم سبعين عاماً»^(٤).

وروى الطوسي بسنده عن الهادي عليه السلام قال : «يوم السابع والعشرين من رجب يوم بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله الى خلقه رحمة للعالمين»^(٥).

وروى ابن شهر آشوب عن ابن عباس وأنس بن مالك قالوا : «أوحى الله الى محمد صلى الله عليه وآله يوم الاثنين السابع والعشرين من رجب»^(٦) ومن العامة روى المتقي الهندي في «كنز العمال» عن البيهقي في «شعب الإيمان»، عن سلمان الفارسي قال : «في رجب يوم وليلة من صام ذلك اليوم وقام تلك الليلة كان كمن صام مئة سنة وقام مئة سنة، وهو لثلاث بقين من رجب، وفيه بعث الله محمداً»^(٧).

(١) الفروع من الكافي ١ : ٤٦٩.

(٢) الفروع من الكافي ٢ : ١٤٩.

(٣) تهذيب الأحكام ١ : ٤٣٨.

(٤) ثواب الأعمال : ٨٣.

(٥) تهذيب الأحكام ١ : ٤٣٨ الى خبرين آخرين رواهما الشيخ في مجالسه : ٣٤٩ عن

الصادق عليه السلام وفي مصباح المتجهد عن الجواد عليه السلام في صيام ذلك اليوم من دون ذكر للبعثة.

وراجع وسائل الشيعة ٧ : ٣٢٩.

(٦) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٧٣.

(٧) منتخب كنز العمال بهامش المسند ٣ : ٣٦٢.

وأورد الحلبي في سيرته عن الدمياطي في سيرته عن أبي هريرة قال : «من صام يوم سبع وعشرين من رجب، كتب الله تعالى له صيام ستين شهراً، وهو اليوم الذي نزل فيه جبرئيل على النبي بالرسالة، وأول يوم هبط فيه جبرئيل»^(١). وإن كانت النصوص من جانب أهل السنة تعوزهم في تعيين يوم المبعث الشريف، فقد مرّ ما لا إغواز معه من النصوص في ذلك من طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولكن لا بد لنا ولا محيص عن الاعتراف بإغواز النصوص في كيفية بدء البعثة.

كيفية بدء البعثة:

رُوي أنّ الإمام الحسن العسكري عليه السلام قال وهو يصف بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله : «... حتّى استكمل سنّ الأربعين، ووجد الله قلبه الكريم أفضل القلوب وأجلّها، وأطوعها وأخشعها، فأذن لأبواب السماء ففتحت، وأذن للملائكة فنزلوا ومحمد صلى الله عليه وآله ينظر إلى ذلك، فنزلت عليه الرحمة من لدن ساق العرش، ونظر إلى الروح الأمين جبرئيل المطوّق بالنور طاووس الملائكة، هبط إليه وأخذ بضبعه وهزه وقال : يا محمد ! اقرأ، قال : ما أقرأ؟ قال : يا محمد ! ﴿ اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾^(٢) ثم أوحى إليه ما أوحى وصعد جبرئيل إلى ربه.

ونزل محمد من الجبل وقد غشيه من عظمة الله وجلال أبهته ما ركبه الحمى النافضة، وقد اشتدّ عليه ما كان يخافه من تكذيب قريش إيّاه ونسبته إلى الجنون، وقد كان أعقل خلق الله وأكرم بريته، وكان أبغض الأشياء إليه الشياطين وأفعال

(١) السيرة الحلبية ١ : ٣٨٤ وفي آخره دعمٌ لدعوى الشعبي.

(٢) العلق : ١ - ٥.

المجانين، فأراد الله أن يشجع قلبه ويشرح صدره، فجعل كلما يمرّ بحجر وشجر ناداه: السلام عليك يا رسول الله»^(١).

هذا الخبر هو مما يدل على أن أول سورة نزلت - أو الآيات الأولى - هي هذه الآيات الخمس الأول من سورة العلق، ولكنه الخبر الوحيد الذي يدل على أنها نزلت في بداية البعثة في اليوم ٢٧ رجب.

أول ما نزل من القرآن:

أما ما يدل على أنها أول ما نزل: ففي تفسير القمي عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام في قوله سبحانه: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾^(٢) قال: ذلك أن أول سورة نزلت كانت ﴿ اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ثم أبطأ جبرئيل عن رسول الله ﷺ. فقالت خديجة: لعل ربك قد تركك فلا يرسل إليك؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾^(٣).

وروى الكليني بسنده عن الصادق عليه السلام قال: «أول ما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿ وآخر ما نزل عليه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾^(٤) ورواه الصدوق أيضاً^(٥).

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام. كما في البحار ١٨ : ٢٠٦. وقارن بما في تاريخ الطبري ٢ : ٢٩٩ - ٣٠٦ مما يفيد أنه شك بنفسه الجنون! وأراد أن يرى بنفسه من حاله! وشك في الملك أنه شيطان! فطمأنته خديجة وابن عمها النصراني ورقة بن نوفل! ولم يرو مثل ذلك من طرفنا. وانظر دلائل الصدق ١ : ٤١٢ - ٤١٤.

(٢) الضحى : ٣.

(٣) تفسير القمي ٢ : ٤٢٨.

(٤) أصول الكافي ٢ : ٦٢٨.

(٥) عيون أخبار الرضا ٢ : ٦.

ونقل العلامة الطبرسي عن كتاب «الإيضاح» لأحمد الزاهد بإسناده عن سعيد بن المسيّب عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «سألت النبي صلى الله عليه وآله عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء، فأول ما نزل عليه بمكة: فاتحة الكتاب، ثم اقرأ باسم ربك، ثم ن والقلم»^(١).

هذه الأخبار هي كلّ ما جاءنا في أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام في أول ما نزل من القرآن غير مقيدة له ببداية البعثة، اللهم إلا ما مرّ أولاً عن تفسير الإمام عليه السلام. والتفسير هذا فيه ما لا يعرف بل ينكر، ممّا طعن به بعض المحقّقين في نسبته إلى الإمام عليه السلام، ولكن ذلك لا يقتضي أكثر من استظهار أن الراوي كان يحضر عند الإمام عليه السلام فيسأله عن أشياء من تفسير القرآن، وبعد رجوعه إلى داره كان يثبت ذلك لديه نقلاً بالمعنى كما فهمه، فربّما زاد أو نقص أو أخلّ حسبما تتحمّله طاقته وتسعه ظرفيته. وهذا إنّما يقتضي الاحتياط في تلقّي ما جاء فيه بالقبول، باسّترات مطابقتها أو موافقتها لسائر الآثار الصحيحة، ولا أقلّ من عدم مخالفتها، ولا يقتضي عدم الاعتماد عليه إطلاقاً^(٢).

وليس لنا في كيفية البعثة غير هذا الخبر المنفرد كما ترى - من تفسير الإمام - سوى نصّ علي بن إبراهيم القميّ، فيما إذا تلقيناه كالنصّ عند إعواز النصوص. قال: «وكان بين الجبال يرعى غنماً لأبي طالب، فنظر إلى شخص، يقول له: يا رسول الله! فقال له: من أنت؟ قال: جبرئيل، أرسلني الله إليك ليأخذك رسولاً... ونزل جبرئيل وأنزل عليه ماءً من السماء وقال: يا محمد! قم وتوضّأ للصلاة. وعلمه جبرئيل الوضوء وغسل الوجه واليدين من المرفق، ومسح الرأس والرجلين إلى الكعبين، وعلمه السجود والركوع.

(١) مجمع البيان ١٠: ٤٠٥.

(٢) انظر التمهيد ١: ٧٣.

فلما تم له ﷺ أربعون سنة أمره بالصلاة وعلمه حدودها، ولم ينزل عليه أوقاتها، فكان رسول الله ﷺ يصلي ركعتين ركعتين في كل وقت.

وكان علي بن أبي طالب يألفه ويكون معه في مجيئه وذهابه ولا يفارقه، فدخل علي عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي، فلما نظر إليه يصلي قال: يا أبا القاسم! ما هذه؟ قال: الصلاة التي أمرني الله بها. فدعاه إلى الإسلام، فأسلم وصلي معه. وأسلمت خديجة. فكان لا يصلي إلا رسول الله ﷺ وعلي وخديجة.

فلما أتى لذلك أيام دخل أبو طالب إلى رسول الله ﷺ ومعه جعفر، فنظر إلى رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام يجنبه يصليان، فقال لجعفر: يا جعفر صل جناح ابن عمك. فوقف جعفر بن أبي طالب من الجانب الآخر، فلما وقف جعفر على يساره برز رسول الله ﷺ من بينهما وتقدم.

فلما أسلم علي وخديجة وجعفر أسلم زيد (بن حارثة الكلبي) بعدهم. فكان يصلي خلف رسول الله ﷺ: علي وجعفر وزيد وخديجة^(١).

وهذا النص من القمي وإن لم يكن نصاً من إمام معصوم كما هو المفروض في الخبر عن تفسير الإمام علي عليه السلام، ولكنه على أحسن الظن بالقمي، وباستبعاد أكيد أن يكون قد أخذ ذلك عن غيرهم عليهم السلام، لا يقل شأناً عن النص عند إعواز النص، بل يفضل النص السابق عن تفسير الإمام، بإنفراده - خبر التفسير - وتظافر أخبار غير قليلة من الخاصة والعامة تنص على بدء بعثة الرسول بصلاته ثم صلاة علي وخديجة ثم زيد وجعفر بن أبي طالب بتوصية أبيه أبي طالب، من دون نص على نزول شيء من القرآن، ببدء بعثة النبي ﷺ في الأربعين من عمره. وسننقل هنا عينة من هذه الأخبار.

(١) إعلام الوري ١: ١٠٢، ١٠٣ ولم نجده في تفسيره، ورواه عنه القطب الراوندي في قصص الأنبياء: ٣١٨ ثم ابن شهر آشوب بتغيير يسير كما مر.

وقبل ذلك لتريث قليلاً في خبر علي بن ابراهيم القميّ عندما يلفت النظر من ذكر السجود قبل الركوع، فهل في ذلك عناية خاصّة؟

لم نقف على عناية خاصّة في ذلك حتّى عثرنا على رواية رواها ابن أبي الحديد في «شرح النهج» بسنده عن حكيم مولى زاذان قال: سمعت عليّاً عليه السلام يقول: «صلّيت قبل الناس سبع سنين، وكنا نسجد ولا نركع. وأول صلاة ركعنا فيها صلاة العصر، فقلت: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: أمرتُ به»^(١).

أخبار الصلاة:

مرّ تحت عنوان «عليّ عند النبيّ» عن ابن أبي الحديد ما تمامه: «اختلف في سنّ علي عليه السلام حين أظهر النبيّ ﷺ الدعوة إذ تكامل له أربعون سنة: فالأشهر من الروايات أنّه كان ابنَ عشر، وذكر شيخنا أبو القاسم البلخي وغيره من شيوخنا وكثير من أصحابنا المتكلمين: أنّه كان ابن ثلاث عشرة سنة، ثمّ ذكر خبر البلاذري والإصفهاني في ضمّ النبيّ عليّاً إليه منذ كان عمره ست سنين، ثمّ قال: وهذا يطابق قوله عليه السلام: «لقد عبدت الله قبل أن يعبدني أحد من هذه الأمة سبع سنين» وقوله: «كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنين سبعة، ورسول الله ﷺ حينئذٍ صامت ما أذن له في الإنذار والتبليغ».

وذلك لأنّه اذا كان عمره يوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة، وتسليمه الى رسول الله ﷺ من أبيه وهو ابن ست، فقد صحّ أنّه كان يعبد الله قبل الناس بأجمعهم سبع سنين^(٢).

(١) شرح النهج ١٣ : ٢٢٩. وغفل عن هذا الراوندي والحليّ فقدّما الركوع على السجود.

(٢) شرح النهج ١ : ١٥.

وروى الكليني بسنده عن سعيد بن المسيّب قال : سألت علي بن الحسين عليه السلام : ابن كم كان علي بن أبي طالب يوم أسلم ؟ فقال : أو كان كافراً قط ؟! إنما كان لعلي عليه السلام حيث بعث الله عزّ وجلّ رسوله صلى الله عليه وآله عشر سنين ، ولم يكن يومئذٍ كافراً ، ولقد آمن بالله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسبق الناس كلهم الى الإيمان بالله ورسوله ، والى الصلاة ثلاث سنين ، وكانت أوّل صلاة صلاها مع رسول الله الظهر ركعتين ^(١).

وروى الشيخ المفيد في «الإرشاد» بسنده الى يحيى بن عفيف بن قيس الكندي عن أبيه عفيف قال : كنت جالساً مع العباس بن عبد المطلب عليه السلام بمكة قبل أن يظهر أمر النبي صلى الله عليه وآله ، فجاء شاب فنظر الى السماء حين غلقت الشمس ، ثمّ استقبل الكعبة فقام يصلي . ثمّ جاء غلام فقام عن يمينه ، ثمّ جاءت امرأة فقامت خلفهما ، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة ، ثمّ رفع الشاب فرفعا ، ثمّ سجد الشاب فسجدا . فقلت : يا عباس ، أمر عظيم ! فقال العباس : أمر عظيم ، أتدري من هذا الشاب ؟ هذا محمّد بن عبد الله ابن عبد المطلب ، ابن أخي ، أتدري من هذا الغلام ؟ هذا علي بن أبي طالب ابن أخي ، أتدري من هذه المرأة ؟ هذه خديجة بنت خويلد . إنّ ابن أخي هذا حدّثني أنّ ربّه ربّ السماوات والأرض أمره بهذا الدّين الّذي هو عليه ، ولا والله ما على ظهر الأرض على هذا الدّين غير هؤلاء الثلاثة ^(٢). وروى الطبرسي خبر ضمّ النبي صلى الله عليه وآله علياً اليه في صغره عن كتاب «دلائل النبوة»

(١) روضة الكافي : ٢٧٩ .

(٢) الإرشاد ١ : ٣٠ ، ٣١ . ومن أقدم من بحث هذا الموضوع كلامياً هو المتكلم المعتزلي الأقدم الشيخ أبو جعفر الإسكافي (م ٢٤٠ هـ) في كتابه : المعيار والموازنة : ٦٦ - ٧٨ بتحقيق الشيخ المحقّق المحمودي . وقد أكثر النقل عن الإسكافي ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح النهج . ثمّ القاضي النعمان المصري (م ٣٦٣ هـ) في كتابه : شرح الأخبار : ١٧٨ - ١٩١ ، فراجع .

للبيهقي (ت ٤٥٨) بسنده عن ابن إسحاق عن ابن جبر، وروى قبله بسند البيهقي عن عفيف الكندي قال :

كنت امرأً تاجراً، فقدمت منى أيام الحج، وكان العباس بن عبد المطلب امرأً تاجراً، فأتيته أبتاع منه وأبيعه. فبينما نحن كذلك إذ خرج رجل من خباء، وأخذ يصلي تجاه الكعبة، ثم خرجت امرأة فقامت تصلي معه بصلاته، وخرج غلام وأخذ يصلي معه بصلاته. فقلت : يا عباس، ما هذا الدين ؟ فقال : هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله، وأن كنوز كسرى وقیصر ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد، آمنت به، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به، قال عفيف : فليتني كنت آمنت به يومئذ فكنت أكون ثانياً تابعه^(١).

وروى الخبر هذا ابن شهر آشوب (م ٥٨٨هـ) في «المناقب» عن كتاب «المبعث» لابن إسحاق، و«تأريخ الطبري» بثلاثة طرق، و«الإبانة» للعكبري، بأربع طرق، و«تأريخ النسوي»، والماوردي، ومسند أبي يعلى ويحيى بن معين، وتفسير الثعلبي وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل^(٢) بأسانيدهم عن عفيف الكندي وأنه أخو الأشعث بن قيس الكندي^(٣) وأن العباس قال له : إن ابن أخي هذا حدثني : أن ربه رب السماوات والأرض أمر بهذا الدين، ثم قال : والله ما على ظهر الأرض على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

وعن ابن إسحاق عن عفيف قال : فلما خرجت من مكة إذا أنا بشاب جميل على فرس قال : يا عفيف ما رأيت في سفرك هذا ؟ فقصصت عليه فقال : لقد صدقك

(١) إعلام الوری ١ : ١٠٥ .

(٢) مسند الامام أحمد ١ : ٢٠٩ .

(٣) ورواه القاضي النعمان في شرح الأخبار ١ : ١٧٩ قال : أتيت مكة لأبتاع من عطرها وثيابها .

العبّاس، واللّه إنّ دينه لخير الأديان، وإنّ أُمّته أفضل الأمم. قلت: فلمن الأمر من بعده؟ قال: لابن عمّه وختنه عليّ بنته، يا عفيف الويل كلّ الويل لمن يمنعه حقّه.

ثمّ نقل عن ابن إسحاق قال: إنّ النبيّ كان إذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكّة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا. فكثنا كذلك زماناً.

ثمّ إنّ أبا طالب رأى النبيّ وعلياً يصلّيان فسأل عن ذلك فقال النبيّ: إنّ هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم عليه السلام. وقال علي: يا أبت آمنت بالله وبرسوله وصدّقه بما جاء به وصلّيت معه لله. فقال له: أما إنّ لا يدعو إلّا الى خير، فالزمه.

ولكنّه نقل عن كتاب الشيرازي قال: إنّ النبيّ ﷺ لما نزل الوحي عليه أتى المسجد الحرام وقام يصليّ فيه، فاجتاز به علي - وكان ابن تسع سنين - فناداه: يا علي أقبل إليّ، فأقبل إليه ملبّياً، فقال له: إنّني رسول الله إليك خاصة، وإلى الخلق عامة، تعال يا علي فقف عن يميني وصلّ معي. فقال: يا رسول الله حتّى أمضي وأستاذن والدي! قال: اذهب فإنّه سيأذن لك. فانطلق يستأذنه في اتّباعه، فقال: يا ولدي: تعلم أنّ محمّداً - والله - أمين منذ كان، امض واتّبعه ترشد وتفلاح. فأتى علي عليه السلام ورسول الله قائم يصليّ في المسجد، فقام عن يمينه يصليّ معه، فاجتاز بهما أبو طالب وهما يصلّيان، فقال: يا محمّد ما تصنع؟ قال: أعبد إله السماوات والأرض، ومعّي أخي علي يعبد ما أعبد يا عمّ... فضحك أبو طالب حتّى بدت نواجذه.

بينما نقل عن ابن الفياض في «شرح الأخبار» عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: مرّ علينا أبو طالب ونحن ساجدان، فأخذ بيدي وجعل يرغّبني في ذلك ويمضي عليه^(١).

(١) شرح الأخبار: ١٧٧ و ١٧٩ للقاضي النعمان المصري المغربي التيمي الشيعي ←

ونقل عنه عن أبي أيوب الأنصاري قال : سمعت النبي يقول : لقد صلت الملائكة عليّ وعلى عليّ بن أبي طالب سبع سنين ، وذلك أنّه لم يؤمن بي ذكر قبله .
ونقل عن ابن شيرويه الديلمي في «الفردوس» عن جابر قال : قال النبي ﷺ : لقد صلت الملائكة عليّ وعلى عليّ بن أبي طالب سبع سنين قبل الناس ، وذلك أنّه كان يصليّ ولا يصليّ معنا غيرنا . أو : لم يصلّ فيها غيري وغيره . أو : لم يصلّ معي رجل غيره .

ونقل عن (مسند أحمد) بسنده عن ابن عباس^(١) . وعن تاريخ الطبري والبلاذري وجامع الترمذي و«الإبانة» للعكبري ، و«الفردوس» للديلمي و«فضائل الصحابة» لابن حنبل بسندهم عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ قال : أوّل من صليّ معي عليّ^(٢) .

ونقل عن ابن حنبل في «مسند العشرة» و«فضائل الصحابة» والترمذي في «الجامع الصحيح» والنسوي في «المعرفة» وابن بطة العكبري في «الإبانة»

→ الفاطمي الاسماعيلي ، المتوفى في ٣٦٣ هـ . وقد أطلق ابن شهر آشوب عليه لقب : ابن الفيّاض هنا وفي كتابه الآخر : معالم العلماء : ١٣٦ قال : «ابن الفيّاض القاضي النعمان ابن محمّد ، ليس بامامي ، وكتبه حسان» . ولم نجد أحداً غير ابن شهر آشوب لقّبه بهذا . والخبر : عن حبة العرنى قال : رأيت علياً عليه السلام ضحك على المنبر ، ولم أره ضحك ضحكاً أكثر منه حتّى بدت نواجذه ، ثمّ قال : بينما أنا ورسول الله ﷺ ببطن نخلة نصليّ إذ ظهر علينا أبو طالب ، فقال : ما تصنعان يا ابن أخي ؟ فدعاه رسول الله ﷺ ورغبه في الإسلام فقال : ما أرى بالذي تقول وتصنع بأساً ... ثمّ قال عليّ عليه السلام : اللهم لا أعرف عبداً من هذه الأمة عبدك قبلي غير نبيّها - قالها ثلاث مرات ثمّ قال - لقد صليت قبل أن يصليّ أحد سبعا - يعني سبع سنين . ورواه ابن حنبل في المسند ١ : ٩٩ .

(١) مسند الامام أحمد ١ : ٣٧٣ ط ١ .

(٢) ورواه البلاذري في أنساب الأشراف ٢ : ٩٣ .

بسندهم عن حبة العرني قال : سمعت علياً يقول : «أنا أول من صلى مع رسول الله».

وفي «مسند العشرة» و«فضائل الصحابة» لابن حنبل عن العرني عن علي عليه السلام بلفظ : «اللهم لا أعرف أن عبداً من هذه الأمة عبدك قبلي، غير نبيك» قالها ثلاث مرّات.

وفي مسند أبي يعلى بلفظ : «ما أعلم أحداً من هذه الأمة بعد نبيها عبد الله غيري».

وفي مسندي أحمد وأبي يعلى عن العرني عنه عليه السلام قال : «صلّيت قبل أن يصلي الناس سبعا»^(١).

ونقل عن سنن ابن ماجه القزويني وتاريخ الطبري عن عبّاد بن عبد الله الرواجني قال : سمعت علياً قال : «أنا عبد الله وأخو رسول الله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذب مفتر؛ صلّيت مع رسول الله سبع سنين».

ونقل عن سنن ابن ماجه وتفسير الثعلبي عن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه قال : إن علياً صلى مستخفياً مع النبي سبع سنين وأشهر.

ونقل عن «شرف المصطفى» للخرگوشي النيشابوري (م ٤٠٦ هـ) قال : جاء جبرئيل الرسول بأعلى مكة وعلمه الصلاة فانفجرت من الوادي عين حتى توضأ جبرئيل بين يدي رسول الله، وتعلّم رسول الله ﷺ منه الطهارة، ثم أمر به علياً عليه السلام^(٢).

(١) مسند أحمد ١ : ٩٩ وفي مسند أبي يعلى، الورق ٣١ / بسنده عن حبة العرني عنه عليه السلام : خمس سنين. أو : سبع سنين.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢ : ١٤ - ١٩. هذا هو الفصل الثاني في الجزء الثاني من الكتاب، ←

والاربلي في «كشف الغمة» ذكر خبر ابن اسحاق في ضم النبي علياً اليه، وأخبار مسند أحمد بن حنبل، ثم نقل عن «المناقب» للخوارزمي عن عبد الله بن مسعود خبراً يشبه خبر عفيف الكندي، قال: إنَّ أوَّل شيء علمته من أمر رسول الله ﷺ: أني قدمت مكة في عمومة لي فأرشدونا على العباس بن عبد المطلب فانتبهنا اليه وهو جالس الى من ثم، فجلسنا اليه. فبينما نحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا تعلوه حمرة، وله وفرة جعدة الى أنصاف أذنيه، ألقى الأنف، براق الثنايا، أدعج العينين، كث اللحية، دقيق المسربة^(١) شثن الكفين، حسن الوجه، معه مراهق أو محتلم، تقفوه امرأة، قد سترت محاسنها، حتى قصدوا نحو الحجر فاستلمه، ثم استلم الغلام ثم استلمته المرأة، ثم طاف بالبيت سبعاً، والغلام والمرأة يطوفان معه. فقلنا: يا أبا الفضل إنَّ هذ الدين لم نكن نعرفه فيكم، أو شيء حدث؟ قال: هذا ابن أخي محمد بن عبد الله، والغلام علي بن أبي طالب، والمرأة امرأته خديجة بنت خويلد، ما على وجه الأرض أحد يعبد الله تعالى بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة.

ثم قال: ومثله عن عفيف الكندي... وقال: وكان عفيف ابن عم الأشعث بن قيس. ورواه أحمد بن حنبل في مسنده والنطنزي في «الخصائص» ثم نقل عن «الخصائص» في قوله تعالى: ﴿وَازْكُفُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ﴾^(٢) قال: إنما نزلت في النبي

→ والفصل الأوَّل: المسابقة في الإسلام من ٤ الى ١٣. وأما خبر ابن إسحاق في ضم النبي علياً عليه السلام إليه، فقد نقله في فصل الطهارة والرتبة: ١٧٩ عن الطبري والبلاذري والواحدي والشعبي وشرف النبي وأربعين الخوارزمي ومغازي ابن إسحاق..

(١) المسربة: الشعر الدقيق من الصدر الى السرة.

(٢) البقرة: ٤٣.

وعليّ خاصّة، لأنّها أوّل من صلّى وركع^(١)، فعن عليّ عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : «نزلت عليّ النبوة يوم الإثنين، وصلّى عليّ معي يوم الثلاثاء».

ونقل خبر ابن أبي رافع بهذا المعنى عن «المناقب» للخوارزمي قال : صلّى النبيّ يوم الإثنين وصلّى عليّ من الغد يوم الثلاثاء، قبل أن يصلّي الناس مع النبيّ سبع سنين وأشهر.

ونقل عن مسند أحمد بن حنبل بسنده عن عليّ عليه السلام قوله -الذي نقله ابن شهر آشوب عن سنن ابن ماجة وتاريخ الطبري- «أنا عبد الله وأخو رسوله ﷺ، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلاّ كاذب مفتر، ولقد صلّيت قبل الناس بسبع سنين»^(٢).

وروى البحراني خبر ابن إسحاق عن مجاهد بن جبر في ضمّ النبيّ عليّاً عليه السلام وهو صغير، في «حلية الأبرار» عن الصدوق بسنده عن ابن اسحاق^(٣) وفي موضع آخر عن تفسير الثعلبي^(٤) ثمّ روى الأخبار المارّة عن مسند أحمد بن حنبل، ومناقب ابن شهر آشوب، والكليني والصدوق.

ومن العامّة بعدما نقل ابن إسحاق خبر المجاهد بن جبر قال : ذكر بعض أهل العلم : أنّ رسول الله كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكّة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصلّيان الصلوات فيها فإذا أمسيا رجعا. فكنا كذلك ما شاء الله أن يمكنا.

(١) ونقله ابن شهر آشوب في المناقب ٢ : ١٣ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس . وعن الباقر عليه السلام .

(٢) كشف الغمّة ١ : ٧٩ - ٨٩.

(٣) حلية الأبرار ١ : ٢٣٢ .

(٤) حلية الأبرار ١ : ٢٣٩ .

ثُمَّ إِنَّ أَبَا طَالِبٍ عَثَرَ عَلَيْهَا يَوْمًا وَهَمَّا يَصْلِيَانِ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ : يَا بَنَ أَخِي، مَا هَذَا الدِّينَ الَّذِي أَرَاكَ تَدِينُ بِهِ؟ قَالَ : أَيُّ عَمٍّ، هَذَا دِينُ اللَّهِ وَدِينُ مَلَائِكَتِهِ وَدِينُ رُسُلِهِ وَدِينُ آبَائِنَا إِبْرَاهِيمَ، بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ رَسُولًا إِلَى الْعِبَادِ.

وَذَكَرُوا : أَنَّهُ قَالَ لِعَلِيِّ : أَيُّ بُنِيِّ، مَا هَذَا الدِّينَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ : يَا أَبَتِي، آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِ اللَّهِ، وَصَدَّقْتُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ، وَصَلَّيْتُ مَعَهُ لِلَّهِ وَاتَّبَعْتُهُ، فَقَالَ لَهُ : أَمَّا أَنَّهُ لَمْ يَدْعُكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ فَالْزِمْهُ^(١).

وَقَالَ الْبَلَاذُرِيُّ : «وَصَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وَأَلِهِ] وَسَلَّم - وَهُوَ ابْنُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً، وَهُوَ الثَّبِتُ» ثُمَّ نَقَلَ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ^(٢).

ثُمَّ رَوَى بِسَنَدِهِ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ قَالَ : أَوَّلَ مَنْ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ^(٣).

وَنَقَلَ الْمُحَقِّقُ بِهَامِشِهِ عَنْ مُسْنَدِ أَبِي يَعْلَى بِسَنَدِهِ عَنْ حَبَّةِ الْعُرْنِيِّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا عَبْدَ اللَّهِ قَبْلِي، لَقَدْ عَبْدتُهُ قَبْلَ أَنْ يُعْبَدَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَمْسَ سِنِينَ. أَوْ قَالَ : سَبْعَ سِنِينَ. وَعَنْهُ قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَأَسْلَمَتْ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ^(٤).

أَجَلٌ، هَذِهِ عَيِّنَةٌ وَافِيَةٌ مِنْ أَخْبَارِ الْبَابِ، وَهِيَ كَمَا رَأَيْنَاهَا خَالِيَةٌ عَنْ ذِكْرِ الْقُرْآنِ وَنَزُولِهِ وَالْقِرَاءَةِ مِنْهُ فِي صَلَاتِهِمْ وَلَكِنْ - قَالَ صَاحِبُ التَّهْيِيدِ - «لَا شَكَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَصَلِّي مِنْذُ بَعَثْتَهُ، وَكَانَ يَصَلِّي مَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَجَعْفَرُ بْنُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٦٣، ٢٦٤.

(٢) أنساب الأشراف ٢ : ٩٠.

(٣) أنساب الأشراف ٢ : ٩٢، ٩٣.

(٤) هامش أنساب الأشراف ٢ : ٩٢.

وخديجة، «ولا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»... فلا بدّ أن سورة الفاتحة كانت مقرونةً بالبعثة^(١).

«وإن كان أول ما نزل من القرآن سورة العلق أو آي منها فلم سميت سورة الحمد بفاتحة الكتاب؟ إذ ليس المعنى: أنها كتبت في بدء المصحف، لأنّ هذا الترتيب شيء حصل بعد وفاة النبي ﷺ أو لا أقلّ في عهد متأخّر من حياته فرضاً، في حين أنها كانت تسمّى بفاتحة الكتاب منذ بدايات نزولها».

وللإجابة يقول: «أمّا الآيات الخمس من سورة العلق فهي أول آيات نزلت، وأمّا سورة الحمد فهي أول سورة كاملة نزلت، ولذلك سُميت بفاتحة الكتاب، ثمّ لم ينزل من القرآن تبعاً إلا بعد الفترة»^(٢).

هذا، وقد مرّ الخبر الطبرسي في «جمع البيان» عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ: «أن أول ما نزل عليه بمكة فاتحة الكتاب ثمّ اقرأ باسم ربك»^(٣).

فترة الوحي:

في تفسير القميّ عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام في قوله سبحانه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ قال: ذلك أن أول سورة نزلت كانت ﴿اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ثمّ أبطأ جبرئيل عن رسول الله ﷺ فقالت خديجة: لعلّ ربك قد تركك فلا يرسل اليك؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾^(٤).

(١) التمهيد ١ : ٩٦.

(٢) التمهيد ١ : ٨٠ - ٨٣.

(٣) جمع البيان ١٠ : ٤٠٥.

(٤) تفسير القميّ ٢ : ٤٢٨.

وهذا اللفظ المروي هنا في هذا الخبر عن خديجة عليها السلام أخف وطأة والأمر فيه أيسر مما رواه الطبري بسنده عن عبد الله بن شداد قال : ثم أبطأ عليه جبرئيل فقالت له خديجة : ما أرى ربك إلا قد قلاك (!) فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ^(١) وقد خلا عنه ما رواه ابن إسحاق والطبري عنه عن عبد الله بن الحسن عن أمه فاطمة بنت الحسين عن جدتها خديجة في بدء نبوة الرسول ^(٢) بل كأن ابن إسحاق أراد أن يبرىء خديجة عن نسبة تلك المقولة اليها فبدأ برواية خبر عن عبد الله بن جعفر عن رسول الله قال :

أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب (أي ذهب) لا صخب فيه ولا نصب . وقال : حدثني من أثق به : أن جبرئيل عليه السلام أتى رسول الله فقال : أقرىء خديجة السلام من ربها . فقال رسول الله : يا خديجة ، هذا جبرئيل يُقرئك السلام من ربك . فقالت خديجة : الله السلام ومنه السلام وعلى جبرئيل السلام . ثم قال ابن إسحاق : ثم فتر الوحي عن رسول الله فترة من ذلك حتى شق ذلك عليه فأحزنه ، فجاءه جبرئيل بسورة الضحى : يُقسم له ربه - وهو الذي أكرمه بما أكرمه به - أنه ما ودّعه وما قللاه ، ويقول : ما صرمك فتركك وما أبغضك منذ أحبك ، وما عندي من مرجعك إليّ خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ﴾ من الفلج ^(٣) في الدنيا والثواب في الآخرة ﴿ فَتَرْضَى ﴾ ثم يعرفه الله ما ابتدأه به من كرامة في عاجل أمره ومنه عليه في يتمه وعيلته وضلالته ، واستنقاذه من ذلك كله برحمته ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث ﴾ بما جاءك من الله من نعمته وكرامته من النبوة فاذكرها وادعُ اليها . فجعل رسول الله - صلى الله عليه

(١) الطبري ٢ : ٣٠٠ ، والتفسير ٣٠ : ١٦٢ .

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٥٥ ، والطبري عنه ٢ : ٣٠٣ .

(٣) الفلج : الفوز والغلبة .

[وآله] وسلّم - يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سرّاً الى من يطمئن اليه من أهله^(١).

ولو كان كذلك فلا ينسجم هذا مع ما رواه الطبرسي عن ابن عباس قال : احتبس الوحي عنه ﷺ خمسة عشر يوماً ، فقال المشركون : إنّ محمداً قد ودّعه ربّه وقلاه ، ولو كان أمره من الله لتتابع الوحي عليه ، فنزلت السورة^(٢).

وهذا لا ينسجم مع ما روى الطبري عن ابن عباس أيضاً في سنوات البعثة إذ قال : بعث رسول الله لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة^(٣) فهل عني بذلك أنّه ﷺ قرأ القرآن على المشركين معلناً لهم الدعوة منذ بدء البعثة حتّى إذا احتبس عنه الوحي خمسة عشر يوماً قالوا فيه ذلك ؟

وروى الطبري عن ابن شهاب عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي : بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض . قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : فجئت منه فرقاً^(٤) وجئت فقلت : زملوني ، زملوني ! فدثروني فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾^(٥) الى قوله : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ قال : ثمّ تتابع الوحي^(٦).

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٥٧ - ٢٥٩ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٤ .

(٣) الطبري ٢ : ٢٩٢ بطريقين .

(٤) جئت : خفت وفزعت ، وفرقاً . خوفاً وفزعاً .

(٥) المدثر : ١ - ٣ .

(٦) الخبر في التفسير ٢٩ : ٩٠ ط بولاق وفي التاريخ ٣ : ٣٠٦ ط دار المعارف . ونقله الطوسي في

البيان ١٠ : ١٧١ .

وحسب تعبير الخبر فان جابراً يصف حديث رسول الله أنه كان يحدث عن فترة الوحي، والفترة من الفتور، وهو لا يكون في الوحي إلا بين وحيين، فلا يكون إلا بعد بدء الوحي، وفي نفس الخبر نص بالإشارة إلى سبق نزول ملك الوحي إليه في حراء: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي» وفي آخر الخبر: «ثم تتابع الوحي» في مقابل «فتر الوحي».

فالخبر إذن لا يدل على أن الآيات من سورة المدثر هي أول ما نزل عليه^(١) وإن نقل ذلك عن جابر نفسه، كما في ما روى الطبري عن ابن شهاب عن ابن سلمة قال:

سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقلت: ﴿اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فقال: لا أخبرك إلا ما حدثنا النبي قال: جاورت في حراء فلما قضيت جوارى هبطت فاستبطنت الوادي فنوديت فنظرت عن يميني وعن شمالي وخلفي وقدامي فلم أر شيئاً، فنظرت فوق رأسي فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض...».

وفي لفظ آخر: «فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، وعن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت امامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً...».

نعم ليس في هذين اللفظين من الخبر ما مر في اللفظ الأسبق «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» وأيضاً ليس فيها ما كان في الأسبق أنه ﷺ كان يحدث عن فترة الوحي، مع أن الراوي هو أبو سلمة بن عبد الرحمن نفسه، وهذا غريب! والراوي عنه هو الزهري، ولكنه لم يفهم من الخبر ما ادّعاه أبو سلمة بل ونسبه إلى جابر

في اللفظين المتأخرين من الخبر دون الأول، ولذلك فإنّ الزهري فيما رواه عنه الطبري في حديثه عن فترة الوحي روى اللفظ الأول للخبر ثمّ قال : وكان أوّل شيء أنزل عليه ﴿ اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ حتّى بلغ ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾^(١) فقد عوّل على الخبر بلفظه الأوّل لا الآخرين، كما فعل البخاري فرواه دونهما، وإن كان مسلم قد رواهما معاً.

فالمعوّل على اللفظ الأوّل للخبر دون الآخرين، حيث أقر راوي الخبر أبو سلمة بنقله عن جابر من دون القول بأن أوّل ما نزل سورة المدّثر، وإن كان قد أضاف ذلك إليه في اللفظين الآخرين (فالعهد) فيها على الراوي دون جابر، فليس من باب الظن والاجتهاد من جابر، كما في «التمهيد»^(٢) وعلى هذا فليس القول بأن أوّل ما نزل هو سورة المدّثر من جابر، بل هو من نسبة أبي سلمة الى جابر، دون ثبات على هذه النسبة فقد روى هو عنه خلافها أيضاً.

نعم لا يمكن تأييد ما في الخبر عنه ﷺ أنّه قال : «فجثت منه فرقاً» أي خفت منه خوفاً أو فزعت منه فزعاً، لأنّه بظاهره يتناقض مع ما رواه العياشي في تفسيره عن زرارة قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : كيف لم يخف رسول الله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك ممّا ينزع به الشيطان ؟ فقال عليه السلام : «إنّ الله اذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار، فكان يأتيه من قبل الله عزّ وجلّ مثل الذي يراه بعينه»^(٣).

(١) الخبر في التفسير ٢٩ : ٩٠ ط بولاق وفي التاريخ ٣ : ٣٠٤ - ٣٠٦. وفي البخاري ١ : ٤ وفي

صحيح مسلم ١ : ٩٨، ٩٩.

(٢) التمهيد ١ : ٩٤.

(٣) تفسير العياشي - وعنه في بحار الأنوار ١٨ : ٢٦٢.

وروى الصدوق في «التوحيد» بسنده عن محمد بن مسلم ومحمد بن مروان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : «ما علم رسول الله ﷺ أن جبرئيل عليه السلام من قبل الله إلا بالتوفيق»^(١).

إذن فالتوفيق الإلهي بالوقار والسكينة المنزلة على رسول لا يتركه ليفزع خوفاً من النظر الى ملك الوحي جبرئيل حتى ولو كان بصورته الأصلية إن صح التعبير.

أما اليعقوبي فقد قال في نزول سورة المدثر : وبعث رسول الله لما استكمل أربعين سنة... وعلى جبرئيل جبة سندس، وأخرج له درنوكة من درانيك الجنة، فأجلسه عليه، وأعلمه أنه رسول الله وبلغه عن الله وعلمه : ﴿ اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وأتاه من غد وهو متدثر فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾^(٢).

هل نزل القرآن في دور الكتمان؟

ومما يؤيد عدم نزول القرآن في دور الكتمان أننا لا نجد من آيات القرآن، مما لا خلاف في نزوله قبل سورة الحجر التي في أواخرها قوله سبحانه : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا

(١) التوحيد : ٢٤٢ وعنه في بحار الأنوار ١٨ : ٢٥٦. وقارن بما في تاريخ الطبري ٢ : ٢٠٩ - ٣٠٦

مما يفيد أنه جزع وفزع وقلق واضطراب وشك في نفسه الجنون ! وأراد أن يرمي بنفسه من حائق ! وشك في الملك أنه شيطان ! فطمأنته خديجة وابن عمها النصراني ورقة بن نوفل !!

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٣. وهذا قريب جداً مما رواه الراوندي في الخرائج والجرائح ١ : ٨٣،

الحديث ١٣٦ عن الصادق عليه السلام قال : كان محمد ﷺ يرعى غنم عمه أبي طالب.. وبلغ أربعين سنة.. وتراءى له جبرئيل بأعلى الوادي عليه جبة من سندس.. قال : سمعت صوتاً من السماء : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل.. وأخرج له درنوكة من درانيك الجنة فأجلسه عليه وأمره بما أراد ثم قال : أنا جبرئيل، وقام فلحق محمد ﷺ بالغنم.

تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ وهي السورة الرابعة والخمسون في ترتيب النزول، وقبلها في النزول سورة الشعراء وهي السابعة والأربعون التي في أواخرها قوله سبحانه : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢) لا نجد في كل ذلك ما يتناسب مع مرحلة الكتمان، بل من خصائص السور المكية - ومنها هذه السور - خطابها المشركين وجداها معهم في شركهم وكفرهم وجحودهم للمبدأ والمعاد، مما لا يتناسب بظاهره مع الكتمان وإنما الإعلان.

فسور النمل والقصص والإسراء ويونس وهود ويوسف وحتى الحجر، وهي السور النازلة بعد الشعراء وقبل الحجر، هي سور تساور المشركين وتحاورهم في كثير من آياتها، وسورة الحجر بالخصوص تقول في بدايتها : ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣) فهل هي من الكتمان في شيء؟!

بل قال العلامة الطباطبائي في تفسيره في التعريف بسورة الحجر : «تتضمن السورة على الكلام حول استهزاء الكفار بالنبي ﷺ ورميه بالجنون، ورمي القرآن الكريم بأنه من أهدار الشياطين. ففيها تعزية للنبي ﷺ وأمر بالصبر والثبات والصفح عنهم وتطيب ل نفسه الشريفة وإنذار وتبشير.

وتتضمن السورة على قوله تعالى : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ والآية تقبل الانطباق على ما ضبطه التاريخ أن النبي ﷺ اکتتم في أول

(١) الحجر : ٩٤.

(٢) الشعراء : ٢١٤.

(٣) الحجر : ٢ - ٧.

البعثة - ثلاث سنين أو أربعاً أو خمساً - لا يعلن دعوته، لا شتداد الأمر عليه، فكان لا يدعو إلاّ آحاداً ممن يرجو منهم الإيمان، يدعوهم خفية ويُسِرُّ اليهم الدعوة، حتّى أذن له ربّه في ذلك وأمره أن يعلن دعوته.

وتؤيّد الروايات الماثورة من طرق الشيعة وأهل السنة: أنّه ﷺ كان يكتّم في أوّل بعثته سنين لا يظهر فيها دعوته لعامة الناس حتّى أنزل الله عليه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿﴾ فخرج الى الناس وأظهر الدعوة. فالسورة مكيّة نازلة في أوّل الدعوة العلنية»^(١).

ثمّ لم يبيّن أنّه ﷺ اذا كان - كما قال - لا يدعو إلاّ آحاداً خفية وسراً ممّن يرجو منهم الإيمان، فأين كان المستهزئون وبماذا كانوا يستهزئون؟ وكيف كان استهزاؤهم حتّى انّ الرسول ﷺ دعا عليهم فكفاه الله شرّهم وشرّ استهزائهم؟ واذا كان آخر هذه السورة بداية الإذن بالإعلان فما معنى أن تكون السورة لتعزية الرسول وصبره؟!

ولا يختص هذا الإشكال بالعلامة الطباطبائي، فقد درج الجميع على هذا القول بلا بيان لهذا الإجمال.

ولعلّه التفاتاً الى هذا الإشكال ودفعاً له قال السيد المرتضى في «الصحیح»: بعد أن أنذر عشيرته الأقربين انتشار أمر نبوته في مكّة، وبدأت قريش تتعرض لشخصه ﷺ بالاستهزاء والسخرية وأنواع التهم^(٢).

ومن قبله السيد الحسيني فقال في «سيرة المصطفى»: لقد تحدث - بعد دعوته ﷺ عشيرته الأقربين - جميع الناس في مكّة عن دعوته، وتسربت أنباؤها

(١) الميزان ١٢ : ٩٥، ٩٦.

(٢) الصحيح ٢ : ٢٦.

لخارج مكة ولم يعد أمرها خافياً على أحد من سكان مكة وجوارها بعد أن أعلنها بصراحة على بني عمومته وعشيرته^(١).

ومعنى ذلك أن الأمر اختلف بعد دعوة العشيرة عما قبلها فإنما تسربت الدعوة بعد ذلك أما ما قبلها فالسر والكتان. ولكننا لا نجد فيما أوحى قبل ذلك ما يختلف عما بعده بل نجد الأمر نفسه قبله.

ف نجد بداية سورة الشعراء تقول : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ * إِنَّ نَشْأَ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿^(٢).

وتقول في أواخرها : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَمَا تَنْزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعُزُولُونَ * فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿^(٣).

(١) سيرة المصطفى : ١٣٣ .

(٢) الشعراء : ٦ - ٣ .

(٣) الشعراء : ١٩٣ - ٢١٥ .

فماذا يعني كل هذا الخطاب والعتاب بل التهديد بالعذاب والاعذار بالانذار؟ وهل كل هذا من الكتمان في شيء؟ والآية الأخيرة هل تعني أن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين بالدعوة الخاصة، خاصة؟ أم مع من يؤمن به من عشيرته الأقربين في هذه الدعوة الخاصة فحسب؟ أو يؤخذ باطلاق الآية وعمومها؟

والعلامة الطباطبائي في تفسيره قال في بيان الغرض من هذه السورة: «غرض هذه السورة تسليية النبي ﷺ قبال ما كذبه قومه وكذبوا بكتابه النازل عليه من ربه. وقد رموه تارة بأنه مجنون وأخرى بأنه شاعر، وفيها تهديدهم مشفعاً ذلك بإيراد قصص جمع من الأنبياء وهم: موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليه السلام، وما انتهت إليه عاقبة تكذيبهم، لتسلي به نفس النبي ﷺ ولا يحزن بتكذيب أكثر قومه، وليعتبر المكذبون. والسورة من عتائق السور المكية وأوائلها نزولاً، وقد اشتملت على قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾»^(١).

ثم لم يبين متى كان تكذيب أكثر قومه له؟ وأين كان المكذبون؟ وبماذا كانوا يكذبون؟ وبماذا يعتبرون؟ وهو بعد لم يدع عشيرته الأقربين وإنما يدعوهم بعد نزول الآية في آخر هذه السورة نفسها! فكيف التوفيق؟!

ثم كيف هي من عتائق السور المكية وأوائلها نزولاً وقد ردّدت نزولها من الثالثة إلى الخامسة بعد البعثة؟!

والسورة التي تسبق الشعراء في ترتيب النزول هي سورة الواقعة، وهي في أوائلها ثلث الناس يوم القيامة: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ثم تقسم هؤلاء السابقين من

أصحاب اليمين الى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^(١) وتعود فتقول: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ * وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَخَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحُمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾^(٢) وتتابع النعوت والأوصاف فتقول: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ﴾^(٣) فما معنى الأولين والآخرين من السابقين من أصحاب اليمين؟ فهل كل ذلك فيمن استجاب للدعوة الخاصة السريّة؟ ومن هم؟ وكم هم؟ وما معنى أصحاب الشمال ولم تشملهم الدعوة؟ وكذلك سائر السور التي سبقت الواقعة.

ولكن في مقابل كل ذلك مما يؤيد سرّية المرحلة الأولى من الدعوة ونزول القرآن فيها: هو - من جانب - التناسب الكمي فيما بين ما نزل من القرآن الى سورة الحجر مع تلك الفترة، ومن جانب آخر: عدم التناسب أو على الأقل استبعاد أن تكون دعوة العشيرة الأقربين قد حصلت حسب آية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ من سورة الشعراء السابعة والأربعين في ترتيب النزول من دون أن تكون المرحلة السابقة سرّية مكتومة، أي بعد أن تمرّ على الدعوة زهاء ثلاث سنين من الدعوة العلنية العامّة، ممّا لا يتناسب ودعوة العشيرة خاصّة بعد كل هذه المدة الطويلة من الدعوة العامّة. اللهمّ إلا أن نقول: إنّ ذلك كان اتّاماً للحجة عليهم خاصة، وإعلاناً لوصيّهم بينهم، وبذلك يثبت لهم أن دعوته غيبية وأنّه مطمئن من

(١) الواقعة : ١٣ - ١٤ .

(٢) الواقعة : ٣٨ - ٤٤ .

(٣) الواقعة : ٨٨ - ٩٤ .

الغيب باستمرارها وثباتها بحيث تحتاج إلى الوصاية من بعده. وهذا هو الصحيح، كما نرى فيما يلي.

حديث الإنذار:

اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ نلتزم بأن الدعوة كانت بعد مقاطعة قريش للرسول وحصارهم إِيَّاه وبني هاشم في شعب أبي طالب في حدود السنة السادسة للبعثة، على ما رواه فرات بن ابراهيم الكوفي في تفسيره مسنداً عن أبي رافع -مولى العباس بن عبد المطلب- قال: إن رسول الله جمع ولد عبد المطلب في الشعب، وهم يومئذ -ولده لصلبه وأولادهم- أربعون رجلاً. فصنع لهم رجل شاة وثردهم ثريدة فصَّب عليه ذلك المرق واللحم، ثم قدَّموها اليهم فأكلوا منه حتى شبعوا، ثم سقاهاهم عُسّاً واحداً من لبن فشربوا كلهم من ذلك العُسِّ حتى رَوُّوا^(١).

فقال أبو لهب: والله إن منّا نفراً يأكل أحدهم الجفرة^(٢) وما يصلحها فما تكاد تُشبعه، ويشرب الفِرْق^(٣) من النبيذ فما يُرويه، وإن ابن أبي كبشة^(٤) دعانا على رجل شاة وعُسٍّ من شراب فشبعنا وروينا، إن هذا هو السحر المبين!

ثم دعاهم، فقال لهم: إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ورهطي المخلصين، وأنكم عشيرتي الأقربون ورهطي المخلصون، وإن الله لم يبعث نبياً إلا جعل له أخاً من أهله ووارثاً ووصياً ووزيراً، فأيتكم يقوم فيبايعني على أنه أخي

(١) العُسّ: القدح الكبير.

(٢) الجفرة مؤنث الجفر وهو من أولاد المعز ما فصل عن أمه وبدأ بالرعي بعد أربعة أشهر، كما في النهاية للجزري.

(٣) بالفتح أو الكسر فالسكون: السقاء الممتلئ.

(٤) هو رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، شَبَّهوه به، كما في النهاية للجزري.

ووزيري ووارثي دون أهلي، ووصيي وخليفتي (في أهلي) ويكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي؟! فأمسك القوم.

فقال: واللّه ليقومنّ قائمكم أو لتكوننّ في غيركم ثمّ لتندمُنّ! فقام علي عليه السلام وهم ينظرون اليه كلّهم، فبايعه وأجابه الى ما دعاه اليه^(١).

وقد يؤيد دعوى ابن أبي رافع بأن ذلك الجمع وتلك الدعوة كانت في الشعب أي بعد الإعلان: أن أبا لهب يلتهب بمشاهدته المعجزة فيتهم الرسول بالسحر وينبزه بكنية ابن أبي كبشة ممّا اعتاد عليه المشركون بالنسبة اليه ﷺ فالحالة ليست حالة مفاجأة بعد سرّ وكتمان وأنما تناسب سابق خبر وعلم وإعلان.

وكذلك يؤيد كون ذلك في الشعب بعد الإعلان: أن الأمر أمر انذار لا إخبار، والتبشير أنسب ببدء الإخبار من الإنذار، وأنّ الرسول لم يبدأهم بالدعوة اليه والى رسالته، بل الى بيعته ليكون خليفته بعده، ثمّ أنذرهم: ليقومنّ قائمكم أو لتكوننّ في غيركم ثمّ لتندمُنّ! فالحالة والموقف - كذلك - ليس موقف مفاجأة ومبادأة بعد سرّ وكتمان، بل تناسب سابق علم وإعلان.

ولعلّه ﷺ أمر بهذه الدعوة في الشعب تحدياً لكبرياء قريش، ولما فيها من يأس للكافرين.

والظاهر أنّ خبر أبي رافع خبر حاضرٍ ناظرٍ مباشرٍ إذ هو مولى العباس بن عبد المطلب وهو من بني هاشم المدعوّين والمجتمعين، فلعلّه كان مصطحباً لمولاه هذا، ولا نجد فيما بأيدينا مباشراً غيره سوى علي عليه السلام، ورجل من أصحاب النبيّ من ولد عبد المطلب، لم يُعرّف بسوى هذا - روى عنه الخبر: السيد ابن طاووس في «سعد السعود» عن الجزء الخامس من تفسير محمّد بن العباس الحجام

(١) تفسير فرات: ٣٠٠ - ٣٠٤، الحديث ٤٠٤ - ٤٠٨ وبهامش الصفحات مصادر أخرى من غير الشيعة.

بسنده عن مبارك بن فضالة والحسن البصري قالا :

إِنَّ قَوْماً خَاضُوا فِي أَمْرِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الَّذِي كَانَ مِنْ وَقْعَةِ الْجَمَلِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَيَلَكُمْ مَا تَرِيدُونَ مِنْ أَوَّلِ سَابِقِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِقْرَارِ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ لَقَدْ كُنْتُ عَاشِرَ عَشْرَةٍ مِنْ وَلَدِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِذْ أَتَانَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : أَجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ إِلَى غَدَاءِ غَدٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَالِبٍ .

فَلَمَّا وَلِيَ تَغَامَزْنَا وَقَلْنَا : أَتَرَى مُحَمَّدًا أَنْ يَشْبَعَنَا الْيَوْمَ ؟ وَمَا مِنَّا يَوْمَئِذٍ مِنَ الْعَشْرَةِ رَجُلًا إِلَّا وَهُوَ يَأْكُلُ الْجَذْعَةَ ^(١) السَّمِينَةَ وَيَشْرَبُ الْفِرْقَ مِنَ اللَّبَنِ .

فَعَدُّوا عَلَيْهِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَالِبٍ ، وَإِذَا نَحْنُ بِرَسُولِ اللَّهِ ، فَحَيَّيْنَاهُ بِتَحِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَحَيَّانَا هُوَ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ : فَأَوَّلُ مَا أَنْكَرْنَا مِنْهُ ذَلِكَ . ثُمَّ أَمَرَ بِجَفَنَةٍ مِنْ خَبْزٍ وَلَحْمٍ فَقَدَّمَتْ إِلَيْنَا ، وَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى ذُرْوَتِهَا وَقَالَ : بِسْمِ اللَّهِ ، كُلُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ . فَتَغَيَّرْنَا لِذَلِكَ ثُمَّ تَمَسَّكْنَا لِحَاجَتِنَا إِلَى الطَّعَامِ ، وَذَلِكَ أَنَّنَا جَوَّعْنَا أَنْفُسَنَا لِلْمِيعَادِ بِالْأُمْسِ . فَأَكَلْنَا حَتَّى أَنْهَيْنَا ، وَالْجَفَنَةُ كَمَا هِيَ مَدْقَقَةٌ ، ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْنَا عُسًا مِنْ لَبَنٍ - وَكَانَ عَلِيٌّ يَخْدُمُنَا - فَشَرَبْنَا كُلُّنَا حَتَّى رُوِينَا وَالْعُسُّ عَلَى حَالِهِ .

حَتَّى إِذَا فَرَعْنَا قَالَ : يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، إِنِّي أَتَيْتُكُمْ بِمَا لَمْ يَأْتِ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ ، فَإِنْ تَطِيعُونِي تَرشُدُوا وَتَفْلَحُوا وَتَنْجَحُوا . إِنْ هَذِهِ مَائِدَةٌ أَمَرَنِي اللَّهُ بِهَا فَصَنَعْتُهَا لَكُمْ كَمَا صَنَعَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْذِبُهُ عَذَابًا لَا يَعْذِبُهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا مَا أَقُولُ لَكُمْ . وَاعْلَمُوا - يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ رَسُولًا إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَخًا وَوَزِيرًا وَوَصِيًّا وَوَارِثًا مِنْ أَهْلِهِ ، وَقَدْ جَعَلَ لِي وَزِيرًا كَمَا جَعَلَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَرْسَلَنِي إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَأَنْزَلَ عَلَيَّ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وَقَدْ وَاللَّهِ

(١) الْجَذْعَةُ : الْغَنَمُ لَهُ سَنَةٌ تَامَةٌ - بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ .

أنبأني به وسمّاه لي، ولكن أمرني أن أدعوكم وأنصح لكم وأعرض لكم، لئلا يكون لكم الحجة فيما بعد، وأنتم عشيرتي وخالص رهطي، فأياكم يسبق إليها على أن يؤاخيني في الله ويؤازرنني في الله عزّ وجلّ، ومع ذلك يكون لي يداً على جميع من خالفني فأتخذه وصياً وولياً ووزيراً يؤدّي عني ويبلغ رسالتي ويقضي ديني من بعدي وعداتي مع أشياء أشرطها؟! فسكتوا. فأعادها ثلاث مرات ويسكتون، ويثب فيها علي عليه السلام فلما سمعها أبو لهب قال: تبا لك يا محمد ولما جئتنا به، ألهذا دعوتنا؟!

فقال ﷺ: أما والله لتقومن أو يكون في غيركم!

فوثب علي عليه السلام فقال: يا رسول الله أنا لها.

فقال رسول الله: يا أبا الحسن (كذا)^(١) أنت لها، قضي القضاء وجفّ القلم،

يا علي اصطفاك الله بأولها وجعلك وليّ آخرها^(٢).

فهذا خبر آخر عن مباشر آخر لم يُعرّف بأكثر من أنّه عاشر عشرة من المدعوّين من العشيرة الأقربين بني عبد المطلب، ومن أصحاب رسول الله. ويختلف عن خبر أبي رافع بإبدال موعد الدعوة من الشعب إلى منزل أبي طالب -ولا يهمّ هذا بعد أن كان منزل أبي طالب في شعبه- ومن عدد الأربعين إلى العشيرة، وسيأتي الجمع بينهما، وبتفصيل أكثر أيضاً.

ولكنّه يشترك مع خبر أبي رافع في استبعاد أن تكون الدعوة للإعلان بالنبوة بعد الكتمان. بل تقرب أن تكون مسبقة بالإعلان لا الكتمان، فقال الرسول لا زال لا يناسب ذلك.

سوى علي عليه السلام وهذين الصحابيّين: أبي رافع ورجل من آل عبد المطلب

(١) مما يُلفت النظر تكنيته له بأبي الحسن يومئذٍ؟!

(٢) سعد السعدي: ١٠٦.

لأنجد فيما بأيدينا من رواية الخبر مباشرة آخر. ولعلّه لدفع وهم عدم اشتهاار القصة قال الشيخ الطبرسي في «مجمع البيان»: وقد فعل ذلك النبي واشتهرت القصة بذلك عند الخاص والعام.

ثمّ أورد عن الثعلبي في تفسيره الخبر المأثور عن البراء بن عازب الأنصاري -وهو رابع صحابيّ راوٍ للخبر غير مباشر فيه- قال: لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله بني عبد المطلب -وهم يومئذٍ أربعون رجلاً- الرجل منهم يأكل المسنة (الجفرة) ويشرب العس. فأمر عليّاً عليه السلام برجل شاة فأدّمها^(١)، ثمّ قال: ادنوا بسم الله، فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتّى صدروا، ثمّ دعا بقعب^(٢) من لبن فجرع منه جرعة ثمّ قال لهم: اشربوا بسم الله، فشرّبوا حتّى رُؤوا.

فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما سحركم به الرجل! فسكت يومئذٍ ولم يتكلّم. ثمّ دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب، ثمّ أنذرهم رسول الله فقال: يا بني عبد المطلب! إنّي أنا النذير اليكم -من الله عزّ وجلّ- والبشير، فأسلموا وأطيعوني تهتدوا، ثمّ قال: من يؤاخيني ويؤازرني ويكون وليي ووصيي بعدي وخليفتي (في أهلي) يقضي ديني؟! فسكت القوم، فأعادها ثلاثاً كلّ ذلك يسكت القوم ويقول علي عليه السلام: أنا. فقال المرّة الثالثة: أنت. فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب: أطع ابنك فقد أمره عليك؟!^(٣).

ولا يمتاز الخبر عن الأولين بشيء سوى ما يمكن أن يجمع به بين عددي المدعوّين في الخبرين: العشرة والأربعين، وذلك أنّ ابن عازب قال: فدنا القوم عشرة عشرة. وقد قال من قال: وهم يومئذٍ أربعون رجلاً.

(١) أدّمها: صنع منها أداماً أي طعاماً.

(٢) القعب: إناء من خشب للسوائل.

(٣) مجمع البيان للطبرسي ٧: ٣٢٢ عن تفسير الثعلبي.

وسوى الخبر السابق عن تفسير الحجاج لانجد فيما بأيدينا أي خبر آخر عن أي رجل آخر من بني هاشم بل بني عبد المطلب من العشيرة الأقربين للنبي ﷺ المدعوين بهذه الدعوة الخاصة، حتى عن العباس عمه الحاضر في تلك الدعوة والمحجم عن الاستجابة لدعوة الرسول، مما جعله علي عليه السلام سبباً لوراثته من ابن عمه النبي دون عمه العباس، إن صح التعبير بالوارثة، وذلك :

فيما رواه السيد ابن طاووس في «سعد السعود» عن تفسير الحجاج أيضاً عن الحسين بن الحكم الجري بأسناده ومنها عن الطبري بسنده عن ربيعة بن ناجد : أن رجلاً قال لعل عليه السلام : يا أمير المؤمنين لم ورث ابن عمك دون عمك ؟ فقال علي عليه السلام : هاؤم ! ثلاث مرّات حتى أشرأب الناس ونشروا آذانهم ثم قال : دعا رسول الله - أوجع - بني عبد المطلب، كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق، فصنع لهم مuddاً من طعام فأكلوا حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس ثم دعا بغمر^(١) فشرّبوا حتى رؤوا وبقي الشراب كأنه لم يمس ولم يشربوا^(٢) ثم قال : يا بني عبد المطلب إنني بعثت إليكم خاصّة، وإلى الناس عامّة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيتكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي ؟ فلم يقم إليه أحد. فقامت - وكنت أصغر القوم سنّاً - فقال : اجلس. ثم قال (قوله) ثلاث مرّات كلّ ذلك أقوم إليه فيقول لي : اجلس حتى كانت الثالثة، فضرب يده على يدي. فلذلك ورثت ابن عمي دون عمي^(٣).

(١) الغمر: القدح الصغير.

(٢) التكملة من الطبري ٢ : ٣٢١.

(٣) سعد السعود : ١٠٤ ، ١٠٥ . واسم الراوي في النسخة المطبوعة : أبي ربيعة بن ماجد، وفي البحار ١٨ : ٢١٤ أبي ربيعة بن ناجد وفي علل الشرائع ربيعة ابن ناجد وكذلك في الطبري ٢ : ٣٢١ وهو الصحيح .

ورواه الصدوق في «علل الشرائع» بسنده عن ربيعة بن ناجد^(١). وكذلك الطبري في تاريخه^(٢) ولم نجد الخبر في كتاب الحبري المطبوع في طبعين^(٣). وهذا الخبر كالأخبار السابقة إنما ينسجم مع كون الدعوة في الشعب أو بعد الإعلان لا مع السر والكتان، ولا سيما بالنظر إلى قوله ﷺ: «إني بعثت اليكم خاصة، وإلى الناس عامة». وهذه الجملة وإن كانت تنسجم مع المبادأة بالدعوة إلا أن سائر الجمل في كلام الرسول لا تنسجم وذلك. والخبر ليس فيه عدد المدعوين، ولكن...

روى مختصره فرات بن ابراهيم في تفسيره مسنداً عن علي بن أبي طالب قال: دعاهم فجمعهم على فخذة شاة وقعب من لبن، وإن فيهم يومئذ ثلاثين رجلاً وفي ثلاثة أخبار أخرى: أربعون رجلاً^(٤).

ونقله القمي في تفسيره فقال: نزلت بمكة فجمع رسول الله بني هاشم وهم أربعون رجلاً، كل واحد منهم يأكل الجذعة ويشرب القربة، فاتخذ لهم طعاماً يسيراً، وأكلوا حتى شبعوا، فقال رسول الله: من يكون وصيي ووزيري وخليفتي؟ فقال لهم أبو هب: جزماً سحركم محمد! فتفرقوا.

فلما كان اليوم الثاني أمر رسول الله ففعل لهم مثل ذلك، فقال لهم رسول الله: أيكم يكون وصيي ووزيري وخليفتي؟ فقال أبو هب: جزماً سحركم محمد! فتفرقوا.

(١) علل الشرائع: ٢٠٢.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ٣٢١.

(٣) طبعة السيد أحمد الحسيني. وطبعة السيد محمد رضا الحسيني الجلالى.

(٤) تفسير فرات: ٣٠٠-٣٠٣، كما في بحار الأنوار ١٨: ٢١١، ٢١٢.

فلما كان اليوم الثالث أمر رسول الله ففعل لهم مثل ذلك فقال لهم رسول الله :
أيكم يكون وزيرني وينجز عداقي ويقضي ديني ؟

فقام علي عليه السلام فقال : أنا يا رسول الله . فقال رسول الله : أنت هو . وكان
أصغرهم سنّاً وأحمشهم - أي أدقهم - ساقاً وأقلهم مالاً^(١) .

وأول ما في هذا الخبر المختصر بل المختزل بل المنقول بالمعنى لا النص هو أنه
عبر عن المدعوين ببني هاشم لا بني عبد المطلب ، فقوّت المطعن علي ابن تيمية
ومن شاكلة ممن طعن في الخبر بأن بني عبد المطلب لم يبلغوا يومئذ أربعين رجلاً .
ولكن الخبر كسوابقه إنما ينسجم مع كون الدعوة في الشعب أو بعد الإعلان لا مع
السّر والكتمان ، ولا مع مبادأتهم بالدعوة .

والطريق المسند للخبر عن علي عليه السلام غير منحصر بربيعة بن ناجد فالسيد كما
رواه عنه في «سعد السعد» رواه في «الطرف» عن الأعمش^(٢) ، والصدوق الذي
رواه عن ابن ناجد رواه أيضاً بسند الأعمش عن عبد الله ابن الحارث بن نوفل عن
علي عليه السلام قال : لما أنزلت ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ أي رهطك المخلصين ، دعا
رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وهم إذ ذاك أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو
ينقصون رجلاً ، فقال : أيكم يكون أخي ووارثي ووزيرني ووصيي وخليفتي فيكم
بعدي ؟ فعرض عليهم ذلك رجلاً رجلاً ، كلهم يأبى ذلك حتى أتى علي فقلت : أنا
يا رسول الله ، فقال : يا بني عبد المطلب هذا أخي ووارثي ووصيي ووزيرني
وخليفتي فيكم بعدي . فقام القوم يضحك بعضهم الى بعض ويقولون لأبي طالب :
قد أمرك أن تسمع وتطيع لهذا الغلام^(٣) .

(١) تفسير القمي ٢ : ١٢٤ .

(٢) الطرف : ٧ كما في بحار الأنوار ١٨ : ١٧٩ .

(٣) علل الشرائع : ٢٠٣ كما في بحار الأنوار ١٨ : ١٧٨ .

والخبر كسوابقه إنما ينسجم مع كون الدعوة في الشعب أو بعد الإعلان لا مع السرّ والكتّان، ولا مع مبادأتهم بالدعوة، بل فيه تعريض بأبي طالب وكأنه عُرف بالسماع للرسول.

والسيد ابن طاووس والشيخ الصدوق قد اختصرا الخبر متناً وسنداً، وأكملهما: الشيخ الطوسي في أماليه بطريقين عن ابن عباس عن علي عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ على رسول الله صلّى الله عليه وآله دعاني فقال لي: يا علي، إنّ الله تعالى أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أنّي متى أبادهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمتُ على ذلك، فجاءني جبرئيل فقال: يا محمد أنّك إنّ لم تفعل ما أمرت به عذّبك ربّك! فاصنع لنا يا علي - صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عُسّاً من لبن. ثمّ اجمع لي بني عبد المطلب حتّى اكلمهم وأبلغهم ما أمرت به.

ففعلت ما أمرني به ثمّ دعوتهم أجمع، وهم يومئذٍ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً، فيهم أعمامه: أبو طالب وحمزة والعبّاس وأبو لهب... فلما اجتمعوا له دعاني بالطعام الذي صنعت لهم، فجئت به، فلما وضعته تناول رسول الله صلّى الله عليه وآله جَذْمَةً^(١) من اللحم فنتفها بأسنانه ثمّ ألقاها في نواحي الصفحة ثمّ قال: خذوا بسم الله. فأكل القوم حتّى صدروا ما لهم بشيء من الطعام حاجة، وما أرى إلّا مواضع أيديهم. وأيمُّ الله الذي نفس عليّ بيده إنّ كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدّمت لجميعهم. ثمّ جئتهم بذلك العُسّ فشربوا حتّى رووا جميعاً، وأيمُّ الله إنّ كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله. فلما أراد رسول الله أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال: لشدّ ما سحركم صاحبكم! فتفرّق القوم ولم يكلمهم رسول الله.

(١) الجذمة: القطعة، وفي الطبري: جذية من اللحم: ما قطع طولاً.

فقال لي من الغد : يا عليّ، إنّ هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرّق القوم قبل أن أكلّمهم . فعُدّ لنا من الطعام بمثل ما صنعت ثمّ اجمعهم لي . ففعلت ثمّ جمعتهم فدعاني بالطعام فقربته لهم ، ففعل كما فعل بالأمس ، وأكلوا حتّى ما لهم به من حاجة ، ثمّ قال : اسقهم ، فجئتهم بذلك العُسّ فشربوا حتّى رووا منه جميعاً .
ثمّ تكلم رسول الله فقال : يا بني عبد المطلب إنّني -والله- ما أعلم شاباً (كذا) في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به ، إنّني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله عزّ وجلّ أن أدعوكم اليه ، فأيتكم يؤمن بي ويؤازرني على أمري فيكون أخي ووصيي ووزيرِي وخليفتي (في أهلي) من بعدي ؟
فأمسك القوم وأحجموا عنها جميعاً .

فقلت ... فقلت : أنا -يا بني الله- أكون وزيرك على ما بعثك الله به . فأخذ بيدي -وإنّي لأحدثهم سنّاً وأرمصهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً- ثمّ قال : إنّ هذا أخي ووصيّي ووزيرِي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا...
فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع^(١) .

وأنما كنّي عليّاً بدقّة الساق وعظم البطن ورمص العين أي وسخه عن صغر سنّه ويختلف هذا اللفظ من الخبر عن سوابقه بالنصّ على المبادأة بأمره معهم بهذه الدعوة . وإنّ كان ينقص عن خبر تفسير الحجام بعدم «انذار» فيه ، كسوابقه .
ورواية الخبر عن عبد الله بن عبّاس نوع اعتراف بعدم إسلام أبيه العبّاس يومذاك بهذه الدعوة الخاصّة المكررة ثلاثاً ، بينما فيه -ما كان في الخبر السابق-

(١) امالي الطوسي : ٥٨١ الحديث ٢٠٦ وعنه في بحار الأنوار ١٨ : ١٩١ ، ١٩٢ وروى مثله فرات بن إبراهيم في تفسيره : ٣٠١ الحديث ٤٠٦ .

من التعريض بأبي طالب وكأنّه قد عُرف فيهم بالسمع والطاعة للرسول، كما فيه -وكما في سوابقه- معرفة أبي هب السابقة عن النبيّ بما وصفه بالسحر، فكأنّه أمر قد عرف من قبل، وإن كان نص الخبر بالمبادأة.

وأحد الطريقتين اللذين روى بهما الطوسي الخبر هو طريق الطبري الى ابن عباس^(١) في تأريخه وتفسيره^(٢) واللفظ في الموضعين «وخليفتي فيكم» لا «خليفتي

(١) وطريق الطبري هكذا : حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة قال : حدثني محمد بن إسحاق (صاحب المغازي) عن عبد الغفار بن القاسم ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، عن عبد الله بن عباس ، عن علي بن أبي طالب قال ... ولكن الخبر لا يوجد في سيرة ابن هشام بصفته تهذيباً (!) لسيرة ابن إسحاق .

ونقل نص ابن إسحاق القاضي النعمان المصري في كتابه : شرح الأخبار ١ : ١٠٦ ، ١٠٧ لا بلفظ المتكلم عن علي عليه السلام بل بلفظ حكاية الغائب وقول أبي هب فيه هكذا : لو لم تستدلوا على سحر صاحبكم إلا بما رأيتموه صنع في هذا الطعام واللبن لكفاكم . وهذا يدل على سابق معرفتهم باتهام النبيّ بالسحر . وقول الرسول فيه «وخليفتي فيكم» وليس خليفتي في أهلي .

(٢) تأريخ الطبري ٣ : ٣١٩ - ٣٢١ وتفسيره ١٩ : ٧٤ ، ٧٥ ط بولاق ولكنه في تفسيره حذف جملة «خليفتي فيكم» واستبدلها بجملة «كذا وكذا» في الموضعين فقال في الموضع الأول : «فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي وكذا وكذا» ! وفي الموضع الثاني : «إن هذا أخي وكذا وكذا» ! أما ابن كثير الشامي فكأنّه استكثر هذه الجملة على علي عليه السلام فعتمداه في تأريخه على تأريخ الطبري مع ذلك لم يعتمد عليه هنا بل عوّل على تفسيره كما فعل ذلك في تفسيره ٣ : ٣١٥ والبداية والنهاية ٣ : ٤٠ والسيرة النبوية له ١ : ٤٥٩ .

وجاء في «فلسفة التوحيد والولاية» للمرحوم الشيخ محمد جواد مغنية ما معناه : إن من القدماء الذين رووا نص النبيّ على علي بالخلافة عندما دعا عشيرته وبلغهم رسالة ربه كل من : ابن حنبل في مسنده وابن الأثير في كامله . ومن المتأخرين : محمد عبد الله عتّان في «تأريخ الجمعيات» ومحمد حسين هيكل في الطبعة الأولى من «حياة محمد» ولكنه في الطبعة الثانية فما بعد في مقابل «خمسة جني» ! أخذها من «جماعة» حرّف منه جملة ←

في أهلي» والواسطة بين الطوسي والطبري : جماعة عن أبي المفضل عن الطبري ، فمن أضاف أو حرّف ؟ ليت شعري !

وقد مرّ عن الطبرسي أنّه روى الخبر في تفسيره «مجمع البيان» عن تفسير الثعلبي عن البراء بن عازب .

ورواه في «إعلام الوري» عن تفسير الثعلبي النيسابوري وأبي سعيد الخركوشي ، بعنوان : ممّا ذكره الرواة ، من دون تعيين راوٍ خاص قال :

جمع بني عبد المطلب في دار أبي طالب وهم أربعون رجلاً يومئذٍ يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً ، وكان قد صنع لهم فخذ شاة مع مدّ من البر وأعدّ لهم صاعاً من اللبن ، وقد كان الرجل منهم يأكل الجذعة في مقام واحد ويشرب القربة من الشراب . ثمّ أمر بتقديمه لهم ، فقدم وأكلت الجماعة من ذلك اليسير حتّى علّوا منه ، ولم يبيّن فيه ما أكلوه وما شربوه منه .

ثمّ قال لهم بعد أن شبعوا وروّوا : يا بني عبد المطلب إنّ الله قد بعثني الى الخلق كافة ، وبعثني إليكم خاصّة فقال : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وأنا أدعوكم الى

→ «خليفتي من بعدي» الى «خليفتي في أهلي» وبهذا قد مسخ الحديث المذكور . انظر : فلسفة التوحيد والولاية : ١٣٢ و ١٧٩ .

وجاء في التعليقة على «أعيان الشيعة» أنّ الدكتور هيكل في مقابل شراء الف نسخة من كتابه قد حرف الحديث ومسّخه في الطبعة الثانية منه واقتصر على جملة : أيكم يؤازرني على هذا الأمر .

هذا ما حكاه السيد الحسيني في «سيرة المصطفى» : ١٣٠ ، ١٣١ . والصحيح ما في «الصحيح» : أن هيكل بعد أن ذكر في الطبعة الأولى من حياة محمّد : ١٠٤ نص الطبري في التاريخ : عاد في الطبعة الثانية ١٣٥٤ هـ صفحة : ١٣٩ فحذف «خليفتي فيكم» واقتصر على قوله : «ويكون أخي ووصيي» أمّا الخمسمائة جنيه فإنّها كانت ثمن ألف نسخة من كتابه كلّ نسخة بنصف جنيه . فلا منافاة ولا خلاف ، ولكنه الاعتساف وخلاف الشرع والإنصاف .

كلمتين خفيفتين في الميزان تملكون بها العرب والعجم وتنقاد لكم بهما الأمم
وتدخلون بهما الجنة وتنجون بهما من النار: شهادة أن لا إله إلا الله وأنني رسول
الله. فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويؤازرني على القيام به حتى يكون أخي ووصيي
ووزير ووارثي وخليفتي من بعدي؟! فلم يجب أحد منهم. فقام علي عليه السلام وقال:
أنا يا رسول الله أوأزرك على هذا الأمر، فقال: اجلس فأنت أخي ووصيي ووارثي
وخليفتي من بعدي، فنهض القوم وهم يقولون لأبي طالب: يهنك اليوم أن دخلت
في دين ابن أخيك وقد جعل ابنك أميراً عليك^(١).

ولم يذكر الطبرسي لهذه الرواية اسم راوٍ خاص، وقد يكون نقلاً بالمعنى دون
لفظ خاص، ومهما كان فإن هذا اللفظ ينسجم مع المبادأة بالدعوة، ويشترك مع
سوابقه في عدم الإنذار فيه اللهم إلا مفهوم قوله: «وتنجون بهما من النار» بلا بيان
النار أي نار هي؟ وأيضاً في آخره ما يشعر باستشعار القوم الميل إلى دينه من أبي
طالب عليه السلام فهو عن ذلك.

أمّا ابن شهر آشوب في «المناقب» فقد أشار إلى ما ذكره الطبري في تأريخه
وقبله محمد بن إسحاق في كتابه وأحمد في مسنده وفضائل الصحابة والخزاعي في
تفسيره عن أبي رافع والبراء بن عازب وابن عباس وربيعة ابن ناجد وأضاف: ابن
جبير، وأدخل أخبارهم بعضها في بعض ثم نقل نظم الخبر في شعر دعبل الخزاعي
وستة مقاطع من شعر الحميري ومقطعين من العوني^(٢).

(١) إعلام الوري ١: ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٤-٢٦. وذكر مختصر الخبر الاربلي في «كشف الغمة» ١: ٣٢٧-
٣٢٨ عن ابن البطريق في «العمدة» وقال: «سبق ذكره أبسط من هذا». ولكنني لم أجده فيه
قبل هذا.

هذا ما ذكره بعنوان «مسابقته في البيعة» في فضائل علي عليه السلام، ولكنه قبل ذلك في مبعث النبي قال : روي أنه لما نزل قوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد رسول الله ذات يوم الصفا فقال : يا صباحاه ! فاجتمعت اليه قريش فقالوا : مالك ؟ قال : أرايتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدقونني ؟ قالوا : بلى . قال : فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ! فقال أبو لهب : تباً لك ألهذا دعوتنا ! فنزلت سورة تبت^(١) واكتفى المجلسي في باب المبعث^(٢) من «المناقب» بهذا الفصل وهذا النقل فقط ، فبدا وكأن هذا كل ما يرويه ابن شهر آشوب في هذه الآية . بينما الخبر مرسل ، أول ما فيه أنه ليس إنذاراً للأقربين بل لقريش فهو على خلاف لفظ الآية .

ولعله لهذا قدم الطبري في تأريخه حول الآية رواية ابن عباس ثم ابن ناجد السابقتين ، وقد نقل الأول عن ابن إسحاق ، ثم عاد فنقل عنه - وجعله ثالثاً وآخر ما نقل حول الآية - عن الحسن البصري قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قام رسول الله بالأبطح ثم قال : يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني قصي ، ثم فخذ قريشاً قبيلة قبيلة حتى مرّ على آخرهم فقال : إني أدعوكم الى الله وأنذركم عذابه^(٣) .

ولكن الطبري - كما لاند راني - لم يذكر ما في مثل هذا النقل من ضعف الإرسال في السند ومن الإشكال في متنه ودلالته ، وكأنهما لم يريا بين معنى الآية وما نقله من عمل الرسول بها أي تناف أو خلاف .

والظاهر أن ما أرسله ابن شهر آشوب هو ما في «الدر المنثور» عن البخاري

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ٤٦ .

(٢) بحار الأنوار ١٨ : ١٩٧ .

(٣) الطبري ٣ : ٣٢٢ والخبر في التفسير ١٩ : ٧٥ ط بولاق .

وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وسعيد بن منصور عن ابن عباس. وعلى هذا فتكون الرواية عن ابن عباس على صورتين: الأولى عنه عن علي عليه السلام في يوم الدار والدعوة، والثانية هذه الموقوفة عليه من دون اسناد عن أبيه العباس أو علي عليه السلام، فالأولى هي الأولى بالقبول سنداً وموافقة للكتاب، والثانية مقطوعة مخالفة لظاهر الآية: «الأقربين» فهي هراء.

وأظهر منها هراء ما في «الدر المنثور» أيضاً عن أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» وفي «الدلائل» عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله قريشاً وعمّ وخصّ فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً. يا معشر بني كعب بن لؤي... يا معشر بني قصي... يا معشر بني عبد مناف... يا بني عبد المطلب... في كلّها يقول: أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً. وفي آخر الخبر: يا فاطمة بنت محمد انقذي نفسك من النار فإنّي لا أملك لك ضرراً ولا نفعاً، إلّا أن لكم رحماً وسأبّلها ببلاها!

فهذه الرواية أبعد ما تكون من الآية حيث تقول: إنّهُ ﷺ جعل يدعو قريشاً قبيلة قبيلة، فكأن أبا هريرة يعمّم الإنذار قريشاً عامة، بينما الآية تصرّح بالعشيرة الأقربين، وهم إمّا بنو عبد المطلب أو بنو هاشم.

وكأن أبا هريرة -أو من أجرى هذا الهراء على لسانه- كان ناظراً إلى هذا الإشكال بالخلاف بين عمل الرسول بالتعميم ومفاد الآية بالتخصيص، فقال: «وعمّ وخصّ» وهو لا يرفع الإشكال. ثمّ كيف دعاهم فجمعهم فأنذرهم بهذا؟ وكيف جمع معهم ابنته فاطمة وكم كان عمرها يومئذ؟ واين كان أبو هريرة يوم نزول الآية وقد أسلم قبل وفاة النبي ببضع سنين والخبر مقطوع عليه. فهو مردود.

وأبعد من ذلك في الابتعاد بمفاد الآية عن الإمام علي عليه السلام وفضله وسبقه ما في «الدر المنثور» أيضاً عن الطبراني وابن مردويه عن أبي امامة قال : لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ جمع رسول الله بني هاشم فأجلسهم على الباب، وجمع نساءه وأهله فأجلسهم في البيت، ثم أطلع عليهم فقال : يا بني هاشم اشترؤا أنفسكم من النار، واسعوا في فكاك رقابكم وافتكوها بأنفسكم من الله فإنني لا أملك لكم من الله شيئاً. ثم أقبل على أهل بيته فقال : يا عائشة بنت أبي بكر ويا حفصة بنت عمر ويا أم سلمة ويا فاطمة بنت محمد، ويا أم الزبير عمّة رسول الله، اشترؤا (كذا) أنفسكم من الله واسعوا في فكاك رقابكم فإنني لا أملك لكم من الله شيئاً ولا أغني !

نقل كل ذلك العلامة الطباطبائي في تفسيره «الميزان» وعلق على هذه الرواية الثالثة فقال : فقله تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ آية مكية في سورة مكية، ولم يقل أحد بنزول الآية بالمدينة، فأين كانت يوم نزولها عائشة وحفصة وأم سلمة ولم يتزوج النبي صلى الله عليه وآله بهن إلا في المدينة؟ ثم قال : فالمعتمد من الروايات ما يدل على أنه صلى الله عليه وآله خص بالإنذار يوم نزول الآية بني هاشم أو بني عبد المطلب. ثم يقول : ومن عجيب الكلام قول الآلوسي بعد نقل الروايات : واذا صحّ الكل (بنقل الصحاح) فطريق الجمع أن يقال بتعدد الإنذار! (١).

ومن نافلة القول أن نقول : لا يرد عندنا أي احتمال في افتعال هذه الأقوال حول هذه الآية، سوى الابتعاد بمفادها حسب الخبر الصحيح عما في ذلك من الدليل على سبق علي عليه السلام في الإيمان وسبق قول الرسول له : «أنت أخي ووصي ووارثي وخليفتي من بعدي».

ولكن لا حافظة لكذب :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
نعم من الرواة من لم يكن يفكر في شيء سوى الفخر بأسلافه، فلم يأبه بذكر
شيء سوى ذلك.

نجد مثال ذلك في هذا الموضوع عند اليعقوبي حيث روى الخبر عن الفضل بن
عبد الرحمن الهاشمي من ولد ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. قال : أمره الله
عز وجل أن ينذر عشيرته الأقربين، فوقف على «المروة» ثم نادى بأعلى صوته :
يا آل فهر؛ فاجتمعت إليه بطون قريش حتى لم يبق أحد منهم، فقال له أبو لهب :
هذه فهر، فنادى : يا آل غالب فانصرف غيرهم (وهكذا... حتى نادى) يا آل
هاشم فأقام بنو عبد المطلب، فقال أبو لهب : هذه هاشم قد اجتمعت. فجمعهم في دار
الحارث بن عبد المطلب (!) وكانوا أربعين رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه. فصنع
لهم طعاماً فأكلوا عشرة عشرة حتى شبعوا، وكان جميع طعامهم رجل شاة وشرابهم
عساً من لبن، وإن منهم من يأكل الجذعة ويشرب الفرق. ثم أنذرهم وأعلمهم
تفضيل الله إياهم واختصاصه لهم إذ بعثه بينهم وأمره أن ينذرهم (!)

فقال أبو لهب : خذوا على يد صاحبكم قبل أن يأخذ على يده غيركم، فإن
منعتموه (أي حاميتموه) قُتِلتم، وإن تركتموه ذللتُم !

فقال أبو طالب : يا عورة؛ والله لننصرنه ثم لنعيننه. يابن أخي إذا أردت أن
تدعو إلى ربك فأعلمنا حتى نخرج معك بالسلاح.

وأسلم يومئذ جعفر بن أبي طالب، وعتبة بن الحارث^(١).

أمّا علي فلا كلام عنه ! وأمّا هذه الدعوة بهذه الكيفية فقد انفرد بها اليعقوبي،
وهي عجيبة غريبة، بعيدة عن الحكمة والمعقول، فهي مردودة.

ولا يفوتني في الخاتمة أن الفت نظر القراء الكرام الى أن ما عدا هذا الخبر الأخير من أخبار الإنذار في يوم الدار للأقربين من العشيرة، تكاد تُجمع على أن المعدّ للطعام وطابخه لهم هو علي عليه السلام دون سواه لا خديجة ولا جواربها ولا فاطمة بنت أسد...

إلا ما رواه الحميري في «قرب الاسناد» بسنده عن الإمام الكاظم عليه السلام في معجزاته عليه السلام : أنه لما ألّب عليه قومه وسائر العشائر (وهذا أيضاً ينصّ على كون ذلك بعد الاعلان) أمر علياً أن يأمر خديجة (كذا ولعلّها كانت بمنأى عنه فكان علي الوسيط بينهما) : أن تتخذ له طعاماً، ففعلت. وأمره أن يدعو له أقرباءه من بني عبد المطلب، فدعا أربعين رجلاً. فقال صلوات الله عليه وآله : يا علي، هات لهم طعاماً.

فأتاه بطعام من ثريدة يأكلها الثلاثة والأربعة، فقدّمها إليهم وقال : سمّوا وكلوا، فسّمى، ولم يسمّ القوم وأكلوا حتى شبعوا وصدروا^(١).

الفصل الرابع

إعلان الدعوة

مرحلة الدعوة العلنية العامة:

روى الصدوق في «إكمال الدين» بإسناده عن عبد الله بن علي الحلبي عن الصادق عليه السلام قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة بعد ما جاءه الوحي عن الله تبارك وتعالى ثلاث عشرة سنة، مستخفياً منها ثلاث سنين، خائفاً لا يظهر حتى أمر الله عز وجل أن يصدع بما أمر، فأظهر حينئذ الدعوة^(١).

وروى العياشي في تفسيره عن الحلبي عنه عليه السلام أيضاً قال: اكتتم رسول الله ﷺ بمكة سنين ليس يظهر، وعليّ معه وخديجة، ثم أمره الله أن يصدع بما يؤمر، فظهر رسول الله ﷺ فجعل يعرض نفسه على قبائل العرب، فإذا أتاهم قالوا: كذاب، امض عنا^(٢).

وروى الصدوق في «الخصال» بسنده عن أبان بن عثمان الأحمر البجلي الكوفي قال: كان المستهزئون (برسول الله) خمسة من قريش: الوليد بن المغيرة المخزومي،

(١) إكمال الدين: ١٩٧ كما في بحار الأنوار ١٨: ١٧٧.

(٢) تفسير العياشي ٢: ٢٥٣.

والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن عبد يغوث الزُهرري، والأسود بن المطلب،
والحارث بن الطلائة الثقفي^(١). ورواه العياشي بزيادة: فلما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا
كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ علم رسول الله أنه قد أخزاهم، فأما هم الله بشرّ ميتات^(٢).
وقال القمي في تفسيره: إنّ النبوة نزلت على رسول الله يوم الاثنين وأسلم
على يوم الثلاثاء ثمّ أسلمت خديجة زوج النبي ﷺ، ثمّ دخل أبو طالب الى النبي
وهو يصلي وعلي بجنبه، وكان مع أبي طالب جعفر، فقال له أبو طالب: صل جناح
ابن عمك، فوقف جعفر على يسار رسول الله، فبدر رسول الله من بينهما. فكان
رسول الله يصلي، وعلي وجعفر وزيد بن حارثة وخديجة يأتون به.

فلما أتى لذلك ثلاث سنين أنزل الله عليه ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^(٣).

والمستهزئون برسول الله خمسة: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل
السهمي، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن طلائة
الخزاعي.

أمّا الوليد: فكان رسول الله دعا عليه - لما كان يبلغه من إيذائه واستهزائه -
فقال: اللهم اعم بصره واثكله بولده! فعمي بصره... ومرّ برجل من خزاعة وهو
يريش نبالاً له فوطاً على بعضها فأصاب عقبه قطعة من ذلك قدميت. فرّ برسول
الله ومعه جبرئيل فقال جبرئيل: يا محمد، هذا الوليد بن المغيرة، وهو من
المستهزئين بك؟ قال: نعم، فلما مرّ أشار جبرئيل الى ذلك الموضع (من النبل في

(١) الخصال ١: ٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) تفسير العياشي ٢: ٢٥٢ بل يخزيهم فيميتهم بشرّ ميتات، كما سيأتي قريباً.

(٣) الحجر: ٩٤ - ٩٥.

عقبه) فرجع الوليد الى منزله ونام على سريرته، فسال منه الدم حتى صار الى فراش ابنته، فانتبهت فقالت: انحلّ وكاء القربة! قال الوليد: ما هذا وكاء القربة ولكنه دم أهلك، فاجمعي لي ولدي وولد أخى فإني ميت. فجمعتهم.

فقال لعبد الله بن أبي ربيعة: إنّ عُمارة بن الوليد بأرض الحبشة بدار مضيعة، فخذ كتاباً من محمد الى النجاشي أن يرده! ثمّ فاضت نفسه.

ومرّ ربيعة بن الأسود^(١) برسول الله، فأشار جبرئيل الى بصره فعمي ومات.

ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فأشار جبرئيل الى بطنه فلم يزل يستسقي حتى

انشق بطنه.

ومرّ العاص بن وائل فأشار جبرئيل الى رجله، فدخل عود في أخمص

قدميه وخرج من ظاهره ومات.

ومرّ به الحارث بن طلائة فأشار جبرئيل الى وجهه، فخرج الى جبال

تهامة فأصابته من السماء ديم فاستسقى حتى انشق بطنه. فهذا هو قول الله: ﴿إِنَّا

كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾.

فخرج رسول الله ﷺ فقام على الحجر فقال: «يا معشر قريش، يا معشر

العرب، ادعوكم الى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وآمركم بخلع الأنداد

والأصنام، فأجيبوني تملكوا بها العرب وتدين لكم العجم، وتكونوا ملوكاً

في الجنة».

فاستهزأوا به وقالوا: جُنّ محمد بن عبد الله. ولم يجسروا عليه لموضع أبي

طالب^(٢).

(١) كذا، ولم يذكر كذلك من قبل، والظاهر أن ربيعة هنا مصحّف: أبي زمعة الأسود بن المطّلب!

(٢) تفسير القميّ ١: ٣٧٩.

وظاهر هذا الأخير هو المبادأة بالدعوة العلنية، بعد ثلاث سنين من نزول النبوة عليه ﷺ كما صرح به في أول مقاله، وكما مرّ في الخبر الأول عن تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام.

وأيضاً ظاهر الأخير من كلام القميّ أنّ ذلك كان بعد هلاك المستهزئين به لاقبله، ولكنّ مقاله خلو من الاجابة عن أن هؤلاء المستهزئين بماذا كانوا يستهزئون في مرحلة الكتمان؟

أمّا طلب الوليد من عبد الله بن ربيعة أن يأخذ من محمد كتاباً الى النجاشي بأرض الحبشة أن يردّ عبارة بن الوليد الى مكة، فلا يلزم سابق الإعلان فقط بل يستلزم أن يكون ذلك بعد الهجرة الى الحبشة واكتشاف ميل النجاشي الى الدين الجديد! والقميّ في مقاله هذا مرّ عليه مرور الكرام وكأنّه لم يلتفت الى هذه المفارقة الواضحة، وكذلك كلّ من نقل عنه مقاله هذا.

أمّا الطبرسي في تفسيره فقد قال: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ عن ابن عباس وابن جريج ومجاهد وابن زيد والزجاج: أي أظهر وأعلن وأبّن وصرّح بما أمرت به غير خائف. وقال الزجاج: والصدع في الزجاج والجدار بينونة بعضه عن بعض. وعن أبي مسلم: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا تلتفت اليهم ولا تخف منهم. ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ أي شرّ المستهزئين واستهزاءهم بأنّ أهلكتناهم.

فعن ابن عباس وابن جبير: أنّهم كانوا خمسة نفر من قريش: العاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، وأبو زمعة الأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس.

وعن محمد بن ثور: كانوا ستة رهط، وسادسهم: الحارث بن الطلائة. قالوا: أتى جبرئيل النبي ﷺ والمستهزئون يطوفون بالبيت، فقام جبرئيل ورسول الله الى جنبه، فرّبه الوليد بن المغيرة المخزومي فأومى بيده الى ساقه،

فرَّ الوليد على قين لخزاعة وهو يجرّ ثيابه فتعلّقت بثوبه شوكة، فمنعه الكبر أن يخفض رأسه فينزعها، وجعلت تضرب ساقه فخدشته، فلم يزل مريضاً حتّى مات.

ومرّ به العاص بن وائل السهمي فأشار جبرئيل إلى رجله فوطأ العاص على شوكة فدخلت في أخمص رجله فلم يزل يحكّها حتّى مات.

ومرّ به الأسود بن المطلب بن عبد مناف فأشار إلى عينه فعمي.

وقيل: رماه بورقة خضراء فعمي وجعل يضرب رأسه على الجدار حتّى هلك.

ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى حتّى مات.

وقيل: أصابته السّموم فصار أسود، فأتى أهله فلم يعرفوه فطردوه فمات.

ومرّ به الحارث بن الطلائة فأومى إلى رأسه فامتخط قيحاً فمات.

وقيل: إن الحرث بن قيس أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فما زال يشرب حتّى انقذّ بطنه فمات^(١).

ولئن كان الطبرسي صاحب التفسير هذا قد لخص بعض الأخبار عن غير الأئمة الأطهار عليهم السلام بشأن هؤلاء المستهزئين، في كتابه هذا «مجمع البيان» تبعاً للشيخ الطوسي في كتابه «التبيان» وإن كانت رواية ابن عباس فيما رواه مقطوعة عليه دون أن يسندها إلى علي عليه السلام فإن الطبرسي الآخر صاحب «الاحتجاج» قد روى بشأن المستهزئين خبراً مبسوطاً عن الإمام الكاظم عن جده الحسين عليه السلام فيما أجاب به علي عليه السلام خبراً يهودياً شامياً جاء إلى مجلس فيه أصحاب رسول الله: أبو معبد الجهني وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس^(٢) ممّا يكشف لنا عن مصدر خبر ابن عباس عن ذلك.

(١) مجمع البيان ٦: ٥٣٣، ٥٣٤. وسأهم في التبيان ٦: ٣٥٦ عن سعيد بن جبير.

(٢) الاحتجاج ٢: ٣١٤ - ٣٢٢.

ولئن كان الخبر في «الاحتجاج» مرسلًا مرفوعاً فقد رواه الصدوق في «الخصال» مسنداً، قال : فأما المستهزئون فقال الله عز وجل له : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ فقتل الله خمستهم ، قد قتل كل واحد منهم بغير قتلة صاحبهم ، في يوم واحد :

أما الوليد بن المغيرة : فإنه مرّ بنبل لرجل من بني خزاعة قد راشه في الطريق ، فأصابته شظية منه فانقطع أكحله^(١) حتى أدماه فمات وهو يقول : قتلني ربّ محمد .
وأما العاص بن وائل السهمي : فإنه قد خرج في حاجة إلى كداء^(٢) فتدهده^(٣) تحته حجر فسقط فتقطع قطعة قطعة فمات وهو يقول : قتلني ربّ محمد .
وأما الأسود بن عبد يغوث : فإنه خرج يستقبل ابنه زمعة ومعه غلام له ، فاستظلّ بشجرة تحت كداء ، فأتاه جبرئيل عليه السلام فأخذ رأسه فنطح به الشجرة فقال لغلامه : امنع هذا عني : فقال : ما أرى أحداً يصنع بك شيئاً إلاّ نفسك ! فقتله وهو يقول : قتلني ربّ محمد .

قال الصدوق : وفي خبر آخر قول آخر : أن النبي ﷺ قد دعا عليه أن يعمي الله بصره وأن يشكله ولده ، فلما كان ذلك اليوم جاء حتى صار إلى كداء فأتاه جبرئيل عليه السلام بورقة خضراء فضرب بها وجهه فعمي ، وبقي حتى أكله الله بولده يوم بدر ثمّ مات .

وأما الحارث بن الطلائة : فإنه خرج من بيته في السموم فتحول حبشياً فرجع إلى أهله فقال : أنا الحارث فغضبوا عليه فقتلوه وهو يقول : قتلني ربّ محمد .

(١) الاكحل : عرق الحياة في اليد أو الرجل - القاموس .

(٢) كداء - كسماء - جبل بأعلى مكة . القاموس ومراصد الإطلاع .

(٣) تدهده : تدهرج .

وأما الأسود بن المطلب : فإنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه غلبة العطش فلم يزل يشرب الماء حتى انشقق بطنه فمات وهو يقول : قتلني ربّ محمد .
وذلك أنهم كانوا بين يدي رسول الله ﷺ فقالوا له : يا محمد ننتظر بك الى الظهر فإن رجعت عن قولك وإلا قتلناك !

فدخل النبيّ منزله فأغلق عليه بابه مغتماً بقولهم . فأتاه جبرئيل عليه السلام ساعته فقال له : يا محمد ، السلام يقرئك السلام وهو يقول : ﴿ فَاُصْـدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أظهر أمرك لأهل مكة وادع ، ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ قال : يا جبرئيل كيف أصنع بالمستهزئين وما أوعدونني ؟ قال له : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ قال : يا جبرئيل كانوا عندي الساعة بين يدي ؟ فقال : قد كفيتهم . فأظهر أمره عند ذلك ^(١) .

أما هذا المقطع الأخير من الخبر فهو صريح في أن قوله سبحانه : ﴿ فَاُصْـدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ليس بداية مرحلة الدعوة العلنية ، بل كان بادئاً بها من قبل مواجهاً ومقابلاً بها المشركين ومنهم هؤلاء المستهزئون ، وقد بلغت المواجهة بعد الاستهزاء إلى حد التهديد بالقتل إن لم يرجع عن قوله ، وأن قوله سبحانه ﴿ فَاُصْـدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ليس إلا وعداً برفع المانع بعد وجود المقتضي كما يقولون ، لا إيجاداً للمقتضي . فكيف التوفيق ؟ وعلى هذا معنى الإعراض عن المشركين هنا هو عدم الاعتناء والاعتداد بتهديدهم . ومعنى قوله ﴿ فَاُصْـدَعْ ﴾ هو عدم ترتيب الأثر على تهديدهم بدخول الدار وغلق الباب والامتناع عن الدعوة بالرسالة ، وليس البدء بها .

وقد مرّ في خبر الطبرسي : قالوا : أتى جبرئيل النبي ﷺ والمستهزئون يطوفون بالبيت ... ولا نجد هذا في خبر الكاظم عن علي عليه السلام ، ومتى كان ذلك هل قبل نزول الآية أم بعدها ؟

نجد جواب ذلك فيما رواه الراوندي في «الخرائج والجرائح»: «أنه لما نزل ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿بَشَّرَ النَّبِيُّ أَصْحَابَهُ: أَنَّ اللَّهَ كَفَاهُمْ أَمْرَهُمْ يَعْنِي خَمْسَةَ نَفَرٍ، فَأَتَى الرَّسُولَ ﷺ الْبَيْتَ وَالْقَوْمَ فِي الطَّوَافِ وَجَبْرِئِيلَ عَنْ يَمِينِهِ.

فمرّ الأسود بن المطلب، فرمى (جبرئيل) بورقة في وجهه خضراء فأعمى الله بصره وأثكله بولده.

ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فأوماً الى بطنه فاستسقى ماءً فمات حبناً^(١).
ومرّ به الوليد بن المغيرة فأوماً الى جرح كان في أسفل رجله فانتقض بذلك فقتله.

ومرّ به العاص بن وائل السهمي فأشار الى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف فدخلت في (أخمص رجله) شوكة فقتلته.
ومرّ به الحارث بن طلائة فأوماً اليه فتقيأ قيحاً فمات^(٢).

إذن فإتيان جبرئيل بالرسول الى البيت ومرور هؤلاء المستهزين به في طوافهم حول البيت، وإيماء الرسول اليهم بالتعريف وإيماء جبرئيل اليهم بالعذاب، كان بعد نزول جبرئيل عليه بالآيات وتبشيريه لأصحابه بها وبهلاك المستهزين حسب ما جاء فيها.

أمّا ما اختصره الطبرسي في تفسيره عن ابن عباس وابن جبير ومحمد ابن ثور، فقد نقله ابن شهر آشوب عنهم فقال: كان المستهزون به جماعة منهم: الوليد بن المغيرة المخزومي، والأسود بن عبد يغوث الزهري، وأبو زمعة الأسود بن

(١) حبناً: من عظم البطن تورماً من الاستسقاء.

(٢) الخرائج والجرائح ١: ٦٣، الحديث ١٠٩ وعنه في بحار الأنوار ١٨: ٢٤٠.

المطلب، والعاص بن وائل السهمي، والحرث بن قيس السهمي، وعقبة بن أبي معيط وقهيلة بن عامر الفهري، والأسود بن الحرث، وأبو أحيحة سعيد بن العاص، والنضر بن الحرث العبدى، والحكم بن العاص بن أمية، وعُتْبة بن ربيعة، وطُعَيْمة بن عدي، والحرث بن عامر بن نوفل، وأبو البختري العاص بن هاشم بن أسد، وأبو جهل، وأبو لهب. وكلّهم قد أفناهم الله بأشد نكال.

وكانوا قالوا له : يا محمد ننتظر بك الى الظهر، فإن رجعت عن قولك وإلا قتلناك ! فدخل منزله وأغلق عليه بابه، فأتاه جبرئيل ساعته فقال له : يا محمد، السلام يقرأ عليك السلام وهو يقول : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ وأنا معك وقد أمرني ربّي بطاعتك.

فلما أتى البيت رمى الأسود بن المطلب في وجهه بورقة خضراء وقال : اللهم اعم بصره واثكله بولده . فعمي وأثكله الله بولده .

وروي : أنه أشار الى عينه فعمي فكان يضرب رأسه على الجدار حتّى هلك . ثم مرّ به الأسود بن عبد يغوث فأومى الى بطنه فاستسقى ماء ومات حبناً . ومرّ به الوليد فأومى الى جرح اندمل في بطن رجله من نبل فتعلقت به شوكة فنن فخدشت ساقه ولم يزل مريضاً حتّى مات .

ومرّ به العاص فعابه، فخرج من بيته فلفحته السموم، فلما انصرف الى داره لم يعرفوه فباعدوه فمات غماً . وروي أنهم غضبوا عليه فقتلوه .

وروي أنه وطأ على شبرقة^(١) فدخلت في أخمص رجله فقال : لدغت فلم يزل يحكّها حتّى مات .

ومرّ به الحارث بن طلائة فأومى الى رأسه فتقيأ قيحاً . ويقال : لدغته الحية . ويقال : خرج الى كداء فتدهده عليه حجر فتقطع .

(١) الشبرق : نبت حجازي يؤكل وله شوكة، فإذا يبس فهو الضريع .

وأما الأسود بن الحارث : فإنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فلم يزل يشرب الماء حتى انشقت بطنه .

وأما قهيلة بن عامر : فخرج يريد الطائف ففقد ولم يوجد .

وأما عيطلة : فإنه أتى بشوك فأصاب عينيه فسالت حدقته على وجهه .
وقيل : استسقى فمات .

وأما أبو لهب : فإنه (مات بعد بدر) ورماه الله بالعدسة (الطاعونية) فعاش سبع ليال (ومات) وكانت قريش تتقي العدسة ، فتركه ابنائه ثلاثاً لا يدفنانه ، حتى رمته قريش على جدار بأعلى مكة وقذفوا عليه الحجارة حتى واروه بها^(١) .

وروى ابن إسحاق خبر المستهزئين عن عروة بن الزبير قال : كان عطاء المستهزئين خمسة نفر من ذوي الأسنان والشرف في قومهم :

من بني أسد بن عبد العزى : الأسود بن المطلب .

ومن بني زهرة : الأسود بن عبد يغوث .

ومن بني مخزوم : الوليد بن المغيرة .

ومن بني سهم : العاص بن وائل .

ومن بني خزاعة : الحارث بن الطلائة .

فلما تمادوا في الشرّ وأكثروا برسول الله الاستهزاء ، أنزل الله تعالى عليه ﴿ فَاُصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ وأتى جبرئيل رسول الله وهم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسول الله الى جنبه ، فرّبه الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي .
ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فأشار الى بطنه فاستقى بطنه فمات حَبْنًا (أي انتفاخاً)
ومرّ به الوليد بن المغيرة فأشار الى أثر جرح بأسفل كعب رجله كان قد أصابه قبل

ذلك بسنين، فانتقض به فقتله. ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخصّ رجله فخرج على حمار له يريد الطائف فربض به على شبرقة^(١) فدخلت في أخصّ رجله شوكة فقتلته. ومرّ به الحارث بن الطلائة فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله^(٢).

والخبر السابق نقله ابن شهر آشوب عن تفسير محمد بن ثور وهو عن التابعي سعيد بن جبير وعن ابن عباس مقطوعاً عليه، وإنّما جاء اسم أبي رافع في آخر الخبر، ولعله هو الراوي المعاصر الناقل لابن عباس. وقد مرّ في خبر الصدوق عن الكاظم عن علي عليه السلام أنّ ابن عباس كان حاضراً في المجلس سامعاً للخبر عن علي عليه السلام، فلعلّ ما بين الخبرين من خلاف جاء من رواية أبي رافع أو ادخال ابن عباس للخبرين بعضهما في بعض.

والمستهزئون في هذا الخبر سبعة عشر رجلاً فصلّ مقتل تسعة منهم وأجل الباقيين، وآخر المذكورين بالتفصيل أبو لهب مع التصريح بمقتله بعد بدر، والمومى إليه منهم خمسة فحسب فلعلّ هذا هو وجه الجمع المعقول بين الخبرين، ولعله هو وجه اختصار الخبر عند الطبرسي.

وإذا استثنينا خبر تفسير القميّ بما فيه ممّا يلزم حدوثه بعد الهجرة إلى الحبشة، فلا يبقى في سائر الأخبار إلّا عدم وضوح باعث الاستهزاء في حال اختفاء الدعوة، ممّا لم نجد الجواب المقنع عنه، اللهم إلّا أن نقول - كما في خبر الصدوق وابن عباس - بأنّ الصدع بالأمر لم يكن بداية إعلان بل كان عن امتناع وقع للتهديد الأكيد من هؤلاء المستهزئين كما مرّ، وهو المتعين الراجع.

وقد مرّ في خبر الراوندي في «الخرائج» والطبرسي في «المجمع» وابن شهر آشوب في «المناقب» عن ابن عباس وابن جبير وتفسير محمد بن ثور:

(١) نبت حجازي يؤكل وله شوك كما مرّ، فإذا يبس فهو الضريع.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٥٠ - ٥٢.

أن الرسول ﷺ أتى البيت ومعه جبرئيل عن يمينه والقوم في الطواف. فأَيَّ طواف كان هذا لهم جميعاً بعد تهديدهم إياه؟

لعلنا نجد جواب هذا فيما رواه ابن هشام عن ابن إسحاق في سيرته : أن نقرأ من قريش اجتمعوا الى الوليد بن المغيرة - وكان ذا سنّ فيهم وقد حضر الموسم - فقال لهم : يا معشر قريش ! إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويردّ قولكم بعضه بعضاً^(١).

لنا من هذا النص التصريح بأن مناسبة عقد هذا المؤتمر بل المؤامرة على الرسول ﷺ كانت هي حضور موسم الحج أو العمرة ووفود العرب إليهم لذلك وهم قد سمعوا بأمره ﷺ.

وتختلف صورة الخبر لدى القمّي في تفسيره قال : كان الوليد بن المغيرة شيخاً كبيراً مجرباً من دُهاة العرب ... وكان له مال كثير وحنائق (في الطائف) وكان له عشرة بنين بمكة ، وعشرة عبيد عند كلّ عبد ألف دينار يتجر بها - وتلك هي القنطار في ذلك الزمان - ولذا كان قد قال لقريش : أنا أتوحد بكسوة البيت سنةً وعليكم في جماعتكم سنة ، ولذلك سمّاه الله ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾^(٢).

وكان رسول الله ﷺ يقعد في الحجر فيقرأ القرآن ...

فاجتمعت قريش الى الوليد فقالوا : يا أبا عبد شمس ، ما هذا الذي يقول محمّد؟ أشعر هو؟ أم كهانة؟ أم خُطْب؟ فقال : دعوني أسمع كلامه.

فدنا من رسول الله ﷺ فقال : يا محمّد أنشدني من شعرك ! قال : ما هو شعر ، ولكنّه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه. فقال : اتل عليّ منه شيئاً.

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٨٨.

(٢) المدثر : ١١.

فقرأ رسول الله ﷺ ﴿حَمَّ السَّجْدَةِ﴾ فلما بلغ الى قوله : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾^(١) اقشعر الوليد وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته. ومرّ الى بيته ولم يرجع الى قريش من ذلك.

فمشوا الى أبي جهل (عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي) فقالوا له : يا أبا الحكم، إنّ أبا عبد شمس قد صبا الى دين محمد، أما تراه لم يرجع اليّنا !
فغدا أبو جهل اليه فقال له : يا عمّ، نكّست رؤوسنا وفضحتنا وأشمت بنا عدونا وصبوت الى دين محمد؟!!

فقال : ما صبوت الى دينه ولكنّي سمعت منه كلاماً صعباً تقشعرّ منه الجلود !
فقال له أبو جهل : أخطبّ هو؟ قال : لا، إنّ الخطبّ كلام متصل، وهذا كلام منثور ولا يشبه بعضه بعضاً. قال : أفشعر هو؟ قال : لا، أما إنّّي قد سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها ورمليها ورجزها، وما هو بشعر. قال : فما هو؟ قال : دعني أفكر فيه !
فلما كان من الغد قالوا : يا أبا عبد شمس، ما تقول فيما قلناه؟ قال : قولوا : هو سحرّ؛ فإنّه آخذ بقلوب الناس.

فأنزل الله على رسوله في ذلك : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأَرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُضْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ...﴾^(٢) وكان من المستهزئين برسول الله ﷺ^(٣).

(١) فصلت : ١٣. وهي ٦١ في ترتيب النزول كما في التمهيد : ١٠٥.

(٢) المدثر : ١١ - ٢٧.

(٣) تفسير القميّ ٢ : ٣٩٣، ٣٩٤ وعنه في إعلام الوريّ ١ : ١١٣، ١١٤.

وعلى هذا فقله سبحانه : ﴿ سَأُضْلِيهِ سَقَرَ ﴾ و ﴿ سَأُزْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ كان تصعيداً في تهديده وإنذاره قبل تبشير الرسول بكفاية شرّه بهلاكه والمستهزئين معه بقوله ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ وهذا أيضاً ممّا يلزم كون الصدع بأمره قبل هذا بغير قليل ، حتّى تكون وفود العرب في الموسم - كما قال الوليد - قد سمعوا بأمره ﷺ ، فإنّ الدعوة السريّة أو غير العلنية لا يبلغ صداها هذا الحد أبداً ، بحيث يختار المشركون في كيفية مواجهتهم لهم في الموسم . ولعلّ الوليد بعد موقفه هذا ونزول هذه الآيات فيه بالتهديد قابل هو وأصحابه النبيّ بالتهديد الشديد والأكيد لتحديد دعوته دون حضور الموسم ، ثمّ حضروا طواف الموسم فوسمهم جبرئيل بعذاب الله الشديد في الدنيا قبل الآخرة ، وبذلك كفى رسول الله شرّهم وشرّ استهزائهم به وبرسالته . فانطلق الرسول بخطبته العامّة في الموسم على حجر إسماعيل حول البيت في مطاف المسجد الحرام .

وممّا يؤيد ذلك تعبير الرسول ﷺ في تلك الخطبة ، إذ هي بالإضافة الى مخاطبة قريش تحتوي على الخطاب للعرب ، وهو اذا ضمّ الى مخاطبة قريش - مثلاً - دلّ على العرب ممّا عداهم لا هم .
فلننظر الى نصّ الخطاب :

خُطْبُ النَّبِيِّ ﷺ للدعوة العلنية:

بعد أن حكى القميّ في تفسيره قصّة هلاك المستهزئين قال : «فخرج رسول الله ﷺ فقام على «الحجر» فقال :

«يا معشر قريش ، يا معشر العرب ، أدعوكم الى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وأمركم بخلع الأنداد والأصنام ، فأجيبوني تملكوا بها العرب وتدين لكم العجم ، وتكونوا ملوكاً في الجنة» .

فاستهزأوا منه وقالوا: جُنَّ محمد بن عبد الله. ولم يجسروا عليه لموضع أبي طالب^(١).

فالخطاب لقريش عامّة وللعرب بالأعم، والمقام الذي اختاره لخطابه العام هذا هو حجر إسماعيل حول البيت في مطاف المسجد الحرام أي أجمع مجامع الحج وأشرف مواقفه فكان كما روى ابن هشام عن ابن إسحاق: وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلّها^(٢). وهذا هو ما كان يحذره أولئك المستهزئون المهتدون لمنعه عن الإعلان بدعوته في ذلك الموسم العام.

ولكن هل كان هذا هو البيان الأوّل العام لدعوته العلنية العامّة؟ أمّا اليعقوبي فيقول: وأقام رسول الله بمكة ثلاث سنين... يدعو إلى توحيد الله عزّ وجلّ وعبادته، والاقرار بنبوّته ويكتم أمره... حتّى قالت قريش: إنّ فتى ابن عبد المطلب ليكلّم من السماء... ثمّ أمره الله أن يصدع بما أرسله به فأظهر أمره وقام «بالأبطح» فقال:

«إني رسول الله، أدعوكم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت» فاستهزأت به قريش وآذته.

وكان المؤذون له جماعة منهم: أبو لهب، والحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وعمرو بن الطلائة الخزاعي.

وكان المستهزئون به: العاص بن وائل السهمي والحارث بن قيس بن عدي السهمي، والأسود بن المطلب بن أسد، والوليد بن المغيرة المخزومي، والأسود بن

(١) تفسير القميّ ١: ٣٧٩. وعنه في إعلام الوريّ ١: ١٠٦.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١: ٢٩١.

عبد يغوث الزُّهري . وكانوا يוכלون به صبيانهم وعبيدهم فيلقونه بما لا يحب^(١) .
فهو يروي أوّل خطبة له بالأبطح لا الحجر ، فلعله قبل الموسم . ثمّ هو يرى
قصة المستهزئين بعد الصدع بالأمر ، وكأنّه يرى صدعه بالأمر بمعنى أنّه «عاب
عليهم آلهتهم ، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا كفاراً»^(٢) أو هو مرحلة ما بعد الصدع .
ثمّ هو يرى فرقاً بين المؤذنين له وهم خمسة والمستهزئين به وهم خمسة
آخرون . فلعلّ محمّد بن ثور الذي عدّهم سبعة عشر رجلاً قد خلط بينهم .
وقبله قال ابن إسحاق : فلمّا بادئ رسول الله ﷺ قومه بالإسلام - وصدع
به كما أمره الله - لم يبعد منه قومه ولم يردّوا عليه حتّى ذكر آلهتهم وعابها ،
فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته إلّا من عصم الله
منهم بالإسلام^(٣) .

فهل يعني ذلك أنّه لما بادئ قومه لم يبعد منه قومه ولم يردّوا عليه حتّى صدع
بأمره كما أمره الله فذكر آلهتهم وعابها ، فأنكروا ذلك وأعظموه وعادوه وأجمعوا
على خلافه ؟ لعله يعني ذلك .

وإذا كان كذلك فلعله ﷺ بعد مرحلة الدعوة السرية ، وبعد مرحلة الدعوة
الخاصّة للأربعين للأقربين من العشيرة بني عبد المطلب أو بني هاشم ، بادئ
قومه بدعوته العامّة العلنية دون هذا المعنى من الصدع بالأمر ، فبدأ بخطبته على
«الصفاء» الخالية من هذا المعنى من الصدع بالأمر أي عيب الآلهة وذكرها بالسوء
كما في «المناقب» لابن شهر آشوب قال : رُوي أنّه لما نزل قوله ﴿وَأَنْذِرْ
عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (أي بعد هذه المرحلة) صعد رسول الله ﷺ ذات يوم - الصفاء ،

(١ و ٢) اليعقوبي ٢ : ٢٤ .

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٢ .

فقال : يا صباحاه ! فاجتمعت اليه قريش فقالوا : مالك ؟ قال : أرأيتم أن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدقونني ؟ قالوا : بلى ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

قال قتادة : ثم إنه خطب فقال : أيها الناس ، إن الرائد لا يكذب أهله ، ولو كنت كاذباً لما كذبتكم ، والله الذي لا إله إلا هو ، إني رسول الله إليكم حقاً خاصة وإلى الناس عامة ، والله لتموتون كما تنامون ، ولتبعثون كما تستيقظون ، ولتحاسبون كما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً . وإنكم أول من أنذرتم^(١) .

وهذه الجملة الأخيرة من هذه الخطبة على «الصفاء» هي التي تحملنا على القول : بأنها أول خطبة ، فالخطبة «بالأبطح» ثم الخطبة «بالحجر» في الموسم . فلعل هذا هو وجه الجمع المعقول بين الخطب الثلاث .

من هم المقتسمون ؟

وكاننا نجد فيما رواه الطوسي ثم الطبرسي في تفسيرهما عن ابن عباس ومقاتل ، نجد فيه المتعم لأمر هذا الموسم ، فقد قال مقاتل في قوله سبحانه : ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ^(٢) إنهم هم الذين اقتسموا طرق مكة يصدون عن رسول الله ﷺ والايان به .

وقال ابن عباس : إنهم كانوا ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة «أيام الموسم» يقولون لمن أتى مكة : لا تغتروا بالخارج منا المدعي النبوة . فأنزل الله بهم عذاباً فاتوا شرمية .

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) الحجر : ٩٠ ، ٩١ .

وجعلوا القرآن عضيّن أي جزّوه أجزاءً فقالوا: سحر، وقالوا: مفترى، وقالوا: أساطير الأولين^(١) وكذلك روى الطبرسي في «مجمع البيان» عن الكلبي: أنّ المقتسمين كانوا ستة عشر رجلاً خرجوا إلى عقاب مكة أيام الحج على طريق الناس (الحجاج) على كلّ عقبة أربعة منهم، ليصدّوا الناس عن النبي ﷺ، وإذا سألهم الناس عما أنزل على رسول الله قالوا: أحاديث الأولين وآباطيلهم^(٢).

فلعلّ الوليد في بدايات الموسم بعث هؤلاء الستة عشر رجلاً على طرق مكة مقتسمينها فيما بينهم يصدّون من أتى مكة عن الإيمان برسول الله ﷺ، وكما اقتسموا طرق مكة فيما بينهم كذلك اقتسموا القول في القرآن بين مكذب وقائل إنّ سحر وقائل إنّ أساطير الأولين:

ثمّ إنّ الوليد جمع إليه هؤلاء نفر من قريش وقال لهم: اجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويردّ قولكم بعضه بعضاً. فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به... ثمّ قال لهم: إنّ أقرب القول فيه أن تقولوا هو ساحرٌ جاء بقول هو سحر يفرّق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته. ففرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمرّ بهم أحد إلاّ حدّروه إيّاه وذكروا لهم أمره، فأنزل الله فيه قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً...﴾^(٣).

ثمّ نزل فيه خاصّة وفي خمسة من أصحابه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ ولعلّ سائر السبعة عشر رجلاً الذين عدّهم محمّد بن ثور في تفسيره عن ابن عبّاس وابن جبير - على رواية ابن شهر آشوب - من المستهزئين، هم من المقتسمين مع

(١) مجمع البيان ٦ : ٥٣١.

(٢) مجمع البيان ٦ : ٥٤٩.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٨٨، ٢٨٩.

المستهزئين، الذين روى الطبرسي هنا عن ابن عباس أنهم كانوا ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد، فعه يكونون سبعة عشر رجلاً. وقد ذكر عذاب ثلاثة منهم عدا المستهزئين وإن كان لم يذكر عذاب الجميع إلا بالاجمال، دون التفصيل.

والموسم - كما لاحظته - ذكر في كلا الأمرين : المقتسمين، والمستهزئين، من دون تفريق بينهما مما يحمل بظاهره على أول موسم بعد إعلان الدعوة العامة، فإن كانت طبيعة الأمور تقتضي فاصلاً زمنياً أطول من موسم واحد بين الأمرين - كما هو ظاهر الحال - فمن المحتمل أن يكون الاقتسام في الموسم الأول، ثم محاولة الاعتبار بالتجربة من اختلاف آرائهم وأقوالهم في الرسول والقرآن، فالسعي في توحيد آرائهم وأقوالهم فيها في الموسم الثاني، وأن ما نزل في الوليد والمستهزئين والمقتسمين في سورتي الحجر والمدثر كان في الموسم الثاني بعد إعلان الدعوة لا الأول.

ما نزل من القرآن قبل «فاصدع»:

إذ وقفنا على الحوادث المشار إليها بقوله سبحانه ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ^(١) وقوله سبحانه ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ^(٢) والآيات من أواخر سورة الحجر، وهي الرابعة والخمسون في ترتيب النزول ^(٣) أي يسبقها من القرآن في النزول ثلاث وخمسون سورة، ولنا فيها آيات وإشارات إلى ما يسبق ما أشير إليه في هذه الآيات الأخيرة من سورة الحجر مما يدخل في تاريخ الإسلام، فلنقف عليها على ترتيبها على التوالي :

(١) الحجر : ٩٠، ٩١.

(٢) الحجر : ٩٤، ٩٥.

(٣) التمهيد : ١ : ١٠٥ وتلخيصه ١ : ٩٨.

رتبوا في ترتيب النزول بعد سورة العلق : سورة القلم التي تفتح بالآية : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿ مما يوحى إلى أن هذه الجملة إنما هي تنزيه له عما اتهمه به المشركون من الجنون ، كما في الآية بعدها : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ * بِأَيُّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿ وكما في الآية بعدها : ﴿ فَلَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ و ﴿ وَلَا تُطْعِ كُلَّ خَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُغْتَدٍ أَثِيمٍ * عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿ ^(١) وليس من التأويل اذا بحث الدارس لهذه الآيات عن الشخص المعين المعنى بها ، بل الظاهر من الآيات هو ذلك وما عداه خلاف الظاهر .

ونقل الطبرسي ثلاثة أقوال في ذلك : قيل يعني الوليد بن المغيرة فإنه عرض على النبي المال ليرجع عن دينه . وقيل يعني : الأخنس بن شريق الثقفي . وقيل : يعني : الأسود بن عبد يغوث ^(٢) بينما لم نجد خلافاً في المعنى بأوصاف سورة المدثر : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ * أنه الوليد . وحقاً وجدناه الوحيد الذي يوصف في الأخبار التاريخية بذلك الوصف في المال والبنين ليس سواه ولم يوصف الآخرون معه بذلك الوصف في المال والبنين ، فهو الأولى أن يكون المقصود عند الإطلاق والترديد .

أما متى تليت عليه الآيات ؟ وأي آيات ؟ ومن تلى ؟ وكيف ؟ وما هو تفصيل عرضه المال على الرسول ليرجع عن دينه أو عن الإعلان به ودعوته اليه ؟ وكيف منع عن هذا الخير ؟ فلم يبق لنا من تفسير المفسرين الأوائل ، ولا الأخبار التاريخية إلا هذه الأقوال الثلاثة على التردد فقط ، فضلاً عما يحل لنا التناهي بين هذه الآيات من القرآن ودور الكتمان .

(١) القلم : ١٠ - ١٥ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٥٠١ .

وأسطع من ذلك ما في أواسط السورة من قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ^(١) فهل يمكننا أن نحكم أن هذا أيضاً من القرآن في دور الكتمان؟! بل هو إعلام وإعلان.

بل روى ابن شهر آشوب في «المناقب» عن ابن عباس : أن الوليد ابن المغيرة أتى قريشاً فقال : إن الناس يجتمعون غداً بالموسم وقد فشا أمر هذا الرجل في الناس ، وهم يسألونكم عنه فما تقولون ؟ فقال أبو جهل : أقول : إنه مجنون ، وقال أبو لهب : أقول إنه شاعر ، وقال عتبة بن أبي مُعيط : أقول إنه كاهن . فقال الوليد : بل أقول هو ساحر يفرّق بين الرجل والمرأة وبين الرجل وأخيه وأبيه . فأنزل الله تعالى : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ^(٢).

وفي العلق قبل القلم قالوا : إن المعني بالآية : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ هو الوليد أيضاً إذ كان ينهى الناس عن أن يطاع رسول الله وعن الصلاة ^(٣) وقيل : هو أبو جهل ، فإنه حاول أن يطأ رقبة الرسول في سجده في الصلاة في المسجد الحرام ^(٤) ولكنني عبرته الى القلم ، إذ قالوا إن النازل من العلق قبل القلم إنما هي الآيات الخمس الأوائل ، وأما هذه الآية فهي متأخرة في النزول عن تلك ، فلعلنا نعود إليها فيما بعد .

وثالثة السور - «المزمل»:

وعاشرة آياتها : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي

(١) القلم : ٣٤-٣٦ .

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ١ : ٤٨ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٤٣٠ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٧٨٢ عن صحيح مسلم .

وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ قال في «المجمع»: قيل: نزلت في صناديد قريش والمستهزئين^(١) وأليس من الإعلان الآيات التالية في السورة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * ... فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * ... إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾^(٢).

ورابعة السور - «المدثر»:

وفيه الآيات بشأن الوليد بن المغيرة المخزومي، وقد مرّ خبره مع المستهزئين. وقد مرّ من قبل خبر جابر بن عبد الله الأنصاري عن الرسول ﷺ أنها أول سورة نزلت عليه بعد الفترة بعد حراء، وعليه تكون ثمانية السور لا الرابعة، ويمكن الجمع بينهما بمثل الكلام في سورة العلق، بأن ما نزل ثانياً بعد الفترة هي حتى الآية العاشرة، أي إلى ما قبل ما يتعلق بالوليد، ثم نزل باقيا - بعد المزمّل - رابعاً.

وبهذا الصدد قال العلامة الطباطبائي «والسورة مكيّة من العتائق النازلة في أوائل البعثة وظهور الدعوة» لكنّه قال بعد هذا: واحتمل بعضهم أن تكون السورة أول ما نزل على النبي ﷺ عند الأمر بإعلان الدعوة بعد إخفائها مدّة في أول البعثة. ثمّ قال «وهذا لا يتعدّى طور الإحتمال»^(٣) فما معنى قوله «في أوائل البعثة وظهور الدعوة»؟ أمّا أن تكون هي أول سورة نزلت من القرآن فقد قال: يكذّبه نفس آيات السورة الصريحة في سبق قراءته القرآن على القوم وتكذيبهم به وإعراضهم عنه ورميهم له بأنّه «سحر يؤثر»^(٤) ويصدق مثل ذلك في سابقته المزمّل

(١) المزمّل : ١٠، ١١.

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٥٧٣.

(٣) المزمّل : ١٥ - ١٩.

(٤) الميزان ٢٠ : ٧٩.

(٥) الميزان ٢٠ : ٧٩.

والقلم، ولم يقل بمثل هذا هناك. بل قيل أن تكون العلق أول سورة كاملة^(١). وفيها ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * ... أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ... كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنَّ بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * أَفَلَيْسَتْ هَذِهِ أَيْضًا كَتَلَكِ الْآيَاتِ صَرِيحَةً فِي سَبْقِ أَمْرِهِ بِالتَّقْوَى وَتَكْذِيبِهِمْ لَهُ وَاعْرَاضِهِمْ عَنْهُ؟ وَلَمْ يَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ هُنَا، وَالْأَمْرُ وَاحِدٌ.

السورة الخامسة - «الفاتحة»:

فقد قال اليعقوبي: إنها الفاتحة^(٢) والظاهر أنها هي رواية جابر بن زيد^(٣) أما خبر ابن عباس فلم يعرض للفاتحة. ومرّ ترجيح أن تكون الفاتحة - كما هو معنى الفاتحة - فاتحة كتاب الله. وقد يوجّه عدم ذكر ابن عباس للفاتحة بأنّ العلق فما بعد من القرآن في دور الإعلان والفاتحة كانت نازلة من قبل. وهي السورة الوحيدة - في عداد هذه السور الأوائل - التي ليس فيها ما يقتضي أو يستدعي سبق شيء من القرآن أو الإسلام قبلها.

سادسة السور - «المسد»:

سورة تبّت أو أبي لهب أو المسد، قال القميّ في تفسيرها: إنّ أمّ جميل بنت صخر بن حرب «أبي سفيان»^(٤) كانت تنمّ على رسول الله أي تنقل أحاديثه إلى الكفار، ولما اجتمع زوجها أبو لهب مع قريش في «دار الندوة» وبايعهم على قتل محمّد رسول الله، نزلت السورة^(٥) وهذا يعني أنّ السورة نزلت بعد مؤتمر قريش بقتل

(١) الميزان ٢٠ : ٣٢٢.

(٢) اليعقوبي ٢ : ٣٣.

(٣) التمهيد ١ : ١٠٣ وتلخيصه ١ : ٩٥.

(٤) كذا في القميّ، وهو غلط، فهي بنت حرب أخت أبي سفيان كما يأتي عن مجمع البيان.

(٥) تفسير القميّ ٢ : ٤٤٨.

الرسول، وهذا لا يتفق مع كونها السورة السادسة أي الأوائل، فهو مردود.

ومن الطبرسي يعلم أن ما قاله القمي في معنى «حمالة الخطب» هو قول عن ابن عباس^(١) أما في سبب نزولها فقد روى عن البخاري عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس أيضاً قال: صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا فقال: يا صباحاه! فأقبلت إليه قريش فقالوا له: مالك؟ فقال: أرايتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوني؟ قالوا بلى. فقال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد! فقال أبو لهب تباً لك، ألهذا دعوتنا جميعاً؟! فأنزل الله هذه السورة^(٢).

وهذا كما ترى صريح في حصر ما نزل من القرآن في دور الكتان في السور الخمس الأوائل السابقة على المسد، وأما المسد فهي أول سورة من دور الإعلان. والخبر مروى عن ابن جبير عن ابن عباس، وعنهما روي خبر الإنذار في يوم الدار للعشيرة الأقربين أي الدعوة الخاصة بين الكتان والإعلان كما مر، وذلك لا يتفق مع هذا عنهما.

ولكن لا ريب أن سورة اللمب لا تناسب الكتان أيضاً، فكيف التوفيق؟

وروى الطبرسي أيضاً في قوله سبحانه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية صعد رسول الله ﷺ على الصفا فقال: يا صباحاه! فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: مالك؟ فقال... فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا دعوتنا جميعاً؟

فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخر السورة^(٣) وهذا أيضاً

(١) مجمع البيان ١٠ : ٨٥٢.

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٨٥١.

(٣) مجمع البيان ٨ : ٣٢٣. وانظر وقارن التبيان ١٠ : ٤٢٧.

كذلك يتنافى مع الدعوة الخاصة ليوم الدار للأقربين من العشيرة من ناحية، وأيضاً من ناحية أخرى يتنافى مع خبر ابن عباس في ترتيب النزول إذ يقتضي نزول المسد بعد الشعراء أو العكس أو استثناء آية الإنذار وما يلزمها من الشعراء ولم ينقل ذلك عنه.

ولكن روى الطبرسي أيضاً ما يصلح شأناً لنزول السورة من دون هذه الملازمات، قال: عن سعيد بن المسيّب قال: كانت لأمّ جميل بنت حرب أخت أبي سفيان قلادة فاخرة من جوهر فقالت: لأنفقنها في عداوة محمّد! قال الطبرسي: ولما أنذر النبيّ أباه لوب بالنار قال: إن كان ما تقول حقاً فإنّي أفندي بمالي وولدي^(١) فأنزل الله: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۖ ﴾ بدل القلادة. وهذا لا يستلزم ما كان يستلزمه الخبران عن ابن عباس، ولكنّه يستلزم سبق الإعلان والمجاهرة حتّى حدّ العداء المحادّ من أبي لهب وامرأته.

وقد روى الطبرسي أيضاً في شدّة عدائه ونصبه للنبيّ ما يدلّ على ذلك في أوائل الإعلان: عن طارق المحاربي قال: بينا أنا بسوق ذي المجاز، إذ أنا بشابّ (كذا) يقول: أيّها الناس قولوا: لا إله إلاّ الله تفلحوا. وإذا برجل خلفه يرميه قد آدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول: يا أيّها الناس إنّهُ كذاب فلا تصدّقوه. فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمّد يزعم أنّه نبيّ، وهذا عمّه أبو لهب يزعم أنّه كذاب^(٢). فقله: هو محمّد يزعم أنّه نبيّ، في جواب: من هذا، يُشعر بأنّ هذا كان في بداياته.

(١) مجمع البيان ١٠: ٨٥٢.

(٢) مجمع البيان ١٠: ٨٥٢.

وروى الحِميري في «قرب الاسناد» بسنده عن الكاظم عليه السلام في معجزاته عليه السلام أنه : حين نزلت «سورة تَبَّتْ» أتته أمّ جميل امرأة أبي هب ومعه عليه السلام أبو بكر، فقال له : يا رسول الله، هذه أمّ جميل تريدك وهي مُحَفَظَة - أي مُغَضَّبَة - ومعها حجر تريد أن ترميك به ! فقال له : إنها لا تراني. فقالت لأبي بكر : أين صاحبك ؟ قال : حيث شاء الله ... ثمّ قال أبو بكر لرسول الله : يا رسول الله لم ترك ؟ قال : لا، ضرب الله بيني وبينها حجاباً^(١).

السورة الثامنة - «الأعلى»^(٢):

وروى العياشي في تفسيره عن عقبة بن عامر الجهني قال : لما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال رسول الله عليه السلام : اجعلوها في سجودكم. ورواه أيضاً في «الدر المنثور» عن أحمد وأبي داود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عن عقبة عنه عليه السلام^(٣).

وتمام الخبر : ولما نزل : ﴿فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾^(٤) قال عليه السلام : اجعلوها في ركوعكم. والواقعة هي السورة السادسة والأربعون، وهذا يدلّ على ما مرّ عن أنّ الصلاة كانت في أوائل تشريعها بسجود بلا ركوع، ثمّ شرّع الركوع بعد ذلك^(٥).

ومرّ عن ابن شهر آشوب في «المناقب» عن تفسير القطّان عن ابن مسعود :

(١) قرب الاسناد : ٢٥٦، الحديث ١٢٤٦.

(٢) السر في عدم ذكرنا لبعض السور هو عدم اشتغالها على الآيات ذات الإشارة الى الحوادث التاريخية.

(٣) الميزان ٢٠ : ٢٧٠.

(٤) الواقعة : ٧٤.

(٥) صفحة : ٣٨٥.

أَنَّ عَلِيًّا عليه السلام سأل رسول الله : ما أقول في السجود في الصلاة؟ فنزل : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ وسأله : ما أقول في الركوع؟ فنزل : ﴿ فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ فكان أول من قال ذلك ^(١).

والسورة العاشرة - «الضحى»:

أو الحادية عشرة هي «سورة الضحى» وفي تفسير القمي في سبب نزولها روى عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام في قوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ قال : ذلك إن أول سورة نزلت كانت ﴿ اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ثم أبطأ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالت خديجة : لعل ربك قد تركك فلا يرسل اليك . فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ ^(٢) وهذا يقتضي أن تكون الضحى الثانية لا العاشرة.

وقيل : سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذي القرنين وأصحاب الكهف وعن الروح . فقال . سأخبركم غداً . ولم يقل : إن شاء الله ، فاحتبس عنه الوحي هذه الأيام ، فاغتم لشماتة الأعداء . فنزلت السورة تسلياً لقلبه ^(٣) وهذا يقتضي أن تكون السورة مدنية بعد الثمانين لا عشرة المكيات .

وعن ابن عباس قال : احتبس الوحي عنه صلى الله عليه وآله خمسة عشر يوماً فقال المشركون : إن محمداً قد ودَّعه ربه وقلاه ، ولو كان أمره من الله لتتابع عليه ^(٤).

وقيل : إن النبي صلى الله عليه وآله رُمي بحجر في اصبعه فقال يخاطبها :

هل أنتِ إلا اصبع رُميت وفي سبيل الله ما لقيتِ

(١) مناقب آل أبي طالب ٢ : ١٤ - ١٩ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٢٨ .

(٣ و ٤) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٤ .

فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يوحى اليه، فقالت له أم جميل بنت حرب امرأة أبي هلب: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم أره قريبك منذ ليلتين أو ثلاث! فنزلت السورة^(١).

ولا يتنافى خبر ابن عباس مع هذا الأخير إلا في عدد أيام احتباس الوحي عنه ﷺ فقد تكون أم جميل هي السبب في إشاعة الخبر بين المشركين ممّا أشاع بينهم ذلك، فهي حمالة الخطب، وهذا من خطبها.

أمّا العدد المذكور في خبر أم جميل: (ليلتين أو ثلاث)، فهو يوحى كأنما الوحي كان قبل ذلك مستمراً كل يوم وليلة، وهذا لم يُعهد عنه ﷺ ولم ينقل، فالراجح هو عدد ابن عباس: خمسة عشر يوماً، أو مقاتل: أربعين يوماً^(٢).

ولكن عن البرقي بإسناده عن رجل من أهل البصرة قال: رأيت الحسين بن علي عليه السلام يطوف بالبيت فسألته عن قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فقال: أمره أن يحدث بما أنعم الله عليه من دينه^(٣).

وقال القمي في معنى الآية: أي بما أنزل الله عليك وأمرك به^(٤).

ونقل الطبرسي عن مجاهد والزجاج: أي بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاها الله، وهي أجل النعم. وعن الكلبي (هشام بن محمد ت ٢٠٦) قال: يريد بالنعمة: القرآن اذ كان القرآن أعظم ما أنعم الله عليه به، فأمره أن يقرأه^(٥).

وقال ابن إسحاق: ثم فتر الوحي عن رسول الله فترة من ذلك حتى شق ذلك عليه فأحزنه، فجاءه جبرئيل بسورة الضحى يقسم له ربه وهو الذي أكرمه بما

(١ و ٢) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٤.

(٣) تفسير البرهان ٤ : ٤٧٤.

(٤) تفسير القمي ٢ : ٤٢٨.

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٨.

أكرمه به : أنه ما ودّعه وما قلاه ، ويقول : ما صرمك فتركك وما أبغضك منذ أحبّك ، وما عندي من مرجعك إليّ خير لك ممّا عجّلْتُ من الكرامة في الدنيا ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ﴾ من الفُلج (الفوز والغلبة) في الدنيا والثواب في الآخرة ﴿ فَتَرَضَى ﴾ . ثمّ يعرفه الله ما ابتدأه به من كرامته في عاجل أمره ومثله عليه في يتمه وعيلته وضلالته واستنقاذه من ذلك كلّ برحمته ... ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ بما جاءك من الله من نعمته وكرامته من النبوة فاذكرها وأدع إليها . فجعل رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم - يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سرّاً إلى من يطمئن إليه من أهله^(١) .

ثمّ يقول : فلما دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتّى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدّث به ... قال الله تعالى له : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فأمر رسوله أن يصدع بما جاءه منه وأن يباذي الناس بأمره وأن يدعو إليه . وكان - فيما بلغني - بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به من مبعثه إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين ... كان فيها أصحابه إذا أرادوا الصلاة ذهبوا إلى شعاب مكة فاستخفوا بصلاتهم من قومهم . فبينما رسول الله في نفر من أصحابه في شعب من شعاب مكة يصلّون إذ ظهر عليهم نفر من المشركين ، فعابوا عليهم ما يصنعون^(٢) ؛ وكأنّ هذه الحادثة كانت هي المناسبة لإعلان الدعوة . أمّا قبل ذلك فإنّما كان يذكر النبوة لمن كان يطمئن إليه من أهله سرّاً . إذن فكيف اطلعت عليه أمّ جميل فاحتطبت عليه إلى المشركين فأشاعوا عليه أنّ الوحي منقطع عنه ؟! اللهم إلّا أن نخلص من ذلك كما خلاص ابن إسحاق فلم يقل بشيء من ذلك ، وإنّما قال : ثمّ فتر الوحي عنه فترة حتّى شق عليه وأحزنه فجاءه جبرئيل بسورة الضحى .

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٥٧ - ٢٥٩ .

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٨٠ - ٢٨٢ .

ولم يقل ما الذي نزل من القرآن قبلها حتى في ابتداء تنزيله، ولكنه بعد أن ذكر ابتداء النزول في شهر رمضان قال: ثم تتام الوحي اليه - صلى الله عليه [وآله] وسلم - وهو مؤمن بالله ومصدق بما جاءه منه قد قبله بقبوله وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم... فضى على أمر الله على ما يلقي من قومه من الخلاف والأذى^(١) ثم يقول: ثم فتر الوحي... فلو كان ﷺ إنما جعل يذكر النبوة سراً إلى من يطمئن اليه من أهله بعد قوله ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾^(٢) فكيف ومن أين علم به قومه فيتحمل ما يلقيه منهم من الخلاف والأذى؟!

والسورة الثانية عشرة - «الشرح»:

هي متتالية للضحى إن لم نقل بوحدهما كما نقل ذلك الفخر الرازي عن طاووس بن كيسان اليماني وعمر بن عبد العزيز، وجاء في بعض أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام^(٣) وأفتى به بعض فقهاءنا^(٤).

واختلفوا في معنى الوزر في قوله: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ ويبدو لي بقرينة وحدة سياق السورتين أن المقصود بالوزر ما تحمله من ثقل انقطاع الوحي عنه واحتباسه، وهو العسر الذي تحمله، واليسر بعده تجديد الوحي اليه، واليوم وقد فرغ من ذلك الهم والغم فعليه أن ينصب في التحديث بما أنعم الله عليه من النبوة ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾.

وقال صاحب كتاب النظم في تفسير السورة: إن الله بعث نبيّه وهو مُقْلٌ خَفْتُ وكانت قريش تعيره بذلك حتى قالوا له: إن كان بك من هذا القول الذي تدّعيه

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ٢٥٧.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١: ٢٥٨.

(٣) الميزان ٢٠: ٣٦٥.

(٤) المحقق الحلّي في الشرائع والمعتبر.

طلب الغنى' جمعنا لك مالاً حتى تكون أيسر أهل مكة. فكره النبي ذلك وظن أن قومه إنما يكذبونه لفقره، فوعده الله سبحانه الغنى ليسليه بذلك عما خامرته من الهم فقال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي لا يحزنك ما يقولون وما أنت فيه من الإقلال، فإن مع العسر يسراً في الدنيا عاجلاً. ثم أنجز ما وعده فلم يمت حتى فتح عليه الحجاز وما والاها من القرى العربية وعامة بلاد اليمن، فكان يعطي المثنين من الإبل ويهب الهبات السنية، ويعد لأهله قوت سنته^(١) فهل كان بين الضحى والشرح من التحديث بنعمة النبوة منه ﷺ ما جرّ المشركين إلى اقتراح تقديم المال إليه ردعاً له عن دعوته؟!

السورة الثالثة عشرة - «العصر»:

وقال الطبرسي: قيل: المراد بالإنسان هو الوليد بن المغيرة وأبو جهل^(٢) ونسب السيوطي إلى ابن عباس القول بأنه أبو جهل^(٣). وعلى هذا فلا يخلو قوله ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عن تعريض به أو بهما إذ كانا يتواصيان بالباطل والصبر عليه في مواجهة الحق. وهذا أيضاً مما يقتضي الإعلان، كما يقتضيه إطلاق قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

السورة الرابعة عشرة - «العاديات»:

إنما علّقنا علامة استفهام على كون سورة العاديات هي الرابعة عشرة نزولاً، لأنها كذلك حسب الخبر المعتمد في ترتيب نزول السور^(٤).

إلا أن القمي والكوفي في تفسيريهما^(٥) والمفيد في إرشاده^(٦) والطوسي في أماليه^(٧) رووا مدنية السورة عن سلمان وأبي ذر وابن عباس والباقر والصادق عليه السلام، ونقل الطوسي في تفسيره عن الضحاك مدنيتهما، وعن ابن عباس وتلامذته مجاهد وقتادة وعطاء: أن العاديات الضابحات والمثيرات نقعاً والموريات قدحاً كلّها

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٨١٥ .

(١) مجمع البيان ١٠ : ٧٧٢ .

(٤) التمهيد ١ : ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٣) الدر المنثور ٦ : ٣٩١ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٤٣٤ و ٤٣٨ والفرات الكوفي : ٥٩٩ الحديث ٧٦١ .

(٧) أمالي الطوسي : ٤٠٧ ، م ١٤ ، ح ٦١ .

(٦) الإرشاد ١ : ١٦٥ .

أوصاف الخيول المغيرات صباحاً بالمدينة، إذ لم يكن للمسلمين خيل بمكة. ومع كل ذلك نقل عن ابن عباس كونها مكة^(١)! فعكس الطبرسي عن ابن عباس وقتادة^(٢) ثم روى عن الصادق عليه السلام مدنيّتها وكذا عن عطاء وعكرمة والحسن ومجاهد والربيع ما يفيد مدنيّتها^(٣) وكذا في تاريخه عن بعض أهل السير^(٤)!

إلا أنّه في تفسيره روى عن عطاء عن ابن عباس خبراً في ترتيب نزول السور فعّد العاديات مكة، وآخر عن عكرمة والحسن البصري كذلك، وفي ثالث عن سعيد بن المسيب عن علي عليه السلام (كذا) كذلك^(٥) والراونية روى مدنيّتها^(٦) وكذا الساروي الحلبي عن مقاتل والزجاج ووکیع والسدي والثوري وأبي صالح عن ابن عباس، وعن أم سلمة^(٧). وكذا القرطبي في تفسيره عن أنس بن مالك وابن عباس وتلميذه قتادة^(٨) وقال ابن حجر: باسناد صحيح عن ابن عباس قال: ما ضبحت دابة إلا فرس أو كلب^(٩) فهو يصرّ على أن الضبح إنما هو للخيّل، ولم يكن بمكة قتال حتى تعدو الخيل ضبحاً وتُغير صبحاً فتثير نقعاً وتوري قدحاً! وعليه فنطوق السورة بأبي كونها مكة بل هي مدنية، نزلت سنة ثمان للهجرة في جمادي الثانية^(١٠). وعليه فنحن نستثنيها من الخبر المعتمد ونؤجل خبرها إلى حوادث الثامنة للهجرة^(١١).

السورة الخامسة عشرة - «الكوثر»:

قال القميّ في تفسير الكوثر: نهر في الجنة، أعطاه الله محمّداً عوضاً عن ابنه

(١) التبيان ١ : ٣٩٥، ٣٩٦.

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٨٠١.

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٨٠٢، ٨٠٣.

(٤) إعلام الوری ١ : ٣٨٣.

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٦١٢، ٦١٣.

(٦) الخرائج والجرائح ١ : ١٦٨.

(٧) مناقب آل أبي طالب ٣ : ١٦٦ و ١٦٧.

(٨) تفسير القرطبي، سورة العاديات.

(٩) فتح الباري ١٠ : ٣٥٧.

(١٠) الطبقات لابن سعد ج ١ : ٩٤. وانظر: عليّ إمام البررة ٣ : ١٢٩ - ١٨٠ للخرسان.

(١١) في المجلد الثالث : ١٦٠ : سرية وادي الرمل.

إبراهيم (كذا) وكان الرجل - في الجاهلية - إذا لم يكن له ولد سُمي أبتر، فدخل رسول الله المسجد وفيه عمرو بن العاص والحكم بن أبي العاص، فقال له عمرو: يا أبا الأبتري! (كذا) ثم قال عمرو: إني لأُشْنَأُ مُحَمَّدًا. أي: أبغضه، فأنزل الله على رسوله السورة^(١).

ونقله الطباطبائي في «الميزان» وعلّق عليه يقول: الخبر - على إرساله وإضماره - معارض لسائر الروايات^(٢) ثم لم يأخذ عليه ما فيه من تهافت في اسم ابن النبي المتوفى حيث ذكر إبراهيم ابن مارية القبطية المتوفى بعد الهجرة بالمدينة، ثم عرّج على معنى الأبتري في الجاهلية، ثم ذكر دخول الرسول إلى المسجد وفيه عمرو بن العاص وليس هو إلا المسجد الحرام بمكة. ثم ذكر أنّه قال له: يا أبا الأبتري بينما هو الأبتري، فيا لضعف النص!

وروى الدولابي في «الذرية الطاهرة» بسنده عن جابر الجعفي عن محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: كان القاسم ابن رسول الله ﷺ قد بلغ أن يركب الدابة ويسير على النجيب (الابل) فلما قبضه الله قال (العاص بن وائل السهمي): قد أصبح محمد أبتر من ابنه، فأنزل الله على نبيه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ عوضاً عن مصيبتك في القاسم ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ^(٣).

أمّا الطبرسي فقد روى عن ابن عباس: أنّه كان قد توفي عبد الله بن محمد ﷺ من خديجة، وكانوا يسمّون من ليس له ابن: أبتر، واتفق أن التقى العاص بن وائل السهمي عند باب بني سهم برسول الله وهو يخرج من المسجد

(١) تفسير القمي ٢: ٤٤٣.

(٢) الميزان ٢٠: ٣٧٣.

(٣) الذرية الطاهرة: ٦٧.

فتحدثا، وكان أناس من صناديد قريش جلوساً في المسجد، فلما دخل العاص سألوه : من كنت تتحدث معه ؟ قال : ذلك الأبتَر، فسَمَّته قريش بالأبتَر^(١).

وجاء مختصر الخبر عنه في «الدر المنثور» قال : مات عبد الله، فقال العاص بن وائل السهمي، قد انقطع نسله فهو أبتَر، فأنزل الله ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾^(٢).

ولكنه أخرج عن الصادق عليه السلام قال : توفي «القاسم» ابن رسول الله بمكة، فمرَّ رسول الله - صلى الله عليه وآله - عليه [وآله] وسلم - وهو آتٍ من جنازته على العاص بن وائل وابنه عمرو، فقال (عمرو) حين رأى رسول الله : إني لأشنؤه ! فقال العاص بن وائل : لا جرم لقد أصبح أبتَر، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾^(٣).

يمتاز هذا الخبر عما مرَّ بذكر عمرو بن العاص وأنه هو الشانيء الأبتَر وإن كان أبوه العاص هو النابز للنبي بلقب الأبتَر، ويؤيده ما في «الاحتجاج» للطبرسي عن الحسن بن علي عليه السلام في حديث يخاطب فيه عمرو بن العاص يقول له : ثمَّ قت خطيباً وقلت : أنا شانيء محمدأ، وقال : العاص بن وائل (ولم يقل : أبوك لأنه عاهر) : إِنَّ مُحَمَّدًا رَجُلٌ لَا وَلَدَ لَهُ فَلَوْ قَدْ مَاتَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ. فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾^(٤).

فالخبران الأولان عن ابن عباس إنما ذكرا نابز النبي بلقب الأبتَر وأنه كان العاص بن وائل أبا عمرو بن العاص، ثمَّ لم يذكر الشانيء له عليه السلام المجاهر له الشنآن. والخبران الآخران عن الصادق والمجتبي عليه السلام ذكراهما، فلا منافاة بينهما، ولعلَّ ابن عباس سالم عمرو بن العاص أو اتقاه فاكتفى بذكر أبيه دونه.

(١) مجمع البيان ١٠ : ٨٣٦.

(٢ و ٣) الدر المنثور ٦ : ٤٠١، سورة الكوثر.

(٤) الاحتجاج ١ : ٤١١، ط. النجف الأشرف.

كما فعل كذلك السدي فقال : كانت قريش اذا مات ذكور الرجل تقول : بتر فلان والأبتر : الفرد ! فلما مات ولد للنبي قال العاص بن وائل : بتر الرجل^(١).
وكما فعل ابن إسحاق قال : بلغني أنه كان العاص بن وائل السهمي اذا ذكر رسول الله قال : دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، لو مات لانقطع ذكره واسترحم منه . فأنزل الله في ذلك : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ أي ما هو خير لك من الدنيا وما فيها^(٢). وهذا يقتضي أن ذلك كان بعد وفاة عبد الله والقاسم كليهما ، وقد مرّ في أولاده ﷺ أن القاسم كان الأكبر فعبد الله بعده في الإسلام ، ومرّ أيضاً أنه هو الميت رضيعاً ، وهنا مرّ عن الباقر عليه السلام أن القاسم بلغ أن يركب الدابة ويسير على الابل ، فيكون موته بعد عبد الله في الإسلام أيضاً .
والذي تشير اليه السورة وتدلّ عليه الأخبار التاريخية والتفسيرية هو أيضاً ممّا يقتضي الإعلان لا الكتمان ، بل المجاهرة بالإحسان والشنآن ، والحنق والعدوان .

السورة السادسة عشرة - «التكاثر»:

روى الطبرسي عن مقاتل والكلبي قالاً : نزلت في حيّين من قريش : بني عبد مناف بن قصي ، وبني سهم بن عمرو ، تكاثروا وعدّوا أشرافهم ، فكثرتهم بنو عبد مناف ، ثمّ قالوا : نعدّ موتانا ! حتّى زاروا القبور فعّدّوهم قالوا : هذا قبر فلان وهذا قبر فلان ، فكثرتهم بنو سهم لأنّهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية^(٣) فنزلت السورة . وعليه فلا يصح ما قيل من مثل ذلك في الأنصار أو اليهود ممّا يقتضي مدنية السورة .

(١) الميزان ٢٠ : ٣٧٢ .

(٢) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٣٤ . وانظر الميزان ٢٠ : ٣٧٠ في معنى الكوثر .

(٣) جمع البيان ١٠ : ٨١١ .

ولا ننسى هنا ما كان من معاوية وبني أمية وبني مروان وقريش عموماً من العداة
للأنصار، مما يدفعهم الى أن يعطفوا ما كان من الذم القرآني عليهم الى من سواهم
ولا سيما الأنصار وفيهم الأوتار.

السورة السابعة عشرة - «الماعون»:

روى الطبرسي عن ابن جريج قال: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان
ينحر في كل أسبوع جزورين، فأتاه يتيم فسأله شيئاً فقرعه بعصاه. وعن السدي
ومقاتل بن حيان قالا: نزلت في الوليد بن المغيرة. وعن الكلبي قال: نزلت في
العاص بن وائل السهمي. وعن عطاء عن ابن عباس قال: نزلت في رجل من
المنافقين^(١) وأظن هنا في عطاء أنه قد ناله في هذا القول عطاء بني أمية أو أصابه
سهم من سهام وزرائهم من بني سهم، ليعطف عنهم ذمماً قرآنياً مكياً الى رجل من
المنافقين في المدينة.

وفي السورة آية: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ
هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ مما يشير الى وجود مصليين وفيهم مراؤون، فهل
يتفق هذا وقول ابن إسحاق: أنهم قبل اعلان الدعوة كانوا إذا أرادوا الصلاة ذهبوا
الى شباب مكة فاستخفوا بصلاتهم فيها؟ فمن كان يراني لمن؟

السورة الثامنة عشرة - «الكافرون»:

روى المفيد في أماليه بسنده عن ابن إسحاق مسنداً قال: إن نفراً من قريش
منهم: أمية بن خلف، والعاص بن سعيد، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة اعترضوا
لرسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هلمّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن
وأنت في الامر، فإن يكن الذي نحن عليه الحق فقد أخذت منه بحظك منه،

وإن يكن الذي أنت عليه الحق فقد اخذنا بحظنا منه ! فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ إلى آخر السورة^(١).

وروى مثله الطبرسي في « مجمع البيان » وزاد :

فعدل رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملائكة من قريش ، فقام على رؤوسهم ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا عند ذلك فآذوه وآذوا أصحابه^(٢).

وقال ابن إسحاق في السيرة : بلغني أنه اعترض رسول الله وهو يطوف بالكعبة : الأسود بن المطلب ، والوليد بن المغيرة ، وأمّية بن خلف ، والعاص بن وائل السهمي ، وكانوا ذوي أسنان في قومهم فقالوا : يا محمد هلمّ فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيراً ممّا نعبد كنّا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً ممّا تعبد كنت قد أخذت بحظك منه . فأنزل الله فيهم : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾^(٣).

وروى الطبري بسنده عن ابن عباس قال : إنّ قريشاً وعدوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، وقالوا له : هذا لك عندنا يا محمد وكفّ عن شتم آلهتنا فلا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل فإنّا نعرض عليك خصلة واحدة فهي لك ، ولنا فيها صلاح . قال : ما هي ؟ قالوا : تعبد آلهتنا اللات والعزى سنة ، ونعبد إلهك سنة ! فقال النبي : حتى أنظر ما يأتي من عند ربّي !

(١) أمالي المفيد : ٢٤٦ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٨٤٠ .

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٨٨ .

فجاء الوحي من اللوح المحفوظ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾^(١). وعليه فهذه هي بداية أذية المشركين للرسول والمسلمين، وهي تقتضي الإعلان لا الكتمان. وكأن أذى أبي لهب وزوجته للرسول من قبل كان خاصاً به وبهما فاختصت السورة بهما.

السورتان العشرون والواحدة والعشرون - «المعوذتان»:

قال القمي : حدثني أبي، عن بكر بن محمد، عن الصادق عليه السلام قال : كان سبب نزول المعوذتين أنه وعك رسول الله ﷺ فنزل جبرئيل بهاتين السورتين فعوّذه بهما^(٢).

وروى الطبرسي عنه عليه السلام قال : جاء جبرئيل الى رسول الله ﷺ وهو شاك، فرقاه بالمعوذتين و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وقال : باسم الله أرقيك، والله يشفيك من كل داء يؤذيك، خذها فلتُهنّيك^(٣).

وروى عن أبيه الباقر عليه السلام قال : إن رسول الله ﷺ اشتكى شكاوى شديدة ووجع وجعاً شديداً، فأتاه جبرئيل وميكائيل، فقعده جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجله، فعوّذه جبرئيل بـ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾، وعوّذه ميكائيل بـ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾^(٤).

وعن كتاب «طب الأئمة» عن الصادق عليه السلام : أن جبرئيل أتى النبي ﷺ وقال له : إن فلاناً اليهودي سحرَكَ، ووصف له السحر وموضعه، فبعث النبي ﷺ علياً عليه السلام حتى أتى القلب فبحث عنه فلم يجده، ثم اجتهد في طلبه حتى وجدته فأتى به النبي ﷺ وإذا هو حقة فيها قطعة كرب نخل، في جوفه وتُرّ عليها إحدى عشرة

(١) الطبري ٢ : ٣٣٧.

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٥٠.

(٣ و ٤) مجمع البيان ١٠ : ٨٦٧.

عقدة، وكان جبرئيل عليه السلام قد انزل المعوذتين، فأمر النبي عليه السلام أن يقرأهما على الوتر، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى فرغ منها، فكشف الله عن نبيه ما سحر به وعافاه^(١).

وفي «الخرائج والجرائح» للقطب الراوندي قال: إن امرأة من اليهود عملت له سحراً فظننت أنه ينفذ فيه كيدها. والسحر باطل مُحال، إلا أن الله دله عليه فبعث من استخرجه، وكان على الصفة التي ذكرها وعلى عدد العقد التي عُقد فيها ووصف، مالو عاينه معاين لغفل عن بعض ذلك^(٢).

ولعله أخذ القول باليهودية مما اختصره ابن جزى الكلبي في «التسهيل» قال: قيل: إن بنات «لبيد» كنّ ساحرات، فهنّ - وأبوهنّ - سحرن رسول الله وعقدن له إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله المعوذتين: إحدى عشرة آية بعدد العقد، وشفى الله رسوله^(٣).

وشاء الراوي - في خبر آخر - أن يحذف اسمه ويكتفي بوصفه باليهودية فقال: سحر النبي عليه السلام يهودي فاشتكى، فأتاه جبرئيل بالمعوذتين وقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، والسحر في بئر فلان. فأرسل علياً عليه السلام فجاء به، فأمره أن يحل العقد ويقرأ آية، فجعل يقرأ ويحلّ حتى قام النبي عليه السلام كأنما نشط من عقال^(٤).

وأخرج مفصله البيهقي في «دلائل النبوة» عن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن عائشة قالت: كان لرسول الله غلام يهودي يخدمه يقال له: لبيد بن أعصم، فلم تزل به اليهود حتى سحر النبي عليه السلام، فكان يذوب (أو: يدور)

(١) طب الأئمة: ١١٨.

(٢) الخرائج والجرائح ١: ٣٤، الحديث ٣٣ وعنه في بحار الأنوار ١٨: ٥٧.

(٣) التسهيل ٤: ٢٢٥.

(٤) الدر المنثور ٦: ٤١٧.

ولا يدري ما وجعه . فبينما رسول الله ذات ليلة نائم إذ أتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله فقال الأول للثاني : ما وجعه ؟ قال : مطبوب (أي مسحور) قال : من طبّه ؟ قال : لبيد ابن أعصم ؟ قال : بيم طبّه ؟ قال : بمشط ومشاطة وجفّ طلعة نخل ذكر بذى أروان (بئر) وهي تحت راعوفة البئر (الصخرة على فم البئر).

فلما أصبح رسول الله غدا ومعه أصحابه إلى البئر فنزل رجل (؟) فاستخرج الجف، فإذا فيها مشط رسول الله ومن مشاطة رأسه (شعر رأسه) وإذا تمثال من شمع تمثال رسول الله وإذا فيها أبر مغروزة، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة . فأتاه جبرئيل بالمعوذتين فقال : يا محمد ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ وحلّ عقدة، ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾، وحلّ عقدة، حتى فرغ منها وحل العقد كلها، وجعل لا ينزع ابرة إلا يجد لها المأثم يجد بعد ذلك راحة، فقيل : يا رسول الله لو قتلت اليهودي؟! فقال : قد عافاني الله، وما وراءه من عذاب الله أشد^(١).

وقد قالوا : إنّ أوهى الطرق إلى ابن عباس هو طريق الكلبي عن أبي صالح عنه^(٢) وابن عباس رواه عن عائشة، وإنّ أوهم الطبرسي فقال : عن ابن عباس وعائشة^(٣) ولكن عائشة من أين علمت وأخبرت عن الملكين؟ ونجد الجواب فيما رواه الشيخان في الصحيحين عنها قالت : سحر رسول الله رجل من يهود بني زُرَيْق يقال له : لبيد بن الأعصم، حتى كان يخيل إليه أنّه يفعل الشيء وما يفعله! حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة دعا رسول الله ثمّ دعا ثمّ دعا. ثمّ قال : يا عائشة : جاءني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي

(١) كما في الدر المنثور ٦ : ٤١٧ .

(٢) الإتيان ٢ : ١٨٩ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٨٦٥ .

عند رأسي للذي عند رجلي : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب ، قال : من طبّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، قال : في أي شيء ؟ قال : في مشط ومشاطة ، وجف طلعة نخل ذكر قال : فأين هو ؟ قال : في بئر ذي أروان (أو : ذروان) .

قالت : فأتاها رسول الله في أناس من أصحابه ثم رجع وقال : يا عائشة ، والله لكان ماءها نُقاعة الحِناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين . فقلت : هلا استخرجته ؟ فقال : لا ، أمّا أنا فقد شفاني الله ، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً (!) ثم أمر بالبئر فدفنت^(١) .

وعليه بنى السيوطي فقال : المختار أن المعوذتين مدينتان لانهما نزلتا في قصّة سحر لبيد بن الأعصم^(٢) ولعل اليعقوبي عدّهما من أواخر المدينيات لذلك أيضاً^(٣) . ومرّ في خبر «الدر المنثور» و«طب الأئمة» أن الرسول أرسل علياً فجاءه بالسحر ، وفي خبر «الصحيحين» و«دلائل النبوة» أنّه خرج مع ناس من أصحابه فنزل اليه رجل منهم فاستخرج السحر ، وأمر بالبئر فطمّت ، ومن الطبيعي القطعي أن ينقطع لبيد بعد ذلك عن خدمته ، ومع ذلك لم يُرو الخبر عن غير ابن عباس عن عائشة !

والغريب أن ابن عباس كأنّه لم ير في الخبر تنافياً مع ما رواه في ترتيب نزول السور وأن المعوذتين من أوائل المكّيات لا من أواخر المدينيات !^(٤) .

أمّا الأخبار الثلاثة الأول عن القمي عن الصادق عليه السلام وعن الطبرسي عنه ، وعن الباقر عليه السلام ، فهي خلو ممّا ينافي شأن النبي ومكّية السورتين ، وأمّا الخبر

(١) البخاري ٤ : ١٤٨ و ٧ : ١٧٦ ومسلم ٧ : ١٤ .

(٢) الإتيقان ١ : ١٤ .

(٣) اليعقوبي ٢ : ٤٣ .

(٤) التمهيد ١ : ١٠٣ وتلخيصه ١ : ٩٥ .

الرابع عن «طب الأئمة» عن الصادق عليه السلام فهو عن الفضل بن عمر ومحمد بن سنان المطعونين بالتضعيف، ولا أراه إلا متسرّباً من غيرهم عليهم السلام.

السورة الثانية والعشرون - «التوحيد»:

قال القمي في تفسيره: كان سبب نزولها: أن اليهود جاءت الى رسول الله فقالت: ما نسب ربك؟ فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١).

ورواه الكليني في «الكافي» بسنده عن الصادق عليه السلام قال: إن اليهود سألو رسول الله فقالوا: انسب لنا ربك. فلبث ثلاثاً لا يجيبهم ثم نزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الى آخرها^(٢) ورواه الطبرسي في «جمع البيان»^(٣).

وفي «الإحتجاج» للطبرسي عن العسكري عليه السلام أن السائل هو عبد الله بن سوريا اليهودي^(٤).

وروى الطبرسي عن الضحاك وقتادة ومقاتل قالوا: جاء أناس من أحبار اليهود الى النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: يا محمد صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك، فإن الله أنزل نعته في التوراة. فنزلت السورة^(٥).

الى هنا تبدو هذه الأخبار وكأنها تستلزم مدنية السورة، ولكن روى الطبرسي عن تفسير القاضي ما يدفع هذه الدلالة قال: إن عبد الله بن سلام انطلق الى رسول الله وهو بمكة، فقال له رسول الله: أنشدك بالله هل تجدني في التوراة رسول الله، فقال: انعت لنا ربك. فنزلت هذه السورة فقرأها النبي صلى الله عليه وآله.

(١) تفسير القمي ٢ : ٤٤٨.

(٢) كما في الميزان ٢٠ : ٣٩٠.

(٣) جمع البيان ١٠ : ٨٥٩.

(٤) كذا في الميزان ٢٠ : ٣٩٠ عن الإحتجاج، ولم أجده فيه في أخبار العسكري عليه السلام.

(٥) جمع البيان ١٠ : ٨٥٩.

فكانت سبب إسلامه إلا أنه كان يكتُم ذلك إلى أن هاجر النبي إلى المدينة ثم أظهر الإسلام^(١) فلعلّه كان هو وعبد الله بن صوريّا اليهودي كما مر عن خبر «الاحتجاج» عن العسكري عليه السلام.

ولكن روى القمي أيضاً عن الضحّاك عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبي بمكة : صف لنا ربك لنعرفه فنعبده . فأنزل الله على النبي ﷺ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾^(٢) وروى الطبرسي تفصيله عنه أيضاً قال : إنّ عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة - أخا لبيد الشاعر - أتيا النبي ﷺ ، فقال له عامر ابن الطفيل : إلى ما تدعونا يا محمد ؟ فقال : إلى الله فقال : صفه لنا أمن ذهب هو أم من فضة أم من حديد أم من خشب ؟ فنزلت السورة . وأرسل الله الصاعقة على أربد فأحرقتة وطعن عامر في خنصره فمات^(٣).

وقد يُجمع بينهما بأنّ النبي ﷺ تلى التوحيد عليهم ، فاستهزأوا به فنزل العذاب بهم ، أمّا نزول السورة فقد كان من قبل لليهود القادمين إليه من المدينة ، فلا تنافي.

وفي إتيان اليهود إليه من المدينة دلالة على انتشار خبره وبلوغه إليها ، وهذا أيضاً ممّا لا يتلاءم مع دور الكتمان ، بل الإعلان.

السورة الثالثة والعشرون - «النجم» ومعراج الرسول ﷺ :

قال القمي : النجم رسول الله و ﴿ إِذَا هَوَى ﴾ أي لما أسري به إلى السماء . فهو قسم برسول الله وردّ على من أنكر المعراج^(٤).

(١) مجمع البيان ١٠ : ٨٥٩ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٤٨ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٨٥٩ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٣٣ . وجاء في اللغة : هوى في الجبل أي صعد فيه ، فهوى من الأضداد .

ولعله أخذ ذلك من خبر رواه الطبرسي عن الصادق عليه السلام قال : ان محمداً صلّى الله عليه وآله لما نزل من السماء السابعة ليلة المعراج ^(١) مع ما بين النصين من الفرق .
وروى القمي عن الصادق عليه السلام قال : بينا رسول الله صلّى الله عليه وآله راقداً بالأبطح وعلى يمينه علي عليه السلام وعن يساره جعفر وحمزة بين يديه ... إذ أدركه إسرافيل بالبراق وأسرى به إلى بيت المقدس وعرض عليه محاريب الأنبياء وآيات الأنبياء ، فصلّى فيها ، وردّه من ليلته إلى مكة . فمرّ في رجوعه بعير لقريش وإذا لهم ماء في آنية فشرب منه وأهرق باقي ذلك . وقد كانوا أضلوا بعيراً لهم وكانوا يطلبونه .

فلما أصبح صلّى الله عليه وآله قال لقريش : إنّ الله قد أسرى بي في هذه الليلة إلى بيت المقدس ، فعرض عليّ محاريب الأنبياء وآيات الأنبياء ، وإنّي مررت بعير لكم في موضع كذا وكذا وإذا لهم ماء في آنية فشربت منه وأهرقت باقي ذلك ، وقد كانوا أضلوا بعيراً لهم .

فقال أبو جهل - لعنه الله - : قد أمكنكم الفرصة من محمد ، سلوه كم الأساطين فيها والقناديل . فقالوا : يا محمد إنّها هنا من قد دخل بيت المقدس ، فصف لنا كم أساطينه وقناديله ومحاريبه ؟ فجاء جبرئيل فعلق صورة بيت المقدس تجاه وجهه فجعل يخبرهم بما سألوه . فلما أخبرهم قالوا : حتّى تجيء العير ونسألهم عما قلت . فقال لهم : وتصديق ذلك أنّ العير تطلع عليكم مع طلوع الشمس يقدمها جمل أحمر . فلما أصبحوا أقبلوا ينظرون إلى العقبة ويقولون : هذه الشمس تطلع الساعة . فبينما هم كذلك إذا طلعت العير مع طلوع الشمس يقدمها جمل أحمر . فسألوهم عما قال رسول الله ، فقالوا : لقد كان هذا : ضلّ جمل لنا في موضع كذا وكذا ،

ووضعنا ماءً بارداً وأصبحنا وقد أهریق الماء . فلم يزدھم ذلك إلا عتواً^(١) .
رواه القميّ مرسلأً بلا إسناد، ورواه الصدوق في أماليه عن أبيه عن
القميّ عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبان بن عثمان بن الأحمر البجلي عن
الصادق عليه السلام^(٢) .

هذا الخبر كما مرّ ذكر الإسراء من مكّة الى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس
فقط ولم يذكر عروجه ﷺ منه الى السماوات العلى .

وقال الطبرسي : فمن جملة الأخبار الواردة في قصّة المعراج ما روي : أن
النبي ﷺ قال : أتاني جبرئيل عليه السلام وأنا بمكّة فقال : قم يا محمّد . فقمّت معه
وخرجت الى الباب فإذا جبرئيل ومعه ميكائيل وإسرافيل ، فأقْبَحُ جبرئيل عليه السلام
بالبراق ... فقال : اركب ، فركبت ومضيت حتّى انتهيت الى بيت المقدس . ثمّ ساق
الحديث الى أن قال : ثمّ أخذ جبرئيل عليه السلام بيدي الى الصخرة فأقعدي عليها ، فإذا
معراج الى السماء لم أر مثلها حسناً وجمالاً ، فصعدت الى السماء الدنيا ورأيت
عجائبها وملكوّتها ... ثمّ صعد بي جبرئيل الى السماء الثانية ... ثمّ صعد بي الى السماء
الثالثة ... ثمّ صعد بي الى السماء الرابعة ... ثمّ صعد بي الى السماء الخامسة ... ثمّ صعد
بي الى السماء السادسة ... ثمّ صعد بي الى السماء السابعة ... ثمّ جاوزناها متصاعدين
الى أعلى عليّين . ووصف ذلك الى أن قال : ثمّ كلّمني ربّي وكلمّته ، ورأيت الجنة
والنار ، ورأيت العرش ، وسدرة المنتهى .

(١) تفسير القميّ ٢ : ١٣ ، ١٤ ورواه الطبرسي في إعلام الوريّ ١ : ١٢٤ . ومختصره في الكافي
٨ : ٢٦٢ ، الحديث ٣٧٦ ، والخرائج والجرائح ١ : ٢٤ ، الحديث ٤ و ١٤٠ و ٢٢٨ وعن
علي عليه السلام وفيه أن ذلك كان بعد ثلاث سنين من مبعثه .

(٢) أمالي الصدوق : ٣٦٣ . وروى بعده خبراً باسناده الى عبد الرحمن بن غنم في الإسراء
والمعراج ، قريب من سابقه . وفي : ٤٨٠ روى خبراً آخر عن الباقر عليه السلام .

ثم رجعت إلى مكة، فلما أصبحت حدثت به الناس فكذبني أبو جهل والمشركون، وقال مطعم بن عدي: أتزعم أنك سرت مسيرة شهرين في ساعة؟! أشهد أنك كاذب! ثم قالوا: أخبرنا عما رأيت. فقال مررت بعير بني فلان وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه وفي رحلهم قعب مملوء من ماء فشربت الماء ثم غطيته كما كان. قال: ومررت بعير بني فلان فنفرت بكرة فلان فانكسرت يدها قالوا: فأخبرنا عن عيرنا. قال: مررت بها بالتنعيم يتقدمها جمل أورق (بين الغبرة والسواد) عليه قرارتان محيطتان، ويطلع عليكم عند طلوع الشمس.

قالوا: فخرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون: لقد قضى محمد بيننا وبينه قضاءً بيناً وجلسوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذبوه. فقال قائل: والله إن الشمس قد طلعت، وقال آخر: والله هذه الإبل قد طلعت يقدمها بعير أورق. فبهتوا ولم يؤمنوا^(١).

ورواه محمد بن إسحاق عن أم هانئ بنت أبي طالب - رضي الله عنهما - قالت: إن رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم - ليلة أسري به صلى العشاء الآخرة في بيتي ثم نام عندي تلك الليلة في بيتي ونمنا. فلما كان قبيل الفجر أيقظنا رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم -، فلما صلى الصبح وصلينا معه (كذا) قال: يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الدار ثم ذهبت إلى بيت المقدس فصليت فيه ثم ها أنا قد صليت معكم الآن صلاة الغداة كما ترين. ثم قام ليخرج، فأخذت بطرف رداءه فقلت له: يا نبي الله لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك! قال: والله لأحدثنهم به.

فقلت لجارية لي حبشية : ويحك اتبعي رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم - حتى تسمعي ما يقول الناس وما يقولون له . فقالت : لما خرج رسول الله الى الناس أخبرهم فعجبوا وقالوا : ما آية ذلك يا محمد ؟ فإننا لم نسمع بمثل هذا قط ! قال : آية ذلك : أنني مررت وأنا متوجه الى الشام بعير بني فلان بوادي كذا وكذا فانفرهم حسّ الدابة فشذّ عنهم بعير فدللتهم عليه . ثم أقبلت حتى اذا كنت بوادي ضجّنان (على بريد من مكة بوادي تهامة) مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً ، ولهم إناء فيه ماء قد غطّوا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطّيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب من البيضاء ثنية «التنعيم» يقدمها جمل أورك (بين الغبرة والسواد) عليه غرارتان : احداها سوداء والآخرى بألوان مختلفة .

قالت (أمّ هاني عن جاريتهما) فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم شيء قبل الجمل كما وصف لهم ، وسألوهم عن الإناء فأخبروهم أنّهم وضعوه مملوءاً ماءً ثم غطّوه وأنّهم هبّوا (من نومهم) فوجدوه مغطّى كما غطّوه ولم يجدوا فيه ماءً ، وسألوا الآخرين وهم بمكة ، فقالوا : صدق والله ، لقد أنفّرنا في الوادي الذي ذكر ، وندّ لنا بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا اليه حتى أخذناه^(١) .

وفي تمام الخبر السابق عن الصادق عليه السلام قال : لما نزلت السورة وأخبر بذلك عتبة بن أبي لهب فجاء الى النبي ﷺ وتفل في وجهه وقال : كفرت بالنجم وبرب النجم ، وطلّق ابنته ﷺ . فدعا عليه وقال : اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك . فخرج عتبة الى الشام فنزل في بعض الطريق ، وألقى الله عليه الرعب فقال لأصحابه : أنيموني بينكم ليلاً . ففعلوا ، فجاء أسد فافترسه من بين الناس .

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٤٣ ، ٤٤ .

وفي ذلك قال (بعد ذلك) حسان :

سائل بني الأصفر إن جئتهم	ما كان أنباء بني واسع
لا وسّع الله له قبره	بل ضيق الله على القاطع
رمى رسول الله من بينهم	دون قريش، رمية القاذع
واستوجب «الدعوة» منه بما	بُيِّنَ للناظر والسامع
فسلّط الله به «كلبه»	يمشي الهوينا مشية الخادع
والتقم الرأس بيافوخه	والنحر منه قفزة الجائع
من يرجع العام الى أهله؟	فما «أكيل السبع» بالراجع
قد كان هذا لكم عبرة	للسيد المتبوع والتابع ^(١) .

وعن قولهم له : صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا في طريق الشام وغير ذلك، ممّا جادلوه به عبّر الله تعالى بقوله سبحانه : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ * أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴿^(٢) وفي السورة قوله سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿^(٣) وقد مرّ في الخبر السابق عن النبي ﷺ أنّه سمّي من المكذّبين لحديثه عن إسرائه ومعراجّه : أبا جهل ومطعم بن عدي . ثمّ مرّ خبر عتبة بن أبي لهب وأنّه كان أشدهم تكذيباً له . فهل الآية تشير الى أحد هؤلاء المكذّبين ؟

سمّي المفسّرون أحد ثلاثة أشخاص من صناديد مشركي قريش مصداقاً لهذه الآية ، وخبراً رابعاً تسمي مسلماً مصداقاً معيّناً لها . ليس إلاّ واحداً من الثلاثة المشركين المذكوراً في المكذّبين لحديث الرسول عن إسرائه ومعراجّه هو أبو جهل ،

(١) مجمع البيان ١٠ : ٢٦١ .

(٢) النجم : ١١ ، ١٢ . والآيات : ١٩ - ٢١ يتعلق بها قصة الغرانيق ، وراجع ١ : ٣٣ .

(٣) النجم : ٢٣ - ٢٥ .

فيما نقله الطبرسي عن محمد بن كعب القرظي : أن الآية في أبي جهل ، وذلك أنه قال :
والله ما يأمرنا محمد إلا بمكارم الأخلاق ! فذلك قوله سبحانه : ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا
وَأَكْدَى ﴾ أي أعطى قليلاً من نفسه تصديقاً ثم لم يؤمن . وعن السدي قال : نزلت في
العاص بن وائل السهمي وذلك أنه كان يوافق رسول الله في بعض الأمور . وعن
مجاهد وابن زيد قالا : نزلت في الوليد بن المغيرة .

وعن الكلبي عن السدي عن ابن عباس : أن عثمان بن عفان كان ينفق
ويتصدق من ماله ، فقال له أخوه من الرضاعة : عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ما
هذا الذي تصنع ؟ يوشك أن لا يبقى لك شيء ! فقال عثمان : إن لي ذنباً واني أطلب
بما أصنع رضا الله وأرجو عفوه . فقال له عبد الله : أعطني ناقتك وأنا أحمّل عنك
ذنوبك كلها ! فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن الصدقة ، فنزلت : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي
تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا ﴾ ثم قطع نفقته ، الى قوله : ﴿ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى ﴾^(١) .

وهذا الخبر دلّ - فيما دلّ - على إسلام عثمان ، كما دلّ الخبر السابق عن تفسير
القمي في إسرائ النبي ﷺ على إسلام حمزة أيضاً ، كما دلّ خبر ابن إسحاق عن أم
هاني بنت أبي طالب على إسلامها ، فلنمرّ على أخبار إسلام حمزة وعثمان .

إسلام حمزة عم النبي ﷺ :

أما إسلام حمزة : فكذلك فعل الطبرسي في «اعلام الوري» إذ جعله الخبر
السابق لخبر إسرائه ﷺ الى بيت المقدس ، نقلاً عن علي بن إبراهيم ابن هاشم
باسناده قال : كان أبو جهل قد تعرض لرسول الله وآذاه بالكلام ، واجتمعت
بنو هاشم وكان حمزة في الصيد فأقبل ونظر الى اجتماع الناس فقال : ما هذا ؟ فقالت

(١) جمع البيان ٩ : ٢٧١ وقبله الزمخشري في الكشاف ٤ : ٣٣ . ويعدّه الواحد في أسباب

له امرأة: يا أبا يعلى إن عمرو بن هشام (أبا جهل) قد تعرض لمحمد وآذاه. فغضب حمزة ومرّ نحو أبي جهل وأخذ قوسه فضرب بها رأسه ثم احتمله فجلده به الأرض. واجتمع الناس فقالوا: يا أبا يعلى صبوت الى دين ابن أخيك؟ قال: نعم، أشهد أن لا اله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله. على جهة الغضب والحمية. ورجع الى منزله. وغدا على رسول الله فقال: يا ابن أخٍ أحقّ ما تقول؟ فقرأ عليه رسول الله ﷺ سورة من القرآن فاستبصر، وثبت على دين الإسلام، وفرح رسول الله ﷺ، وسر أبو طالب بإسلامه وقال في ذلك:

فصبراً أبا يعلى على دين أحمد	وكن مظهراً للدين - وفقت - صابراً
وحط من أتى بالدين من عند ربّه	بصدق وحق، لا تكن - حمز - كافراً
فقد سرّني اذ قلت: إنك مؤمن	فكن لرسول الله - في الله - ناصراً
وناد قريشاً بالذي قد اتيته	جهاراً وقل: ما كان أحمد ساحراً ^(١) .

وروى الخبر ابن إسحاق عن رجل من أشلم قال: إنّ أبا جهل مرّ برسول الله عند الصفا فأذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ. ثمّ انصرف عنه فعمد الى نادٍ من قريش عند الكعبة فجلس معهم.

وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك. فلم يلبث أبو جهل حتّى أقبل حمزة بن عبد المطلب متوشحاً قوسه راجعاً من الصيد، وكان إذا رجع من ذلك لم يصل الى أهله حتّى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلّم وتحدث معهم، وكان أعزّ فتى في قريش وأشدّ شكيمة. وكان رسول الله قد رجع الى بيته. فلما مرّ حمزة بمولاة ابن جدعان قالت له: يا أبا عُمارة لو رأيت مالتى ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام:

وجده هاهنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد -صلى الله عليه [وآله] وسلم-.

فاحتمل حمزة الغضب... فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به. فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجّةً منكراً ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول، فرُدّ ذلك عليّ إن استطعت! فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عُمارة فإنّي والله قد سببت ابن أخيه سبّاً قبيحاً.

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أنّ رسول الله -صلى الله عليه [وآله] وسلم- قد عزّ وامتنع، وأنّ حمزة سيمنعه، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه^(١). وزاد المقدسي يقول: «عزّ به النبي -صلى الله عليه [وآله] وسلم- وأهل الإسلام، فشقّ ذلك على المشركين فعدلوا عن المنابذة إلى المعاتبة، وأقبلوا يرغبونه في المال والأنعام، ويعرضون عليه الأزواج»^(٢).

أمّا إسلام عثمان: فقد قال ابن إسحاق: بلغني أنّه أسلم بعد أبي بكر^(٣). وروى ابن عبد البرّ في «الاستيعاب» عن المدائني عن عمر بن عثمان عن أبيه: أنّه دخل على خالته أروى بنت عبد المطلب، فدخل رسول الله -صلى الله عليه [وآله] وسلم- فجعل ينظر إليه وقد ظهر شأنه، فجرى له معه حديث وقرأ عليه بعض الآيات ثمّ قام فخرج. قال عثمان: فخرجت خلفه فأدرّكته وأسلمت^(٤).

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ٣١١، ٣١٢.

(٢) البدء والتاريخ ٤: ١٤٨، ١٤٩ و ٥: ٩٨.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١: ٢٦٧.

(٤) الاستيعاب ٤: ٢٢٥.

وخبر ابن إسحاق يتضمن الدلالة على سبق إسلام أبي بكر، كما عدّه هو فيمن أسلم بعد علي عليه السلام وخديجة وزيد بن حارثة، وأنه أسلم بعد عثمان : الزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف الزهري، وسعد بن أبي وقاص الزهري، وطلحة بن عبيد الله التيمي وأنهم استجابوا لأبي بكر فجاء بهم الى رسول الله ﷺ فأسلموا وصلّوا.

وحيث جاء في عبارة ابن إسحاق أنهم استجابوا لأبي بكر فجاء بهم الى النبي ﷺ بينما لم يصرّح ابن إسحاق بأنهم أسلموا بدعوة أبي بكر، لذلك اضاف ابن هشام هذه الكلمة : «بدعائه» ثم نبّه عليه فقال : قوله «بدعائه» عن غير ابن إسحاق^(١) وهذا من أمانته، ولكنه اجتهد من ابن هشام، ولا دليل عليه، بل ظاهر قول ابن إسحاق أنهم إنما استجابوا لأبي بكر ليأتوا الى الرسول، وأنهم إنما أسلموا على يد الرسول نفسه، فالعبارة لا تدلّ على أنهم أسلموا بدعوة أبي بكر إياهم، بل هي في خلاف ذلك أظهر كما هو واضح.

وكما روى ابن عبد البر في «الاستيعاب» ما دلّ على عدم إسلام عثمان بدعوة أبي بكر بل بدعوة الرسول نفسه، كذلك روى المقدسي في «البدء والتاريخ» رواية مفادها أن طلحة ذهب بنفسه الى الرسول فأسلم، وقالوا : إنه كان في بصرى الشام، فسمع من راهب فيه خروج نبي في ذلك الشهر اسمه «أحمد» فلما قدم مكة سمع الناس يقولون : تنبأ محمد بن عبد الله، فأتى الى أبي بكر فسأله فأخبره ثم أدخله على رسول الله ﷺ فأسلم^(٢).

روى تفصيله الطبرسي عن «دلائل النبوة» بسنده عن إبراهيم بن محمد بن

(١) سيرة ابن هشام : ٢٦٦ - ٢٦٩.

(٢) البدء والتاريخ ٥ : ٨٢ والبدية والنهاية ٣ : ٢٩ ومستدرك الحاكم ٣ : ٣٦٩.

طلحة، عن أبيه عن جدّه طلحة بن عبيد الله التيمي قال : حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعته قال : سلوا أهل هذا الموسم : أفهم أحد من أهل الحرم؟ فقلت : نعم، أنا. فقال : قد ظهر أحمد أم بعد؟ قال : قلت : ومن أحمد؟ قال : ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، مخرجه من الحرم ومهاجره الى حرّة وسباخ ونخل. قال طلحة : فوقع في قلبي ما قال، فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة فقلت : هل كان من حدث؟ قالوا : نعم، محمد بن عبد الله الأمين قد تنبأ، وقد تبعه ابن أبي قحافة. قال : فخرجت حتى دخلت على أبي بكر فقلت : اتبعت هذا الرجل؟ قال : نعم فانطلق اليه وادخل عليه فإنه يدعو الى الحق. قال طلحة : فأخبرته بما قال الراهب. فخرج بي أبو بكر فدخل بي على رسول الله فأسلمت وأخبرته بما قال الراهب، فسرّ رسول الله بذلك.

قال الراوي : فلما أسلم أبو بكر وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية فشدّهما في حبل واحد فلم يمنعهما بنو تيم^(١) فهذا يؤيد قول ابن إسحاق دون ابن هشام. وقال المقدسي في «البدء والتاريخ» في إسلام سعد ابن أبي وقاص : كان سبب إسلامه أنّه قال : رأيت في المنام كأنّي في ظلام فأضاء قمر فاتبعته، فإذا أنا بعلي وزيد -وروي : فإذا أنا بزید وأبي بكر- قد سبقاني اليه. ثمّ بلغني أنّ رسول الله يدعو الى الإسلام مستخفياً، فلقيته بأجباد فأسلمت^(٢).

وأما الزبير بن العوّام : فقد نقل ابن أبي الحديد في «شرح النهج» عن «نقض العثمانية» لأبي جعفر الإسكافي أنّه قال : إنّ الزبير كان قد أسلم قبل أبي بكر^(٣).

(١) إعلام الوری ١ : ١٠٩ عن دلائل البیهقي ١ : ٤١٩.

(٢) البدء والتاريخ ٥ : ٨٥.

(٣) شرح النهج ١٣ : ٢٢٤.

وعلى هذا فلم يبق بمن أسماهم ابن إسحاق أو ابن هشام سوى عبد الرحمن بن عوف فقط . وقد نقل ابن إسحاق قسماً من أخبار الإسراء والمعراج عن عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري ، مما يدل على سبق إسلامهما أيضاً^(١) .

فرض الصلوات:

قال ابن إسحاق : وفيما بلغني من حديث عبد الله بن مسعود عن النبي - صلى الله عليه [وآله] وسلم - : أن جبرئيل انتهى به إلى السماء السابعة ثم انتهى به إلى ربه ففرض عليه خمسين صلاة كل يوم !

قال رسول الله : فأقبلت راجعاً ، فلما مررت بموسى بن عمران سألتني : كم فرض عليك من الصلاة ؟ فقلت : خمسين صلاة كل يوم . فقال : إن الصلاة ثقيلة وإن أمّتك ضعيفة ، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك وعن أمّتك . فرجعت فسألت ربي أن يخفف عني وعن أمّتي ، فوضع عني عشراً ، ثم انصرفت ، فررت على موسى فقال لي مثل ذلك ، فرجعت فسألت ربي فوضع عني عشراً ، ثم انصرفت فررت به على موسى فقال لي مثل ذلك ، فرجعت فسألته فوضع عني عشراً ، ثم لم يزل يقول لي مثل ذلك كلما رجعت إليه قال : فارجع فاسأل ، حتى انتهيت إلى أن وضع ذلك عني إلا خمس صلوات في كل يوم وليلة ، ثم رجعت إلى موسى فقال لي مثل ذلك فقلت : قد راجعت ربي وسألته حتى استحيت منه ، فما أنا بفاعل .

ثم قال : فمن أداهن منكم إيماناً واحتساباً لهن كان له أجر خمسين صلاة مكتوبة^(٢) وفي هذا المعنى الأخير روى الصدوق في «الخصال» بسنده عن الزهري عن أنس قال : فرضت على النبي ﷺ ليلة أسري به الصلاة خمسين ،

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٣٧ .

(٢) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٥ .

ثمّ نقصت فجعلت خمساً، ثمّ نودي : يا محمد ﴿ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ ﴾ إِنَّ لَكَ بهذه الخمس خمسين .

وفيه بسنده عن الصادق عليه السلام قال : لما خفف الله عن النبي صلى الله عليه وآله حتى صارت خمس صلوات، أوحى الله اليه : يا محمد خمس بخمسين .

وباسناده عن زيد بن علي عن سيّد العابدين قال : لما هبط رسول الله الى الأرض نزل عليه جبرئيل فقال : يا محمد، إِنَّ رَبَّكَ يُقَرِّتُكَ السَّلام ويقول : إِنَّهَا خمس بخمسين، ﴿ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾^(١).

وحكى علي بن إبراهيم بن هاشم القمي في تفسيره عن أبيه عن محمد ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ حَدَّثَ بِحَدِيثِ مِعْرَاجِ الرَّسُولِ عَنْ لِسَانِهِ إِلَى أَنْ قَالَ : ثُمَّ غَشِيَتْنِي صَبَابَةٌ (أو سحابة) فَخَرَرْتُ سَاجِداً فَنَادَانِي رَبِّي : إِنِّي قَدْ فَرَضْتُ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ كَانَ قَبْلَكَ خَمْسِينَ صَلَاةً، وَفَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ، فَقُمْ بِهَا أَنْتَ فِي أُمَّتِكَ .

قال رسول الله : فأنحدرت حتى مررت على إبراهيم فلم يسألني عن شيء، حتى انتهيت إلى موسى فقال : ما صنعت يا محمد؟ فقلت : قال ربّي : فرضت على كلّ نبيّ كان قبلك خمسين صلاة، وفرضتها عليك وعلى أمتك . فقال موسى : يا محمد إن أمتك آخر الأمم وأضعفها . وإنّ ربك لا يردّ عليك شيئاً، وإنّ أمتك لا تستطيع أن تقوم بها، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . فرجعت إلى ربّي حتى انتهيت إلى سدرّة المنتهى فخررت ساجداً ثمّ قلت : فرضت علي وعلى أمتي خمسين صلاة ولا أطيق ذلك ولا أمتي فخفف عني . فوضع عني عشراً . فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال : لا تطيق، فرجعت إلى ربّي، فوضع عني عشراً . فرجعت إلى موسى

(١) العلل : ٥٥، والأمال : ٢٧٥ والتوحيد : ١٧٦ والفتاوى : ١٩٧ ط الغفاري .

فأخبرته فقال : ارجع . وفي كل رجعة ارجع اليه آخر ساجداً ، حتى رجع الى عشر صلوات ، فرجعت الى موسى فأخبرته فقال : لا تطيق ، فرجعت الى ربي فوضع عني خمساً ، فرجعت الى موسى فأخبرته ، فقال : لا تطيق ، فقلت : قد استحييت من ربي ولكن أصبر عليها .

فناداني (ربي) : كما صبرت عليها فهذه الخمس بخمسين ، كل صلاة بعشر ، ومن همّ من أمّتك بحسنة يعملها كتبت له عشرة ، وإن لم يعملها كتبت واحدة . ومن همّ من أمّتك بسيئة فعلمها كتبت عليه واحدة ، وإن لم يعملها لم أكتب عليه شيئاً^(١) . ونقله الصدوق في «من لا يحضره الفقيه» مرسل^(٢) .

وبإسناده عن زيد بن علي قال : سألت أبي سيد العابدين عليه السلام فقلت له : يا أبا أخبرني عن جدنا رسول الله ﷺ لما عُرج به الى السماء وأمره ربه عز وجل بخمسين صلاة ، كيف لم يسأله التخفيف عن أمّته حتى قال له موسى بن عمران : ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فإن أمّتك لا تطيق ذلك ؟

فقال : يا بني إن رسول الله ﷺ لا يقترح على ربه عز وجل ولا يراجعه في شيء يأمره به ، فلما سأله موسى ذلك وصار شافعياً لأُمّته اليه لم يحز له ردّ شفاعته أخيه موسى ، فرجع الى ربه فسأله التخفيف ، إلى أن ردّها الى خمس صلوات .

فقلت له : يا أبت فلم لم يرجع الى ربه عز وجل ولم يسأله التخفيف من خمس صلوات وقد سأله موسى عليه السلام أن يرجع الى ربه عز وجل ويسأله التخفيف ؟ فقال : يا بني أراد ﷺ أن يحصل لأُمّته التخفيف مع أجر خمسين صلاة ، لقول الله عز وجل : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾^(٣) .

(١) تفسير القمي ٢ : ١٢ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ١ : ١٩٧ .

(٣) الأُمالي : ٣٧١ ، والتوحيد : ١٧٦ والعلل : ١٦١ ومن لا يحضره الفقيه ١ : ١٩٧ .

وقد تعرّض السيد المرتضى في «تنزيه الأنبياء» للمسألة فقال : إن قيل : فما الوجه في الرواية المشهورة : أن النبي ليلة المعراج لما خطب بفرض الصلاة راجع ربّه تعالى مرّة بعد أخرى حتّى رجعت إلى خمس ، وفي الرواية : أن موسى عليه السلام هو القائل له : إن أمتك لا تطيق هذا ، وكيف ذهب ذلك على النبي ﷺ حتّى نبّه موسى عليه ؟ وكيف يجوز المراجعة منه مع علمه بأن العبادة تابعة للمصلحة وكيف يجاب عن ذلك مع أن المصلحة بخلافه؟! ثمّ قال : أمّا هذه الرواية فهي من طريق الآحاد التي لا توجب علماً وهي مع ذلك مضعّفة^(١) ثمّ أجاب سائر الأسئلة بناءً على أن تكون الرواية صحيحة.

وقال اليعقوبي : وفي الليلة التي أسري به افتقده أبو طالب فخاف أن تكون قريش قد اغتالته أو قتلتها ، فجمع سبعين رجلاً من بني عبد المطلب معهم الشيفار ، وأمرهم أن يجلس كلّ رجل منهم إلى جانب رجل من قريش ، وقال لهم : إن رأيتموني ومحمّداً معي فأمسكوا حتّى آتيكم ، وإلاّ فليقتل كلّ رجل منكم جليسه ولا تنظروني . فوجدوه على باب أمّ هانيء ، فأتى به بين يديه حتّى وقف على قريش فعرفهم ما كان منه ، فأعظموا ذلك وجلّ في صدورهم ، وعاهدوه وعاقدوه أنّهم لا يؤذون رسول الله ولا يكون منهم إليه شيء يكرهه أبداً^(٢).

وقال ابن شهر آشوب : روي أنّه افتقده أبو طالب في تلك الليلة فلم يزل يطلبه ، ووجّه إلى بني هاشم يقول : يا لها من عظيمة إن لم أر رسول الله إلى الفجر ! فبينما هو كذلك إذ تلقّاه رسول الله وقد نزل من السماء على باب أمّ هانيء ، فقال له : انطلق معي .

(١) تنزيه الأنبياء : ١٢١ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٦ . ورواه الراوندي في الخرائج والجرائح ١ : ٨٥ ، الحديث ١٤٠ .

فأدخله بين يديه المسجد ودخل بنو هاشم، فسلّ أبو طالب سيفه عند الحجر وقال لبني هاشم: أخرجوا ما معكم يا بني هاشم! ثمّ التفت الى قريش فقال: والله لو لم أره ما بقيت منكم عين تطرف! فقالت قريش: لقد ركبنا عظيماً^(١).

السورة الرابعة والعشرون - «عبس»:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ
الذِّكْرَى * أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ
يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿^(٢)

روى الطبرسي في «مجمع البيان»: عن الصادق عليه السلام: «أنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي ﷺ، فجاء ابن أم مكتوم، فلما رآه تقدّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه».

ولكنه روى بعد هذا خبراً آخر عنه عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم قال: «مرحباً، مرحباً، لا والله لا يعاتبني الله فيك أبداً» وكان يصنع به من اللطف حتى كان يكف عن النبي ﷺ مما يفعل به».

وهذا يناسب مع المعروف والمشهور في شأن نزول السورة: أن ابن أم مكتوم -وهو عبد الله بن شريح العامري- أتى رسول الله ﷺ وهو يناجي أبا وأُمّية ابني خلف، وأبا جهل بن هشام، والعبّاس بن عبد المطلب، وعتبة ابن أبي ربيعة، يدعوهم الى الله ويرجو إسلامهم. فقال: يا رسول الله أقرئني وعلمني ممّا علّمك الله. فجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنّه مشغول مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، فأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فنزلت الآيات. وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٨.

(٢) عبس ١: ١٢.

ويقول : مرحباً بمن عاتبني فيه ربّي.

ثمّ قال الطبرسي : فان قيل : فلو صحّ هذا الخبر فهل يكون العبوس ذنباً أم لا؟ فالجواب : أن العبوس والانبساط مع الأعمى سواء، إذ لا يشقّ عليه ذلك، فلا يكون ذنباً، فيجوز أن يكون عاتب الله سبحانه بذلك نبيّه ﷺ ليأخذه بأوفر محاسن الأخلاق، وينبّه بذلك على عظم المؤمن المسترشد، ويعرّفه أن تأليف المؤمن ليقم على إيمانه أولى من تأليف المشرك طمعاً في إيمانه^(١).

هذا والمعنى الأوّل الذي رواه عن الصادق عليه السلام جاء في أصل الكتاب : «التبيان» للشيخ الطوسي هكذا : وقال قوم : إنّ هذه الآيات نزلت في رجل من بني أمية كان واقفاً مع النبيّ، فلما أقبل ابن أمّ مكتوم تنفّر منه وجمع نفسه وعبّس وجهه، فحكى الله تعالى ذلك وأنكره معاتبة على ذلك^(٢) وقريب منه في تفسير القمي^(٣).

وفي هذه السورة آية رُبط خبرها بسورة النجم قبلها، وذلك قوله سبحانه : ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ... ﴾^(٤) قال الطبرسي : عن مقاتل والكلبي : هو عتبة بن أبي لهب إذ قال : كفرت برّب النجم إذا هوى^(٥).

ورواه السيوطي في «الدر المنثور» عن عكرمة عن ابن عباس قال : نزلت في عتبة بن أبي لهب حين قال : كفرت برّب النجم إذا هوى. فدعا عليه النبيّ ﷺ فأخذه الأسد بطريق الشام^(٦).

(١) مجمع البيان ١٠ : ٦٦٣ ، ٦٦٤ .

(٢) التبيان ١٠ : ٢٦٩ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٤٠٤ .

(٤) عبس : ١٧ ، ١٨ .

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٦٦٥ .

(٦) الدر المنثور ٦ : ٢١٥ .

السورة الخامسة والعشرون - «القدر»:

فهي أول سورة وآيات ذكر فيها «ليلة القدر» وأنها سلام حتى مطلع الفجر بل خير من ألف شهر، وأن الملائكة والروح تنزل فيها بإذن ربهم من كل أمر، وقد نزلت فيها بالقرآن على رسول الله ﷺ، والنازل منه اذ ذاك هذه الخمس والعشرون سورة.

السورة التاسعة والعشرون - «قريش»:

وليس قبلها الفيل ولا في رواية، فلا مجال للقول بتعلق اللام في بداية هذه السورة: «لإيلاف قريش» بكيفية هلاك أصحاب الفيل، فضلاً عن القول بوحدة السورتين، بل المترجح المتعين ما نقله الطبرسي في «مجمع البيان» عن الخليل وسيبويه: أن «لإيلاف» يتعلق بـ «فليعبدوا» أي: ليجعلوا عبادتهم شكراً لنعمة إيلافهم واعترافاً بها^(١).

السورة الثانية والثلاثون - «الهمزة»:

روى الطبرسي عن مقاتل قال: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبي من ورائه ويطن عليه في وجهه. وهذا يوافق قول قتادة وسعيد بن جبير في معنى الهمزة وبأنه المغتاب، والهمزة بأنه الطعان. وقال ابن عباس والحسن وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح بالعكس أي أن الهمزة هو الذي يطن في الوجه بالغيب، والهمزة الذي يغتاب عند الغيبة^(٢). وعلى أي حال فالسورة - على هذا - من أول ما نزل في ذم الوليد وتقريعه لما كان يناله من النبي ﷺ قبل ما أصابه وسائر أصحابه من المستهزئين. عن ابن اسحاق: أنها نزلت في أمية بن خلف الجمحي،

(١) مجمع البيان ١٠ : ٨٢٩، وانظر رد الطباطبائي لأخبار وحدة السورتين ٢٠ : ٣٦٤.

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٨١٨.

وكان يهزم النبي ﷺ^(١) وفي «روح المعاني» أنها في العاص بن وائل^(٢) وهما أيضاً من المستهزئين برسول الله ﷺ.

السورة الثالثة والثلاثون - «المرسلات»:

وفيهما روى السيوطي في «الدر المنثور» عن عبد الله بن مسعود قال : بينا نحن مع النبي - صلى الله عليه [وآله] وسلم - في غار بمنى اذ نزلت عليه سورة ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾^(٣).

السورة الرابعة والثلاثون - «ق»:

وفيهما قوله سبحانه : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ * مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾^(٤) وقال الطبرسي في «مجمع البيان» : قيل : إنها نزلت في الوليد بن المغيرة حين استشاره بنو أخيه في الإسلام فمنعهم . فيكون المراد بالخير الذي يمنع عنه هو الإسلام^(٥).

السورة الخامسة والثلاثون - «البلد»:

وفيهما : ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا * أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾^(٦) قال الطبرسي في «مجمع البيان» قال مقاتل الكلبي : هو الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وذلك أنه دخل في الإسلام وأذنب ذنباً فاستفتى رسول الله فأمره أن يكفر ، فقال : لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ دخلت

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٨٢.

(٢) روح المعاني ٣٠ : ٢٣٠.

(٣) الدر المنثور ٦ : ٣٠٢.

(٤) ق : ٢٤ - ٢٦.

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٢٢٠.

(٦) البلد : ٥ - ٧.

في دين محمد... وكان كاذباً لم ينفق ما قاله، فقال الله سبحانه: أَيُظَنُّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرِ ذَلِكَ فَعَلَّ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ أَنْفَقَ أَوْ لَمْ يَنْفَقَ.

وقيل: هو أبو الأسد بن كلدة الجمحي، وكان قوياً شديداً الخلق بحيث كان يجلس على أديم عكاظي فتجره العشرة من تحته فيقطع ولا يبرح من مكانه، وكان قد انفق مالا كثيراً في عداوة النبي ﷺ: فأخبر الله عن مقالته ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا﴾ يفتخر بذلك^(١).

السورة السابعة والثلاثون - «القمر»:

روى القمي في تفسيره بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام قال: اجتمعوا أربعة عشر رجلاً أصحاب العقبة ليلة أربعة عشر من ذي الحجة، فقالوا للنبي: ما من نبي إلا وله آية، فما آيتك في ليلتك هذه؟ فقال النبي: ما الذي تريدون؟ فقالوا: ألم يكن لك عند ربك قدر؟! فأمر القمر أن ينقطع قطعتين!

فهبط جبرئيل وقال: يا محمد إن الله يقرؤك السلام ويقول لك: إني قد أمرت كل شيء بطاعتك. فرفع رأسه فأمر القمر أن ينقطع قطعتين! فانقطع قطعتين! فسجد النبي ﷺ شكراً لله... ثم رفع النبي رأسه ورفعوا رؤوسهم ثم قالوا: يعود كما كان؟ فعاد كما كان؟ ثم قالوا: ينشق رأسه! فأمره فانشق. فسجد النبي شكراً لله...

فقالوا: يا محمد حين يقدم مسافروننا من الشام واليمن فنسألهم ما رأوا في هذه الليلة؟ فإن يكونوا رأوا مثل ما رأينا علمنا أنه من ربك، وإن لم يروا مثل ما رأينا علمنا أنه سحر سحرتنا به! فأنزل الله ﴿اقتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ إلى آخر السورة^(٢).

(١) مجمع البيان ١٠ : ٧٤٨.

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٤١.

وعليه فهذه هي المرة الثانية لتجربتهم صدق مقال الرسول ﷺ بتصديق المسافرين له، بعد أخباره عن الإسراء به إلى بيت المقدس. ولعلهم قالوا ذلك بعد أن قالوا: سحرنا محمد، فقال رجل - كما رواه الطبرسي عن جبير بن مطعم - إن كان سحركم فلم يسحر الناس كلهم.

قال الطبرسي: وقد روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة منهم: عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وحذيفة بن اليمان وابن عمر وابن عباس وعليه جماعة المفسرين، بل أجمع المسلمون على ذلك، فلا يعتد بخلاف من خالف فيه.

قال: ومن طعن في ذلك: بأنه لو وقع انشقاق القمر في عهد رسول الله لما كان يخفى على أحد من أهل الأقطار. فقله باطل.

لأنه قد وقع ذلك ليلاً فيجوز أن يكون الناس كانوا نياماً فلم يعلموا بذلك، على أن الناس ليس كلهم يتأملون ما يحدث في السماء وفي الجو من آية وعلامة، فيكون مثل انقضاض الكواكب وغيره مما يغفل الناس عنه، ولأنه يجوز أن يكون الله قد حجه عنهم بغيم ونحوه^(١).

وقد روى السيوطي في «الدر المنثور» بأسناده عن ابن مسعود قال: انشق القمر... فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، فقالوا: انتظروا ما يأتيكم به المسافرون فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. فجاء المسافرون فسألوهم فقالوا: نعم قد رأيناه. فأنزل الله ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾^(٢).

السورة الثامنة والثلاثون - «ص»:

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا

(١) مجمع البيان ١٠ : ٢٨٢.

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٣٢، سورة القمر.

سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ
امْشُوا وَاضْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ
هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿١﴾.

روى الكليني في «أصول الكافي» بسنده عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : أقبل أبو جهل بن هشام ومعه قوم من قريش فدخلوا على أبي طالب فقالوا :
إن ابن أخيك قد آذانا وآذى آلهتنا، فادعه ومُرّه فليكفّ عن اهتنا ونكفّ عن الهه !
فبعث أبو طالب الى رسول الله صلى الله عليه وآله فدعاه، فلما دخل النبي لم ير في البيت
إلا مشركاً فقال : السلام على من اتبع الهدى، ثمّ جلس. فأخبره أبو طالب بما
جاؤوا به. فقال : أو هل لهم في كلمة خير لهم من هذا، يسودون بها العرب ويطؤون
أعناقهم ! فقال أبو جهل : نعم وما هذه الكلمة ؟ قال : تقولون : لا إله إلا الله .
فوضعوا أصابعهم في آذانهم وخرجوا وهم يقولون : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ
الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ فأنزل الله في قولهم ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ الى قوله
﴿ إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ ^(٢) ونقله القمي في تفسيره بمعناه بلا اسناد وأضاف : نزلت بمكة لما
أظهر رسول الله الدعوة اجتمعت قريش الى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب ! إن ابن
أخيك قد سفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا. فان كان الذي
يحملة على ذلك العدم جمعنا له مالاً حتى يكون أغنى رجل في قريش ونملكه علينا !
فأخبر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك فقال : والله لو وضعوا الشمس في
يميني والقمر في يساري ما أردته، ولكن يعطونني كلمة يملكون بها العرب ويدين لهم
بها العجم ويكونوا ملوكاً في الجنة.

(١) ص : ٤ - ٧.

(٢) أصول الكافي ٢ : ٦٤٩.

فقال لهم أبو طالب ذلك فقالوا : نعم وعشر كلمات !
 فقال لهم رسول الله : تشهدون أن لا اله إلا الله وأني رسول الله !
 فقالوا : ندعُ ثلاثمة وستين الهاً ونعبد الهاً واحداً؟! فأنزل الله ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ
 جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ * أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا
 لَشَيْءٌ عَجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
 يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَوُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا
 بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ * أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ
 الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١١﴾ .

وروى الطبرسي في «مجمع البيان» أنهم كانوا خمسة وعشرين من أشرف
 قريش منهم أبو جهل بن هشام كما مرَّ في خبر الكليني ومنهم الوليد ابن المغيرة
 والنضر بن الحارث، وأبي وأمية ابنا خلف الجمحي وعتبة وشيبة ابنا ربيعة
 المخزومي. أتوا أبا طالب وقالوا : أنت شيخنا وكبيرنا، وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين
 ابن اخيك، فإنه سفّه أحلامنا وشتم آلهتنا!

فدعا أبو طالب رسول الله فقال : يا ابن أخي ! إنَّ هؤلاء قومك يسألونك .
 فقال : ماذا يسألونني ؟ قالوا : دعنا وآلهتنا ندعك وإلهك ! فقال : او تعطوني كلمة
 واحدة تملكون بها العرب والعجم؟! فقال أبو جهل : لله أبوك نعطيك ذلك وعشراً
 أمثالها، فقال : قولوا لا إله إلا الله . فقاموا وقالوا : «أجعل الآلهة الهاً واحداً» فنزلت
 هذه الآيات .

(١) ص : ٤ - ١٠ . تفسير القمي ٢ : ٢٢٨ وذكر مختصره ابن شهر آشوب في المناقب ١ : ٥٤ ،
 ومثله الطبري ٢ : ٣٢٤ عن السدي و٣٢٥ عن ابن عباس . وأورد الخبرين في تفسيره : ٢٣ :
 ٧٩ - ٨١ ط بلاق .

قال : وروي أن النبي ﷺ استعبر ثم قال : يا عمّ والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى ينفذه الله أو أمضي دونه ! فقال له أبو طالب : امض لأمرك ، فوالله لا أخذك أبداً^(١).

وخرجوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب وهم يقولون - وقيل : إن القائل هو عتبة بن أبي معيط الأموي - : اثبتوا على عبادة آلهتكم واصبروا على دينكم وتحملوا المشاق لأجله ، فإن هذا الذي نراه من زيادة أصحاب محمد أمر يراد بنا من زوال نعمة أو نزول شدة^(٢).

ولا أحسب القمي متحققاً من قوله اذ قال : نزلت بمكة لما أظهر رسول الله الدعوة ؟ بمعنى أن نزول هذه السورة كانت هي نقطة النقلة من المرحلة السرية الى الدعوة العلنية ؟ ولكن كلامه هذا على أي حال ، بل القصّة برمتها كسابقاتها تستلزم عدم سرية المرحلة.

السورة التاسعة والثلاثون - «الأعراف»:

وأولها : ﴿ المص * كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٣) فهل هذا يعني الانذار الخاص والسري ، وذكرى للمؤمنين كذلك ؟ بل الظاهر غير ذلك .

وفيها قوله سبحانه : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ

(١) جمع البيان ٨ : ٧٢٥ - ٧٢٧.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٨٥ وعنه الطبري ٢ : ٣٢٦.

(٣) الأعراف : ١ - ٢.

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ
وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١).

قال القمي في تفسيره : انّ اناساً كانوا يطوفون عراً بالبيت ، الرجال بالنهار
والنساء بالليل ، وكانوا لا يأكلون إلا قوتاً ، فأمرهم الله بلبس الثياب ، وأن يأكلوا
ويشربوا ولا يُسرفوا^(٢) ورواه الطبرسي عن جماعة من المفسرين^(٣).

وروى السيوطي في «الدر المنثور» باسناده عن ابن عباس قال : كان رجال
يطوفون بالبيت عراً فأمرهم الله بالزينة ، ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ والزينة
اللباس ، وهو ما يوارى السوات ، وما سوى ذلك من جيّد البرّ والمتاع.

وفيه بسنده عنه أيضاً قال : كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلّها الله من
الثياب وغيرها ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ
الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ثمّ يخلص الله الطيبات في الآخرة
للذين آمنوا وليس للمشرّكين فيها شيء «خالصة يوم القيامة».

وفيه بسنده عن موله عكرمة فصل القول في هؤلاء من أهل الجاهلية وما
كانوا يحرمون ولماذا فقال : كانت الخمس من قريش وبطون من كنانة ومن يأخذ
مأخذها من قبائل العرب : بني عامر بن صعصعة وخزاعة وثقيف والأوس
والخزرج لا يأكلون اللحم (في الحج) ولا يأتون البيوت إلا من أدبارها ، ولا
يضربون وبراً ولا شعراً وإنما يضربون الأدم ، وإذا قدموا (للحج) طرحوا ثيابهم

(١) الاعراف : ٣١-٣٣.

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٢٨.

(٣) جمع البيان ٤ : ٦٣٧.

التي قدموا فيها وقالوا: هذه ثيابنا التي نريد أن نتطهر الى ربنا عما فيها من الذنوب والخطايا فمن يعيرنا مِزراً، فان لم يجدوا طافوا عُراً، فاذا فرغوا من طوافهم اخذوا ثيابهم التي كانوا قد وضعوها.

وفيه بسنده عن سعيد بن جبير قال: كان الناس يطوفون بالبيت عُراً يقولون: لا نظوف في ثياب اذنبا فيها. فجاءت امرأة فألقت ثيابها وطافت وهي واضعة يدها على قُبلها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فابدأ منه فلا أحله
فزلت هذه الآية: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(١).
وفي السورة قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢).

وروى الطبرسي في «مجمع البيان» عن أبي جعفر الامام الباقر عليه السلام والزهري ومجاهد عن سعيد بن المسيّب وسعيد بن جبير عن ابن مسعود وابن عباس قالا:
كان المسلمون يتكلمون في صلاتهم ويسلم بعضهم على بعض، واذا دخل داخل فقال لهم: كم صليتم أجابوه. فنهوا عن ذلك وأمروا بالاستماع^(٣).

السورة الحادية والأربعون - «يس»:

﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فهو من الأنبياء المرسلين، وظاهر الخطاب بل صريحه فعليته العامة لاشأنيته بالقوة، ولا الفعلية السريّة أو الخاصة، بل ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ

(١) الدر المنثور ٣: ٧٥، سورة الأعراف.

(٢) الأعراف: ٢٠٤.

(٣) مجمع البيان ٤: ٧٩١.

فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٢﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٣﴾

وهنا قال القمي في تفسيره : إنها نزلت في أبي جهل بن هشام ونفر من أهل بيته ، وذلك أنه حلف أبو جهل : لئن رأى النبي يصلي ليدمغنه ، فجاء والنبي قائم يصلي (حول الكعبة) ومعه حجر ، ولكنه جعل كلما رفع الحجر ليرميه أثبت الله يده إلى عنقه ولا يدور الحجر بيده ، ولما يرجع إلى أصحابه يسقط الحجر من يده . فقام رجل آخر من رهطه فقال : أنا أقتله ! فلما دنا منه سمع قراءة رسول الله فأرعب ، فرجع إلى أصحابه وقال : حال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه ، فخفت أن أتقدم . فلم يؤمن من أولئك الرهط من بني مخزوم أحد^(١) .

وروى السيوطي في «الدر المنثور» زيادة عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يقرأ في المسجد فيجهر بالقراءة حتى تأذي به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه ، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا هم لا يبصرون . فجاءوا ، إلى النبي فقالوا : ننشدك الله والرحم - يا محمد - فدعا النبي حتى ذهب ذلك عنهم ، فنزلت ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ... ﴿٣﴾ وَلَعَلَّهُ كَانَ هَذَا بِعَدْرِ الرَّسُولِ لَهُمْ عِنْدَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ، كَرَدَّ فَعَلَ مِنْ أَبِي جَهْلٍ بَعْدَ فَعَلِ الرَّسُولِ ذَلِكَ .

وفي السورة قوله سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٢﴾﴾

(١) يس : ٦ - ٩ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٢١٢ ونقل مثله الطبرسي في مجمع البيان ١٠ : ٦٤٩ .

(٣) الدر المنثور ٥ : ٢٦٩ ، سورة يس .

(٤) يس : ٧٧ ، ٧٨ .

وروى الطبرسي في «مجمع البيان» عن الصادق عليه السلام : أن القائل هو أبي بن خلف الجمحي . وقال الحسن : هو أمية بن خلف ، أخوه . وقال ابن جبير : هو العاص بن وائل السهمي ^(١) . وهم ثلاثة من المستهزئين الستة .

ورواية الصادق عليه السلام في كلام الطبرسي هي رواية العياشي عن الحلبي عنه عليه السلام قال : جاء أبي بن خلف فأخذ عظماً بالياً من حائط ففته ثم قال : ... إذا كنا عظاماً ورُفَاتاً أينا لمبعثون خلقاً؟ فأنزل الله : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ^(٢) .

السورة الثانية والأربعون - «الفرقان»:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * ... وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ^(٣) .

في تفسير القمي : في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر الامام الباقر عليه السلام في قوله : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ يعنون : أبا فكيهة وجبراً وعداساً وعابساً مولى حويطب . وقوله : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ هو قول النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة «اكتتبها» قال القمي : قالوا : هذا الذي يقرأه محمد ويخبرنا به إنما يتعلمه ويكتبه عن رجل من علماء النصارى يقال له : ابن قبيطة ^(٤) .

ونقل الطبرسي في «مجمع البيان» عن مجاهد قالوا : أعان محمداً ﷺ على هذا القرآن : عداس مولى حويطب بن عبد العزى ، ويسار غلام العلاء

(١) مجمع البيان ١٠ : ٦٧٨ .

(٢) الميزان ١٧ : ١١٨ ونقل معناه ابن شهر آشوب في مناقب آل أبي طالب ١ : ٥٦ .

(٣) الفرقان : ١ - ٥ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ١١١ وابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٢١ .

ابن الحضرمي، وحَبْر مولى عامر، وكانوا من أهل الكتاب^(١) ونقل ابن شهر آشوب مثله في «المناقب»^(٢).

وفيها قوله : ﴿ وَقَالُوا مَا لَهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾^(٣) روى السيوطي في «الدر المنثور» بأسناده عن ابن عباس : أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبا البختري، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أمية، وأمّية بن خلف، والعاصي ابن وائل، ونبيه بن الحجاج، اجتمعوا فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصّموه حتى تُعذروا منه.

فبعثوا إليه : إن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك . فجاءهم رسول الله فقالوا له : يا محمد ! إنا بعثنا إليك لنعذر منك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً، جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تطلب الشرف فنحن نسودك، وإن كنت تطلب ملكاً ملكناك.

فقال رسول الله : ما بي ممّا تقولون، ما جئكم بما جئكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم . ولكن الله بعثني اليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم، فإن تقبلوا منّي ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

(١) مجمع البيان ٧ : ٢٥٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١ : ٤٩ وذكر : حميراً مولى عامر !.

(٣) الفرقان : ٧، ٨.

قالوا : يا محمد ! فإن كنت غير قابل منا شيئاً عرضناه عليك فسل لنفسك ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جناحاً وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك عما تبتغي - فإنك تقوم بالأسواق وتلتبس المعاش كما نلتمسه - حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك ان كنت رسولاً كما تزعم .

فقال لهم رسول الله : ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بُعثت اليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً .

فأنزل الله في قولهم ذلك : ﴿ وَقَالُوا مَا لَهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ... ﴾ (١) .

وفيهما قوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ (٢) .

نقل الطبرسي في «مجمع البيان» عن ابن عباس قال : نزل قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ في عقبه بن أبي مُعيط وأبي بن خلف الجُمحي ، وكانا متخالين (صديقين) ، وذلك : أن عقبه كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا اليه أشرف قومه . وكان يكثر مجالسة الرسول . فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً ودعا الناس فدعا رسول الله إلى طعامه .

فلما قرَّبوا الطعام قال رسول الله : ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله . فقال عقبه : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

(١) الدر المنثور : ٥ : ٦٢ وروى القصة مرة أخرى عن ابن عباس أيضاً سبباً لنزول الآيات : ٩٠ -

٩٣ - من سورة الاسراء ٤ : ٢٠٢ كما سيأتي ، ورواها الطبرسي في مجمع البيان في سورة

الاسراء ٦ : ٦٧٨ .

(٢) الفرقان : ٢٧ - ٢٩ .

وبلغ ذلك أبي بن خلف، فأتاه وقال له : صبوت يا عُقبة؟! قال : لا -والله- ما صبوت، ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يَطعم من طعامي إلا أن أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يَطعم، فشهدت له فطعم. فقال أبي : ما كنت براض عنك أبداً حتى تأتيه فتبزق في وجهه، ففعل ذلك عُقبة، وارتدّ، وأخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه! فقال النبي ﷺ : لا ألقاك خارج مكّة إلا علوت رأسك بالسيف.

فوقع يوم بدر أسيراً بيد المسلمين فأمر رسول الله بتنفيذ حلفه فيه من بين سائر أسارى المشركين، ولم يقتل من الأسارى يومئذٍ غيره^(١).

وعليه، فالظالم في الآية : عُقبة بن أبي مُعيط الأموي، وفلان خليله أبي بن خلف الجُمحي، والذكر الذي جاءه شهادته بالشهادتين ولو أخذت منه حياةً، وضلاله بعد الذكر استجابته لطلبة خليله بالارتداد والبصاق في وجه رسول الله ﷺ.

السورة الرابعة والأربعون - «مريم»:

وهي التي قرأ شطراً منها جعفر بن أبي طالب الطيار على النجاشي ملك الحبشة في الهجرة إليها، فيعلم أنها نزلت قبل ذلك وأن الهجرة إليها بعد هذه السورة. وفيها قوله سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا... ﴾^(٢) قال الطبرسي : روي في الصحيح : عن خباب بن الأرت قال : كنت رجلاً غنياً وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لي : لا أقضيك حتى تكفر بمحمّد!

(١) مجمع البيان ٧ : ٢٦٠، ٢٦١ وفيه : وأما أبي بن خلف فقد قتله النبي يوم أحد بيده في المبارزة. وروى الخبر السيوطي بسنده عن ابن عباس أيضاً في الدر المنثور ٥ : ٦٨.

(٢) مريم : ٧٧.

فقلت : لن أكفر به حتى تموت وتبعث . قال : فإني لمبعوث بعد الموت فسوف أقضيك دينك اذا رجعت الى مال وولد . فنزلت الآية ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾^(١) .

السورة السادسة والأربعون - «الواقعة»:

وفيهما قوله سبحانه : ﴿ فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾^(٢) وروى العياشي في تفسيره عن عتبة بن عامر الجهني قال : لما نزلت : ﴿ فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قال رسول الله ﷺ : اجعلوها في ركوعكم .

ورواه أيضاً في «الدر المنثور» عن أحمد وأبي داود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عن عتبة عنه ﷺ^(٣) .

وهذا مما يؤيد ما مرّ عن أنّ الصلاة في أوائل تشريعها كانت بسجود بلا ركوع ، ثم شرّع فيه الركوع بعد ذلك^(٤) .

السورة السابعة والأربعون - «الشعراء»:

وفيهما آية ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وقد سبق القول فيها .

وفيهما أيضاً قوله سبحانه : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾^(٥) ونقل الطبرسي في «مجمع البيان» عن مقاتل : أنّهم شعراء المشركين وكلّهم من قريش منهم أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ، وأبو عزة عمرو بن عبد الله ، وعبد الله

(١) مجمع البيان ٦ : ٨١٦ ويقصد بالصحيح البخاري ومسلم كما في أسباب النزول للواحي :

٢٤٨ ط الجميلي وفي ابن هشام ١ : ٣٨٣ ، ومثله في مناقب آل أبي طالب ١ : ٥٣ .

(٢) الواقعة : ٧٤ .

(٣) الميزان ٢٠ : ٢٧٠ . وفي الدر المنثور ٦ : ١٦٨ .

(٤) صفحة : ٣٨٥ و ٤٥٧ .

(٥) الشعراء : ٢٢٤ .

بن الزَّبْعَرى السهمي، ومُسافِع بن عبد مناف الجُمحي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي... اجتمعوا وقالوا: نحن نقول مثل ما قال محمد، قالوا الشعر وتكلموا بالكذب والباطل ويهجون النبي، واجتمع اليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم ويروون عنهم هجوهم^(١).

السورة التاسعة والأربعون - «القصص»:

وفيها قوله سبحانه: ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ * وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٢﴾ ونقل الطبرسي في «مجمع البيان» عن الكلبي قال: كانت مقالاتهم هذه حين بعثوا الرهط منهم الى رؤوس اليهود بالمدينة في عيد لهم، يسألونهم عن محمد ﷺ. فأخبروهم بنعته وصفته في كتابهم التوراة فرجع الرهط الى قريش فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: سحران تظاهرا^(٣).

والعلامة الطباطبائي مع أنه يذكر في بحوثه الروائية روايات أسباب النزول لم يذكر هذا الخبر عن «مجمع البيان» ولكنه قال في تفسير الآيات: سياق الآيات يشهد بأن المشركين من قوم النبي ﷺ راجعوا بعض أهل الكتاب واستفتوهم في أمره وعرضوا عليهم بعض القرآن النازل عليه، وهو مصدق للتوراة.

(١) مجمع البيان ٧: ٣٢٥.

(٢) القصص: ٤٦ - ٤٨.

(٣) مجمع البيان ٧: ٤٠٢.

فأجابوهم بتصديقه والايان بما يتضمّنه القرآن من المعارف الحقّة، وأنهم كانوا يعرفونه بأوصافه قبل أن يبعث كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾^(١).

فساء المشركين ذلك وشاجروهم وأغلظوا عليهم في القول وقالوا: إن القرآن سحر والتوراة سحر مثله ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ فأعرض الكتابيون عنهم وقالوا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾^(٢) هذا ما تلوّح به الآيات الكريمة بسياقها^(٣).

ولم يذكر الخبر من هؤلاء العلماء اليهود من أهل يثرب الذين صدّقوا بالقرآن فأغضبوا المشركين، وأثنى عليهم القرآن في هذه الآيات؟ ولعلهم هم الذين أسلموا منهم فيما بعد: تميم الداري والجارود العبدي وعبد الله بن سلام، الذين نقل الطبرسي في «مجمع البيان» عن قتادة: أنهم لما أسلموا نزلت فيهم الآيات: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾^(٤) بينما الآيات مكيّة من سورة مكيّة قبل الهجرة الى المدينة. وقد ذكر في الخبر معهم سلمان الفارسي أيضاً، وهو غريب!^(٥).

إيمان أبي طالب:

وفيها بعده قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أُخْبِتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٦).

(١) القصص : ٥٣.

(٢) القصص : ٥٥.

(٣) الميزان ١٦ : ٤٧، ٤٨.

(٤) القصص : ٥٢.

(٥) مجمع البيان ٧ : ٤٠٣.

(٦) القصص : ٥٦.

قال القمي في تفسيره : نزلت في أبي طالب عليه السلام ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : يا عمّ قل : لا إله إلا الله ، أنفك بها يوم القيامة ، فيقول : يا بن أخي أنا أعلم بنفسي . ولكنه لم يمت حتّى شهد العباس بن عبد المطلب عند رسول الله : أنّه تكلم بها عند الموت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرجو أن تنفعه يوم القيامة . وقال : لو قمت المقام المحمود لشفعت في أبي وأمي وعمي ، وأخ كان لي مواخياً في الجاهلية ^(١) .

وروى القمي هذا الأخير قبل هذا عن أبيه عن محمد بن أبي عمير عن معاوية وهشام عن الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) .

وقال الطبرسي : روى عن ابن عباس وغيره : أن قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ نزلت في أبي طالب ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحبّ إسلامه فنزلت فيه هذه الآية ... وفي هذا نظر كما ترى ؛ فإن النبي لا يجوز أن يخالف الله سبحانه في إرادته ، كما لا يجوز أن يخالفه في أوامره ونواهيه ، وإذا كان الله تعالى - على ما زعم القوم - لم يرد إيمان أبي طالب وأراد كفره وأراد النبي إيمانه ، فقد حصل غاية الخلاف بين ارادتي الرسول والمرسل ، فكأنه سبحانه يقول : إنّك - يا محمد - تريد إيمانه ولا أريد إيمانه ... مع تكفله بنصرتك وبذل مجهوده في اعانتك والذبّ عنك ومحبتك لك ونعمته عليك ... وفي هذا ما فيه ^(٣) وقال في سورة الأنعام : وقد ثبت إجماع أهل البيت عليهم السلام على إيمان أبي طالب ، وإجماعهم حجة ؛ لأنهم أحد الثقلين اللذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتمسك بهما بقوله : «إِنْ تَمَسَّكْتُم بِهِمَا لَنْ تَضَلُّوا» .

(١) تفسير القمي ٢ : ١٤٢ . ونقل السيّد ابن طاووس في الطرائف ١ : ٤٢٤ عن الواسطي في أسباب النزول عن ابن المفضل : أنها نزلت في الحارث بن نعمان بن عبد مناف ، قال للنبي يوماً : إنا نعلم أن الذي جئت به حق ويمنعنا من اتباعك أن العرب تتخطفنا من أرضنا ولا طاقة لنا بهم لقلتنا وكثرتهم ! فنزلت الآية . وانظر الكشاف ٢ : ١٦٧ وتفسير ابن كثير ٣ : ٣٩٥ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٢٥ .

(٣) جمع البيان ٧ : ٤٠٥ ، ٤٠٦ . وانظر التبيان ٨ : ١٦٤ .

ويدل على ذلك ما رواه ابن عمر: أن أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة يوم الفتح إلى رسول الله فأسلم وكان أعمى فقال ﷺ: ألا تركت الشيخ فأتيه؟ فقال أبو بكر: أردت أن يأجره الله تعالى، والذي بعثك بالحق لأنا كنت بإسلام أبي طالب أشد فرحاً مني بإسلام أبي التمس بذلك قرة عينك. فقال ﷺ: صدقت.

وروى الطبري بأسناده: أن رؤساء قريش لما رأوا ذبّ أبي طالب عن النبي اجتمعوا عليه وقالوا: جئناك بفتى قريش جمالاً وجوداً وشهامة: عمارة بن الوليد، ندفعه إليك وتدفع إلينا ابن أخيك الذي فرق جماعتنا وسفه أحلامنا فنقتله!

فقال أبو طالب: ما انصفتُموني، تعطوني ابنكم فأغذوه وأعطيكُم ابني فتقتلونه^(١)، بل فليات كل امرئ منكم بولده فأقتله. وقال:

معنا الرسول رسول المليك بيضر تلالا كلنع البروق

أذود وأحمي رسول المليك حماية حمام عليه شفيق

قال: وأقواله وأشعاره المنبئة عن اسلامه كثيرة مشهورة لا تحصى، فمن ذلك قوله:

ألم تعلموا أننا وجدنا محمداً نبياً كموسى خط في أول الكتب

أليس أبونا هاشم شدّ أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالحرز

وقوله من قصيدة:

وقالوا لأحمد: أنت امرؤ خلوف اللسان ضعيف السبب

ألا إن أحمد قد جاءهم بحق ولم يأتهم بالكذب

(١) تاريخ الطبري ٢: ٣٢٦ - ٣٢٧ عن ابن إسحاق، والخبر في السيرة ١: ٢٨٥، والنقل لا زال

وقوله في حديث الصحيفة وهو من معجزات النبي ﷺ :

وقد كان في أمر الصحيفة عبرة
محا الله منها كفرهم وعقوقهم
وأمسى ابن عبد الله فينا مصدقاً
متى ما يُخبر غائبُ القوم يَعْجَبُ
وما تقموا من ناطقِ الحق مُعَرَّبُ
على سخطٍ من قومنا غير مُعْتَبِ

وقوله في قصيدة يحضُّ أخاه حمزة على اتباع النبي والصبر في طاعته :

فصبراً - أبا يعلى - على دين أحمد
فقد سرّني إذ قلت إنك مؤمن
وقوله في وصيته وقد حضرته الوفاة :

أوصي بنصر النبي الخير مشهده
وحمزة الأسد الحامي حقيقته
كونوا - فداءً لكم أمي وما ولدت -
علياً ابني وشيخ القوم عبّاساً
وجعفرأ : أن يذودا دونه الناسا
في نصر أحمد دون الناس أتراساً

في أمثال هذه الأبيات مما هو موجود في قصائده المشهورة، ووصاياہ وخطبه، ما يطول به الكتاب^(١) فإن استيفاء ذلك جميعه لا تتسع له الطوامير، وما روي من ذلك في كتب المغازي وغيرها أكثر من أن يُحصى، يكشف فيها من كاشف النبي ويناضل عنه ويصحح نبوته... ولا شك في أنه لم يختَر تمام مجاهرة الأعداء استصلاحاً لهم ولحسن تدبيره في دفع كيدهم، لئلا يلجئوا الرسول إلى ما ألجأوه إليه بعد موته^(٢).

وقال العلامة الطباطبائي : وروايات أئمة أهل البيت عليهم السلام مستفيضة على إيمانه، والمنقول من أشعاره مشحون بالإقرار على صدق النبي وحقيقة دينه، وهو الذي آوى النبي صغيراً وحماه بعد البعثة وقبل الهجرة، وقد كان أثر مجاهدته

(١) جمع البيان ٣ : ٤٤٦.

(٢) جمع البيان ٧ : ٤٠٦.

وحده في حفظ نفسه الشريفة في العشر سنين قبل الهجرة يعدل أثر مجاهدة المهاجرين والأنصار بأجمعهم في العشر سنين بعد الهجرة^(١).

وقال في تفسير الآية : لما بين في الآيات السابقة حرمان المشركين - وهم قوم النبي - من نعمة الهداية، وضلالهم باتباع الهوى، واستكبارهم عن الحق النازل عليهم، وإيمان أهل الكتاب به واعترافهم بالحق، ختم هذا الفصل من الكلام بأن أمر الهداية إلى الله لا إليك، يهدي هؤلاء من أهل الكتاب وهم من غير قومك الذين تدعوهم، ولا يهدي هؤلاء وهم قومك الذين تحب اهتداءهم، وهو أعلم بالمهتدين^(٢).

وفي السورة قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا ﴾^(٣) قال الطبرسي : قيل : إنما قاله الحرث بن نوفل بن عبد مناف فإنه قال للنبي ﷺ : إنا لنعلم أن قولك حق، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا، ولا طاقة لنا بالعرب^(٤).

وروى السيوطي بأسناده عن ابن عباس : أن القائل هو : الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف^(٥).

وفيها قوله سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴾^(٦) ونقل الطبرسي عن السدي

(١) الميزان ١٦ : ٥٧.

(٢) الميزان ١٦ : ٥٥.

(٣) القصص : ٥٧.

(٤) مجمع البيان ٧ : ٤٠٦.

(٥) الدر المنثور ٥ : ١٣٤، سورة القصص.

(٦) القصص : ٦١.

ومحمد بن كعب القرظي أنها نزلت في [رسول الله] وعلي بن أبي طالب والحمزة بن عبد المطلب [وعمار بن ياسر] وفي أبي جهل [والوليد بن المغيرة] ثم قال : والأولى أن يكون عامًّا فيمن يكون بهذه الصفة^(١).

السورة الخمسون - «الإسراء»:

وقد سبق القول عن المعراج في «سورة النجم» وكانت السورة الثالثة والعشرين، وكان الحديث فيها مع المشركين قبل هذه.

وفيها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾^(٢) روى الطبرسي عن الزجاج والجُبائي قالا : نزلت في قوم كانوا إذا صلى النبي ﷺ وتلا القرآن عند الكعبة ليلاً يرمونه بالحجارة ويمنعونه عن دعاء الناس إلى الدين. وقال الكلبي : هم أبو سفيان وأبو جهل وامرأة أبي هب والنضر بن الحرث، حجب الله رسوله عن أبصارهم عند قراءته للقرآن، فكانوا يأتونه ويمرّون به ولا يرونه، حال الله بينه وبينهم حتى لا يؤذوه^(٣).

وبعدها قوله سبحانه : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾^(٤) قال الطبرسي قيل : يعني به أبا جهل وزمعة بن الأسود وعمرو بن هشام وحويطب بن عبد العزّي، اجتمعوا وتشاوروا في أمر النبي، فقال أبو جهل : هو مجنون، وقال زمعة : هو شاعر، وقال حويطب : هو كاهن. ثم أتوا الوليد بن المغيرة وعرضوا ذلك عليه فقال : هو ساحر^(٥).

(١) مجمع البيان ٧ : ٤٠٨.

(٢) الإسراء : ٤٥.

(٣) مجمع البيان ٧ : ٦٤٥.

(٤) الإسراء : ٤٧.

(٥) مجمع البيان ٧ : ٦٤٦.

وبعدها قوله سبحانه : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ
بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ ^(١) روى الطبرسي عن الكلبي قال : كان
المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بمكة ، فيقولون : يا رسول الله ائذن لنا
في قتالهم ! فيقول لهم : اني لم أؤمر فيهم بشيء ، فنزلت ^(٢).

وبعدها قوله سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا
الْأَوَّلُونَ ﴾ ^(٣) فاستحقوا العقاب بالتكذيب بالآية التي هم طلبوها بالتعيين اقتراحاً
على نبيهم . وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام قال : ذلك
أن محمداً سأله قومه أن يأتيهم بآية ، فنزل جبرئيل فقال : إن الله يقول : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا
أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ ﴾ الى قومك ﴿ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ وكنا اذا أرسلنا الى قرية
آية فلم يؤمنوا أهلكتناهم ، فلذلك أخرنا عن قومك الآيات ^(٤).

وروى السيوطي بإسناده عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن
يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحّي عنهم الجبال فيزرعون . فأوحى اليه : إن شئت أن
نتأني بهم ، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوها فإن كفروا أهلکوا كما أهلكت من قبلهم
من الأمم ؟ قال : لا ، بل أستاذني بهم . فانزل الله : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ ﴾ ^(٥).

وذكر هذا في معنى الآية الشيخ الطبرسي ^(٦) بلا إسناد الى رواية .

وبعدها قوله سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ

(١) الإسراء : ٥٣ .

(٢) مجمع البيان ٧ : ٦٥٠ .

(٣) الإسراء : ٥٩ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٢١ .

(٥) الدر المنثور ٤ : ١٩٠ ، سورة الإسراء .

(٦) مجمع البيان ٧ : ٦٥٣ .

وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿١﴾.

روى الطبرسي عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد عن ابن عباس قالوا: إنَّ المراد بـ ﴿الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ ما أراه في إسرائه إلى المسجد الأقصى بروية العين لا رؤيا المنام، ولكنه حيث رأى ذلك ليلاً وأخبر بها حين أصبح سهاها رؤيا.

وروى عن الحسن وابن عباس أنَّ الشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم. وتقدير الآية: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس).

وأراد بالفتنة الامتحان وشدة التكليف، ليعرض المصدق بذلك لجزيل ثوابه والمكذب لأليم عقابه. وأما كانت شجرة الزقوم فتنة لما روي: أنَّ أبا جهل قال: إنَّ محمداً يوعدهم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنَّه تنبت فيها الشجرة! فقال المشركون: إنَّ النار تحرق الشجرة فكيف تنبت الشجرة في النار؟! وصدق بها المؤمنون^(٢).

وقال فيه: روي أنَّ قريشاً لما سمعت الآية: ﴿أَذَلِّكَ خَيْرٌ نُّزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾^(٣) قالوا: ما نعرف هذه الشجرة، فقال ابن الزُّبَيْرِ: الزقوم بلغة اليمن أو البربر: الزبد والتمر! فقال أبو جهل لجاريته: يا جارية زقينا! فأتته الجارية بتمر وزبد، فقال لأصحابه: تزقوا بهذا الذي يخوفكم به محمد فيزعم أنَّ النار تنبت الشجرة، والنار تحرق الشجرة. فأنزل الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾^(٤).

(١) الإسراء: ٦٠.

(٢) جمع البيان ٧: ٦٥٤، ٦٥٥.

(٣) الصافات: ٦٢.

(٤) جمع البيان ٨: ٦٩٤ والآية في الصافات: ٦٣.

وأول ما ذكرت شجرة الزقوم في القرآن ذكرت في سورة الواقعة السادسة والأربعين، في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَها الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ * لَا كِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقوم * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾^(١) فالظاهر أن استهزاء أبي جهل والمشركون كان هنا لأول مرة، وفي سورة الإسراء بعد أربع سور من الواقعة أشار الى فتنهم بهذه الشجرة المذمومة في القرآن في سورة الواقعة. ثم كرّر ذلك في سورة الصافات، وإلا فالصافات قد نزلت بعد الاسراء.

وروى السيوطي باسناده عن جماعة منهم البخاري والترمذي والنسائي وأحمد بن حنبل والطبري والطبراني والبيهقي في «دلائل النبوة» عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا أَنَّها لَيْستَ رُؤْيَا مَنامٍ بل هي رُؤْيَا عَيْنٍ لما رآه ليلة أُسري به الى بيت المقدس. وأنَّ ﴿الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ هي شجرة الزقوم. ورواه أيضاً عن ابن عساكر وابن سعد وأبي يعلى عن أمّ هانئ^(٢).

وفيها قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣) وقال ابن شهر آشوب في «المناقب»: قال قريش مكة... إن هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء وإنما أرض الأنبياء الشام فأتت الشام. فنزلت ﴿وَإِنْ كَادُوا...﴾^(٤) ورواه الطبرسي عن مجاهد وقتادة^(٥).

ومنها قوله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(٦).

(١) الواقعة : ٥١ - ٥٤.

(٢) الدر المنثور ٤ : ١٩١، سورة الإسراء.

(٣) الإسراء : ٧٦.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١ : ٤٩.

(٥) مجمع البيان ٦ : ٦٦٧.

(٦) الإسراء : ٨٥.

روى السيوطي بإسناده عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : اعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل . فقالوا : سلوه عن الروح ^(١) فان أجابكم فليس بنبيّ، وإن لم يجيبكم فهو نبيّ، فإنّا نجد في كتبنا ذلك . فوكلّهم الله في معرفة الروح الى ما في عقولهم ليكون ذلك علماً على صدقه ودلالةً لنبوّته ^(٢) .

ومنها قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ ^(٣) .

روى الطبرسي عن ابن عباس : أنّ جماعة من قريش وهم : عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبیه ومنبه ابنا الحجاج، والنضر بن الحارث، وابو البخري بن هشام... اجتمعوا عند الكعبة وقال بعضهم لبعض : ابعثوا الى محمّد فكلّموه وخاصّموه . فبعثوا اليه : إنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك .

وكان ﷺ حريصاً على رشدهم، فظنّ أنّهم بدا لهم في أمره، ولذلك بادر اليهم . فقالوا : يا محمّد ! إنّنا دعوناك لتُعذّر اليك، فلا نعلم أحداً أدخل على قومه ما أدخلت على قومك : شتمت الآلهة وعِبت الدين وسفّهت الأحلامَ وفرّقت

(١) الدر المنثور ٤ : ١٩٥، سورة الإسراء .

(٢) جمع البيان ٦ : ٦٧٤ .

(٣) الإسراء : ٩٠ - ٩٣ .

الجماعة، فإن كنت جئت بهذا لتطلب مالاً اعطيناك، وإن كنت تطلب الشرف سوّدناك علينا، وإن كانت بك علة غلبت عليك طلبنا لك الأطباء!

فقال ﷺ: ليس شيء من ذلك، بل بعثني الله اليكم رسولاً، وأنزل كتاباً، فإن قبلتم ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه أصبر حتى يحكم الله بيننا.

قالوا: إذن فليس أحد أضيق بلدًا منّا، فاسأل ربك أن يسير هذه الجبال ويجري لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وأن يبعث لنا من مضى وليكن فيهم قصي - فإنه شيخ صدوق - لنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل؟

فقال: ما بهذا بُعثت. قالوا: فإن لم تفعل ذلك فاسأل ربك أن يبعث ملكاً يصدّقك ويجعل لنا جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب.

فقال: ما بهذا بعثت، وقد جئتكم بما بعثني الله به، فإن قبلتم، وإلا فهو يحكم بيني وبينكم. قالوا: فأسقط علينا السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك - قال: ذاك إلى الله إن شاء فعل.

وقال قائل منهم: لا تؤمن حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً.

فقام النبي ﷺ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية المخزومي ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال: يا محمد! عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله، ثم سألك لأنفسهم أموراً فلم تفعل، ثم سألك أن تعجل ما تخوفهم به فلم تفعل، فوالله لا تؤمن بك أبداً حتى تتخذ سلماً إلى السماء ثم ترقى فيه وأنا انظر ويأتي معك نفر من الملائكة يشهدون لك وكتاب يشهد لك.

وقال أبو جهل: إنه أبي إلا سب الآلهة وشم الآباء، وأنا أعاهد الله لأحملن

حجراً، فاذا سجد ضربت به رأسه!

فانصرف رسول الله حزينا لما رأى من قومه، فأنزل الله سبحانه الآيات^(١) وذكر مختصره ابن شهر آشوب في «المناقب»^(٢).

ومنها قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾^(٣) روى العياشي عن زرارة وحران ومحمد بن مسلم عن الباقر والصادق عليه السلام قالا : كان رسول الله ﷺ إذا كان بمكة يجهر بصلاته فيعلم بمكانه المشركون فكانوا يؤذونه، فأنزلت هذه الآية عند ذلك^(٤) وكان في قولهما عليه السلام «إذا كان بمكة» إشعاراً بأن ذلك كان في حالة خاصة، وليس مطلقاً.

والى هذه الرواية من العياشي يشير الطبرسي يقول : روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام : أن النبي ﷺ كان إذا صلى فجهر في صلاته تسمع له المشركون وذلك بمكة في أول الأمر، فيؤذونه ويشتمونه، فأمره سبحانه بترك الجهر^(٥).

وروى الطوسي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن النبي ﷺ كان إذا صلى جهر في صلاته بمكة في أول الأمر، فيسمعه المشركون فيشتمونهم ويؤذونه وأصحابه، فأمر الله بترك الجهر^(٦) ورواه عن ابن عباس ابن اسحاق في سيرته^(٧).

(١) مجمع البيان ٦ : ٦٧٨ ، ٦٧٩ . ورواه السيوطي في الدر المنثور ٣ : ٢٠٢ وكذلك رواه سيبأ لنزول الآيتين ٧ و ٨ من سورة الفرقان ٥ : ٦٣ ، وكلاهما عن ابن عباس والقصة واحدة ! وأخبار النزول هكذا مضطربة ومشوشة .

(٢) مناقب آل أبي طالب ١ : ٥٥ .

(٣) الإسراء : ١١٠ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٣١٨ .

(٥) مجمع البيان ٦ : ٦٨٩ .

(٦) التبيان ٦ : ٥٣٤ .

(٧) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٣٥ .

السورة الحادية والخمسون - «يونس»:

وفيها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُبْجِرُونَ ﴿^(١)

روى الطبرسي عن مقاتل قال : نزلت في خمسة نفر : عبد الله بن أمية المخزومي ، والوليد بن مغيرة المخزومي ، ومكرز بن حفص ، والعاص بن عامر ابن هاشم ، وعمر بن عبد الله العامري ، قالوا للنبي ﷺ : ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وهبل وليس فيه عيبها . ومثله عن الكلبي مختصراً^(٢) وقبله نقل الطوسي عن الزجاج قال : كان غرضهم إسقاط ما فيه من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، ومن ذكر البعث والنشور ، فأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم في جواب ذلك : ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾^(٣) .

السورة الثانية والخمسون - «هود»:

﴿ الرِّكَابُ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿ فالبشارة : ﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْتَغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ والانذار : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ إلى الله مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ وأما كيفية مواجهتهم له ولكتابه هذا ففي قوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ

(١) يونس : ١٥ - ١٧ .

(٢) جمع البيان ٥ : ١٤٦ ورواه الواحدي في أسباب النزول : ٢١٦ ط الجميلي .

(٣) التبيان ٥ : ٣٥٠ .

يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١﴾.

روى الكليني في «الكافي» بإسناده عن سدير الصيرفي الكوفي عن الامام الباقر عليه السلام قال : أخبرني جابر بن عبد الله : أن المشركين كانوا اذا مروا برسول الله صلى الله عليه وآله حول البيت ، طأطأ أحدهم رأسه وظهره (هكذا) وغطى رأسه بثوبه لا يراه رسول الله ، فأنزل الله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ ورواه العياشي ، وعنه الطبرسي في «جمع البيان» والبحراني في «البرهان» والفيض الكاشاني في «الصافي»^(٢) ورواه السيوطي بإسناده عن أبي رزين قال : كان أحدهم يحني ظهره ويستغشي بثوبه^(٣).

وفيها قوله سبحانه : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾^(٤).

وروى الطبرسي عن ابن عباس : أن رؤساء مكة من قريش أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : يا محمد إن كنت رسولا فحوّل لنا جبال مكة ذهباً أو ائتنا بملائكة يشهدون لك بالنبوة ! فأنزل الله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا ... ﴾^(٥).

وبعدها قوله سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٦).

(١) هود : ١ - ٥.

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٣٩ وجمع البيان ٥ : ٢١٥ والبرهان ٢ : ٢٠٦ والصافي ١ : ٧٧٧.

(٣) الدر المنثور ٣ : ٣٢٠ ، سورة هود .

(٤) هود : ١٢ .

(٥) جمع البيان ٥ : ٢٢١ .

(٦) هود : ١٣ .

السورة الرابعة والخمسون - «الحجر»:

وفيها قوله سبحانه : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(١) وما مرّ فيها من أبحاث.

والآن وبعد أن استعرضنا ما نزل من القرآن الكريم قبل هذه الآية مما فيه إشارة الى حوادث البعثة وما بعدها، فهل كان فيه ما ينسجم مع سرّية الدعوة حتى نزول هذه الآية وبداية الإعلان للعموم بها مع نزول هذه الآية؟ أم كان جلّه أو كله ممّا لا ينسجم إلاّ مع الإعلان بالدعوة للعموم منذ الأوّل أو الأوائل؟ ممّا يؤيّد الخبر والقول بتقدم المرحلة السريّة على نزول القرآن، وبدء الدعوة العلنية العامّة مع بدء نزول القرآن أو قريباً منه، وقد مرّ خبره والقول به قبل هذا.

وسبق أيضاً في معنى قوله سبحانه : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ عدم التسليم لما اشتهر في معناه أنّه أمر بإظهار الدعوة العامّة والإعلان بها، واختيار خبر المفيد أنّ الآية أمر بالاعراض عن تهديد المشركين المستهزئين الستة المقتسمين الأبواب الستة لمنع الحجاج والمعتمرين عن الاستماع والاستجابة للرسول الأمين، الذين أمهلوه الى الزوال ليترك أمره أو يقتلوه. فالآية أمر له بالاعراض عن هذا التهديد لهؤلاء المشركين والصدع بأمره، لا ابتداءً به بل استمراراً واستدامة فيه. وسبق أن لولا هذا المعنى لما كان أيّ معنى مناسب للاعراض عن المشركين في الآية، بل كان الأنسب أن يؤمر بالتصدّي لهم لا بالاعراض عنهم. وكذلك ما كان من المناسب أن يتواجد هناك مستهزئون معروفون بذلك، مقتسمون لأبواب مكّة لمنع عنه في حين أنّ دعوته سرّية. إذن فالصدع بالأمر وإعلان الدعوة لم يكن الحدث الآخر المشار اليه في هذه

الآيات الأواخر من «سورة الحجر» بل هو الحدث الأوّل المشار اليه بالآيات الأوائل من سورة القلم أو المدثر أو الضحى.

ويبقى أهم الأحداث المشار إليها فيما نزل من القرآن الى آخر «سورة الحجر»: المعراج في (سورة النجم: ٢٣) ثم إنذار العشيرة الأقربين في (سورة الشعراء: ٤٢) ثم الإسراء في (سورة الإسراء: ٥٠). إذن فالإنذار كان بين المعراج والإسراء، بعد المعراج بكثير وقبل الإسراء بقليل. فمتى كانت هذه الحوادث؟

وقبل الوصول الى جواب هذا السؤال أقول: إنّما فرّقت هنا بين المعراج والإسراء وقدّمت ذكر المعراج على الإسراء تبعاً لسورتي النجم والإسراء في ترتيب النزول، وسورة النجم لم تذكر الإسراء وسورة الإسراء لم تذكر أكثر من الإسراء، بل إنّ الضمائر في آيات سورة النجم غير صريحة في الرجوع الى الرسول ﷺ بل هي مرددة بينه وجبرئيل عليه السلام لولا أنّ الأخبار والروايات والأحاديث فسّرتها بالمعراج وبعد الإسراء، بل إنّ الآيات إنّما أشارت الى ما كان قد تحدّث عنه الرسول فجادله فيه المشركون «أفتمارونه على ما يرى» وفي سورة الإسراء أضافت الإخبار بالمعراج بعد الإسراء، فلم تجعل المعراج بلا إسراء، ولا الإسراء بلا معراج فكان كلاهما إسراء ومعراجاً، ممّا جعل أخبارهما متداخلة غير متميّز أوّلها عن الثاني، بل ولا أحدهما عن الآخر.

ومن المحتمل أن تكون الآية الاولى من سورة الإسراء إنّما تُذكر بما تضمّنته وأضمرت عنه وأشارت اليه سورة النجم السابقة، لولا أنّ الأخبار أفادت التكرار مرتين^(١)، ولكنّها غير متميّزتين حتّى في تأريخهما.

(١) انظر أصول الكافي ١: ٤٤٢ ومناقب آل أبي طالب ١: ١٧٧ وسعد السعود: ١٠٠ والميزان

الفصل الخامس

الإسراء والمعراج

تأريخ المعراج والاسراء:

وفي تأريخ الإسراء : روى القطب الراوندي في «الخرائج والجرائح» عن علي عليه السلام أنه : لما كان بعد ثلاث سنين من مبعثه ﷺ أُسري به الى بيت المقدس وعُرج به منه الى السماء ليلة المعراج ، فلما أصبح من ليلته حدث قريشاً بنخبر معراجهم^(١).

ومجموع ما نقله المجلسي في باب المعراج في تأريخه كما يلي : ذكر خبر «الخرائج»^(٢) ونقل عن «المناقب» عن ابن عباس أنه : كان في شهر ربيع الأول بعد النبوة بسنتين . وفيه عن الواقدي والسدي أنه : كان قبل الهجرة بستة أشهر في السابع عشر من شهر رمضان^(٣).

(١) الخرائج والجرائح ١ : ١٤١ ط قم .

(٢) بحار الأنوار ١٨ : ٣٧٩ .

(٣) بحار الأنوار ١٨ : ٣٨١ .

وعن الواقدي أيضاً في «المنتقى» للكاظمي قال : كان المسري في ليلة السبت لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان في السنة الثانية عشرة من النبوة قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً. وفيه قيل : ليلة سبع عشرة من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة ، من شعب أبي طالب الى بيت المقدس . وقيل : ليلة سبع وعشرين من رجب . وقيل : كان الإسراء قبل الهجرة بسنة وشهرين وذلك سنة ثلاث وخمسين من عام الفيل^(١).

وعن «العدد القوية» قال : في ليلة احدى وعشرين من رمضان قبل الهجرة بستة أشهر كان الإسراء برسول الله . وقيل : في السابع عشر من شهر رمضان ليلة السبت . وقيل : ليلة الاثنين من شهر ربيع الأول بعد النبوة بسنتين . وفيه عن كتاب «التذكرة» : في ليلة السابع والعشرين من رجب السنة الثانية من الهجرة كان الإسراء^(٢). فالاختلاف من سنة بعد البعثة الى سنتين بعد الهجرة!

ويبدو أنّ الراجح من هذه الأقوال والروايات هو رواية الراوندي عن علي عليه السلام ، فلننظر في سائر المرجّحات .

أمّا سورة النجم فإنّها نزلت بعد اثنتين أو ثلاث وعشرين سورة ، وقد نزل بعدها أربع وستون سورة في مكة^(٣) فالطبيعي أن تكون قد نزلت فيما بين الثلثين الأول والثاني من العشر سنين مدّة التنزيل بمكة قبل الهجرة ، أي في نهاية السنة الثالثة أو بدايات العام الرابع من تلك المدّة .

إلا أنّه يمكن القول بأنّ السور الأوائل من القصار المفصّلات ، بينما ما يليها من المثني والمثاني المطوّلات ، فمن المحتمل أن تكون السور العشرون الأوائل نازلة في السنة الأولى من تلك المدّة ، والسور الستون البواقي نازلة في السنين التسع

(١) بحار الأنوار ١٨ : ٣٠٢ .

(٢) بحار الأنوار ١٨ : ٣١٩ .

(٣) راجع مجمع البيان ١٠ : ٦١٢ في سورة الانسان والتهديد : ١٠٥ وتلخيصه : ٩٥ .

البواقي، وعليه فيكون المعراج ونزول سورته في أواخر السنة الأولى من تلك المدّة. وقد مرّ في خبر القميّ في تفسيره: أنّ اسماعيل المَلِك سأل جبرئيل: من هذا معك؟ فقال: محمّد، قال: أو قد بُعث؟ قال: نعم^(١) أو: أو قد أرسل اليه؟^(٢) وإنّما يتناسب هذا التساؤل مع أوائل البعثة بالنبوة أو الرسالة والتّزِيل عليه، لا بعد ذلك بكثير، فضلاً عمّا بعد الهجرة.

ومع الالتفات إلى التفريق بين البعثة بالنبوة والرسالة ينتفي الخلاف بين عمدة الأقوال: السنة الثانية والخامسة، فالثانية من الرسالة والتّزِيل هي الخامسة من البعثة بالنبوة، وسيما وأنّ رواية السنة الثانية تنتهي إلى ابن عبّاس وهو المعروف بالقول بنزول القرآن في عشر سنين، فكأنّه لا يحسب الثلاث سنوات الأولى لاعتبار أنّه ﷺ إنّما أمر بالانذار بعدها.

وابن عبّاس أدرك مدّة قصيرة من حياة الرسول ﷺ ولم يكن معه حين معراجه حتّى يكون شاهداً بتأريخه، فلا بدّ أنّه نقله من شخص آخر لم يذكره، فهو نقل تأريخي لم يُذكر المصدر فيه فلا قيمة له عند التحقيق، لولا أنّنا نعلم أنّ أكثر علم ابن عبّاس هو من علم علي عليه السلام، فيبدو أنّه ينقله عنه عليه السلام، إلّا أنّ النقل اختلف عنهما بين الاثنين والثلاث.

ولعلّ الذين أرخوا المعراج بعام ونصف أو بخمسة عشر شهراً بعد مبعثه^(٣) أو بعد البعثة بستة عشر شهراً^(٤) أخذوا السنتين عن ابن عبّاس واجتهدوا فيها بالمداقة في شهورها مختلفين.

(١) تفسير القميّ ٢ : ٥.

(٢) تأريخ الخميس ١ : ٣١٠ وجمع الزوائد ١ : ٧٠ عن المواهب اللدنية ٢ : ٦.

(٣) سيرة مغلطاي : ٢٧.

(٤) شرح الشفا للقاري ١ : ٢٢٢.

ولعلّ من أقوى ما يدلّ على تأريخ المعراج بأوائل السنة الخامسة : ما مرّ من اثبات ميلاد فاطمة الزهراء عليها السلام في السنة الخامسة من النبوة، بالاضافة الى ما روى عن الامام الصادق عليه السلام وابن عباس وسعد بن مالك وسعد بن أبي وقاص وعائشة : أنها إذ عاتبته على كثرة تقبيله لابنته الزهراء قال لها : يا عائشة ! لما أُسري بي الى السماء أدخلني جبرئيل الجنة، فناولني منها تفّاحة، فأكلتها، فصارت نقطة في صلبى، ففاطمة من تلك النطفة، ففاطمة حوراء إنسية، وكلّما اشتقت الى الجنة قبلتها^(١).

وقد علّم بما مرّ أنّ فاطمة ولدت بعد البعثة بخمس سنين أي في السنة الثانية من الرسالة والتنزيل - وهو محمل قول الشيخ المفيد ومن قال بولادتها في السنة الثانية - واذا كان ظهور نطفة فاطمة واستقرارها في موضعها طبيعياً اقتضى أن يكون المعراج قبل ذلك بأكثر من تسعة أشهر ولا أقلّ منها، ولكن لا يدرى هل هي من المعراج الأوّل أو الثاني ؟ فلو كانت من الأوّل اقتضى ذلك ترجيح القول الأوّل بأن المعراج كان بعد سنة من الرسالة، ليكون ميلاد الصديقة في السنة الثانية . وبما أن التأريخ بسنة البعثة بالنبوة لا السنة العربية بدءاً بمحرّم، فالحساب من شهر شعبان - بعد البعثة في أواخر شهر رجب - واليه، وعليه فيترجّح القول بكون

(١) بحار الأنوار ١٨ : ٣١٥ و ٣٥٠ و ٣٦٤ عن تفسير القميّ وعلل الشرائع وملحقات إحقاق الحق للمرعشي ١٠ : ١ - ١١ وأخبار الدول : ٨٧ وتاريخ بغداد ٥ : ٨٧ وذخائر العقبى : ٣٦ . وكنز العمال ٣٠ : ٩٤ و ١٤ : ٩٧ . ومجمع الزوائد ٩ : ٢٠٢ . ومحاضرات الأوائل : ٨٨ . ومستدرك الحاكم ٣ : ١٥٦ وتلخيصه للذهبي والمطالب السنية : ٢٣٩ . ومفتاح النجا : ٩٨ مخطوط . ومقتل الخوارزمي : ٦٤ ومناقب المغازلي : ٣٥٨ والمواهب اللدنية ٢ : ٢٩ ، وميزان الاعتدال ١ : ٣٨ و ٢٥٣ و ٢ : ٢٦ و ٨٤ و ١٦٠ و ٢٩٧ ونزهة المجالس ٢ : ١٧٩ . ونظم درر السمطين : ٧٧ . ووسيلة المآل : ٧٨ . وينابيع المودة : ٩٧ .

المعراج الأول في شهر رمضان ولعله في إحدى ليالي القدر : التاسع عشر أو الحادي والعشرين كما مرّ عن «العدد القوية» وكما مرّ عن «المنتقى» عن الواقدي، وعن «المناقب» عن الواقدي والسدي. وبعد تسعة أشهر من شهر رمضان يكون شهر جمادى الثانية ميلاد الصديقة عليها السلام. وفي شهر رجب بعد الجمادى الثانية تنتهي السنة الثانية للرسالة والخامسة للنبوّة.

وعليه فيكون ما في «الخرائج» عن علي عليه السلام من تأريخ المعراج بالسنة الثالثة تأريخاً للإسراء والمعراج الثاني، فإمّا كذلك في شهر رمضان أيضاً أو في شهر ربيع الأول في ليلة السابع عشر منه أي ميلاد الرسول صلّى الله عليه وآله كما عن «الاقبال»^(١) ومرّ عن «العدد القوية» و«المنتقى» وعن «المناقب» عن ابن عباس.

أمّا إذا افترضنا ميلاد الزهراء عليها السلام بعد الإسراء والمعراج الثاني، وافترضنا ما في «الخرائج» عن علي عليه السلام تأريخاً له - أي الثاني - فإنّ ميلاد الزهراء سيكون في السنة الثالثة من الرسالة والسادسة من النبوّة، ممّا لا يتفق مع القول المعول عليه والروايات المعتمدة. وكذلك أيضاً إذا افترضنا السنة الثالثة تأريخاً للمعراج الأول. اللهم إلا أن نقول بتأخير الولادة عن الإسراء والمعراج إلى السنة الخامسة من الرسالة، أي بعد سنتين من المعراج في السنة الثالثة، ولكنه خلاف ظاهر الأخبار، نعم إلا أن نقول بأنّ الإسراء والمعراج الثاني كان في السنة الخامسة من الرسالة والولادة بعدها فيها كذلك. ولكن هذا يقتضي أن يكون عمر الصديقة حين الهجرة خمس سنين وحين الزواج ست سنين ممّا لم يقل به أحد ولا يُعقل. فزرجع إلى ترجيح كونها من المعراج الأول وميلادها بعده كما مرّ، وحيث لم يتفق ذلك مع كون المعراج الأول في السنة الثالثة من الرسالة كما مرّ آنفاً، فليكن ذلك تأريخاً للإسراء والمعراج الثاني.

ويبقى أننا لو رجّحنا أن تكون السنة الثالثة فيما رواه «الخرائج» عن علي عليه السلام تأريخاً للإسراء والمعراج الثاني، فهنا اشكالان :

الأول : أن الخبر بصدد بيان ما يتعلق بالمعراج بالتفصيل، فلماذا لم يبين بل لم يُشر الى المعراج الأول السابق - أو الآخر اللاحق - لا من قريب ولا من بعيد؟ وكذلك أكثر أخبار الإسراء والمعراج.

الثاني : أننا لو رجّحنا القول بكون الإسراء والمعراج الثاني في السنة الخامسة من الرسالة كان ذلك منسجماً مع كون سورة الإسراء السورة الخمسين في ترتيب النزول، ونزل في الخمس سنين بعدها زهاء ثلاثين سورة من المئين أو المئتين المطوّلات نسبياً بينما لو رجّحنا السنة الثالثة تأريخاً للإسراء والمعراج الثاني استلزم أن يكون النازل في مدّة هذه السنين الثلاثة خمسين سورة، بينما النازل في السبع سنين البواقي ثلاثين سورة. اللهم إلا أن يلتزم بذلك بحجة أن السور الأوائل قصار مفصّلات والبواقي مئين أو مئتان مطوّلات نسبياً.

ولعلّ ممّا يؤيّد هذا ما رواه السيوطي في «الدر المنثور» بأسناده عن عبد الله بن مسعود قال عن سورة الإسراء ومريم والكهف : إنهنّ من العتاق الأول^(١) هذا وهو من المهاجرين الى الحبشة، وهي كانت في السنة الخامسة.

والظاهر أن المقصود بالخامسة هي الخامسة من النبوة لا الرسالة والتنزيل، أي بعد الرسالة والتنزيل بعامين، ولكن حتّى لو كانت الخامسة من الرسالة فإنّ ظاهر الخبر أنّ سورة الإسراء كانت قد نزلت قبل الهجرة الى الحبشة بمدّة ليست بقصيرة بل طويلة.

(١) الدر المنثور ٤ : ١٣٦ عن ابن الضريس وابن مردويه وصحيح البخاري ٣ : ٩٦ .

تأريخ يوم الدار:

أمّا تأريخ انذار يوم الدار فهو يتبع تأريخ الإسراء والمعراج الثاني قبله بمدة تسع وتناسب لنزول سورتي: النمل ٤٨ وآياتها ٩٢ والقصص ٤٩ وآياتها ٨٨. فلو قلنا بكون المعراج الثاني في السنة الخامسة أو الثالثة، فلو كان في الربيع الأوّل منها وهو الشهر الثامن منها كان من الممكن أن يكون الانذار في أوائلها أو آخر شهر رجب أو شعبان أو رمضان منها، أما لو كان المعراج في شهر رمضان اقتضى أن يكون الانذار في أوائل السنة السابقة: الرابعة أو الثانية من الرسالة.

ويكون عمر علي عليه السلام يومئذٍ - على أن ميلاده بعد عام الفيل بثلاثين سنة - في السنة الثانية من الرسالة: خمس عشرة سنة، وفي السنة الرابعة منها: ست عشرة سنة.

وحيث جرّنا البحث عن المرحلة السريّة والعلنية الى ملاحظة سير الحوادث بعد البعثة والتنزيل من خلال الآيات الكريمة حتّى آخر السورة الرابعة والخمسين، سورة الحجر، فلا بأس بأن نستمر على هذه الطريقة لنلاحظ سير الحوادث من خلال نزول التنزيل.

السورة الخامسة والخمسون - «الأنعام»:

التي نزلت جملة واحدة كما في خبر أبي بن كعب عن النبي ﷺ كما في «مجمع البيان»^(١). وخبر العياشي عن الامام الصادق عليه السلام^(٢) والقمي عن الرضا عليه السلام^(٣) وفيها قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ

(١) مجمع البيان ٤: ٤٢١ وعن عكرمة وقتادة.

(٢) تفسير العياشي ١: ٣٥٣.

(٣) تفسير القمي ١: ١٩٣.

كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿١﴾.

وروى الطبرسي عن الكلبي قال : نزلت في عبد الله بن أبي أمية ونضر بن الحارث ونوفل بن خويلد ، قالوا : يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنتك رسوله (٢) وكذلك رواه ابن شهر آشوب في المناقب (٣).

وفيها قوله سبحانه : ﴿ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أَمِرتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤).

قال الطبرسي قيل : إن أهل مكة قالوا لرسول الله : يا محمد تركت ملة قومك ، وقد علمنا أنه لا يحملك على ذلك إلا الفقر ، فإننا نجمع لك من أموالنا حتى تكون أغنانا ، فنزلت الآية (٥) ونقله كذلك ابن شهر آشوب في «المناقب» (٦).

وفيها قوله سبحانه : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٧).

(١) الأنعام : ٧ - ٩ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٤٢٨ .

(٣) مناقب آل أبي طالب ١ : ٤٨ .

(٤) الأنعام : ١٤ - ١٥ .

(٥) مجمع البيان ٤ : ٤٣٣ .

(٦) مناقب آل أبي طالب ١ : ٤٩ .

(٧) الأنعام : ١٩ ، ٢٠ .

في «تفسير القمي» برواية أبي الجارود عن الامام الباقر عليه السلام قال : إن مشركي أهل مكة في أول مادعاهم رسول الله قالوا له : يا محمد ! ما وجد الله رسولا يُرسله غيرك؟! ما نرى أحداً يصدقك بالذي تقول ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك ذكر عندهم . فأتنا بمن يشهد أنك رسول الله . فقال رسول الله : ﴿ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾^(١) وروى الطبرسي مثله عن الكلبي^(٢) وكذلك ابن شهر آشوب في «المناقب»^(٣).

وفيها قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾^(٤).

قال الطبرسي في «مجمع البيان» قيل : إن نقرأ من مشركي مكة منهم : أبو سفيان بن حرب وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة^(٥) وغيرهم ، جلسوا الى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن ، فقالوا للنضر : ما يقول محمد ؟ فقال : أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية ، فأنزل الله هذه الآية . وروي : أن النبي ﷺ كان يصلي بالليل ويقرأ القرآن في الصلاة جهراً ، رجاء أن يستمع الى قراءته انسان فيتدبر معانيه ويؤمن به ، فكان المشركون اذا سمعوه آذوه ومنعوه عن الجهر بالقراءة ، فكان الله تعالى يلقي عليهم النوم أو يجعل في قلوبهم أكنة ليقطعهم عن مرادهم^(٦).

(١) تفسير القمي ١ : ١٩٥ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٤٣٦ والواحي في أسباب النزول : ١٧٤ عن الكلبي أيضاً .

(٣) المناقب للسروي ١ : ٥٠ .

(٤) الأنعام : ٢٥ .

(٥) كذا ، والمفروض أنه هلك مع المستهزئين الستة قبل نزول الأنعام .

(٦) مجمع البيان ٤ : ٤٤٢ .

وفيهما قوله سبحانه : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(١) قال الطبرسي : أي ينهون الناس عن اتباع النبي ويتباعدون عنه فراراً منه ، أو ينهون الناس عن استماع القرآن ويتباعدون عن استماعه ، كما عن محمد بن الحنفية وابن عباس والحسن والسدي وقتادة ومجاهد ، وقال مقاتل وعطاء : عني به أبا طالب بن عبد المطلب ! وهذا لا يصح ؛ لأن هذه الآية معطوفة على ما تقدمها وما تأخر عنها معطوف عليها ، وكلها في ذم الكفار المعاندين ^(٢) وفيها قوله سبحانه : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ ^(٣).

قال الطبرسي في مجمع البيان : روي : أن أبا جهل قال للنبي ﷺ : ما نتهمك ولا نكذبك ، ولكننا نتهم الذي جئت به ونكذبه ^(٤).

وفيهما قوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ^(٥).

في «تفسير القمي» في خبر أبي الجارود عن الامام الباقر عليه السلام قال : كان رسول الله ﷺ يحب اسلام الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ،

(١) الأنعام : ٢٦ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٤٤٤ .

(٣) الأنعام : ٣٣ .

(٤) مجمع البيان ٣ : ٤٥٦ ونقله الراحي في أسباب النزول : ١٧٦ عن أبي مسرة وخبراً آخر عن السدي وقولاً آخر عن مقاتل .

(٥) الأنعام : ٣٥ .

دعاه رسول الله أن يُسلم فغلب عليه الشقاء ، فشقّ ذلك على رسول الله فأنزل الله قوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ ^(١) .

وفيها قوله سبحانه : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٢) .

روى الطبرسي عن الثعلبي بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال : مرّ الملا من قريش على رسول الله ﷺ وعنده صهيب وخبّاب وبلال وعمار وغيرهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا : يا محمّد! أَرْضِيتَ بهؤلاء عن قومك؟! أفنحن نكون تبعاً لهم؟! أهؤلاء منّ الله عليهم؟! اطْرُدْهُمْ عَنْكَ ، فلعلّك إن طردتهم تبعناك! فأنزل الله في ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ... ﴾ ^(٣) .

وفيها قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا

(١) تفسير القمي ١ : ١٩٨ .

(٢) الأنعام : ٥١ - ٥٤ .

(٣) جمع البيان ٤ : ٤٧٢ ورواه الواحدي في أسباب النزول : ١٧٦ والسيوطي في لباب النقول :

خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١١﴾.

روى السيوطي في «الدر المنثور» عن عكرمة عن ابن عباس : أن النضر بن الحارث لفق جملات هكذا : والطاحنات طحناً والعاجنات عجنأ... يقابل بها سورة المرسلات (الثالثة والثلاثين في النزول) فنزلت الآية (١٢).

وقال الطوسي : قال عكرمة إن الآية ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى ... ﴾ نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة حيث قال سوف يشفع في اللات والعزى (١٣).

وفيه قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٤﴾.

روى الطبرسي عن الامام الباقر عليه السلام قال : لما نزلت ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قال المسلمون : إن كان كلنا استهزأ المشركون بالقرآن قنا وتركناهم فلا ندخل المسجد الحرام ولا نطوف بالبيت الحرام؟! فأنزل الله : ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أمرهم بتذكيرهم وتبصيرهم ما استطاعوا. ثم نقل عن البلخي قال : كان ذلك في أول الاسلام وكان يختص بالنبي ﷺ ورخص المؤمنين في ذلك بقوله : ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ولما كثر المسلمون

(١) الأنعام : ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) الدر المنثور ٣ : ٣٠ .

(٣) التبيان ٤ : ٢٠٨ وعنه في مجمع البيان ٤ : ٥٢١ .

(٤) الأنعام : ٦٨ - ٦٩ .

نسخت هذه الآية بقوله : ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾^(١).

وفيها قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٢).

روى القمي في تفسيره بسنده عن الامام الصادق عليه السلام قال : كان المؤمنون يسبّون ما يعبد المشركون من دون الله، وكان المشركون يسبّون ما يعبد المؤمنون، فنهى الله المؤمنين عن سب آلهتهم لكي لا يسب الكفار اله المؤمنين^(٣).
وأضاف الطبرسي عن ابن عباس : أنّ المشركين قالوا لرسول الله : يا محمد ! لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك ! فنزلت : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾^(٤).

ومنها قوله سبحانه : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ * وَنُقِلَبُ أَفْسِدَتْهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾^(٥).

(١) مجمع البيان ٤ : ٤٨٩ وروى السيوطي في ذلك خبرين عن ابن عباس وابن جريج في الدر المنثور : الأنعام.

(٢) الأنعام : ١٠٨.

(٣) تفسير القمي ١ : ٢١٣. وفي التبيان ٤ : ٢٣٢ عن الحسن وفي أسباب النزول : ١٤٨.

(٤) مجمع البيان ٤ : ٥٣٧. وفي التبيان عن الحسن البصري، وهو ممن أخذ عن ابن عباس.

(٥) الأنعام : ١٠٩ - ١١١.

روى الطبرسي عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي : قالت قريش : يا محمد !
تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فتفجر منه اثنتا عشرة عينا ،
وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى ، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة ... فأتنا بآية من
الآيات حتى نصدّقك .

فقال رسول الله ﷺ : أي شيء تحبّون أن آتيكم به ؟
قالوا : اجعل لنا الصفا ذهباً ! وابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم أحق
ما تقول أم باطل ؟ وأرنا الملائكة يشهدون لك ، أو ائتنا بالله والملائكة قبلاً !
فقال رسول الله : فإن فعلت بعض ما تقولون أتصدّقونني ؟ قالوا : نعم ، والله
لئن فعلت لتتبعنك أجمعين .

وسأل المسلمون رسول الله أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا .
فقام رسول الله يدعو أن يجعل الله الصفا ذهباً !
فجاءه جبرئيل فقال له : إن شئت أصبح الصفا ذهباً ، ولكن إن لم يصدقوا
عذبتهم ! وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم . فقال رسول الله : بل يتوب تائبهم .
فأنزل الله تعالى هذه الآية ^(١) في الآيات العشر من الآية ١١٢ الى الآية ١٢٢
بدأ الله بتسليّة رسوله عن أقوال الكفار تحريصاً أمام آيات الكتاب المنزل عليه ،
وأن من اتّبع غيره ضلّ وأضلّ ، وأن أعداء الانبياء شياطين من الجن والانس ،
وأن أقوالهم زخرف وافتراء واقتراف للاثم والباطل ، وحكم بغير ما أنزل الله ،
ومن أطاعهم فقد ضلّ عن سبيل الله الى اتّباع الظنون والتخرّصات ، والله
أعلم بالمهتدين والضالّين عن سبيله ، ثم قال : ﴿ فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ
إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ

(١) مجمع البيان ٤ : ٥٤٠ . ومعناه في التبيان ٤ : ٢٣٦ . وفي أسباب النزول : ١٨٠ .

مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١﴾.

وفي قوله سبحانه : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ قال الطبرسي قيل : هو ما ذكر في سورة المائدة من قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ... ﴾ واعترض على هذا : بأن سورة المائدة نزلت بعد الأنعام بمدة فلا يصح أن يقال : إنه فصل . إلا أن يُحمل على أنه بين على لسان الرسول ﷺ وبعد ذلك نزل به القرآن (١).

وقال الطباطبائي : ويظهر من الآية أن محرّمات الأكل نزلت قبل سورة الأنعام ، وقد وقعت في سورة النحل من السور المكية ، فهي نازلة قبل الأنعام (٢). والآيات من سورة النحل هي من الآية ١١٤ إلى ١١٨ وهي : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ فلو كان قوله : ﴿ فَصَّلَ لَكُمْ ﴾ في سورة الأنعام يجعلنا نقول بنزول النحل قبل الأنعام ، فإن هذه الآية من النحل : ﴿ قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ يجعلنا نسلم للأخبار الدالة على نزول الأنعام قبل النحل ، فالأنعام الخامسة والخمسون والنحل السبعون في الترتيب . أمّا قوله ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ﴾ في الأنعام فنقبل فيه قول الطبرسي بأن يكون المراد به بيان النبي لا القرآن .

وبعدها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ (٣).

(١) الأنعام : ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٥٥٢ والواحي في أسباب النزول : ١٨٠ رواية في سبب نزول الآية راجعها .

(٣) الميزان ٧ : ٣٣٢ .

(٤) الأنعام : ١٢٤ .

روى الطبرسي في «مجمع البيان» عن مقاتل قال : إنَّ أبا جهل بن هشام قال :
 زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتَّى اذا صرنا كفرسي رهان قالوا : منّا نبيُّ يوحى
 اليه ! والله لا نؤمن به ولا نتّبعه إلّا أن يأتينا وحي كما يأتيه^(١) ونقل مثله ابن شهر
 آشوب في «المناقب»^(٢).

وفي الآيات العشر من الآية ١٣٦ الى ١٤٦ يبين الله اعتقادات المشركين
 الفاسدة وخصالهم الذميمة ومقالاتهم الباطلة، حيث جعلوا بعض الأشياء لله
 وبعضها للأصنام وحرّموا الحلال وقتلوا أولادهم لاعتقاداتهم الباطلة ومقالاتهم
 الفاسدة : فجعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، وزيّنوا لأنفسهم قتل
 أولادهم : البنين والبنات خيفة العيلة والفقر والعار، وحرّموا ركوب ظهور بعض
 الأنعام، ولم يلتزموا بذكر اسم الله عليها عند التذكية، وحرّموا بعض ما في بطون
 الأنعام على النساء وخصّصوه للرجال، وأباحوه لكلّيهما إن كان ميتة. ثمّ بيّن
 المحرّمات حاصراً لها في أن تكون : ميتة، أو دماً مسفوحاً، أو لحم خنزير، أو ما
 أهل لغير الله به فلم يذكر اسم الله عليه عند التذكية، ثمّ ذكر أن اليهود بغوا فحرّم
 ملوكهم على فقرائهم شحوم البقر والغنم ولحوم كل ذي ظفر من الطيور، فجزاهم
 الله ببغيهم هذا أن حرّم ذلك عليهم جميعاً إلّا ما كان من الشحوم في ظهور البقر
 والغنم وحواياهما أي الأمعاء حتّى المباعر.

ومن الآية : ١٥١ عقّب ما سبق بذكر سائر المحرمات : فالشرك، وقتل
 الأولاد خشية الاملاق، وقتل النفس التي حرّم الله، وما ظهر منها وما بطن من
 الفواحش، ومال اليتيم، وبضمنها عدّ بعض الفرائض : فبالوالدين احساناً، والوفاء
 بعهد الله، والقسط في الكيل والميزان، ورعاية العدالة في الشهادة ولو لذي القربى،

(١) مجمع البيان ٤ : ٥٥٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١ : ٥٠، ٥١.

واتباع الصراط المستقيم، واتباع هذا الكتاب المبارك الكريم، وتقوى الله. وفي الآية : ١٦١ ذكر أن الصراط المستقيم والدين القيم هو ملة ابراهيم الحنيف والطاهر من الشرك، وأن رسول الله ممن هداه الله الى ذلك الصراط المستقيم والدين القيم فحياه ومماته لله تعالى.

وهنا قال الطبرسي : قيل : إن الكفار قالوا للنبي ﷺ : اتبعنا وعلينا وزرك إن كان خطأ! فأنزل الله هذا^(١).

هذا وقد روى في أول تفسيره للسورة عن قتادة وعكرمة عن أبي بن كعب وعن النبي ﷺ : أنها نزلت بمكة جملة واحدة ليلاً^(٢) فكيف التوفيق بين هذا وبين أخبار أسباب نزول الآيات من هذه السورة؟ ويصدق هذا القول قبل الطبرسي على القمي والعياشي أيضاً وكثير من المفسرين الآخرين كذلك.

أما العلامة الطباطبائي فقد خصّص الجزء السابع من تفسيره «الميزان» بتفسير سورة الأنعام، وقطعها الى أكثر من عشرة مقاطع وختم كل مقطع ببحث روائي شمل عدداً غير قليل من أخبار شأن نزول آيات منها، وعلّق في موارد متعددة عليها بأنها تنافي نزول السورة جملة واحدة بمكة، منها فيما رواه -ورويناه- عن القمي عن الامام الباقر عليه السلام : أن رسول الله كان يحب اسلام الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف... فقال : إنها لا تلائم الروايات الكثيرة الدالة على نزول السورة دفعة. ولكنه عاد فقال : وان كان يمكن توجيهها بوقوع السبب قبل نزول السورة ثم الإشارة بالآية الى السبب المحقق^(٣) ويمكن هذا التوجيه في جميع ما نقلناه من أخبار أسباب النزول لآيات هذه السورة.

(١) مجمع البيان ٤ : ٦٠٦.

(٢) مجمع البيان ٤ : ٤٢١.

(٣) الميزان ٧ : ٦٨.

السورة السابعة والخمسون - «لقمان»:

وفيها قوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ رَتِّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ * وَإِذَا تُلِّيَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١﴾ .

في تفسير القمي : في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر الامام الباقر عليه السلام قال : هو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة، وكان راوياً لأحاديث الناس وأشعارهم ^(٢). ولعله هو الرجل الذي روى فيه الكليني في «أصول الكافي» بسنده عن موسى بن جعفر عليه السلام قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل، فقال : ما هذا؟ فقيل : علامة، فقال : وما العلامة؟ فقالوا له : أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية. فقال النبي صلى الله عليه وآله : ذاك علم لا يضر من جهله، ولا ينفع من علمه، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله : إنما العلم ثلاثة : آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة، وما خلاهن فهو فضل ^(٣).

وروى الخبر الأول الطبرسي عن الكلبي قال : نزل قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ في النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة، كان يتجر فيخرج الى فارس فيشتري أخبار الأعاجم فيحدث بها قريشاً ويقول لهم : إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة. فيتركون استماع القرآن ليستمعوا الى حديثه ^(٤).

(١) لقمان : ٦، ٧.

(٣) أصول الكافي ١ : ٣٢.

(٢) تفسير القمي ٢ : ١٦١.

(٤) مجمع البيان ٨ : ٤٩٠ وروى الخبر عن ابن عباس في التفسير المنسوب اليه : تنوير المقباس : ٣٤٤. ورواه ابن اسحاق في سيرته ١ : ٣٢١. ورواه الواحدي في أسباب النزول عن مقاتل والكلبي : ٢٨٧ ط الجُميلي. والسيوطي عنه في الدر المنثور سورة لقمان.

وروى مثله ابن شهر آشوب في «المناقب»^(١).

وكان قد دعاء رسول الله ﷺ الى الإسلام، ففي رواية أبي الجارود في «تفسير القمي» عن الامام الباقر عليه السلام أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ للنضر بن الحارث: اتبع ما أنزل اليك من ربك. فقال: بل أتبع ما وجدت عليه آبائي، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ^(٢).

ومنها قوله سبحانه: ﴿مَا خَلَقْتُكُمْ وَلَا بَعَثْتُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَعِيرٌ﴾^(٣) في رواية أبي الجارود في «تفسير التمي»: بلغنا -والله أعلم- عن الامام الباقر عليه السلام قال: إنهم قالوا: يا محمد! خلقنا أطواراً: نطفاً ثم علقاً، ثم أنشئنا خلقاً آخر كما تزعم، وتزعم أننا نبعث في ساعة واحدة! فقال الله: ﴿مَا خَلَقْتُكُمْ وَلَا بَعَثْتُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^(٤).

وفي آخر السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٥). وفي «أسباب النزول» للواحدي: أن رجلاً من بني مازن يقال له: الحارث بن عمرو جاء الى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقال له: يا محمد! قد علمت بأي أرض وُلدت فبأي أرض أموت؟ وقد تركت امرأتي حُبلى فمتى تلد؟

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ٥٢.

(٢) تفسير القمي ٢ : ١٦٦ والآية من لقمان : ٢٠ ، ٢١.

(٣) لقمان : ٢٨.

(٤) تفسير التمي ٢ : ١٦٧.

(٥) لقمان : ٣٤.

وقد أجذبت بلادنا فتى تخلص؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا اكسب غدا؟ ومتى تقوم الساعة؟ فنزلت هذه الآية^(١).

السورة الستون - «الزمر»:

«ويظهر من خلال آيات السورة أن المشركين من قومه ﷺ سألوه أن ينصرف عما هو عليه من التوحيد والدعوة اليه والتعرض لأهلتهم، وخوفوه بأهلتهم، فنزلت السورة... تؤكد الأمر بأن يخلص دينه لله سبحانه ولا يعبا بأهلتهم وأن يعلمهم أنه مأمور بالتوحيد وإخلاص الدين... وذكّرت المشركين وأنذرتهم بما سيلحقهم من الخسران وعذاب الآخرة مضافاً إلى ما يصيبهم في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر... ووصفت المؤمنين بأجل أوصافهم وبشّرتهم بما سيثيبهم الله في الآخرة مرة بعد مرة»^(٢).

ومنها قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣) قال الطباطبائي: هذا حث وترغيب لهم في الهجرة من مكة، إذ كان التوقف فيها صعباً على المؤمنين بالنبي، والمشركون يزيدون كل يوم في التشديد عليهم وفتنتهم... والذي ينطبق على مورد الآية هو الصبر على مصائب الدنيا وخاصة ما يصيب من جهة أهل الكفر والفسوق من آمن بالله وأخلص له دينه واتقاه^(٤) ولم ينسبه إلى أحد. والظاهر أنه أخذه من الطبرسي قال: هذا حث لهم على الهجرة من مكة، عن ابن عباس، أي لا عذر لأحد في ترك طاعة الله، فإن لم يتمكن منها في أرض

(١) أسباب النزول: ٢٨٩ ورواه السيوطي في الدر المنثور عن عكرمة، وسمى الرجل: الوراثة.

(٢) الميزان ١٧: ٢٣١، ٢٣٢.

(٣) الزمر: ١٠.

(٤) الميزان ١٧: ٢٤٤.

فليتحوّل الى اخرى يتمكن منها فيها، كقوله : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾^(١) وقبله روى الطوسي معناه عن مجاهد^(٢).

فالكلام رواية عن مجاهد عن ابن عباس، وهي لا تصرّح بمقصد الهجرة من مكة الى أين، ولم يرد دليل أو إشارة إلى أنّ تعيين الهجرة الى الحبشة كان وحيًا، بل الظاهر أنّ النبي ﷺ رأى أنّ خير مصداق لسعة أرض الله لهم هي الحبشة، وعبر عن ذلك بقوله : «هي أرض صدق؛ فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد»^(٣).

وعن ظروف نزول هذه الآية في سورة الزمر قال الطبرسي في «مجمع البيان» : قال المفسرون : ائتمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثبت كلّ قبيلة على من فيها من المسلمين يؤذونهم ويعذبونهم، فافتتن من افتتن وعصم الله منهم من شاء. ومنع الله رسوله بعمة أبي طالب. فلما رأى رسول الله ما بأصحابه ولم يقدر على منعهم ولم يؤمر بعد بالجهاد، أمرهم بالخروج الى أرض الحبشة وقال : إنّ بها ملكاً صالحاً لا يُظلم ولا يُظلم عنده أحد، فاخرجوا اليه حتّى يجعل الله للمسلمين فرجاً. وأراد به النجاشي، واسمه أصحمة - وهو بالحبشة : عطية - وإنّما النجاشي اسم الملك كقولهم : كسرى وقيصر. فخرج اليها سرّاً أحد عشر رجلاً وأربع نسوة... فخرجوا الى البحر وأخذوا سفينة الى أرض الحبشة بنصف دينار. وذلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول الله. وهذه هي الهجرة الاولى^(٤)

(١) مجمع البيان ٨ : ٧٦٧.

(٢) التبيان ٩ : ١٣.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٤٤ ورواه الطبرسي في مجمع البيان ٣ : ٣٦٠ عن المفسرين.

(٤) مجمع البيان ٣ : ٣٦٠ وفي بحار الأنوار عن المنتقى للكاظمي قال : وكان يخرجهم في رجب في الخامسة، وخرجت قريش في آثارهم فقاتوهم، فأقاموا عند النجاشي شعبان ورمضان ورجعوا في شوال. بحار الأنوار ١٨ : ٤٢٢.

فالسورة نزلت في الخامسة. وبما أنّ هجرة المسلمين إنّما هي من جرّاء تعذيب قريش للمسلمين، لذلك نبدأ هنا بذكر أخبار عن ذلك.

ظلم المشركين للمستضعفين من المسلمين:

قال ابن اسحاق: ثمّ إنّ المشركين عدّوا على من أسلم واتبع رسول الله من أصحابه، فوثبت كلّ قبيلة على من فيها من المسلمين من استضعفوه منهم، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم، بالضرب والجوع والعطش، ويرمضاء مكة إذا اشتدّ الحر، ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم، ومنهم من يُفتن من شدة البلاء الذي يصيبه...

وكان أبو جهل الفاسق في رجال من قريش يُغرون بالمسلمين، وكان إذا سمع بالرجل أسلم وله شرف ومنعة، اتّبه وأخزاه وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك! لئسفهنّ حلمك ولئفيلنّ (نُحَطِّتُن) رأيك ولنضعنّ شرفك! وإن كان تاجراً قال له: لنكسذنّ تجارتك ولنهلكنّ مالك! وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به غيره.

حتّى أنّ الوليد بن الوليد بن المغيرة المخزومي حين أسلم، مشى رجال من بني مخزوم الى أخيه هشام بن الوليد^(١) ليأخذه وفتية آخرين منهم قد أسلموا منهم: سلمة بن هشام وعيّاش بن أبي ربيعة، فقالوا لهشام: إنّنا قد أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذي أحدثوه لنا من بذلك من غيرهم. فقال هشام في أخيه الوليد: فعليكم به فعاتبوه واحذروا على نفسه! فتركوه.

وكانوا يخرجون بعمّار بن ياسر وبأبيه وأمه إذا حميت الظهيرة يعذبونهم

(١) من هنا يعلم أنّ هذا كان بعد هلاك الوليد الأب في المستهزئين الستة.

برمضاء مكة. فبلغني أن رسول الله كان يمرّ بهم فيقول لهم: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة^(١).

وعن ابن عباس قال: كانوا يضربون أحدهم ويبيعونه ويُعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرّ الذي نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة... افتدأء منهم ممّا يبلغون من جهده، حتى إن الجعل يمرّ بهم فيقولون له: أهذا الجعل الهك؟ فيقول: نعم^(٢).

وعن هشام بن عروة بن الزبير: أن عمر بن الخطاب - وهو يومئذ مشرك - كان يعذب جارية مسلمة من حيّهم فيضربها لتترك الإسلام حتى إذا ملّ قال لها مُستهزئاً: إني أعتذر إليك! إني لم أتركك إلا ملالة، فتقول له: كذلك فعل الله بك! فابتاعها أبو بكر فأعتقها.

واعتق النهديّة وبنّتها، وأمّ عُبَيْس وزُنَيْرة، وأُصِيب بصرها حين اعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزّى، فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضرّ اللات والعزّى وما تنفعان، فردّ الله بصرها.

وأعتق عامر بن فهيرة وشهد بدرأً وأُحْدأً وقُتل شهيداً يوم بدر معونة. ومرّ ببلال بن رباح، وكان أميّة بن خلف الجُمحي يخرجّه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثمّ يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ويقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمّد وتعبد اللات والعزّى! فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد. وكان دار أبي بكر في بني جُمح، فرّ به وهم يصنعون به ذلك، فقال لأميّة بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى! قال: أنت الذي أفسدته فأنقذه ممّا ترى. فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه

(١) انظر رجال الكشي: ٣٠.

(٢) ولعل هذا كان بعد تصويب القرآن والرسول لتقية عمار بن ياسر، كما سيأتي.

وأقوى، على دينك، أعطيكه به. قال : قد قبلت. فقال : هو لك. فأعطاه أبو بكر عنه غلامه وأخذه فأعتقه^(١).

وقال اليعقوبي: وأسلم خلق عظيم وظهر أمرهم وكثرت عدتهم وعاندوا ذوي أرحامهم من المشركين؛ فأخذت قريش من استضعفت منهم الى الرجوع عن الاسلام والشم لرسول الله، فكان ممن يعذب في الله : عمار بن ياسر وياسر أبوه وسُمية أمه... وخبّاب بن الأرت، وصُهيْبُ بن سنان، وابو فُكَيْهة الأزدي، وعامر بن فهيرة، وبلال بن رباح واشتد على القوم العذاب وناولهم منه أمر عظيم، فرجع عن الاسلام خمسة نفر، منهم : أبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس الفاكه بن المغيرة^(٢).

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٣٩-٣٤٣ بتصرف. هذا وقد روى الإسكافي في نقض العثمانية عن ابن اسحاق والواقدي أن عامر بن فهيرة وبلالاً اعتقهما رسول الله، كما في شرح النهج للمعتزلي ١٣ : ٢٧٣. ولذلك عدّ ابن شهر آشوب بلالاً من موالى النبي ﷺ ج ١ : ١٧١. وقال ابن هشام في عامر بن فهيرة : أنّه كان أسود من مولدي الأسد ١ : ٢٧٧. ومعنى ما رواه ابن اسحاق هو أن أبا بكر لم يكن من المستضعفين فلم يعذب في الله، بل اطلق واعتق عدداً منهم. ولكن ابن هشام ذكر أن نوفل بن خويلد بن أسد (ابن عم خديجة، وهل هو أبو ورقة بن نوفل؟!) وكان من شياطين قريش، قرن بين أبي بكر وطلحة بن عبد الله في حبل، فبذلك كانا يسميان : القرينين، كما في سيرة ابن هشام ١ : ٣٠١. وأضاف الجاحظ في العثمانية قال : ضربه نوفل بن خويلد مرتين حتى أدماه، وشده مع طلحة بن عبيد الله في قرن. وجعلها في الهاجرة عمير بن عثمان، ولذلك كانا يُدعيان القرينين، كما في العثمانية : ٢٨ وعنهما في شرح النهج للمعتزلي ١٣ : ٢٥٣. وردّ عليه الإسكافي في نقض العثمانية فقال : انتم في أبكر بين أمرين : تارة تجعلونه رئيساً متّبِعاً وكبيراً مطاعاً، وتارة تجعلونه دخیلاً ساقطاً وهجيناً رذیلاً مستضعفاً ذليلاً؛ فإنّا لا نعلم أن العذاب كان واقعاً إلاّ بعبد أو عسيف (الأجير) أو لمن لا عشيرة له تمنعه. كما في شرح النهج للمعتزلي ١٣ : ٢٥٥.

الفصل السادس

الهجرة الأولى

الهجرة الى الحبشة:

قال ابن اسحاق : فلما رأى رسول الله -صلى الله عليه [وآله] وسلم- ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه.

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله الى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً الى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام.

وكان أول من خرج من المسلمين : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، ومعه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي.

وعثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، ومعه امرأته رقية بنت رسول الله. وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، ومعه امرأته سهلة بنت سهيل ابن عمرو، وولدت له بأرض الحبشة محمد بن أبي حذيفة.

وعامر بن ربيعة العدوي، ومعه امرأته ليلي بنت أبي حثمة العدوي.
والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد.
ومُصعب بن عمير، من بني عبد الدار.
وعبد الرحمن بن عوف الزُهري.
وأبو سبرة بن أبي رُهم العامري.
وسهيل بن وهب الفهري.

وعثمان بن مظعون الجُمحي^(١) وكان عليهم عثمان بن مظعون، في قول ابن هشام^(٢) وروى الواقدي: أن الذين هاجروا الهجرة الاولى خرجوا متسللين سرّاً، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، حتّى انتهوا الى الشُعيبية، منهم الراكب ومنهم الماشي، ووفق الله للمسلمين - ساعة جاؤوا - سفينتين للتّجار حملوهم فيها الى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان مخرّجهم في: رجب في السنة الخامسة من حين نبيّ رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - وخرجت قريش في آثارهم حتّى جاؤوا البحر، حيث ركبوا، فلم يدركوا منهم أحداً^(٣).

وقال اليعقوبي: لما رأى رسول الله ما فيه أصحابه من الجُهد والعذاب وما هو فيه من الأمن بمنع أبي طالب عمّه اياه، قال لهم: ارحلوا مهاجرين الى أرض الحبشة الى النجاشي، فإنّه يُحسن الجوار.
فخرج في المرة الأولى: اثنا عشر رجلاً.
وفي المرة الثانية: سبعون رجلاً، سوى أبنائهم ونسائهم.

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٤٤، ٣٤٥ وزاد الواقدي: عبد الله بن مسعود كما في الطبقات

١ : ٢٠٤ وعنه في الطبري ٢ : ٣٣٠.

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٣٤٥ منه.

(٣) طبقات ابن سعد ١ : ٢٠٤ وعنه في الطبري ٢ : ٣٢٩.

وكان لهم عند النجاشي منزلة^(١).

وقد مرّ خبر ابن اسحاق وقد وصف رحلة من عدّهم مع عثمان بن مظعون الى الحبشة بالهجرة الأولى، ولكنّه بعد عدّهم قال: «ثمّ خرج جعفر ابن أبي طالب ﷺ وتتابع المسلمون حتّى اجتمعوا بأرض الحبشة فكانوا بها، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه» ثمّ أخذ في عدّهم وأنسابهم، فعّد من بني هاشم رجلاً واحداً هو: جعفر بن أبي طالب ومعه امرأته أسماء بنت عميس الخثعمية، وولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن جعفر. ثمّ عدّ من بني أميّة وحلفائهم سبعة نفر، فعّد أولهم: عثمان بن عفّان ومعه رقية ابنة رسول الله، وعمر بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد بن العاص، ومعهما نساؤهما. ومن حلفائهم: عبد الله بن جحش وأخوه عبيد الله (وهو الذي تنصّر في الحبشة) معه امرأته أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وقيس بن عبد الله ومعه امرأته بركة مولاة أبي سفيان.

ثمّ عدّ من بني نوفل رجلاً، ومن بني عبد بن قصي رجلاً، ومن بني عبد شمس رجلين، ومن بني أسد من قريش أربعة نفر منهم الزبير بن العوام ابن خويلد بن أسد، والأسود بن نوفل بن خويلد بن أسد، ويزيد بن زمعة ابن الأسود بن المطلب بن أسد (وزمعة أو أبوه الأسود احد المستهزئين الستة). ومن بني عبد الدار خمسة نفر منهم: مصعب بن عمير. ومن بني زهرة وحلفائهم من بهراء وهذيل ستة نفر منهم: عبد الرحمن بن عوف، وأبو وقاص وابنه عامر، وعبد الله بن مسعود وأخوه عتبة، والمقداد بن عمرو من قُضاعة، وكان قد تبناّه في الجاهلية الأسود بن عبد يغوث من بني زهرة، فكان يقال له: المقداد بن الأسود. ومن بني تيم رجلين.

ومن بني مخزوم وحلفائهم ثمانية نفر منهم : أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ومعه امرأته أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي ، وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة ، وعياش بن أبي ربيعة بن المغيرة . وسلمة بن هشام . ومن بني جُمح أربعة عشر رجلاً منهم : عثمان بن مظعون ، وابنه السائب بن عثمان ، وأخواه قدامة بن مظعون ، وعبد الله بن مظعون ، ومن بني سهم أربعة عشر رجلاً . ومن بني عدي خمسة نفر . ومن بني عامر ثمانية نفر . ومن بني الحارث بن فهر ثمانية نفر منهم : أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح .

ثم قال ابن اسحاق : فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر اليها من المسلمين - سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً أو ولدوا بها - ثلاثة وثمانين رجلاً ، إن كان عمار بن ياسر فيهم ، وهو يشك فيه^(١) .

إذن فهو في هذا العدد يعدّ أهل الهجرة الثانية الى الحبشة وعليهم جعفر بن أبي طالب ، ولعله في عدده - ثلاثة وثمانين رجلاً - قد جمع أهل الهجرة الأولى مع الثانية ، بينما اليعقوبي جرّد أعداد الهجرة الثانية فقط فقال بالسبعين ، أو باستثناء النساء والأطفال كما قال .

وكذلك فعل القمي في تفسيره إذ قال : لما اشتدّت قريش في أذى رسول الله وأصحابه أمرهم رسول الله أن يخرجوا الى الحبشة ، وأمر جعفر ابن أبي طالب أن يخرج معهم ، فخرج جعفر وخرج معه سبعون رجلاً من المسلمين حتّى ركبوا البحر^(٢) .

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٤٥ - ٣٥٣ ونقله الطبري بعبارة : وقال آخرون . وذكر العدد : اثنين وثمانين ، الطبري ٢ : ٣٣٠ ورواه عن محمد بن اسحاق كذلك ٢ : ٣٣١ .

(٢) تفسير القمي ١ : ١٧٦ .

كتاب النبي إلى النجاشي:

وهنا روى الطبرسي في «إعلام الوري» عن المحافظ الحسكاني عن ابن اسحاق، والطبري عن ابن اسحاق أيضاً قال: «بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه كتاباً» ثم ذكر صورة الكتاب، وجواب النجاشي^(١).

ولا يوجد الخبر في سيرة ابن هشام، وظاهر الطبرسي أن هذا الكتاب كان من مكة حين خرج عمرو بن العاص مع عُمارة بن الوليد إلى الحبشة، حسب خبر الطبرسي نفسه، ومع عبد الله بن أبي ربيعة حسب خبر ابن اسحاق عن أم سلمة كما يأتي وفي الكتاب أمر بإكرام جعفر وأصحابه وقراهم، فالمناسب أن يكون في بداية الهجرة مع جعفر، أو مع خروج عمرو بن العاص إلى الحبشة سفيراً من قبل معاندي مكة لا يذاء جعفر وأصحابه.

ويظهر من الحلبي في السيرة: أن عمرو بن العاص خرج إلى الحبشة بعد غزوة بدر وأن رسول الله ﷺ لما بلغه ذلك بعث عمرو بن أمية إلى النجاشي بكتاب يوصي فيه بالمسلمين، قال: «لما أوقع الله بالمشركين يوم بدر ورجعوا خائبين قالوا: إن ثارنا بأرض الحبشة، فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة إلى النجاشي ليدفع اليهما من عنده من المسلمين، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ بعث إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري بكتاب يوصي فيه بالمسلمين»^(٢).

واتفقوا على أن الرسول إلى النجاشي هو عمرو بن أمية الضمري، ولكنهم اختلفوا في إسلامه: ففي «أسد الغابة» عن أبي نعيم: أنه أسلم قديماً وهاجر إلى

(١) إعلام الوري ١: ١١٨، ١١٩ وفي مستدرك الحاكم ٢: ٦٢٣، ٦٢٤ والطبري ٢: ٦٥٢، ٦٥٣.

(٢) سيرة الحلبي ٣: ٢١٢. وانظر: مكاتيب الرسول ١: ١٢٠ - ١٣٠.

الحبشة، ثم هاجر الى المدينة وأول مشاهدته بئر معونة^(١) وعليه فلا اشكال لا في حمله الكتاب الأول ولا في حمله الكتاب الثاني بعد صلح الحديبية وقبل خيبر في تجهيز المسلمين من الحبشة الى المدينة. ولكن في «الاستيعاب» و«الاصابة» عن ابن سعد^(٢): أنه شهد بدرًا وأحدًا مع المشركين، وأسلم بعد أحد. وعليه فلم يكن وقتئذٍ مسلمًا، فلا يصح حمله الكتاب الأول حتى بعد بدر بناءً على خبر الحلبي بإرسال المشركين لعمر بن العاص الى الحبشة بعد بدر. ولذا فقد أورد الحلبي على نفسه بذلك، وفي الجواب رجّح خبر إرسال المشركين لعمر بن العاص الى الحبشة بعد الأحزاب، في السنة الخامسة للهجرة.

وقد روى الخبر هذا ابن اسحاق في السيرة بسنده الى عمرو بن العاص نفسه قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون -والله- اني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، واني قد رأيت أمراً فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قلت: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير. قالوا: إن هذا الرأي. قلت: فاجمعوا لنا ما يُهدي له. وكان أحب ما يُهدي اليه من أرضنا الأدم. فجمعنا له أدمًا كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه.

فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري -وكان رسول الله قد بعثه اليه في شأن جعفر وأصحابه، فدخل عليه وخرج من عنده- فقلت لأصحابي: هذا

(١) أسد الغابة ١: ٦١، ٩٩.

(٢) الطبقات ١: ٢٥٨.

عمرو بن أمية الضمري، لو قد دخلت على النجاشي وسألته إيّاه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأيت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.

فدخلت عليه فسجدت له - كما كنت أصنع - فقال: مرحباً بصديقي؛ أهديت إليّ من بلادك شيئاً؟ قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت إليك أدماً كثيراً، ثمّ قرّبت به إليه، فأعجبه. ثمّ قلت له: أيها الملك، اني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدوّ لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنّه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا.

قال: فغضب ثمّ مدّ يده فضرب بها أنفي ضربةً ظننت أنّه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرّقا منه. فقلت له: والله لو ظننت أنّك تكره هذا ما سألتكه. قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله! قلت: أيها الملك، أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطمعني واتبعه، فإنّه والله لعلّ الحق، وليظهرنّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده... فخرجت الى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه.

ثمّ خرجت عامداً الى رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح... فقدمنا المدينة على رسول الله^(١).

هذا وقد قال من قبل: «لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق» ثمّ خرجنا فقدمنا عليه، فوالله إنّنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله قد بعثه اليه في شأن جعفر وأصحابه.

انّ ارسال رسول الله لعمرو بن أمية الى النجاشي في شأن جعفر وأصحابه إمّا كان في بداية هجرتهم لطلب ايوائهم وحمايتهم والارفاق بهم، أو في نهايتها في تجهيز المسلمين الى المدينة في السنة السابعة قبل خيبر. فرحلة عمرو بن العاص هذه إمّا كانت بعد الأحزاب في أواخر السنة الخامسة، لأنّ غزوة الأحزاب كانت في شوال

(١) ابن إسحاق في السيرة ٣: ٢٨٩، ٢٩٠ بتلخيص آخر الخبر.

سنة خمس من الهجرة، أو كانت رحلته في أوائل السادسة، وبعد عام في أوائل السابعة ورد عليهم عمرو بن أمية حاملاً كتاب النبي إلى النجاشي، حينما كتب إلى الملوك والرؤساء.

وهنا تختلف نسخ الكتاب: فأكثر نسخ الكتاب يشتمل على الوصية بجعفر وأصحابه، وبعضها خلو عنها: «كصبح الأعشى»^(١) للقلقشندي (ت ٨٢١) و«المواهب اللدنية في السيرة النبوية»^(٢) للقسطلائي (ت ٩٢٣) و«انسان العيون في سيرة الأمين المأمون»^(٣) المعروف بالسيرة الحلبية لبرهان الدين الحلبي (ت ١٠٤٤) وهذا ما تأيّد به البروفيسور حميد الله المستوفي في كتابه القيم «الوثائق السياسية» فقال: «ومما يجدر ذكره أن الحلبي والقسطلائي والقلقشندي لا يذكرون عبارة: وقد بعث إليك ابن عمي...» في متن المکتوب، وهي لا توجد في متن المکتوب الذي اكتشف حديثاً... فنظن: أن رسول الله ﷺ قد أعطى ابن عمه جعفرأ كتاباً إلى النجاشي وقت هجرته إلى الحبشة...»^(٤).

بينما سائر المصادر تذكر هذه العبارة، وكلها بما فيها هذه الثلاثة تذكر جواب النجاشي إلى النبي ﷺ وفيه: «وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرئنا ابن عمك وأصحابه، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك واسلمت على يديه لله رب العالمين»^(٥).

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ٦ : ٣٧٩.

(٢) المواهب اللدنية بشرح الزرقاني ٣ : ٣٧٩.

(٣) السيرة الحلبية ٣ : ٢٧٩.

(٤) الوثائق السياسية : ٤٦ - ٤٨ رقم ٢٣.

(٥) الطبري ٢ : ٦٥٢، ٦٥٣ واعلام الوري : ٤٥، ٤٦ والكامل ٢ : ٦٣ واسد الغابة ١ : ٦٢

والبداية ٣ : ٨٤ وزاد المعاد ٣ : ٦١ وصبح الأعشى ٦ : ٤٦٦ والسيرة الحلبية وزيني دحلان

وإعلام السائلين.

ثمّ الكتاب خلو عن تجهيز المسلمين من الحبشة اليه الى المدينة، كما هو خلو عن خطبته لأُمّ حبيبة ابنة أبي سفيان بواسطة النجاشي، بينما من المستبعد جداً أن يكون كلا الأمرين متأخرين عن عهد هذه الرسالة.

ولعلّ الجواب الصحيح هو ما رواه الطبري عن الواقدي قال: أرسل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الى النجاشي ليزوجه أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان، ويبحث بها اليه مع مَنْ عنده من المسلمين^(١) من دون ذكر كتاب في ذلك.

ولم يذكر الواقدي ولا الطبري اسم الرسول بهذه الرسالة الشفوية ولا ألفاظها، ولكن ابن سعد ذكر أن الرسول هو عمرو بن أميّة نفسه وذكر شرطاً من رسالته الشفوية الى النجاشي ولكن من دون ذكر خطبة النبي لأُمّ حبيبة ولا طلب تجهيز المسلمين اليه الى المدينة، قال:

قال عمرو بن أميّة: يا أصحابكم! (كذا) إنّ عليّ القول وعليك الاستماع! إنّك كأنّك في الرقة علينا منّا، وكأنّا في الثقة بك منك، لأنّا لم نظنّ بك خيراً قطّ إلّا نلناه ولم نخفك على شرّ قطّ إلّا أمّناه، وقد أخذنا الحجة عليك من قبل آدم، والانجيل بيننا وبينك شاهد لا يُرد وقاضٍ لا يجور [فأسلم] وفي ذلك موقع الخير واصابة الفضل، وإلّا فأنت في هذا النبي الأميّ كاليهود في عيسى بن مريم، وقد فرّق رسله الى الناس، فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه، لخير سالف وأجر يُنتظر.

فقال النجاشي: أشهد بالله أنّه النبي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأنّ بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل، وأنّه ليس الخبر كالعيان، ولكن أعواني من الحبشة قليل، فأنظرني حتّى أكثر الأعوان وألّين القلوب، ولو استطيع أن آتيه لأتيته^(٢).

(١) الطبري ٢: ٦٥٣.

(٢) الطبقات ١: ٢٥٩ وعنه في سيرة الحلبي ٣: ٢٧٩ وزيني دحلان بهامش سيرة الحلبي ٣: ٦٧.

ولنعد الآن الى ذكر نص كتاب النبي الى النجاشي بالروايتين : الخالية عن ذكر جعفر والتي فيها ذكره، على التوالي :

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله الى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد : فإني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده.

واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له، والموالة على طاعته، وأن تتبني وتوقن بالذي جاءني، فإني رسول الله، واني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل.

وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي. والسلام على من اتبع الهدى»^(١).

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله الى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سلام عليك، فإني أحمد اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه.

واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له، والموالة على طاعته، وأن تتبني وتؤمن بالذي جائي فإني رسول الله، وقد بعث اليكم ابن عمي جعفرًا ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فاقرهم ودع التجبر. واني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل.

(١) صبح الأعشى ٦ : ٣٧٩. والمواهب اللدنية بشرح الزرقاني ٣ : ٣٧٩. والسيرة الحلبية

وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي . والسلام على من اتبع الهدى»^(١).
فلما وصل الكتاب الى النجاشي أخذه ووضع على عينيه ونزل عن
سريره وجلس على الأرض إجلالاً واعظاماً، ثم أسلم ودعا بحق من عاج
وجعل فيه الكتاب^(٢).

ثم أحضر جعفرأ وأصحابه وأسلم على يدي جعفر وكتب بذلك الى رسول
الله : «بسم الله الرحمن الرحيم، الى محمد رسول الله، من النجاشي : الأصحم بن
أبجر، سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، من الله الذي لا إله إلا هو، الذي
هداني الى الإسلام.

أما بعد؛ فقد بلغني كتابك - يا رسول الله - فيما ذكرت من أمر عيسى،
فوزب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت تفروقاً^(٣) إنه كما قلت.
وقد عرّفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرّينا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول
الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله
رب العالمين.

(١) أقدم من نقله عن ابن اسحاق : الطبري ٢ : ٦٥٢ ثم الحاكم الحسكاني في المستدرک
٢ : ٦٢٤ . ثم الطبرسي في إعلام الوری : ٤٥ . ثم ابن الأثير في اسد الغابة ١ : ٦٢ والكامل
٢ : ٦٣ . وروى الرسالة ابن كثير في البداية ٣ : ٨٤ وابن القيم في زاد المعاد ٣ : ٦١ وأشار
ابن سعد في الطبقات ١ : ٢٥٨ ورواها المستوفي في الوثائق السياسية : ٤٦ عن مصادر
منها اعلام السائلين لابن طولون . وبحث حولها المحقق الأحمدي في مكاتيب الرسول
١ : ١٢١ - ١٣١ .

(٢) مكاتيب الرسول ١ : ١٢٨ عن الطبقات والسيرة الحلبية وزيني دحلان بهامش الحلبية
٣ : ٦٧ .

(٣) الثُفُوق : قمع التمر، ويكنى به عن قلة الشيء، يقال : ماله ثُفُوق، أي ليس له شيء.

وقد بعثت اليك بابني أزها ابن الأصحم بن أنجر^(١)، فإنّي لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن آتيك فعلتُ يا رسول الله، فإنّي أشهد أن ما تقول حقّ، والسلام عليك يا رسول الله»^(٢).

هذه هي اجابة النجاشي على كتاب النبيّ اليه في دعوته الى الإسلام ضمن كتبه الى الملوك والرؤساء بعد صلح الحديبية وقبل خيبر في أوائل السنة السابعة من الهجرة، على ما يبدو من فحوى الرسالة، كما في كلّ المصادر التاريخية تقريباً، ومن المستبعد أن يكون كتاب النبيّ ﷺ اليه وهذا الجواب من النجاشي عليه متزامناً مع بداية هجرة الحبشة كما يبدو هذا من الطبرسي في «إعلام الوري» عن الحاكم الحسكاني^(٣).

ولنا عود على البحث في إرسال رُسله بكتبه الى الملوك والرؤساء.

(١) في الروض الانف : أن علياً وجد أبا نيزر ابن النجاشي عند تاجر بمكة فاشتراه منه واعتقه مكافأة لما صنع أبوه بالمسلمين . ويقال : إنّ الحبشة ارسلوا وفداً منهم الى أبي نيزر بعد أبيه النجاشي ليملكوه فأبى عليهم وقال : ما كنت لا طلب الملك بعد أن منّ الله عليّ بالاسلام . ولم يكن لونه لون الحبشة بل كان حسن الوجه طويلاً .

(٢) الطبري ٢ : ٦٥٣ عن ابن اسحاق ، وعنه في المستدرک ٢ : ٦٢٤ وعنه في إعلام الوري : ٤٦ وأسد الغابة ١ : ٦٢ والكامل ٢ : ٦٣ والبداية ٣ : ٨٤ وزاد المعاد ٣ : ٦١ وصبح الاعشى ٦ : ٣٧٩ والمواهب اللدنية بشرح الزرقاني ٣ : ٣٧٩ والسيرة الحلبية ٣ : ٢٧٩ وسيرة زيني دحلان بهامش الحلبية ٣ : ٦٧ . ومجموعة الوثائق السياسية : ٤٦ ، ومكاتيب الرسول ١ : ١٢١ - ١٣١ . ومن الغريب مع كل هذه المصادر تشكيك السيد الحسيني في سيرته في صحة رواية اسلام النجاشي بعد أن نقل رواية الرسالة عن البداية لابن كثير ، سيرة المصطفى : ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٣) وقد تزامن مع هذا الكتاب والجواب أمران آخران هما: خطبة النبيّ لأُمّ حبيبة بواسطة ←

وفد قريش إلى النجاشي:

في تفسير القمي قال : لما اشتدت قريش في أذى رسول الله وأصحابه الذين آمنوا به بمكة قبل الهجرة، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى الحبشة، وأمر جعفر بن أبي طالب أن يخرج معهم.

فخرج جعفر، ومعه سبعون رجلاً من المسلمين حتى ركبوا البحر.

→ النجاشي، وتجهيزه المسلمين من الحبشة إليه إلى المدينة، وكتاب النبي ﷺ خلو منها بروايته، وقد مرّ تقريب أن يكون ذلك برسالة شفوية مع حامل الكتاب عمرو بن أمية الضمري، ولم يرو كتاب آخر في ذلك، ومن المستبعد ذلك أيضاً.

وتفرّد من بين المصادر مصدران نقلًا جوابين آخرين للنجاشي على كتابين آخرين للنبي ﷺ في الأمرين، هما «سواطع الأنوار» و«الطراز المنقوش» : أن النجاشي كتب إليه في جواب كتابه في تزويج أم حبيبة :

«بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - من النجاشي أصحمة (كذا) سلام عليك يا رسول الله من الله ورحمة الله وبركاته. أما بعد؛ فإنّي قد زوجتك امرأة من قومك وعلى دينك، وهي السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأهديتك هدية جامعة : قيصاً وسراويل وعطافاً وخفين ساذجين. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

وكتب إليه ﷺ في جواب كتابه ﷺ في تجهيز المسلمين إلى المدينة :

«بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - من النجاشي أصحمة (كذا) سلام عليك يا رسول الله من الله ورحمة الله وبركاته، لا إله إلا الذي هداني للإسلام، أما بعد فقد أرسلت إليك - يا رسول الله - من كان عندي من أصحابك المهاجرين من مكة إلى بلادي، وها أنا أرسلت إليك ابني أريجا (كذا) في ستين رجلاً من أهل الحبشة، وإن شئت أتيتك بنفسي فعلت يا رسول الله، فإنّي أشهد أنّ ما تقول حق، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته» كما في الوثائق السياسية : ٤٨ عن الباب الأول من الطراز المنقوش وسواطع الأنوار : ٨١.

فلما بلغ قريش خروجهم بعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد الى النجاشي، ليردّوهم اليهم، وكان عمرو وعمارة متعادين... فبرئت بنو مخزوم من جناية عمارة، وبرئت بنو سهم من جناية عمرو بن العاص^(١).

فوردوا على النجاشي، وكانوا قد حملوا اليه هدايا فقبلها منهم.

ثم قال عمرو بن العاص: أيها الملك، إنّ قوماً منا خالفونا في ديننا وسبّوا آلهتنا وصاروا اليك، فردّهم الينا.

فبعث النجاشي الى جعفر فجاؤوا به.

فقال له: يا جعفر، ما يقول هؤلاء؟ قال جعفر: أيها الملك وما يقولون؟ قال: يسألون أن أردّكم اليهم. قال: أيها الملك، سلهم: أعييد نحن لهم؟ فقال عمرو: لا، بل أحرار كرام. قال: فسألهم: ألهم علينا ديون يطالبوننا بها؟ قال: لا، مالنا عليكم ديون. قال: فلکم في أعناقنا دماء تطالبوننا بها؟ قال عمرو: لا. قال: فما تريدون منا؟! أذيتمونا فخرجنا من بلادكم.

فقال عمرو بن العاص: أيها الملك خالفونا في ديننا وسبّوا آلهتنا وأفسدوا شبابنا وفرّقوا جماعتنا، فردّهم الينا لنجمع أمرنا.

فقال جعفر: نعم أيها الملك، خالفناهم بأنّه بعث الله فينا نبياً أمر بخلع الأنداد، وترك الاستقسام بالأزلام، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام^(٢)، وحرّم

(١) فلما ركبوا السفينة شربوا الخمر، فقال عمارة لعمر بن العاص - وكان قد اخرج معه أهله -

قل لأهلك تقبلني، فقال عمرو: لا يجوز هذا! فسكت عمارة، ولما انتشى عمرو - وكان على صدر السفينة - دفعه عمارة والقاء في البحر، فتشبّث عمرو بصدر السفينة وأدركوه فأخرجوه.

(٢) وردت الزكاة في السور المكية منها في المزمّل في قوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ (المزمّل: ٢٠) وهي السورة الثالثة أو الرابعة، وفي سورة الأعراف قوله سبحانه: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ←

الظلم والجور، وسفك الدماء بغير حقها، والزنا، والربا، والميتة والدم^(١) وأمرنا بالعدل والاحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى.

فقال النجاشي: بهذا بعث الله عيسى بن مريم عليه السلام! ثم قال: يا جعفر، هل تحفظ مما أنزل الله على نبيك شيئاً؟ قال: نعم، ثم قرأ عليه «سورة مريم» فلما بلغ الى قوله: ﴿وَهَزَيَ إِلَيْكَ الْجُدْعَ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِينًا﴾ فكلني واشربني وقربني عيناً.

→ (الأعراف: ١٥٦) وهي السورة التاسعة والثلاثون أو الأربعون في النزول، فهي قبل سورة مريم الرابعة والأربعين التي تلا منها جعفر على النجاشي. نعم يدعى أنها آيات مدينيات في سور مكية، لأن تشريع الزكاة لم يكن في مكة قبل الهجرة بل في المدينة بعد الهجرة ببضع سنين ولكن لا ملازمة بين التسليم بتشريع الزكاة في المدينة وبين قبول هذه الدعوى بكون الآيات مدنية في سور مكية، إلا اذا سلمنا بأن الزكاة في هذه الآيات بمعنى الزكاة المفروضة دون المندوبة، ولنا مندوحة عن قبول ذلك بترجيح تفسير الزكاة في هذه الآيات بالزكاة بالمعنى اللغوي العام أي الصدقات المستحبة المندوب اليها. وبذلك نتوسع في معنى الأمر في كلام جعفر بما يعم الندب أيضاً. وبهذا نتفصى عن الاشكال بورود الزكاة في كلام جعفر.

ولكن لا مناص عن اشكال ورود الصيام في كلامه أيضاً - على رواية أم سلمة الآتية - إلا ان ذلك لا يقودنا الى القول بأن الرواية موضوعة كما ذهب اليه أحمد أمين في فجر الإسلام: ٧٦، كما لا يقودنا ذلك الى الالتزام بأن الصيام قد شرع في مكة قبل الهجرة أي قبل نزول آيتها في السنة الثانية بعد الهجرة ضمن آيات سورة البقرة. بل نحتمل السهو في حديث أم سلمة أو أحد الرواة، أو أن يكون ذلك مرجحاً لكون هذه المناظرة بعد وقعة الأحزاب أو بعد بدر كما رواه الحلبي في سيرته كما مر، ولكن يلزم ذلك أن نلتزم بأن التشريعات الجديدة كانت تصلهم في الحبشة كيفما كان، وليس ذلك ببعيد.

(١) ان أول ما نزل من القرآن في تحريم الميتة في الآية: ١٢١ من سورة الأنعام، وهي السورة ٥٥ في ترتيب النزول، فيحتمل أن تكون الهجرة بعدها، ولا نجزم به اذ فيها: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وقبلنا فيه بقول الطبرسي بأن المراد به بيان النبي لا القرآن.

فلما سمع النجاشي بهذا بكى بكاءً شديداً وقال : هذا والله هو الحق .
 فقال عمرو بن العاص : أيها الملك ، إن هذا مخالفنا فردّه إلينا .
 فرفع النجاشي يده فضرب بها وجه عمرو ، ثمّ قال : اسكت ، والله - يا هذا -
 لأن ذكرته بسوء لا فقدتك نفسك !
 فقام عمرو بن العاص من عنده والدماء تسيل على وجهه ، وهو يقول : إن
 كان هذا كما تقول - أيها الملك - فإننا لا نتعرض له .
 ورجع عمرو إلى قريش فأخبرهم أنّ جعفرأ في أرض الحبشة في اكرم
 كرامة^(١) .

وروى ابن اسحاق بسنده عن زوج رسول الله أمّ سلمة هند ابنة أبي أمية بن
 المغيرة المخزومي أنّها قالت : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها النجاشي خير جار :
 أمنا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا تؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه .

(١) وكانت على رأس النجاشي وصيفة له تذب عنه ، فنظرت إلى عمارة بن الوليد ، فلما رجع
 عمرو بن العاص إلى منزله قال لعمارة : لو راسلت جارية الملك ، فراسلها فأجابته ، فقال له
 عمرو : قل لها : تبعث إليك من طيب الملك شيئاً . فقال لها ، فبعثت إليه ، فأخذ عمرو من ذلك
 الطيب ، فادخل عمرو الطيب على النجاشي وقال : أيها الملك ان حرمة الملك عندنا وطاعته
 علينا وما يكرمنا اذا دخلنا بلاده ونأمن فيه : أن لا نغشه ولا نريبه ، وان صاحبي هذا الذي
 معي قد أرسل إلى حرمتك وخذعها فبعثت إليه من طيبك . ثمّ وضع الطيب بين يديه فغضب
 النجاشي وهمّ بقتل عمارة ، ثمّ قال : لا يجوز قتله فانهم دخلوا بلادي فلهم أمان ، ثمّ دعا
 السحرة فقال لهم : اعملوا به شيئاً أشد عليه من القتل ، فأخذوه ونفخوا في احليله الزئبق
 فصار مع الوحش يغدو ويروح ولا يأنس بالناس ، فبعثت قريش بعد ذلك فكهنوا له في موضع
 حتّى ورد الماء مع الوحش فأخذوه ، فما زال يضطرب في أيديهم ويصيح حتّى مات ، كما في
 تفسير القمي ١ : ١٧٦ - ١٧٨ وعنه في اعلام الوری : ٤٣ - ٤٥ بلا إسناد وكذلك اليعقوبي ٢ :
 ٣٠ والإصفهاني عن الواقدي في الأغاني ٨ : ٥٠ .

فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدَيْن، وأن يُهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مَكَّة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدماً كثيراً، فلم يتركوا من بطارقه بطريقاً إلا أهدوا له هدية. وبعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم فقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم.

فخرجوا حتى قدما على النجاشي... فلم يبقَ من بطارقه بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم: إنه قد لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردّهم إليهم، فاذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فان قومهم أعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم.

ثم انهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، انه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم، لتردّهم إليهم، فهم أعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

فقالت بطارقه من حوله: صدقا أيها الملك، فان قومهم أعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم.

فغضب النجاشي وقال: لا ها الله، إذا لا أسلمهم إليهما، ولا يُكاد لقوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي، حتى ادعوه فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فان كان كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وان كانوا على غير ذلك منعتهما منها وأحسن جوارهم ما جاوروني.

ثم أرسل الى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا وقال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل اذا جئتموه ؟ قالوا : نقول - والله - ما علمنا وما أمرنا به نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - كائناً في ذلك ما هو كائن .

فلما جاؤوا سألهم النجاشي - وقد دعا أساقفته حوله - فقال لهم : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ؟ ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل ؟

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ؛ فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة - وعدد عليه أمور الإسلام ثم قال - فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله : فعبدنا الله وحده فلم نُشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا . فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا من عبادة الله الى عبادة الأوثان ، وأن نستحلّ ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا تُظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشي : هل معك مِمَّا جاء به عن الله من شيء ؟ فقال جعفر : نعم . قال النجاشي : فاقرأه عليّ . فقرأ صدرأ من ﴿ كهيعص ﴾ ^(١) فبكى - والله - النجاشي حتّى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ماتلا عليهم ، ثمّ قال النجاشي : إنّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . ثمّ قال لعمر و عبد الله : انطلقا فلا - والله - لأسلمهم اليكما ولا يكادون . فخرجا من عنده .

وقال عمرو بن العاص : والله لآتينّه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم ؛ والله لأخبرنه أنّهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبدٌ . وكان عبد الله بن ربيعة أتيّ الرجلين فقال : لا أفعل فان لهم أرحاماً .

فغدا عليه عمرو من الغد فقال له : أيها الملك ، إنّهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل اليهم فسألهم عما يقولون فيه . فأرسل اليهم ليسألهم عنه . فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى بن مريم اذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول - والله - ما قال الله وما جاء به نبينا ، كائناً في ذلك ما هو كائن .

فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟ فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه بالذي جاء به نبينا - صلى الله عليه [وآله] وسلّم - : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ، ألقاها الى مريم العذراء البتول .

فضرب النجاشي بيده الى الأرض فأخذ منها عوداً ثمّ قال : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العودَ (أي بمقداره) فتناخرت بطارقه حوله ، فقال لهم : وإن نخرتم والله .

(١) مريم : ١ ، وهي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب النزول .

ثم قال للمسلمين : اذهبوا فانتم شيوم (آمنون) ومن سبكم غرم، من سبكم غرم، وما أحب أن لي دبراً (اي جبلاً) من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم.
ثم قال لرجاله : ردّوا عليها هداياها فلا حاجة لي بها.
فخرجنا من عنده مقبوحين مردوداً عليها ما جاء به.
وأقننا عنده بخير دار مع خير جار^(١).

رضي الله عن أم المؤمنين أم سلمة اذ سلم لنا حديثها هذا المسند الوحيد عن هجرة الحبشة ووفد قريش اليها في طلبهم، وهي أحد المهاجرين اليها الأكثر من ثمانين رجلاً وامرأة، ولم يسلم لنا سواه حديث مسند آخر عن أحد سواها من سائر المهاجرين الثمانين. اللهم إلا ما نقلناه عن القمي في تفسيره مرسلًا وبلا اسناد، وما مرّ عن عمرو بن العاص، مع ما بين هذه الأخبار الثلاثة من تفاوت بين، ولا سيما بين خبري أم سلمة وعمرو بن العاص، ولا سيما من جهة عدم اشارته الى أي شيء مما حدثت عنه أم سلمة مما يتعلق به وبلقائه السابق بالنجاشي كوافد من قبل قريش في طلب المهاجرين، بل هو يتحدث عن لقائه هذا الأخير وكأنه أول لقاء له به فيما يرتبط بالإسلام، وان كان ينقل عنه أنه قال فيه : «مرحباً بصديقي» وأنه سجد له كما كان يصنع، فكأنه يتنكر لما كان منه في الوفادة عن قريش الى الحبشة.

خروج الحبشة على النجاشي:

قال ابن اسحاق : وحدثني جعفر بن محمد عن أبيه^(٢) قال : اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي : إنك قد فارقت ديننا.

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٥٧ - ٣٦٢.

(٢) ولذلك عدّ الشيخ الطوسي ابن اسحاق من أصحاب الصادق عليه السلام في رجاله : ٢٨١. كما عدّه في أصحاب الباقر عليه السلام : ١٣٥.

فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفناً وقال : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فان هُزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا .
ثم عمداً إلى كتاب فكتب فيه : هو يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله وروحه وكلمته ، القاها إلى مريم ، ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن ، وخرج إلى الحبشة فقال :
يا معشر الحبشة ! ألسن أحق الناس بكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فكيف رأيتم سيرتي فيكم ؟ قالوا : خير سيرة ، قال : فما بالكم ؟ قالوا : فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبد ! قال : فما تقولون أنتم في عيسى ؟ قالوا : نقول : هو ابن الله ، فوضع يده على صدره على قبائه وقال : هو يشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا شيئاً .
- وهو يعني ما كتب - فرضوا وانصرفوا عنه^(١) .

وقد روى في آخر خبر أم سلمة قالت : فوالله أنا لعل ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه ... وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل (كذا) .
فقال أصحاب رسول الله : من رجل يخرج حتى يحضر الواقعة ثم يأتيها بالخبر ؟ فقال الزبير بن العوام - وكان من أحدث القوم سنأ - أنا ، قالوا : فانت ، فنفعوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . فوالله أنا لعل ذلك ، متوقعون لما هو كائن ، إذ طلع الزبير وهو يسعى فلمع بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا ، فقد ظفر النجاشي وأهلك الله عدوه ومكن له في بلاده ...

ورجع النجاشي وقد أهلك الله عدوه ومكن له في بلاده واستوسق عليه أمر الحبشة . فكنّا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله وهو بمكة^(٢) .

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٦٥ .

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٦٢ .

روى ابن اسحاق هذا الخبر عن ابن شهاب الزهري عن أم سلمة بواسطة قريبها أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي، ثم قال ابن اسحاق: قال الزهري: فحدثت عروة بن الزبير حديث أبي بكر بن عبد الرحمن عن أم سلمة^(١) وغاية ما يفيد هذا الخبر تقرير عروة بن الزبير لخبر أم سلمة عن الزبير، ولم يرد الحديث بذلك عن هجرة الحبشة عن الزبير نفسه ولا بواسطة أحد أبنائه ولا سيما عروة المحدث المؤرخ! وبعد هذا حدث ابن اسحاق بحديث الامام الصادق عليه السلام عن خروج الحبشة على النجاشي، وغاية ما فيه: أنهم خرجوا عليه فأرسل الى جعفر وأصحابه قال: فان هُزمت فامضوا... وان ظفرت فاثبتوا... وخرج الى الحبشة وقد صفوا له... فرضوا وانصرفوا... وليس فيه أن الله أهلك عدوه وظفر النجاشي. فهذه زيادة في خبر أم سلمة. بينما يعوزه ما في حديث الامام الصادق عليه السلام من تهيئة السفن وركوبهم فيها وانتظارهم لخبره. واذا كان لابد من ترجيح في حديث الامام الصادق عليه السلام من المرجحات ما ليس في الخبر عن أم سلمة.

ولا يفوتنا آخر خبر أم سلمة إذ قالت: حتى قدمنا على رسول الله وهو بمكة. ثم ليس في الخبر ولم يذكر ابن اسحاق أو ابن هشام متى كان هذا الرجوع؟ ثم هي تقول: قدمنا، ولا تستثني أحداً. ولكن الظاهر أنها عوّلت على المعلوم يوم حديثها لقريبها أبي بكر المخزومي. بينما يقول ابن اسحاق: وبلغ أصحاب رسول الله الذين خرجوا الى أرض الحبشة إسلام أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم ذلك، حتى اذا دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من اسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل أحد إلا بجوار أو مستخفياً^(٢) منهم: عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله -صلى الله عليه [وآله] وسلم- وأبو سلمة المخزومي ومعه امرأته أم سلمة

(١) ابن اسحاق في السيرة ١: ٣٦٣.

(٢) ابن اسحاق في السيرة ٢: ٣.

المنزومية. والسكران بن عمرو ومعه امرأته سودة بنت زمعة بن قيس. وأبو سبرة بن أبي رُهم معه امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، وعديله أبو حذيفة بن عتبة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، وأخوها عبد الله بن سهيل بن عمرو. وعامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلي بنت أبي حمزة. فهؤلاء عشرة أزواج. ومن غيرهم: الزبير بن العوام، ومُصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح والمقداد بن عمرو، وعبد الله ابن مسعود، وعمار بن ياسر، وعثمان بن مظعون، وأخواه: عبد الله وقُدّامة، وابنه السائب بن عثمان. ومن ثمَّ يقول ابن اسحاق: فجميع من قدم مكة من أصحابه - صلى الله عليه [وآله] وسلم - من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلاً^(١).

هذا وقد سبق منه القول بأنهم كانوا: اثنين وثمانين رجلاً وامرأة^(٢).

وقال عن جميع من قدم المدينة من الذين حملهم النجاشي مع عمرو ابن أمية الضمري في السفينتين إلى رسول الله ﷺ إنهم كانوا ستة عشر رجلاً، ومحمد والحارث ابنا حاطب الجمحي مع أمهم فاطمة بنت المجلل، وعبد الله بن المطلب الزهري مع أمه رملة بنت أبي عوف السهمي، قدمتا بأبنائهما بعد هلاك أزواجهما في الحبشة، في إحدى السفينتين.

ثمَّ عدَّ تسعة^(٣) نفر ممن هلك من الرجال بأرض الحبشة مسلمين، وواحدًا منهم تنصّر بها، هو عبيد الله بن جحش حليف بني أمية وصهر أبي سفيان على ابنته رملة أم حبيبة، لما قدم أرض الحبشة تنصّر بها فكان إذا مرّ بالمسلمين من أصحاب

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٣ - ١٠.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٥٣.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ٤ : ١٠ عد سبعة ثمَّ عدَّ رجلاً من أبنائهم، وفي ٤ : ٧ عدَّ ممن هلك المطلب بن أزهري، ثمَّ لم يعدّه ضمن الثمانية.

رسول الله قال : ففَحنا وصأصأتم^(١) أي : انا قد ففَحنا أعيننا فأبصرنا ولم تفتحوا أعينكم فتبصروا وأنتم تلتَمسون ذلك ! ومات بها نصرانياً . ولذلك تزوّج امرأته رسول الله بواسطة النجاشي قبل رجوعهم الى المدينة بعد الحديبية وقبل خيبر . وكان معها ابنتها حبيبة ، وبها كانت تكنّى .

وعدّ يمن هلك بماء شربوه في طريق الرجوع : موسى بن الحارث واختيه عائشة وزينب وأُمّهم ريطة ابنتي الحارث ولم يبق من الاسرة سوى ابنتهم فاطمة . وبالجملة فقد عدّ ابن اسحاق عدا من قدم على رسول الله ﷺ مكة ، وسوى من حملهم النجاشي في السفينتين ، يمن تخلف عن بدر وقدم بعد ذلك ، عدّهم : أربعة وثلاثين رجلاً^(٢) فهؤلاء مع من قدم مكة : ثلاثة وثلاثون رجلاً ، ومن حملهم النجاشي في السفينتين : ستة عشر رجلاً ، ليكون المجموع : أربعة وثمانين رجلاً ، سوى النساء . وقد عدّ جميع من هاجر الى أرض الحبشة من النساء : ستّ عشرة امرأة ، سوى بناتهن اللاتي ولدن هنالك^(٣) وعدّ ممن وُلد من أبنائهم بأرض الحبشة : خمسة ، ومن البنات : خمساً أيضاً^(٤) فيكون المجموع : مئة وعشرة أشخاص من الرجال والنساء والبنين والبنات ، وهم مع من مات منهم والذي تنصّر مائة وعشرون .

جوار أبي طالب، والوليد:

قال ابن اسحاق : كانت أمّ أبي سلمة المخزومي : برة بنت عبد المطلب ، اخت أبي طالب ، فكان أبو طالب خال أبي سلمة ، ولذلك دخل مكة في جواره .

(١) إن الجرو - ولد الكلب - اذا أراد أن يفتح عينيه للنظر صأصأ - أي صوت - قبل ذلك ، فاذا فتح عينيه أول ما يفتح وهو صغير قيل : ففح الجرو ، واستعارها هنا للانسان فضربه لهم وله مثلاً !

(٢) و (٣) ابن اسحاق في السيرة ٤ : ١٠ .

(٤) ابن اسحاق في السيرة ٤ : ١١ .

ثم روى عن أبيه اسحاق بن يسار، عن حفيد أبي سلمة : سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة، أنه حدثه : أن أبا سلمة لما استجار بأبي طالب مشى إليه رجال من بني مخزوم فقالوا له : يا أبا طالب، لقد منعت منا ابن أخيك محمداً، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا؟ قال : إنه استجار بي، وهو ابن اختي، وإن أنا لم أمنع ابن اختي لم أمنع ابن أخي.

فقام أبو لهب فقال : يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد!

فقالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة.

فحين سمعه أبو طالب يقول ما يقول رجا فيه أن يقوم معه في شأن رسول الله، فقال (قصيدة) يحرض بها أبا لهب على نصرته ونصرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

ثم ذكر عشرة أبيات منها قوله :

جزى الله عنا : عبد شمس، ونوفلاً	وتيماً، ومخزوماً : عقوقاً ومائماً ^(١)
بتفريقهم من بعد ودّ وألفة	جماعتنا، كما ينالوا المحارماً
كذبتم - وبیت الله - نبزي ^(٢) محمداً	ولما تروا يوماً - لدى الشعب - قائماً ^(٣)

ويظهر من هذا البيت الأخير أن ذلك كان في حين حصار الشعب، فالنبي كان بجوار عمه أبي طالب، ودخل فيه معه ابن عمّة النبي أبو سلمة، وكذلك احتمى

(١) بتخفيف الهمزة من المائيم، وهذا من شواهد ما اشتهر عن قريش أنهم كانوا يخففون الهمزة، همزة الوسط لا الأول.

(٢) نبزي أي : ننفي محمداً عن أنفسنا.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٨ - ١١.

ذوو البيوتات والأسر بعشائرتهم، وهاجر بعضهم ومن سواهم الى الحبشة، ورجع منهم من رجع بجوار أو اختفى، وبقي الباقيون في الحبشة، فرجع بعضهم الى المدينة بعد بدر، وكان آخر من رجع العشرون رجلاً وامرأة في السفينتين بعد الحديبية وقبل خيبر.

وان كان ابو سلمة المخزومي قد ترك حمى عشيرته بني مخزوم مستجيراً بخاله أبي طالب، فإنّ عثمان بن مظعون الجُمحي دخل بجوار من الوليد بن المغيرة المخزومي^(١)، ولكنه:

لما رأى ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة، قال: والله إنّ غدوّي ورواحي آمنأ بجوار رجلٍ من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقّون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني، لنقص كبير في نفسي.

ثمّ مشى الى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس، وفّت ذمتك، قد رددتُ اليك جوارك... قال: فانطلق الى المسجد فاردد عليّ جوارِي علانية كما أجرتك علانية. فانطلقا فخرجا حتّى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يرّد عليّ جوارِي. قال: صدّق، قد وجدته وفيّاً كريم الجوار ولكنّي قد أحببت أن لا أستجير بغير الله، فقد رددتُ عليه جواره. ثمّ انصرف.

وكان لبید بن ربیعۃ الشاعر جالساً في مجلس قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبید: ألا كلُّ شيء - ما خلا الله - باطلٌ. فقال عثمان: صدقت. قال لبید: وكلُّ نعيم - لا محالة - زائل. فقال عثمان: نعيم الجنة لا يزول. فقال لبید: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذی جلیسکم فتی حدث هذا فيکم؟

(١) فهذا الخبر أيضاً من الأخبار التي تنافي هلاك الوليد مع المستهزئين الستة.

فقال رجل من القوم : إِنَّ هَذَا سَفِيهٌ فِي سَفَهَاءٍ مَعَهُ قَدْ فَارَقُوا دِينَنَا ، فَلَا تَجِدَنَّ فِي نَفْسِكَ مِنْ قَوْلِهِ .

فَرَدَّ عَلَيْهِ عُثْمَانُ حَتَّى اسْتَشْرَى أَمْرَهَا وَعَظَمَ ، فَقَامَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَلَطَمَ عَيْنَهُ فَخَضَّرَهَا^(١) .

والحوار في الخبر - إن صحَّ - بين الرجل من قريش وليبد الشاعر يُشعر بعدم انتشار أخبار الإسلام بما يبلغ الشاعر لبيد بن ربيعة ، وكذلك ينم عن عدم منابذة المسلمين للمشركين كافة بما يحترز معه ابن مظعون عن مجالستهم في أنديتهم ومجالسهم والاستماع إلى شعرائهم .

بينما مرَّ في خبر أبي سلمة المخزومي شعر أبي طالب يقول :
كذبتُم وبِيتَ اللهُ نَبِيَّ مُحَمَّدًا ولَمَّا تَرَوْا يَوْمًا - لَدَى الشَّعْبِ - قَائِمًا
ويظهر منه - كما مرَّ - أن ذلك كان في حين حصار الشعب ، وقد ذكر القمي والطبرسي والراوندي وابن شهر آشوب أن مدة الحصار كانت أربع سنين^(٢) وقد قال الثلاثة - ما عدا القمي - : إِنَّ أَبَا طَالِبٍ مَاتَ بَعْدَ ذَلِكَ بِشَهْرَيْنِ . وقد روى الصدوق عن الصادق عليه السلام : أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ : أَخْرِجْ مِنْهَا فَلَيْسَ لَكَ بِهَا نَاصِرٌ فَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ^(٣) وروى العياشي عن علي بن الحسين عليه السلام : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا فَقَدَ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ :

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٨ - ١٠ وقد أطلق الخضره على السواد هنا كما قد يطلق السواد على الخضره فيقال : سواد العراق يراد خضره زروعها ، إذ الخضره من بعيد زرقاء داكنة مكدره اللون .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٨٠ إعلام الوري ١ : ١٢٦ ، ١٢٧ وقصص الأنبياء : ٣٢٩ والمناقب ١ : ٦٥ .

(٣) اكمال الدين : ١٧٢ .

يا محمد اخرج من القرية الظالم أهلها وهاجر الى المدينة فليس لك اليوم بمكة ناصر^(١).

وعليه فان بدء حصار الشعب كان متزامناً أو متقارباً مع بداية الهجرة الى الحبشة، في شهر رجب من السنة الخامسة من مبعث رسول الله ﷺ^(٢) وبما أن بعثته كانت في شهر رجب على مذهب أهل البيت عليهم السلام كما مرّت أخباره، فذلك يعني أن هجرة الحبشة كانت في نهاية السنة الخامسة وبداية السادسة. وعلى قول ابن شهر آشوب: فلما توفي ابو طالب خرج النبي ﷺ الى الطائف وأقام فيه شهراً ثم انصرف الى مكة^(٣). ولذلك فنحن ننقل هنا إلى حديث شعب أبي طالب رضي الله عنه.

حديث شعب أبي طالب رضي الله عنه^(٤):

روى نصر بن مزاحم المنقري (م ٢١٢هـ) بسنده عن أبي روق الهمداني عن ورقة لابن عمر الأرحبي في إمارة الحجاج بن يوسف الثقفي: أن علياً عليه السلام كتب إلى معاوية في جواب كتاب منه إليه مع أبي مسلم الخولاني الشامي كتاباً جاء فيه: «فأراد قومنا قتل نبيّنا واجتياح أصلنا، وهمّوا بنا الهُموم وفعلوا بنا

(١) تفسير العياشي ١ : ٢٥٧.

(٢) مجمع البيان ٣ : ٣٦٠ والمنتقى للكارزوني : ٤٤ كما في بحار الأنوار ١٨ : ٤٢٢.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب ١ : ١٧٣.

(٤) في معجم معالم مكة التاريخية للبلاوي : أن اسمه اليوم شعب علي، وهو محل منازل بني هاشم من قبل النبوة، وفيه مولد الرسول ﷺ وفي موضعه مكتبة مكة المكرمة، وازيل ما عداها سنة (١٤١٠هـ) وحال بعض أهل الخير دون هدمها لتكون متحفاً، فوق المسجد الحرام بثلاثمئة متر تقريباً عن يسارها أبو قبيس وعن يمينها الخنادم وبين يديها سوق الليل في شارع الغزة. وراجع مجلة ميقات الحج ع ٥ : ٢٢١.

الأفاعيل : فنحنونا الميرة وأمسكوا عنا العذب، وأحلسونا الخوف^(١) وجعلوا علينا الأرصاد والعيون، واضطرونا إلى جبَلٍ وَغَرٍّ، وأوقدوا لنا نار الحرب، وكتبوا علينا بينهم كتاباً : لا يواكلونا ولا يشاربونا، ولا يناكحونا، ولا يبائعونا، ولا نأمن فيهم إلا من موسم إلى موسم.

فعزم الله لنا على منعه والذب عن حوزته والرمى من وراء حَوْمته والقيام بأسيافنا دونه في ساعات الخوف بالليل والنهار، مؤمننا يرجو بذلك الثواب، وكافرنا يحامي به عن الأهل... فكان ذلك ما شاء الله أن يكون...»^(٢).

والمعتزلي الشافعي رواه عن الاسكافي في «نقض العثمانية» فقال : إنه عليه السلام ذكر حاله يومئذٍ فقال في خطبة له مشهورة.. فلما انتهى من هذا المقطع علّق عليه يقول : «ولقد كانت القبائل كلّها اجتمعت عليهم وقطعوا عنهم المارة والميرة، فكانوا يتوقعون الموت جوعاً صباحاً ومساءً، لا يرون وجهاً ولا فرجاً، قد اضمحلّ عزمهم وانقطع رجائهم»^(٣). ولقد كانت القبائل كلها اجتمعت عليهم، وقطعوا عنهم المارة والميرة فكانوا يتوقعون الموت جوعاً، صباحاً ومساءً، لا يرون وجهاً ولا فرجاً، قد اضمحلّ عزمهم وانقطع رجائهم»^(٤).

(١) الحكس : البساط تحت الفراش، وكساء رقيق تحت برذعة البعير، وهما ملازمان، فيكنى بذلك عن الملازمة، فأحلسونا أي ألزمونا الخوف، أي جعلوا الخوف ملازماً لنا كملزمة الحكس للبيت والبعير. (٢) وقعة صفين : ٨٥ و ٨٩ - ٩١.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ١٣ : ٢٥٤ عن نقض العثمانية للاسكافي. هذا وقد روى المقطع من الكتاب الرضي في الكتاب ٩ من كتب نهج البلاغة وشرحه المعتزلي في ١٤ : ٤٧ - ٨٤. ورواه أخوه المرتضى في العيون والمحاسن عن شيخه المفيد : ٢٨٧ ط. المؤتمر. والدينوري في الأخبار الطوال : ١٥٤ والبلاذري في أنساب الأشراف : ٢٧٧ عن الكلبي عن أبي مخنف عن أبي روق الهمداني أيضاً. والأندلسي في العقد الفريد ٢ : ٣٣٥ والخوارزمي في المناقب : ١٧٦.

(٤) نقض العثمانية للاسكافي : وعنه في شرح النهج للمعتزلي ١٣ : ٢٥٤.

قال الشيخ الطبرسي في «إعلام الوري»: اجتمعوا في دار الندوة وكتبوا بينهم صحيفة: أن لا يواكلوا بني هاشم ولا يكلموهم ولا يبايعوهم ولا يزوّجهم ولا يتزوّجوا اليهم ولا يحضروا معهم، حتّى يدفعوا اليهم (رسول الله) ليقتلوه، وأنهم يد واحدة على محمد، يقتلونه غيلة أو صراحاً. وختموا الصحيفة بأربعين خاتماً ختمها كلّ رجل من رؤساء قريش بخاتمه وعلّقوها في الكعبة، وتابعهم أبو هب على ذلك، ولم يدخل فيها مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد المطلب^(١).

وقال القمي في تفسيره: فلما اجتمعت قريش على قتل رسول الله ﷺ وكتبوا الصحيفة القاطعة جمع أبو طالب بني هاشم وحلف لهم بالبيت والركن والمقام والمشاعر في الكعبة: لئن شاكت محمداً شوكة لأثبنّ عليكم، أو لآتينّ عليكم! وأدخله «الشعب» وكان يحرسه بالليل والنهار قائماً على رأسه بالسيف أربع سنين^(٢).

وقال الطبرسي: وكان يحرسه بالليل والنهار: فاذا جاء الليل قام بالسيف عليه ورسول الله مضطجع، ثمّ يقيمه ويضعه في موضع آخر، فلا يزال الليل كلّهُ هكذا. ووكل به ولده وولد أخيه(?) يحرسونه بالنهار.

وكان أبو جهل، والعاص بن وائل السهمي، والنضر بن الحارث بن كلدة، وعقبة بن أبي معيط يخرجون الى الطرقات التي تدخل مكة، فمن رأوا معه ميرة نهوه أن يبيع بني هاشم شيئاً، ويحذرونه إن باع شيئاً أن ينهبوا ماله.

(١) اعلام الوري: ٤٩ و ٥٠ وتلميذه الراوندي في قصص الأنبياء: ٣٢٩. والخرائج والجرائح

١: ١٤٢ الحديث ٢٣٠ وذكره قبل في: ٨٥ الحديث ١٤١ وفيه: كانت في الكعبة فخافوا عليها

السرقة فجعلوها عند أم أبي جهل!

(٢) تفسير القمي ١: ٣٨٠.

فكان من يدخل من العرب مكة لا يجسر أن يبيع بني هاشم شيئاً، ومن دخلها وباعهم شيئاً انتهبوا ماله. وكانت خديجة لها مال كثير فانفقته على رسول الله في الشعب.

وبقوا في الشعب أربع سنين لا يأمنون إلا في الموسم، ولا يشترون ولا يبيعون إلا في الموسم، وكان يقوم بمكة في كل سنة موسمان: موسم العمرة في رجب، وموسم الحج في ذي الحجة، فكان اذا جاء الموسم خرج بنو هشام من الشعب فيشترون ويبيعون، ثم لا يجسر أحد منهم أن يخرج، الى الموسم الثاني: فأصابهم الجهد بذلك.

وكان رسول الله ﷺ يخرج في كل موسم ويدور على قبائل العرب فيقول لهم: تمنعون جانبي حتى أتلو عليكم كتاب الله ربّي، وثوابكم على الله الجنة؟ وأبو لهب في أثره يقول: لا تقبلوا منه فانه ابن أخي وهو ساحر كذاب.

وكان أبو العاص بن الربيع - وهو ختن رسول الله على ابنته زينب - يجيء بالعر بالليل عليها البرّ والتمر الى باب الشعب ثم يصيح بها فتدخل الشعب. ولذا قال رسول الله ﷺ: «لقد صاهرنا أبو العاص فأحمد صهرنا، لقد كان يعيد الى العير - ونحن في الحصار - فيرسلها في الشعب ليلاً».

إيمان أبي طالب ﷺ:

وبعث قريش الى أبي طالب: ادفع الينا محمداً لنقتله ونملكك علينا! فقال ابو طالب قصيده الطويلة التي يقول فيها:

لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل

ثمّال اليتامى، عصمة للأرامل

فهم عنده في نعمة وفواضل

الم تعلموا أن ابنتنا لا مكذب

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

يطوف به الهلاك من آل هاشم

كذبتُم - وبيتَ الله - نُبري محمّداً
 ونُسلِئُهُ، حتّى نُصرَّعَ دونَهُ
 لَعمرِبي لقد كُلفْتُ وَجداً بأحمد
 وجُدتُ بنفسي دونَهُ وحميَّته
 فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها
 حليماً رشيداً حازماً غير طائشٍ
 فأَيُّدُهُ ربَّ العباد بنصره
 ولما سمعوا هذه القصيدة أيسوا منه^(١).

وذكر الخبر ابن شهر آشوب وأضاف : كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه
 ونامت العيون جاء أبو طالب فأنهضه عن مضجعه وأضجع علياً مكانه ووكل عليه
 ولده وولد أخيه (؟) فقال علي عليه السلام : يا أبتاه اني مقتول ذات ليلة . فقال أبو طالب :
 اصبرنْ يا بُني فالصبر أحجى
 قد بَلَوْنَاكَ والبلاء شديد
 لفداء الأعز ذي الحسب الثا
 إن تُصبك المنونُ بالنبل تَبْرئُ
 كلَّ حيٍّ وإن تطاول عمراً
 فقال علي عليه السلام :

ووالله ما قلت الذي قلت جازعاً
 وتعلّمَ أني لم أزلُ لك طائعا
 نبيّ الهدى المحمود طفلاً ويافعا
 أتأمرني بالصبر في نصر أحمد
 ولكنني أحببت أن ترَ نُضرتي
 وسغبي لوجه الله في نصر أحمد

(١) إعلام الوري ١ : ١٢٦ ، ١٢٧ . وذكرها تلميذه القطب الراوندي في : قصص الأنبياء : ٣٣٩ .

(٢) الشعوب : الموت .

وقبل هذا روى من شعر أبي طالب في الحصار :

وقالوا : خُطَّةٌ جوراً وحُمَقاً وبعض القول أبلج مستقيمُ :
لِتَخْرُجْ هاشم فيصير منها بلائعَ بطنِ مكَّة والحطيمِ
فهللاً قومنا لا تركبونا بمظلمة لها أمر وخيمُ
فيندَم بعضكم ويذلُّ بعضُ وليس بمفلح أبداً ظلومُ
فلا - والراقصات بكل خُرْقٍ^(١) الى معمر مكَّة لا يريمُ
طوال الدهر - حتى تقتلونا ونقتلكم وتلتقي الخصومُ
ويعلم مَغَشَرٌ قطعوا وعقَّوا بأنهم همُّ الجلد الظليمُ
أرادوا قتلَ أحمدَ ظالميه وليس لقتله فيهم زعيم
ودون محمدَ فتيان قوم هم العرينين والعضو الصميم

وروى من قصيدة اخرى له يقول :

ألم تعلموا أننا وجدنا محمداً نبياً كموسى خُطٌّ في أول الكُتُبِ
أليس أبونا هاشم شدَّ أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضربِ
وإنَّ الذي علَّقتم من كتابكم يكون لكم يوماً كراغية السَّقْبِ^(٢)
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفرَ الثرى ويصبحَ من لم ينجن ذنباً كذي الذنب^(٣)

وروى هذه القصيدة ابن اسحاق وأضاف :

ولا تشبعوا أمر الوُشاة وتقطعوا أو اصرنا بعد المودة والقربِ
وتستجلبوا حرباً عواناً وربما أمرٌ - على من ذاقه - جَلَبُ الحربِ

(١) الخُرْق : القفر .

(٢) يشير بذلك الى قصة فصيل ناقة صالح عليه السلام ، فالراغية من الرُغاء وهو صوت الابل ،
والسَّقْب : ولد الناقة .

(٣) مناقب آل أبي طالب ١ : ٦٣ - ٦٥ .

فلسنا - ورب البيت - نُسلم أحداً
ولما تبين منا ومنكم سوائف^(٢)
بمعتزك ضيق ترى كسر القنا
ولسنا نمل الحرب حتى تمّلنا
ولكننا أهل الحفاظ والنهي

لعزاء^(١) من عض الزمان ولا كرب
وأيدٍ أترت بالقساسة الشهب^(٣)
به، والنسور الطخم يعكفن كالشرب^(٤)
ولا نشتكي ماقد ينوب من النكب
إذا طار أرواح الكُماة من الرغب

قال ابن اسحاق : ويذكرون أن أبا جهل بن هشام لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد وهي مع رسول الله في الشعب، فتعلق أبو جهل بحكيم وقال له : أتذهب بالطعام الى بني هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى افضحك بمكة ! فجاء أبو البختري بن هشام فقال له : مالك وله ؟ فقال : يحمل الطعام الى بني هاشم ! فقال له أبو البختري : طعام كان لعمته عنده فبعثت اليه فيه ، افتمنعه أن يأتيها بطعامها ! خلّ سبيل الرجل ، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ أبو البختري لحى بعير فضربه به فشجّه ووطأه وطأ شديداً .

قال : وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة فدعا عليه رسول الله فسل بعض أصابعه^(٥) وقال اليعقوبي : فشلت يده . كما بالغ في عدد المتعاقدين المتعاهدين على الصحيفة فقال : وختموا على الصحيفة بثمانين خاتماً^(٦) بينما قال الطبرسي :

(١) العزاء : الشدة .

(٢) السوائف : صفحات الأعناق .

(٣) أترت : قطعت . والقساسة نسبة الى قساس جبل فيه معدن حديد .

(٤) الشرب : الجماعة من القوم - أو الحيوان - يشربون .

(٥) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٧٧ - ٣٨٠ وروى الخبر بالفاظه الطبري ٢ : ٣٣٦ بدون ما يتعلق

بأبي طالب ! .

(٦) اليعقوبي ٢ : ٣١ .

وختموا الصحيفة بأربعين خاتماً ختمها كل رجل من رؤساء قريش بخاتمه وعلقوها في الكعبة^(١) ولا أرى رؤساء قريش يزيدون عن أربعين رجلاً في مكة.

وقال اليعقوبي في تاريخ الحصار ومدته : ثم حصرت قريش رسول الله وأهل بيته من بني هاشم وبني المطلب في الشعب الذي يقال له : شعب بني هاشم ، بعد ست سنين من مبعثه . فأقام - ومعه جميع بني هاشم وبني المطلب - في الشعب ثلاث سنين . حتى أنفق رسول الله ماله ، وأنفق أبو طالب ماله ، وانفقت خديجة مالها ، وصاروا إلى حد الضر والفاقة^(٢) بينما قلل ابن إسحاق فقال : فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً ، حتى جُهدوا ، لا يصل إليهم شيء إلا سرّاً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش^(٣) وقد مرّ عن القمي والطبرسي أنها كانت أربع سنين انتهت قبل هجرته بقليل .

وحيث انتقلنا بالآية العاشرة من سورة الزمر إلى حديث هجرة الحبشة ، ثم بتقريب أن بداية حصار الشعب كان قريباً من بدايات هجرة الحبشة انتقلنا إلى حديث الشعب ، يلزمنا الاذعان بأن نزول السور بعد الزمر كان في أيام حصار الشعب ، إلا ما كان نزوله أيام موسمي العمرة والحج وبعد الشعب قبل الهجرة ، اذن فما كان من الآيات يفيد حواراً بين النبي والمشرّكين كان ممّا يحتمل نزولها في أيام المواسم .

السورة الحادية والستون - «السجدة (فصلت)»:

وفيها قوله سبحانه : ﴿ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ

(١) إعلام الوري ١ : ١٢٦ .

(٢) اليعقوبي ٢ : ٣١ .

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٧٩ .

وَفِي آذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١﴾. وروى الطبرسي في «مجمع البيان» عن مقاتل : قال : إنَّ أبا جهل رفع ثوباً بينه وبين النبي ﷺ فقال : يا محمد ! أنت من ذلك الجانب ونحن من هذا الجانب ، فاعمل أنت على دينك ومذهبك أننا عاملون على ديننا ومذهبنا (٢) فنزلت سورة السجدة . ونقل مثله ابن شهر آشوب في «المناقب» (٣).

وبعده قوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٤).

وروى الطبرسي عن الفراء قال : كانت قريش تطعم الحاج وتسقيهم ، فحرّموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ ، فهذا هو الزكاة في هذا الموضع (٥).

السورة الثالثة والستون - «الزخرف»:

وفيها قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٦).

روى الطبرسي في «الاحتجاج» عن أبي محمد الحسن العسكري أنّه قال : قلت لأبي علي بن محمد عليه السلام : هل كان رسول الله ﷺ يناظر المشركين اذا عاتبوه ويحاجّهم ؟

(١) فصلت : ٣ - ٥ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٤ ، ٥ .

(٣) مناقب آل أبي طالب ١ : ٥٦ ولا يخفى أنّ هذا مما يناسب التزامن مع بدء الحصار في شعب أبي طالب .

(٤) فصلت : ٦ ، ٧ .

(٥) مجمع البيان ٩ : ٦ .

(٦) الزخرف : ٣١ .

قال : بلى مراراً كثيرة، منها ما حكى الله من قولهم... ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ... وذلك أن رسول الله ﷺ كان قاعداً ذات يوم بمكة بفناء الكعبة، اذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش منهم : الوليد بن المغيرة المخزومي (كذا) وأبو البختری ابن هشام، وأبو جهل، والعاص بن وائل السهمي، وعبد الله بن أبي أمية المخزومي، وكان معهم جمع ممن يليهم كثير. ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه يقرأ عليهم كتاب الله ويؤدّي اليهم عن الله أمره ونهيه.

فقال المشركون بعضهم لبعض : لقد استفحل أمر محمد وعظم خطبه، فتعالوا نبداً (كذا) بتقريعه وتبكيته وتوبيخه والاحتجاج عليه وابطال ما جاء به، ليهون خطبه على أصحابه ويصغر قدره عندهم، فلعله ينزع عما هو فيه من غيّه وباطله وتمردّه وطغيانه، فان انتهى وإلاّ عاملناه بالسيف الباتر!

قال أبو جهل : فمن ذا الذي يلي كلامه ومجادلته ؟
قال عبد الله بن أبي أمية المخزومي : أنا لذلك، أفما ترضاني له قرناً حسيباً ومجادلاً كفيّاً؟

فاتوه بأجمعهم، فابتدأ عبد الله بن أبي أمية المخزومي فقال :
يا محمد ! لقد ادّعت دعوى عظيمة وقلت مقالاً هائلاً : زعمت أنك رسول ربّ العالمين، وما ينبغي لربّ العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون رسوله بشراً مثلك تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب وتمشي في الأسواق كما نمشي ! وهذا ملك الروم وهذا ملك الفرس لا يبعثان رسولاً إلاّ كثير المال عظيم الحال، له قصور ودور، وفساطيط وخيام، وعبيد وخدام، وربّ العالمين فوق هؤلاء كلّهم فهم عبيده، فلو كنت نبياً لكان معك ملك يصدقك ونشاهده. بل لو أراد الله أن يبعث إلينا نبياً لكان إنما يبعث إلينا ملكاً لا بشراً مثلاً.

فقال رسول الله ﷺ : فهل بقي من كلامك شيء ؟

قال : نعم ، لو أراد أن يبعث إلينا رسولا لبعث أجلا من فيما بيننا أكثرهم مالا وأحسنهم حالا ، فهلا أنزل هذا القرآن ، -الذي تزعم أن الله أنزله عليك وابتعثك به رسولا- على رجل من القريتين عظيم : إما الوليد بن المغيرة بمكة ، وإما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف .

فقال له رسول الله ﷺ : يا عبد الله ، أمّا ما ذكرت ... إلى أن قال : وأمّا قولك : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ : الوليد ابن المغيرة بمكة أو عروة بالطائف . فان الله ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظمه أنت ولا خطر له عنده كما له عندك ، بل لو كانت الدنيا عنده تعدل جناح بعوضة لما سقى كافرا به مخالفا له شربة ماء ، وليس قسمة الله اليك ، بل الله هو القاسم للرحمات والفاعل لما يشاء في عبده وإمائه ، وليس هو ممن يخاف أحدا كما تخافه أنت لما له وحاله ، ولا ممن يطمع في أحد في ماله أو في حاله كما تطمع أنت فيخصه بالنبوة لذلك ، ولا ممن يحب أحدا محبة الهواء كما تحب أنت فيقدم من لا يستحق التقديم ، وانما معاملته بالعدل ، فلا يؤثر لأفضل مراتب الدين وجلاله إلا الأفضل في طاعته والأجد في خدمته ، وكذلك لا يؤثر في مراتب الدين وجلاله إلا أشدهم تباطؤا عن طاعته . وإذا كان هذا صفته لم ينظر إلى مال ولا إلى حال ، بل هذا المال والحال من تفضله ، وليس لأحد من عباده عليه ضريبة لازمة ، فلا يقال له : إذا تفضلت بالمال على عبد فلا بد أن تتفضل عليه بالنبوة ايضا ، لأنه ليس لأحد إكراهه على خلاف مراده ولا الزامه تفضلا ، لأنه تفضل قبله بنعمه .

وذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ

مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١﴾ أَيُّ مَا يَجْمَعُهُ هَؤُلَاءِ مِنْ أَمْوَالِ الدُّنْيَا ۚ﴾^(١).

هذا، وقد روى فيه فيما أجاب به أبو الحسن علي بن محمد العسكري عليه السلام نفسه في رسالته إلى أهل الأهواز حين سألوه عن الجبر والتفويض أنه قال: إليه الصفوة يصطفي من يشاء من عباده، اصطفى محمداً - صلوات الله عليه وآله - وبعثه بالرسالة إلى خلقه، ولو فوّض اختيار أموره إلى عباده لأجاز لقريش اختيار أمية بن أبي الصلت وأبي مسعود الثقفي، إذ كانا عندهم أفضل من محمد صلى الله عليه وآله، لما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ يعنونها بذلك^(٢).

والخبر الأول في ذكره في رؤساء قريش الوليد بن المغيرة المخزومي يعارض ما رواه الطبرسي نفسه في «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين عليه السلام إذ عدّه من المستهزئين الخمسة أو الستة^(٣) وهو ما رواه الصدوق أيضاً مسنداً في «الخصال»^(٤) وفيه أنهم ماتوا في يوم واحد حين نزول قوله سبحانه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ من سورة الحجر النازلة قبل السجدة بخمس عشرة سورة. فيبقى الخبر الثاني عن الإمام الهادي عليه السلام بلا معارض، وفيه بدل الوليد أمية بن أبي الصلت الثقفي نفسه. ويشترك مع الخبر الأول من «الاحتجاج» في ذكر الوليد، مانقله الطبرسي في «مجمع البيان» عن قتادة عن ابن عباس. ووافق خبر قتادة خبري «الاحتجاج» في رجل الطائف أنه: عروة بن مسعود الثقفي. وانفرد مجاهد فيها أنها: عتبة بن أبي ربيعة من مكة، وابن عبد ياليل من الطائف، وانفرد ابن عباس في رجل الطائف:

(١) الزخرف: ٣١-٣٢.

(٢) الاحتجاج ١: ٢٦-٣٢ باختصار.

(٣) الاحتجاج ٢: ٢٥٥. والطباطبائي نقل الخبر الأول ولم ينقل الثاني في الميزان ١٨: ١٠٦.

(٤) الاحتجاج ١: ٣٢١ و٣٢٢.

(٥) الخصال ١: ٢٨٠.

أنه حبيب بن عمرو الثقفي^(١) ووافق القمي في تفسيره خبري «الاحتجاج» و قتادة في رجل الطائف أنه عروة بن مسعود، وقال : هو عم المغيرة بن شعبة الثقفي ، ولم يذكر رجل مكة^(٢) ومسعود وحبيب وعبد ياليل اخوة ابناء عمرو بن مسعود الثقفي كما في «مجمع البيان»^(٣)

السورة الرابعة والستون - «الدخان»:

وفيها قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ وفي تفسير القمي قال : نزلت في أبي جهل^(٤) وفي «مجمع البيان» : الأثيم أي الآثم وهو أبو جهل . روي : أن أبا جهل أتى بتمر وزبد فقال : هذا هو الزقوم الذي يخوفنا به محمد^(٥) وقد مر عنه تفصيله في سورة الصافات .

السورة السادسة والستون - «الأحقاف»:

وفيها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ^(٦) .

وروى الطبرسي في «مجمع البيان» عن الزهري قال : لما توفي ابو طالب اشتدّ البلاء على رسول الله ﷺ ، فعمد لثقيف بالطائف ، رجاء أن يؤوه ...

(١) مجمع البيان ٩ : ٦ . وفي لباب النقول : ١٣٨ : ابو مسعود الثقفي .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٢٨٣ .

(٣) مجمع البيان ٩ : ١٣٩ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٢٩٢ .

(٥) مجمع البيان ٩ : ١٠٢ وابن اسحاق في سيرته ١ : ٣٨٨ .

(٦) الأحقاف : ٢٩ ، ٣٠ .

ورجع رسول الله ﷺ الى مكة حتى اذا كان (بنخلة) قام في جوف الليل يصلي فرّبه نفر من جن أهل (نصيبين) فوجدوه يصلي صلاة الغداة ويتلو القرآن فاستمعوا له . وهو مروي عن جماعة منهم سعيد بن جبير^(١).

هذا ما نقله هنا الطبرسي مما يقتضي وفاة أبي طالب ﷺ قبل نزول سورة الأحقاف (السادسة والستين) وقد بقي من السور المكية عشرون سورة يقتضي أنها نزلت بمكة بعد وفاة أبي طالب وبعد الهجرة الى الطائف وقبل الهجرة الى المدينة مما يخالف خبري العياشي والصدوق^(٢) أما القمي فقد قال : كان سبب نزول هذه الآية (كذا) أن رسول الله ﷺ خرج من مكة الى سوق عكاظ - ومعه زيد بن حارثة - يدعو الناس الى الاسلام فلم يجبه أحد ولم يجد من يقبله ، فرجع الى مكة . فلما بلغ موضعاً يقال له «وادي مجنة» تهجد بالقرآن في جوف الليل فرّبه نفر من الجن فلما سمعوا قراءة رسول الله ﷺ استمعوا له ولما سمعوا قراءته قال بعضهم لبعض : أنصتوا ، فلما فرغ رسول الله من القراءة ولّوا الى قومهم منذرين قالوا : ﴿ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً ... ﴾ ثم قال القمي : فأنزل الله على نبيه : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ السورة كلها وفيها حكى الله قولهم^(٣).

وخلط القمي بهذا بين السورتين : الأحقاف والجن ، وفي سورة الجن قال : وقد كتبنا خبرهم في سورة الأحقاف^(٤) أي جعل السبب نفس السبب في السورتين ، بينما سورة الجن هي الأربعون في النزول والأحقاف السادسة والستون ، مع ظهور

(١) مجمع البيان ٩ : ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٢٥٧ وإكمال الدين : ١٧٢ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٥٥٤ .

في سورة الجن بأنها كانت الأولى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا^(١).

ونقل الطبرسي في «مجمع البيان» خبر سوق عكاظ عن البخاري ومسلم والواحدي باسنادهم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ، وكان قد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فلما رجعوا الى قومهم قالوا: ما ذاك الا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها. فمرّ نفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي وهو بنخل (ومرّ في خبر الزهري: في نخلة) عامدين الى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا الى قومهم وقال: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿ فأوحى الله الى نبيه: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾^(٢) اذن فخير سوق عكاظ وبطن نخلة لسورة الجن لا الأحقاف.

وقال الطبرسي: قال آخرون: أمر رسول الله أن ينذر الجن ويدعوهم الى الله ويقرأ عليهم القرآن، فصرف الله اليه نفراً من الجن من نينوى (العراق) فقال ﷺ لأصحابه: اني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة، فأياكم يتبعني؟ فاتبعه عبد الله بن مسعود. قال عبد الله: ولم يحضر معه احد غيري، فانطلقنا حتى اذا كنا

(١) الجن: ٩، ١٠.

(٢) مجمع البيان ١: ٥٤٤. ولا يوجد الخبر في أسباب النزول المطبوع للواحدي في الأحقاف، ولم يذكر الجن.

بأعلى مكة دخل رسول الله ﷺ شعب الحجون وخط لي خطأً أمرني أن أجلس فيه قال : لا تخرج منه حتى أعود اليك . ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن ، فغشيته أسودة كثيرة حتى حالت بيني وبينه حتى لم أسمع صوته ، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين حتى بقي منهم رهط ، وفرغ رسول الله ﷺ مع الفجر ، فانطلق وقال لي : هل رأيت شيئاً ؟ قلت : نعم ، رأيت رجالاً سوداً عليهم ثياب بيض . قال : أولئك جن نصيبين^(١) .

ولكنه نفسه روى بعد ذلك عن علقمة بن قيس قال : قلت لعبد الله ابن مسعود : من كان منكم مع النبي ﷺ ليلة الجن ؟ فقال : ما كان منا معه أحد ، فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة ، فقلنا اغتيل رسول الله ﷺ أو استطير ! فانطلقنا نطلبه من الشعاب . فلقيناه مقبلاً من نحو جراء ، فقلنا : يا رسول الله ! أين كنت ؟ لقد أشفقنا عليك وقلنا له : بتنا الليلة بشر ليلة بات بها قوم حين فقدناك ! فقال لنا : إنه أتاني داعي الجن فذهبت أقرئهم القرآن . ثم ذهب بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . فأما أن يكون صحبه منا أحد فلم يصحبه^(٢) .

ويبدو أن المتعين للقبول من هذين الخبرين الأخيرين عن ابن مسعود هو الأخير ، إذ هو المنسجم مع الآية من سورة الأحقاف : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ ﴾ : «أتاني داعي الجن» لا الخبر السابق : «إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة» . فلا داعي للأخذ بما مرّ عن الزهري تفسيراً للآية من الأحقاف ، فيما كان معنى الخبر هو خبر سعيد بن جبير المشتغل على بطن نخلة وقد مرّ عن البخاري ومسلم والواحدي أن خبره عن سورة الجن .

(١) مجمع البيان ٩ : ١٤٠ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ١٤٠ و ١٠ : ٥٤٤ .

السورة التاسعة والستون - «الكهف»:

وروى القمّي في تفسيره بسنده عن الامام الصادق عليه السلام قال :

كان سبب نزولها (يعني الكهف) : أن قريشاً بعثوا ثلاثة نفر الى نجران :
النضر بن الحارث بن كلدة، وعُقبة بن أبي معيط، والعاص بن وائل السهمي
ليتعلموا من اليهود والنصارى مسائل يسألونها رسول الله ﷺ ، فخرجوا الى
نجران الى علماء اليهود فسألوهم فقالوا :

سلوه عن ثلاث مسائل ، فان أجابكم فيها على ما عندنا فهو صادق ، ثم سلوه
عن مسألة واحدة فان ادعى علمها فهو كاذب . قالوا : وما هذه المسائل ؟ قالوا :
سلوه عن فتية كانوا في الزمن الأول فخرجوا وغابوا وناموا وكم بقوا في نومهم حتى
انتبهوا ؟ وكم كان عددهم ؟ وأي شيء كان معهم من غيرهم ؟ وما كان قصّتهم ؟
واسألوه عن موسى حين أمره الله أن يتّبع العالم ويتعلم منه ، من هو ؟ وكيف
تبعه ؟ وما كانت قصّته معه ؟

واسألوه عن طائف طاف مغرب الشمس ومطلعها حتى بلغ سدّ يأجوج
وما أجوج ، من هو ؟ وكيف كانت قصّته ؟

ثم أملوا عليهم أخبار هذه الثلاث مسائل وقالوا لهم : إن أجابكم بما قد أملينا
عليكم فهو صادق ، وان أخبركم بخلاف ذلك فلا تصدقوه .

قالوا : فما المسألة الرابعة ؟ قالوا : سلوه متى تقوم الساعة ؟ فان ادعى علمها
فهو كاذب ، فان قيام الساعة لا يعلمها الا الله تبارك وتعالى .

فرجعوا الى مكة واجتمعوا الى أبي طالب عليه السلام فقالوا : يا أبا طالب ! إن ابن
أخيك يزعم أن خبر السماء يأتيه ونحن نسأله عن مسائل فان أجابنا عنها علمنا أنّه
صادق ، وان لم يجبنا علمنا أنّه كاذب .

فقال أبو طالب : سلوه عما بدا لكم ، فسألوه عن الثلاث مسائل .

فقال رسول الله ﷺ : غداً أخبركم . ولم يستثن^(١) فاحتبس الوحي عليه أربعين يوماً حتى اغتم النبي ﷺ وشك أصحابه الذين كانوا آمنوا به ، وفرحت قريش واستهزؤا وآذوا . وحزن أبو طالب .

فلما كان بعد أربعين يوماً نزل عليه جبرئيل بسورة الكهف . فقال رسول الله : يا جبرئيل لقد أبطأت ! فقال : إنا لا نقدر أن نزل إلا بأذن الله^(٢) .

ونقل الطبرسي في «مجمع البيان» مثله عن محمد بن اسحاق عن سعيد ابن جبير وعكرمة عن ابن عباس : أن قريشاً أنفذوا النضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهم : إنهم أهل الكتاب الأول وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا ، فصفا لهم صفة محمد وخبراهم بقوله وسلاهم عنه . فخرجوا حتى قدما المدينة فسألوا أحبار اليهود عن النبي ﷺ وقالوا لهم ما قالت قريش . فقال لهما أحبار اليهود : أسألوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فهو رجل متقول ، فروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ، فانه قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه ؟ وسلوه عن الروح ما هو ؟ فان أخبركم عن الثنتين ولم يخبركم بالروح فهو نبي .

فانصرفوا إلى مكة فقالوا : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . وقصا عليهم القصة .

(١) أي لم يقل : إن شاء الله .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣١ ، ٣٢ وسند الخبر : حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عنه عليه السلام ، فهو صحيح لولا ما يبدو فيه من الانقطاع بين ابراهيم بن هاشم وابن أبي عمير . والخبر يقتضي أن تكون فترة الوحي الأربعون يوماً قبل نزول سورة الكهف ، وستأتي الفترة كذلك في خبر ابن اسحاق إلا أنها خمس عشرة ليلة .

فجاؤوا الى النبي ﷺ فسألوه، فقال: أخبركم بما سألتكم عنه غدا ولم يستثن: فانصرفوا عنه.

فمكث ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله اليه في ذلك وحيًا ولا يأتيه جبرئيل، حتى أرجف أهل مكة وتكلموا في ذلك، فشق على رسول الله ﷺ ما يتكلم به أهل مكة عليه.

ثم جاءه جبرئيل عن الله سبحانه بسورة الكهف، وفيها ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف، وفيه ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾. وقال رسول الله ﷺ لجبرئيل حين جاءه: لقد احتبست عني يا جبرئيل؟ فقال له جبرئيل: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾^(١).

وفي قوله سبحانه في السورة: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ^(٢) قال: قد ذكرنا فيما قبل ما جاء في الرواية: أن النبي ﷺ سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين فقال: أخبركم عنه غداً. ولم يستثن، فاحتبس الوحي عنه أياماً حتى شق عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية بأمره بالاستثناء بمشيئة الله تعالى^(٣).

السورة السبعون - «الفحل»:

قال القمي في تفسيره: نزلت لما سألت قريش رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم العذاب، فأنزل الله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾^(٤). وروى الطبرسي في «مجمع البيان» عن الحسن البصري قال: إن المشركين

(١) مجمع البيان ٦ : ٦٩٧. وعند ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٢١.

(٢) الكهف : ٢٣، ٢٤.

(٣) مجمع البيان ٦ : ٧١٢. وعند ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٢٧.

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٨٢.

قالوا للنبي ﷺ : ائتنا بعذاب الله، فقال سبحانه ما معناه : إن أمر الله آتٍ وكل ما هو آت قريب، فعني ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ اي قرب أمر الله بعقاب هؤلاء المشركين المقيمين على الكفر والتكذيب بيوم القيامة وبعذاب الله، وكانوا يستعجلونه كما حكى الله سبحانه عنهم قولهم : ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فتقديره : قل هؤلاء الكفار : لا تستعجلوا القيامة والعذاب فان الله سيأتي بكل واحد منها في وقته وحينه كما تقتضيه حكمته^(١).

ويدعم هذا المعنى ما رواه العياشي في تفسيره عن هشام بن سالم عن بعض أصحابه قال سألت الصادق عليه السلام عن قول الله : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ فقال : اذا أخبر الله النبي ﷺ بشيء الى وقت أنه كائن فكأنه قد كان، فهو قوله : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ حتى يأتي ذلك الوقت^(٢).

ومنها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ليخملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون^(٣).

وروى الطبرسي عن الكلبي قال : نزلت في المقتسمين، وهم ستة عشر رجلاً خرجوا الى عقاب مكة أيام الحج على طريق الناس، على كل عقبة أربعة منهم، ليصدوا الناس عن النبي ﷺ، فاذا سألهم الناس عما أنزل على رسول الله ﷺ قالوا : أحاديث الأولين وأباطيلهم^(٤) ونقل مثله في «المناقب»^(٥).

(١) مجمع البيان ٦ : ٥٣٧.

(٢) تفسير العياشي ١ : ٢٥٤.

(٣) النحل : ٢٤ ، ٢٥.

(٤) مجمع البيان ٦ : ٥٤٩.

(٥) مناقب آل أبي طالب ١ : ٤٩.

روى السيوطي في «الدر المنثور» مفضّله عن السدي قال : اجتمعت قريش فقالوا : إنّ محمّداً رجل حلّو اللسان اذا كلّمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا أناساً من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم فابعثوهم في كل طريق من طرق مكّة ، على رأس كل ليلة أو ليلتين (كذا) فمن جاء يريد فرّدوه عنه .

فخرج ناس منهم في كلّ طريق ، فكان اذا أقبل الرجل وافداً لقومه ينظر ما يقول محمّد فينزل بهم ، قالوا له : أنا فلان بن فلان فيعرفه بنسبه ويقول : أنا أخبرك بمحمّد فلا يريد أن تعني اليه ، هو رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيه ، وأمّا شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له . فيرجع بعضهم ، وذلك قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

واذا كان الوافد ممّن عزم الله له على الرشاد فقالوا له مثل ذلك في محمّد قال : بئس الوافد أنا لقومي ان كنت جئت حتّى بلغت ، إلا مسيرة ليلة ، رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل وأنظر ما يقول وآتي قومي ببيان أمره . فدخل مكّة فلقى المؤمنين فيسألهم : ماذا يقول محمّد ؟ يقولون : ﴿ خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ^(١) .

وخبر السدي هذا لا يبعد أن يعدّ تفصيلاً لمختصر خبر الكلبي السابق قبله ، ولكن الكلبي قال «في عقاب مكّة أيام الحج» والسدي : «في كل طريق من طرق مكّة على رأس كلّ ليلة أو ليلتين فاذا أقبل الرجل وافداً لقومه» ثم لا يذكر الحج والاعتبار يساعد على الأوّل لا الثاني . والثاني لا ينصّ على عنوان «المقتسمين» ولا على عددهم «الستة عشر رجلاً» كما هو في الكلبي . هذا وقد مرّ خبر المقتسمين مع المستهزئين الستة الذين كفى الله رسوله شرّهم بهلاكهم في يوم واحد بإشارة جبرئيل اليهم ودعاء الرسول عليهم ، فهل يعني الكلبي أن المقتسمين كانوا

مستمرين على عملهم ذلك بعد هلاك المستهزئين، من لدن نزول سورة الحجر الرابعة والخمسين حتى بعد نزول سورة النحل وهي السبعون؟ أم يعني أن الآية نزلت تحكي شأنهم القديم غير المستمر؟ أو أنه أمر حاضر متكرر؟ والظاهر الأخير.

وقد يبدو للنظر: أن تكون هذه الفترة بين نزولي سورتي الحجر الرابعة والخمسين والنحل السبعين، هي فترة حصار الرسول وبني هاشم في شعب أبي طالب، وهي الفترة الفاصلة بين المقتسمين الأوائل وبين تجديد عملهم مرة أخرى حين نزول سورة النحل.

ويدفعه: أن موسم الحج في الأشهر الحرم كان مستثنى من حكم الحصار، ولذلك كان الرسول يخرج من الحصار فيه بشيراً ونذيراً، وقد ورد الخبر بالنص على مزاوله المشركين لعملهم ذلك في الصدّ عنه ﷺ في أيام الموسم أيام الحصار في الشعب، فلا فترة في البين.

وحضر المشركين للرسول وبني هاشم مدة ثلاث سنين أو نحوها من جملة الحوادث المهمة في تاريخ الإسلام بعد البعثة وقبل الهجرة، وهي: إنذار يوم الدار، والاسراء والمعراج، والهجرة إلى الحبشة، والهجرة إلى الطائف، ثم الهجرة إلى المدينة. وقد وردت الإشارة في آيات القرآن الكريم إلى الإنذار والاسراء والمعراج بالاجمال في سورتي الاسراء والنجم، وكذلك الهجرة الأخيرة إلى المدينة، أما حادث الحصار والهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى الطائف فلا نجد في آيات القرآن الكريم إشارة إليها حسب التفسير المشهور.

ولتبين مدى صحة دعوى المرحلة السرية مع نزول القرآن فيها، استعرضت ما نزل من القرآن حتى سورة الحجر التي فيها ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ وبعد ذلك اردت الدخول في سرد الحوادث، ولكن حيث لاحظت الخلاف في ترتيبها وتواريخها رجعت الى مواكبة السور المكية حسب ترتيب النزول.

وهنا في سورة النحل في الآية الحادية والأربعين تقف على ذكر الهجرة في قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجُزَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١).

وهي أول آية تذكر الهجرة، وهي في عداد آيات سورة النحل المكية، وهي السورة السبعون، وبعدها ست عشرة سورة نزلت في مكة قبل الهجرة، فهل المعنى بها الهجرة الاولى الى الحبشة؟ أم الثانية الى المدينة؟

نقل الطبرسي في «مجمع البيان» عن الحسن وقتادة: أن قوله ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ ﴾ الى آخر السورة مدنية ^(٢) وكذلك نقل السيوطي في «الاعتقان» ^(٣) ثم ذكر الطبرسي سائر الأقوال بسائر الاستثناءات في الآيات، ولم يتظافر النقل باستثناء قتادة، بل روى السيوطي في «الدر المنثور» عن قتادة نفسه أيضاً أنها الهجرة الى الحبشة ^(٤).

وسنذكر أن هذه السورة هي آخر سورة نزلت في شعب أبي طالب، ونذكر بعد ذلك أن بيعة العقبة الاولى أيضاً كذلك كانت في آخر موسم عمرة قبل الخروج من الشعب، وأن النبي أذن لأصحابه بعد ذلك بالهجرة الى المدينة تدريجياً. فلو كانت الآية العاشرة من سورة الزمر بقوله سبحانه فيها ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ مبدأ إذن النبي بالهجرة الى الحبشة، فمن المحتمل أن تكون هذه الآية مبدأ إذن الرسول هذه المرة بالهجرة الى المدينة، مع وضوح الفرق بين الفترتين في حال البلدين. ولكننا لا نجد شيئاً في ذلك عند رواية الحديث والتفسير والتأريخ.

(١) النحل : ٤١.

(٢) مجمع البيان ٦ : ٥٣٥.

(٣) الاعتقان ١ : ١٥.

(٤) الدر المنثور ٥ : ١١٨ والتمهيد ١ : ١٥٣.

ومن المحتمل كذلك أيضاً أن تكون الآية بل السورة مما نزل في أواخر السنة الحادية عشرة للبعثة، قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، اذ كان قد قدم مكة من أرض الحبشة أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي مع زوجته أم سلمة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج الى المدينة مهاجراً فكان أول من هاجر الى المدينة من أصحاب رسول الله^(١).

ومنها قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾^(٢).

قال القمي في تفسيره : هو لسان أبي فكهية مولى ابن الحضرمي، كان أعجمي اللسان، وكان قد اتبع نبي الله وآمن به، وكان من أهل الكتاب، فقالت قريش : هذا - والله - يعلم محمداً بلسانه^(٣).

ونقل الطبرسي عن مجاهد وقتادة قالا : أرادوا به عبداً لبني الحضرمي رومياً يقال له عائش، صاحب كتاب، أسلم وحسن اسلامه.

وعن عبد الله بن مسلم قال : كان في الجاهلية غلامان نصرانيان من أهل عين التمر (في العراق) اسم أحدهما يسار والآخر جبر، كانا يقرءان كتاباً لهما بلسانهم، وكان رسول الله ﷺ ربما مرّ بهما واستمع لقراءتهما، فقالوا : إنما يتعلم منها^(٤).

وعن ابن عباس قال : قالت قريش : إنما يعلمه بلعام، وكان قيناً رومياً نصرانياً بمكة^(٥).

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ١١٢.

(٢) النحل : ١٠٣.

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٩٠.

(٤) أسباب النزول للواحدي : ٢٣١.

(٥) مجمع البيان ٦ : ٥٩٥ وروى السيوطي عنه أيضاً قال : كان رسول الله يعلم قيناً ←

وقال ابن اسحاق : بلغني أن رسول الله كان كثيراً ما يجلس عند المروة الى مَبِيعَةَ غلام نصراني يقال له : جَبْرُ عبدُ لبني الحضرمي ، فكانوا يقولون : والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جَبْرُ النصراني غلام بني الحضرمي . فأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (١).

مقتل ياسر وسمية وتعذيب ابنهما عمّار:

ومنها قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ * مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢).

روى العياشي في تفسيره عن الصادق عليه السلام قال : إنَّ عمّار بن ياسر أخذ بمكة فقالوا له : ابرأ من رسول الله ﷺ ، فبرأ منه ، فأنزل الله عذره : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ ﴾ .

→ بمكة اسمه بلعام - وكان أعجمي اللسان - فكان المشركون يرون رسول الله يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا إنما يعلمه بلعام ، الدر المنثور ٤ : ١٣١ وروى روايات أخرى باسماء : أبي اليسر ، ومقيس .

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٣٣ .

(٢) النحل : ١٠٥ - ١١٠ .

وروى فيه عنه عليه السلام قال : أما سمعت قول الله في عمار : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ .

وروى فيه عنه عليه السلام قال : إن هذه الآية نزلت في عمار وأصحابه : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ ^(١) .

ولذلك قال القمي في تفسير هذه الآية : هو عمار بن ياسر أخذته قريش بمكة ، فعذبوه بالنار حتى أعطاهم بلسانه ما أرادوا ، وقلبه مطمئن بالايان ... ثم قال في عمار أيضاً : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٢) .

وروى الكليني في (الكافي) بسنده عن الصادق عليه السلام أيضاً قال : إن عمار بن ياسر اكرهه أهل مكة وقلبه مطمئن بالايان ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله عندها : يا عمار إن عادوا فعد ، فقد أنزل الله عذرك : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ وأمر أن تعود إن عادوا ^(٣) .

وروى الطبرسي في «مجمع البيان» عن قتادة وابن عباس قال : نزلت الآية في جماعة أكرهوا على الكفر ، وهم : عمار وياسر أبوه وأمه سمية وصهيب وبلال وخبّاب ، عذبوا حتى قُتل ابو عمار وأمه ، فاعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه ، فأخبر الله سبحانه بذلك رسوله ، فقال قوم : كفر عمار ، فقال صلى الله عليه وآله : كلا إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه . وجاء عمار الى رسول الله وهو يبكي ، فقال صلى الله عليه وآله : ما وراءك ؟ فقال : شرّ يا رسول الله ، ما تركت حتى

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٩٠ ، ٣٩١ .

(٣) أصول الكافي ٢ : ٢١٩ عن القمي أيضاً .

نِلْتُ مِنْكَ وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ! فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ وَيَقُولُ : إِنْ عَادُوا لَكَ فَعُدُّهُمْ بِمَا قُلْتَ . ثُمَّ قَالَ : فَنَزَلَتِ الْآيَةُ ^(١) .

بينما مرّ في خبر الكليني عن الصادق عليه السلام أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ لَهُ : « إِنْ عَادُوا فَعُدُّ فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَذْرَكَ وَأَمْرَكَ أَنْ تَعُودَ إِنْ عَادُوا » مِمَّا ظَاهَرَهُ أَنَّ الْآيَةَ كَانَتْ قَدْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﷺ قَبْلَ مَقَابَلَةِ عِمَارٍ لَهُ لَا بَعْدَهَا . وَقَدْ مرّ فِي خَبَرِ الطَّبْرَسِيِّ نَفْسَهُ : أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولَهُ قَبْلَ مَجِيءِ عِمَارٍ إِلَى الرَّسُولِ ، فَالظَّاهِرُ أَنَّ نَزُولَ الْآيَاتِ كَانَ قَبْلَ الْمَقَابَلَةِ لَا بَعْدَهَا ، وَعَلَيْهِ فَلَا مَحَلَّ لِقَوْلِهِ : « فَنَزَلَتِ الْآيَةُ » كَمَا لَا مَحَلَّ لِمَا أَخْرَجَهُ السَّيُوطِيُّ فِي (الدَّر الْمَنْشُور) عَنْ مُصَنِّفِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ ، وَطَبَقَاتِ ابْنِ سَعْدٍ ، وَتَفْسِيرِ ابْنِ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ ، وَابْنِ أَبِي حَتْمٍ فِي (دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ) مِنْ طَرِيقِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عِمَارٍ بْنِ يَاسِرٍ ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ آبَائِهِ قَالَ : أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عِمَارَ بْنَ يَاسِرٍ فَلَمْ يَتْرَكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ - وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ، ثُمَّ تَرَكُوهُ . فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَهُ : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : شَرٌّ ، مَا تُرَكْتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ! قَالَ : فَكَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟ قَالَ : مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، قَالَ : فَانْ عَادُوا فَعُدُّ ، فَنَزَلَتْ .

وَبَقَوْلِهِ : فَانْ عَادُوا فَعُدُّ ، لَا مَحَلَّ لِمَا أَخْرَجَهُ السَّيُوطِيُّ فِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ - أَنْ يَهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ ... فَأَصْبَحَ بِلَالٌ وَخُبَّابٌ وَعِمَارٌ ... فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ ... وَأَمَّا عِمَارٌ فَقَالَ لَهُمْ كَلِمَةً أَعْجَبَتْهُمْ ، تَقِيَّةً ، ثُمَّ خَلَّوْا عَنْ بِلَالٍ وَخُبَّابٍ وَعِمَارٍ فَلَحَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ فَأَخْبَرُوهُ بِالَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ ... وَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ ^(٢) .

(١) مجمع البيان ٦ : ٥٩٧ .

(٢) الدر المنثور ٤ : ١٣٢ ، ١٣٣ .

وكذا لا محل لما رواه قبله الواحدي في (أسباب النزول) عن ابن عباس قال :
 إنّ المشركين أخذوا عماراً وأباه ياسراً وأمه سُمَيّة وبلاًلاً وخبّاباً وسالمّاً. فأما سُمَيّة
 فانها رُبِطت بين بعيرين ووُجِئ قُبُلها بحربة فقتلت، وقتل زوجها ياسر، فهما أوّل
 قتيلين في الإسلام، وأما عمار فانه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكرهاً. فأخبر النبيّ
 بأنّ عماراً كفر! فقال : كلاً، إنّ عماراً ملئ ايماناً من قرنه الى قدمه، واختلط الايمان
 بدمه ولحمه! فأتى عمار رسول الله وهو يبكي، فجعل رسول الله يمسح عينيه وقال :
 إنّ عادوا لك فعُد لهم بما قلت. فأنزل الله^(١).

وبهذا المعنى ما رواه الكشي في رجاله بسنده عن الليث بن سعد عن عمر
 مولى غفرة قال : حُبِس عمار فيمن حُبِس وعُذِّب، فانقلت فيمن انقلت من الناس
 فقدم على رسول الله ﷺ فقال : أفلح أبو اليقظان! قال : ما أفلح ولا أنجح لنفسه؛
 لأنهم لم يزالوا يعذبونه حتّى نال منك! قال : إنّ سألو من ذاك فزدهم^(٢).

بل روى فيه بسنده عن محمد المحمودي المروزي قال : إنّ عمار بن ياسر قتلت
 قريش أبويه ورسول الله يقول : صبراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة، ما تريدون من
 عمار؟ عمار مع الحق والحق مع عمار حيث كان، عمار جلدة بين عيني وأنفي، تقتله
 الفئة الباغية، يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار. وألقته قريش في النار فقال فيه
 رسول الله ﷺ : يا نار كوني برداً وسلاماً علىّ عمار كما كنت برداً وسلاماً علىّ
 ابراهيم. فلم تصله النار ولم يصبه منها مكروه^(٣) وهذا يدل على وجود الرسول في
 مكّة حينذاك، فلعلّ ذلك كان في أيام الموسم إذ كان يخرج فيه النبيّ وبنو هاشم

(١) أسباب النزول للواحدى : ٢٣١ ط الجميلي.

(٢) رجال الكشي : ٣٥ ط مشهد.

(٣) رجال الكشي : ٣٠ ط مشهد. وروى مختصر الخبر ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٤٢.

وسياتي أن الآيات الأولى من آخر سورة مكية هي «العنكبوت» نزلت في عمار بن ياسر أيضاً^(١)، ولعلنا نجد في ذلك حلاً للاشكال، ومحلاً لهذه الأخبار التي تفيد أن عماراً عذب قبيل هجرته بل وقد هاجر الرسول ﷺ، وأنه هاجر الى المدينة ولكنه لم يواجه الرسول حياءً منه لما قاله من كلمة الكفر، أو واجهه وهو يبكي من ذلك، حتى طمأنه النبي بعدم الاثم عليه. فان هذه الأخبار انما تناسب تلك الفترة لا قبلها. وأيضاً نجد بالقول بتعدد الموقف لعمار، محلاً جميلاً لطيفاً لقول الرسول له: «إن عادوا لك فعد لهم» بأنها كلمة قالها له في هذه المرة مشيراً له بلطف الى أن هذا الأمر سيتكرر منهم ومنك، وأن الإشارة الى تكرار ذلك أيام هجرته. ولكن الرواة خلطوا فجعلوا هذه الجملة مقولة له من الرسول ﷺ في المدينة بعد الهجرة حيث لا توقع بعودة مشركي قريش الى تعذيب عمار لافتتانه عن دينه. فما معنى أن يقول له الرسول: ان عادوا فعد لهم؟.

ونجد بذلك أيضاً محلاً لخلط بعض الرواة حيث رووا ما يفيد أن هذه الآية من سورة النحل المكية نزلت بعد الهجرة في عمار، كما مرّ عن السيوطي في «الدر المنثور»^(٢) مما استلزم استثناء هذه الآيات من مكية السورة بلا موجب.

أول لقاء الخزرج بالنبي في موسم العمرة:

بما أن الآية (١٢٥) من سورة النحل تستتبع خبر خروجهم من الشعب، وقبل ذلك كان لقاءه ﷺ بالخزرج في موسم العمرة في شهر رجب، لذلك نقدم هنا الخبر عن ذلك:

(١) هذا الكتاب : ٦٨٢.

(٢) الدر المنثور ٤ : ١٣٢، ١٣٣.

روى الطبرسي في «اعلام الورى» عن القمي قال : كان بين الأوس والخزرج حرب قد بغوا فيها دهوراً طويلاً، فكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار. وكان آخر حرب بينهم يوم بُعث^(١).

وعند استعداد الخزرج لهذه الحرب لما دعوا عبد الله بن أبيّ بن سلول (= اسم جدّه) وكان من أشرفهم واسخياهم، قال : هذا ظلم منكم للأوس ولا أُعِين على الظلم، فلم يدخل مع قومه الخزرج في حرب بُعث ولم يُعَنهم على الأوس، واتفق ان كانت حرب بُعث للأوس على الخزرج، فلما كان كذلك رضى الفريقان بالمصالحة ورضوا به أن يملكوه عليهم، وأخذوا يُعدّون له اكليلاً لذلك.

وكان الأوس والخزرج يسمعون من يهود قَيْنُقَاع وقريظة والنضير فيما بينهم يقولون لهم : هذا أوان نبيّ يخرج بمكة يكون مُهاجره إلى يثرب (المدينة) لنقتلنكم به يا معشر العرب (وهم عرب).

ومن الخزرج وقبل أن يملكوا عليهم عبد الله بن أبيّ، حاول بعضهم أن يسأل من قريش مكة حلفاً على الأوس، فخرج منهم لموسم العمرة في شهر رجب ذكوان بن عبد القيس وأسعد بن زرارة الخزرجيان، وكان ذلك حين محاصرة بني هاشم في الشّعب.

وكان أسعد بن زرارة من قبل صديقاً لعتبة بن ربيعة المخزومي فنزل عليه وقال له : إنه كان بيننا وبين قومنا (الأوس) حرب وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم.

فقال عتبة : بُعدت دارنا عن داركم، ولنا شغل لا نتفرّغ معه لشيء!

قال أسعد : أنتم في حرمكم وأمنكم، فما شغلكم؟

قال عتبة : خرج فينا رجل يدّعى أنّه رسول الله سَفّه أحلامنا وسبّ آلهتنا،

وأفسد شبابنا وفرّق جماعتنا!

(١) اسم حصن الاوس، وكانت الحرب عنده فسميت به. النهاية ١ : ١٣٩.

قال أسعد : مَنْ هو منكم ؟ قال : هو ابن عبد الله بن عبد المطلب من أوسطنا شرفاً وأعظمنا بيتاً !

قال : فأين هو ؟ قال : إنهم لا يخرجون من شعبهم إلا في الموسم ، فهو اليوم يجلس في الحجر ، فلا تكلمه ولا تسمع منه كلمة فإنه يسحرك بكلامه !

فقال له أسعد : فكيف أصنع وأنا معتمر لا بد لي من أن أطوف بالبيت ؟

قال عتبة : ضع قطناً في أذنيك !

فحشا أسعد أذنيه من القطن ودخل المسجد فطاف بالبيت ورسول الله

جالس في الحجر ومعه قوم من بني هاشم ، فلما مرّ به نظر إليه نظرة وجازه ، ولكنه

قال في نفسه : أياكون مثل هذا الحديث بمكة فلا أعرفه حتى أرجع إلى قومي

فأخبرهم ؟! هذا جهل ليس فوقه جهل ! ففي الشوط الثاني اخرج القطن من أذنه

ورمى به ودنا من رسول الله وحيّاه بتحية الجاهلية : أنعم صباحاً . فرفع إليه رسول

الله رأسه وقال له : قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا تحية أهل الجنة : السلام

عليكم .

فجلس إليه أسعد وقال : إن عهدك بهذا القريب ، إلى ما تدعو ؟

قال ﷺ : إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وادعوكم إلى (وتلا

عليه آيتين من سورة الأنعام) : ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا

أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا

تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ

الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ

نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ .

فلما سمع أسعد هذا قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنت رسول الله . ثم قال : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، أنا من أهل يثرب من الخزرج ، وبيننا وبين اخواننا من الأوس حبال مقطوعة ، فإن وصلها الله بك فلا أحد أعز منك . ومعني رجل من قومي فإن دخل في هذا الأمر رجوت أن يتقم الله لنا أمرنا فيك . والله يا رسول الله لقد كنا نسمع من اليهود خبرك ، وكانوا يبشروننا بمخرجك ويخبروننا بصفتك ، وأرجو أن تكون دارنا هجرتك وعندنا مقامك فقد اعلمنا اليهود ذلك ، فالحمد لله الذي ساقني إليك ، والله ما جئت إلا لنطلب الحلف على قومنا وقد أتاني الله بأفضل مما أتيت له .

ثم أقبل ذكوان فناداه أسعد وقال له : هذا رسول الله الذي كانت اليهود تبشرنا به وتجزنا بصفته فهلّم وأسلم ، فأسلم ذكوان .
ثم قالوا : يا رسول الله ابعث معنا رجلاً يعلمنا القرآن ويدعو الناس إلى أمرك .

وكان مصعب بن عمير بن هاشم (من بني عبد الدار) يحبه أبوه عمير بن هاشم ويكرمه ويفضله على أولاده ، وأسلم ، فجفاه أبواه (وكان قد خرج من مكة إلى الحبشة في الهجرة الأولى ولكنه عاد مع من عاد بعد شهرين إلى مكة) فكان مع رسول الله في الشعب حتى تغير وأصابه الجهد ، وكان قد تعلم من القرآن كثيراً (فلما طلب الخزرجيان معلماً بالقرآن وداعياً إلى الإسلام في يثرب) أمر رسول الله مصعب بن عمير بالخروج معها ، فخرج معها إلى يثرب ، وأنزله أسعد بن زرارة في داره ، وأخذ يخرج معه كل يوم يطوف به على مجالس الخزرج يدعوهم إلى الإسلام ، فيجيبه من كل بطن منهم الرجل والرجلان من أحداثهم وشبابهم . حتى ذهب به أسعد إلى خاله سعد بن معاذ من بني عمرو بن عوف من الأوس فأسلم وأسلم معه كثير من بني عمرو بن عوف في قباء (كما سيأتي تفصيله) .

وكتب مصعب إلى رسول الله بأن الأوس والخزرج قد دخلوا في الإسلام، فلما بلغ ذلك رسول الله أذن لهم بالخروج إلى المدينة^(١).

هجرة أبي سلمة إلى المدينة:

مرّ في الخبر: أن من المهاجرين الأولين إلى الحبشة كان أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي مع زوجته أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومي، وأنهم خرجوا في شهر رجب في الخامسة من البعثة فأقاموا في الحبشة شهرين وسمعوا بإسلام أهل مكة فرجع جمع منهم - منهم أبو سلمة وزوجه - في شوال^(٢).

وأمّ أبي سلمة: برة بنت عبد المطلب أخت أبي طالب، فأبو طالب خاله. ولذلك دخل مكة في جوار خاله أبي طالب.

فشى رجال من بني مخزوم إلى أبي طالب وقالوا له: يا أبا طالب، لقد منعت منا ابن أخيك محمداً، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا؟!

قال: إنه استجار بي، وهو ابن أختي، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي.

وأكثروا الكلام على أبي طالب حتى قام أبو هب وقال لهم: يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ (وكان له تسعون سنة) ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهنّ عنه أو لنقومنّ معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد!

فقالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة^(٣)!

(١) إعلام الوری ١ : ١٣٦ - ١٣٩.

(٢) بحار الأنوار ١٨ : ٤٢٢ عن المنتقى.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ٢٤٨.

وقال ابن إسحاق : لما قدم أبو سلمة من أرض الحبشة آذته قريش ، فلما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار هاجر إلى المدينة ، وذلك قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة (ونزل في بني عمرو بن عوف في قباء كما يأتي).

وروى عن أبيه عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة عن جدته أم سلمة^(١) قالت : لما أجمع أبو سلمة على الخروج إلى المدينة جهّز لي بعيره فأركبني ومعي ابني سلمة في حجري وجعل يقودنا .

وجاءنا رجال من بني مخزوم فقالوا له : هذه نفسك غلبتنا عليها^(٢) فعلام نتركك تسير بصاحبك؟! ثم نزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه وحبسني أهلي عندهم ، وعندي ابني سلمة . وانطلق أبو سلمة إلى المدينة . وجاء رهط أبي سلمة فقالوا لنا : إذ نزعتموها من صاحبنا فلا نترك ابننا عندها ! فتجاذبوا بينهم ابني سلمة حتى خلعوا يدي عنه وانطلقوا به مني !

فكنت اخرج غداة كل يوم إلى الأبطح فأجلس فيه فما أزال ابكي حتى أمسي فارجع إلى أهلي ! قريباً من سنة ! حتى مرّ بي يوماً رجل من بني عُمَيّ فترحم عليّ ، وجاء إلى أهلي فقال لهم : ألا تخرجون هذه المسكينة ، فرّقم بينها وبين زوجها وبينها وبين ولدها؟! فعند ذلك ردّوا إلي ابني ، ثم قالوا لي : إن شئت فالحي بزوجك . قالت : فارتحلت بعيري وأخذت ابني في حجري وخرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحد من خلق الله .. فلما كنت بالتنعيم (مخرج مكة إلى المدينة) لقيني عثمان بن طلحة من بني عبد الدار ، فعرفني فقال : يا بنت أبي أمية إلى أين ؟ قلت : أريد زوجي بالمدينة ! قال : أو ما معك أحد ؟ قلت : لا والله إلا الله وابني هذا !

(١) كذا ، وأم سلمة جدّة أبيه عبد الله فعلمه روى عن أبيه عبد الله عن جدّته أم سلمة .

(٢) لعله لجوار أبي طالب له .

فقال : والله مالي أن أتركك، ثم أخذ بخطام البعير فانطلق بي، فكان إذا بلغ المنزل ينيخ بي ثم يتأخر عني حتى أنزل فإذا نزلت كان يأتي فيأخذ بعيري فيحط عنه ثم يقيده بشجرة، ثم يتنحى عني إلى شجرة أخرى فيضطجع تحتها. فإذا دنى الرواح يقوم إلى بعيري فيقدمه ثم يتأخر عني ويقول : اركبي فإذا ركبت يأتي فيأخذ بخطامه فيقوده، وهكذا حتى إذا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال : زوجك في هذه القرية فادخلها على بركة الله. ثم انصرف راجعاً إلى مكة^(١).

صحيفة المقاطعة الظالمة:

ومنها قوله سبحانه : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾^(٢).

ذكر ابن شهر آشوب في «المناقب» عن «شرف المصطفى» للخرگوشي : أن الآية : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ نزلت على النبي ﷺ في أواخر أيام الحصار في شعب أبي طالب، فقال ﷺ : كيف ادعوهم وقد صالحوا على تركي الدعوة؟ فنزل جبرئيل فأخبر النبي : أن الله بعث على صحيفتهم الأرضة، فلحسثها^(٣).

وروى قبله القطب الراوندي في «قصص الأنبياء» : أنه لما أتى على رسول الله ﷺ في الشعب أربع سنين، بعث الله على صحيفتهم القاطعة دابة الأرض

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ١١٢ - ١١٣ بتصرف في الألفاظ.

(٢) النحل : ١٢٥.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١ : ٦٥.

فلحست جميع ما فيها من قطيعة رحم وظلم وجور، وتركت اسم الله، ونزل جبرئيل عليه فأخبره بذلك^(١).

ورواه في «الخرائج والجرائح» فقال : حاصروا بني هاشم في الشعب - شعب عبد المطلب - أربع سنين . فأصبح النبي يوماً وقال لعمه أبي طالب : إن الصحيفة التي كتبتها قريش في قطيعتنا قد بعث الله عليها دابة (الأرض) فلحست كل ما فيها غير اسم الله.

فقال أبو طالب : يا بن أخي أفأصير إلى قريش فأعلمهم بذلك ؟ قال : إن شئت .

فصار أبو طالب ﷺ إليهم فاستبشروا بمصيره إليهم واستقبلوه بالتعظيم والاحلال وقالوا :

قد علمنا الآن أن رضا قومك أحب إليك مما كنت فيه، أفتسلم إلينا محمداً، ولهذا جئتنا؟!

قال : يا قوم، إني قد جئكم بخبر أخبرني به ابن أخي محمد، فانظروا في ذلك، فإن كان كما قال فاتقوا الله وارجعوا عن قطيعتنا، وإن كان بخلاف ما قال سلمته إليكم واتبعتم مرضاتكم! قالوا : وما الذي أخبرك؟!

قال : أخبرني : أن الله قد بعث على صحيفتكم دابة (الأرض) فلحست ما فيها غير اسم الله، فخطوها، فإن كان الأمر بخلاف ما قال سلمته إليكم^(٢)! وكانت قبل في الكعبة فخافوا عليها السرقة (فجعلوها) عند أم أبي جهل! فبعثوا إليها، فوضعت بين أيديهم وخواتيمهم عليها.

(١) قصص الأنبياء للراوندي : ٣٢٩.

(٢) الخرائج والجرائح ١ : ١٤٢ الحديث ٢٣٠.

فقال أبو طالب : هل تنكرون منها شيئاً؟ قالوا : لا. قال : إن ابن أخي حدثني - ولم يكذبني قط - أن الله قد بعث على هذه الصحيفة الأَرْضَةَ فأكلت كلَّ قطعة واثم وتركت كل اسم هو لله ! فإن كان صادقاً أقلعتم عن ظلمنا، وإن يكن كاذباً ندفعه إليكم فقتلتموه !

فصاح الناس : نعم أنصفتنا يا أبا طالب . ففتحت ثم أخرجت ، فإذا هي مُثَرَبَةٌ (مقطّعة) كما قال (١).

فأتوا بها وفكّوا الخواتيم ، فاذا فيها «باسمك اللهم» واسم «محمد» فقط ! فقال لهم أبو طالب : اتقوا الله وكفّوا عما أنتم عليه . فسكتوا وتفرّقوا .

واجتمع سبعة نفر من قريش على نقضها وقالوا : أخرجها الله ، ومنهم : مطّعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، وزهير بن أبي أمية المخزومي زوج عاتكة بنت أبي طالب (٢) وهشام ابن عمرو بن لؤي بن غالب ، وأبو البخري بن هشام ، وزمعة بن الأسود ابن المطلب ... وعزموا أن يقطعوا يمين كاتبها : منصور بن عكرمة ، فوجدوها سلاء ، فقالوا : قطعها الله .

وفي ذلك قال أبو طالب :

ألاهل أتى بحرّيتنا صنع ربنا	على نأيمهم؟ (٣) والله بالناس أروء
فيخبرهم : أن الصحيفة مُزِقَّتْ	وأن كلَّ مالم يرضه الله يفسد
يرأوحها إفاك وسحر مجمّع	ولم تلق سحراً آخر الدهر يصعد

(١) الخرائج والجرائح ١ : ٨١ الحديث ١٤١ .

(٢) وسيأتي عن ابن اسحاق ان أمه عاتكة ، بنت عبد المطلب وابن اسحاق اقرب الى الاتقان .

(٣) يقصد المهاجرين الى الحبشة . وذكر القصيدة ابن اسحاق في سيرة ابن هشام ١ : ١٧ - ١٩ ،

وله أيضاً في ذلك :

وقد كان من أمر الصحيفة عبرة
عما الله منها كفرهم وعقوقهم
وأصبح ما قالوا من الأمر باطلاً
وأمنى ابن عبد الله فينا مصداً
متى ما يخبر غائب القوم يعجب
وما تقموا من ناطق الحق مغرب
ومن يختلق ما ليس بالحق يكذب
على سخط من قومنا، غير معتب

وله أيضاً في ذلك :

تطاول ليلى بهم نصب
ولعب قصى بأحلامها
ونفى قصى بني هاشم
وقالوا لأحمد: أنت امرؤ
وان كان أحمد قد جاءهم
على أن إخواننا وازروا:
ورمتم بأحمد مارمتم
فأنى، ومأحج من راكب
تنالون أحمد؟ أو تصطلوا
ودمعي كسح السقاء السرب
وهل يرجع الحلم بعد اللعب
كنفى الطهارة لطاف الخطب^(١)
خلوف الحديث ضعيف النسب
بحق ولم يأتهم بالكذب
بني هاشم وبني المطلب
على الآصارات وقرب النسب
وكعبة مكة ذات الحجب
بروس الرماح وحد القضب^(٢)

وذكر الخبر الراوندي إلى أن قال : ففرق القوم ولم يتكلم أحد منهم، وعند ذلك قال نفر من بني عبد مناف وبني قصى ورجال من قريش ولدتهم نساء بني هاشم منهم : مطعم بن عدي - وكان شيخاً كبيراً كثير المال له أولاد - وأبو البخري بن هشام، وزهير بن أمية المخزومي في رجال من أشرافهم، قالوا : نحن براء مما

(١) أي : كما ينفي الطبّاخ الخشب الجيد عن الاحتراق .

(٢) مناقب آل أبي طالب ١ : ٦٥ - ٦٧ ونقل المقطوعة والتي قبلها السيد هاشم البحراني في حلية الأبرار ١ : ٦٢ - ٦٤ عن المستدرک لابن بطريق عن مغازي ابن اسحاق .

في هذه الصحيفة. وقال أبو جهل : هذا أمر قُضي بليل ! ورجع أبو طالب الى الشعب وخرج منه هو والنبي ورهطه، وخالطوا الناس^(١) والظاهر أنه نقله من كتاب شيخه الطبرسي : «إعلام الوري»^(٢).

وذكر الخبر ابن هشام في سيرته قال : ذكر بعض أهل العلم : أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب : يا عم، إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً لله الا أثبتته فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان. فقال : أربك أخبرك بهذا؟ قال : نعم، قال : فوالله ما يدخل عليك أحد. ثم خرج الى قريش، فقال : يا معشر قريش، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهل صحيفتكم، فان كان كما قال ابن أخي فانتهاوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها، وان كان كاذباً دفعت اليكم ابن أخي. فقال القوم : رضينا، فتعاقدوا على ذلك ثم نظروا، فاذا هي كما قال رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم - فزادهم ذلك شراً.

فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا^(٣).

ونقل الخبر السيد هاشم البحراني عن كتاب «المستدرك» ليحيى بن الحسن ابن البطريق الحلبي عن كتاب «المغازي» لابن اسحاق قال : ثم إن الله أرسل على صحيفة قريش - التي كتبوا فيها تظاهرهم على بني هاشم - الارضة، فلم يدع فيها اسماً لله تعالى الا اكلته ! وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان (بعكس السابق) فأخبر الله بذلك رسول الله ﷺ فأخبر أبا طالب.

(١) قصص الأنبياء : ٣٣٠.

(٢) إعلام الوري ١ : ١٢٦، ١٢٧.

(٣) سيرة ابن هشام ٢ : ١٦، ١٧.

فقال له أبو طالب : يا بن أخي من حدثك بهذا؟ وليس يدخل علينا أحد ولا تخرج أنت الى أحد، ولست في نفسي من أهل الكذب!
فقال رسول الله ﷺ : أخبرني ربّي بهذا.

فقال له عمه : إن ربك الحق وأنا أشهد أنك صادق.

ثمّ جمع أبو طالب رهطه، ولم يخبرهم بما أخبره به رسول الله ﷺ، كراهية أن يفشوا ذلك الخبر فيبلغ المشركين فيحتالوا للصحيفة الخبّ والمكر. وانطلق أبو طالب برهطه حتّى دخل المسجد، والمشركون من قريش في ظل الكعبة.

فلما أبصروه تباشروا به وظنّوا أن الحصر والبلاء حملهم على أن يدفعوا رسول الله ﷺ فيقتلوه! فلما انتهى اليهم أبو طالب ورهطه رحّبوا به وقالوا: قد آن لك أن تطيب نفسك عن قتل رجل في قتله صلاحكم وجماعتكم وفي حياته فرقتمكم وفسادكم!

فقال أبو طالب : قد جئتكم في أمر لعله يكون فيه صلاح وجماعة، فاقبلوا ذلك منّا، هلمّوا صحيفتكم الّتي فيها تظاهركم علينا.

فجاؤوا بها وهم لا يشكّون أنهم سيدفعون رسول الله ﷺ اذا نشروها.

فلما جاؤوا بصحيفتهم قال أبو طالب : صحيفتكم بيني وبينكم، فان ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني : أن الله عز وجل قد بعث على صحيفتكم الأرضة فلم تدع لله تعالى اسماً الا اكلته وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان. فان كان كاذباً فلكم على أن أدفعه اليكم تقتلونه، وان كان صادقاً فهل ذلك ناهيكم عن تظاهركم علينا؟

فأخذ عليهم الموائيق واخذوا عليه. فلما نشروها فاذا هي كما قال رسول الله ﷺ فاستسرّ أبو طالب وأصحابه وقالوا: أرايتم أيّنا أولى بالحزّ والقطيعة والبهتان؟!

فقام المطعم بن عدي بن نوفل بن مناف، وهشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي، فقالوا: نحن براء من هذه الصحيفة القاطعة العادية الظالمة، ولن نمالي أحداً في فساد أمرنا. وتتابع على ذلك ناس من أشراف قريش. فخرج القوم من شعبهم وقد أصابهم الجهد الشديد^(١).

وقال ابن اسحاق في السيرة: مشى هشام بن عمرو بن ربيعة الى زهير بن أبي أمية ابن المغيرة المخزومي - وكانت امه عاتكة بنت عبد المطلب - فقال له: يازهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب... وأخوالك حيث قد علمت لا يُباعون ولا يبتاع منهم؟! أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام (أبي جهل) ثم دعوته الى مادعاك اليه منهم ما أجابك اليه أبداً.

قال: ويحك ياهشام فما أصنع؟ انما أنا رجل واحد، والله أن لو كان معي رجل آخر لقمّت في نقضها حتى انقضها.

قال: قد وجدت رجلاً، قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال: ابغنا رجلاً ثالثاً.

فذهب (هشام) الى المطعم بن عدي فقال له: يا مطعم، أقد رضيت ان يهلك بطنان من بني عبد مناف (بنو هاشم وبنو المطلب) وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم اليها منكم سراعاً!

قال: ويحك فما أصنع؟ انما أنا رجل واحد. قال: قد وجدت ثانياً. قال: من هو؟ قال: أنا قال: ابغنا ثالثاً. قال: قد فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية. قال: ابغنا رابعاً.

فذهب (هشام) الى أبي البخترى بن هشام فقال له ما قال للمطعم. فقال: وهل من أحد يُعين على هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير ابن أبي أمية والمطعم بن عدي، وأنا معك. قال: ابغنا خامساً.

فذهب (هشام) الى زمعة بن الاسود بن المطلب، فكلّمه وذكر له قرابتهم وحقهم. فقال له : وهل على هذا الأمر الذي تدعوني اليه من أحد؟ قال : نعم، وسمّى له القوم. فاتعدوا ليلاً بأعلى مكة في مقدّم الحَجّون. فاجتمعوا هناك وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتّى ينقضوها وقال زهير :
أنا أبدؤكم فاكون أوّل من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا الى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية، فطاف بالبيت سبعاً ثمّ أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ! أناكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكنى لا يباعون ولا يبتاع منهم؟! والله لا أقعد حتّى تُشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. وكان أبو جهل في ناحية المسجد فقال : كذبت، والله لا تُشق. فقال زمعة بن الأسود : أنت - والله - اكذب، مارضينا كتابها حيث كُتبت. وقال أبو البختريّ : صدق زمعة، لا نرضى ماكتب فيها، ولا نُقرّ به. وقال المطّعم بن عدي : صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها.

فقال أبو جهل : هذا أمر قُضي بليل، تُشوّر فيه بغير هذا المكان. فقام المطّعم الى الصحيفة ليشقّها فوجد الأرضة قد اكلتها الا «باسمك اللهم». وكان أبو طالب حاضراً في ناحية المسجد^(١).

أما الآية التالية : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾^(٢) فقد اشتهر أن الآية نزلت بعد مقتل حمزة سيد الشهداء في أحد في الثالثة بعد الهجرة، وبمثله قال القمي في تفسيره^(٣) ورواه العياشي

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ١٤ - ١٦. هذا، ولا يخفى دافع التنكّر لدور أبي طالب ﷺ.

(٢) النحل : ١٢٦.

(٣) تفسير القمي في آخر الجزء الأول.

في تفسيره^(١)، عن الصادق عليه السلام. وعليه عدّ الآية بعضهم من مستثنيات السورة المكية، وأنها مدنية.

ولكن نقل الطبرسي في «مجمع البيان» عن الحسن قال: نزلت الآية قبل أن يؤمر النبي بقتال المشركين، على العموم، وإنما أمر بقتال من قاتله. وعن ابراهيم وابن سيرين ومجاهد: أن الآية عامة في كل ظلم كغصب ونحوه، فانما يجازى بمثل ما عمل^(٢) فان صح الخبر عن الصادق عليه السلام فيمكن حمله على تعدّد النزول، أو التذكير بالآية.

وعليه فلعل قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أي عاقبتم مقاطعة المشركين وقطعهم لأرحامهم معكم بحصاركم في شعب أبي طالب، فعاقبوهم بمثل ما عاملوكم به من القطيعة والهجران. ثم يقول في الآية التالية: ﴿وَاصْبِرْ...﴾ عن المقابلة بالمثل ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لعدم هدايتهم واصرارهم على ضلالهم ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من مكرهم السابق بحصركم في الشعب، ومكرهم اللاحق ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ وفي الآية التالية خاتمة السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ولذلك فانهم ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

وعليه فالآية تشير الى آخر أمر حصر الرسول وبني هاشم في شعب أبي طالب، وتكون سورة النحل آخر سورة نزلت قبل نهايته.

واذا قربنا أن حصار الشعب بدأ قريباً من بداية هجرة الحبشة بعد الاذن فيها في الآية العاشرة من سورة الزمر، وهي الستون في ترتيب النزول، وها نحن هنا قربنا أن تكون سورة النحل السبعون في النزول آخر ما نزل في آخر أيام

(١) تفسير العياشي ١ : ٢٧٥.

(٢) مجمع البيان ٦ : ٦٠٥.

حصار الشعب، وقد مرَّ أن مختار مؤرخينا الطبرسي والراوندي وابن شهر آشوب أن مدة الحصار كانت أربع سنين^(١) فن الطريف أن لازم ذلك أن ستين سورة إلى سورة الزمر نزلت في مدة خمس سنين، ولكن في مدة أربع سنين أخرى كان فيها الرسول في حصار الشعب معه بعض المسلمين من بني هاشم وبني عبد المطلب. والمستضعفون من المسلمين الثمانين في هجرة الحبشة، وآخرون منهم في مكة في جوار أو حلف أو استضعاف معزولون عن الرسول إلا في أيام المواسم، لم ينزل من القرآن سوى عشر سور تقريباً. وتبقى من السور المكية ست عشرة سورة تتناسب أن تكون قد نزلت في مدة سنة وستة أشهر مكث فيها النبي في مكة بعد وفاة أبي طالب وهجرة الطائف في قول ابن شهر آشوب^(٢) حسب كيفية النزول قبل حصار الشعب.

وفاة أبي طالب وخديجة:

روى العياشي في تفسيره عن سعيد بن المسيّب عن علي بن الحسين عليهما السلام قال : كانت خديجة قد ماتت قبل الهجرة بسنة، ومات أبو طالب بعد موت خديجة بسنة. فلما فقدهما رسول الله صلّى الله عليه وآله سئم المقام بمكة ودخله حزن شديد، وأشفق على نفسه من كفّار قريش، فشكى إلى جبرئيل ذلك، فأوحى الله إليه : يا محمد أخرج من القرية الظالم أهلها، وهاجر إلى المدينة فليس لك اليوم بمكة ناصر^(٣).

(١) إعلام الوری ١ : ١٢٦ وقصص الأنبياء : ٣٣٩ والخرائج والجرائح ١ : ١٤٢ الحديث ٢٣٠.

ومناقب آل أبي طالب ١ : ٦٥. وفي مروج الذهب ٢ : ٢٩٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٧٣ ط قم.

(٣) تفسير العياشي ١ : ٢٥٧.

وروى الشيخ الصدوق بسنده عن الصادق عليه السلام قال : إنّ أبا طالب اظهر الكفر وأسرّ الايمان ، فلما حضرته الوفاة أوحى الله عزوجل الى رسول الله : أخرج منها فليس لك بها ناصر ، فهاجر الى المدينة^(١).

ولكن روى الطوسي في أماليه بسنده عن هند بن أبي هالة الأسدي ربيب رسول الله من خديجة قال : كان الله عزوجل يمنع عن نبيّه بعمه أبي طالب عليه السلام ، فما كان يخلص اليه من قومه أمر يسوؤه مدة حياته . فلما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله بُغيته وأصابته بعظيم من الأذى حتّى تركته لقيّ فقال : لأسرع ما وجدنا فقدك يا عم ، وصَلتكَ رحم ، وجُزيت خيراً يا عم . ثمّ ماتت خديجة بعد أبي طالب بشهر ، واجتمع بذلك على رسول الله حُزنان حتّى عُرف ذلك فيه^(٢).

وقال الشيخ الطبرسي في «إعلام الوري» : خرج النبيّ ورهطه من الشعب وخالطوا الناس ، ومات أبو طالب بعد ذلك بشهرين ، وماتت خديجة بعد ذلك ، وورد على رسول الله ﷺ أمران عظيمان وجزع جزعاً شديداً ، ودخل على أبي طالب وهو يجود بنفسه وقال : يا عم ربّيت صغيراً ونصرت كبيراً وكفلت يتيماً ، فجزاك الله عني خير الجزاء^(٣) ونقله تلميذه القطب الراوندي في «قصص الأنبياء» بلا اسناد عنه^(٤).

وقال الراوندي في وفاة أبي طالب : توفي أبو طالب عمّ النبيّ وله ﷺ ست وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعون يوماً . ثمّ قال : والصحيح أن أبا طالب توفي في آخر السنة العاشرة من مبعث رسول الله ﷺ . ثمّ توفيت خديجة بعد

(١) اكمال الدين : ١٧٢ .

(٢) أمالي الطوسي : ٤٦٣ الحديث ٣٧ وعنه في بحار الأنوار ١٩ : ٥٧ .

(٣) إعلام الوري ١ : ١٢٩ .

(٤) قصص الأنبياء : ٣٣٠ .

أبي طالب بثلاثة أيام، فسَمَّى رسول الله ذلك العام : عام الحزن^(١).

وتبعهما ابن شهر آشوب في أن أبا طالب توفي بعد خروجه من الشعب بشهرين، وفي تعيين السنة قال : بعد النبوة بتسع سنين وثمانية أشهر. ثم قال : فلما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف وأقام فيه شهراً، ثم انصرف إلى مكة ومكث بها سنة وستة أشهر^(٢) فالجموع إحدى عشرة سنة وبضعة أشهر، وهو خلاف المشهور في مدة مكث الرسول بمكة قبل الهجرة.

أما ابن اسحاق فبعد أن ذكر الهجرة إلى الحبشة وصحيفة المقاطعة وحصار الشعب وفكّه، قال : ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله المصائب بهلاك خديجة - وكانت له وزير صدق على الاسلام يشكو إليها - وبهلاك عمه أبي طالب، وكان له عضداً وحرزاً في أمره ومنعةً وناصرأً على قومه. وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين.

فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب - حتى - حدثني هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن جده قال : اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً، فدخل رسول الله بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله يقول لها : لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك. وقال : ما نالت مني قريش شيئاً حتى مات أبو طالب^(٣).

(١) قصص الأنبياء : ٣١٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٧٣.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٥٧، ٥٨ ثم روى هنا خبراً عن العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس، في اجتماع وجوه من قريش إلى أبي طالب عند ثقل حاله ←

والطبرسي في «إعلام الوري» نقل صدر مقال ابن اسحاق، ثم نقل عن كتاب «المعرفة» لابن مَندة قول الواقدي كذلك : أنهم خرجوا من الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، وفي هذه السنة توفيت خديجة وأبو طالب وبينهما خمس وثلاثون ليلة^(١).

وابن شهر آشوب نقل قول الواقدي كذلك : أنهم خرجوا من الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، وفي هذه السنة توفي أبو طالب. الا أنه قال : وتوفيت خديجة بعده بستة أشهر^(٢).

ولم يستند الواقدي فيما ذهب اليه الى نصّ خبر، ولكن الظاهر أنه يستند في وفاة خديجة الى نصّ خبر رواه عنه تلميذه وكاتبه ابن سعد بسنده عن حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد قال : توفيت خديجة في شهر رمضان سنة عشر من النبوة، فخرجنا بها من منزلها حتى دفناها بالحجون، فنزل رسول الله في حفرتها. قيل : ومتى ذلك يا ابا خالد؟ قال : بعد خروج بني هاشم من الشعب بيسير، وقبل الهجرة بثلاث سنوات أو نحوها^(٣). ونقل سبط ابن الجوزي عن ابن سعد عن الواقدي عن علي عليه السلام قال : «لما توفي ابو طالب اخبرت رسول الله ﷺ فبكى بكاءً شديداً ثم قال : اذهب فغسله وكفنه وواره، غفر الله له ورحمه. فقال له العباس : يا رسول الله

→ في مرضه الذي توفي فيه، وفي آخره نزول سورة (ص). بينما هي السورة الثامنة والثلاثون على رواية ابن عباس نفسه، ولذلك فنحن نقلنا الخبر في شأن نزول السورة عند ذكرها، الصفحة ٤٩٩. وفي سند الخبر هنا إرسال «عن بعض أهله» فلا عبرة به. ثم من غير المعقول أن تكون قريش قد طمعت في أبي طالب مرة اخرى بعد ذلك الحصار الذي طال أربع سنين!

(١) إعلام الوري ١ : ١٣٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٧٣.

(٣) كشف الغمة ٢ : ١٣٩ عن معالم العترة النبوية للجنابذي عن الطبقات لابن سعد.

(كذا)، انك لترجو له؟ فقال: إني والله إنني لأرجو له. وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أياماً لا يخرج من بيته»^(١).

وكذلك قال اليعقوبي: وتوفيت خديجة بنت خويلد في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين، ولها خمس وستون سنة. ودخل عليها رسول الله وهي تجود بنفسها فقال: بالكره مني ما أرى، ولعل الله أن يجعل في الكره خيراً كثيراً، إذا لقيت ضرائك في الجنة - يا خديجة - فأقريهن السلام. قالت: ومن هن يا رسول الله؟ قال: إن الله زوجنيك في الجنة، وزوجني مريم بنت عمران، وآسيا بنت مزاحم، وكلثوم اخت موسى.

ولما توفيت خديجة جعلت فاطمة تتعلق برسول الله وهي تبكي وتقول: أين أمي؟ أين أمي؟ فنزل جبرئيل فقال: قل لفاطمة: إن الله تعالى بنى لأمك بيتاً في الجنة من قصب، لا نصب فيه ولا صخب.

وتوفي أبو طالب بعد خديجة بثلاثة أيام، وله ست وثمانون سنة، وقيل: تسعون سنة. ولما قيل لرسول الله: إن أبا طالب قد مات! عظم ذلك في قلبه واشتد له جزعه، ثم دخل عليه فمسح جبينه الأيمن أربع مرات، وجبينه الأيسر ثلاث مرات، ثم قال: يا عم ربييت صغيراً وكفلت يتيماً ونصرت كبيراً، فجزاك الله عني خيراً.

ومشي بين يدي سريرته وجعل يعرض له ويقول: وصلتك رحم وجزيت خيراً.

وقال: اجتمعت على هذه الأمة في هذه الأيام مصيبتان لا أدري بأيها أنا أشدّ جزعاً. يعني مصيبة خديجة وأبي طالب.

(١) تذكرة الأمة بخصائص الأئمة : ٨.

وروي عنه أنه قال : إن الله عزوجل وعدني في أربعة : في أبي وأمي وعمي وأخ كان لي في الجاهلية .

واجترأت قريش على رسول الله ﷺ بعد موت أبي طالب وطمعت فيه وهموا به مرة بعد أخرى . وكان رسول الله يعرض نفسه على قبائل العرب لا يسألهم إلا أن يؤوه ويمنعوه ويقول : إنما أريد أن تمنعوني مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رسالات ربي . فكانوا يقولون : قوم الرجل أعلم به . ولم يقبله أحد منهم^(١) .

وقال البلاذري : قالوا : مات أبو طالب في السنة العاشرة من المبعث وهو ابن بضع وثمانين سنة ، ودفن بمكة في الحجون^(٢) .

ثم روى بسنده عن أبي صالح مولى ابن عباس قال : لما مرض أبو طالب قيل له : لو أرسلت إلى ابن أخيك فأتاك بعنقود من جنته لعلَّه يشفيك؟! فأتاه الرسول بذلك وأبو بكر عنده ، فقال له أبو بكر : ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾^(٣) [فلما رجع الرسول إلى أبي طالب بجواب أبي بكر] قال : ليس هذا جواب ابن أخي^(٤) . وطابق الطبري في تأريخه ابن اسحاق راوياً عنه لم يزد عليه شيئاً^(٥) .

(١) اليعقوبي ٢ : ٣٦ .

(٢) أنساب الأشراف ٢ : ٢٩ .

(٣) الأعراف : ٥٠ .

(٤) أنساب الأشراف ٢ : ٣٤ . وقريب منه مارواه ابن حنبل في كتاب الفضائل من مسنده بسنده عن أنس بن مالك قال : لما مرض أبو طالب مرضه الذي مات فيه أرسل إلى النبي - صلى الله عليه و [آله] وسلم - : أدع ربك أن يشفيني فإن ربك يطيعك وابعث إليّ بقطاف من قطاف الجنة . فارسل إليه النبي : وأنت يا عم إن أطعت الله عزوجل أطاعك . الحديث : ٢٧٤ ولا منافاة بين الخبرين .

(٥) الطبري ٢ : ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

وافتقد التوفيق المسعودي بين كتابيه، فقال في :

«مروج الذهب» : وفي سنة ست وأربعين (من مولده) كان حصار قریش للنبيّ وبني هاشم وبني المطلب في الشعب. وفي سنة خمسين كان خروجه ومن تبعه من الشعب، وفي هذه السنة كانت وفاة خديجة زوجها^(١) وقال في :

«التنبيه والإشراف» : وتوفي عمه أبو طالب وله بضع وثمانون سنة، وزوجته خديجة بنت خويلد ولها خمس وستون سنة في العاشرة من مبعثه، بينها ثلاثة أيام، وقيل أكثر من ذلك. وذلك بعد إبطال الصحيفة وخروج بني هاشم وبني عبد المطلب من الحصار في الشعب بسنة وستة أشهر. وكان مدة مقامهم في الحصار ثلاث سنين وقيل : سنتين ونصفاً، وقيل : سنتين على ما في ذلك من التنازع. ثمّ يقول : وفي هذه السنة سنة خمسين من مولده...^(٢) نعم، انما الخلاف بين الكتابين في مدة الحصار، فاختار في «مروج الذهب» أنها أربع سنين آخرها الخمسون من عمر الرسول وفيها وفاة خديجة وأبي طالب، وبينما اختار في «الإشراف» أنها ثلاث سنين وبعدها بسنة ونصف كانت وفاتها.

ونقل الشيخ الطوسي في «المصباح» عن ابن عياش أن وفاة أبي طالب -رحمة الله عليه- كان في السادس والعشرين من شهر رجب^(٣).

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٩٤.

(٢) التنبيه والإشراف : ٢٠٠.

(٣) المصباح : ٥٦٦.

الفصل السابع

الهجرة الى الطائف

النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل:

وله ﷺ هجرات الى بعض القبائل قبل الطائف، فقد نقل المعتزلي أنه عقيب وفاة أبي طالب، أوحى اليه ﷺ: أن اخرج منها فقد مات ناصرك. فخرج الى بني عامر بن صعصعة ومعه علي بن أبي طالب وحده، فعرض نفسه عليهم وسألهم النصر وتلا عليهم القرآن، فلم يجيبوه. فعادا الى مكة. وكانت مدة غيبته في هذه الهجرة عشرة أيام، وهي أول هجرة هاجرها بنفسه^(١).

وروى ابن إسحاق عن الزهري: أنه أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال له: بحيرة بن فراس: رأيت إن نحن بايعناك أو تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال ﷺ: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء!

(١) شرح النهج ٤ : ١٢٨. والظاهر روايته للخبر عن المدائني.

فقال له الرجل : أفْتَهْدَفُ نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك^(١).

وروا عن أبان البجلي عن ابن عباس عن علي عليه السلام : أن رسول الله لما خرج عن مكة يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج الى ربيعة، ومعه علي عليه السلام وأبو بكر، فدفعوا الى مجلس من مجالس العرب. وكان أبو بكر نسيابة فتقدم فسلم، فردّوا عليه السلام فقال : ممن القوم؟ قالوا : من ربيعة، قال : أمن هامتها أم من لهازمها^(٢) قالوا : من هامتها العظمى، فقال : من أي هامتها العظمى أنتم؟ قالوا : من ذهل الاكبر، قال : أفنكم عوف الذي يقال : لا حرّ بوادي عوف؟ قالوا : لا، قال : أفنكم بسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا : لا، قال : أفنكم جساس حامي الذمار ومانع الجار؟ قالوا : لا، قال : أفنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالباها أنفسها؟ فقالوا : لا، قال : أفنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا : لا، قال : أفأنتم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا : لا، قال : فلستم اذن ذهلًا الاكبر، أنتم ذهل الأصغر.

فقام اليه غلام قد بقل وجهه^(٣) اسمه دَغِفِل فقال : يا هذا انك قد سألتنا فأجبناك ولم نكتمك شيئاً، فمن الرجل؟ قال : من قريش، قال : بخ بخ أهل الشرف والرياسة، فمن أي قريش أنت؟ قال : من تيم بن مرة قال : أمكنت والله الرامي من صفاء الثغرة، أفنكم قصي بن كلاب الذي جمع القبائل من فھر فكان يُدعى مجمّعا؟ قال : لا، قال : أفنكم هاشم الذي هشم لقومه الثريد «ورجال مكة مستنون عجاف»؟ قال : لا، قال : أفنكم شيبة الحمد مطعم طير السماء الذي كان في وجهه «قر يضيء ظلام ليل داج» قال : لا، قال : أفن المفيضين بالناس أنت؟

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٦٦.

(٢) اللهازم : أصول الحنكين كنى بها عن الوسط في مقابل الهامة اي الرأس.

(٣) بقل : أنبت.

قال : لا ، قال : أفمن أهل الندوة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل الرفادة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل الحجابة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل السقاية ؟ قال أبو بكر : لا ثم اجتذب زمام ناقته هارباً من الغلام راجعاً إلى رسول الله ، فقال دَغِيلُ : «صادفَ دَرءَ السيلِ دَرءٌ يصدُّهُ» أما والله لو ثبتَّ لأخبرتُك أنك من زَمَعات قريش . فذهب قوله مثلاً . وقال علي عليه السلام لأبي بكر : يا أبا بكر لقد وقعت من الأعرابي علي باقعة . قال : أجل ، إن لكل طامة طامة ، والبلاء موكل بالمنطق . فذهب قوله كذلك مثلاً^(١) .

وهاجر ﷺ إلى بني شيبان ، فما اختلف أحد من أهل السيرة أن علياً عليه السلام وأبا بكر كانا معه ، وأنهم غابوا عن مكة ثلاثة عشر يوماً ، ولما لم يجدوا عند بني شيبان ما أرادوا من النصرة عادوا إلى مكة^(٢) .

ولقد هاجر النبي ﷺ عن مكة مراراً يطوف على أحياء العرب وينتقل من أرض قوم إلى غيرها ، وكان علي عليه السلام معه دون غيره^(٣) .

هجرته ﷺ إلى الطائف:

وأما هجرته ﷺ إلى الطائف فكان معه علي عليه السلام وزيد بن حارثة ، في رواية أبي الحسن المدائني ، نعم لم يروه محمد بن اسحاق^(٤) . وغاب رسول الله ﷺ عن مكة في هذه الهجرة (٢٦) يوماً^(٥) .

(١) دلائل النبوة للصفهاني : ٢٨٢ - ٢٨٨ ، والبيهقي ٢ : ٤٢٢ - ٤٢٧ وشرح النهج للمعتزلي ٤ :

١٢٦ - ١٢٧ ، عن الميلاني في جمع الأمثال : ١٧ ، ١٨ .

(٢) م . ن : ١٢٦ .

(٣) م . ن .

(٤) م . ن : ١٢٧ .

(٥) كان خروجه إلى الطائف لثلاث بقين من شوال ، وقدم مكة لثلاث وعشرين ليلة خلت من ذي القعدة . أنساب الأشراف ١ : ٣٣٧ .

وقال ابن اسحاق : خرج رسول الله -صلى الله عليه [وآله] - وسلم إلى الطائف يلتمس النصر من ثقيف والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل.

وروى عن محمد بن كعب القرظي^(١) قال : لما انتهى رسول الله -صلى الله عليه [وآله] - وسلم إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرفهم، وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو.

فجلس اليهم رسول الله -صلى الله عليه [وآله] - وسلم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الاسلام والقيام معه على من خالفه من قومه. فقال له أحدهم : أنا أمرط^(٢) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟!

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله -كما تقول- لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول الله من عندهم وقد يئس من خير ثقيف.

وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فأخذوا يصيحون به ويسبّونه^(٣)، حتى ألجؤوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف.

(١) القرظي منسوب إلى بني قريظة بالمدينة، ولد سنة أربعين وتوفي سنة ١٢٠ يروي عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما.

(٢) أمرط : أنزع وأرمي به.

(٣) وذكر اليعقوبي خبر هؤلاء الاخوة الثلاثة ٢ : ٣٦. وقال : قعدوا له صفن فلما مر رسول الله رجموه بالحجارة حتى أدموا رجله، فكان رسول الله يقول : ما كنت ارفع قدماً ولا أضعها إلا على حجر !

لجوء النبي ﷺ الى حائط بني مخزوم:

فعمد الى ظل حَبْلَةٍ من عِنَب فجلس اليه، فلما اطمأن قال: «اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي. الى مَنْ تَكِلْنِي؟ الى بعيد يتجهمني^(١) أم الى عدو ملكته أمري؟. إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة. من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة: عُتْبَة وشيبة، ورأيا ما لقي، تحركت له رَجْمهما^(٢)، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له «عَدَّاس» فقالا له: خذ قِطفاً من هذا العنب فضغه في هذا الطبق ثم اذهب به الى ذلك الرجل فقل له: يأكل منه. ففعل عَدَّاس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم قال له: كُلْ: فلما وضع رسول الله فيه يده قال: باسم الله ثم أكل، فنظر عَدَّاس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له رسول الله: ومن أهل أي البلاد أنت يا عَدَّاس وما دينك: قال: نصراني من أهل نينوى. فقال رسول الله: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عَدَّاس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله: ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي. فاكب عَدَّاس على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه^(٣).

(١) تجهمه: استقبله بوجه كرية.

(٢) إذ كانت أم أبيه عبد الله من بني مخزوم.

(٣) وأشار اليعقوبي الى اسلام عَدَّاس ٢: ٣٦، ونقل الواقدي ١: ٣٣ أنه بقي معها حتى خرج معها الى بدر فقتل معها: ولكنه تردّد فيه ورجّح القول بأنه لم يخرج ولم يقتل معهم ١: ٣٥.

فلما رجع عدّاس قال له ابنا ربيعة : ويلك يا عدّاس مالك تُقبّل رأس هذا الرجل وقدميه؟!

قال يا سيديّ ما في الأرض أحد خير من هذا، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبيّ!

قالا له : ويحك يا عدّاس لا يصرفنك عن دينك فإنّ دينك خيرٌ من دينه!.
ولما يئس رسول الله من خير ثقيف انصرف راجعاً من الطائف الى مكة^(١).
ثم روى ابن اسحاق اخباراً عن عرضه نفسه على القبائل في موسم العمرة أو الحج، وكأن هذه الأخبار عن فعله ذلك بعد رجوعه من الطائف، مما أدّى الى بيعه الحجاج من الأنصار له في العقبة :

فحدّث عن ابن شهاب الزهري قال : إن النبيّ ﷺ أتى كندة في منازلهم وفيهم سيّد لهم يقال له مُليح : فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه.
وأتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم : أرايتَ إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟

فقال له رسول الله : الأمر الى الله يضعه حيث يشاء.
فقال له الرجل : أفتهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك.

وروى أنه أتى بطناً من كلب يقال لهم بنو عبد الله، فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه... فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

(١) ونقل الطبرسي خبر هجرة الطائف والاخوة الثلاثة وعدّاس، عن دلائل النبوة للبيهقي عن الزهري : ٥٣، ٥٤.

وروى أنه أتى بني حنيفة في منازلهم فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح ردّاً عليه منهم^(١).
وقال اليعقوبي: وكان رسول الله يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم ويكلم شريف كل قوم، ويقول: لا أكره أحداً منكم، إنما أريد أن تمنعوني مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رسالات ربي! فلم يقبله أحد منهم.
وكانوا يقولون: قوم الرجل أعلم به^(٢).

مقدمات الهجرة إلى المدينة: •

مرّ في أخبار أواخر أيام الحصار في شعب أبي طالب، خبر الطبرسي عن القمي في إسلام أسعد بن زرارة وإرسال الرسول لمصعب بن عمير معه إلى المدينة ليعلمهم القرآن ويدعو إلى الإسلام، فخرج معه فأنزله أسعد في داره.
فكان يخرج في كلّ يوم يطوف به على مجالس الخزرج يدعوهم الى الاسلام فيجيبه الأحداث، من كل بطن الرجل والرجلان. وفتر أمر عبد الله بن أبي بن سلول فكره ما جاء به أسعد وذكوان.

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢: ٦٠ - ٦٦ باختصار.

(٢) اليعقوبي ٢: ٣٦. ونقله الطبرسي عن دلائل النبوة للبيهقي عن الزهري ١: ١٣٣. ثم روى عن القمي خبر رجوع النبي الى مكة معتمراً بجوار مطعم العدوي يوماً واحداً ١: ١٣٥. ولو كانت هجرة لثلاث بقين من شوال وقدومه مكة لثلاث وعشرين ليلة خلت من ذي القعدة، فرجعه كان في أشهر الحج الحرم، فلا حاجة للجوار. ولم يذكره ابن اسحاق ولا اليعقوبي، ولم يسنده الطبري وإنما قال: وذكر بعضهم ٢: ٣٤٧، وإن أشار اليه ابن هشام ٢: ٢٠ والواقدي ١: ١١٠ وعن تلميذه ابن سعد في الطبقات ١: ٢١٠، وعنهما ابن الأثير في البداية والنهاية ٣: ١٣٧.

وقال أسعد لمصعب : إنّ خالي سعد بن معاذ من رؤساء الأوس ، وهو رجل عاقل شريف مطاع في بني عمرو بن عوف ، فان دخل في هذا الأمر تمّ لنا أمرنا ، فهلّم فأتهم .

فجاء مصعب مع أسعد الى محلة سعد بن معاذ فقعده على بئر من آبارهم ، واجتمع اليه قوم من أحداثهم ، فأخذ يقرأ عليهم القرآن .

فبلغ ذلك سعد بن معاذ ، فقال لأسيد بن حُضير : بلغني أن أبا أمامة أسعد بن زرارة قد جاء الى محلتنا مع هذا القرشي (مُصعب بن عمير) يُفسد شبابنا ! فأتته وأنهه .

فجاء أُسيد بن حُضير ، فنظر اليه أسعد فقال لمصعب بن عمير : إنّ هذا الرجل شريف فان دخل في هذا الأمر رجوت أن يتم أمرنا ، فاصدق الله فيه .
فلما قرب أُسيد منهم قال : يا أبا أمامة ! يقول لك خالك : لاتأتنا في نادينا ولا تُفسد شبابنا ، واحذر الأوس على نفسك ! .

فقال مصعب : أو تجلس فنعرض عليك أمراً فان أحببته دخلت فيه ، وإن كرهته نحينا عنك ما تكرهه . فجلس ، فقرأ عليه سورة من القرآن . فقال أُسيد : كيف تصنعون اذا دخلتم في هذا الأمر ؟ قال : نغتسل ونلبس ثوبين طاهرين ، ونشهد الشهادتين ، ونصلي ركعتين .

فرمى أُسيد بنفسه مع ثيابه في البئر ، ثمّ خرج وعصر ثوبه ثمّ قال : إعرض عليّ . فعرض عليه شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله . فقاها ، ثمّ صلّى ركعتين ثمّ قال لأسعد : يا أبا أمامة ، أنا أبعث اليك الآن خالك ، وأحتال عليه في أن يجيئك .

فرجع أُسيد الى سعد بن معاذ ، فلما نظر اليه سعد قال : أقسم أن أُسيداً قد رجع الينا بغير الوجه الذي ذهب به من عندنا .

وأَتَاهُم سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ مُصْعَبٌ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ *
 حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ... ﴿^(١) فَلَمَّا سَمِعَهَا بَعَثَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ فَأَتَىٰ بِثَوْبَيْنِ
 طَاهَرَيْنِ، وَاغْتَسَلَ وَشَهِدَ الشَّهَادَتَيْنِ وَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ. ثُمَّ قَامَ وَأَخَذَ بِيَدِ مُصْعَبٍ
 وَحَوَّلَهُ إِلَيْهِ.

ثُمَّ جَاءَ فَوْقَ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَصَاحَ : يَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ لَا يَبْقَيْنَ
 رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ بَكَرٌ وَلَا ذَاتُ بَعْلٍ، وَلَا شَيْخٌ وَلَا صَبِيٌّ إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ، فَلَيْسَ هَذَا يَوْمٌ
 سِتْرٌ وَلَا حِجَابٌ.

فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَخَذَ بِيَدِ مُصْعَبٍ وَقَالَ لَهُ : أَظْهَرَ أَمْرَكَ وَادَعَ النَّاسَ عِلَانِيَةً وَلَا
 تَهَابَنَّ أَحَدًا.

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ سَعْدٌ : كَيْفَ حَالِي عِنْدَكُمْ ؟ قَالُوا : أَنْتَ سَيِّدُنَا وَالْمَطَاعُ فِينَا وَلَا نَرَدُّ
 لَكَ أَمْرًا فَرُّنَا بِمَا شِئْتَ. فَقَالَ : كَلَامُ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ وَصَبِيَّانِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّىٰ
 تَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَنَا بِذَلِكَ، وَهُوَ
 الَّذِي كَانَتْ الْيَهُودُ تَخْبِرُنَا بِهِ.

فَمَا بَقِيَ دَارَ مَنْ دُورَ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَّا وَفِيهَا مُسْلِمٌ أَوْ مُسْلِمَةٌ.
 وَشَاعَ الْإِسْلَامُ بِالْمَدِينَةِ وَكَثُرَ، وَدَخَلَ فِيهِ أَشْرَافُ الْبَطْنَيْنِ (الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ) وَذَلِكَ
 لَمَّا عِنْدَهُمْ مِنْ أَخْبَارِ الْيَهُودِ.

وَكُتِبَ مُصْعَبٌ بِذَلِكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَأْمُرُ مَنْ يَعْذِبُهُ
 قَوْمُهُ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَخَذُوا يَتَسَلَّلُونَ رَجُلٌ فَرَجُلٌ فَيَصِيرُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ
 فَيَنْزِلُهُمُ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ عَلَيْهِمْ وَيُؤَاوِسُونَهُمْ^(٢).

(١) فُصِّلَتْ : ١ - ٢.

(٢) إِبْلَامُ الْوَرَى ١ : ١٣٩ - ١٤١، وَنَقْلُهُ تَلْمِيزُهُ الْقُطْبِ الرَّائِدِي فِي قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ : ٣٣١ -

٣٣٣ بِإِسْنَادٍ عَنْهُ، وَلَا يَوْجَدُ الْخَبَرَ فِي تَفْسِيرِ الْقَمِي.

السورة الثالثة والسبعون - «الأنبياء»:

وفيها قوله سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ ^(١).

قال الطبرسي في «جمع البيان» قالوا : لما نزلت هذه الآية أتى عبد الله بن الزبيري رسول الله ﷺ وقال : يا محمد، ألسنت تزعم أن عذيراً رجل صالح؟ وأن عيسى رجل صالح، وأن مريم امرأة سالحة؟ قال : بلى، قال : فان هؤلاء يعبدون من دون الله، فهم في النار؟! فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ ^(٢).

بينما في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : لما نزلت هذه الآية وجد منها أهل مكة وجداً شديداً، فدخل عليهم عبد الله بن الزبيري وكفار قريش يخوضون في هذه الآية، فقال ابن الزبيري : أمحمد تكلم بهذه الآية؟ قالوا : نعم، قال ابن الزبيري : إن اعترف بها لأخصمته! فجمع بينهما (كذا) فقال : يا محمد، أرايت الآية التي قرأت أنفاً أفينا وفي آلهتنا أم في الأمم الماضية وآلهتهم؟ قال : بل فيكم وفي آلهتكم وفي الأمم الماضية إلا من استثنى الله. فقال ابن الزبيري : خاصمتك والله، ألسنت تثنى على عيسى خيراً؟ وقد عرفت أن النصارى يعبدون عيسى وأمه، وإن طائفة من الناس يعبدون الملائكة أفليس هؤلاء مع الآلهة في النار؟ فقال رسول الله : لا، فضحكت قريش وضحك، وقالت قريش : خصمك ابن الزبيري! فقال رسول الله ﷺ : قلت الباطل، أما قلت : إلا من استثنى الله؟ وهو قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ ^(٣).

(١) الأنبياء : ٩٨.

(٢) جمع البيان ٧ : ١٠٣.

(٣) تفسير القمي ٢ : ٧٦.

وهذه الرواية أتم واكمل ، وليس فيها أن الاستثناء نزل بعد اعتراض ابن الزبعرى ، بل فيها أن الاستثناء كان من قبل وأن الرسول أشار اليه في حديثه . والخبر - كسابقه - بظاهره لا ينسجم مع أيام حصار الشعب ، إلا اذا كان في أيام الموسم .

السورة التاسعة والسبعون - «المعارج»:

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ... ﴾ ^(١) نقل الطوسي في «التبيان» عن الحسن قال : سأل المشركون النبي فقالوا : لمن هذا العذاب الذي يذكره محمد! فجاء جوابهم بأنه ﴿ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ ونقل عن الفراء: أن سأل أي دعا، والداعي بالعذاب هو النضر بن كلدة، أسري يوم بدر هو وعقبة بن أبي معيط وقتلا صبرا ^(٢) والطبرسي في «مجمع البيان» نقل قول الحسن ، واستدل عن قول الفراء بقول مجاهد ^(٣) ورواه السيوطي في «الدر المنثور» عن السدي قال : نزلت بمكة في النضر بن الحارث بن كلدة ، وكان سؤاله ودعاؤه أن قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . فكان عذابه أن قُتل يوم بدر ^(٤) . وعليه فلا محل لما رواه الطبرسي في «مجمع البيان» عن الحاكم الحسكاني بسنده عن سفيان بن عيينة عن الصادق عليه السلام : أن الآية نزلت في النعمان بن الحارث الفهري حينما أنكر على رسول الله ﷺ نصبه لعلي عليه السلام يوم الغدير ^(٥) اللهم إلا أن تكون حادثة ثانية مشابهة تليت فيها الآيات بالمناسبة .

(١) المعارج : ١ ، ٢ .

(٢) التبيان ١٠ : ١١٣ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٥٢٩ .

(٤) نقلاً عن الميزان ٢٠ : ١١ .

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٥٣٠ .

السورة الرابعة والثمانون - «الروم»:

﴿ اَلَمْ غَلَبَتْ الرُّومُ * فِي اَدْنٰى الْاَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُوْنَ * فِي

بَضْعِ سِنِيْنَ ﴾^(١).

قال الشيخ الطوسي في «التيان»: روي: أن سبب ذلك هو أن الروم لما غلبتها فارس فرح المشركون بذلك وقالوا: أهل فارس لا كتاب لهم غلبوا أهل الروم وهم أهل كتاب، فنحن لا كتاب لنا نغلب محمداً الذي معه كتاب. فأنزل الله تعالى هذه الآيات تسلية للنبي والمؤمنين بأن الروم وإن غلبتها فارس فإنها ستغلب فارس في ما بعد بضع سنين. قال أبو سعيد الخدري: كان النصر يوم بدر للفريقين: للنبي على قريش وللروم على فارس، ففرح المؤمنون بالنصرين. وقيل: كان يوم الحديبية^(٢).

ونقل الطبرسي القول الأول عن مقاتل قال: فلما كان يوم بدر غلب المسلمون كفار مكة وأخبر رسول الله: أن الروم غلبت فارساً ففرح المؤمنون بذلك. ونقل القول الثاني عن الزهري قال: كان ظهور فارس على الروم في تسع سنين، ثم أظهر الله الروم على فارس زمن الحديبية ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب^(٣).

أما عن معنى «أدنى الأرض» فقد نقل عن الزجاج قال: أي في أدنى الأرض من أرض العرب. ثم عيّنها عن عكرمة فقال: يريد أذرعات وكسكر^(٤)

(١) الروم: ١ - ٤.

(٢) التبيان ٨: ٤٦١.

(٣) مجمع البيان ٨: ٤٦١.

(٤) مجمع البيان ٨: ٤٦٠.

ونقل الطبري عن عطاء عن يحيى بن يَعْمَر أن أذِرِعات وبصرى هي أدنى أرض الشام إلى العرب^(١).

وعن أذِرِعات قال الطبري في تأريخه : مدينة أذِرِعات وبُصرى من كُور حوران من الشام^(٢) بينما قال الحموي في «معجم البلدان» : بلد في أطراف الشام ممّا يلي البلقاء وعمّان^(٣). وهذا هو الأدنى من أرض العرب في الحجاز دون بُصرى وحوران الشام. وأمّا كَشْكِر فانها من أرض السواد أي العراق كانت في أسفل دجلة بعد المدائن قرب الواسط، ولعلّها هي أو قريبة من قلعة سَكْر، وكانت الأدنى من أرض العرب من جهة العراق.

ونقل الطبرسي في «مجمع البيان» عن مجاهد أن المقصود من «أدنى الأرض» هو أدنى الأرض من أرض الشام إلى أرض فارس يريد الجزيرة، فهي أقرب أرض الروم إلى فارس^(٤) وقال الشيخ الطوسي في «التيان» : والمراد أدنى الأرض إلى جهة عدوهم^(٥) بينما قال الشيخ الطبرسي في «مجمع البيان» : كان بيت المقدس لأهل الروم كالكعبة للمسلمين فدفعهم فارس عنه، وهو قوله ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾^(٦). وما أسرع ما يتبادر إلى الذاكرة تذكّر أن القرآن قد عبّر عن مسجد بيت المقدس بالمسجد الأقصى، فليس مقبولاً أن تكون الأرض أدنى والمسجد فيها المسجد الأقصى.

(١) الطبري ٢ : ١٨٥.

(٢) الطبري ١٠ : ١٢٢.

(٣) معجم البلدان ١ : ١٦٢.

(٤) مجمع البيان ٨ : ٤٦٠.

(٥) التبيان ٨ : ٢٢٩.

(٦) مجمع البيان ٨ : ٤٦٠.

أمّا تمام الخبر عن عكرمة فهو مارواه الطبري في تفسيره وتاريخه بسنده عنه قال : اقتتل فارس والروم في أدنى الأرض وهي يومئذٍ أذرعات فهُزِمَت الروم ، فبلغ ذلك النبيّ -صلى الله عليه [وآله] وسلّم - وأصحابه وهم بمكة ، فشقّ ذلك عليهم . وكان النبيّ -صلى الله عليه [وآله] وسلّم - يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم ، وفرح الكفار بمكة وشمّتوا ، فلقوا أصحاب النبيّ -صلى الله عليه [وآله] وسلّم - فقالوا : انكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون ، وقد ظهر اخواننا من أهل فارس على اخوانكم من أهل الكتاب ، وانكم إن قاتلتمونا لنظهرنّ عليكم فأنزل الله :

﴿ اَلَمْ يَغْلِبَتِ الرُّومُ ﴾ .

فخرج أبو بكر الى الكفار فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ! فلا تفرحوا ولا يقرنّ الله أعينكم ، فوالله ليظهرنّ الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبيّنا . فقام اليه أبيّ بن خلف الجُمحي فقال : كذبت يا أبا فصيل ! فقال له أبو بكر : أنت اكذب يا عدوّ الله ! . فقال : أنا حبيك (أراهنك) عشر قلائص منّي وعشر قلائص منك ، فان ظهرت الروم على فارس غرمتُ ، وإن ظهرت فارس غرمتَ ، الى ثلاث سنين . ثمّ جاء أبو بكر الى النبيّ -صلى الله عليه [وآله] وسلّم - فأخبره . فقال : ما هكذا ذكرتُ ، إنما البضع : ما بين الثلاث الى التسع ، فزايده في الخطر (أي الرهن) ومادّه في الأجل .

فخرج أبو بكر فلقى أبيّاً فقال : لعلك ندمت ، قال : لا ، تعال أزايدك في الخطر (الرهن) ومُدّني في الأجل ، فنجعلها مائة قلوّص الى تسع سنين ، فقبل أبيّ^(١) .

(١) تاريخ الطبري ٢ : ١٤٥ ، ١٨٤ وفي التفسير ٢٠ : ١٣ ط بولاق .

روى الطبري ذلك وقال : قيل : إن قول الله تعالى ﴿ أَلَمْ * غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ نزل فيما كان بين ملك الروم هِرَقْل وملك فارس پرويز^(١).

وقال عنه : هو خسرو پرويز بن هرمز. وكان جميع مدة ملك هرمز اثنتي عشرة سنة^(٢) وروى عن هشام الكلبي قال : في سنة إحدى عشرة من ملك هرمز، خرج عليه الترك في ثلاثمائة ألف مقاتل حتى صاروا إلى هَرَاة وبادغيس، وإن ملك الروم (موريقي قيصر^(٣)) صار إلى الضواحي في ثمانين ألف مقاتل قاصداً إليه. وإن ملك الخزر صار في جمع عظيم إلى باب الأبواب (دربند) فعاث وأخرب، وإن رجلين من العرب أحدهما : عباس الأحول، وعَمْرُو الأزرق، نزلا في جمع عظيم من العرب بشاطيء الفرات وشنوا الغارة على أهل السواد...

فاستفزع هرمز ما ورد عليه من ذلك وشاور فيه فاجمعوا على أن يبدأ بملك الترك (شابه) فوجه إليه رجلاً من أهل الريّ هو بهرام چوبين في اثني عشر ألف رجل اختارهم بهرام من الكهول دون الشباب. فجرت بينهما حروب حتى قتل بهرامُ شابه برمية رماه أياها، فوافاه برمودة بن شابه وكان يعدل بأبيه، فحاربه فانهزم وتحصّن في حصن فحاصره^(٤) فطلب برمودة بن شابه الأمان على أن يكون ذلك من هرمز الملك، فكتب بهرام إلى هرمز فأجابه وكتب له كتاب أمان، وكتب إلى بهرام أن يسرّحه إليه. فخرج برمودة بن شابه من الحصن وصار إلى هرمز، فاكرمه وبرّه واجلسه معه على السرير^(٥).

(١) تاريخ الطبري ٢ : ١٨٤.

(٢) الطبري ٢ : ١٧٦.

(٣) مختصر الدول لابن العبري : ٩٠ في السنة السادسة من ملكه وملك عشرين سنة.

(٤) الطبري ٢ : ١٧٤.

(٥) اليعقوبي ١ : ١٦٧.

وغنم بهرام ما كان في الحصن، وكانت كنوزاً عظيمة، فحملها الى هرمز على مائتين وخمسين الف بعير، فشكر هرمز لبهرام ما كان منه وللغنائم التي صارت اليه^(١).

وأخبر برمودة هرمز بما صار الى بهرام من الأموال والكنوز العظام، وأنه قد كتم ذلك عن أمناء هرمز، وأن الذي بعث به قليل من كثير. فكتب هرمز الى بهرام يأمره أن يحمل اليه ما في يده من الأموال. فغلظ ذلك على بهرام وأخبر به جنده، فذكروا هرمز أقبح ذكر، وخلعوه. وبعث الى هرمز بسفط فيه سكاكين معوجة الرؤوس، فلما رآها هرمز علم أنه قد عصي فقطع أطراف السكاكين وردّها اليه، فعلم بهرام ما أراد، فارسل الى خاقان ملك الترك يطلب صلحه على أن يردّ عليه كل أرض حازها من بلاده، فقبل خاقان، ففعل بهرام ذلك، ثم سار حتى صار الى الريّ.

وكان قد بلغ هرمز أن قوماً قد حملوا ابنه پرويز على أن يثور على أبيه، وكان بهرام يعلم بذلك، فدبر ليوقع شراً بين هرمز وبين ابنه خسرو پرويز، فضرب دراهم كثيرة كتب عليها اسم پرويز وبعث بها الى مدينة هرمز فكثرت في أيدي الناس حتى بلغ هرمز خبرها، فأراد أن يحبس ابنه خسرو پرويز، فلما بلغ الخبر پرويز هرب الى آذربايجان، فاجتمع اليه من بها من رؤسائها والمرازبة أهل الثغور فبايعوه. وكان جند هرمز كارهين لولايته فكتبوا الى ابنه پرويز، فقدم بجيش من آذربايجان، فخلعوا هرمز، وملّكوا پرويز، وسملوا عين هرمز وحبسوه. واستقام الأمر لپرويز. فقصده بهرام بجنده، فخرج پرويز اليه حتى تواقفوا في النهران، فكلمه پرويز وعظّم عليه الأمر، فأجابه بهرام بجواب غليظ شديد، والتحموا

فانكشف عن پرويز جنده وأسلمه أصحابه، فهرب ومضى حتى صار إلى «الرَّها» يريد موريتي ملك الروم، فكتب صاحب «الرَّها» إلى موريتي ملك الروم يخبره أنه أتاه لينصره. فأجابه ملك الروم فوجّه إليه پرويز بثلاثة نفر من أصحابه فشرط عليهم كل ما أراد، وزوّج پرويز ابنته ووجّه معهم بجيش عظيم، وعليهم أخ له يقال له ثيادوس، فابتنى پرويز بابنة ملك الروم موريتي ثمّ سار بجيشه إلى ناحية آذربايجان، وكان خاله بندي صار إلى آذربايجان ليجد جنّداً، فلما علم بمكان پرويز لقيه في جيش عظيم، فزحف پرويز بهم إلى بهرام فحاربه محاربة شديدة وأخذت الحرب من الفريقين، واشتدت الحرب حتى انهزم پرويز وصعد في الجبل وكاد يهلك، ثمّ تاب إليه جنده، فتابوا إلى الحرب حتى انهزم بهرام چوبين فمضى منصرفاً لا يلوي على شيء متوجّهاً إلى ملك الترك.

واستقام الأمر لخسرو پرويز، فكتب إلى صاحب الروم بذلك، وكتب في النصاري أن يكرّموا ويقدّموا ويبرّزوا ويخبروا بما قد جرى بينه وبين الرومي من العصمة واللحمة والموادعة. وأهدى إليه ملك الروم ثوبين فيها الصُّلب فلبسهما^(١).

ويقال: إن پرويز كتب للنصاري كتاباً أطلق فيه عمارة بيّعهم، وأن يدخل في ملّتهم من أحبّ الدخول فيها من غير المجوس، واحتجّ في ذلك أن أنوشيروان كان هادن قيصر في الأتاوة التي أخذها منه على استصلاح من في بلده من أهل بلده واتخاذ بيوت النيران هنالك، وإن قيصر (موريتي) اشترط مثل ذلك في النصاري. ولم يزل پرويز يبرّ بموريتي ويلطف له^(٢).

(١) اليعقوبي ١: ١٦٧-١٦٩.

(٢) الطبري ٢: ١٨٠-١٨١.

كان هذا ما في تأريخي اليعقوبي والطبري المسلمين، أما ابن العبري المسيحي فقد أرّخ للموضوع بالسنة الثامنة من ملك موريقي، قال: وفي السنة الثامنة لموريقي وثب الفرس على هرمز فسلموا عينيه ثم قتلوه وملّكوا عليهم بهرام المرزبان. وكان لهرمز ابن حدث اسمه كسرى (پرويز) فتكرّر كآته سائل وشق سلطان الفرس حتّى جاء نصيبين وصار الى الرّها ومنها الى مَنبج، وكتب الى موريقي كتاباً نسخته:

«للأب المبارك والسيد المقدّم موريقي ملك الروم، من كسرى بن هرمز ابنه، السلام. أمّا بعد فاني أعلم الملك: أن بهرام ومن معه من عبيد أبي، جهلوا قدرهم ونسوا أنهم عبيد وأنا مولاهم، وكفروا نعم آبائي لديهم، فاعتدوا عليّ وأرادوا قتلي: فهمت أن أفزع الى مثلك فأعتصم بفضلك وأكون خاضعاً لك، لأن الخضوع لملك مثلك وإن كان عدواً أيسر من الوقوع في أيدي العبيد المردة، ولئن يكون موتي على أيدي الملوك أفضل وأقلّ عاراً من أن يجري على أيدي العبيد. ففزعت اليك ثقة بفضلك ورجاء أن تتأفّ على مثلي، وتمدّني بجيوشك لأقوى بهم على محاربة العدو وأصير لك ولداً سامعاً ومطيعاً، إن شاء الله تعالى».

فلما قرأ موريقي كتاب كسرى (پرويز) بن هرمز عزم على اجابة مسألته... وكتب اليه كتاباً نسخته: «من موريقي عبد ايشوع المسيح، الى كسرى ملك الفرس، ولدي وأخي، السلام، أمّا بعد، فقرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر العبيد الذين تمرّدوا عليك وكونهم غمطوا أنعم آبائك وأسلافك غمطاً، وخروجهم عليك ودحضهم إياك عن ملكك، فداخني من ذلك أمر حرّكني على التروّف بك وعليك وامدادك بما سألت. فأما ما ذكرت من أن الاستتار تحت جناح ملك عدو والاستغلال بكنفه آثر من الوقوع في أيدي العبيد المردة، والموت على أيدي الملوك أفضل من الموت على أيدي العبيد. فانك اخترت أفضل الخصال، ورغبت الينا في

ذلك، فقد صدّقنا قولك وقبلنا كلامك وحقّقنا أملك وأتمنّا بغيتك وقضينا حاجتك وحمدنا سعيك وشكرنا حسن ظنّك بنا. ووجّهنا إليك بما سألت من الجيوش والأموال، وصيّرتك لي ولداً وكنت لك أباً. فاقبض الأموال مباركاً لك فيها، وقد الجيوش وسر على بركة الله وعونه، ولا يعترينك الضجر والهلع، بل تُشمرّ لعدوك ولا تقصّر فيما يجب لك إذا تطأطأت من درجتك وانحططت عن مرتبتك، فاني أرجو أن يظفرك الله بعدوك ويكبّه تحت موطىء قدميك ويردّ كيده في نحره ويعيدك إلى مرتبتك برجاء الله تعالى».

وأنجده بعشرين ألفاً (لا ستون ألف مقاتل كما سبق عن الطبري عن الكلبي) وسيرّ له الأموال أربعين قنطاراً ذهباً. فلما وردت الجيوش على كسرى وقبض الأموال وقرأ الكتاب سار مع جيوش الروم نحو بهرام فلقية بين المدائن وواسط (لا النهروان ولا آذربايجان) فصارت الهزيمة على بهرام وقتل أصحابه كلهم، واستباح كسرى پرويز عساكر بهرام ورجع إلى مملكته فجلس فيها وبايعه الناس.

ثمّ دعا بالروم فاحسن جائزتهم وصرفهم إلى أصحابهم، وبعث معهم إلى مورقي من الألفاف والأموال أضعاف ما كان أخذ منه، وردّ دارا وميّا فارقين إلى الروم، وأمر ببناء هيكلين للنصارى بالمدائن وجعل أحدهما باسم السيدة (مريم) والآخر باسم مار سرجيس الشهيد.

أمّا مورقي فبعد مصالحته للفرس قطع أرزاق جنوده، فاجتمع عظماء الروم إلى مدينة هرقلّة وأرادوا تملك أخيه فطري فهرب، وهرب مورقي إلى خلقيدونية، فلحقته الروم فألقوه وعليه خلقتان في زي الفقراء والسؤال فقتلوه في العشرين من ملكه وملّكوا عليهم رجلاً من بطارقتهم يقال له فوقا.

فلما بلغ كسرى بن هرمز قتل مورقي، نقض العهد، وغزا دارا فافتتحها، وافتتح أيضاً آمد وحلب، ثمّ عطف على قنّسرين ورجع إلى الرّها.

وفي السنة الثامنة من ملك فوقا خرج عليه هرقل بن هرقل من افريقية، وركب البحر بجيوشه والفاء هادئاً ساكناً فسبق الى القسطنطينية ودخلها وقتل فوقا وتملك هو بمكانه بعده احدى وثلاثين سنة وخمسة أشهر.

وفي أول سنة من ملكه أرسل وفداً الى ملك الفرس ليصالحه فلم يجبه الى ذلك بل غزا أنطاكية وفاميّة وحمص وقيسارية وافتتحها، وفي السنة الخامسة من ملكه افتتح الفرس البيت المقدس، وبعد ثلاث سنين افتتحوا الاسكندرية ومصر ووصلوا الى النوبة وغزوا خلكيدونية فافتتحوها، وفي السنة الخامسة عشرة من ملكه غزا الفرس جزيرة روديسيا فافتتحوها، وأمر كسرى (پرويز) أن يؤخذ رخام الكنائس التي في جميع المدن التي فتحها الى المدائن.

ولكن في آخر هذه السنة غزا هرقل الفرس فافتتحوها مدينة كسرى وسبوا منها خلقاً كثيراً وانصرفوا^(١).

ويفيد تاريخ ابن العبري أن اجتماع عظماء الروم لخلع مورقي من الملك ونصب أخيه فطري بمكانه وفي النهاية تمليك البطريق فوقا كان بعد عشرين سنة من ملك مورقي واثنى عشرة سنة من ملك خسرو پرويز^(٢).

بينما يحكي الطبري عن الكلبي يقول: حتّى مرّ على ملك پرويز أربع عشرة سنة فخلع الروم مورقي وقتلوه وأبادوا ورثته، وملّكوا عليهم رجلاً يقال له فوقا. فلما بلغ پرويز نكت الروم عهد مورقي وقتلهم اياه، امتعض من ذلك وأنف منه، وأخذته الحفيظة له، وهرب ابن مورقي فالتجأ الى پرويز فأواه وملّكه على الروم ووجه له الى بلاد الروم ثلاثة من قواده في جنود كثيفة^(٣).

(١) مختصر تاريخ الدول لابن العبري الملطي ت ٦٨٥ هـ : ٩٠ - ٩٢.

(٢) مختصر تاريخ الدول لابن العبري : ٩٠.

(٣) الطبري ٢ : ١٨١.

ثمّ تسمي رواية الطبري القواد الثلاثة على التوالي : دميّران أو رميوزان، والآخر : شاهين، والثالث : فرّهان وتدعى مرتبته شهر برّاز. وتؤرخ لحملة القائد الأوّل : دميّران على الشام وفلسطين وبيت المقدس خاصة بأربع وعشرين من ملك پرويز، وهو يطابق ما في تأريخ ابن العبري : أن الفرس في السنة الخامسة من ملك هرقل افتتحوا البيت المقدس^(١) وما في سائر التواريخ الفارسية والأجنبية : أن ذلك كان في السنة السادسة للبعثة و ٦١٥ م^(٢).

وتؤرخ -رواية الطبري عن الكلبي- لحملة القائد الآخر، شاهين على أفريقيا ومنها مصر والاسكندرية خاصة بسنة ثمان وعشرين من ملك پرويز، وهذا يقارب من تأريخ ابن العبري لذلك حيث قال : وبعد ثلاث سنين -من فتح بيت المقدس- افتتحوا الاسكندرية ومصر ووصلوا إلى بلاد النوبة^(٣) (أي في سنة ٦١٨ م).

وتؤرخ رواية الطبري عن الكلبي لحملة القائد الثالث : فرّهان وتدعى مرتبته شهر برّاز متّجها إلى القسطنطينية بأمرين : أولاً بقتل فوق الملك وتملك هرقل، وهذا كان في سنة ٦١٠ م سنة البعثة، بعد ثماني سنين من قتل مورقي وتملك فوقا وبدء الحملات ٦٠٢ م. وتؤرخ لها -ثانياً- بحملة هرقل على مملكة الفرس حتّى كان قريباً من المدائن، ويؤرخ ابن العبري لذلك بالسنة الخامسة عشرة من ملك هرقل، أي سنة ٦٢٥ م، والفاصل بين التاريخين : خمس عشرة سنة، ممّا لا يحتمل

(١) مختصر تاريخ الدول : ٩١.

(٢) بالفارسية : تاريخ ايران قديم : ٢٢٢ تأليف : پيرنيا، وعن الترجمة الفارسية : تاريخ ايران للجنرال السير پرسی سايكس ١ : ٦٦٥ - ٦٧٠. هذا اذا بنينا على أن ميلاد الرسول كان في السنة الأربعين من ملك كسرى و ٥٧٠ م وأن بعثته كانت في ٦١٠ م.

(٣) مختصر تاريخ الدول : ٩١، ٩٢.

معه أن تكون الحملة حملة واحدة، بل حملتين هما مع حملتي القائدين السابقين تكون الحملات في رواية الطبري عن الكلبي أربع حملات على التوالي : شهر براز فرّهان في ٦١٠ م ودميران في ٦١٥ م وشاهين في ٦١٨ م وشهر براز فرّهان أيضاً في ٦٢٥ م. أولى هذه الحملات في سنة ٦١٠ م أي بعد قتل مورقي واستخلاف فوقا بثمان سنين بينما الحملات - ولا سيما الاولى - موصوفة بأنها كانت للانتقام لحمى پرويز مورقي ولتمليك ابنه اللاجئ الى پرويز بعد ابيه، فهل كان ذلك بعد هذه المدة؟! ولا تذكر التواريخ الاسلامية حملة قبل ذلك.

ولكن التواريخ الفارسية والأجنبية تؤرّخ لحملة في سنة ٦٠٥ م حاصرت مدينة دارا فيما بين النهرين وافتتحها بعد عدة أشهر. وفي سنة ٦٠٧ م لثلاث سنين قبل البعثة سخرت مدن ديار بكر : آمد، وإدس، وحرّان، وقلاعاً روميّة أخرى، وعبرت الفرات في سورية واستولت على مدينة حلب وتقدمت حتى قرب بيروت الحالية^(١) وعن هذه الحملات قال ابن العبري : فلما بلغ كسرى بن هرمز قتل مورقي، نقض العهد وغزا دارا فافتحها وافتتح أيضاً آمد وحلب، ثم عطف على قنسرين ورجع الى الرّها^(٢).

وهنا تأتي الحملة الاولى التي ذكرتها رواية الطبري عن الكلبي للقائد الفارسي : فرّهان والذي تدعى مرتبته : شهر براز : أمره كسرى (پرويز) فقصد القسطنطينية وخرّب بلاد الروم غضباً ممّا انتهكوا من مورقي وانتقاماً له منهم حتى أناخ في ضفة الخليج القريب من القسطنطينية وخيم هناك، ولم يخضع لابن مورقي

(١) بالفارسية : تاريخ ايران قديم : ٢٢٢ تاليف : پيرنيا، وعن الترجمة الفارسية : تاريخ ايران

انسیر پرسي سايكس ١ : ٦٦٥ - ٦٧٠.

(٢) مختصر تاريخ الدول : ٩١.

من الروم أحد ولم يمنحه الطاعة، غير أنهم قتلوا فوقاً الملك، وملّكوا عليهم رجلاً يقال له هِرقل^(١) وكان ذلك في سنة ٦١٠ م سنة البعثة، وكان هِرقل (هراكليوس) قائداً رومياً في كاراتاز (تونس حالياً) ومنها قدم الى القسطنطينية وتقلد أمانة الأمور بمساعدة الشعب^(٢) وكان هِرقل بن فوق (كذا) بن مرقس يختلف من مدينة سلونيقية - وهو من أهلها - الى القسطنطينية بالزاد في البحر وهم محاصرون (بحصار شهر براز) فبانت شهامته وظهرت شجاعته وأحبّه أهل القسطنطينية، فخلا بالبطارقة وذوي المراتب فاغراهم بفوقاس، وذكر لهم منازل بهم في أيامه وذكرهم بسوء آثاره فيهم وغلبة الفرس على ملكهم بسوء تدبيره وقبح سياسته واقدامه على الدماء، ودعاهم الى الفتك به، فأجابوه الى ذلك فقتلوه. واجتمعت البطارقة وغيرهم من ذوي المراتب من الروم وغيرهم بعد قتل فوقاس لاختيار من يصلح للملك، فوقع اختيارهم - بعد خطب طويل وتنازع كثير - على هِرقل، فملّكوه. ذكر ذلك المسعودي في «التنبيه والاشراف» ولكنه قال: كان ملكه (هِرقل) لثلاث وثلاثين سنة خلت من ملك كسرى پرويز ملك بابل، فملك خمساً وعشرين سنة - وقيل أكثر من ذلك - وفي أول سنة من ملكه كانت هجرة رسول الله - صلى الله عليه وآله [وآله] وسلّم -^(٣).

بينما قال قبل ذلك في «مروج الذهب»: ثمّ ملك هِرقل وكان قبل ذلك بطريقاً في بعض الجزائر، ولسبع (أو تسع) سنين من ملكه كانت هجرة النبي - صلى الله عليه وآله [وآله] وسلّم - من مكة الى المدينة. وهو الذي ضرب الدنانير والدراهم الهرقلية،

(١) الطبري ٢: ١٨٢.

(٢) التاريخان الفارسيان السابقان.

(٣) التنبيه والإشراف: ١٣٣، ١٣٤.

وكان ملكه خمس عشرة سنة. وفي تواريخ أصحاب السير: أن رسول الله -صلى الله عليه [وآله] وسلم - هاجر وملك الروم قيصر بن موريق. وفي تواريخ ملوك الروم ممن سلف وخلف: أن ملك الروم كان في وقت ظهور الاسلام «هرقل»^(١).

ومن تواريخ الروم «تاريخ مختصر الدول» لغريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري المتوفى في سنة ٦٨٥ م قال: ملك هرقل قيصر احدى وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وفي أول سنة من ملكه أرسل وفداً الى ملك الفرس ليصالحه فلم يجبه الى ذلك. بل غزا أنطاكية وفامية وحمص وقيسارية وافتتحها^(٢).

وقال المسعودي: وسير (خسرو پرويز) شهريار مَرزبان المغرب الى حرب الروم فنزل أنطاكية، فكانت له مع الروم وپرويز أخبار ومكاتبات وحيل الى أن خرج ملك الروم الى حرب شهريار وقدم خزائنه في البحر في الف مركب، فألقها الريح الى ساحل انطاكية، فغنمها شهريار وحملها الى پرويز، فسميت خزائن الريح^(٣).

أما عن تاريخ هذه الحملة: فالذي يتفق مع تاريخ ابن العبري ولا يختلف مع المسعودي هو ما جاء في الترجمة الفارسية لتاريخ ايران للسير پرسی سايكس أن ذلك كان في سنة ٦١١ م أي السنة الثانية للبعثة.

وفي السنة الخامسة للبعثة (٦١٤ م) استولى الفرس على دمشق.

وفي السنة السادسة للبعثة (٦١٥ م) حاصروا بيت المقدس حتى افتتحوها ونهبوها بمعونة ستة وعشرين ألف يهودي فيها. وبحثوا عن الصليب الذي

(١) مروج الذهب ١: ٣٦١، ٣٦٢.

(٢) تاريخ مختصر الدول: ٩١.

(٣) مروج الذهب ١: ٣٠٦.

كان النصارى يعتقدون أن المسيح صلب عليه، فكان لهم أقدم شيء على وجه الأرض، حتى حصلوا عليه فبعثوا به إلى عاصمتهم تيسفون (بغداد حالياً تقريباً) فأرسل پرويز رسالة إلى هرقل قال فيها:

«من خسرو شاهنشاه: ملك الملوك ورب الأرض، إلى هراكليوس عبده الحقير عديم الغيرة! أنتم الذين تقولون انكم معتمدون على ربكم المسيح ومتوكلون عليه، فلما لم يقدر أن يخلص بيت المقدس من يدي لا تخذعوا أنفسكم بالباطل بهذه العقيدة الفارغة التي لكم بالمسيح، فانه لم يقدر حتى على أن يخلص نفسه من مخالف اليهود، حتى صلبوه ووتدوا بدنه وقتلوه بذلك الوضع الفضيع»^(١).

وعن هذه الحملة حكى الطبري عن الكلبي قال: وجّه (پرويز) القائد دميّران أو رُميوزان إلى بلاد الشام فدوّخها حتى انتهت إلى أرض فلسطين، وورد مدينة بيت المقدس. وكانت خشبة الصليب قد وُضعت في تابوت من ذهب وطُمرت في بستان وزُرع فوقه مَبْقلة، فأخذ (دميّران) أسقفها ومن كان فيها من القسيسين وسائر النصارى وألحّ عليهم حتى دلّوه على موضعها، فاحتفر عنها بيده واستخرجها وبعث بها إلى كسرى، في أربع وعشرين من ملكه^(٢).

وأرّخها ابن العبري من جانبه قال: وفي السنة الخامسة لهرقل افتتح الفرس بيت المقدس^(٣). وقال السير پرسی سايكس: في السنة ٦١٦ م (أي السابعة للبعثة) وصل القائد الإيراني شهر بَرّاز إلى مصر بالعبور من صحراء سيناء، واستولى على

(١) عن الترجمة الفارسية لتأريخ ايران ١ : ٦٦٥ - ٦٧٠ للسير پرسی سايكس وتاريخ ايران قديم : ٢٢٢ تأليف پيرنيا.

(٢) الطبري ٢ : ١٨١.

(٣) تأريخ مختصر الدول : ٩١.

الاسكندرية ذلك الميناء التجاريّ الشهير، وبلغ بحدود ايران الى حدودها على العهد الهخامنشي^(١).

ولكن ابن العبري قال : وبعد ثلاث سنين (من فتح الفرس لبيت المقدس) افتتحوا الاسكندرية ومصر، ووصلوا الى بلاد النوبة (افريقية) وغزوا خلقيدونية فافتتحوها^(٢) وهذا يقرب ممّا حكاه الطبري عن الكلبي قال : وأمّا القائد الآخر - وكان يقال له شاهين وكان فادوسبان المغرب - فإنه سار حتّى احتوى على مصر والاسكندرية وبلاد نوبة، وبعث الى كسرى بمفاتيح مدينة الاسكندرية في سنة ثمان وعشرين من ملكه^(٣).

وقال السير پرسی سايكس : وفي السنة ٦١٧ م (أي الثامنة للبعثة) عبر قائد إيراني آخر باسم شاهين، مدينة كاپادوكية واستولى على مدن تركية الحالية واحدة بعد أخرى حتّى وصل الى مدينة كالدون قرب القسطنطينية. وفي لقاء بين هراكليوس وشاهين نصحه شاهين أن يرسل رسولاً للصلح الى بلاط خسرو پرويز، وقبل ذلك هراكليوس ففعل... ولكن خسرو پرويز وهو في سكر فتوحاته أمر بحبس سفير الروم، وهدّد قائده : لماذا لم يبعث اليه بامبراطور الروم مقيداً مغلولاً!

وفي السنة الثامنة للبعثة سقطت مدينة كالدونة، ووصل الجيش الإيراني الى أبواب مدينة القسطنطينية على ساحل بحر البوسفور^(٤).

(١) تاريخ ايران ١ : ٦٦٥ - ٦٧٠.

(٢) تاريخ مختصر الدول : ٩١، ٩٢.

(٣) الطبري ٢ : ١٨٢.

(٤) التاريخان الفارسيان السابقان.

ويبدو أن ابن العبري يشير الى هذه الحملة إذ يقول : وفي السنة الخامسة عشرة لهرقل غزا الفرس جزيرة رودس (روديسيا) فافتتحوها، وأمر كسرى (پرويز) أن يؤخذ رخام الكنائس التي في جميع المدن التي فتحها وتحذر الى المدائن ولقي فيه الناس جهداً جهيداً.

وفي هذه السنة غزا هرقل الفرس فافتتح مدينة كسرى وسبوا منها خلقاً كثيراً وانصرفوا^(١).

وفي رواية الطبري عن الكلبي قال : فلما رأى هرقل عظيم ما فيه بلاد الروم من تخريب جنود فارس اياها وقتلها مقاتلتهم وسبيهم ذراريهم واستباحتهم أموالهم وانتهاكهم ما بحضرتهم...، [فشاور عظماء الروم ف] أشاروا عليه أن يغزوهم، فاستعدّ لذلك.

وكان كسرى (پرويز) قد تقدم الى شهربراز أن يحثم مرابطاً في الموضع الذي كان فيه، وكان قد غضب على شاهين فادّوسبان المغرب فأحضره لديه وعزله عن ذلك الثغر. فاستخلف هرقل ابناً له على مدينة قسطنطينية، وأخذ غير الطريق الذي فيه شهربراز وسار حتى أوغل في بلاد أرمينية ونزل نصيبين بعد سنة.

وكان كسرى يومئذٍ مقبلاً بدسكرة الملك فلما بلغه خبر تساقط هرقل في جنوده الى نصيبين، وجّه لمحاربته رجلاً من قواده يقال له : راهزار في اثني عشر ألف مقاتل، وأمره أن يقيم بنيوى من مدينة الموصل على شاطئ دجلة ويمنع الروم أن يجوزوها. فنفذ راهزار لامره وعسكر حيث أمره. فقطع هرقل دجلة في موضع آخر الى الناحية التي كان فيها جند فارس.

ولما أخبرت العيون راهزار أن هرقل في سبعين ألف مقاتل أيقن أنه ومن معه من الجنود عاجزون عن مناهضة سبعين ألف مقاتل، فكتب الى كسرى غير مرة: دهم هرقل إياه بمن لا طاقة له ولمن معه بهم لكثرتهم وحسن عُدَّتهم. وفي كل ذلك كان يحببه كسرى في كتابه أنه: ان عجز عن اولئك الروم فلن يعجز عن بذل دمه ودمائهم في طاعته. فعباً جنده وناهض الروم فقتل وقتل معه ستة الاف منهم وانهزم بقيتهم وهربوا على وجوههم.

وبلغ كسرى ذلك فأغار من دسكرة الملك الى المدائن وتحصن فيها، وأخذ يستعد لقتال هرقل، وسار هرقل حتى كان قريباً من المدائن ثم انصرف الى أرض الروم^(١) هكذا تذكر رواية الطبري عن الكلبي أن هرقل أخذ غير الطريق الذي فيه شهربراز وهو مرابط للموضع الذي هو فيه، وكان شاهين فادوسبان المغرب قد عزله كسرى پرويز عن ثغر نصيبين لموجدة كانت من كسرى عليه، فكان بباب كسرى حين سار هرقل حتى أوغل في بلاد أرمينية ونزل نصيبين، بعد سنة من مسيره.

بينما المسعودي يقول: كان جيش كسرى پرويز محاصراً للقسطنطينية، وكان صاحب جيشه ذلك شهربراز، وفسد الأمر بينه وبين كسرى پرويز، فأتاه هرقل ومالاه على پرويز، فخرج هرقل في مراكب كثيرة في الخليج الى بحر الخزر وسار الى طرابزنده وأبواب لازقة (كذا) واستنجد هناك ملوك الأعاجم من اللان والخزر والسير والأبخاز وكُرزان والأرمن وغيرهم، حتى صار الى بلاد أران والبيلقان وآذربايجان والمهات من أرض الجبل، وأتصلت جيوشه بأرض العراق فشن الغارات وقتل وسبي، فاحتال عليه پرويز بحيلة صرفته فرجع الى القسطنطينية^(٢).

(١) الطبري ٢: ١٨٢، ١٨٣.

(٢) التنبيه والاشراف: ١٣٤.

وفي هذه العبارة كأن هِرقل هو الذي أفسد الأمر بين شهربراز وپرويز، ومالاه عليه، فخرج عليه، وتغاضى عنه شهربراز فتجاوزته حتى فعل ما فعل. ولكنّه عكس الأمر قبل ذلك في «مروج الذهب» فيقول: ثمّ فسدت الحال بين پرويز وشهريار (كذا) ومايل شهريار ملك الروم، فسيرّه شهريار نحو العراق، إلى أن انتهى إلى النهر وان، فاحتال عليه پرويز بكتب كتبها إليه مع بعض من كان في ذمته من أساقفة النصارى في العراق، فأفسد الحال بينه وبين شهريار حتى رده إلى القسطنطينية^(١) والأوّل أولى من هذا الثاني البعيد جداً: أن يكون شهربراز أو شهريار هو الذي سير هِرقل نحو العراق. ويترجّح ما في «التنبيه والاشراف» على ما في «مروج الذهب» إذ نسخة الثاني الموجودة والمتداولة هي نسخة سنة ٣٣٢ هـ. في موارد متعددة من الكتاب، والأوّل ألفه سنة ٣٤٥ كما في موارد متعددة من الكتاب أيضاً، وهي سنة وفاة المسعودي، قد تبّه في «التنبيه» على أنّه حين تأليفه قد بدّل كثيراً من العبارات والمعاني من نسخة «مروج الذهب» التي ألفها سنة ٣٣٢ هـ وزاد فيها كثيراً بحيث أصبحت اضعاف النسخة الأولى^(٢) ومعنى ذلك أن ما في «المروج» منسوخ بما في «التنبيه» وأن الثاني تنبيه على ما في الأوّل من منسوخ قد رجع عنه.

ولكنّ الصحيح هو ما في «مروج الذهب»: أن هِرقل سار نحو العراق حتى انتهى إلى النهر وان ثمّ انصرف راجعاً إلى القسطنطينية، لا ما مرّ عن ابن العبري، فأخرجهم بهذا الكتاب إلى الخلاف عليه وطلب الحيل لنجاة أنفسهم منه^(٣).

(١) مروج الذهب ١: ٣٠٦.

(٢) التنبيه والاشراف: ٨٤، ٨٥ و ١٤٩.

(٣) الطبري ٢: ١٨٣.

وللطبري رواية عن عكرمة تفصل السبب في فساد الحال بين كسرى وشهربراز وأخيه فرّخان فتقول : بلغ كسرى أن فرّخان شرب خمرأً وقال : لقد رأيتني جالساً على سرير كسرى، فكتب الى شهربراز : اذا أتاك كتابي فابعث اليّ برأس فرّخان .

فكتب شهربراز الى پرويز : أيها الملك، إنك لن تجد مثل فرّخان، إن له نكاية وصوتاً في العدو، فلا تفعل . فكتب اليه پرويز : إن في رجال فارس خلفاً منه، فعجل عليّ برأسه . فراجع شهربراز أيضاً، فغضب كسرى فلم يجبه .

ثمّ استعمل فرّخان على فارس وأمره بقتل أخيه شهربراز، فلما قرأ الكتاب قدّم أخاه شهربراز ليضرب عنقه، فقال له : لا تعجل حتىّ اكتب وصيتي، قال : نعم، فدعا بسفط فاعطاه ثلاث صحائف وقال : كل هذا راجعت فيك كسرى، وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد . فامتنع فرّخان، واتفقا على التمرد على كسرى، فكتب شهربراز الى قيصر ملك الروم (هرقل) : إن لي اليك حاجة لا تحملها البرد ولا تبلغها الصحف، فالقني ولا تلقني الا في خمسين رومياً، فاني القاك في خمسين فارسياً .

فأقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي، وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق مخافة أن يكون قد مكر به، فأتاه عيونه أن شهربراز ليس معه الا خمسون رجلاً . فبسط لهما والتقيا في قبة ديباج ضربت لهما، مع كل واحد منهما سكين . ودعوا ترجماناً بينهما . فقال شهربراز لهرقل : إن الذين خرّبوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا، وإن كسرى حسدنا فأراد أن أقتل أخي فأبّيت، ثمّ أمر أخي أن يقتلني، فقد خلعناه جميعاً، فنحن نقاتله معك .

قال هرقل : قد أصبتم . ثمّ أشار أحدهما الى صاحبه : أن السر بين اثنين فاذا جاوز اثنين فشا، فقتلا الترجمان بسكينهما .

ثمَّ يقول عكرمة : فأهلك الله كسرى وجاء الخبر إلى رسول الله يوم الحديبية ، وفرح ومن معه^(١).

بينما روى رواية أخرى عن يحيى بن يعمر : أن كسرى (پرويز) بعث شهربراز بجيش إلى الشام ، وبعث قيصر الروم (هرقل) بجيش من الروم لدفع شهربراز ، عليهم رجل يقال له قَطْمَة ، فالتقيا ببُصرى وأذرعَات - وهي أدنى الأرض اليكم - فلقيت فارس الروم فغلبتهم فارس ، وفرح بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون فأنزل الله ﴿ أَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ﴿ فلم يبرح شهربراز يطوهم ويخرّب مدائنهم حتّى بلغ خليج القسطنطينية ، ثمّ مات كسرى (پرويز) فبلغهم موته ، فانهزم شهربراز وأصحابه ، وعند ذلك أدিলت عليهم الروم فاتّبعوهم يقتلونهم^(٢).

فهاتان الروايتان عن يحيى بن يعمر ومن قبل عن عكرمة ، تتفقان على أن غلبة الفرس على الروم كانت بأذرعَات من أواخر أراضي الشامات إلى صحراء العرب ، وأن غلبة الروم على الفرس كانت بموت كسرى وهزيمة شهربراز وأصحابه وهجوم الروم عليهم حينئذٍ ، وأن الخبر بذلك جاء رسول الله يوم الحديبية وفرح ومن معه .

وهذا يتفق مع ما حكاه الطبري عن الكلبي أن بعثة الرسول كانت في العشرين من ملك كسرى پرويز ، وهجرته كانت في الثلاث والثلاثين من ملكه^(٣) أو لمضي اثنتين وثلاثين سنة وخمسة أشهر ، وكان ملكه ثمانياً وثلاثين سنة^(٤).

(١) الطبري ٢ : ١٨٦ وفي التفسير ٢٠ : ١٣ ، ١٤ .

(٢) الطبري ٢ : ١٨٥ .

(٣) الطبري ٢ : ١٨٧ .

(٤) الطبري ٢ : ٢١٨ و ٢٢٧ و ٢٢٩ .

أما القول الذي رواه الطوسي عن أبي سعيد الخدري^(١) والطبرسي عن مقاتل^(٢) أنه لما كان يوم بدر وغلب المسلمون كفار مكة أخبر رسول الله أن الروم غلبت فارساً... فان يوم بدر كان في منتصف السنة الثانية للهجرة، أي قبل موت كسرى پرويز وهزيمة الفرس أمام الروم بخمس سنين أو خمس سنين وستة أشهر، واذ ذاك لم يؤرّخ للروم انتصار على الفرس ولم تؤرّخ على الفرس هزيمة أمام الروم بل كانت الفتوحات تتوالى لهم على الروم.

ولكن ممّا وقع على عهد خسرو پرويز ما ذكره الطبري قال : ومن ذلك ما كان من أمر ربيعة والجيش الذي كان أنفذه اليهم كسرى پرويز لحربهم فالتقوا بذي قار، وذكر عن النبي -صلى الله عليه [وآله] وسلّم - أنه لما بلغه ما كان من هزيمة ربيعة لجيش كسرى قال : « هذا أول يوم انتصف العرب من العجم ، وبني نصرُوا »^(٣). وقد قال المسعودي : وفي ملك پرويز كان حرب ذي قار ، وهو اليوم الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه [وآله] وسلّم - : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونُصرت عليهم بي » وفي رواية أنها كانت بعد وقعة بدر بأشهر وكانت بين بكر بن وائل والهامرز صاحب كسرى پرويز^(٤) فمن المحتمل قوياً أن يكون الانتصار الذي جاء الخبر به الى رسول الله فأخبر به أصحابه هو انتصار العرب على الفرس دون الروم.

أما وقعة أذرعات وكسكز، فلم أجد فيما بيدي من كتب التاريخ الرومي والفارسي والعربي نقلاً عنها شيئاً يخصّها، والمحمّل القريب من الحملات التي

(١) التبيان ٨ : ٢٢٨.

(٢) مجمع البيان ٨ : ٤٦١.

(٣) الطبري ٢ : ١٩٣ و ٢٠٧.

(٤) مروج الذهب ١ : ٣٠٧ وذكر الخبر اليعقوبي ١ : ٢١٤ ، ٢١٥ .

مرّ ذكرها هي حملات ثلاث : حملة فتح أنطاكية، وحملة فتح دمشق، وحملة فتح القدس، فمن المحتمل أن تكون إحدى هذه الحملات قد طالت أذرعاً في أواخر حدود الأردن نحو الحجاز ولكنها لا تتناسب مع زمان نزول سورة الروم قبيل الهجرة بقليل، إذ الأولى كانت في ٦١١ م أي الثانية للبعثة، والثانية كانت في ٦١٤ م أي في الخامسة للبعثة، والثالثة كانت في ٦١٥ م أي السادسة للبعثة. بينما القريب المحتمل أن لا تكون الواقعة في أقل من السنة الثامنة للبعثة أي سنة ٦١٧ م وفيها كانت حملة القائد الإيراني شاهين على كبادوكية وكالسدونة ووصلهم إلى أبواب مدينة القسطنطينية على ساحل بحر البوسفور. فهذه الحملة تحتمل الانطباق على قول الشيخ الطوسي بأن المراد أدنى الأرض من جهة عدوّهم^(١) والذي نقله الطبرسي عن مجاهد بأن المقصود من «أدنى الأرض» هو أدنى الأرض إلى أرض فارس، أقرب أرض الروم إلى فارس^(٢).

أمّا ما قاله الطبرسي : كان بيت المقدس لأهل الروم كالكعبة للمسلمين، فدفعهم فارس عنه، وروي أنهم استردوا بيت المقدس وأن ملك الروم مشى إليه شكراً وبُسطت له الرياحين فمشى عليها^(٣).

فقد مرّ أن القرآن قد عبّر عن المسجد في مدينة القدس بجوار بيت المقدس بـ«المسجد الأقصى» ولا يسعنا التصديق بأن المسجد أقصى والأرض أدنى «في أدنى الأرض» وليس مقبولاً أن تكون الأرض أدنى والمسجد أقصى. ثم إن استرداد الروم لبيت المقدس لم ينقل تاريخياً أن يكون على عهد خسرو پرويز وهرقل معاصراً للرسول الكريم ﷺ.

(١) التبيان ٨ : ٢٢٩.

(٢) مجمع البيان ٨ : ٤٦٠ وقال : يريد الجزيرة أي الموصل.

(٣) مجمع البيان ٨ : ٤٦٠ ، ٤٦١.

ومما يؤيد أن هذا الانتصار الرومي على فارس كان بعد وقعة بدر بكثير ما رواه الطبرسي في «مجمع البيان» أن أبا بكر لما أراد الهجرة تعلق به أبي بن خلف وأخذ ابنه عبد الله بن أبي بكر كفيلاً، وجرح أبي في أحد وعاد الى مكة فمات من تلك الجراحة، جرحه رسول الله ﷺ.

وروى عن الشعبي قال : لم تمض تلك المدة (تسع سنين) التي عقدها أبو بكر مع أبي بن خلف حتى غلبت الروم فارساً وربطوا خيولهم بالمدائن... فأخذ أبو بكر الخطر (الرهانة) من ورثته وجاء به الى رسول الله ﷺ فتصدق به^(١).

السورة الخامسة والثمانون - «العنكبوت»:

﴿الم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢).

روى الطبرسي في «مجمع البيان» عن الشعبي : أن الآية نزلت في أناس مسلمين كانوا بمكة فخرجوا الى المدينة فاتبعهم المشركون فأذوهم، فمنهم من نجا ومنهم من قُتل. وعن ابن عباس : أنه أراد بـ«الناس» : الذين آمنوا بمكة : عمار بن ياسر، والوليد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وعياش ابن أبي ربيعة المخزومي، وسلمة بن هشام المخزومي. وعن ابن جريج : أن الآية نزلت في عمار بن ياسر، وكان يعذب في الله^(٣).

ولعل هذا هو مورد ما رواه الكشي في رجاله بسنده عن الليث بن سعد عن عمر مولى غفرة قال : حُبس عمار فيمن حُبس وعُذب، فانفلت فيمن انفلت من

(١) مجمع البيان ٨ : ٤٦١، ٤٦٢ والكشاف للزحشري ٣ : ٢١٤.

(٢) العنكبوت : ١، ٢.

(٣) مجمع البيان ٨ : ٤٢٧.

الناس، فقدم على رسول الله ﷺ فقال: أفلح أبو اليقظان! قال: ما أفلح ولا أنجح لنفسه، لأنهم لم يزالوا يعذبونه حتى نال منك! (١).

وما أخرجه السيوطي عن ابن عباس قال: لما أراد الرسول أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه... فأصبح بلال وخبّاب وعمار... فأخذهم المشركون... وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم، تقية... ثم خلّوا عنهم (٢).

فهذه الأخبار تناسب هذه الفترة وهذه المرة أي حين الهجرة، ولا ترتبط بما حدث له في المرة الأولى حين نزول سورة النحل أواخر أيام حصار الشعب، من تعذيب مشركي قريش له ولوالديه وقتلها وتقيتها وافلاته بها، وقول الرسول له يومئذٍ «ان عادوا لك فعدّ لهم» مشيراً إلى تكرار الأمر هذه المرة حين الهجرة، فكان كما أشار والمح ﷺ.

وعليه فما في الخبر عن ابن عباس: «أن أبا جهل أسر عماراً وبقر بطن أمه» وما في آخره: «أن النبي جعل يمسح عينيه ويقول: «إن عادوا لك فعدّ لهم بما قلت» خلط ووّهم، إذ كيف يقول له الرسول ذلك في المدينة بعد الهجرة حيث لا يتوقع عودة مشركي قريش إلى تعذيب عمار؟! وكذلك أيضاً ما في آخر خبر الكشي عن ابن سعد: أنه قال له: «إن سألوا من ذلك فزدهم» إذ كيف يسألونه ذلك بعد أن قدم على رسول الله المدينة كما في الخبر؟!

كما أن ذيل خبر السيوطي: «ثم خلّوا عن بلال وخبّاب وعمار فلحقوا برسول الله فأخبروه بالذي كان من أمرهم... وأنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ خلط لما نزل من القرآن في عمار في المرة الأولى - في سورة

(١) رجال الكشي: ٣٥.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٣٢.

النحل - بما كان على عمار وصاحبيه بلال وخبّاب في هذه المرة الثانية حين هجرتهم الى المدينة، مما يستلزم استثناء هذه الآيات من مكية سورة النحل بلا موجب. كما مرّ ذلك عند الكلام حول الآيات من سورة النحل.

ومنها قوله سبحانه : ﴿ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾.

روى السيوطي في «الدر المنثور» عن سعد بن أبي وقاص قال : قالت أُمي : لا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتّى تكفر بمحمّد، فامتنعت من الطعام والشراب، فنزلت الآية : ﴿ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾.

وروى الطبرسي في «مجمع البيان» عن الكلبي قال : نزلت الآية ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ في عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي، وذلك أنّه أسلم فخاف أهل بيته فهاجر الى المدينة قبل أن يهاجر النبي ﷺ، فحلفت أمه أسماء بنت مخزومة التيمي : أن لا تأكل ولا تشرب ولا تغسل رأسها ولا تدخل بيتاً حتّى يرجع اليها.

فلما رأى ابنها أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام جزعها، ركبا في طلبه حتّى أتيا المدينة، فلقياه وذكر له القصة، فلم يزالا به حتّى أخذ عليهما الموائيق أن لا يصرفاه عن دينه، فتبعهما.

فلما خرجا به من المدينة أخذه وأوثقه كتافاً وجلداه حتى برىء من دين محمد ﷺ جزعاً من الضرب وقال ما لا ينبغي، فنزلت الآية (١).

وعليه فالآية تنبأ عن عودته عند حصول نصر الله لرسوله، ثم لا تستبعد الآية أن يكون مؤمناً بباطنه فالله أعلم به، وكذلك كان، فان تمام خبر الطبرسي عن الكلبي: أنه لما هاجر النبي ﷺ والمؤمنون إلى المدينة هاجر عياش وحسن اسلامه وحيث كان أشد أخويه عليه الحرث لذلك كان عياش قد حلف لئن قدر عليه خارجاً من الحرم ليضرب عنقه، وأسلم الحرث وهاجر إلى المدينة وباع النبي ﷺ على الاسلام، وكان عياش خارجاً عن المدينة فلم يشعر باسلامه حتى لقيه يوماً بظهر قبا فضرب عنقه، ولما علم باسلامه بكى واسترجع، ونزلت فيه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ (٢) فأنبأت عن إيمانها. وعليه فلعل الإشارة إلى المنافقين إلى: سعد بن أبي وقاص بلحاظ ما بعد النبي ﷺ.

وبعدها قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٣).

قال القمي في تفسيرها: كان الكفار يقولون للمؤمنين: كونوا معنا، فان الذي تخافون انتم ليس بشيء، فان كان حقاً فانا نتحمل ذنوبكم. فيعذبهم الله مرتين مرة بذنوبهم ومرة بذنوب غيرهم (٤).

(١) مجمع البيان ٨ : ٤٢٩.

(٢) مجمع البيان ٨ : ٤٢٩، ٤٣٠.

(٣) العنكبوت : ١٢، ١٣.

(٤) تفسير القمي ٢ : ١٤٩. وروي السيوطي في الدر المنثور بسنده عن محمد بن الحنفية قال : كان ابو جهل وصناديد قريش اذا جاء الناس يسلمون يتلقونهم فيقولون : انه يحرم الخمر ويحرم الزنا فارجعوا ونحن نحمل أوزاركم فنزلت الآية.

ومنها قوله سبحانه : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ ^(١) روى الطبرسي في «مجمع البيان» عن مقاتل والكلبي قالا : نزلت في المستضعفين من المؤمنين بمكة أمروا بالهجرة عنها ^(٢).

ومنها قوله سبحانه : ﴿ وَكَأَيُّ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(٣) روى الطبرسي في «مجمع البيان» عن مقاتل والكلبي قالا : نزلت في جماعة كان يؤذيهم المشركون بمكة فأمرُوا بالهجرة الى المدينة، فقالوا : كيف نخرج اليها وليس لنا بها دار ولا عقار، ومن يطعمنا ومن يسقينا؟ فنزلت فيهم ^(٤).

وتختم السورة توصيتها المسلمين بالصبر والجهاد بقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

واختلف الخبر هنا عن ابن عباس في آخر سورة نزلت بمكة قبل الهجرة، فبينما يروي الطبرسي في «مجمع البيان» عن الحاكم الحسكاني عن عطاء عن ابن عباس أنه ذكر في آخر السور المكية بعد العنكبوت : سورة المطففين ^(٥) وكذلك الزركشي في «البرهان» والسيوطي في «الاتقان» ^(٦) وابن النديم في «الفهرست» عن محمد بن النعمان بن بشير الأنصاري، ولكنه قال : ويقال انها مدنية ^(٧) والسيوطي في «الاتقان» نقل خبراً آخر عن ابن عباس وآخر عن البيهقي عن عكرمة

(١) العنكبوت : ٥٦.

(٢) مجمع البيان ٨ : ٤٥٥.

(٣) العنكبوت : ٦٠.

(٤) مجمع البيان ٨ : ٤٥٥.

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٦١٣.

(٦) الاتقان : ١ : ١١ عن ابن خريس من القرن الخامس.

(٧) الفهرست : ٣٧ ط مصر.

عن ابن عباس، اختلفا في ترتيب السور ولكنها اتفقا على اعتبار سورة المطففين من السور المدنية بخلاف الخبر السابق الذي ذكر أنها مكية^(١) وأضاف الطبرسي في «مجمع البيان» القول بذلك عن الحسن والضحاك^(٢) وأضاف عن عكرمة عن ابن عباس سبباً لنزولها قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبت الناس كيلاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك. وروى عن السدي قال: لما قدم ﷺ المدينة كان بها رجل يقال له أبو جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر، فنزلت الآيات^(٣) بل في رواية أبي الجارود في «تفسير القمي» عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: نزلت (سورة المطففين) على نبي الله حين قدم المدينة وهم يومئذ أسوأ الناس كيلاً، فأحسنوا الكيل^(٤) وهذا هو معنى ما رواه عكرمة عن ابن عباس. فهو المختار.

وعليه فإن آخر ما نزل من القرآن بمكة هي سورة العنكبوت، وفيها الأمر بالهجرة كما مر، فأمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة فهاجروا زرافات ووحداناً، ولحق هو بهم.

(١) الاتقان ١ : ١٠.

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٦٨٥.

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٦٨٧.

(٤) تفسير القمي ٢ : ٤١٠.

الفصل الثامن

بيعة العقبة وانتشار الإسلام في المدينة

بيعة العقبة:

قال القمي في تفسيره : لما قدمت الأوس والخزرج مكة، وكان أكثرهم مشركين على دينهم، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول^(١)، وفيهم ممن أسلم بشر كثير. وكان رسول الله نازلاً في دار عبد المطلب (في منى في أيام موسم الحج) ومعه علي عليه السلام وحمزة والعباس. فجاءهم رسول الله وقال لهم : تمنعون جانبي حتى أتلو عليكم كتاب ربكم، وثوابكم على الله الجنة؟ قالوا: نعم يا رسول الله فخذ لنفسك وربك ما شئت. فقال : موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي التشريق فاحضروا دار عبد المطلب على العقبة، ولا تنهوا نائماً.

فلما حجّوا رجعوا إلى منى، وجاءه منهم سبعون رجلاً من الأوس والخزرج فدخلوا الدار. فلما اجتمعوا قال لهم رسول الله : تمنعون جانبي حتى أتلو عليكم

(١) سلول : اسم جدته لأبيه .

كتاب ربكم وثوابكم على الله الجنة؟ فقال أسعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبد الله بن حرام^(١): نعم يا رسول الله، فاشترط لنفسك ولربك.

فقال رسول الله: تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم، وتمنعون أهلي مما تمنعون منه أهليكم؟ قالوا: فما لنا على ذلك؟ قال: تملكون بها العرب في الدنيا، وتدين لكم العجم وتكونوا ملوكاً في الجنة. فقالوا: قد رضينا.

فقام العباس بن نضلة الأوسي فقال: يا معشر الأوس والخزرج، تعلمون على ما تقدمون عليه؟ إنما تقدمون على حرب الأحمر والأبيض وعلى حرب ملوك الدنيا، فإن علمتم أنه إذا أصابتكم المصيبة في أنفسكم خذلتوه وتركتموه فلا تغروه، فإن رسول الله - وإن كان قومه خالفوه - فهو في عز ومنعة.

فقال له عبد الله بن حرام وأسعد بن زرارة وأبو الهيثم ابن التيهان: مالك وللكلام؟! ثم قالوا: يا رسول الله، بل دمننا بدمك وأنفسنا بنفسك، فاشترط لربك ولنفسك ما شئت.

فقال رسول الله: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً يكفلون عليكم بذلك، كما أخذ موسى من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً. فقالوا: اختر من شئت.

فأشار جبرئيل عليه السلام إليهم، فقال: هذا نقيب، وهذا نقيب حتى اختار تسعة من الخزرج وهم: أسعد بن زرارة، والبراء بن معرور، وعبد الله بن حرام - وهو أبو جابر بن عبد الله الأنصاري - ورافع بن مالك، وسعد بن عباد، والمنذر بن عمرو، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع، وعباد بن الصامت. وثلاثة من الأوس وهم: أبو الهيثم بن التيهان اليمني حليف بني عمرو بن عوف، وأسيد بن حضير^(٢)، وسعد بن خيثمة.

(١) أبو جابر بن عبد الله الأنصاري، من شهداء أحد.

(٢) وروى الصدوق في الخصال ٢: ٤٩٢: أسماء النقباء عن انقمي أيضاً عن أبان الأحمر ←

فلما اجتمعوا وبايعوا رسول الله صاح بهم ابليس : يا معشر قريش والعرب ، هذا محمد والضباة من الأوس والخزرج على هذه العقبة يبايعونه على حربكم فأسمع أهل منى ، فهاجت قريش وأقبلوا بالسلاح .

وسمع رسول الله النداء فقال للأنصار : تفرّقوا . فقالوا : يا رسول الله إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيا ففعلنا ؟

فقال رسول الله : لم أؤمر بذلك ، ولم يأذن الله في محاربتهم .

فقالوا : يا رسول الله فتخرج معنا ؟

قال : انتظر أمر الله (بالهجرة) فتفرّقوا .

وخرج حمزة وعلي بن أبي طالب فوقف حمزة على العقبة ومعه السيف .

فجاءت قريش عن بكرة أبيها قد أخذوا السلاح ، فلما نظروا إلى حمزة قالوا

له : ما هذا الذي اجتمعتم عليه ؟

قال : ما اجتمعنا ، وما هنا أحد ، والله لا يجوز أحد هذه العقبة إلا ضربته

بسيقي ! فرجعوا . ورجع رسول الله إلى مكة .

(ولم يُطلع المسلمون من الأوس والخزرج المشركين منهم ، وفيهم عبد الله بن

أبي بن سلول ، فغدت قريش إليه) وقالوا له : قد بلغنا أن قومك بايعوا محمداً على

حربنا ؟ فحلف لهم عبد الله : أنهم لم يفعلوا ولا علم له بذلك ، فصدّقه^(١) .

ذكر ذلك القمي في تفسيره ، ونقله عنه الطبرسي في «اعلام الوري» والقطب

الراوندي في «قصص الأنبياء» ولم يتبعه تلميذه ابن شهر آشوب في «مناقب آل

→ البجلي عن أشياخه (كذا) وفيهم أسيد بن حضير ، وفي خبرين عن الباقر والصادق عليهما السلام

عدا بدله سهل بن حنيف الأنصاري ، ولذا قال صاحب قاموس الرجال ٥ : ٣٥٥ في ترجمة

سهل : أن العامة بدلوه بأسيد لمساعدته لهم في الهجوم على دار الزهراء عليها السلام .

(١) تفسير القمي ١ : ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

أبي طالب» بل قال : كان النبيّ يعرض نفسه على قبائل العرب في الموسم ، فلقي رهطاً من الخزرج ستة نفر ، فقال : أفلا تجلسون أحدّثكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا اليه فدعاهم الى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ، فقال بعضهم لبعض : والله إنّ الله للنبيّ الذي كان يُوعدكم به اليهود ، فلا تسبقنكم اليه (فصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام) وقالوا له : إنّنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم ، فعسى أن يجمع الله بينهم بك ، فسنقدم عليهم وندعوهم الى أمرك (ونعرض عليهم الذي أجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله بك فلا رجل أعزّ منك ، ثمّ انصرفوا عن رسول الله راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدّقوا).

فلما كان العام المقبل أتى من الأنصار الى الموسم اثنا عشر رجلاً فلقوا النبيّ ﷺ فبايعوه على «بيعة النساء»^(١) وبعث معهم مصعب بن عمير ابن هاشم يصلي بهم (فكان يصلي بهم ويقرئهم القرآن حتّى سُمّي) بينهم بالمقرىء ، وحتّى لم تبق دار في المدينة إلّا وفيها رجال ونساء مسلمون .

(وفي الموسم القادم) خرج جمع من الأنصار مع حجاج قومهم ، فاجتمعوا في ليلة من ليالي التشريق في الشعب عند العقبة ، ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان .
(فقام فيهم رسول الله) فقال : أبايحكم على الإسلام ؟

فقال له بعضهم : نريد أن تعرّفنا - يا رسول الله - ما لله علينا وما لك علينا وما لنا على الله ؟ فقال : أمّا ما لله عليكم : فإن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ،

(١) اصطلاح المسلمون فيما بعد باسم بيعة النساء على البيعة التي وردت في الآية الثانية عشرة من سورة الممتحنة ، وأنما يكتفى بها عن بيعة لا قتال فيها في مقابل بيعة الحرب . وسورة الممتحنة نازلة بعد صلح الحديبية ، فالتسمية متأخرة .

وأما ما لي عليكم : فتصروني مثل نسائكم وأبنائكم، وأن تصبروا على عضّ السيف وأن يُقتل خياركم^(١).

قالوا : فاذا فعلنا ذلك فما لنا على الله ؟

قال : أما في الدنيا فالظهور على من عاداكم، وفي الآخرة الرضوان والجنة .
فقال أبو الهيثم ابن التيهان : إن بيننا وبين الرجال حبلاً، فهل عسيت إن نحن قطعناها أو قطعوها ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟
فتبسّم رسول الله ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : والذي بعثك بالحق لنمنعك بما نمنع به أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كباراً عن كبار .

فقال رسول الله : أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً . فاختراروا .
فقال لهم : أبايكم كبيعة عيسى بن مريم للحواريين، كفلاء على قومكم، على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . فبايعوه على ذلك .
فصرخ الشيطان في العقبة : يا أهل الجباب^(٢) هل لكم في محمّد والصّباة معه ؟! فانهم قد اجتمعوا على حربكم . ففشا الخبر ونفر الناس وخرجوا في الطلب، فلم يدركوا منهم إلا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، فأما المنذر فاعجز القوم هرباً، وأما سعد فأدركوه فأخذوه وربطوه بحبل رحله وأدخلوه مكّة يضربونه .

(١) وهذا معناه أن بيعة النساء السابقة تغيّرت هنا إلى بيعة القتال والحرب .

(٢) الجباب : جمع جُبْجُبَة : الوعاء من آدمّ ونحوه، وتُطلق على منازلهم في منى لأنها أوعية لهم .

فبلغ خبره الى جبير بن مطعم والحارث بن حرب بن أمية (أخي أبي سفيان صخر بن حرب) فأتياه وخلصاه^(١).

هذا ما ذكره ابن شهر آشوب في فصل هجرته ﷺ، وقد قال في الفصل السابق في أحواله وتواريخه : كان حصار الشعب أربع سنين. وقال قبله : توفي أبو طالب بعد نبوته بتسع سنين وثمانية أشهر، وذلك بعد خروجه من الشعب بشهرين. وتوفيت خديجة بعده بستة أشهر. ولبث بعدها بمكة ثلاثة أشهر فأمر أصحابه بالهجرة الى الحبشة (!) فخرج جماعة من أصحابه بأهاليهم، وذلك بعد خمس من نبوته (!) وقال : فلما توفي أبو طالب خرج الى الطائف وأقام فيه شهراً، ثم انصرف الى مكة ومكث فيها سنة وستة أشهر في جوار مطعم بن عدي.

ثم ذكر مختصر خبر بيعة العقبة الأولى والعقبة الثانية، ولكنه أضاف ذكر أسماءهم فقال :

كانت بيعة العقبة الاولى بمنى، بايعه خمسة نفر من الخزرج وواحد من الأوس، في خفية من قومهم «بيعة النساء» وهم : جابر بن عبد الله^(٢)، وقطبة بن عامر بن حرام، وعوف بن الحارث، وحارثة بن ثعلبة^(٣)، ومرثد ابن الأسد، وأبو أمانة ثعلبة بن عمرو، ويقال : هو أسعد بن زُرارة.

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٨١، ١٨٢. وهو مختصر خبر ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٧٠-٩٣. بل الأصل في هذا الخلط ابن مندة كما نبّه عليه الجزري في أسد الغابة في ترجمة جابر الأنصاري، كما في قاموس الرجال ٢ : ٥٢٣، كما سيأتي.

(٢) لا يوجد جابر فيمن شهد العقبة بل ابوه عبد الله بن عامر بن حرام. بل يعدّ جابر من أتراب الحسين عليه السلام.

(٣) ولا يوجد هذا الاسم أيضاً في الستة الاولى ولا الأخيرة، بل هو جدّ الأوس والخزرج، اليعقوبي ٢ : ٣٠.

وفي السنة القابلة - وهي العقبة الثانية - أنفذوا معهم ستة أخرى بالاسلام والبيعة، وهم: أبو الهيثم بن التيهان، وعُباد بن الصامت، وذكوان ابن عبد الله، ونافع بن مالك بن العجلان، وعباس بن عباد بن نضلة، ويزيد بن ثعلبة حليف له. ويقال: مسعود بن الحارث، وعُويم بن ساعدة حليف لهم.

ثم أنفذ النبي ﷺ معهم ابن عمه (كذا؟): مصعب بن (عمير) بن هاشم، فنزل دار أسعد بن زرارة، فاجتمعوا عليه وأسلم أكثرهم.

وفي السنة القابلة كانت «بيعة الحرب»^(١) كانوا سبعين رجلاً وامراتين من الأوس والخزرج، واختار منهم اثني عشر نقيباً ليكونوا كفلاء قومهم: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فمن الخزرج: أسعد بن زرارة، وجابر ابن عبد الله الأنصاري^(٢) والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وسعد بن عباد، والمندر بن عمرو، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع. ومن القواقل: عباد بن الصامت. ومن الأوس: أبو الهيثم بن التيهان، وأسيد بن حُضير، وسعد بن خَيْثمة^(٣).

وظاهره - كما ترى - أنه يعدد ثلاث بيعات في ثلاث سنوات متواليات، ولم يسند الخبر لا هنا ولا في فصل هجرته ﷺ.

(١) في الكتاب: الحرث، أو الحرس، ولا ريب أن الحرس مصحف الحرث، وهو مصحف الحرب، فهو الصحيح ولا معنى لغيره.

(٢) روى الكشي في رجاله بسنده عن الباقر عليه السلام قال: كان عبد الله أبو جابر بن عبد الله من السبعين ومن الاثني عشر، وجابر من السبعين وليس من الاثني عشر. رجال الكشي: ٤١. وانظر معناه في قاموس الرجال ٢: ٥٢٢.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ١٧٤، ١٧٥ وهو مختصر خبر ابن إسحاق كما في سيرة ٢: ٧٣ - ٧٥ و ٨١ - ٨٧. ومنها ما بين الأقواس.

وابن اسحاق يبدأ في خبر اسلام الأنصار، فيذكر عرض الرسول نفسه على العرب ولقائه بالسته من الخزرج عند العقبة، وأنهم: أجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام... ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدّقوا. ثم يسمّيهم. ولا يذكر شيئاً عن البيعة ولا يسمّيها «بيعة النساء» ولا «العقبة الاولى» وابن شهر آشوب سماهما: بيعة العقبة الاولى، وبيعة النساء. والعقبة الاولى التي اضيف فيها الى الستة الاولى ستة آخرون فكان الجميع اثني عشر رجلاً وبُعث معهم مصعب بن عمير، يسمّيها: العقبة الثانية. والعقبة الثانية التي كان الأنصار فيها: ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين يسمّيها بيعة الحرب، وهي كذلك، ولكنه يجعلها البيعة الثالثة في السنة القابلة أي الثالثة. ولعل منشأ الشبهة له هو أن ابن اسحاق او ابن هشام لا يسمي اللقاء الأول^(١)، ويسمي اللقاء الثاني بالعقبة الأولى^(٢) ويسمي اللقاء الثالث بالعقبة الثانية^(٣) ثم يعود على شروط هذه البيعة بعنوان: شروط البيعة في العقبة الأخيرة: قال ابن اسحاق: وكانت بيعة الحرب^(٤) فلعله وهم أن البيعة الأخيرة بيعة الحرب غير بيعة العقبة الثانية، فهي الثالثة.

وابن اسحاق يروي الخبر الأول عن اللقاء الأول للنبي بالسته من الخزرج عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ قومه^(٥) وخبر العقبة الأولى عن عبادة بن

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٧٠.

(٢) م. ن ٢ : ٧٣.

(٣) م. ن ٢ : ٨١.

(٤) م. ن ٢ : ٩٧.

(٥) م. ن ٢ : ٧٠.

الصامت بثلاث وسائط^(١)، وبطريق آخر عنه بواسطتين^(٢) وخبر العقبة الثانية عن كعب بن مالك الخزرجي بواسطة ابنه معبد عن أخيه عبد الله عن أبيه كعب^(٣) وخبر أسر سعد بن عبادة عن عبد الله بن أبي بكر عنه^(٤).

ويوهم قوله : كانت البيعة الاولى على بيعة النساء ، وذلك أن الله لم يكن قد أذن لرسوله - صلى الله عليه [وآله] وسلم - في الحرب ، فلما أذن الله له فيها وبايعهم رسول الله^(٥) وقوله : وكان رسول الله قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء ... فلما عتت قريش على الله عز وجل ... أذن الله عز وجل لرسوله في القتل والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ... بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء : أن أول آية أنزلت في اذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم قول الله تبارك وتعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾^(٦) ... فلما أذن الله تعالى له في الحرب وبايعه هذا الحي من الأنصار^(٧) يوهم قوله هذا : أن الاذن له بالحرب صدر بهذه الآية قبل بيعة الحرب في العقبة الثانية قبل الهجرة ، ولذلك بايعهم النبي بيعة الحرب .

ويردّه ما رواه ابن اسحاق عن معبد بن كعب عن أخيه عبد الله بن كعب عن أبيه كعب بن مالك : أن العباس بن عبادة بن نضلة قال له : إن شئت لنميلنَّ

(١) م . ن ٢ : ٧٥ .

(٢) م . ن ٢ : ٧٦ .

(٣) م . ن ٢ : ٨١ .

(٤) ابن إسحاق ٢ : ٩٢ .

(٥) م . ن ٢ : ٩٧ .

(٦) الحج : ٣٩ .

(٧) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ١١٠ - ١١١ .

على أهل منى غداً بأسيا فئنا؟! فقال رسول الله : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا الى رحالكم^(١).

والآية من سورة الحج ، وهي بعد المائة في ترتيب النزول ، أي النازلة بعد عشرين سورة نزلت بعد الهجرة ، تقريباً ، مما لا يناسب معه نزولها حتى قبل وقعة بدر في منتصف السنة الثانية للهجرة ، بل يناسب نزولها بعد ذلك تحكي علة الاذن في ذلك ، فضلاً عن أن تكون قد نزلت قبل بيعة الحرب في العقبة الثانية قبل الهجرة ، مما يوهمه ظاهر مقال ابن اسحاق ، ولكن الحديث اختلط بعضه ببعض في غير وضوح . نعم كان يفهم من بيعة الحرب أن ذلك سيكون ، وكانت لابن اسحاق رواية عن عروة ابن الزبير وغيره عن أول آية أنزلت في الاذن في الحرب والقتال ، فانتقل الى نقل الرواية جملة معترضة ، لقد خلط ابن شهر آشوب ، وزاد في تخطيطه أنه عدّ جابراً من النقباء في بيعتي العقبة والستة الأولى قبل العقبة ، خالطاً بينه وبين جابر بن عبد الله بن رثاب ، والأصل في خلطه ابن مندة كما في أسد الغابة^(٢).

انتشار الاسلام في المدينة:

مرّ في تعبير القمي في تفسيره : أن رسول الله ﷺ بعث الى المدينة مع الاثني عشر نقيباً في بيعة العقبة الاولى : مصعب بن عمير بن هاشم يصلي بهم . فكان يصلي بهم ويقرئهم القرآن حتى سمي بينهم بالمقرئ ، وحتى لم تبق دار في المدينة الا وفيها رجال ونساء مسلمون .

ومرّ في تعبير ابن شهر آشوب في «المناقب» : ثم أنفذ النبي ﷺ معهم

(١) م . ن ٢ : ٩٠ .

(٢) كما في قاموس الرجال ٢ : ٥٢٣ .

(ابن عمه؟) مصعب بن عمير بن هاشم، فنزل دار أسعد بن زرارة، فاجتمعوا عليه وأسلم أكثرهم. أمّا لماذا نزل دار أسعد بن زرارة؟

فقد مرّ في أخبار حصار قريش لبني هاشم في شعب أبي طالب ﷺ^(١) عن الطبرسي في «إعلام الوري» عن علي بن ابراهيم القمي قال: كان بين الأوس والخزرج حرب قد بغوا فيها دهوراً طويلة، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم «يوم بُعث» وكانت للأوس على الخزرج. وكان عبد الله بن أبي بن سلول شريفاً في الخزرج، ولكنه لم يدخل مع قومه الخزرج في حرب بُعث ولم يُعَنِّهم على الأوس وقال: هذا ظلم منكم للأوس ولا أعين على الظلم. فرضيت به الأوس والخزرج واجتمعوا على أن يملكوه عليهم لشرفه وسخائه، وحتىّ أنهم اتخذوا له اكليلاً احتاجوا في تمامه إلى واسطة كانوا يطلبونها...

وكان أسعد بن زرارة (الخزرجي من بني النجار أخوال الرسول) صديقاً لعتبة بن ربيعة المخزومي، فخرج هو وذكوان إلى مكّة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس، فلما نزل على عتبة قال له: أنّه كان بيننا وبين قومنا حرب، وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم.

فقال عتبة: بعدت دارنا عن داركم، ولنا شغل لا نتفرغ معه لشئ!

قال أسعد: وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟

قال له عتبة: خرج فينا رجل يدّعي أنّه رسول الله، سفّه أحلامنا وسبّ آلهتنا وأفسد شبابنا وفرّق جماعتنا.

فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، من أوسطنا شرفاً وأعظمنا بيتاً.

وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم : النضير وقريظة وقينقاع : أن هذا أوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجرة الى المدينة ، لنقتلنكم به يا معشر العرب ! فلما سمع ذلك الكلام من عتبة وقع في قلبه ما كان سمعه من اليهود فقال : أين هو ؟ قال : جالس في الحجر ، وإنهم لا يخرجون من شعبهم إلا في الموسم ، فلا تسمع منه ولا تكلمه فانه ساحر يسحر بكلامه .
فقال له أسعد : فكيف أصنع وأنا معتمر لا بد لي أن أطوف بالبيت ؟
فقال : ضع في أذنك القطن .

ندخل أسعد المسجد وقد حشا أذنيه من القطن . فطاف بالبيت ورسول الله ﷺ جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم ، فنظر اليه نظرة فجازه ، فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه : ما أجد أجهل مني ! أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا نعرفه حتى أرجع الى قومي فاخبرهم ؟ ! ثم أخرج القطن من أذنيه ورمى به وقال لرسول الله : أنعم صباحاً ! فرفع رسول الله رأسه اليه وقال : قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا ، تحية أهل الجنة : السلام عليكم . فقال له أسعد : إن عهدك بهذا لقریب . الى ما تدعو يا محمد ؟ قال : الى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وأدعوكم الى : ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ .

فلما سمع أسعد هذا قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنت رسول الله . يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، أنا من أهل يثرب من الخزرج وبيننا وبين اخواننا من الأوس حبال مقطوعة ، فإن وصلها الله بك فلا أجد أعز منك ، ومعني رجل من قومي فإن دخل في هذا الأمر رجوت أن يتمم الله لنا أمرنا فيك . والله يا رسول الله لقد كنا نسمع من اليهود خبرك ، وكانوا يبشروننا بمخرجك ، ويخبروننا بصفتك ، وأرجو أن تكون دارنا دار هجرتك وعندنا مقامك ، فقد أعلمنا اليهود ذلك ، فالحمد لله الذي ساقني إليك . والله ما جئت إلا لنطلب الحلف على قومنا ، وقد آتانا الله بأفضل مما أتيت له .

ثم أقبل ذكوان . فقال له أسعد : هذا رسول الله الذي كانت اليهود تبشروننا به وتخبرنا بصفته ، فهلم وأسلم . فأسلم ذكوان .

ثم قالوا : يا رسول الله ، ابعث معنا رجلاً يعلمنا القرآن ويدعو الناس إلى أمرك . وكان مصعب بن عمير بن هاشم فتى حدثاً مترفاً بين أبويه يكرمانه ويفضلانه على أولادهم ، فلما أسلم جفاه أبواه ، ولم يخرج من مكة فكان مع رسول الله في الشعب حتى تغير وأصابه الجهد ، وقد كان تعلم من القرآن كثيراً . فأمره رسول الله ﷺ بالخروج مع أسعد فخرج هو مع أسعد إلى المدينة ، فكان نازلاً على أسعد بن زرارة ، يخرج معه في كل يوم يطوف على مجالس الخزرج يدعوهم إلى الإسلام فيجيبه من كل بطن الرجل والرجلان من الأحداث .

فقال أسعد لمصعب : إن خالي سعد بن معاذ من رؤساء الأوس ، وهو رجل عاقل شريف مطاع في بني عمرو بن عوف ، فإن دخل في هذا الأمر تم لنا أمرنا ، فهلم نأتي محلهم .

فجاء مصعب مع أسعد إلى محلة سعد بن معاذ . فبلغ ذلك سعد بن معاذ فقال لأسيد بن حضير وكان من أشرافهم : بلغني إن أبا أمامة أسعد بن زرارة قد جاء إلى محلتنا مع هذا القرشي يفسد شبابنا ، فأتته وانه عن ذلك .

فجاء أُسيد بن حضير فنظر اليه أسعد فقال لمُصعب بن عمير : إن هذا الرجل شريف ، فان دخل في هذا الأمر رجوت أن يتم أمرنا فاصدق الله فيه .
فلما قرب أُسيد منهم قال : يا أبا أمامة ، يقول لك خالك : لا تأتتا في نادينا ولا تفسد شبابنا واحذر الأوس على نفسك !

فقال مصعب : أو تجلس فنعرض عليك أمراً فان أحببته دخلت فيه وإن كرهته نحينا عنك ما تكرهه . فجلس ، فقرأ عليه سورة من القرآن . فقال : كيف تصنعون اذا دخلتم في هذا الأمر ؟ قال : نغتسل ونلبس ثوبين طاهرين ونشهد الشهادتين ونصلي ركعتين .

فرمى بنفسه مع ثيابه في البئر ثم خرج وعصر ثوبه ثم قال : اعرض عليّ . فعرض عليه : شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله . فقالها ، ثمّ صلى ركعتين ، ثمّ قال لأسعد : يا أبا أمامة ، أنا أبعث اليك الآن خالك واحتال عليه في أن يجيئك !

فرجع أُسيد الى سعد بن معاذ ، فلما نظر اليه سعد قال : أقسم أن أُسيداً قد رجع إلينا بغير الوجه الذي ذهب به من عندنا !^(١)

فلما وقف على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلّمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حدّثت أن بني حارثة قد خرجوا الى أسعد بن زرارة ليقتلوه ! - وذلك أنهم قد عرفوا أنّه ابن خالتك - ليخفروك !

فقام سعد مغضباً مبادراً تخوّفاً للذي ذكر له من بني حارثة ، فأخذ الحربة من يد أُسيد ثمّ قال : والله ما أراك أغنيت شيئاً ! ثمّ خرج اليهما .

(١) إعلام الوري : ١٣٦ - ١٤٠ وليس في تفسير القمي .

فلما رآه أسعد قال لمصعب : أي مصعب ، جاءك -والله- سيّد من وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان !

ولما رآهما سعد مطمئن عرف أن أسيداً أنما أراد منه أن يسمع منها ، فوقف عليهما متشمتاً وقال لأسعد : يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمّت هذا منّي ! أتغشانا في ديارنا بما نكره ؟!

فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فان رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وان كرهت عزلنا عنك ما تكره ؟

قال سعد : أنصفت . ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الاسلام وقرأ عليه من القرآن ^(١) ﴿ حَمْدٌ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ^(٢) فلما سمعها بعث الى منزله فأتي بثوبين طاهرين فاغتسل وشهد الشهادتين وصلى ركعتين ، ثم قام وأخذ بيد مصعب وحوّله اليه وقال : أظهر أمرك ولا تهابن أحداً .

ثم جاء فوقف في بني عمرو بن عوف وصاح : يا بني عمرو بن عوف ، لا يبقين رجل ولا امرأة ولا بكر ولا ذات بعل ولا شيخ ولا صبيّ إلا أن يخرج ، فليس هذا يوم ستر ولا حجاب .

فلما اجتمعوا قال : كيف حالي عندكم ؟ قالوا : أنت سيدنا والمطاع فينا ولا نردّ لك أمراً فمرنا بما شئت .

فقال : كلام رجالكم ونسائكم وصبيانكم عليّ حرام حتّى تشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله ، والحمد لله الذي أكرمنا بذلك ، وهو الذي كانت اليهود تخبرنا به .

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٧٨ .

(٢) فضّلت : ١ - ٢ .

فما بقي دار من دور بني عمرو بن عوف في ذلك اليوم إلا وفيها مسلم أو مسلمة. وشاع الاسلام بالمدينة وكثر، ودخل فيه من البطين اشرافهم، وذلك لما كان عندهم من اخبار اليهود.

وكتب مصعب الى رسول الله بأن الأوس والخزرج قد دخلوا في الاسلام، فلما بلغ ذلك رسول الله أمرهم بالخروج الى المدينة، فكانوا يتسللون اليها رجلاً رجلاً، فينزلهم الأوس والخزرج عندهم ويواسونهم^(١).

روى ذلك الطبرسي في «إعلام الوري» عن علي بن ابراهيم القمي، ولا يوجد الخبر في المنشور من تفسيره، وروى الطبرسي في تفسيره «مجمع البيان» عن ابن سيرين (ت ١١٠) قال: اجتمع الأنصار الى أسعد بن زرارة وقالوا له: لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى يوم أيضاً مثل ذلك، فلنجعل يوماً نجتمع فيه فنذكر الله عز وجل ونشكره. فلليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد فاجعلوا يومنا يوم العروبة (وهي اسم الجمعة في الجاهلية فتوافقوا عليه).

فاجتمعوا فيه الى أسعد بن زرارة، فذبح لهم شاة، ثم ذكّرهم وصلى بهم، ثم تغدّوا وظلّوا حتى تعشّوا عنده من تلك الشاة، وذلك لقلّتهم، فسّمّوه يوم الجمعة لاجتماعهم اليه فيه. فهذه أوّل جمعة جمّعت في الاسلام^(٢) حيث صلّوا فيه مع أسعد بن زرارة فريضة ظهر يوم الجمعة جماعة، قبل قدوم الرسول وتشريع صلاة الجمعة والخطبتين قبلها.

(١) إعلام الوري: ١٣٦ - ١٤١. وقد مرّ الخبر ضمن أخبار حصار الشعب، الصفحة ٦٢٥، ولكنّي كررته هنا ابرازاً لدور أسعد بن زرارة الخزرجي وسعد بن معاذ الأوسي في انتشار الاسلام في المدينة. والخبر في سيرة ابن هشام ٢: ٧٧ - ٨٠ باختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) مجمع البيان ١٠: ٤٣٢.

وروى ابن اسحاق بسنده عن كعب بن مالك الأنصاري قال : كان (أسعد بن زرارة) أول من جمع بنا بالمدينة في هَزم (بني) النبيت من حرّة بني بياضة في نقيع يقال له : نقيع الخضيمات . وهم يومئذٍ أربعون رجلاً^(١) .
ولعله كان بعد رجوع مصعب بن عمير الى مكة قبل بيعة العقبة الثانية^(٢) .

كانت الصلاة يومئذٍ الى بيت المقدس:

قال ابن اسحاق : فلما انصرف عنه القوم (من بيعة العقبة الأولى) بعث رسولُ الله معهم مُصعبَ بنَ عُمير بن هاشم ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين ... وكان يصلي بهم^(٣) ولم يقل عن القبلة شيئاً .
ولكنه روى عن معبد بن كعب ، عن أخيه عبد الله بن كعب ، عن أبيه كعب بن مالك (الخزرجي) قال : ما بلغنا أن نبيتنا يصلي إلا الى الشام فكنا اذا حضرت الصلاة صلينا الى الشام (يعني القدس) ... فلما خرجنا من المدينة في حجاج قومنا ... وتوجهنا لسفرنا ... وسيدنا وكبيرنا البراء ابن معرور ، قال لنا : يا هؤلاء ، اني قد رأيت رأياً فوالله ما أدري أتوافقوني عليه أم لا؟! قلنا : وما ذاك؟ قال : قد رأيت أن لا أدع هذه البنية (الكعبة) بظهري بل أصلي اليها . فقلنا : والله ما بلغنا أن نبيتنا يصلي إلا الى الشام وما نريد أن نخالفه . فكنا اذا حضرت الصلاة صلينا الى الشام ، وصلى هو الى الكعبة ، وقد عبنا عليه ما صنع ، وأبى الا اقامة على ذلك وقال : اني لمصل اليها ... حتى قدمنا مكة .

(١) ابن اسحاق في السيرة ٢ : ٧٧ .

(٢) م . ن ٢ : ٨١ .

(٣) م . ن ٢ : ٧٦ ، ٧٧ .

فلما قدمنا مكة قال لي : يا بن أخي لقد وقع في نفسي مما صنعت في سفري شيء : لما رأيت من خلافكم إيتاي فيه ، فانطلق بنا الى رسول الله حتى نسأله عما صنعتُ .

وكان العباس بن عبد المطلب عم النبيّ يَقدم علينا تاجراً ، فكنا نعرف العباس (ويعرفنا) وكنا لا نعرف رسول الله ولم نره قبل ذلك ، فخرجنا نسأل عنه ، فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ، فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا ، فقال : فهل تعرفان العباس عمّه ؟ قلنا : نعم ، قال : فاذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس .

فدخلنا المسجد ، فاذا العباس جالس ، ورسول الله جالس معه . فسلمنا ثم جلسنا اليه . فقال رسول الله للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ قال : نعم ، هذا البراء بن معرور سيّد قومه ، وهذا كعب بن مالك ، فقال رسول الله : الشاعر ؟ قال العباس : نعم .

فقال له البراء بن معرور : يا رسول الله ، قد هداني الله للاسلام ، وقد خرجت في سفري هذا ، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية بظهري فصليت اليها ، وخالفني أصحابي في ذلك حتى وقع في نفسي من ذلك شيء ، فاذا ترى يا رسول الله ؟

قال : قد كنت على قبلةٍ لو صبرتَ عليها . فرجع البراء الى قبلة رسول الله وصلى معنا الى الشام^(١) .

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٨١ ، ٨٢ ، هذا وقد مرّ أن البراء بن معرور الأنصاري التيمي كان أحد النقباء الاثني عشر في بيعة العقبة الثانية وأنه أول من بايعه ﷺ ، فان صحّ الخبر فيحمل على تجاهل النبيّ له عند العباس لعدم علمه ببيعته . وفي الكافي عن الصادق عليه السلام : ←

كان العباس يحضر النبي ويتوثق له؟!:

وكما روى ابن اسحاق هنا عن معبد بن كعب عن أخيه عبد الله بن كعب عن أبيه كعب بن مالك الخزرجي : أن العباس كان يجالس رسول الله ﷺ في المسجد الحرام أيام الموسم ويعرفه بالناس... يستمر فيروي عنه : أنه ﷺ جاءنا - في العقبة الثانية - ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه ، الا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له .

فلما جلس كان أول من تكلم العباس فقال : يامعشر الخزرج : إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده (؟!) وانه قد أبى إلا الانحياز اليكم واللاحق بكم (؟) فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه اليه ومانعوه ممن خالفه ، فانتم وما تحملت من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم ، فمن الآن فدعوه ، فانه في عز ومنعة من قومه وبلده (?!) .

فقلنا له : قد سمعنا ما قلت . فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا الى الله ورغب في الاسلام ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم^(١) .

→ كان رسول الله والمسلمون بمكة يصلون إلى بيت المقدس ، وكان البراء بن معرور بالمدينة وأنه حضره الموت (في شهر صفر قبل الهجرة بشهر) فأوصى أن يدفن ويجعل وجهه إلى رسول الله إلى القبلة ، فجرت السنة بذلك . وروى مثله الصدوق في الخصال ١ : ١٩٢ عن القمي عنه ﷺ أيضاً .

ثم يروي عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ قومه قالوا: إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال العباس بن عباد بن نضلة الأنصاري: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تباعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبةً وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن، فهو - والله إن فعلتم - خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو - والله - خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فانا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فقالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فباعوه. وما قال ذلك العباس الا ليشد العقد لرسول الله في أعناقهم^(١). وكأنه يروي الخبر كذلك عن عبد الله بن أبي بكر، وإنه قال في آخر الخبر: قال ذلك العباس ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله ابن أبي بن سلول، فيكون أقوى لأمر القوم^(٢) وكان ابن اسحاق تخيل اختلافاً بين القولين فقال: فالله أعلم أي ذلك كان.

فان كان بين القولين خلاف في ارادة العباس بن عباد بقوله ذلك تأخير القوم تلك الليلة يرجو أن يحضرها عبد الله بن أبي بن سلول. فلا خلاف في أنه قال ذلك ليشد العقد لرسول الله ويقوي أمره وأمرهم، سواء أراد ذلك من خلال حضور ابن سلول أم لا. هذا، ولكن قول ابن أبي بكر يدل على أن طلب رسول الله منهم

(١) م. ن ٢ : ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) م. ن ٢ : ٨٩ .

البيعة على «بيعة الحرب» لم يكن طلباً قد تقدّم به الى القوم من ذي قبل بل كأنه فاجأهم أو فاجأ جمعهم بذلك.

وتتقارب مقالة العباس بن عباد مع مقالة العباس بن عبد المطلب، وكلاهما يريد شدّ العقد لرسول الله ويتوثق له، فيقول أحدهم: وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه. ويقول الآخر: فان كنتم ترون أنكم اذا... أسلمتموه فمن الآن. وكلّ من المقاتلين للرجلين في روايتين، ولا تجمعهما رواية واحدة. فهل كان كلاهما؟ أو أحدهما؟ وإن كان أحدهما فهل هو العباس بن عباد أو العباس بن عبد المطلب؟

وهل صحيح ما جاء فيما روي عن العباس عمّ النبي ﷺ أنّه في عزّ من قومه ومنعة في بلده؟! وأنّه قد منعه عن قومه ممن هو على مثل رأيه؟! كما في النص. وهل صحيح أنّه: أبي الانحياز الى الخزرج واللاحق بهم؟! وهل كانت هجرته مجاهراً بها منذ بيعة العقبة الثانية؟! بل يقول ابن اسحاق: وأقام رسول الله بمكة ينتظر أن يأذن له ربّه في الخروج والهجرة من مكة الى المدينة^(١).

أم أن الصحيح هي رواية عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ قومه ورواية عبد الله بن أبي بكر، وأن المتكلم كان العباس بن عباد، لا العباس بن عبد المطلب على رواية معبد بن كعب. ولا تنسى أن هذه السيرة لابن اسحاق اختصره من كتابه الكبير في التاريخ الذي صنّفه للمهديّ بن المنصور العبّاسي بأمر المنصور^(٢).

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢: ١١١.

(٢) مقدمة سيرة ابن هشام ١: ط، ي. وزاد عليه اليعقوبي - مولى بني العباس - فقال: قال العباس للنبي: دعني فذاك أبي وأمي آخذ العهد عليهم، فجعل ذلك اليه، فأخذ عليهم العهد والمواثيق. اليعقوبي ٢: ٣١.

قصة صنم عمرو بن الجَمُوح:

ومن القصص المروية في أخبار إسلام الأنصار : قصة معاملة مُعَاذ بن عمرو بن الجموح مع صنم أبيه عمرو بن الجموح، قالوا : كان الأشراف يتخذون لأنفسهم آلهة يطهّرونها ويعظّمونها، وكان عمرو بن الجموح سيّداً من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يسمّيه مَنَاة (أي الآلهة التي يُمنى أي يراق لديها الدماء قرباناً لها) وكان ابنه مُعَاذ بن عمرو بن الجموح ممّن شهد العقبة وباع رسول الله بها، فكان هو وأصحابه يُدْجُون بالليل على صنم عمرو بن الجموح فيحملونه فيطرحونه في بعض حُفَر بني سلمة منكّساً على رأسه ! فاذا أصبح عمرو غدا يلتسمه، حتّى اذا وجده غسله وطهّره وطيّبه ! فاذا أمسى عمرو عدّوا عليه ففعلوا به مثل ذلك ! فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطهّره ويطيّبه ! ثمّ إذا أمسى يعدّون عليه فيفعلون به مثل ذلك ! فاستخرجه من حيث ألقوه فغسله وطهّره وطيّبه ! ثمّ جاء بسيفه فعلقه عليه ثمّ قال له : إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فان كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك ! فلما أمسى ونام عمرو، عدّوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثمّ ألقوه في بئر من آبار بني سلمة ثمّ أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بجبل ! فلما غدا عمرو خرج وتتبّعه حتّى وجده في تلك البئر منكّساً مقروناً بكلب ميت ! فلما أبصره ورآه قال يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره :

والله لو كنت الهالم تكن أنت وكلب وشط بئر في قرن
أف لملقاك الهام مستدن الآن فتشناك عن سوء الغبن

وكلمه من أسلم من رجال قومه، فأسلم برحمة الله وحسن إسلامه^(١).

الفصل التاسع

هجرة المسلمين الى المدينة

إذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة الى المدينة:

قال ابن شهر آشوب: كان النبي ﷺ لم يؤمر إلا بالدعاء والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل، فطالت قريش على المسلمين، فلما كثر عتوهم أمر بالهجرة فقال ﷺ: إن الله قد جعل لكم داراً تأمنون بها واهواناً.

فخرجوا أرسالاً، حتى لم يبق مع النبي ﷺ الا علي بن أبي طالب وأبو بكر^(١).

وقال قبله محمد بن اسحاق: كان رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم -

قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء^(٢)، إنما كان يؤمر بالدعاء الى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل.

وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم

ونفوهم من بلادهم، فهم بين مفتون في دينه، وبين معذب في أيديهم وبين هارب في البلاد فراراً منهم: منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة، وفي كل وجه.

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٨٢. وانظر الطبقات الكبرى ١ : ٢٢٦.

(٢) مر الكلام في بيعة العقبة على هذا المعنى.

فلما عتت قريش على الله عز وجل وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيّه - صلى الله عليه [وآله] وسلم -، وعذبوا ونفّوا من عبده ووحدّه وصدّق نبيّه واعتصم بدينه، أذن الله عز وجل لرسوله في (أخذ البيعة) للقتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم...

لما أذن الله تعالى له في (أخذ البيعة) للحرب، وبايعه هذا الحيّ من الأنصار على الاسلام والنصرة له ولمن تبعه وأوى اليهم من المسلمين، أمر رسول الله أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج الى المدينة والهجرة اليها واللاحق بإخوانهم من الأنصار، وقال لهم: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها.

فخرجوا أرسالاً (جمعاً فجمعاً). وأقام رسول الله بمكة ينتظر أن يأذن له ربّه في الخروج من مكة والهجرة الى المدينة. فكان أول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي بعد عودته من الهجرة الأولى إلى الحبشة، لما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج مهاجراً إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة^(١).

المهاجرون بعد أبي سلمة:

ثمّ قدم المدينة من المهاجرين بعد أبي سلمة : عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة.

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ١١٠ ، ١١١ . ومن المقارنة بين عبارة ابن شهر آشوب وابن اسحاق يبدو أن كلام ابن شهر آشوب انما هو مختصر ما ذكره ابن اسحاق ، من دون اسناد . وقد قدّمنا خبر هجرة أبي سلمة في محله بعد إسلام أسعد بن زرارة وإرسال مصعب بن عمير ، في أخبار أواخر أيام الحصار في شعب أبي طالب رضي الله عنه .

ثمَّ عبد الله بن جَحْش مع أهله وأخيه عبد بن جَحْش وكان شاعراً ضريـر البصر، وكان صهر أبي سفيان على ابنته الفرعة، وكانوا حلفاء بني أمية. وقال في ذلك شعراً.

فكان منزل أبي سلمة، وعامر بن ربيعة، وعبد الله بن جَحْش، وأخيه عبد بن جَحْش على مُبَشِّر بن عبد المنذر من بني عمرو بن عوف في قُباء^(١).

ثمَّ خرج عمر بن الخطَّاب، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي، فروى ابن اسحاق عن نافع مولى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر قال : لما أردنا الهجرة الى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام ابن العاصي بن وائل السهمي، تواعدنا (أشجار) التناضب فوق (منزل) سرف (على ستة أميال من مكة) وقلنا : أيُّنا لم يصبح عندها فقد حُبِس فليمض صاحبا. فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند (أشجار) التناضب، وحُبِس عنا هشام وفُتِن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف في قُباء.

وكان عياش بن أبي ربيعة المخزومي ابن عمّ أبي جهل بن هشام المخزومي بل أخاه لأُمّه، فخرج أبو جهل وأخوه الحارث حتّى قدما علينا المدينة، وقالوا له : إن أمّك قد نذرت أن لا يمسّ رأسها مشط ولا تستظلّ من شمس حتّى تراك ! فقلت له : يا عياش إنه والله إن يريدك القوم الا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم. فقال : أبرّ قسمي ولي هناك مالٌ فأخذه، فأبى الا أن يخرج معها.

فخرج معها، حتّى اذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا أخي والله لقد استغلظتُ بعيري هذا أفلا تُعقِبي على ناقتك هذه ؟ قال : بلى. فأناخ وأناخا ليتحوّل، فلما استوا بالارض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه، ثمَّ دخلا به مكة وفتناه فافتتن.

وكان عمر بن الخطاب حين قدم المدينة قد نزل على رفاعه بن عبد المنذر من بني عمرو بن عوف في قُباء، ولحق به من أهله وقومه : اخوه زيد ابن الخطاب، وصهره خنيس بن حذافة السهمي، وحلفاؤهم : واقد بن عبد الله التيمي، وخوليّ بن أبي خوليّ وأخوه مالك، وسعيد بن زيد وإياس بن بكير، وإخوانه : عاقل وعامر وخالد. ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت أخي حسان بن ثابت من بني النجار.

وهاجر عبد الرحمن بن عوف فنزل على سعد بن الربيع الخزرجي .
وهاجر ضُبيب بن سنان (الرومي) فروى ابن هشام عن أبي عثمان النهدي قال : لما اراد ضُبيب الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صُعلوكاً حقيراً فكثير مالك عندنا وبلغت الذي بلغت ثم تريد ان تخرج بمالك ونفسك؟! والله لا يكون ذلك! فقال لهم ضُبيب : رأيتم ان جعلت لكم مالي أتخلّون سبيلي؟! قالوا : نعم. قال : فاني جعلت لكم مالي. ثم هاجر فنزل على خُبيب بن أساف الخزرجي بالسُخ ومعه طلحة بن عبيد الله. فلما بلغ رسول الله أمر ضُبيب قال : ربح ضُبيب! ربح ضُبيب!

ونزل الزبير بن العوّام على منذر بن محمّد من بني جحججى بالعُصبة، ومعه أبو سبرة. ونزل : مُصعب بن عُمير بن هاشم على سعد بن مُعاذ (هذه المرة).
وهاجر من بني عبد المطلب : حمزة بن عبد المطلب فنزل على أسعد ابن زرارة (مكان مصعب). وهاجر معه موالى رسول الله : زيد بن حارثة وأبو كبشة، وأنسة، وحليفا حمزة : ابو مرثد الغنوي وابنه مرثد، فنزلوا على كلثوم بن هدم من بني عمرو بن عوف في قُباء، أو : سعد بن خيثمة، وكان عزباً فنزل عليه العُزّاب منهم.
ومن بني المطلب : مسطح بن أثاثه بن عبّاد بن المطلب، وبنو الحارث ابن المطلب. عبيدة وأخواه الطفيل والحُصين. ومعه سويبط بن سعد من بني عبد الدار،

وطليب بن عمير، وخبّاب (بن الأرت) مولى عتبة بن غزوان، فنزلوا على عبد الله بن سلمة في قُباء.

ونزل مولى خبّاب : عتبة بن غزوان وابو حذيفة عتبة بن ربيعة، وسالم مولاه، على عبّاد بن بشر من بني عبد الأشهل.

ولم يتخلف بمكة أحد من المهاجرين الا من حُبس أو فتن، الا عليّ ابن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة. وأقام رسول الله بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة^(١).

وعُلم من هنا أن عبيدة بن الحارث بن المطلب واخوانه وموالي رسول الله : زيد بن حارثة وأبا كبشة وأنسة كانوا قد هاجروا، ولعلّ ذلك كان قبل بيعة العقبة الاولى فضلاً عن الثانية ولذلك لا يوجد لهم ذكر أو أثر فيها، بل روى ابن اسحاق أن العباس حضرها يتوثق لابن أخيه وهو عليّ دين قومه، وقد مرّ الكلام فيه.

وقد ذكر عن ابن عباس قال : كان أبي من المستضعفين من الرجال، وأمّي كانت من المستضعفات من النساء، وكنتُ أنا من المستضعفين من الولدان، غلاماً صغيراً^(٢) ويقصد بالمستضعفين قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا ﴾^(٣) فإن صحّ قوله عن نفسه وأمّه فالله أعلم بأبيه.

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ١١٨ - ١٢٣.

(٢) مجمع البيان ٣ : ١٥٠.

(٣) النساء : ٩٧ - ٩٩.

الفصل العاشر

الهجرة النبوية المباركة

شورى دار الندوة:

روى العياشي في تفسيره عن زرارة وحران ومحمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال : إن قريشاً اجتمعت فخرج من كل بطن أناس ، فانطلقوا الى دار الندوة ليشاوروا فيما يصنعون برسول الله صلى الله عليه وآله ، فاذا هم بشيخ قائم على الباب ، واذ ذهبوا ليدخلوا قال : أدخلوني معكم . قالوا : ومن أنت ؟ يا شيخ ، قال : أنا شيخ من مضر ، ولي رأي أشير به عليكم .

فدخلوا وجلسوا وتشاوروا وهو جالس ، وأجمعوا أمرهم على أن يخرجوه .

فقال : ليس هذا لكم برأي ، ان اخرجتموه أجلب عليكم الناس فقاتلوكم . قالوا : صدقت ما هذا برأي . ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يؤثقوه . قال : هذا ليس بالرأي ، إن فعلتم هذا ، ومحمد رجل حلو اللسان أفسد عليكم أبناءكم وخدمكم ، وما ينفع أحدكم اذا فارقه أخوه وابنه أو امرأته ؟!

ثمّ تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يقتلوه، يُخرجون من كل بطن منهم بشاب فيضربونه بأسيا فهم جميعاً^(١).

وروى الصدوق في «الخصال» بسنده عن جابر الجعفي عن الباقر عن علي عليه السلام قال: إن قريشاً لم تزل تجيل الآراء وتعمل الحيل في قتل النبي حتى كان آخر ما اجتمعت عليه في يوم الدار دار الندوة... فلم تزل تضرب أمرها ظهراً لبطن حتى اجتمعت آراؤها على أن ينتدب من كل فخذ من قريش رجل، ثم يأخذ كل رجل منهم سيفه ثم يأتي النبي وهو نائم على فراشه، فيضربونه جميعاً بأسيا فهم ضربة رجل واحد فيقتلوه، فاذا قتلوه منعت قريش رجالها ولم تسلمهم، فيمضي دمه هذراً^(٢).

وقال القمي في تفسيره: اجتمعوا في دار الندوة، وكان لا يدخل دار الندوة إلا من أتى عليه أربعون سنة، فدخلوا أربعون رجلاً من مشايخ قريش.

وجاء ابليس في صورة شيخ كبير، فقال له البواب: من أنت؟ فقال: أنا شيخ من أهل نجد^(٣)، لا يعدمكم مني رأي صائب، إني حيث بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل جئت لأشير عليكم. فقال الرجل: ادخل، فدخل ابليس.

فلما أخذوا مجلسهم قال أبو جهل: يا معشر قريش، إنّه لم يكن أحد من العرب أعزّ منّا، نحن أهل الله تغدوا إلينا العرب في السنة مرتين، ويكرمونا، ونحن في حرم الله لا يطمع فينا طامع، فلم نزل كذلك حتى نشأ فينا محمد بن عبد الله،

(١) تفسير العياشي ٢ : ٥٤.

(٢) الخصال : ٣٦٧.

(٣) نقل السهيلي في (الروض الأنف) عن بعض أهل السيرة أنهم قالوا: لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة لأن هواهم مع محمد، فلذلك تمثل لهم ابليس في صورة شيخ نجد. كما عنه في هامش سيرة ابن هشام ٢ : ١٢٤، والخبر في السيرة عن ابن عباس.

فكنا نسميه الأمين لصلاحه وسكونه وصدق لهجته، حتى إذا بلغ ما بلغ واکرمناه ادعى أنه رسول الله وأن أخبار السماء تأتيه، فسفه أحلامنا وسب آلهتنا وأفسد شبابنا وفرّق جماعتنا، وزعم أنه من مات من أسلافنا في النار، فلم يرد علينا شيء أعظم من هذا! وقد رأيت فيه رأياً.

قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن ندسّ إليه رجلاً منا ليقتله فان طلبت بنو هاشم بديته أعطيناهم عشر ديات.

فقال الخبيث: هذا رأي خبيث! قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأنّ قاتل محمد مقتول لا محالة، فمن ذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم؟ فانه إذا قتل محمد تعصب بنو هاشم وحلفاؤهم من خزاعة، وإنّ بني هاشم لا ترضى أن يمشي قاتل محمد على الأرض فتقع بينكم الحروب في حرمكم وتتفانوا.

فقال آخر منهم: فعندي رأي آخر. قالوا: وما هو؟ قال: نثبته في بيت ونلقي إليه قوته حتى يأتي عليه ريب المنون، فيموت، كما مات زهير والنابعة وامروء القيس.

فقال ابليس: هذا أخبث من الآخر! قالوا: وكيف ذلك؟

قال: لأن بني هاشم لا ترضى بذلك، فاذا جاء موسم من مواسم العرب استغاثوا بهم واجتمعوا عليكم فأخرجوه.

قال آخر منهم: لا، ولكنّا نُخرجه من بلادنا ونتفرغ لعبادة آلهتنا.

قال ابليس: هذا أخبث من الرأيين المتقدمين! قالوا: وكيف ذلك؟ قال:

لأنكم تعمدون إلى أصبح الناس وجهاً وأنطق الناس لساناً وأفصحهم لهجة فتحملونه إلى وادي العرب فيخذعهم ويسحرهم بلسانه، فلا يفجاكم الا وقد ملأها عليكم خيلاً ورجلاً.

فبقوا حائرين... ثم قالوا لابليس: فما الرأي فيه يا شيخ؟ قال: ما فيه الا رأي واحد.

قالوا: وما هو؟ قال: يجتمع من كل بطن من بطون قريش واحد، ويكون معهم من بني هاشم رجل، فيأخذون سكيناً أو حديدة أو سيفاً فيدخلون عليه فيضربونه كلهم ضربة واحدة حتى يتفرق دمه في قريش كلها فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه وقد شاركوا فيه، فان سألوكم أن تعطوا الدية فاعطوهم ثلاث ديات. فقالوا: نعم وعشر ديات... ثم قالوا: الرأي رأي الشيخ النجدي. ونزل جبرئيل على رسول الله وأخبره الخبر^(١).

وروى الطوسي في أماليه بسنده عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر حديثاً في مبيت علي عليه السلام على فراش رسول الله وهجرته الى المدينة، صدره عن سنان بن أبي سنان عن هند بن أبي هالة ربيب رسول الله ﷺ من خديجة، وسأله عن أبيه محمد بن عمار عن أبيه عمار بن ياسر، وعن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه أبي رافع مولى النبي ﷺ، قالوا:

انطلق ذوو الطول والشرف من قريش الى دار الندوة ليرتأوا ويأتمروا في رسول الله ﷺ وأسروا ذلك فيما بينهم.

فقال بعضهم - وهم العاص بن وائل السهمي وأمّية بن أبي خلف الجُمحي - نبني له علماً ويترك بَرَحاً نستودعه فيه، فلا يخلص اليه أحد من الصُباة فيه، ولا يزال في رفق من العيش حتى يتضيّفه ريب المنون.

فقال أبو سفيان وعتبة وشيبة ابنا ربيعة: إنا نرى أن نُرحل بعيراً صعباً ونوثق محمدًا عليه كتافاً وشدّاً، ثم نقصع البعير بأطراف الرماح فيوشك أن يقطعه بين الدكادك ارباً ارباً!

فقال صاحب رأيهم: إنكم لم تصنعوا بقولكم هذا شيئاً، أرايتم إن خلص به البعير سالماً الى بعض الأفاريق فأخذ بقلوبهم سحره وبيانه وطلاقة لسانه فصبا

القوم اليه واستجابت القبائل له قبيلة فقيلة، فليسيرن اليكم حينئذٍ بالكتائب والمقائب، فلتهلكن كما هلكت ايام ومن كان قبلكم. قولوا قولكم.

فقال أبو جهل: لكن أرى لكم أن تعدوا الى قبائلكم العشرة فتندبوا من كل قبيلة منها رجلاً نجداً، ثم تسلحوا سلاحاً عضباً، وتتمهل الفتية حتى اذا غسق الليل وغور بيئتوا بابن أبي كبشة بياتاً، فيذهب دمه في قبائل قريش جميعاً، فلا يستطيع بنو هاشم وبنو المطلب مناهضة قبائل قريش في صاحبهم، فيرضون حينئذٍ بالعقل^(١) منهم.

فقال صاحب رأيهم أصبت يا أبا الحكم. ثم أقبل عليهم فقال: هذا الرأي فلا تعدلن به رأياً، وأوكتوا في ذلك أفواهكم حتى يستتب أمركم. ثم خرج القوم. فسبقهم جبرئيل بالوحي بما كان من كيدهم^(٢).

علي عليه السلام والمبيت في فراش النبي صلى الله عليه وآله:

قال: ولما أخبر النبي جبرئيل عليه السلام بأمر الله في ذلك ووحيه وما عزم له من الهجرة، دعا رسول الله علي بن أبي طالب لوقته فقال له: يا علي، إن الروح هبط عليّ يخبرني أن قريش اجتمعت عليّ المكر بي وقتلي، وإنه أوحى الي عن ربي عزوجل أن أهجّر دار قومي وأن أنطلق الى غار ثور تحت ليلتي، وإنه أمرني أن أمرك بالمبيت عليّ مضجعي لتخفي بمبيتك عليه أثري، فما أنت صانع؟

فقال علي عليه السلام: أو تسلمن بميتي هناك يا نبي الله؟ قال: نعم. فتبسّم عليّ ضاحكاً وأهوى الى الأرض ساجداً شكراً لما أنبأه رسول الله به من سلامته،

(١) العقل هنا: الدية، ومنه عاقلة الرجل.

(٢) أمالي الطوسي: ٤٦٣ - ٤٦٥، الحديث ٣٥.

فكان علي - صلوات الله عليه - أول من سجد لله شكراً، وأول من وضع وجهه على الأرض بعد سجده من هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ.

فلما رفع رأسه قال له علي عليه السلام : إمض بما أمرت، فذاك سمعي وبصري وسويداء قلبي، ومُرني بما شئت... وإن توفيتني إلا بالله... فقال له : فارقد علي فراشي واشتمل ببردي الحضرمي، ثم اني اخبرك يا علي أن الله تعالى يمتحن أولياءه على قدر إيمانهم ومنازلهم من دينه، فأشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، وقد امتحنك يا بن عم وامتحنني فيك بمثل ما امتحن به خليله ابراهيم والذبيح اسماعيل عليه السلام، فصبراً صبراً، فان رحمة الله قريب من المحسنين، ثم ضمّه النبي ﷺ الى صدره وبكى وجداً به، وبكى علي عليه السلام جشعاً لفراق رسول الله ﷺ (١).

كيفية هجرة النبي ﷺ الى المدينة:

قال : واستتبع رسول الله ﷺ أبا بكر بن أبي قحافة (٢) وهند بن أبي هالة فأمرهما

(١) م. ن.

(٢) روى العياشي في تفسيره ١ : ١٠١ عن ابن عباس قال : وجاء أبو بكر - وعلي عليه السلام نائم - وهو يحسب أنه نبي الله (فلما رآه علياً) قال : أين نبي الله ؟ قال علي : إن نبي الله قد انطلق نحو بئر ميمون، فأدركه. فانطلق ابو بكر فدخل معه الغار.

وقال الطبري في تاريخه ٢ : ٣٧٤ مشيراً الى هذا : وقد زعم بعضهم : أن أبا بكر أتى علياً فسأله عن نبي الله، فأخبره : أنه لحق بالغار من ثور وقال : ان كانت لك فيه حاجة فالحقه. فخرج أبو بكر مسرعاً فلحق نبي الله في الطريق، فسمع جرس أبي بكر في ظلمة الليل فحسبه من المشركين، فأسرع رسول الله المشي فانقطع قبالة نعله ففلق ابهامه حجر فكثر دمها، وأسرع السعي، فخاف أبو بكر أن يشق على رسول الله ﷺ فرفع صوته وتكلم فعرفه رسول الله فأقام حتى أتاه، فانطلقا، ورجل رسول الله ﷺ تسنّ دماً حتى انتهى الى الغار مع الصبح فدخله.

أن يقعدا له بمكان ذكره لهما من طريقه الى الغار. ولبت رسول الله بمكانه مع علي عليه السلام يوصيه ويأمره في ذلك بالصبر حتى صلى العشاءين، ثم خرج في فحمة العشاء الآخرة، والرصد من قريش قد أطافوا بداره ينتظرون أن ينتصف الليل وتنام الأعين، فخرج وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ^(١) وأخذ بيده قبضة من تراب فرمى بها على رؤوسهم، فما شعر القوم به حتى تجاوزهم ومضى حتى أتى الى هند وأبي بكر

→ وأصبح الرهط الذين كانوا يرصدون رسول الله فدخلوا الدار، وقام علي عليه السلام عن فراشه، فلما دنوا منه عرفوه فقالوا له : أين صاحبك؟ قال : لأدري أو كنت رقيباً عليه، أمرتموه بالخروج فخرج، فانتهروه وضربوه وأخرجوه الى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه.

وجاء الحبس في خبر رواه الرضي في «الخصائص» : عن علي عليه السلام قال : كنت على فراش رسول الله وقد طرح علي ريطته، فأقبلت قريش مع كل رجل منهم هراوة فيها شوكة، فلم يبصروا رسول الله حيث خرج، فأقبلوا علي يضربوني بما في أيديهم حتى تنفّض جسدي وصار مثل البيض، ثم انطلقوا بي يريدون قتلي، فقال بعضهم : لا تقتلوه الليلة، ولكن أخره واطلبوا محمداً. فأوثقوني بالحديد وجعلوني في بيت (قرب البيت الحرام) واستوثقوا مني ومن الباب بقفل فبينما أنا كذلك، اذ سمعت صوتاً من جانب البيت يقول : يا علي ! فسكن الوجع الذي كنت أجده، وذهب الورم الذي كان في جسدي، ثم سمعت صوتاً آخر يقول : يا علي فاذا الحديد الذي علي قد تقطع، ثم سمعت صوتاً : يا علي، فاذا الباب قد تساقط ما عليه وفتح. فقامت وخرجت، وقد كانوا جاؤوا بعجوز كمهاء لا تبصر ولا تنام تحرس الباب، فخرجت عليها وهي لا تعقل من النوم. خصائص الأئمة : ٨٥. ومن المستبعد جداً أن يكون أبو بكر قد علم باتجاه الرسول بالسؤال من علي عليه السلام في فراش الرسول في حصار المشركين وهم يرمونه، بل المتجه ما ذكره القطب الراوندي في الخرائج والجرائح : ١٤٣ الحديث ٢٣١، قال النبي لأصحابه : لا يخرج الليلة أحد من داره. وكما في بحار الأنوار ١٩ : ٧٣.

فنهضا معه حتى وصلوا الى الغار، ثم رجع هند الى مكة بما أمره به رسول الله، ودخل رسول الله وأبو بكر الغار.

فلما غلق الليل أبوابه وأسدل أستاره وانقطع الأثر أقبل القوم على علي عليه السلام يقدفونه بالحجارة فلا يشكّون أنه رسول الله حتى اذا برق الفجر وأشفقوا أن يفضحهم الصبح هجموا على علي عليه السلام - وكانت دور مكة يومئذ سوائب لا أبواب لها - فلما بصر بهم علي عليه السلام قد انتضوا السيوف وأقبلوا عليه بها يقدمهم خالد بن الوليد بن المغيرة وثب علي فختله وهمز يده فجعل خالد يقمص قمص البكر ويرغو رغاء الجمل ويذعر ويصيح، وهم في عرج الدار من خلفه، وشدّ عليهم علي عليه السلام بسيفه - يعني سيف خالد - فاجفلوا أمامه إجمال النعم الى ظاهر الدار، وتبصّروه فاذا علي عليه السلام، قالوا: وانك لعلي؟ قال: أنا علي، قالوا: فأنّا لم نردك فما فعل صاحبك؟ قال: لا علم لي به. فاذكت قريش عليه العيون وركبت في طلبه الصّعب والذلول^(١).

وقال القمي في تفسيره: فلما أمسى رسول الله جاءت قريش ليدخلوا عليه فقال أبو لهب: لا أدعكم أن تدخلوا بالليل فان في الدار صبيانا ونساءً ولانأمن أن تقع بهم يد خاطئة، فنحرسه الليلة فاذا أصبحنا دخلنا عليه. فناموا حول حجر رسول الله ﷺ.

وأمر رسول الله أن يفرش له وفرش له، فقال لعلي بن أبي طالب: أفدني بنفسك، قال: نعم يا رسول الله. قال: ثم على فراشي والتحف ببردي. فنام علي فراش رسول الله والتحف ببردته.

وجاء جبرئيل فأخذ بيد رسول الله فأخرجه على قريش وهم نيام وهو يقرأ عليهم : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ وقال له جبرئيل : خذ على طريق ثور. وهو جبل على طريق منى له سنام كسنام الثور. فدخل الغار^(١).

وروى الطوسي في أماليه بسند عن الواقدي بسنده عن ابن عباس قال : اجتمع المشركون في دار الندوة ليتشاوروا في أمر رسول الله، وأتى جبرئيل رسول الله فأخبره الخبر، وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة. فلما أراد رسول الله المبيت أمر علياً عليه السلام أن يبيت في مضجعه صلى الله عليه وسلم. فبات علي عليه السلام وتغشى ببرد أخضر حضرمي كان لرسول الله ينام فيه، وجعل السيف الى جنبه. فلما اجتمع اولئك نفر من قريش يطوفون ويرصدونه يريدون قتله، خرج رسول الله وهم جلوس على الباب خمسة وعشرون رجلاً، فأخذ حفنة من البطحاء ثم جعل يذرّها على رؤوسهم وهو يقرأ ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ حتّى بلغ ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فقال لهم قائل : ما تنتظرون ؟ قالوا : محمّداً. قال : خبتم وخسرتم قد والله مرّ بكم فما منكم رجل الا وقد جعل على رأسه تراباً! قالوا : والله ما أبصرناه!^(٢).

وروى الحبري في «ما نزل من القرآن في أهل البيت» بسنده عن ابن عباس أيضاً قال : لما انطلق النبي صلى الله عليه وسلم الى الغار فأنام علياً عليه السلام مكانه وألبسه بُرده وجاءت قريش تريد أن تقتل النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا يرمون علياً وهم يرون أنّه

(١) تفسير القمي ١ : ٢٧٥، ٢٧٦ ونقله الطبرسي في اعلام الوری ١ : ١٤٧، ١٤٨ والقطب الراوندي في قصص الأنبياء : ٣٣٥-٣٣٧.

(٢) أمالي الطوسي : ٤٤٥ الحديث ٩٩٥ ورواه ابن اسحاق عن محمّد ابن كعب القرظي ٢ : ١٢٧.

النبي ﷺ فجعل يتضور^(١) فنظروا فاذا هو علي عليه السلام فقالوا : إنك النائم؟! لو كان صاحبك ما تضور، لقد استنكرنا ذلك^(٢).

وروى الطوسي في أماليه بسنده عن الحسن البصري عن أنس بن مالك قال : لما توجه رسول الله الى الغار - ومعه أبو بكر - أمر النبي علياً أن ينام على فراشه ويتغشى ببردته . فبات علي موطناً نفسه على القتل . وجاءت رجال من قريش من بطونها يريدون قتل رسول الله ، فلما أرادوا أن يضعوا أسيافهم فيه لا يشكون أنه محمد ، أيقظوه فأروه علياً فتركوه وتفرقوا في طلب رسول الله^(٣).

وقال القمي في تفسيره : فلما أصبحت قريش أتوا الى الحجرة وقصدوا الفراش ، فوثب علي عليه السلام في وجوهم وقال : ما شأنكم ؟ قالوا له : أين محمد ؟ قال : أجعلتموني عليه رقيباً ؟ أستم قلتم تخرجه من بلادنا ؟! فقد خرج عنكم . فأقبلوا يضربون أبا هب ويقولون له : أتخذنا منذ الليلة ؟! وكان فيهم رجل من خزاعة يقال له : أبو كرز ، يقفو الآثار ، فقالوا له :

(١) التضور : التلوي والأتين من الألم .

(٢) ما نزل من القرآن في أهل البيت عليهم السلام : ٤٧ ، ورواه العياشي ١ : ١٠١ والفرات : ٦٦ الحديث ٣٣ ، والبرهان ١ : ٢٠٧ وروى مختصره الطبرسي في إعلام الوري ١ : ٣٧٤ . هذان خبران عن ابن عباس وليس فيها ما رواه عنه ابن اسحاق في سيرته برواية ابن هشام قال : قال لعلي بن أبي طالب : ثم علي فراشي وتسج بردي هذا الحضرمي الأخضر فثم فيه ، فانه لن يخلص انيك شيء تكرهه منهم . ابن اسحاق في السيرة ٢ : ١٢٦ ، ١٢٧ بل سيأتي في رواية الطوسي عن الثلاثة : عمار بن ياسر وأبي رافع وهند بن أبي هالة : أن الرسول ﷺ انما قال ذلك له بعد نهاية الأمر حين اللقاء به في الغار . بل روى عن الحسن البصري عن أنس بن مالك : أن علياً بات تلك الليلة موطناً نفسه على القتل . ولكنهم وضعوا ذلك ليضعوا من معنى التضحية والنداء في زوج الزهراء عليها السلام .

(٣) أمالي الطوسي : ٤٤٦ الحديث ٤ وعنه في بحار الأنوار ١٩ : ٥٥ .

يا أبا كرز اليوم اليوم! فوقف بهم على حجرة رسول الله فقال: هذه قدم محمد، والله انها لأخت القدم التي في المقام^(١) هذه قدم ابن أبي قحافة أو أبيه، فما زال بهم حتى أوقفهم على باب الغار ثم قال: ما جاوزوا هذا المكان، إمّا أن يكونا صعدا الى السماء أو دخلا تحت الأرض.

وبعث الله العنكبوت فنسجت على باب الغار... وصرفهم الله عن رسوله فتفرقوا^(٢).

وقال الطبرسي في «إعلام الوري»: وخرج القوم في طلبه، فعَمِيَ الله أثره وهو نصب أعينهم، وصدّهم عنه وأخذ بأبصارهم دونه، وهم دُهاة العرب، وبعث الله العنكبوت فنسجت في وجه الغار فسترته وأيسهم ذلك من الطلب. وبعث الله حمامتين وحشيتين فوقفتا بقم الغار^(٣).

وأقبل فتیان قريش من كلّ بطن رجل بعصيّهم وهراويهم وسيوفهم حتى اذا كانوا من النبيّ بقدر أربعين ذراعاً (عشرين متراً) تقدم رجل منهم لينظر من في الغار، ورجع الى أصحابه فقالوا له: ما لك لا تنظر في الغار؟ فقال: رأيت حماماً بقم الغار فعلمت أن ليس فيه أحد. وسمع النبيّ ما قال فدعا لهن وفرض جزاءهن فاتخذن في الحرم^(٤).

(١) مقام ابراهيم، وهي قدمه.

(٢) تفسير القمي ١: ٢٧٣ - ٢٧٦ ونقله الطبرسي في اعلام الوري ١: ١٤٧، ١٤٨ والقطب الراوندي في قصص الأنبياء: ٣٣٥ - ٣٣٧ وفي الخرائج والجرائح ١: ٤٤ ح ٢٣١ وذكر اسم الرجل: أبا كرز.

(٣) نقله ابن شهر آشوب عن زيد بن أرقم بن مالك والمغيرة بن شعبة في مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٨.

(٤) ونقله ابن شهر آشوب عن الزهري في مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٨.

وفي ذلك يقول السيد الحميري في قصيدته المعروفة بالذهبة :

حتى اذا قصدوا لباب مغارة ألفوا عليه نسيج غزل العنكب

صنع الاله له ، فقال فريقهم : ما في المغار لطالب من مطلب

ميلوا . وصدهم المليك ، ومن يرد عنه الدفاع مليكة ، لم يَغْطَب^(١)

وأ مهل علي عليه السلام حتى اذا أعم في الليلة القابلة فانطلق هو وهند بن أبي هالة حتى دخلا على رسول الله في الغار ، فأمر رسول الله هنداً أن يبتاع له ولصاحبه بعيرين ، فقال أبو بكر : قد كنت أعددت لي ولك - يا نبي الله - راحلتين نرتحلها الى يثرب . فقال صلى الله عليه وآله : اني لا آخذهما ولا احداهما إلا بالثمن . فقال : فهي لك بذلك . فأمر صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام فأقبضه الثمن^(٢) ثم وصّاه بحفظ ذمته وأداء أمانته .

وكانت قريش في الجاهلية تدعو محمداً : الأمين ، فكانت تستودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها ، وكذلك من يقدم مكة من العرب في الموسم ، وجاءته النبوة والرسالة والأمر كذلك . فأمر علياً عليه السلام أن يقيم صارخاً يهتف بالابطح غدوة وعشيّاً : من كان له قبّل محمد أمانة أو وديعة فليأت فلتؤدّ اليه أمانته . ثم قال له : انهم لن يصلوا اليك من الآن - يا علي - بأمر تكرهه حتى تقدم عليّ ، فأدّ أمانتي عليّ أعين الناس ظاهراً .

ثم إني مستخلفك عليّ ابنتي فاطمة ، ومستخلف ربّي عليكما ومستحفظه فيكما .

ثم أمره أن يبتاع رواحل له وللنواظم ومن أزمع للهجرة من بني هاشم وقال له : فاذا قضيت ما أمرتك من أمر فكن عليّ أهبة الهجرة الى الله ورسوله ،

(١) إعلام الوري ١ : ٧٩ .

(٢) وقال بمعناه ابن إسحاق ، كما في السيرة ٢ : ١٣١ .

وسر اليّ لقدوم كتابي عليك ولا تلبث. ثم مكث في الغار ثلاثاً ثم انطلق لوجهه يوم المدينة^(١).

وقال الطبرسي: خلفه النبي ﷺ ليخرج أهله فأخرجهم، وأمره أن يؤدّي عنه أماناته ووصاياه وما كان بمؤمن عليه. فأدّى علي عليه السلام أماناته كلها^(٢).

وقال ابن شهر آشوب: واستخلفه الرسول لردّ الودائع، لأنّه كان أميناً... قام على الكعبة فنادى بصوت رفيع: يا أيّها الناس، هل من صاحب أمانة؟ هل من صاحب وصية؟ هل من صاحب عِدَةٍ له قبلَ رسول الله. فلما لم يأت أحد لحق بالنبي ﷺ^(٣).

ولكن الطبرسي في «إعلام الوري» نقل ما قاله القمي في تفسيره وأضاف: خرج رسول الله من الغار فرأى راعياً لبعض قريش يقال له: ابن أريقط، فدعاه رسول الله وقال له: يا ابن أريقط، أءتمنك على دمي؟ قال: إذا أحرسك وأحفظك ولا أدلّ عليك، فأين تريد يا محمد؟ قال: يثرب. قال: والله لأسلكن بك مسلماً لا يهتدي إليه أحد... فقال له رسول الله: إئت علياً وبشره بأن الله قد أذن لي في الهجرة فيهيء لي زاداً وراحلة.

وقال له أبو بكر: إئت أسماء بنتي وقل لها: تُهيئي لي زاداً وراحتين، وأعلم عامر بن فهيرة أمرنا - وكان من موالى أبي بكر وقد أسلم - وقل له: ائتنا بالزاد والراحتين.

(١) أمالي الطوسي: ٤٦٧، ٤٦٨ كما في بحار الأنوار ١٩: ٦٣ وحلية الأبرار: ٩٠.

(٢) إعلام الوري ١: ٣٧٤، ٣٧٥.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٢: ٥٧.

فجاء ابن أريقط الى علي عليه السلام وأخبره بذلك. فبعث علي بن أبي طالب الى رسول الله بزاز وراحلة، وبعث ابن فهيرة بزاز وراحتين^(١).

ولكنه (الطبرسي) عاد في ذكر مقامات علي عليه السلام فروى مختصر خبر ابن أبي رافع عن علي بن ابراهيم بن هاشم قال: كان علي عليه السلام يجهز النبي صلى الله عليه وآله حين كان في الغار يأتيه بالطعام والشراب، واستأجر له ثلاث رواحل للنبي ولأبي بكر ولدليلهم^(٢).

ونقل ابن شهر آشوب عن الثعلبي في تفسيره وابن عقب في ملحمة وأبي السعادات في (فضائل العشرة)، والغزالي في (الاحياء) وفي (كيمياء السعادة) برواياتهم عن أبي اليقظان (عمار بن ياسر) ومن الخاصة: ابن بابويه وابن شاذان والكليني والطوسي وابن عقدة وابن فياض والبدلي والصفواني والثقي بأسانيدهم عن ابن عباس وأبي رافع وهند بن أبي هالة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: أوحى الله الى جبرئيل وميكائيل أني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر صاحبه. فأيتكما يؤثر أخاه؟ فكلأهما كرها الموت.

فأوحى الله اليهما: ألا كنتما مثل وليي علي بن أبي طالب: آخيت بينه وبين محمد نبي فآثره بالحياة على نفسه، فظل علي فراشه يقيه بمهجته، اهبطا الى الأرض فاحفظاه من عدوه.

فهبط جبرئيل فجلس عند رأسه وميكائيل عند رجله وجعل جبرئيل يقول: بخ بخ! من مثلك يا ابن أبي طالب والله يباهي به الملائكة؟! وأنزل الله فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾^(٣).

(١) إعلام الوري ١ : ١٤٨.

(٢) اعلام الوري ١ : ٣٧٤، ٣٧٥ عن القمي ولم نجده في تفسيره.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٢ : ٦٤، ٦٥ والكليني في الروضة : ١١٩ والطوسي في ←

منازل الطريق:

قال الطبرسي في «إعلام الوري» في تنمة خبر علي بن ابراهيم القمي : وخرج رسول الله من الغار وأخذ به ابن أريقط على طريق نخلة بين الجبال ، فلم يرجعوا الى الطريق (الأعظم) الا بقديد^(١).

فزلوا على أم معبد هناك^(٢). وكانت امرأة برزة تحبىء وتجلس بفناء الخيمة ، فسألوا تمرأً ولحماً ليشتروه فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، واذا القوم مُرملون ، وقالت : لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى . فنظر رسول الله في كسر خيمتها فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم . فقال : هل بها من لبن ؟ قالت : هي أجهد من ذلك . قال : أتأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت : نعم بأبي أنت وأمي ان رأيت بها حلباً فاحلبها . فدعا رسول الله بها فمسح ضرعها وذكر أسم الله وقال : اللهم بارك في شاتها . فتفاجت ودرت ! فدعا رسول الله باناء لها

→ الأمالى : ٤٦٩ والكراجكي في كنز الفوائد عن الخطيب الخوارزمي في مناقبه . واليعقوبي ٢ : ٣٩ ط بيروت . والآية في البقرة : ٢٠٧ .

(١) قاله ابن اسحاق في سيرته وأضاف : ثم أجاز بها فسلك بها الحرار ، ثم سلك بها ثنية المرة ، ثم سلك بها لفتاً أو لققاً ، ثم أجاز بها مدلجة لقف ، ثم استبطن بها مدلجة مجاح او محاج ، ثم سلك بها مرجح مجاح ، ثم تبطن بها مرجح ذي العضوين او العضوين ثم بطن وادي ذي كثر ، ثم أخذ بها على الجداجد ثم على الأجرد ، ثم سلك بها ذا سلم من بطن مدلجة يغبين ، ثم على العبايد او العبايب او العيثانة ، ثم أجاز بها الفاجة أو القاحة ، ثم هبط بها العرج ، ثم خرج بها دليلهما من العرج فسلك بها ثنية العائر او الغائر عن يمين ركوبة ، حتى هبط بطن يرثم ، ثم هبط بها قباء على بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول يوم الاثنين حين اشتد الضحى بل كادت الشمس أن تعتدل . ابن إسحاق في السيرة ٢ : ١٣٦ . وانظر خريطة مسيرة الهجرة في أطلس تاريخ الإسلام : ٦٩ برقم ٣٩ .

(٢) إعلام الوري ١ : ١٤٩ .

يُريض الرهط فحلب فيه ثَجًّا حَتَّىٰ عُلِّتْهُ ثَمَّالَتَهُ فَسَقَاها، فشربت حَتَّىٰ رُوِيَتْ، ثُمَّ سَقَىٰ أَصْحَابَهُ فَشَرَبُوا حَتَّىٰ رُؤُوا، فَشَرَبَ هُوَ آخِرَهُمْ وَقَالَ: سَاقِي الْقَوْمِ آخِرَهُمْ شَرِبًا. فَشَرَبُوا جَمِيعًا عِلًّا بَعْدَ نَهْلٍ حَتَّىٰ أَرَاضُوا، ثُمَّ حَلَبَ فِيهِ ثَانِيًا عَوْدًا عَلَىٰ بَدْءِ فَعَدُوا عِنْدَهَا ثُمَّ ارْتَحَلُوا عَنْهَا.

فَقَلَّمَا لَبِثَتْ أَنْ جَاءَ زَوْجُهَا أَبُو مَعْبُدٍ يَسُوقُ عَنَزًا عِجَافًا هُزْلًا، وَنُحَاجُجَهُنَّ قَلِيلًا، فَلَمَّا رَأَى اللَّبَنَ قَالَ: مَنْ أَيْنَ لَكُمْ هَذَا؟ وَالشَّاةُ عَازِبٌ وَلَا حَلُوبَ فِي الْبَيْتِ؟ قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ إِلَّا أَنَّهُ مَرَّبَنَا رَجُلٌ مَبَارَكٌ كَانَ مِنْ حَدِيثِهِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ^(١).

وَرَوَى الْكَلِينِيُّ فِي «رَوْضَةِ الْكَافِي» بِسَنَدِهِ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: كَانَتْ قَرِيشٌ قَدْ جَعَلَتْ لِمَنْ يَأْخُذُ رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا خَرَجَ مِنَ الْغَارِ مَتَوَجِّهًا إِلَى الْمَدِينَةِ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ، فَخَرَجَ سُراقَةُ بْنُ مَالِكٍ بْنُ جُعْشَمٍ فَيَمْنُ يَطْلُبُ، فَلَحِقَ بِرَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: اللَّهُمَّ اكْفِنِي شَرَّ سُراقَةٍ بَمَا شِئْتَ. فَسَاحَتْ قَوَائِمُ فَرَسِهِ، فَثَنَى رِجْلَهُ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي عَلِمْتُ أَنَّ الَّذِي أَصَابَ قَوَائِمَ فَرَسِي إِنَّمَا هُوَ مِنْ قَبْلِكَ، فَادْعِ اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ لِي فَرَسِي، فَلَعَمْرِي إِنْ لَمْ يَصْبِكُمْ مَنِي خَيْرٌ لَمْ يَصْبِكُمْ مَنِي شَرًّا. فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَطْلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَرَسَهُ، فَعَادَ فِي طَلَبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَلَّ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلَّ ذَلِكَ يَدْعُو رَسُولُ اللَّهِ فَتَأْخُذُ الْأَرْضُ قَوَائِمَ فَرَسِهِ، فَلَمَّا أَطْلَقَهُ فِي الثَّالِثَةِ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَذِهِ ابْنِي بَيْنَ يَدَيْكَ فِيهَا غَلَامِي، وَإِنْ احْتَجَجْتَ إِلَى ظَهْرٍ أَوْ لَبَنٍ فَخُذْ مِنْهُ، وَهَذَا سَهْمٌ مِنْ كِنَانَتِي عَلَامَةٌ، وَأَنَا أَرْجِعُ فَأَرُدُّ عَنْكَ الطَّلَبَ. فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لِي فِيمَا عِنْدَكَ^(٢).

(١) إعلام الوری ١: ٧٦ وذكره في الخرائج ١: ١٤٦، ١٤٧، ح ٢٣٤ وفيه أنه قصد رسول الله فآمن هو وأهله.

(٢) روضة الكافي: ٢١٩ وفي بحار الأنوار ١٧: ٣٧٨ و ١٩: ٨٨ عنه ومختصر الخبر في قرب الاسناد: ٢٤٨، الحديث ١٢٢١ عن الكاظم عليه السلام.

وذكر الطبرسي الخبر في «إعلام الوري» بلا رواية قال : وتبعه ﷺ وهو متوجه الى المدينة سُرّاقة بن جُعشم المدلجي طالباً غِرّته ليحظى بذلك عند قريش، حتّى اذا أمكنته الفرصة في نفسه وأيقن أن قد ظفر ببغيته، ساخت قوائم فرسه، حتّى تغيّبت بأجمعها في الأرض، وهو بموضع جذب وقاع صَفَصَف. فعلم أن الذي أصابه سماوي فنادى : يا محمّد أدع ربك يُطلق لي فرسي وذمة الله عليّ أن لا أدلّ عليك أحداً. فدعا له، فوثب جواده كأنّه أفلت من أنشوطة، وكان رجلاً داهية فعلم بما رأى أنّه سيكون له نبأ فقال : اكتب لي أماناً فكتب له وانصرف^(١).

فلما كان من الغد وافته قريش فقالوا : يا سُرّاقة هل لك علم بمحمّد؟ قال : قد بلغني أنّه قد خرج عنكم، وقد نفضت هذه الناحية لكم ولم أر أحداً ولا أثراً، فارجعوا فقد كفيتمكم ما ها هنا^(٢) فقال أبو جهل في أمر سُرّاقة أيباتاً، فأجابه سُرّاقة :
أبا حكم، والله لو كنت شاهداً لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمّداً نبيّ برهان، فمن ذا يقاومه
عليك بكف الناس عنه، فأنني أرى أمره يوماً ستبدو معالمه^(٣)

(١) إعلام الوري ١ : ٧٧، ٧٨.

(٢) إعلام الوري ١ : ١٤٩.

(٣) إعلام الوري ١ : ٧٨ نقلاً عن محمّد بن اسحاق، ولا توجد في سيرته برواية ابن هشام، فرواها المحققون في الهامش ٢ : ١٣٥ عن الروض الأنف للسيهلي. وانما نقله الطبرسي عنه عن دلائل النبوة للبيهقي ٢ : ٤٨٩. وقد صرح ابن هشام في مقدمته بحذفه كثيراً من الأشعار. وتام خبر الكتاب عند ابن اسحاق عن سُرّاقة قال : فكتب لي كتاباً في عظم أو رقعة أو خُرَفة (!) ثمّ ألقاه اليّ فأخذته فجعلته في كناتي ورجعت وسكت حتّى اذا كان فتح مكّة وفرغ من حنين والطائف فخرجت ومعني الكتاب لألقاه فلقيته بالجرعانة... فدنوت منه فاسلمت ثمّ رجعت الى قومي فسقت صدقتي اليه. سيرة ابن هشام ٢ : ٦٣٥. وروى البيهقي في البيتين الاولين اليعقوبي ٢ : ٤٠.

ونقله كذلك القطب الراوندي في «الخرائج والجرائح» قال : ولما خرج النبي ﷺ وهؤلاء أصبحوا من تلك الليلة التي خرجوا فيها في حيّ سُراقة ابن جُعشم ، فلما نظر سُراقة الى رسول الله قال : أتخذ يداً عند قريش ، وركب فرسه وقصد محمّداً . فقال أصحابه : لحق بنا هذا الشيطان ! فقال : إن الله سيكفينا شره ، فلما قرب قال : اللهم خذه ! فارتطم فرسه في الارض ، فصاح : يا محمّد خلّص فرسي ، لا سعت في مكروه أبداً . وعلم أنّ ذلك بدعاء محمّد ﷺ فقال : اللهم ان كان صادقاً فخلّصه ، فوثب الفرس فقال : يا أبا القاسم ستمر برّعائي وعبيدي ، فخذ سوطي ، فكل من تمرّ به فخذ ماشئت فقد حكمتك في مالي . فقال : لا حاجة في مالك . قال : فسلي حاجة قال : ردّ عنا من يطلبنا من قريش . فانصرف سُراقة فاستقبله جماعة من قريش في الطلب فقال لهم : انصرفوا عن هذا الطريق فلم يمر فيه أحد وأنا اكفيكم هذا ، وعليكم بطريق اليمن والطائف^(١) .

خروج علي عليه السلام بالفواطم:

مرّ في الخبر عن أمالي الطوسي : أن علياً عليه السلام أمهل حتى اعتم في الليلة القابلة ، فانطلق هو وهند بن أبي هالة حتى دخلا على رسول الله في الغار .. ثم أمره أن يبتاع له وللفواطم ومن يهاجر معه من بني هاشم وقال : فإذا قضيت ما أمرتك فكن على أهبة الهجرة ، ولقدوم كتابي عليك سر ولا تلبث .. إلى أن قال : ثم كتب رسول الله الى علي بن أبي طالب عليه السلام كتاباً يأمره فيه بالمسير اليه وقلة التلوّم ، وكان الرسول اليه أبا واقد الليثي .

فلما أتاه كتاب رسول الله ﷺ تهيأ للخروج والهجرة ، فأذن من كان

معه من ضعفاء المؤمنين وأمرهم أن يتسلّلوا ويتحفّظوا اذا ملأ الليل بطن الوادي الى ذي طوى^(١).

ونقل ابن شهر آشوب في «المناقب» عن البكري والطبراني والنجدي والواقدي : أن علياً عليه السلام لما عزم على الهجرة قال له العباس : إن محمداً صلى الله عليه وآله ما خرج الا خفياً، وقد طلبته قريش أشدّ الطلب، وأنت تخرج جهاراً في أثاث وهوداج ومال ورجال ونساء وتقطع بهم السباسب والشعاب من بين قبائل قريش؟! ما أرى لك أن تمضي الا في خفارة خُزاعة. فقال علي عليه السلام :

إِنَّ الْمَنِيَّةَ شَرِبَةً مَوْدُودَةً	لَا تَنْزَعَنَّ، وَشُدَّ لِلتَّرْحِيلِ
إِنَّ ابْنَ أَمْنَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا	رَجُلٌ صَدُوقٌ قَالَ عَنْ جَبْرِيلَ
أَرْخِ الزَّمَامَ وَلَا تَخَفْ مِنْ عَائِقَ	فَاللَّهُ يُرْدِيهِمْ عَنِ التَّنْكِيلِ
إِنِّي بِرَبِّي وَاثِقٌ وَبِأَحْمَدَ	وَسَبِيلِهِ مِتْلَاحِقٌ بِسَبِيلِي

قالوا : فكمن مُهلَع غلام حنظلة بن أبي سفيان في طريقه بالليل، فلما رآه سلّ سيفه ونهض اليه، فصاح عليّ صيحة فخرّ منها عليّ وجهه وجلّله بسيفه، فلما أصبح توجه نحو المدينة، فلما شارف ضجنان أدركه الطلب ثمانية فوارس^(٢).

وخرج علي عليه السلام بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وأُمّه فاطمة بنت أسد ابن هاشم، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب - وقيل : هي ضُباعة - وتبعهم أيمن ابن أم أيمن مولى رسول الله وأبو واقد رسول رسول الله، فجعل يسوق بالرواحل فأعنف بهم، فقال علي عليه السلام : إرفق بالنسوة أبا واقد! إنهنّ من الضعائف. قال : إني أخاف أن يدركنا الطلب! فقال علي عليه السلام : اربع عليك، فان رسول الله قال لي :

(١) أمالي الطوسي : ٤٦٩، ٤٧٠ وعنه في بحار الأنوار ١٩ : ٦٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢ : ٥٩.

يا عليّ إنهم لن يصلوا من الآن اليك بأمر تكرهه. ثم جعل علي عليه السلام يسوق بهن سوقاً رفيقاً وهو يقول :

وليس الا الله فارفع ضنكا يكفيك ربّ الناس مأهّمكا

فلما شارف ضجنان أدركه الطلب سبعة فوارس من قريش مستلثمين متلثمين، وثامنهم مولى الحارث بن أمية يدعى جناحاً. فأقبل علي عليّ بن أئمن وأبي واقد وقد تراءى القوم فقال لهما : أنيخا الابل واعقلاها. وتقدم حتى أنزل النسوة. ودنا القوم فاستقبلهم علي منتضياً سيفه، فأقبلوا عليه وقالوا : ظننت أنك يا غدار ناج بالنسوة ؟ ارجع لا أبأ لك ! قال : فان لم أفعل ؟ قالوا : لترجعن راغباً أو لترجعن باكثرك شعراً ! وأهون بك من هالك !

ودنا الفوارس من النسوة والمطايا ليثوروها، فحال علي عليه السلام بينهم وبينها، فأهوى له جناح بسيفه، فراغ علي عليه السلام عن ضربته، وتخلّله علي عليه السلام فضربه على عاتقه فأسرع السيف مضياً فيه حتى مسّ كاثبة فرسه. فكان علي عليه السلام يشد علي قدمه كشدّ الفارس علي فرسه، فشدّ عليهم بسيفه وهو يقول :

خلّوا سبيل المجاهد المجاهد آليت لا أعبد غير الواحد

فتصدّع القوم عنه وقالوا : احبس نفسك عنا يا ابن أبي طالب. قال : فاني منطلق الى ابن عمي رسول الله بيثرب، فمن سرّه أن أفري لحمه وأهريق دمه فليتبّعني أو فليدن مني. ثم أقبل علي صاحبيه : أئمن وأبي واقد فقال لهما : أطلقا مطاياكما.

ثم سار ظاهراً قاهراً حتى نزل ضجنان، فلبث بها قدر يومه وليلته، ولحق به نفر من المستضعفين من المؤمنين وفيهم أم أئمن مولاة رسول الله ﷺ. وبات هو تلك الليلة ومعه الفواطم : أمه فاطمة بنت أسد - رضي الله عنها - وفاطمة بنت رسول الله، وفاطمة بنت الزبير يصلون ويذكرون الله قياماً وقعوداً وعليّ جنوبهم، ولم يزالوا كذلك حتى طلع الفجر فصلّى بهم علي عليه السلام صلاة الفجر، ثم سار لوجهه يجوب منزلاً بعد منزل لا يفتر عن ذكر الله، وكذلك الفواطم وغيرهن

ممن صحبه حتى قدموا المدينة، وقد نزل الوحي قبل قدومهم بما كان من شأنهم (فتلاه عليهم): ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُم مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴿فَالذِّكْرُ عَلَىٰ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْإِنشَىٰ الْفَوَاطِمُ الْمُتَقَدِّمُ ذَكَرَهُنَّ، فَعَلِيَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْفَوَاطِمِ وَهَنَّ مِنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^(١) وقال له: يا علي، أنت أول هذه الأمة إيماناً بالله ورسوله، وأولهم هجرة إلى الله ورسوله وآخرهم عهداً برسوله، لا يحببك -والذي نفسي بيده- إلا مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان، ولا يبغضك إلا منافق أو كافر.

قال عبيد الله بن أبي رافع: وقال علي بن أبي طالب يذكر مبيته على الفراش ومقام رسول الله في الغار:

وقسيت بنفسي خسر من وطأ الحصى
ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
وبت أراعيهم متى يأسروني (أو ينشروني)
وقد وطئت نفسي على القتل والأسر

وبات رسول الله في الغار آمناً
هناك وفي حفظ الآله وفي ستر
أقام ثلاثاً ثم زمت قلائص
قلائص يفرين الحصا اينما يفرى^(١).

قال الطوسي في «المصباح» : في أول ليلة من شهر ربيع الأول كان مبيت أمير المؤمنين عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله اذ هاجر من مكة وكانت ليلة الخميس ، وفي ليلة الرابع منه كان خروجه من الغار متوجهاً الى المدينة^(٢).

وهو وان لم يستند في ذلك الى خبر خاص ولكنه لعله يستند فيما يستند اليه الى ما رواه الكليني في «روضة الكافي» بسنده عن علي بن الحسين عليه السلام قال : كان خروج رسول الله من مكة في أول يوم من ربيع الأول يوم الخميس من سنة ثلاث عشرة من المبعث ، وقدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول مع زوال الشمس فصلى الظهر ركعتين^(٣).

تم المجلد الأول من الكتاب بعون الملك الوهاب ضحى يوم الجمعة الثامن من شهر شوال المكرّم من شهور سنة ١٤١٠ هـ وهو يوم هدم قبور أئمة البقيع - عليهم الصلاة والسلام -.

(١) أمالي الطوسي : ٤٦٤ ح ٣٥ وعنه في حلية الأبرار ١ : ٩١ ، وبحار الأنوار ١٩ : ٦٦ ، ٦٧ . وأولهم هجرة ليس بمعنى العدد بل كقوله سبحانه : «وأنا أول المسلمين» أي من حيث النية والبصيرة والاقدام فهو مستعد تماماً لأن يكون الأول . ولعل قوله سبحانه «قاتلوا» كناية عن مقاومة علي عليه السلام للمشركين دفاعاً عن الفواطم ، وقوله سبحانه : «وقتلوا» كناية عن قتل استضعافاً كياسر وسمية .

(٢) مصباح التهجد : أول أعمال ربيع الأول .

(٣) روضة الكافي : ٢٨٠ وعنه في بحار الأنوار ١٩ : ١١٥ .

فهرس الكتاب

كلمة المجمع ٧

تقديم

كيف ينبغي أن ندرس تاريخ الإسلام

التأريخ قبل الإسلام ١٣

التأريخ بعد الإسلام ١٤

تدوين السيرة النبوية وتأريخ الإسلام ١٤

أصول السيرة النبوية وتطورها في القرنين الأول والثاني ١٥

كتابُ السيرة الأوائل ١٦

المؤرخون الأوائل ١٧

الأثر الباقي في السيرة ١٨

عمل ابن هشام في سيرة ابن إسحاق ١٩

مغازي الواقدي ٢٢

مكانة الواقدي في الرواية والعلم ٢٥

حول تشيع الواقدي وابن إسحاق ٢٧

نقد كتب السيرة ٣٠

الخلافا في كتب السيرة وبينها ٣١

شروط دراسة التأريخ ٣٥

طمس معالم الحق ٣٧

سحاب مركوم على الحق المظلوم ٤٠

بماذا نقوم النصوص ؟ ٥٢

٥٧	واستداركاً لما فات
٥٨	بحث الأسناد
٥٩	دراستنا نحن للتأريخ

الفصل الاول

البيئة العربية والظروف العالمية قبيل ظهور الإسلام

٦٣	الجاهلية في القرآن الكريم
٦٧	الجاهلية في نهج البلاغة
٦٨	معنى الجاهلية
٧٣	غيرة وحمية، أم حمية جاهلية
٧٤	بناء الكعبة المعظمة
٨٤	شبه الجزيرة العربية مهد الحضارة الإسلامية
٨٥	الكعبة المعظمة ومكة المكرمة
٨٦	المدينة المنورة
٩٠	العرب قبل الإسلام
٩٠	أ - العرب البائدة
٩١	ب - عاد قوم هود عليه السلام
٩٢	ج - ثمود قوم صالح عليه السلام
٩٧	أخلاق العرب قبل الإسلام
٩٨	هل كانت للعرب حضارة قبل الإسلام؟
١٠٢	الدين في جزيرة العرب
١١٣	أزلام العرب
١١٦	اليهود في يثرب والنصارى في نجران والشام
١١٩	من سنن الجاهلية في الابل والغنم
١٢١	حماس العرب قبل الاسلام
١٢٢	الخرافات عند العرب
١٢٧	المرأة في المجتمع الجاهلي

٦٨٩	فهرس الكتاب
١٢٨	مبدأ العرب، والعرب العاربة
١٣٣	العرب من ولد قحطان
١٣٤	ملوك اليمن
١٣٥	سيل العرم وتفرّق الأزد في البلدان
١٤٠	الحضارة في الامبراطوريتين الفارسية والرومية
١٤١	دولة الفرس حين ظهور الاسلام
١٤١	الحضارة الايرانية
١٤٣	اختصاص التعليم بالطبقة الممتازة
١٤٨	حروب ايران والروم
١٤٩	اضطراب الوضع الديني
١٥٠	الحضارة الرومية
١٥٢	ملوك الحيرة من اليمن
١٦٢	سائر ملوك الحيرة ومصيرها
١٦٣	غساسنة الشام
١٦٣	ملوك الشام من اليمن
١٦٧	ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام
١٧٣	يثرب بين اليهود والأوس والخزرج
١٧٨	أصحاب الاخدود
١٨١	أرباط أو أبرهة
١٨٢	أصحاب الفيل
١٨٩	دخول الفرس المجوس الى اليمن
١٩٦	أسواق العرب
١٩٩	أولاد معد بن عدنان
٢٠٨	حلف المطيبين وحلف اللعقة
٢١٠	رحلة الشتاء والصيف

٢١٣ حفر بئر زمزم

الفصل الثاني

كيف نشأ النبي ﷺ

٢١٩ آباء النبي ﷺ

٢١٩- إيمان عبد المطلب

٢٢٢ أبناء عبد المطلب والذبيح منهم

٢٢٥ الزواج الميمون

٢٢٥ تزويج عبد الله بآمنة

٢٢٩ الميلاد الميمون

٢٣٣ الوليد لدى جدّه وعمّه

٢٣٤- وفاة عبد الله بن عبد المطلب

٢٣٦ رضاع النبي ﷺ

٢٣٩ الرضاع الميمون

٢٣٩ رضاعه من حليلة السعدية

٢٤١ قصّة شقّ الصدر!

٢٤٩ وفود عبد المطلب على سيف بن ذي يزن

٢٥٤ الاستسقاء برسول الله ﷺ

٢٥٧ وفاة أم النبي ﷺ، وكفالة جدّه وعمّه له

٢٦٣ سفر النبي ﷺ الأوّل مع عمّه إلى الشام

٢٧١ كان الله يسلك بالنبي ﷺ طريق المكارم

٢٧٣ حرب الفجار

٢٧٧ ميلاد علي عليه السلام

٢٨٢ حلف الفضول

٢٨٨ رعي النبي ﷺ للغنم

٢٩٠ السفر الثاني للنبي ﷺ إلى الشام، وزواجه بخديجة

٢٩٢ الخاطب أبو طالب
٢٩٣ من تولّى تزويج خديجة؟!
٢٩٥ خديجة تعرض نفسها على النبي ﷺ
٢٩٧ هل كان النبي ﷺ أجيراً لخديجة أو مضارباً؟
٢٩٩ أوهام واهية
٣٠١ دوافع زواج النبي ﷺ
٣٠٢ عمر خديجة ومهرها
٣٠٥ هل كانت خديجة متزوجة؟
٣٠٧ أولاد خديجة من النبي ﷺ
٣١٣ تجديد بناء الكعبة ووضع الحجر
٣١٥ مولد فاطمة ؑ
٣٢١ عليّ عند النبي ﷺ

الفصل الثالث

البعثة النبوية المباركة

٣٢٧ كان النبي ﷺ منذ بدء أمره محدثاً مسدداً
٣٢٩ ثمّ كان نبياً مبشراً
٣٣٢ فعلى ماذا كان قبل البعثة؟
٣٤٢ ثمّ كان نبياً رسولاً
٣٤٥ يوم المبعث
٣٤٧ كيفية بدء البعثة
٣٤٨ أوّل ما نزل من القرآن
٣٥١ أخبار الصلاة
٣٦٠ فترة الوحي
٣٦٥ هل نزل القرآن في دور الكتمان؟
٣٧١ حديث الإنذار

الفصل الرابع

إعلان الدعوة

٣٩١	مرحلة الدعوة العلنية العامة.....
٤٠٤	خُطْبُ النبي ﷺ للدعوة العلنية.....
٤٠٧	من هم المقتسمون ؟
٤٠٩	ما نزل من القرآن قبل ﴿فاصدع...﴾
٤١١	ثالثة السور - «المزمل»
٤١٢	رابعة السور - «المدثر»
٤١٣	السورة الخامسة - «الفاتحة»
٤١٣	سادسة السور - «المسد»
٤١٦	السورة الثامنة - «الأعلى»
٤١٧	السورة العاشرة - «الضحى»
٤٢٠	السورة الثانية عشرة - «الشرح»
٤٢١	السورة الثالثة عشرة - «العصر»
٤٢١	السورة الرابعة عشرة - «العاديات»
٤٢٢	السورة الخامسة عشرة - «الكوثر»
٤٢٥	السورة السادسة عشرة - «التكاثر»
٤٢٦	السورة السابعة عشرة - «الماعون»
٤٢٦	السورة الثامنة عشرة - «الكافرون»
٤٢٨	السورتان العشرون والواحدة والعشرون - «المعوذتان»
٤٣٢	السورة الثانية والعشرون - «التوحيد»
٤٣٣	السورة الثالثة والعشرون - «النجم» ومعراج الرسول ﷺ

٦٩٣ فهرس الكتاب
٤٣٩ إسلام حمزة عم النبي ﷺ
٤٤٤ فرض الصلوات
٤٤٨ السورة الرابعة والعشرون - «عبس»
٤٥٠ السورة الخامسة والعشرون - «القدر»
٤٥٠ السورة التاسعة والعشرون - «قريش»
٤٥٠ السورة الثانية والثلاثون - «الهمزة»
٤٥١ السورة الثالثة والثلاثون - «المرسلات»
٤٥١ السورة الرابعة والثلاثون - «ق»
٤٥١ السورة الخامسة والثلاثون - «البلد»
٤٥٢ السورة السابعة والثلاثون - «القمر»
٤٥٣ السورة الثامنة والثلاثون - «ص»
٤٥٦ السورة التاسعة والثلاثون - «الأعراف»
٤٥٨ السورة الحادية والأربعون - «يس»
٤٦٠ السورة الثانية والأربعون - «الفرقان»
٤٦٣ السورة الرابعة والأربعون - «مريم»
٤٦٤ السورة السادسة والأربعون - «الواقعة»
٤٦٤ السورة السابعة والأربعون - «الشعراء»
٤٦٥ السورة التاسعة والأربعون - «القصص»
٤٦٦ إيمان أبي طالب
٤٧١ السورة الخمسون - «الإسراء»
٤٧٨ السورة الحادية والخمسون - «يونس»
٤٧٨ السورة الثانية والخمسون - «هود»
٤٨٠ السورة الرابعة والخمسون - «الحجر»

الفصل الخامس

الإسراء والمعراج

٤٨٥ تأريخ المعراج والاسراء
٤٩١ تأريخ يوم الدار
٤٩١ السورة الخامسة والخمسون - «الأنعام»
٥٠٢ السورة السابعة والخمسون - «لقمان»
٥٠٤ السورة الستون - «الزُمر»
٥٠٦ ظلم المشركين للمستضعفين من المسلمين

الفصل السادس

الهجرة إلى الحبشة

٥١١ كتاب النبي إلى النجاشي
٥٢٣ وفد قريش إلى النجاشي
٥٣٠ خروج الحبشة على النجاشي
٥٣٤ جوار أبي طالب، والوليد
٥٣٨ حديث شعب أبي طالب <small>عليه السلام</small>
٥٤١ إيمان أبي طالب <small>عليه السلام</small>
٥٤٥ السورة الحادية والستون - «السجدة (فصلت)»
٥٤٦ السورة الثالثة والستون - «الزخرف»
٥٥٠ السورة الرابعة والستون - «الدخان»
٥٥٠ السورة السادسة والستون - «الأحقاف»

٦٩٥ فهرس الكتاب
٥٥٤ السورة التاسعة والستون - «الكهف»
٥٥٦ السورة السبعون - «النحل»
٥٦٢ مقتل ياسر وسمية وتعذيب ابنهما عمّار
٥٦٦ أول لقاء الخزرج بالنبيّ في موسم العمرة
٥٧٠ هجرة أبي سلمة إلى المدينة
٥٧٢ صحيفة المقاطعة الظالمة
٥٨١ وفاة أبي طالب وخديجة

الفصل السابع

الهجرة إلى الطائف

٥٩١ النبيّ ﷺ يعرض نفسه على القبائل
٥٩٣ هجرته ﷺ إلى الطائف
٥٩٥ لجوء النبيّ ﷺ إلى حائط بني مخزوم
٥٩٧ مقدّمات الهجرة إلى المدينة
٦٠٠ السورة الثالثة والسبعون - «الأنبياء»
٦٠١ السورة التاسعة والسبعون - «المعارج»
٦٠٢ السورة الرابعة والثمانون - «الروم»
٦٢٤ السورة الخامسة والثمانون - «العنكبوت»

الفصل الثامن

بيعة العقبة وانتشار الإسلام في المدينة

٦٣٣ بيعة العقبة
-----	-------------------

- ٦٤٢ انتشار الاسلام في المدينة
- ٦٤٩ كانت الصلاة يومئذ الى بيت المقدس
- ٦٥١ كان العباس يحضر النبي ويتوثق له؟!
- ٦٥٤ قصة صنم عمرو بن الجموح

الفصل التاسع

هجرة المسلمين الى المدينة

- ٦٥٧ إذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة الى المدينة
- ٦٥٨ المهاجرون بعد أبي سلمة

الفصل العاشر

الهجرة النبوية المباركة

- ٦٦٥ شوري دار الندوة
- ٦٦٩ علي عليه السلام والمبيت في فراش النبي ﷺ
- ٦٧٠ كيفية هجرة النبي ﷺ الى المدينة
- ٦٧٩ منازل الطريق
- ٦٨٢ خروج علي عليه السلام بالفواطم

